قصة الفلسفة

قصة الفلسفة

الطبعة السادسة
١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م

يطلب من مكتبة المعارف ـ بيروت ص. ب. ١٧٦١

قصة الفلسفة

من افلاطون إلى جون ديوي

حياة وآراء اعاظم رجال الفلسفة
في العالم

تأليف

ول ديورانت

ترجمة
الدكتور
فتح الله محمد المشعشع

الكتاب الذي اعيد طبعه عدة مرات
وبيع منه فوق المليون وربع المليون نسخة

منشورات
مكتبة المعارف
بيروت

مكتبة المعارف
بيروت

الفصل الاول

١ ـ افلاطون

اذا نظرت الى خريطة اوروبا فانك تلاحظ ان بلاد اليونان تشبه اليد التي تمتد اصابعها الملتوية الى داخـــل البحر الابيض المتوسط . والتي تقع في جنوبها جزيرة كريت العظيمة التي استولت هذه الاصابـع المنقبضة منها في الالف سنة الثانية قبل المسيح ، على بداية المدنية والحضارة . والى الشرق عبر البحر الايجي تقع آسيا الصغرى التي يسودها الهدوء والجمود الان ، والتي كانت تخفق في الايام السابقة لأفلاطون بالصناعة والتجارة والفكر . والى الغرب عبر ايونيـــا تقع ايطاليا ، التي تقف كبرج مائل نحو البحر ، وصقلية واسبانيا ، التي نجحت كل منها في استعمار جزء من بلاد اليونان في تلك الايام . وفي النهاية تقع اعمدة هرقل (التي نسميها اليوم جبل طارق) تلك البوابة الكئيبة المعتمة التي لم يجرو الكثير من البحارة والملاحين على اجتيازها في تلك الايام . وفي الشمال تقع تلك البلاد التي كانت في تلك الايام لاتزال نصف بربرية وغير متحضرة والتي سميت بعد ذلك باسم مقدونيا . انظر مرة ثانية الى الخريطة وسترى تضاريس لا تعـــد من السواحل ، ومرتفعات من الاراضي ، حيث تجد الخلجان والبحر في كل مكان ، وتنقلب الاراضي الى جبال وهضاب . لقد فصلت هذه الحواجز الطبيعية من الارض والبحار بلاد اليونان وقسمتهـــا الى اجزاء منعزلة ، حيث كان السفر والمواصلات في تلك الايام اكثر صعوبة ، واشد خطورة منه في هذه الأيام .

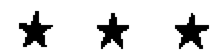
لذلك فقد تطور كل واد في بلاد اليونان الى اكتفاء اقتصادي ذاتي ، وكانت له حكومته المستقلة ، ونظمه واساليبه ودينه وحضارته . وفي كل حالة كانت تقوم مدينة او مدينتان تمتد حولها سفوح الجبال والاراضي الزراعية ، وعلى هذا النمط كانت مدن الولايات اليونانية التي تشمل اسبارطة واثينا وغيرها . انظر الى الخريطة للمرة الاخيرة ، ولاحظ موقع اثينا : انها ابعد مدينة شرقية من المدن اليونانية وكان موقعها حسناً حيث كانت الباب الذي يخرج منه اليونانيون الى مدن آسيا الصغرى المشغولة التي عن طريقها كانت ترسل تلك المدن الكبرى حضارتها وترفها الى بلاد اليونان اليافعة . وكانت اثينا ذات ميناء كبير تجد فيه الكثير من السفن مأوى لها من امواج البحر الهائجة . ولها اسطول بحري كبير . وبين عامي ٤٩٠ — ٤٧٠ قبل الميلاد تناست اثينا واسبارطة المنافسة والغيرة التي كانت بينهما ووحدت قواتها وجيوشها في محاربة الفرس تحت حكم داريوس الذي اراد تحويل اليونان الى مستعمرة لامبراطورية اسيوية . وفي هذا الكفاح والصراع بين اوروبا الفتية ، والشرق الهرم ، قدمت اسبارطة الجيش بينما قدمت اثينا الاسطول البحري الحربي . وعندما انتهت الحرب سرحت اسبارطة جيوشها ، وقاست من المشاكل الاقتصادية الناجمة عن هذه العمليات العسكرية وتسريح الجيوش بينما حولت اثينا اسطولها الحربي الى اسطول تجاري واصبحت احدى المدن التجارية العظيمة في العالم القديم . وعادت اسبارطة الى عزلة زراعية . بينما تحولت اثينا الى سوق كبيرة وميناء ومكان اجتماع للكثير من الرجال ، من مختلف الاجناس والعادات والمذاهب . وحملت خلافاتهم واتصالاتهم ومنافساتهم الى اثينا التحليل والفكر والمقارنة ، حيث تبارت التقاليد وتطاحنت العقائد في هذه المراكز ذات الاختلاط المختلف الكثير . عندما يقدم لنا الف عقيدة ، يساورنا الشك في جميع هذه العقائد ، او بعبارة اوضح فان كثرة المذاهب والعقائد وتضاربها يولد الشك فيها جميعاً . وربما كان التجار اول من اظهروا شكهم وريبتهم ، فقد رأوا الكثير في اسفارهم وتعذر عليهم الاعتقاد بهذا الكثير ، كما ان ميل التجار العام الى تقسيم جميع الناس الى حمقى او اوغاد ،

جعلهم يميلون الى استجواب كل عقيدة ومذهب . وبالتدريج فقد تطور هؤلاء التجار بالعلم ، فتطور الحساب بزيادة تعقيد التبادل التجاري، وتطور الفلك بزيادة مخاطرات الملاحة ، وقدمت الثروة المتزايدة والفراغ والراحة والامن وغيرها الأمور اللازمــة في البحث والتأمل والفكر . لم يسأل الآن النــاس النجوم والكواكب هديهم وارشادهم طريقهم عبر البحار فحسب، ولكنهم سألوها عن تقديم جواب عن الغاز الكون ايضاً ، وكان اول الفلاسفة اليونان فلكيين فخورين بما انجزوا ووصلوا اليه كما قال ارسطو . انــدفعوا الى ابعد الحدود بعد الحرب الفارسية ، واستقدموا جميع انواع المعرفة الى بلادهم ، وبحثوا اعظم الدراســات . وبلغت بهم الشجــاعة انهم حاولوا ايجاد تفسير للحوادث التي كانت تنسب في الازمنه الماضية الى قوى ما فوق الطبيعة الخارقة والمعجزات. وافسح السحر والخرافات والطقوس الدينية طريقاً للعلم وبدأت الفلسفة . لقد كانت هذه الفلسفة في البداية فلسفة طبيعية مادية ، ونظرت الى العالم المادي وتساءلت عن اصل الاشياء النهائي. وكانت النهاية الطبيعية لهذا النوع من الافكار هي مادية ديمقرطيس (٦٤٠ - ٣٦٠) قبل الميلاد) (لا يوجد اي شيء في الحقيقة سوى الذرات والفراغ) لقد كانت هذه احدى الاتجاهات الرئيسية للفكر والتأمل اليوناني . وبقيت مندثرة مدة من الوقت في ايام افلاطون . ولكنهــا ظهرت وبرزت في أبيقور (٣٤٢ - ٢٧٠ قبل الميلاد) وتحولت الى سيل عباب من الفصاحة في لوكريتس (٩٨ - ٥٥ قبل الميــلاد) ولكن التطور العظيم الخصيب في الفلسفة اليونانية اتخذ شكلاً له في السفسطائيــين ، معلمي الحكمة المتجولين والطوافين ، الذين وجهوا اهتمامهم الى طبيعتهم وافكارهم ، بدلاً من توجيهه الى عالم الاشياء . وكانوا جميعاً من اهل البراعة والحذق ، ونخص بالذكر منهم على سبيل المثال (جورجياس وهيبياس) وكان الكثيرون منهم على جانب كبير من الادراك والعمق مثل (بروتاجوراس وبروديقوس) ومن النادر ان تجد مشكلة او حلاً في فلسفتنا الحالية العقلية والمسلكية ، لم يتحققوا منه او يتناولوه بالبحث . لقد وجهوا اسئلة عن كل شيء ، ووقفوا بلا وجل امــام الحرمات

الدينية والسياسية ، وأخضعوا كل عقيدة ومذهب ونظام للعقل . اما في السياسة فقد انقسموا الى مدرستين ، قالت احداهما مثل روسو ، ان الطبيعة خير والمدنية شر ، وان جميع الناس متساوون بالطبيعة ، وان النظم الطبقية المصطنعة هي التي قضت على هذه المساواة بينهم ، وفرقتهم الى طبقات ، وان القانون هو من اختراع الاقوياء من الرجال ، ليقيدوا ويحكموا الضعفاء منهم . وادعت المدرسة الاخرى مثل نيتشه ، ان الطبيعة وراء الخير والشر ، وان الناس بالطبيعة غير متساوين ، وان الاخلاق من اختراع الضعفاء لتقييد وكبح الاقوياء ، وان القوة هي الفضيلة العليا ، والرغبة العليا التي يرغب بها الانسان ، وان الدولة الارستقراطية هي الافضل والاحكم ، والاكثر تناسباً طبيعياً من جميع انواع الحكومات . لا شك ان هذا الهجوم على الديمقراطية ، يعكس ظهور الاقلية الموسرة في اثينا التي اطلقت على نفسها اسم حزب الاوليجاركية (حزب الخاصة او القلة) والتي وصفت الديمقراطية بكونها ضعيفة وعاجزة وكاذبة ومصطنعة . لم يكن هناك ديمقراطية بالمعنى المفهوم لنبذها ومهاجمتها ، لأن عدد العبيد في اثينا بلغ (٥٠٠،٠٠٠) من اصل (٤٠٠،٠٠٠) من السكان وكانوا مجردين من الحقوق السياسية من اي نوع . ومن بين الاحرار البالغ عددهم (١٥٠،٠٠٠) لم يتمكن سوى عدد قليل منهم من تمثيل انفسهم في الجمعية العامة حيث كانت تبحث وتقرر سياسة الدولة . ومع ذلك فان هذه الديمقراطية التي كانت لديهم ، كانت ديمقراطية تامة ومتقنة ولامثيل لها . لقد كانت الاكسليزيا او الجمعية العامة المصدر الأعلى للسلطة ، والجهاز الرسمي الأعلى في الدولة . وكانت الديكاستيريا او المحكمة العليا تتألف من اكثر من الالف من الاعضاء . (لجعل الرشوة متعذرة وباهظة التكاليف) وكانت تختار حسب الحروف الابجدية من سجل جميع المواطنين . لا نجد نظاما اكثر ديمقراطية من هذا النظام الذي عرفته اثينا ، ولا اكثر سخافة وبطلاناً كما كان يقول معارضو هذا النظام عنه .

وفي اثناء عصر الحروب البلوبونيزية الطويلة التي امتدت من عام (٤٣٠ ـ

٤٠٤ قبل الميلاد) والتي حاربت فيها اسبارطة اثينا ،وهزمت اخيراً الاسطول الاثيني البحري . ايد الحزب الاوليجاركي بزعامة كريتياس اقصاء النظـــام الديمقراطي ، والتخلي عن الديمقراطية ، على اساس عجزها وفشلها في الحرب واطرى سراً على حكومة اسبارطة الارستقراطية (حكومة الاشراف او الذوات) وابعد الى المنفى الكثير منزعماء الحزب الاوليجاركي . ولكنعندما استسلمت اثينا نهائياً ، كان احد شروط الصلح الذي فرضته اسبارطة على اثينا هو اعادة هؤلاء الزعماء الارستقراطيين من منفاهم . وبمجرد عودتهماعلنوا بزعامة كريتياس ثورة الاغنياء علىالحزب الديمقراطي الذي كان يحكم اثيناأثناء نوائب الحرب . ولكن هذه الثورة اخفقت . وقتل كريتياس في ميدان المعركة والان فقد كان كريتياس تلميذاً لسقراط وعماً لأفلاطون .



٢ ـ سقراط

اذا جاز لنا ان نحكم من مشاهدة التمثال النصفي الذي وصل الينا من انقاض التماثيل القديمة ، فقد كان سقراط بعيداً عن الوسامة ، برأس اصلع ، ووجه كبير مستدير ، وعينين عميقتين ذات فراسة ، وانف كبير عريض زاهر ، لقد كان رأسه في الحقيقة اقرب الى رأس عتال ، منه الى رأس اعظم الفلاسفة شهرة . ولكننا لو نظرنا مرة ثانية ، فاننا نرى من خلال الحجر الخام الذي صنع منه هذا التمثال شيئاً من الدماثة واللطافة الانسانية والبساطة ، التي جعلت من هذا الفيلسوف والمفكر الوطني ، معلماً محبوباً من احسن شباب اثينا . اننا نعرف القليل عنه ، ومع ذلك فنحن نعرفه معرفة بالغة ، اكثر بكثير من افلاطون الارستقراطي وارسطو العالم .

ونستطيع ان نرى من وراء الفين وثلثمئة سنة هيئته الغليظة ، المكسوة دائماً بنفس الثوب المهلهل ، وهو يسير على مهله في الاماكن الطلقة ، غير مهتم بسخافة السياسة ، يمسك بتلابيب مناقشه وفريسته ، ويجمع الشباب والمتعلمين حوله ، ويستدرجهم الى احدي الزوايا المظلمة في اروقة المعبد ، ويسألهم ان يحددوا ويعرفوا كلامهم .

وكان هؤلاء الشبان يلتفون حوله في جماعات كثيرة ، ساعدته في خلق فلسفة اوروبية . وكان بينهم رجال اغنياء مثل افلاطون والسبيادس ، وكانوا يستمتعون بتحليله وهجومه وقدحه للنظام الديمقراطي في اثينا وكان من بين هؤلاء الشباب بعض الاشتراكيين مثل انتيثيناس الذي احب في سقراط عدم

اهتمامه بفقره : وواحد او اثنين من الفوضويين مثل اريستيبوس الذي تاقت نفسه الى عالم لا وجود فيه للاسياد او العبيد ، بحيث يكون سكان هذا العالم جميعهم احراراً بعيدين عن القلق مثل سقراط ، ان جميع المشاكل التي تثير المجتمع الانساني اليوم ، وتقدم مادة لنقاش الشباب الذي لاينتهي اثارت وهيجت ايضاً تلك الجماعة اليونانية الصغيرة من المفكرين والمحدثين ، الذين شعروا مع معلمهم ، ان الحياة بغير بحث وحديث ، ليست جديرة بان يعيش فيها الانسان. لقد مثلت تلك الحلقات جميع الاتجاهات الفكرية والاجتماعية ، وربما كانت هذه الاجتماعات اصل هذه الاتجاهات الفكرية الاجتماعية .

من الصعب ان يعرف احد كيف عاش سقراط . فهو لم يعمل في حياته قط، ولم يهتم بالغد ، وكان يأكل عندما يسأله تلاميذه ان يشرف موائدهم . وهذا يدل على انهم احبوا عشرته ومرافقته . ولكنه لم يكن يستقبل في بيته استقبالاً حسناً ولم يرحب به ، لأنه اهمل زوجته واولاده ، وكان كسولاً في نظر زوجته لايصلح لشئ ، لم يوفر لعائلته من الغذاء اكثر من الخبز . لقد احبت زوجته الحديث والحوار بكثرة مثله ، ويبدو انه كان يدور بينهما حوار اخفق افلاطون في تسجيله عنهما ، ومع ذلك فقد احبته هي ايضاً ، ولم تقو على رؤيته يموت عندما تجرع كأس السم ، مع انه تجاوز السبعين من عمره . ما هو السبب في تبجيل تلاميذه له بهذا الشكل ؟ قد يكون السبب انه كان رجلاً كما كان فيلسوفاً ، فقد عرض نفسه مرة للخطر وانقذ حياة السيبيادس في المعركة ، وكان يقدر على الشرب باعتدال كإنسان فاضل نبيل بغير وجل او افراط ، ولكن لاجدال في انهم احبوا فيه اكثر اعتداله في حكمته ، فهو لم يدع الحكمة ولكن البحث عنها بشغف واهتمام ، فقد كان هاوياً للحكمة لامحترفاً لها . لقد قيل ان صوت الرب قد اعلن ان سقراط احكم اهل اليونان ، وانه فسر هذا القول على انه استحسان للاأدرية التي كانت نقطة البداية لفلسفته . ولااعرف سوى شيء واحد وهو انني لااعرف شيئاً ، ان الفلسفة تبدأ عندما يبدأ الانسان يتعلم الشك ـ وخصوصاً الشك

في المعتقدات التي يحبها ، والعقائد والبديهيات او الحقائق المقررة التي يؤمن بها ويقدسها . من يعرف كيف اصبحت هذه المعتقدات العزيزة علينا حقائق يقينية بيننا ، وفيا اذا كانت لم تلدها خلسة رغبة سرية ، ملبسة الرغبة ثوب الفكرة؟ لا وجود للسياسة الحقة ما لم يتجه العقل الى فحص نفسة ، لقد قـــال سقراط اعرف نفسك .

لقد جاء فلاسفة قبله طبعاً : فلاسفة اقوياء مثل طاليس وهرقليطس ، وفلاسفة دهاة مثل بارمیندس وزينون ، وعرافون مثل فيثاغورس وامبادقليس ولكنهم كانوا في الدرجة الاولى فلاسفة طبيعيين . لقد بحثوا عن طبيعة الاشياء الخارجية ، عن قوانين واصول العالم المادي ، لقد قال سقراط عن هذه الفلسفه الطبيعية انها فلسفة حسنة ، ولكن هناك فلسفة اجدر بالفلاسفة ان يدرسوها اكثر من جميع هذه الاشجار والحجارة التي تملأ الطبيعة ، وحتى اهم من جميع هذه النجـــوم والكواكب ، وهي عقل الانسان . ما هو الانسان ، وإلى اي شيء سيتحول في المستقبل ؟

وهكذا فقد اتجه الى سبر غور الروح الانسانية . يستطلع الافتراضات ، ويستجوب اليقينيات . واذا تحدث الناس عن العدالة المتعارفة ، كان يسـألهم بهدوء ، ما هي هذه العدالة ؟ وماذا تعنون بهذه الكلمات المجردة التي تحلـون بها بمثل هذه السهولة مشاكل الحياة والموت ؟ وماذا تعنون بكلمـــة الشرف ، والفضيلة ، والاخلاق والوطنية ؟ وماذا تعني بنفسك؟ لقد احب سقراط ان يتناول بالبحث والسؤال مثل هذه الاسئلة الاخلاقية والنفسانية . لقد عانى البعض من طريقة سقراط في السؤال والبحث التي كانت تحتاج الى تعريف وتحديد محكم صحيح وتفكير واضح ، وتحليل حقيقي . وقد اعترض هذا البعض على طريقته هذه ، وقالوا له انه يسأل اكثر مما يجب ، ويترك عقول الرجال اكثر اضطراباً مما كانت عليه قبل المحاورة والنقاش او الحديث ، ومع ذلك فقد قدم الى الفلسفة جوابين ثابتين لسؤالين تناولا مشكلتين من اكثر مشاكلنا تعقيداً ، وهما ماهو معنى الفضيلة ؟ وما هي افضل دولة ؟ .

والواقع اننا لا نجد موضوعا كثر اهمية وحيوية ، بالنسبة الى الشباب في ذلك الجيل الأثيني من بحث هذين الموضوعين . لقد دمر السفسطائيون ايمان هؤلاء الشباب بآ لهتهم وآ لهاتهم ، وحطموا القانون الخلقي الذي كان يعززه خوفهم من عقاب هذه الآ لهة لو قاموا بارتكاب ما يخالف رضاها . واصبح من الواضح الان انه لا مانع من ان يسير الانسان على هواه ، ويفعل ما يطيب له ، ما دام يفعل ذلك في داخل حدود القانون . لقد اضعفت روح الفردية الخلق الأثيني ، وتركت المدينة اخيراً فريسة امام الاسبارطيين الاشداء بطبعهم . اما بالنسبة الى الدولة ، اي شيء اشد سخرية من هذه الديمقراطية التي تقودها وتتزعمها الجماهير التي تسوقها العاطفة . هذه الحكومة التي تقوم على النقاش الشعبي ، وهذا الاختيار المتهور المندفع ، وعزل القواد وتنفيذ الاعدام فيهم ، هذا الاختيار الذي – لا اختيار فيه – للبسطاء من المزارعين والتجار في تناوب وتعاقب ابجدي كأعضاء للمحكمة العليا للبلاد ؟ وكيف السبيل الى ايجاد قيم اخلاقية جديدة في اثينا . وكيف يمكن انقاذ الدولة ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة هي التي دفعت اثينا الى الحكم على سقراط بالموت، متهمة اياه بالفساد الخلقي ، لقد كان المواطنون الاثينيون الكبار في السن على استعداد لتشريفه لو حاول استعادة الدين القديم الذي يؤمن بتعدد الآلهة ، ولو انه دعا الشباب المتحرر من الخرافات والاساطير القديمة الى المعابد والحدائق المقدسة . وطلب منهم مرة ثانية تقديم الاضاحي لآ لهة آ بائهم . ولكنه اعتقد ان تلك سياسة انتحارية لا امل فيها وانها تقدم الى الوراء . لقد كان له ايمانه الخاص به ، لقد آمن بإله واحد ، وآمن باعتدال بان الموت سوف لايقضي عليه تماماً ، ادرك ان هناك شريعة اخلاقية ابدية لايمكن ان تقوم على دين ضعيف كالدين الذي آمنت به اثينا في ذلك الوقت . واذا كان الانسان يقدر على بناء نظام من الاخلاق مستقل تماماً عن المبادىء الدينية ، ويطبق على الملحد والقسيس على السواء ، عندئذ قد تأتي الديانة وتروح من غير ان تحل الاسمنت الاخلاقي الذي يجعل من الافراد مواطنين مسالمين في المجتمع . اذا كانت كلمة الخير على سبيل

المثال تعني عاقل والفضيلة تعني الحكمة ، واذا كان من الممكن تعليم الناس ان يروا بوضوح مصالحهم الحقيقية ، وليروا من بعيد النتائج البعيدة لأعمالهم ، وينقدوا، وينسقوا رغباتهم في انسجام بناء له اهداف ، فان هذا قد يقدم الى الرجل المتعلم والسفطائي القيم الاخلاقية التي تعتمد في الأمي الجاهل على الشريعة والسيطرة الخارجية . قد تكون جميع الخطايا اخطاء او تحيزاً في الرؤية وضعفاً أو حماقة او سخافة ؟ وقد يكون في الرجل الذكي العاقل نفس طابع العنف والبواعث والدوافع بطريقة افضل من الجاهل ، ويقل انحدارة عن الجاهل في تقليد الوحش ففي المجتمع الذي يقوم حكمه على العقل ، وهو المجتمع الذي يعيد الى الفرد في سلطات واسعة اكثر مما اخذ منه في حرية مقيدة تكن فـائدة كل شخص في سلوكه وولائه الى المجتمع . وبذلك فان الحاجة تقتضي بصيرة واضحـة لضمان السلم والنظام والنية الطيبة . ولكن اذا كانت الحكومة نفسها حكومة تسودها الفوضى والسخافة ، تحكم ولا تساعد ، وتأمر ولا تقود ، كيف تستطيع ان تقنع الفرد في مثل هذه الدولة على ان يطيع القوانين ، ويحصر بحثـه الذاتي داخل دائرة الخير العام ؟ ولا غرابة ان يتجه القبيادس ضد دولة لا تثق بالمقدرة والكفاءة والمواهب، وتقدر العدد اكثر من المعرفة ، ولا غرابة ان تعم الفوضى في البلاد التي يسودها الجهل ، حيث تقوم الجماهير بوضع القرارات في سرعـة وجهل ، أليس من الجهل ان يحل مجرد العدد محل الحكمة ؟ وعلى العكس الا نرى الناس مجتمعين في جماعات اكثر سخافة ، وعنفاً ، وقسوة منهم وهم منفصلين ومنفردين ؟

أليس من المخزي ان يقوم على حكم الشعب الخطباء الذين يضيعون وقتهم في خطبهم الطويلة كالأوعية النحاسية التي اذا دقت وقرعت تستمر في الدق والقرع الى ان نضع ايدينا عليها ونوقف دقها ؟

لاجدال في ان ادارة الدولة مسألة تحتاج الى افـكار اعظم العقول واحسنها، اذ كيف يمكن انقاذ مجتمع او جعله قوياً الا اذا تولى امر هذا المجتمع احكم رجاله واعقلهم ؟

تصوررد فعل الحزب الشعبي الديمقراطي في اثينا على هذا الانجيل الارستقراطي الذي كان يدعو له سقراط ، في وقت استدعت فيه ضرورة الحرب اسكات كل نقد ولوم لسياسة الحكومة . وعندما كان الاغنياء والمثقفون يعــدون الخطط للثورة . وتصور شعور انايتس الزعيم الديمقراطي الذي رأى ابنه يصبح تلميذاً لسقراط ويتحول عن عبادة آلهة والده ويسخر منه في وجهه . ألم يتنبـأ « ارسطو فان » بدقة بمثل هذه النتيجة في تبديل الفضائل القديمة بالذكاء والعقل.

وبعدئذ اشتعلت الثورة ، وحارب الرجال لها وعليها ، بمرارة حتى الموت ، وعندما فازت الديمقراطية تقرر مصير سقراط واصبح واضحاً ، فقد كان الزعيم العقلي للحزب الثائر ، مهما كان مسالماً هو نفسه ، فقد كان مصدر الفلسفــة الارستقراطية البغيضة ومفسد الشباب الذين اسكرهم النقـاش ، ورأى انايتس ومليتس زعماء الديمقراطية ، ان من الأفضل ان يموت سقراط .

وبقية القصة يعرفها جميع العالم ، لأن افلاطون سجلها في نثر اشد روعة من الشعر . ومن الأفضل ان نقرأ لأنفسنا ذلك « الاعتذار » او الدفاع البسيط الذي اعلن فيه اول شهيد للفلسفة حقوق الانسان ، وضرورة حرية الافكار ، ورفض ان يطلب الرحمة من الجماهير التي احتقرها دائماً . لقد كانت لديها السلطة لتعفو عنه ، ولكنه رفض باحتقار ان يناشدها الرحمة . لقد اراد القضاة اطلاق سراحه بينما صوتت الجماهير الغاضبة مطالبة اعدامه ، ألم ينكر وجود الالهة ؟ ويل له لأنه علم الناس فوق طاقتهم على التعلم وهكذا حكموا عليه بشرب السم . وجاء اصدقاؤه الى سجنه وعرضوا عليه مهرباً سهلاً ، فقد رشوا الموظفين الذين يقفون بينه وبين الحرية والفرار ، ولكنه رفض فقد بلغ السبعين من عمره (٣٩٩ قبل الميلاد(وربما اعتقد ان الوقت قد حان ليفارق الحياة ، وانه قد لايموت ابداً بمثل هذه الطريقة المفيدة لتدعيم مبادئه . لقد قال لأصدقائه الحزينين افرحوا وقولوا انكم توارون في التراب جسدي فقط ، وعندما نطق هــذه الكلمات قال افلاطون في فقرات تعد من اعظم فقرات الأدب في العالم .

نهض سقراط ودخل غرفة الحمّام مع كريتو الذي طلب منا ان ننتظر وانتظرنا نفكر ونتحدث ... في حزننا الكبير . فقد كان لنا بمثابة الأب الذي سنفقده بعد قليل ونعيش بقية حياتنا يتامى ... لقد اقتربت ساعة غروب الشمس اذ مر وقت طويل ونحن في الداخل . وعندما خرج علينا جلس معنا مرة ثانية ... ولكننا لم نتحدث سوى القليل ، ودخل السجان ... ووقف بجانبه قائلا أليك يا سقراط يا أنبل وألطف وأفضل من جاءوا الى هذا المكان ، سوف لا أتهم او استذنب شعور الرجال الاخرين الذين يثورون ويغضبون ويسبون ويشتمون عندما اقدم لهم السم واطلب منهم ان يشربوه اطاعة لأوامر السلطة . وانا على يقين بانك سوف لاتغضب مني لأنني لست المــــذنب كما تعرف والجرم يقع على الاخرين ، وهكذا استودعك وارجو ان تتحمل ما تستدعيه الحـــاجة ، انت تعرف مأموريتي ، وبعدئذ انفجرت دموعه وخرج . لقد نظر سقراط له وقال « اقابل تحياتك الطيبة وسأفعل ما طلبت »وبعدئذ اتجه لنا وقال يا له من رجل ساحر لطيف ، منذ ان جئت الى هذا السجن وهو يحضر دائماً لرؤيتي ...والان تشاهدون كبير حزنه عليّ . ولكن يجب ان نفعل بما يقول . دعهم يحضرون السم يا كريتو اذا كان معداً ، او دع الخادم يعمل على اعداده . فيما بعد قـــال كريتو ان الشمس لاتزال فوق أعلى الهضاب والكثيرون تناولوا جرعة السم في وقت متأخر ، وبعد ان اعلنوا بحكم الاعدام اخذوا يأكلون ويشربون وينهمكون في مباهج شهوانية ، لذلك لاتتسرع اذ لازال هناك وقت . وقـــال سقراط ، نعم يا كريتو اولئك الذين تتحدث عنهم على حق في فعل ما فعلوه لأنهم كانوا يعتقدون باستفادتهم من التأخير في الشرب . ولكني مصيب في التسرع وعدم التأخير واعتقد ان تأخري في شرب السم لن يجدني نفعاً ، لأنني بذلك اكون قد وفرت حياة قد انتهت ، ولا يمكنني سوى الضحك على نفسي بذلك .لذلك ارجوك ان تفعل كما اقول ولا ترفض قولي . وعندما سمع كريتو هذا اشار الى الخادم الذي ذهب وغاب بعض الوقت وعاد بعدئذ مع السجان يحمل كأس السم .

وقال سقراط « انت يا صديقي السجان المجرب في هذه الامور هل تدلني كيف أفعل وكيف أتقدم في شرب السم » . وأجاب الرجل عليك ان تمشي فقط الى ان تشعر بثقل قدميك فتستلقي وبهذا يسري السم في جسدك وفي الوقت ذاته قدم الكأس الى سقراط الذي اخذه باسهل والطف طريقة ، وبدون وجل او تغير في لونه او قسمات وجهه ناظراً الى الرجل بملء عينيه كعادته دائماً وقال « ما رأيك لو تقربنا بهذا الكأس لأحد الآلهة ؟ هل افعل ذلك او لا أفعل ؟» وأجاب الرجل » نحن نعد يا سقراط فقط ما نعتقد انه الكفاية « وقال سقراط « افهم ومع ذلك يجب ان اصلي الى الالهة لتسهل رحلتي من هذا العالم الى العالم الاخر ، لذلك هل من الممكن ان تمنح لي صلاتي » ورفع الكأس الى شفتيه في هدوء تام وابتهاج .

لقد تمالك معظمنا شعوره حتى ذلك الوقت ، ولكن عندما شاهدناه يشرب ورأيناه ايضاً ينتهي من شربه لم نعد نقدر على تمالك شعورنا واحتمالنا ،وانهمرت دموعي على الرغم مني فغطيت وجهي وبكيت على نفسي لمجرد تفكيري في مصيبتي لفقدي مثل هذا الصديق . ولم اكن انا الأول في البكاء ، لأن كريتو الذي وجد نفسه عاجزاً عن ضبط مشاعره وكبت دموعه نهض وابتعد وتبعته. وفي تلك البرهة أرسل ابولودوروس الذي كان مستغرقاً في البكاء طيلة الوقت صرخة عالية اظهرتنا جميعاً بمظهر الجبن . لقد احتفظ سقراط وحده بهدوئه وقال « ما هذا الصراخ والصخب ؟ لقد ابعدت النساء عن هنا كيلا اشعر بالاهانة في مثل هذه الطريقة ، فقد سمعت بوجوب ترك الرجل يموت في سلام . إهدأوا واصبروا » . وعندما سمعنا ذلك خجلنا من انفسنا وكبحنا دموعنا ، واستمر سقراط في المشي هنا وهناك الى ان بدأت ساقاه كما قال السجان تخونه ولاتقوى على حمله فاستلقى على ظهره . وكان الرجل الذي قدم له السم ينظر الى ساقيه وقدميه ، وبعد فترة جس قدميه بشدة وسأله فيما اذا كان يشعر ، واجاب سقراط بالنفي ، فجس ساقه واستمر يضغط على جسمه اعلى فأعلى وقال لنا

انه اصبح بارداً وجامداً ، وشعر سقراط بذلك وقال « ستكون النهاية عندما يصل السم الى القلب » وبدأ البرود يصل الى فخذيه فكشف وجهه (لأنه كان قد غطى نفسه) وقال وكانت كلماته الأخيرة « ياكريتو انا مدين بديك إلى اسكيبيوس ارجوك ان لاتنس دفع هذا الدين ؟ » وقال كريتو « سأدفع الدين هل هناك شيء آخر » ولم يسمع جوابا لهذا السؤال وبعد دقيقة او اثنتين سمعنا حركة وقام الخادم بتغطيته وقام كريتو باغلاق عينيه وفمه .

هكذا كانت نهاية صديقنا الذي اسميه بحق ، احكم واعدل وافضل جميع الرجال الذين عرفتهم في حياتي .

٣ ـــ تهيئة افلاطون

لقد كان اجتماع افلاطون بسقراط نقطة تحول في حياته ، فقد نشأ افلاطون في جو وثير مريح وربما في جو من الثروة . وكان شاباً وسيماً وعنيفاً ، وسمي افلاطون على ما يقال بسبب عرض كتفيه ، وكان جندياً فائقاً وبارزاً ، ونال الجائزة مرتين في الألعاب . لم تجر العادة ان ينشأ الفلاسفة في مثل هذه السن من المراهقة ، ولكن روح افلاطون الداهية وجدت بهجة جديدة في لعبة سقراط المنطقية الجدلية ، ووجدت لذة لرؤية السيد سقراط يدحض البراهين والاعتقادات ويخترق الفرضيات بأسئلته الحادة . ودخل افلاطون الى هذه الرياضة التي كانت أشد خشونة من المصارعة . وراح تحت رعاية سقراط وارشاده ينتقل من مجرد النقاش الى تحليلات دقيقه ومحادثات مثمرة ، واصبح مشغوفاً بالحكمة وبمعلمه سقراط ، واعتاد ان يقول اشكر الله الذي خلقني يونانياً لا بربرياً حراً لا عبداً رجلاً لا امرأة ولكن فوق الجميع انني ولدت في عصر سقراط .

لقد كان في الثامنة العشرين عند موت سقراط ، وترك هذا المصير المحزن أثراً على كل تفكير التلميذ ، وملأه احتقاراً للديمقراطيه وكراهية للجماهير والجموع التي ولدتها في نفسه نشأته الارستقراطية ، وساقه الى قرار يستدعي ضرورة القضاء على الديمقراطيه واستبدالها بحكم الأعقل والأفضل من الرجال . وقد أمضى حياته وعمره باحثاً عن وسيلة تهديه الى اكتشاف أعقل الرجال وأفضلهم واقناعهم وتمكينهم من الحكم .

وفي الوقت ذاته فان جهوده في محاولة انقاذ حياة سقراط اثارت الريبة والشك حوله من جانب الزعماء الديمقراطيين ، وحثه اصدقاؤه على مغادرة اثينا التي اصبحت اقامته فيها محفوفة بالأخطار ، ولم تعد مكان امن له . وكانت هذه فرصة مناسبة له تمكنه من مشاهدة العالم ، وهكذا سافر في عام (٤٩٩ قبل الميلاد) والواقع اننا لا نستطيع ان نقول اين ذهب في رحلته ، هذه على وجه التحديد ، وهناك خلاف بين العلماء حول كل مرحلة من رحلته ، ويبدو انه قد سافر اولاً الى مصر وتأثر عندما سمع من طبقة الكهنة التي كانت تحكم مصر يومئذ ان اليونان دولة وضيعه تنقصها التقاليد الثابتة والحضارة العميقة ، وكان فلاسفة النيل في ذلك العهد لا يعيرون اليونان اهمية بالغة او اهتماماً جديداً . ولكن لا شيء يعلم الانسان اكثر من الصدمات واهتزاز المشاعر . ان ذكريات هذه الفئة المثقفة المستنيرة التي كانت تحكم شعباً زراعياً ساكناً بقيت حية في تفكير افلاطون ، ولعبت دوراً في كتابته عن الدولة الفاضلة المثالية . ثم ابحر الى صقليه وايطاليا ، وهناك التحق لفترة من الزمن في المدرسة او المذهب الذي انشأه فيثاغورس ، ومرة ثانية تأثر عقله بذكرى جماعه صغيرة من الرجال انصرفت للعلم والحكم ، تعيش عيشه بسيطة على الرغم من ان سلطة الحكم كانت في يدها . لقد تجول اثنتي عشرة سنة مرتشفاً الحكمة من كل نبع ومنهل ، وجالساً في كل كعبة ومزار ، متذوقاً كل شريعة وقانون . وقد ذكر البعض انه ذهب الى فلسطين وانعجن فترة من الوقت في طينة الأنبياء الذين كان معظمهم من الاشتراكيين ، وإنه شق طريقه الى ضفاف الغانج وتعلم التفكير والتأمل من الهندوس . ولكننا لا نعرف .

وعاد الى اثينا في عام (٣٨٧ قبل الميلاد) . انه الآن رجل في الأربعين من عمره ، وقد اكتملت رجولته ونضجه باختلاطه بشعوب مختلفة ، وامتصاصه الحكمه من اقطار كثيرة ، لقد فقد القليل من حماسة الشباب الحارة ، ولكنه اكتسب افكاراً ومشاهدات تعتبر كل تطرف واندفاع نصفا للحقيقة فقط . لقد اكتسب معرفة وفنا ، ولأول مرة يعيش الفيلسوف والشاعر معاً في شخص

افلاطون وروحه ، وابتدع لنفسه وسيلة في التعبير وجد الجمال والحقيقة فيها مكاناً لهما ، ومسرحاً لتوجيه الحوار . لم تلبس الفلسفة على ما نعتقد اطلاقاً مثل هذا الثوب الجميل اللامع الذي بدا في اسلوب افلاطون قبله او بعـــده ، وعلى الرغم من الترجمة نجد هذا الاسلوب يشرق ويتـلألأ ويسطع ويقفز ويتدفق. لقد قال شيلي احد المعجبين والمحبين لأفلاطون ، انه يعرض الاتحاد النادر بين العبارة والمنطق ، بحماسة الشعر مذوبة ببهاء وجلال عصره وتناسق وانسجام زمنه ، ويحيلها الى جدول رقراق من النغمات والتعابير الموسيقية التي تندفـــع قواها المقنعة بلا توقف ، ولم يكن عبثاً ان بدأ الفيلسوف الصغير حياتــه كاتباً مسرحياً .

ان الصعوبة في فهم افلاطون تكمن في هذا المزيج المسكر بين الفلسفة والشعر والعلم والفن ، حيث لا نستطيع ان نذكر في اي نوع من الحوار يتحدث الكاتب او في اي شكل ، وهل هو حرفي ام مجازي ، وهل هو مازح ام جاد . ان حبه للمداعبة والتهكم والخرافة والاسطورة يتركنا في حيرة احياناً ، ونستطيع ان نقول عنه انه لا يقوم بالتدريس الا مستعيناً بالأمثال والحكايات « هل يجب ان اتحدث معكم كشخص كبير في السن وكرجال في سن الشباب مستعيناً بالمثـــل او الحكاية » .

هذه المحاورات التي وصلتنا كتبها افلاطون للمطالعة العامة في ايامه ، وبفضل اسلوبها في التحدث وصراعها الحيوي في ما لها وما عليها ، وتطورها التدريجي ، وتكرارها المستمر لكل جدال هام ، نعتقد انها وضعت واعدت بشكل قاطع لتتناسب مع فهم الرجل الذي يتذوق الفلسفة في مناسبات تتوفر فيها الراحة ، لذلك ينبغي ان نعد انفسنا لما في هذه المحاورات من الجـــاز والمداعبة ، والكثير من الامور الغامضة الملتبسة ، التي لا يدركها سوى طلاب العلم والاجتماع والادب في عصر افلاطون ، والكثير من الامور التي تبدو اليوم غير ملائمة او خيالية ، ولكنها يمكن تذوقها بنفس الطعم والمذاق لطبق زاخر من الافكار ، روعي في وضعه كونه مهضوماً بالنسبه الى عقول لم تعتد على تذوق طعام الفلسفة .

دعنا نعترف ايضاً ان افلاطون تتوفر فيه بكثرة الصفات التي ينتقدهـــا ويقرعها . فهو ينتقد ويهاجم الشعراء وأساليبهم الخرافية الوهمية ، ولكنه هو نفسه شاعر وبذلك يضيف شاعراً الى الشعراء، ومئات من الاساطير والخرافات. انه يشكو من الكهنة ورجـــال الدين (الذين يواصلون التخويف من جهنم ويقدمون طريقة الخلاص والفداء من الخطايا والذنوب) كما جاء في كتابة الجمهورية صفحه (٣٦٤) ومع ذلك فقد كان كاهناً وواعظاً واخلاقيا مثاليـا . وهو يعترف مثل شكسبير بأن المقارنة ليست سوى مراوغة ، ولكنه يراوغ من واحدة لأخرى وأخرى ، وأخرى . انه يقرع السفسطائيين ويتهمهم بالمنافسة في تجارة الكلام والعبارات ، وهو نفسه لا يرتفع عن تفتيت المنطق وتحويـــله « ان الكل أعظم من الجزء » بالتأكيد والجزء أقل من الكل ؟ نعم ... لذلك يتضح وجوب حكم الفلاسفة الدولة .

ولكن هذا هو أسوأ ما يمكن أن نقوله في أفلاطون ، وبعد ذلك نقول ان المحاورات الأفلاطونية ستبقى إحدى الكنوز الثمينة في العـــالم وافضلهـا كتاب الجمهورية ، وهو كتاب تام في حد ذاته ، حيث نجد في هذا الكتاب المجاز الأفلاطوني وعلمه اللاهوتي ، وفلسفته الأخلاقية الادبيـة والنفسانية ، وفنه التعليمي وسياسته ، ونظريته في الفن، هنا في كتاب الجمهورية نجد المشاكل التي تواجه العالم اليوم،من الشيوعية الى الاشتراكية ومبدأ مساواة المرأة بالرجل في الحقوق ، وتقييد النسل ، وعلم تحسين النسل والمشاكل التي أثارها نيتشه الفيلسوف الالماني حول علم الاخلاق والحكومة الارستقراطية . والمشاكل التي بحثها روسو الفيلسوف الفرنسي حول العودة في حياتنا الى الطبيعة وحرية التعليم. هنا نجد فلسفة برجسون وفرويد ، كل شيء موجود في هذا الكتاب، انه وليمة للصفوة والقلة يقدمه مضيف كريم سخي . قال (امرسون) ان أفلاطون هو الفلسفة والفلسفة أفلاطون وأنعم على كتاب الجمهورية بكلمات عمر بن الخطاب عن القرآن عندما قال أحرقوا المكتبات لان قيمتها موجودة في هذا الكتاب .!

والآن دعنا ندرس جمهورية أفلاطون .

٤ ـــ المشكلة الأخلاقية

يدور هذا الحديث في بيت سيفالوس ، وهو ارستقراطي موسر ، واشترك في الجماعة التي حضرت هذا الحديث جلاكون وادمانتوس شقيقا أفلاطون وثراسيماخوس وهو سفسطاني مثير وشرس، وسقراط الذي يتحدث بلسان افلاطون في هـــذا الحوار ، وهو يسأل سيفالوس ، ما هي اعظم البركات والخيرات التي جنيتها من الثروة والمال ؟

ويجيب سيفالوس ان الثروة نعمة له، لأنها مكنته من ان يكون سخياً وكريماً وعادلاً . ويسأله سقراط بطريقته الماكرة ، ماذا يقصد بكلمة العدالة ، وهنـا يطلق سراح كلاب الحرب الفلسفية ، اذ لا شيء أصعب من التعريف ، ولا شيء أشد في فحص الصفاء العقلي من محاولة تعريف الاشياء وتحديد المقصود منها . ان سقراط يجد في هذا طريقة سهلة لتدمير التعاريف التي تقدم له الواحد تلو الآخر . لقد اثارت طريقة سقراط ودحضه لكل تعريف يقدم له ثراسيماخوس الذي كان اقل صبراً من الحاضرين فانفجر صارخاً وقال :

ما هذه السخافة يا سقراط ؟ وما بالكم جميعاً تسقطون امامه الواحد تلو الآخر بهذه الطريقة الماكرة ؟ لأني أقول أنك اذا كنت تريد ان تعرف ما هي العدالة يجب عليك ان تجيب لا أن تسأل ، ولا تفخر لأنـــك تدحض ما يقوله الآخرون ... لأن الكثير من الناس يقدرون على السؤال ولكنهم لا يقوون على الإجابة .

ولم يرهب هذا التحدي سقراط أو يخيفه ، واستمر في القاء الأسئلة بدلاً من الاجابة .. وبعد مدة من المراوغة والدفع اخذ يثير ثراسيماخوس ويدفعه الى الزام نفسه بتعريف . أصغوا اذاً ، يقول السفسطائي بغضب ، انني أعلن ان القوة هي الحق ، وان العدالة هي مصلحة الاقوى ... ان الحكومات المختلفة تسن القوانين سواء أكانت حكومات ديمقراطية او ارستقراطية او اتوقراطية.

كل هذه الحكومات تقوم بسن القوانين وفقاً لمصالحها ، وتستخدم هذه القوانين التي وضعتها بنفسها لتخدم مصالحها ، ان هذه الحكومات تقدم لشعوبها ما نسميه بالعدالة مثلاً وتعاقب كل فرد يتجاوز حدود هذه العدالة او ينتهك حرمتها ... انني اتكلم عن العدالة على نطاق واسع ، وهذا المعنى الذي اقصده سيظهر اكثر وضوحاً في الحكومة الأتوقراطية التي تستولي بالغش والخداع والقوة على املاك الاخرين بالجملة وليس بالتدريج ، والان بعد ان يغتصب الرجل اموال المواطنين ويحيلهم الى عبيد ، عندئذ بدلاً من ان نسميه لصاً ومختلساً ونصاباً نسميه سعيداً ويباركه الجميع ولا يجرؤ أحد على لومه أو انتقاده على المظالم التي أوقعها بهم بسبب الخوف من بطشه ..

هذا هو الميثاق الذي ينسب اليوم قليلاً او كثيراً الى نيتشه الفيلسوف الالماني ، عندما يقول: حقاً انني اسخر كثيراً من الضعفاء الذين يفكرون انفسهم صالحين ، لانهم ليس لديهم مخالب لينشبوها ، لقد عبر شتيرنر عن هذه الفكرة باختصار عندما قال ، حفنة من القوة خير من كيس من الحق ، ربما يكون هذا المبدأ خير من وضعه افلاطون نفسه في تاريخ الفلسفة في حوار آخر ، « جورجياس » حيث ينبذ السفسطائي كاليكلس الاخلاق ويستنكرها على اساس كونها بدعه من اختراع الضعفاء لتقييد قوة الاقوياء .

انهم يوزعون المديح واللوم بالنسبة الى مصالحهم ، ويقولون ان عدم الامانة عار والخيانة فضيحة والقوة ظلم ، ويقصدون بعدم الامانة الرغبة في الحصول

على اكثر من سيرانهم ، لأنهم يعرفون ضعفهم وعجزهم ويفرحون بالحصول على المساواة والدعوة لها . .

ولكن اذا قام رجل قوي لديه القوة الكافية (وهنا يدخل السوبرمان الذي نادى به نيتشه) واستطاع ان يهز هذه القيود والسلاسل الاخلاقيـــة ويحطمها ويخرج منها ، فانه سيقوض تحت أقدامه جميع قوانيننـــا وسحرنا ودساتيرنا وشرائعنا وتعاويذنا وخرافاتنا التي تتنافى مع طبيعة الكون والحياة . ان من يريد الحياة حقاً يجب ان يسمح لرغباته في الانطلاق الى اوسع مـــدى ، ولكن عند بلوغ هذه الرغبات مداها الاقصى ينبغي ان تتوفر لديه الشجاعة والذكاء في توجيهها واشباعها ، واؤكد ان هذا هو النبل والعدالة الطبيعيـة ، ولكن الكثيرين من الناس لا يقدرون على فعل ذلك، لذلك فهم يلومون مثـل هؤلاء الاشخاص الأقوياء ، والسبب هو عجزهم وضعفهم الذي يريدون التستر عليه ومواراته . وبذلك يسمون الافراط سفـــالة ودناءة . انهم يستعبدون الطبائع النبيلة ، ويمدحون العدالة ، لأنهم جبناء ضعفاء .

ان مثل هذه العدالة ليست للرجال ولكنها لاقزام الرجال ، انها اخـــلاق العبيد وليست اخلاق الابطال، ان فضيلة الرجل الحقيقية هي الشجاعة والذكاء.

ربما تكون هذه اللا اخلاقية نتيجة لتطور الاستعمار في سياسة اثينـــا الخارجية ، ومعاملتها القاسية الشديدة للدول الاضعف منها . ان امبراطوريتكم قال باركليز ، تقوم على قوتكم لا على نية رعاياكم الطيبـــة . ويذكر المؤرخ ثوسيديدس الذي روى خطبة باركليز ان مبعوثي اثينا اجبروا جزيرة ميلوس على الانضمام الى الاثينيين في الحرب ضد اسبارطة قائلين ، انكم تعرفون كما نعرف ان الحق ليس سوى مسألة بين دول متساوية في القوة ، والقوي يفعل ما يقدر على فعله ، والضعيف يقاسي ويعاني لضعفه . لدينا هنا جوهر المشكلة الاخلاقية ولب نظرية السلوك الادبي والخلقي ، ما هي العدالة ؟ هل هي التقوى ، ام هي

القوة ؟ وهل من الافضل ان تكون صالحاً وطيباً ام الافضــــل ان تكون قوياً وشجاعاً ؟

كيف يواجه سقراط الذي يتحدث افلاطون بلسانه هذا التحدي الناجم عن هذه النظرية في العدالة والاخلاق . انه لم يواجهها في باديء الامر بتاتاً ، واشار الى ان العدالة عبارة عن علاقة بين الافراد تعتمد على التنظيم الاجتماعي ، وهذا بالتالي يمكن دراسته بطريقة افضل في جزء من بناء المجتمع احسن من دراسته كصفة في سلوك الفرد ، ويقول اننا اذا استطعنا ان نصف دولة عادلة يتوفر فيها العدل فاننا نكون في موقف افضل لوصف الفرد العادل ، ويعتذر افلاطون لهذا الانحراف بقوله اننا في فحص قوة نظر الانسان نجعله يقرأ حروفاً كبيرة ثم نطلب منه قراءة الحروف الصغيرة ، ويقول ان من الاسهل تحليل العدالة على نطاق واسع اي في الدولة كمجموعة من تحليلها في سلوك الفرد على نطاق ضيق ولكن يجب ان لا ننخدع .

لان افلاطون في الواقع يصل كتابين بعضهما ببعض ، ويستخدم النقـاش والحوار كصلة وذريعة لانه لا يريد التحدث عن الاخـلاق الشخصية فحسب ولكن ايضاً عن مشاكل إعادة البناء الاجتماعي والسياسي . فهو لديـه دولة مثالية تحت ا كامه ، وصمم على تقديمها وانتاجها ، ومن السهل ان نغفر له ونسامحه في هذا التباعد بسبب قيمة كتابه .

٥ — المشكلة السياسية

يقول افلاطون ان العدالة كانت ستكون مسألة بسيطة، لو كان الناس بسطاء، ولكانت الفوضوية الشيوعية تكفي في مثل هذه الحال، وهو يصف فيما يلي تصوره للحكومة التي يريد ان يقدمها فيقول :

دعنا نتأمل اولاً كيف تكون حياة الناس في هذه الدولة... انهم سينتجون قمحاً وخمراً، وملابس وأحذية، ويبنون بيوتاً ومنازل لأنفسهم ؟ وعندما تصبح لهم بيوت يشتغلون في الصيف في صفوف مشتركة واقدام عارية، وفي الشتاء لابسين ومنتعلين، ويعيشون على القمح والشعير، خابزين القمح وعاجنين الدقيق، وصانعين الفطائر وأرغفة الخبز التي يقدمونها على حصيرة من القصب واوراق الشجر النظيفة، متكئين على سرر من السدر او غصون الريحان، ويأكلون ويتمتعون هم وأولادهم، ويشربون الخمر التي صنعوها بأيديهم، تغطي رؤوسهم اكاليل الزهور، ولا تفتر شفاههم عن حمد الآلهة وشكرها، يعيشون في مجتمع جميل، ويحرصون ان لا تجاوز اسرهم او عائلاتهم الوسائل المعدة لها، لأنهم يحتاطون للفقر والحرب .. وبالطبع سيستوردون بهاراً وملحاً، وزيتوناً وجبناً، وبصلا وملفوفاً وخضاراً وعشباً، من بلاد اخرى تناسب الطبخ والغلي . ونقدم لهم حلوى من التين والقطاني والفاصولياء وحب الآس والجوز التي يشوونها على النار، ويشربون في اعتدال . وبمثل هذه الوجبة يتوقعون ان يعيشوا في سلام ويبلغوا كهولة طيبة، ويقدموا حياة مماثلة لاطفالهم من بعدهم . لاحظ هنا الاشارة الى تحديد عدد السكان والحياة النباتية والعودة الى الطبيعة .

الى بساطة الحياة البدائية التي تصورها الاساطير العبرانية . وهي جميعها تشبه ما قـاله ديوجين الذي اعتقد بوجوب عودتنا لنعيش مع الحيوانات المسالمة الاليفة . وبهذا فاننا نريد ان نضع افلاطون في هذه الناحية مع سانت سيمون ، وفوربيه ، ووليم موريس وتولستوي ، ولكنه اكثر ريبة من هؤلاء في نية الانسان الطيبة ، وهو يمر بهذا السؤال بهدوء ويتساءل ، لماذا لم تتحقق هذه الجنة البسطية التي وصفها في حياة الانسان ؟ ولماذا لم تتحق هذه الحياة المثالية ، في حياة البشر وتبرز في خريطة العالم ؟

ويجيب على ذلك بقوله ، بسبب شراهة الانسان والترف . ان النـــاس لا يقتنعون بالحياة البسيطة ، وهم بطبعهم يحبون الاقتنـــاء والطموح والغيرة والمنافسة ، ويملون بسرعة بما لديهم ، ويتوقون الى اقتناء ما ليس عندهم ، ويشتهون ما في يد غيرهم ، والنتيجة لذلك هو اعتداء جماعة على املاك الجماعة الاخرى ، وتنافس الجماعات على موارد الارض الذي ينتهي عادة بالحرب فيما بينها ، وتنمو التجارة والمال الذي يحدث فوارق وطبقات جديدة ، وتصبح كل مدينة في الحقيقة مدينتين احداهما مدينة الفقراء والثانية مدينة الاغنياء . وكل واحدة منها في صراع وحرب مع الاخرى ، وفي كل قسم نجد اقساماً اصغر ، ونرتكب خطيئة لو اعتبرناها ولايات واحدة . وتنهض في هذه الحالة طبقة بورجوازية من التجار التي يبحث افرادها عن مكانه اجتماعية عن طريق الثروة ، وينفقون الاموال الطائلة على زوجاتهم ، وهذا التغيير في توزيع الثروة يؤدي الى تغييرات اجتماعية ، وعندما تزيد ثروة التجار على ثروة أصحاب الاراضي يفسح النظام الارستقراطي الطريق ليحل محله النظام الاوليجاركي ، وهو حكومة الاغنياء ، ويحكم الدولة التجار الاغنياء واصحاب المصارف والبنوك ، وعندئذ تحل السياسة التي تعبر عن خطة الحزب السياسي وشهوته في مغـــانم الوظائف والحكم ، محل ادارة تدبـــير الدولة التي تقوم على تنسيق القوى الاجتماعية وتكييف السياسة مع النمو والتطور .

وكل نوع من انواع الحكومات ينحل وينهار بسبب الافراط وتجاوز مبدأه الاساسي . فالحكومة الارستقراطية تدمر نفسها بسبب تحديد وتضييق الدائرة التي تحصر بها السلطة ، وتدمر حكومة الاغنياء نفسها بسبب التهافت السريع على جمع الثروة ، وتكون النتيجة في كلتا الحالتين وقوع ثورة ، وعندما تحدث الثورة يبدو انها قد اشتعلت من اسباب صغيرة ونزوات طفيفة ، ولكن على الرغم من كونها تشتعل من مناسبات خفيفة فانها تكون عادة نتيجة اخطاء جسيمه بالغة خطيرة متراكمة ، فعندما يضعف الجسم نتيجة اهمال طويل للمرض فان مجرد تعرض هذا الجسم قد يحدث فيه مرضاً خطيراً . وبعدئذ تأتي الديمقراطية ويتغلب الفقراء على منافسيهم ومعارضيهم ، وتقدم للشعب نصيباً متساوياً في الحرية والسلطة .

ولكن حتى الديمقراطية تدمر نفسها ، بالافراط في الديمقراطية ، ان مبدأ الديمقراطية الاساسي هو مساواة الجميع في حق الحصول على المنصب وتقرير السياسة العامه ، ان هذا الترتيب يبدو ساراً لدى النظرة الاولى ولكنه يتحول الى كارثة ونكبة ، لان الشعب ينقصه الاعداد الكافي في التعليم لاختيار افضل الحكام وافضل الخطط ، والشعب لا يفهم ، ويعيد ما يخبره له زعماؤه من عبارات يحب سماعها ، ولقبول مبدأ او رفضه من الضروري مدحه ، او التهكم عليه في رواية شعبية (وهي اشارة واضحة بلا شك الى اريسطوفان الذي هاجمت رواياته الهزلية كل فكرة جديدة تقريباً) ان حكم الجماهير او الغوغاء بحر هائج يتعذر على سفينة الدولة ركوبه والسير فيه ، وكل ريح من الخطابة والشعوذة من جانب الخطباء تحرك المياه فيه وتعطل المسير ، وتكون نتيجة مثل هذه الديمقراطيه حكم الطغيان او حكم الاوتقراطية وهو الحكم المطلق - ان الجماهير تحب المداهنة والمداجنة ، وهي جائعة جداً ، وتواقة للعسل ، وبهذا ينهض الى الحكم اخيراً اكبر مداهن ومداج ويدعو نفسه حامي الشعب ويستولي على السلطة العليا المطلقة في البلاد .

وكلما زاد افلاطون تفكيراً في هذا كلما زاد في فزعه ودهشته لسخافه ترك

نزوة الغوغاء وهواها وسلامة نيتها ، وسهولة انخداعها في اختيار موظفي الدولة السياسيين . هذا بالاظافة الى ترك هذا الاختيار في يـــد المشبوهين من صنيعة وعملاء اصحاب المال والثروة الذين يشدون حبل الاوليجاركيـــة وراء المسرح السياسي الديمقراطي . ويشكو افلاطون من اننا في المسائل التافهة مثل صناعة الأحذية نعتمد على المختص في صناعة الأحذية لصنعها لنا ، أما في السياسة فاننا نفترض ان كل شخص يقدر على احراز الاصوات يستطيع ادارة المدينـــة او الولاية . عندما نصاب بالمرض فاننا ندعو لمعالجتنا طبيباً اخصائيـــاً حصل على شهادته ودرجته بعد اعداد ودراسة خاصة وكفاءة فنية ، ولا ندعو في هـــذه الحال اوسم طبيب ، او اكثر الاطباء فصاحة وزلاقة لسان ، وعندمـا تصاب الدولة كلها بالمرض ألا يجدر بنا ان نبحث عن خدمة وهدي أفضل الرجل فيها واحكمهم وأعقلهم ؟ وان نعمل على ايجاد وسيلة لمنع عدم الكفاءة والمكر من الوصول لى المناصب العامة ، ونختار ونعد أفضل الرجال ليحكموا لمصلحة الجميع ، هذه هي مشكلة الفلسفة السياسية .

٦ ـ المشكلة النفسانية

ولكن وراء هذه المشاكل السياسية تكمن طبيعة الانسان . ولنفهم السياسة يجب علينا لسوء الحظ ان نفهم علم النفس . تختلف الحكومات باختلاف اخلاق الرجال .. وتتألف الدول من الطبائع البشرية في داخلهـــا ، وتستمد الدولة شكلها من مواطنيها ، فهي صورة طبق الاصل لمن فيهـــا ، ومرآة تعكس شكل سكانها ، لذلك يجب ان لا نتوقع ايجاد افضل دول حتى يكون لدينـــا مواطنون افضل ، حيث تذهب كل التغييرات عبثاً بغير تغيير ، يا لسحر الناس انهم دائماً يعالجون ، ويزيدون ، ويعقدون اضطرابهم واختلال النظـام بينهم ، متوهمـين انهم يمكنهم معالجته بدواء خفي من عقاقير مجهولة ، يشير عليهم بعضهم بتجربتهـا ، وبذلك لن تتحسن أحوالهم ابداً بل تسوء من سيء الى اسوأ ، انهم يحاولون وضع يدهم على التشريع متوهمين انهم بفضل الاصلاحات يمكنهم وضع حد لنذالة وسفالة وغدر العالم غير عالمين انهم في الحقيقة يقطعون رأس افعوان خرافي كلما قطعوا رأساً نبتت له رأس أخرى .

دعنا نفحص لبرهة وجيزة المادة الانسانية التي ينبغي على الفلسفة السياسية ان تتناولها بالبحث .

يقول افلاطون ان السلوك الانساني يجري من منابع ثلاثة رئيسية وهي الرغبة والعاطفة ، والمعرفة . ان الرغبة والشهوة والباعث امر واحد ، والعاطفة والروح والطموح والشجاعة امر واحد ، والمعرفة والفكر والذكاء والعقل أمر

واحد . ان الرغبة تجد مكانها في الاسود ، وهي خزان يتفجر حيوية وخصوصاً في الناحية الجنسية ، والعاطفة مكانها في القلب في قوة ومسرى الدم انهـا الدوي الأساسي للتجربة والرغبة . والمعرفة مكانها في الرأس وهي عين الرغبة وبصرها ويمكن أن تصبح مرشد الروح وهاديها . هذه الصفات والقوى موجودة كلها في كل الرجال ، ولكن في درجات مختلفة . فان بعض الرجال ليسوا سوى صورة مجسدة للرغبة ، بأرواح متملـئة محبة للكسب ، منهمكة في المنافسه والنزاع المادي ، تحرقها شهوة الترف والبذخ والمظهر ، وتعتـبر ارباحها ضئيلة بالمقارنة مع أهدافها المستمرة ، هؤلاء هم الرجال الذين يسودون ويحتكرون الصناعة ، ولكن هناك آخرون يملؤهم الشعور والشجاعة ، ولا يبالون كثيراً بمن يحاربون ، وكل همهم هو الحصول على النصر لذاته ، انهم يحبون المشاكسة لا الكسب ، ويفخرون في احراز السلطة لا في احراز المال والاملاك، وفرحهم في ميدان المعركة وليس في السوق ، هؤلاء هم الرجال الذين يصنعون الجيوش والاساطيل الحربية في العالم . وأخيراً القلة من الرجال الذين يجدون بهجتهم في التفكير والتأمل والفهم ، والذين لا يتوقون الى المال ولا الى النصر ، ولكن الى المعرفة ، والذين ينأون بوجوههم عن السوق والربح وميدان المعركة لينصرفوا في هدوء وصفاء الى الفكر والتأمل ، والذين تكون ارادتهم من نور وليس من نار ، هؤلاء هم رجال الحكمة ، الذين يقفون جانباً لا يعرف العالم كيف يستفيد منهم ، ولا يعرف قدرهم وقيمتهم .

والآن كما تدل أفعال الفرد الفعالة على ان الرغبة وان كانت تدفعها العاطفة فان المعرفة ترشدها ، فكذلك في الدولة المثالية فان القوى الصناعيـة تنتج ولكنها لا تحكم ، وتتولى المعرفة والعلم والفلسفة الحكم في البلاد . ان الشعب بغير هدى المعرفة ، جمهور بغير نظام . وهو بذلك كالرغبات بغير نظام أو القطيع بغير راع . ان الشعب يحتاج الى هدى الفلاسفة ، كما تحتاج الرغبات الى ضوء المعرفة ، والخراب يحل بالبلد عندما يصبح التاجر الذي يملؤ قلبه حب

الثروة حاكماً ، أو يستخدم القائد العسكري جيشه ويقيم حكومة عسكرية دكتاتورية ، ان افضل مكان لرجال الانتاج هو الميدان الاقتصادي . والمحارب أو العسكري يبرز ويلمع في الميدان والمعركة ؛ وكلاهما لا يصلح للمنصب السياسي والوظيفة العامة ، وتتحول ادارة الدولة في يدهم الخاصة الى سياسة، لان ادارة الدول علم وفن ، وعلى الشخص ان يخصص العمر لهذا العلم والفن ، ويعد اعداداً طويلاً لهذا العلم والفن . ولا يصلح لهداية الشعب سوى ملك فيلسوف . سوف لا تنجو المدن والجنس البشري من الشرور والفساد والمرض ؛ الا اذا أصبح الفلاسفة ملوكاً أو الملوك فلاسفة ؛ واجتمعت الحكمة والزعامة السياسية في نفس الرجل . هذا هو حجر الاساس في قنطرة افكار افلاطون .

٧ ـ الحل النفساني

حسناً ما العمل إذن ؟

يجب ان نبدأ بإخراج جميع السكان في المدينة الى والارياف من الذين تزيد اعمارهم عن العشر سنوات ، ونضع يدنا على الاطفال ، الذين سنحميهم بعدئذ من عادات آبائهم . إذ لا نستطيع ان نقيم مدينة مثالية بأولاد صغار أفسدهم كبارهم ، يجب ان نبدأ بعد بلاط جديد، قد يعدنا بعض الحكام المستنيرين بالمساعدة في تحقيق هذه البداية بمنحنا جزءاً من بلاده ، او مستعمرة تحت حكمه (وقد فعل احد الحكام ذلك كما سنرى على اية حال يجب ان تمنح كل طفل منذ بداية تعهده مساواة تامة في فرصة التعليم ، لا احد يعرف من اين يشتعل ضوء العبقرية حيث يجب ان نبحث عن ضوء العبقرية هذا في كل مكان وفي كل نوع وجنس . والمرحلة الاولى من طريقتنا هي تعميم التعليم في البلد .

وفي العشر سنوات الاولى من حياة الطفل ينبغي ان يكون التعليم معنياً في الدرجة الاولى بأجساد الاطفال ، حيث يقسام في كل مدرسة ملعب وساحة رياضية ، ويشغل اللعب والرياضة البدنية كل منهاج التعليم . حيث نقوي صحة الاطفال في العشر سنوات الاولى ، ولا يكون هناك حاجة الى العلاج . ان الحاجة الى الدواء والعلاج تنجم غن حياة الترف والراحة والكسل والاسترخاء التي تسبب انتفاخ البطن بالغازات وامراض الزكام والبرد . ان نظامنا الحالي في العلاج قد يسكن الامراض

ويقصيها الى ابعد مدة ممكنة ، ولكن لايشفيها ، وهذا ناجم عن حياة الغنى والكسل ، عندما يمرض النجار فانه يطلب من الطبيب دواء سريعاً وقوي المفعول ، من مقيء او مسهل او مطهر او كي او اجراء عملية . ولكن لو اخبره احد انه يجب ان يستمر في نظام طويل من الحمية، او انيعصب ويقمط رأسه ، وغير ذلك من الامور ، يجيب فورا انه ليس لديه وقت لهذا المرض لأن عمله لايسمح له بذلك ولأنه يعتمد في معيشته على رزق يومه بيومه ، وانه لايرى لذة في حياة يمضيها في معالجة مرضه الذي يؤدي الى اهمال عمله ، وبذلك فانه يترك مثل هؤلاء الاطباء الى غير رجعة ويستأنف اكله العادي ، وبذلك اما ان تتحسن حالته ويعيش ويواصل عمله او تخونه صحته ويموت وينتهي امره . نحن لانقدر على اقامة شعب ومجتمع من المرضى والضعاف والمتمارضين .

ولكن مجرد الرياضة البدنية والتدريب الجسدي لايكفي ، اذ يجعل من الشخص متطرفا في الخشونة . كيف السبيل الى ايجاد طبيعة لطيفة وشجاعة كبيرة في وقت واحد ؟ — اذ يبدو ان هاتين الصفتين ، اعني الشجاعة واللطافة طبيعتان متضاربتان احداهما مع الأخرى ، وطبعا فنحن لانريد شعبا من حملة الأثقال والمصارعين وفائزي الجوائز والمداليات من ابطال الرياضة — قد تحل الموسيقىمشكلتنا هذه ، اذ تتعلم الروح عن طريق الموسيقى الايقاع والانسجام والتناسب ومحبة العدل . ولا يمكن لشخص تم بناءه بطريقة متوازنة ومتعادلة ان يكون ظالما ؟ اليس كذلك ياجلاكون ، ما هو السبب في قوة التدريب الموسيقى ، السبب هو ان التناغم والانسجام الموسيقي يجدان طريقهما الى خفايا الروح ، ويحملان الجمال والجلال والحسن والكياسة في حركتيهما ويجعلان الروح رشيقة ولطيفة وظريفة . ان الموسيقى تحلي الخلق وتشترك في تقرير القضايا الاجتماعية والسياسية ، لقد اخبرني دامون - وانا اعتقد تماماً بما يقول ، وهو انه عندما تتغير اساليب الموسيقى تتغير معها قوانين الدولة الاساسية .

قال دانيال اوكنيل « دعني اكتب اغاني الشعب ولا ابالي بمن يضعقوانينه»

ان الموسيقى ثمينة ونفيسه لا لأنها تحدث صفاء في الشعور والخلق، ولكن لأنها تحفظ وتسترد الصحة . هناك بعض الأمراض التي لا يمكن معالجتهـــا الا عن طريق العقل، وهكذا عالج القسيس النساء المصابات بالهستريا بآلة موسيقية هيجتهن ودفعتهن الى الرقص والرقص الى ان سقطن على الارض من شدة التعب، واتجهن الى النوم، وعندما استيقظن وجدن انفسهن في صحة جيدة، وقد شفين من مرضهن حيث تمس هذه الوسائل وتهدىء المنابع الغير واعية في العقل البشري، حيث تلتف جذور العبقرية في هذه الاركان من السلوك والمشاعر . لايصل رجل في حـــالة اليقظة الى الحقيقة او بصيرة النفس الملهمة، ولكن عندما تكون قوة التفكير مقيدة ومكبلة في النوم او المرض او الجنون، لذلك فان العبقري اخ للمجنون.
وهنا يمر افلاطون بتحليل نفساني رائع فيقول، ان نفسيتنا السياسية محـيرة، لأننا لم ندرس دراسة وافية شهوات وغرائز الانسان، ربما تقدم لنا الاحلام مفتاحا وحلا لهذه الميول والنزعات الخبيثة المراوغة، من المعروف ان بعض الملذات والغرائز المعينة محرمة، ويبدو ان هذه الملذات والغرائز موجودة في كل انسان ولكنها تم اخضاعها في بعض الاشخاص عن طريق القانون والعقل، حيث سادت وسيطرت عليها رغبات افضل. وهي اما ان يكون قد تم اخضاعها تاما، او تم تخفيض قوتها وعددها، بينما تكون هذه الرغبات في بعض الاشخاص كثر وفرة وقوة . واعني بذلك على وجه الخصوص الرغبات الـتي تصحو وتستيقظ عندما تكون القوة العاقلة والمهذبة الحاكمة في الشخص في حالة نوم وغفوة . ان الوحش الشرير الكاسر في طبيعتنا النهم للحم والشرب ينهض ويطوف عاريا متخوفا، ولاتترك مثل هذه الطبيعة سخافة او جريمة مهما كانت غير طبيعية او مخجلة بما في ذلك الفحشاء ومضاجعة المحارم او قتـــل الوالدين لا تقوم بارتكابها . ولكن عندما يكون نبض الانسان سليما ومعتدلا ويذهب الى النوم باردا ومعقولا بحيث يكون قـــد اشبع شهواته باعتـــدال لا افراط وبما فيه الكفاية ليدعها تنام، فهو بذلك اقـل عرضة للاحلام الغير مشروعة

وتصوراتها · يكمن هذا الوحش الشرس الذي يصحو ويستيقظ اثناء نومنا فينا جميعنا بما في ذلك افضل الاشخاص منا .

ان ميزان الموسيقى يضفي نعمة ولطفاوصحة الى الروح والجسم ،ولكن مرة ثانية فان الافراط في الموسيقى خطير كالافراط في الرياضة ، فكما ان مجرد الاقتصار على الرياضة يحيل الانسان الى التوحش . فالاقتصار على الموسيقى يضعف الانسان ويُليّنه ويتجاوز نفعه ، ولا بد من دمج الرياضة والموسيقى معا ، وبعد سن السادسة عشرة يجب التخلي عن ممارسةالموسيقي ، ولكن يستمر الغناء الكنائسي والألعاب العامة مدى الحياة . لاتكون الموسيقى مجردموسيقى فقط ويجب ان تستخدم في تقديم اشكال جذابة تمهيدا لعلوم لاتثير الرغبة احيانا في نفس التلاميذ كالتاريخ والعلوم والرياضيات ، اذ لا يوجد سبب يمنعنا من تسهيل هذه العلوم الصعبة وتنعيمها . بوضعها في ابيات من الشعر وتجميلها بالأغاني ، وحتى في ذلك الوقت لا ينبغي فرض هذه العلوم على العقول التي لاتتقبلها او تستسيغها ، لكي تسود حرية الروح، يجب ان نقدم عناصرالتعليم . . الى العقل في سن الطفولة ، ولكن بغير اكراه او ارغام ، لأن الرجل الحرينبغي ان يكون حراً ، ايضاً في حصوله على المعرفة ، والمعرفة التي يتم الحصول عليها بالارغام لا تبقى في العقل . لذلك لا تستخدموا الارغام وارفقوا التعليم في المرحلة الأولى منه بنوع من التسلية ، وهذا يمكنكم بطريقة افضل في العثور على ميل الطفل ورغبته .

وبنمو العقول بحرية كهذه ، وتقوية الاجسام بالرياضة والهواء الطلق والمنتزهات والاماكن الخلوية من كل نوع ، يتوفر لدولتنا المثالية قاعدة نفسانية وجسدية واسعة لدرجة تكفي لمواجهة كل امكانية وكل تطور ويلبغي ايضا تقديم قاعدة خلقية ، حيث يتم توحيد افرادالمجتمع في وحدة ، وتعليمهم التضامن والاتحاد وانهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا وانهم مدينون لبعضهم بالتزامات وواجبات ونعم معينة ، والآن باعتبار ان الناس بالطبيعة يميلون الى الكسب والغيرة والمنافسة والنزاع

والشهوة كيف يمكننا اقناعهم بان يسلكوا سلوكا لائقاً ؟

هل نتوصل الى ذلك بهراوات رجـــال الشرطة ؟ انها طريقة قاسية وحشية ومثيرة وتكلف الكثير ، هناك وسيلة افضل وهي ان يكون للمجتمع ايمان ودين .

ويعتقد افلاطون ان الشعب لايمكن ان يكون قويا ما لم يؤمن بالله ، وهو اله حي يستطيـع ان يحرك الخوف في القلوب التي استولت عليها الاثرة والانانية الفردية ويحملها على الاعتدال في نهمها وشرهها وبعض السيطرة على عواطفها . وفوق ذلك اذا اضيف على الايمان بالله الايمان بوجود حياة ابدية في الاخرة . لأن الايمان بالحياة الأخرى يمدنا بالشجاعة في مواجهة الموت ، وتحمل موت احبائنا ، ويتضاعف تسلحنا اذا كنا نحارب بايمان ، على فرض استحالة اثبات هذا الايمان بالله او اليوم الاخر . وقد يكون الله بعد كل شيء المثال الذي شخصه حبنا واملنا ، وان الروح مثل موسيقى القيثار تغني مع الالة التي ادتها شكلها . ومع ذلك فان هذا الايمان لايضرنا وقد يكون خيراً كبيراً لنا ولاطفالنا لأننا اذا كنا سنشرح ونبرر كل شيء لعقولهم البسيطة ، سنواجه وقتاً صعباً عندما يبلغون العشرين من اعمارهم ، ويواجهون اول فحص لما درسوه طيلة هذه السنين من المساواة في التعليم ، هنا تبدأ عملية فرز وتنقية قاسيه لارحمة فيها بينهم ، او ما يمكن ان نطلق عليه عملية التصفية والغربلة الكبيرة بتقديمهم الى الامتحان ، بحيث لايكون ذلك الامتحان مجرد امتحان علمي ، وسيكون امتحانا عمليا ونظريا ، بحيث يتعرضون الى عناء وتعب وآلام وصراع حيث يفسح المجال وتقدم الفرصة امام اصحـــاب المقدرة لاظهار مقدرتهم ومواهبهم ، ويلقى الضوء على الكسالى الضعاف ويبت في امرهم ، اولئك الذين يخفقون ويفشلون في هذا الامتحان يوجهون للاعمال الاقتصادية في البلد ويصبحون رجال اعمال وكتبة في الدوائر وعمالا في المصانع ومزارعين . ويكون الامتحان عادلا ومجرداً عن المحاباة ، ولا يتم تقرير مصير الشخص ليصبح مزارعاً او فيلسوفاً عن طريق المحسوبية او احتـكار الفرص لانه سيراعى في هذا الاختيار

ان يكون ديمقراطيا اكثر من الديمقراطية .

واولئك الذين ينجحون في هذا الفحص الاول يتلقون عشر سنوات اخرى من التعليم والتدريب الجسدي والعقلي والخلقي ، وبعدئذ يواجهون امتحانا آخر اشد صعوبة من الاول ، واولئك الذين يفشلون في هذا الامتحان الثاني يصبحون مساعدين او مساعدين تنفيذيين او ضباطا عسكريين في الدولة وهنا في هذه التصفية والفرز اثناء الامتحان نحتاج الى استخدام كل وسائل الاقناع ، لاقناع الذين سقطوا في الامتحان على قبول مصيرهم بسلام وروح طيبة ، اذ ما الذي يمنع تلك الاكثرية الكبيرة التي سقطت في الامتحان الثاني ، من حمل السلاح وتحطيم الدولة المثالية وجعلها اثرا بعد عين ؟ وما الذي يمنعها من اقامة عالم يتولى فيه الحكم مرة ثانية بمجرد القوة او العدد ، وتعيد الرواية الهزلية للديمقراطية المزورة نفسها مرة ثانية . في هذه الحالة يكون الدين والايمان هو الحل الوحيد لذلك : حيث نخبر هؤلاء الشباب الصغار ان الاقسام التى سقطوا فيها ، هي من صنع الله قسمها لهم ، وفرضها عليهم ، وهي قطعية وباتة ولا مرد لها ، ونقص عليهم قصة المعادن ونعلمها لهم . ايها المواطنون انكم اخوة ، ومع ذلك فقد خلقكم الله مختلفين . وبعضكم تتوفر فيه مقدرة الزعامة وهؤلاء خلقهم الله من الذهب ، وهؤلاء يتوجهم اعظم الشرف والبعض خلقهم من الفضة ليقوموا باعمال المساعدين ، والبقية خلقهم من النحاس والحديد ، وهم الفلاحون والمزارعون والعمال . وبما انكم من نفس العائلة الاصلية فان الابوين الذهبيين قد ينجبان ولداً من فضة والابوين الفضيين قد ينجبان احيانا ولدا ذهبيا ويقول الله . . . اذا كان ابن الوالدين الذهبيين او الفضيين يجمع في نفسه مزيجا من الحديد والنحاس ، فان الطبيعة تقتضي تحويل المراتب ويجب ان لا ينظر الحاكم الذهبي بعين العطف على ولده لأن مرتبته قد انخفضت واصبح فلاحا او صانعا ، تماما كما يقفز آخرون من طبقة العمال الى طبقة الحكام والمساعدين . لأن الله يقول عندما يقوم الرجال المصنوعون من النحاس والحديد على حماية الدولة وحراستها فان مصير هذه الدولة سيكون الدمار .

ربما نستطيع ان نؤمن بمثل هذه الاسطورة الملكية موافقة جيل لتعضيد خطتنا ، ولكن الآن ما هو مصير البقية السعيده التي نجحت في جميع مراحل هذا الاختبار المتعاقب ؟

سنقوم بتعليمهم الفلسفة ، لقد بلغوا الان سن الثلاثين ، وليس من الحكمة ان ندعهم يتذوقون لذة الفلسفة العزيزة في سن مبكرة ، لأن صغار الرجال عندما يبدأون في تذوق طعم الفلسفة في افواههم ، يناقشون ويتحدثون للتسلية ، وفي الأغلب يعارضون ويدحضون ... كالكلاب الصغيرة التي تفرح وتسر في خطف وتمزيق وسحب من يقتربون منها . هذه الفلسفة العزيزة السارة تعني شيئين ، اولا ان نفكر بوضوح وصفاء وهي الميتافيزيقا او « البحث عن الحقيقة النهائية الاساسية » وان نحكم بحكمة وهي السياسة . لذلك يجب ان يتعلم صفوة شبابنا التفكير بوضوح . ومن اجل هذا الغرض يجب ان يدرسوا مبدأ المثل ولكن مبدأ المثل هذا جملته شاعرية افلاطون وخياله موضوعاً مزخرفاً ومديحاً غامضاً ، ويحدث حيرة وارتباكاً للتلميذ الجديد مثبطا للهمة ، وقد يكون امتحاناً صعباً لهؤلاء الذين نجحوا في جميع الامتحانات الصعبة السابقة . قد تكون فكرة الشيء « فكرة عامة » للطبقة التي ينتمي اليها (ان الفكرة عن جون أودك أو هاري هي انه انسان) او قد تكون القانون او القوانين التي تسير الاشياء وتعمل وفقا لها . او قد تكون الهدف التام والمثال الذي يتطور اليه الشيء ونوعه ، ومن المحتمل ان تكون جميع هذه الامور وهي الفكرة او الصورة الذهنية ، والقانون والمثل الاعلى . وراء سطح الظواهر والخصائص التي تواجه حواسنا ، يوجد تعميات وقواعد ، واتجاهات من التطور لاتدركه حواسنا ولكن يمكن ادراكها بالعقل والفكر . هذه الافكار والقوانين والصور العقلية اكثر ابدية وبذلك فهي اكثر حقيقة من الاشياء الخاصة التي تدركها الحواس التي نتصورها عن طريقها ونستخرجها . ان الانسان اكثر بقاء وخلودا من جون وتوم او هاري ، ان هذه الدائرة تتشكل بحركة قلمي

ولكنها تزول عندما نمحوها بالممحاة ، ولكن فكرة او صورة الدائرة الحقيقية تستمر موجودة الى الابد . هذه الشجرة تبقى وتسقط ولكن القوانين التي تقرر اي الاجسام تسقط ، ومتى ، وكيف ، ليست لها بداية ، وهي موجودة الان وستبقى بلا نهاية . هناك كما يقول الفيلسوف سبينوزا عالم من الاشياء تدركه الحواس ، وعالم من القوانين نستنتجه ونستدل عليه بالفكر ، نحن لانرى قانون عكس المربعات ولكنه موجود هناك وفي كل مكان ، وكان موجوداقبل بدء الاشياء ، وسيبقى حتى بعد انتهاء عالم الاشياء . امامنا جسر ، ان العين تدرك وترى خليطا من الاسمنت والرمل والحديد لمئة مليون طن ، ولكن المهندس يرى بعين العقل الجرأة والتنظيم الدقيق لجميع هذه المواد بالنسبة الى القوانين الميكانيكية والهندسية والحسابية ، هذه القوانين التي يقوم عليها تركيب وصناعة جميع الجسور القوية . فاذا انتهكت حرمة اخترقت هذه القوانين فان الجسر ينهار ويتساقط في مياه النهر الذي يقوم عليه هذا الجسر . ان القوانين هي الله الذي يمسك الجسر بيديه . لقد اشار ارسطو الى هذا القبيل عندما قال ان افلاطون يعني بالمثل ما قصده فيثاغورس بالاعداد والارقام عندما ذكر ان هذا العالم عالم اعداد (وقد كان يعني على ما يحتمل ان هذا العالم يحكمه قانون ونظام رياضي) ويخبرنا بلوتارك ان الله بالنسبة الى افلاطون دائما يهندس او كما وضع سبينوزا نفس الفكرة عندما قال ان الله وقوانين البناء والعمل امر واحد وحقيقة واحدة والرياضيات بالنسبة الى افلاطون كما هي بالنسبة الى برتراند رسل الفيلسوف البريطاني فاتحة ضرورية ولازمة للفلسفة ، وهي اعلى شكل لها ، وقد وضع افلاطون فوق الاكاديمية هذه الكلمات : « لا تدع رجلا جاهلا بالرياضيات يدخل الى هنا » .

بغير هذه الافكار ، هذه التعميمات والانظمة والقوانين يبدو لنا العالم كما يبدو في عين الطفل لأول مرة تتفتح فيها عيناه . كتلة من المشاعر المشوشة عديمة المعنى ، لأن الاشياء تأخذ معنى لها بعد ترتيبها وتنظيمها وتعميمها ، وايجاد

القوانين التي اوجدتها ، واهداف ، واغراض نشاطها والعالم بغير هذه الافكار والقوانين يكون كحكومة من عناوين الكتب سقطت مصادفة من الفهرس بالمقارنة مع نفس هذه العناوين فيما اذا كانت مرتبة وفقا لاصنافها وانواعها واغراضها . سيكون العالم كالظلال في كهف بالمقارنة مع الحقائق في ضوء الشمس التي تلقي بهذه الظلال او الخيال في صورة اشباح وهمية داخل الكهف . لذلك فان جوهر كل تعليم هو البحث عن هذه الافكار والقوانين ، لان التعاميم والافكار والقوانين وصور التطور تقع وراء اشياء ينبغي ان نكتشف علاقتها ومعناها ومنوالها وقانون عملها ، والعمل او الهدف الذي تعمل له وتحجبه ، ويجب تنظيم وتنسيق تجارب حواسنا في شكل قانون وغرض ، وبنقص هذا فقط يختلف عقل المعتوه عن عقل قيصر .

حسناً وبعد خمس سنوات من التدريب في مبدأ المثل العويصة الغامضة ، هذا الفن في تصور اشكال هامة وامكانيات مثالية وسط اضطراب ومخاطرة الاحساس ، بعد خمس سنوات من التدريب على تطبيق هذا المبدأ على سلوك الانسان وسير الدول ، بعد هذا الاعداد الطويل من سن الطفولة والشباب حتى بلوغ سن النضوج في الخامسة والثلاثين ، يصبح الآن هؤلاء الرجال المتصفين بالكمال على استعداد للقيام باعظم اعمال الحياة العامة ؟ وقد وصلوا اخيرا الى مرتبة الفيلسوف الذي سيتولى الحكم ويحرر الجنس البشري ؟

ولكن يا للأسف لم يتم اعدادهم بعد . وتعليمهم لازال ناقصا لم ينته بعد ، اذ انه بعد كل هذا التعليم والتدريب والفرز الطويل في التعليم النظري ، تستدعي الضرورة اضافة شيء آخر على تعليمهم النظري ، او بعبارة اوضح ترك حملة شهادة الدكتوراه في الفلسفة ينزلون الان من اعلى قمة الفلسفة الى كهف عالم الناس والاشياء ، اذ لاقيمة للتعاميم المجردة اذا لم نقم بتجربتها في هذا العالم المتماسك ، ولنترك طلابنا يدخلون ذلك العالم بدون رحمة او شفقة او تفضيل ، ليتنافسوا مع رجال الاعمال من ذوي الرؤوس الفردية اليابسة ،

ومع رجال النحاس والحديد الدهاة ، وفي هذا السوق من المنافسة سيتعلمون من كتاب الحياة نفسها ، ويؤذون اصابعهم ، ويحكون ذقونهم الفلسفية امام حقائق العالم القاسية . وسيقومون بكسب خبزهم وزبدتهم بعرق جباههم وهذا الامتحان الاشد قسوة سيستمر دون رحمة او شفقة مدة خمسة عشر عاما اخرى وسينهار بعض انتاجنا الكامل هذا تحت وطأة هـــذا الضغط القاسي ، وتغمرهم موجة الفرز والتصفية العاتية الاخـــيرة . واولئك الذين ينجون وقد بلغوا سن الخمسين وامتازوا بالرشد والاعتماد على النفس بعد ان جردتهم قسوة الحياة من الزهو والخيلاء ، وقد تسلحوا الان بكل الحكمة التي قدمتها لهم التجارب والتقاليد والحضارة والثقافة ، يصبح هؤلاء بطريقـــة آلية حكام الدولة .

٨ ـ الحل السياسي

ان الديمقراطية آليا – بغير نفاق التصويت والانتخاب . تعني مساواة تامة في الفرص ، امـــام الجميـع ، خصوصاً في التعليم ، ولاتمني تنـاوب توم او هاري او جورج للمنصب العام . وسيكون لكل واحد فرصة متساوية ليعد نفسه للمهات الحكومية المعقدة . ولكن اولئك الذين اثبتوا افضليتهم وصلابة معدنهم ونجحوا في جميـع الامتحانات بوسامات البراعة يحق لهم ان يحكموا البلاد ، بحيث يتم اختيار موظفي الدولة الكبار لا على اساس التصويت والانتخـابات ، ولا على اساس الاحزاب التي تسحب الاسلاك الخفية في التظاهر بالديمقراطية ، ولكن باختيارهم على اساس مقدرتهم التي ثبتت في الديمقراطية الاساسية لجنس تسود المساواة بين افراده ، كما لا يجب ان يشغل اي رجل منصبا من غير ان يكون معدا او مدربا تدريبـــا خاصاً ، او يشغل منصبا كبيرا كبيرا قبل ان يكون قد شغل منصبا اصغر واثبت جدارته .

هل هذه ارستقراطية ؟ حسنا ، يجب ان لا نخشى القول اذا كانت الحقيقة التي تشير اليهـــا حسنة . نريد ان يحكمنا افضل الرجـــال الذين تعنيهم كلمة ارستقراطية . السنا نتوق ونتلهف لان يحكمنا افضل الرجال ؟ ولكننا اعتدنا ان نفكر بان حكم الارستقراطية هو الحكم الوراثي دعنا نلاحظ بعناية ان هذه الارستقراطية الافلاطونية ليست من هذا النوع الوراثي وهي ارستقراطية

حريٌ بالمرء ان يسميها ارستقراطية ديمقراطية لان الشعب بدلا من ان ينتخب بطريقة عمياء اقل الشرين من المرشحين الذين تقدمهم الاحزاب السياسية بطريقة التعيين او الترشيح ، يكون كل واحد من الشعب مرشحا في ارستقراطية ويتلقى فرصة متساوية في التعليم . وهو تعليم يؤهله بطريق الانتخاب الطبيعي الى المركز او المنصب . لايوجد نظام طبقي هنا في ارستقراطية افلاطون الديمقراطية ، ولا وراثة للمناصب او المميزات ، او عقبات امام المواهب بسبب فقر التلاميذ وعدم مقدرتهم على مواصلة دراستهم . حيث يبدأ ابن الحاكم دراسته على قدم المساواة والمعاملة مع ابن ماسح الاحذية وغاسل الصحون ، فإذا كان ابن الحاكم غبيا فانه يسقط في دراسته في الامتحان الاول واذا اثبت ابن ماسح الاحذية او غاسل الصحون مقدرة ، فان الطريق مفتوح امامه ليصبح حاكما في الدولة . وتكون الوظائف مفتوحة امام المواهب اينما وجدت وولدت . هذه هي ديمقراطيه المدارس والتعليم وهي اشرف مئة مرة ، واكثر تأثيرا من ديمقراطيه صناديق الانتخابات .

وهكذا يبتعد حراس الدولة وحكامها عن كل عمل ويهبون انفسهم تماما الى المحافظة على حرية الدولة . واقفين انفسهم على هذا العمل . ولايشغلون انفسهم باي عمل يتنافى مع هذا الهدف والغاية . وتتألف منهم الهيئة التنفيذية والتشريعية والقضائية وحتى القوانين لاتربطهم بعقيدة في وجه تغير الظروف وسيكون حكمهم حكما قائما على الذكاء والحكمة المرنة التي لاتربطها قوانين او دساتير او سوابق .

ولكن كيف يكون لهؤلاء الحكام في سن الخمسين العقل المرن ؟ الا نخشى ان يؤثر العمل الرتيب (الروتين) على مرونة عقولهم ويجففها ؟ لقد اعترض اديمانتوس (الذي اظهر شكا في ذلك في احدى المناقشات التي جرت في بيت افلاطون) وقال ان الفلاسفة هؤلاء اما ان يكونوا مغفلين او مخادعين . ويحكمون البلاد حكما سخيفاً او انانياً او الاثنين معاً . ان هؤلاء الذين نذروا

حياتهم واوقفوها للفلسفة . والذين واصلوا الدراسة لا في سن الشباب فقط ولكن في سنوات نضجهم ايضا . انهم ينشأون في حياة غريبة جدا والنتيجه ان يقل انتفاع العالم بهم بسبب طول انقطاعهم الى الدراسة التي تمجدها وتطري عليها .

قد ينطبق هذا الوصف بحق على بعض الفلاسفة الحديثين . ولكن افلاطون اجاب بانه اتخذ الحيطة امام هذه المصاعب بان قدم لفلاسفته تدريب الحياة بالاضافة الى تعليم المدارس . وانهم سيكونون في النهاية رجال عمل لا رجال فكر فقط . رجالا اعدوا الى اهداف عظيمة وطبع نبيل . وتعرضوا الى تجربة طويلة وخبرة . ان افلاطون يعني بالفلسفة تثقيفا فعالا وحكمة ممزوجة باعمال الحياة ولا يعني بها خيالا ميتافيزيقيا مغلقا او محبوسا غير عملي .

وهكذا بالنسبة الى العجز وعدم المقدرة او الاحتيال والغش نقوم بحمايتهم وتحصينهم باقامة نظام شيوعي بين حكام الدولة وحماتها .

فلا يقتنون املاكا وراء الضرروري جدا ولا يملكون بيوتا خاصة بهم ذات قضبان حديدية ومزاليج مغلقة في وجه من يفكر في دخولها. وتقدم لهم اقواتهم بما فيه الكفاية فقط بالنسبة الى محاربين مدربين ذوي شجاعة واعتدال ويوافقون على ان يتلقوا من بقية المواطنين دفعة محدودة تكفي لمواجهة نفقاتهم ومصاريفهم طيلة السنة فقط وليس اكثر . وسيتناولون الطعام في وجبات مشتركة ، ويعيشون عيشة مشتركة مع بعضهم كالجنود في معسكر. وسنخبرهم انهم سيتلقون الذهب والفضة من الله . وان المعدن الاكثر قداسة موجود فيهم وبذلك فهم ليسوا في حاجة الى ذلك المعدن الارضي الذي يتداوله الناس باسم الذهب وان لايدنسوا الالهي المقدس بذلك الخليط الارضي لان هذا الذهب اصبح مصدر اعمال كثيرة غير مقدسة . ولكن الذهب الموجود في نفوسهم والذي اختاره الله لهم لايتدنس او يتلوث . وانهم وحدهم من بين جميع المواطنين ينبغي ان لايمسوا او يتعاملوا بالذهب او الفضة او يتخذوه حلية لهم

او يلبسوه او يقتنوه او يشربون في آنية مصنوعة من الذهب او الفضة . ففي هذا خلاصهم ونجاتهم ونجاة الدولة . ولكنهم لو امتلكوا البيوت او الاراضي أو اموال خاصة بهم ، فانهم بذلك يتحولون الى مدبري منازل ومزارعين وليس حراسا للدولة وحكامالها . ويصبحون اعداء وطغاة بدلامن ان يكونوا حلفاءمع بقية المواطنين فيصبحون ، كارهين ومكروهين ، متآمرين ومعرضين للتآمر عليهم ، ويتعرضون في حياتهم الى رعب وارهاب اعدائهم في الداخل اكثر من اعـــدائهم في الخارج ، وتكون ساعـــة الدمار لهم وللدولة اقرب اليهم من ايديهم .

هذه التنظيمات ستجعل حماة الدولة وحكامها لا يقوون على الاستفادة المادية واستغلال مناصبهم في جمع الثروة والمال والكسب المادي . وتجعـل من الخطر عليهم استغلال مناصبهم في تفضيل وتقديم مصلحة طبقتهم وايثارها على مصالح الشعب كما تفعل الاحزاب السياسية اليوم ، كما سيحميهم هذا النظام من الحاجة في اعتدال ونبل ، حيث تقدم لهم فقط الضروريات اللازمة لمعيشتهم كل سنـة ، وبهذا نبعدهم عن الحاجة ومخاوف الحياة والفقر . ولكن في الوقت ذاته ستحول هذه التنظيمات بينهم وبين طموح الجشع ، وشراهة المال ، والبخل والخســة والدناءة . بحيث يقدم لهم دائما ما يلزمهم للمعيشة وضروريات الحياة ليس الا . وسيأكلون سوية كما يفعل الكهنة في الاديرة ، وينامون ســوية في معسكر واحد كالجنود في بساطة ، اذ يجب على الاصدقاء الاشتراك في كل شيء كما كان يقول فيثاغورس . وبذلك نكون قدعقمناسلطتهم وازلنا السم منها. وسيكون الشرف وخدمة الشعب ، هو المكافأة الوحيدة لهم . وسيكونون رجالا اعدوا بقصد منذ البداية على الرضى والموافقة على هذه الوظائف ذات الموارد المـــادية المحدودة . وتعلموا في النهاية بفضل اعدادهم وتدريبهم الشديد الطويل تقدير قيمة وسمعة الحاكم الاداري وتقديمهـــا على ارباح ومرتبات رجال السياســـة الباحثين على المناصب والكراسي ، التي تدر عليهم الارباح الطائلة الوفـــيرة .

وبقدوم هؤلاء الفلاسفة الذين هيأهم افلاطون لحكم الدولة وحمايتها ينتهي الصراع والمنافسة بين الاحزاب السياسية الذي تعاني منه الكثير من الدول في يومنا هذا .

ولكن ما هو موقف زوجات هؤلاء الفلاسفة منهم ؟ هل سيقنعن بالابتعاد عن ترف الحياة وبذخها ، وزخارفها ومتعها وزينتها ؟ سوف لايكون لهؤلاء الحماة والحكام والولاة زوجات . وستكون شيوعيتهم خالية من الزوجات كما هي خالية من المتاع . بحيث لاتحرر نفوسهم من اثرة النفس فحسب ، بل ومن اثرة العائلة ايضا . وتكون حياتهم خالية من قلق ومتاعب الكسب التي تنخس الزوج ، فلا تكون حياتهم للزوجات بل للشعب باسره . وحتى اطفالهم لن يكونوا لهم على وجه التعيين والتخصيص ، حيث يؤخذ اطفالهم من امهاتهم ، عند ولادتهم لتربيتهم تربية مشتركة بعيدة عن العائلة . وبذلك تضيع ابويتهم . ستعنى جميع الامهات الحارسات باطفال الحماة والحكام . وتتطور اخوة الانسان في داخل هذه الحدود تدريجيا من الاسم للحقيقة وكل ولد يصبح اخا للولد الاخر وكل بنت تصبح اختا للبنت الاخرى وكل امرأة تصبح اما للجميع .

ولكن من اين تجيء هذه النساء ؟ بعضهن بلا شك ، يطلب يدهن الحماة من نساء الطبقة العسكرية او الصناعية وبعضهن يكن قد اصبحن من طبقة الحماة والحكام نفسها بفضل جهودهن وحقهن . اذ لايمنع افلاطون حق النساء في الوصول الى اعلى مراتب الدولة اذا نجحن في جميع الامتحانات والمطاليب الشاقة التي يتطلبها الوصول الى هذه الطبقة الحاكمة ولا يفرق بين المرأة والرجل ومساواتها معه في التعليم . حيث تقدم امام البنات نفس الفرص التي تقدم للاولاد . وتكون امامها نفس فرصة الولد في النهوض الى اعلى المراتب في الدولة وعندما اعترض جلاكون على ذلك بقوله ان انتساب المرأة في احدى المناصب على الرغم من أنها اجتازت الفحوص والامتحانات يتنافى مع مبدأ

توزيـع العمل ، على اساس انصراف المرأة للبيت والرجـل للعمل ، تلقى من افلاطون جوابا حادا بقوله ان تقسيم العمل يجب ان يكون قائما على المقـدرة والاهلية والكفاءة ، لا على الجنس . واذا اثبتت المرأة مقدرتهـا على الادارة السياسية ، دعها تحكم . واذا اثبت الرجل نفسه قادرا على غسل الصحون ، دعه يقوم بالعمل الذي اعدته العناية الالهية له .

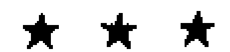
غير ان الشركة في الزوجات لاتعني التزويـج والتوليف بغير تمييـز . اذ سيقوم اشراف دقيق على جميـع انواع التناسل وتحسينه ، وهنا بدأت مناقشة تربية الحيوانات لأول مرة . فاذا كنا نحصل على مثل هذه النتـائج الحسنة في تربية وتوليد الماشية التي اختيرت لجودة نوعها ، وفي التوليد من افضل هـذه الماشية في كل وقت ، لماذا لانطبق مثل هذا التناسل على البشر ! لأنه لا يكفي تعليم الطفل تعليماً حسناً ، وينبغي توليده توليداً حسناً ، من ابوين قويـين صحيحين ، يجب ان يبدأ التعليم قبل الولادة . فلا يتناسل رجل وامرأة ما لم يكونا في صحة جيدة . ويطلب من كل عريس وعروس تقديم شهـادة تثبت صحتهما . فينجب الرجال بعد سن الثلاثين فقط ، ودون سن الخامسة والاربعين ويدفع الرجال الذين بلغوا سن الخامسة والثلاثين ولم يتزوجوا ضريبة الهنـاء ، والنسل الذي يلد بغير تصريح او اذن في التناسل ، او مصاب بعاهة ، او مشوه الخلقة ، يكشف عليه ويترك ليموت . وقبل وبعد السن المخصصة للتناسل يباح الاتصال الجسدي ، ويكون حرا ، شريطة اسقاط الجنين واجهاضه . نحن نمنح هذا الاذن مقرونا باوامر شديدة على النساء والرجال بان يبـذلوا كل جهودهم وقوتهم في ان لايرى جنين ضوء الشمس في مثل هذه الحالة . وان يفهموا ان هذا التناسل لا نقره وان ينظموا امورهم وفقا لذلك . ان تزاوج الاقارب محظور لأنه يضعف النسل . ويتزاوج افضل الرجال مع افضل النساء كثيراً بقـدر

الامكان . وضعاف الرجال مع ضعاف النساء . وان تشرف النساء على تربية نسل واحد دون الآخر ، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة في حفظ الجماعة في افضل الشروط ... ويباح لاشجع شبابنا وافضلهم بالاضافة الى القاب الشرف والجوائز الاتصال بعدد اكثر من النساء . لان مثل هؤلاء الآباء ينبغي ان ينجبوا اكثر عدد ممكن من الاولاد .

والا نقتصر في حماية مجتمعنا ذي النسل الحسن من الامراض والفساد في الداخل فحسب ولكن ضد الاعداء من الخارج ، بأن يكون مستعدا اذا استدعت الضرورة لشن حرب ناجحة . ان مجتمعنا النموذجي سيكون طبعا مجتمعا مسالما ، لانه سيحدد عدد السكان ضمن حدود موارد البلاد وامكانياتها . ولكن الدول المجاورة التي لم تنظم نفسها مثل نظامنا تنظر الى الرخاء المنظم في دولتنا المثالية ، ويدفعها هذا الرخاء الى غزونا ونهبنا . لذلك ، مع اننا نأسف لاتخاذ هذا الاجراء الذي تستدعيه الضرورة للدفاع عن دولتنا ، يجب ان نجند من طبقتنا المتوسطة عددا كافياً من الجنود المدربين تدريباً حسناً ، ويعيشون عيشة خشنة وبسيطة مثل حماتنا وحكامنا ، على موارد بسيطة يسيرة ذكرناها يقدمها لهم الشعب . وفي الوقت ذاته ينبغي اتخاذ كل حرص ممكن لتجنب الحرب . والسبب الاول الذي يجب ان نتجنبه هو الزيادة في السكان ، والثاني التجارة الخارجية وما يترتب عليها من نزاع لامفر منه ، لان المنافسة التجارية في الواقع نوع من انواع الحروب ، والسلام في هذه الحالة اسم فقط . لذلك من الافضل اقامة دولتنا المثالية في الداخل لا على الساحل . وذلك للابتعاد بها ، واغلاق ابوابها امام اي تطور كبير في التجارة الخارجية ، لأن البحر يغمر البلاد بالتجار والمرابين والساعين لجمع المال والبضائع والمساومة . وينمي في عقول الرجال الشره والنهم المالي وعدم الاخلاص ، في علاقاتهم الداخلية والخارجية

على السواء . كما تستدعي التجارة الخارجية بناء اسطول حربي كبير لحمايتها والدفاع عنها ، والبحرية الحربية لاتقل سوءاً عن العسكرية الحربية . وفي الحالتين يكون المسؤول عن جريمة الحرب فئة قليلة من الناس ، بينما يكون معظم الشعب مسالما . ان اكثر الحروب وقوعا على وجه التدقيق واكثرها خسة وحقارة هي الحرب الاهلية التي يحارب فيها اليونانيون بعضهم . فليؤلفوا فيما بينهم عصبة الامم الهيلينية العامة ، ويتحدوا لئلا يقعوا جميعا في يوم من الايام تحت استعمار الشعوب . وهكذا فان بناءنا السياسي تعلوه طبقة صغيرة من الولاة والحكام ، وتحميه طبقة كبيرة من الجنود « والمساعدين » ويقوم على القاعدة الواسعة من الشعب وهي طبقة التجار والعمال والفلاحين . ان هذه الطبقة الاخيرة من الشعب تحتفظ بالملكية الفردية ، او بعبارة اوضح يحق لها اقتناء الاملاك الخاصة والزوجات الخاصة والعائلات والاسر الخاصة . ولكن يقوم الحكام بتنظيم التجارة والصناعة لمنع الافراط في الثروة والفقر . وكل شخص يملك اكثر من اربعة اضعاف الحد المتوسط لما يملكه المواطنون يجب ان يترك هذه الزيادة الى الدولة ، وقد نعمل على منع الفائدة على الاموال (الربا) وتحديد الارباح . ان شيوعية الحكام لن تكون عملية بالنسبة الى الطبقة الاقتصادية في الشعب ، لان الصفات المميزة لهذه الطبقة هي غريزتها القوية إلى الكسب والربح والاقتناء والمنافسة . قد يوجد بين افراد هذه الطبقة الاقتصادية بعض النفوس النبيلة الحرة من حمى الصراع على الامتلاك ، ولكن اكثرية افراد هذه الطبقة تملكهم رغبة التملك والاقتناء ، وليست بهم رغبة قوية في بلوغ التقوى والصلاح والشرف ، ولكن لمضاعفة التملك والكسب والاقتناء بلا نهاية . ان الذين يشغلهم جمع المال والسعي وراء الثروة لايصلحون لحكم الدولة . وكل خطتنا تقوم على امل انه لو قام الحكام بالحكم جيدا ، وعاشوا ببساطة كما ذكرنا ، فسيقوم رجال الاقتصاد

طوعا بتركهم يحتكرون الحكم وادارة البلاد ، اذا سمحوا لهم باحتكار الرخاء والثروة . وبالاختصار فان المجتمع المثالي الكامل هو الذي تعمل كل طبقة وكل وحدة فيه العمل الذي يتناسب مع طبيعتها وينسجم مع اهليتها وصلاحيتها ومقدرتها . حيث لاتتدخل طبقة بامور الاخرى ، او فرد باعمال الآخر ، ولكن يعمل الجميع في تعاون لانتاج عام فعال ومنسجم ، لاشك ان مثل هذه الدولة ستكون دولة عادلة .



٩ ـ الحل الاخلاقي

والآن فقد انتهى انحرافنا السياسي . ونحن الآن على استعداد للاجابة على السؤال الذي بدأنا به ، ما هي العدالة ؟ يوجد في هذا العالم ثلاثة اشياء جديرة بالاهتمام وهي العدالة والجمال والحقيقة ، وقد يكون من المتعذر تعريف اي واحد منها ، لقد تساءل حاكم روماني في فلسطين بعد اربعمئة سنة من افلاطون عن الحقيقة ؟ ولم يجب الفلاسفة كما لم يخبرونا ما هو الجمال . ولكن افلاطون خاطر ووضع تعريفاً للعدالة فهو يقول ان العدالة هي ان يملك الشخص ويفعل ما هو ملكه .

ان سماع هذا التعريف مثبط للهمة ، ومخيب للأمل ، فقد توقعنا بعد هذا الانتظار الطويل ان نسمع منه وحيا منزهاً عن الخطأ . ماذايعني بهذا التعريف ؟ انه يعني ببساطة ان كل انسان يجب ان يتلقى ما يساوي انتاجه ، وان يؤدي العمل الذي يتناسب مع طبيعته ومقدرته . فالانسان العادل هو الانسان الذي وضع في مكانه الحق . باذلاً جهده ومقدماً تماماً ما يساوي ما يتلقاه . وبذلك فان المجتمع الذي يتألف من الرجال العدول سيكون مجتمعاً عظيم الانسجام والفعالية . حيث يكون كل عنصر فيه موضوعاً في مكانه ، قائما بانجاز اعماله المناسبة له كآلات الفرقة الموسيقية الكاملة ، حيث تكون العدالة في المجتمع اشبه شيء بانسجام العلاقات التي تجمع الكواكب في حركتها المنظمة . او في حركتها الموسيقية كما

يقول فيثاغورس . ان مجتمعاً منظماً بمثل هذا النظام يكون صالحاً للبقاء .
وعندما يخرج الناس من اماكنهم الطبيعية ، وعندما يحط رجل الاعمال من
قيمة رجل الدولة ، وعندما يغتصب الجندي مكان الفيلسوف يفسد
التنسيق بين الاجزاء وتفسد المفاصل ، ويفسد المجتمع وينحل . وعلى هذا
فالعدالة تنسيق فعال . والعدالة في الفرد ايضاً تنسيق وترتيب فعال . وعمل
العناصر المنسجمة في الانسان ان يكون كل عنصر في مكانه ، وكل عنصر يؤدي
دوره المرتب في السلوك في كل فرد نظام او اضطراب من الرغبات ، والعواطف
والافكار ، دع هذه تعمل بانسجام . وبذلك يعيش الفرد وينجح . ودعها
تترك مكانها وعملها المعين حيث تحاول العاطفة توجيه العمل ، وتزويده بالضوء
والحرارة (كما في المتعصب) اودع الفكر يوجه العمل ويمده بالضوء والحرارة
(كما في العاقل) هنا يبدأ انحلال الشخصية ، ويقترب الفشل . ان العدالة نظام
وجمال اجزاء الروح ، وهي للروح كالصحة للجسم . ان جميع الشرور
ناجمة عن عدم الانسجام بين الانسان والطبيعة ، او بين الانسان والناس ،
او بين الانسان ونفسه .

وهكذا يجيب افلاطون على السفسطائي ثراسياخوس وعلى كاليلكس ،
وعلى جميع اتباع نيتشه جواباً ابدياً بقوله ، ان العدالة ليست مجرد القوة
ولكنها انسجام القوة والرغبات . والعدالة ليست حق الاقوى ، ولكنها
الانسجام الفعال للكل . حقاً ان الفرد الذي يخرج من مكانه الذي اعدته له
طبيعته ومواهبه قد يجني بعض الفوائد والمنافع حيناً من الوقت ، ولكن
الانتقام الالهي يتبعه ويلاحقه كما ذكر اناكساجوراس ان فوريس (آلهات
الانتقام عند اليونان) تتبع كل كوكب يبتعد عن مداره . ان عصا الطبيعة
المخيفة تعيد الآلة الموسيقية الجموحة الى مكانها والى مقام
نغمتها . قد يحاول اليوزباشي الكورسيكي (نابليون) حكم اوروبا بطغيان

يتناسب مع دولة ملكية مطلقة قديمة اكثر من تناسبه مع دولة ولدت في يوم وليلة ، ولكن سينتهي في سجن على صخرة في البحر تشهد بانه عبد لطبيعة الاشيـاء وان الظلم لا يدوم .

لا جديد في هذا الرأي . والواقع اننا نفعـل خيراً في الشك في كل مبدأ فلسفي يفخر بكونه جديداً ، ان الحقيقة تغير اثوابها دائماً (مثل كل سيدة) ولكنها وراء العادة الجديدة تبقى كما هي دائما . وفي الاخـلاق لا نحتاج الى بدع مفزعة . وعلى الرغم من مخاطرات السفسطائيين وغيرهم من اتبـاع نيتشه فان جميع الاراء الاخلاقية تدور حول مصلحة الجميع . ان علم الاخلاق يبدأ مع الاجتماع والتنظيم . والحياة في المجتمع تستدعي التنازل عن جزء من سيادة الفرد للنظام العام ، واخيراً يصبح جوهر السلوك صلاح الجماعة . ان الطبيعة تريدها بهذا الشكل ، وحكمها يكون دائما قاطعاً ونهائياً . تتوقف حياة الجماعة في منافستهـا وصراعهـا مع جماعـة اخرى ، على وحدتها وقوتهـا ، ومقدرة اعضائها في التعاون ، من اجل الغايات المشتركة . وأي تنسيق يكون افضل من ان يقوم كل شخص بفعل الامور التي يجيدها ويتقنها اكثر من غيرها ؟ هذا هو هدف التنظيم الذي يجب ان ينشده كل مجتمع اذا اراد الحياة ، لقد قال المسيح ان الاخلاق هي ابداء اللطف نحو الفقراء . وقال نيتشه انهـا شجاعة القوي ، وقال افلاطون هي الانسجام الفعال للكل . ربما يجب جمع هذه المبادىء الثلاثة لايجاد اخلاق كاملة ، ولكن هل نستطيع ان نشك ، أي قول من هذه الاقوال هو الاساسي .

١٠ ــ نقد

والآن ما الذي ينبغي ان نقوله في هذه الدولة المثالية ؟ هل هي عملية ؟ واذا لم تكن كذلك هل تنطوي على اية معالم عملية يمكن استخدامها والاستفادة منها في ايامنا المعاصرة . وهل تحققت هذه الدولة المثالية في اي مكان من الامكنة ؟ .

لا شك ان الجواب الاخير على هذه الاسئلة يكون في صالح افلاطون . فقد حكم اوروبا لمدة الف سنة تقريباً نظام من الحراس والحكام شبيه بالنظام الذي وضعه فيلسوفنا . وقد جرت العادة في القرون الوسطى على تنظيم السكان في البلاد المسيحية الى طبقة من العمال ، وطبقة من الجنود واخرى من رجال الدين . وقد احتكرت الطبقة الاخيرة على الرغم من قلة عددها وسائل التعليم ، وحكمت حكماً مطلقاً اعظم قارة في قوتها في العالم . لقد احتلت هذه الطبقة الحاكمة مناصب الدولة ومراكزها لا عن طريق الانتخابات والتصويت ، ولكن بفضل مواهبها في الدراسات الدينية والادارية ، وميلها الى حياة الفكر والتأمل والبساطة (ومن الممكن ان نضيف الى ذلك) وبنفوذ اقاربها في الدولة والكنيسة . وفي النصف الاخير من حكم هذه الطبقة ، حررت نفسها من مسؤوليات العائلة كما اراد افلاطون . وفي بعض الحالات لم تتمتع بحرية الاتصال الجنسي او التناسل الذي اباحه افلاطون لحكامه وحراسه . لقد كانت

الفردية والعزوف عن الزواج جزءاً من البناء النفساني لسلطة رجـــال الدين .
وبذلك تحرروا من الاثرة والانانية العائلية الضيقة ، هذا بالاضـافة الى ان
سيطرتهم الواضحة على نداء الجسد زادت في رهبة الآثمين والمذنبين منهـــم
واستعدادهم للاعتراف بخطاياهم وذنوبهم لهم .

لقد استمدت السياسة الكاثوليكية الكثير من (كذبة افلاطون الملوكية)
التي تحدثنا عنها ، او تأثرت بها ، ان فكرة جهنم والاعراف او المطهر ، والجنة
في اشكالها التي عرفت بها في القرون الوسطى مستمدة من الكتـاب الاخير
من جمهورية افلاطون ، كما ان القزمولوغيا وعلم نظام الكون «التي تعود الى درجة
كبيرة الى المذهب الواقعي (الحقيقة الواقعية الموضوعية للافكار العامة)
كانت تفسيراً لمبدأ المثل الافـلاطوني . وحتى البرنامج التعليمي (الحساب
والهندسة والفلك والموسيقى) صيغ على نمط منهاج افلاطون التعليمي . وبهذا
المبدأ تمكن رجال الدين من حكم اوروبا بسهولة وبدون اللجوء للقوة . وقبلت
شعوب اوروبا هذا الحكم طوعاً حتى انهـــا قامت بتقديم المساعدات المادية
الكبيرة لحكامها لمدة الف سنة تقريباً ، ولم تطـالب هذه الشعوب الاوروبية
بالاشتراك في الحكومة . وركع التجار والجنود وامراء الاقطاع على ركبهم امام
روما التي بنت اعظم منظمة شاهدها العـالم . لقـد كان اليسوعيون
(الجزويت) الذين حكموا براغواي نصف حراس وحكام افلاطونيين .
وكانوا جماعة دينية ذات معرفة وبراعة في وسط السكان المتوحشين .
كما اتخذ الحزب الشيوعي الذي حكم روسيا بعد ثورة نوفمبر عام ١٩١٧
شكلاً شبيهاً لدرجة تدعو الى الدهشة بما جاء في جمهورية افلاطون .
فقد كان الحزب الشيوعي عندما استولى على السلطة في روسيا في ذلـك الوقت
اقلية صغيرة جمعت افرادها بعضهم لبعض عقيدة دينية (الشيوعية) كرست

نفسها لاهدافها بشدة كما كرس القديسون انفسهم لدياناتهم . وتعيش عيشة معتدلة ومقتصدة مع انها تحكم نصف اوروبا .

ان هذه الامثلة تشير الى ان خطة افلاطون خطة عملية اذا ادخل عليهابعض التقييدات والتعديلات، والحقيقة ان افلاطون نفسه قد استمد افكاره الى مدى كبير من انظمة عملية شاهدها اثناء سفره وتجواله . لقد تأثر بحكومة رجال الدين في مصر . حيث وجد هناك شعباً عظيماً ، ومدنية قديمة تحكمها طبقة صغيرة من رجال الدين ، بالمقارنة مع حكم الطغيان والنزاع والضعف وعدم المقدرة الذي كان يطبع نظام الحكم في اثينا في ذلك الوقت. فقد شعر افلاطون ان الحكومة المصرية تمثل دولة ارقى وارفع بكثير من دولة اثينا . كما اقام في ايطاليا بعض الوقت مع الجماعة الفيثاغورية . وهي جماعة نباتية وشيوعية ، سادت اجيالاً طويلة المستعمرة اليونانية التي كانت تعيش فيها . وشاهد في اسبارطة طبقة صغيرة حاكمة ، تعيش عيشة مشتركة بسيطة وخشنة وسط الشعب الذي تحكمه ، تأكل سوية وتحدد التزاوج لاسباب تناسلية ، وتقدم للشجاع ميزة تعدد الزوجات . ولا شك انه سمع يوريبيد يدعو الى الاشتراك في الزوجات وتحرير العبيد ، واحلال السلام في العالم اليوناني باقامة العصبة الهيلينية . ولا شك ايضاً ان افلاطون قد عرف بعض الكلبيين الذين تطوروا بحركة شيوعية قوية بين ما نسميهم الآن اليساريين السقراطيين . وبالاختصار ، لا بد ان يكون افلاطون قد شعر انه في عرض خطته لم يتجاوز تقديم خطة تقوم على الحقائق التي شاهدها بنفسه اثناء طوافه وتجواله .

ومع ذلك فقد وجد النقاد من ايام ارسطو حتى ايامنا هذه في جمهورية افلاطون فجوات وفتحات كثيرة للاعتراض والشك . لقد قال ارسطو عن هذه الاشياء التي جاء بها افلاطون باختصار انها عرفتها الشعوب منذ اجيال

بعيدة . ويقول ، حقاً انه امر جميل ان تضع خطة لاقامة مجتمع يرتبط فيه الرجال برابطة الاخوة . ولكن توسيع هذا المجتمع بحيث يشمل جميع الذكور المعاصرين يؤدي الى فتور الرغبة والهمة والحرارة . وينطبق هذا ايضاً على الاشتراكية في الاراضي والاملاك ، لانه يعني اضعاف الشعور بالمسؤولية .عندما يشترك الجميع في ملكية الاشياء ، يخف اهتمامهم بها ، ويستطرد ارسطو المحافظ الكبير فيقول ، ان الشيوعية ستلقي بالناس الى اتصال بعضهم ببعض بطريقة مستمرة وبشكل لا يطاق او يحتمل . وسوف لا تترك مكاناً للفردية او الحرية البيتية والعزلة والوحدة ، وتفترض ان بعض الفضائل مثل فضيلة الصبر والتعاون لا يقوى عليها سوى الاقلية من الناس التي تحيط حياتها القداسة . هذا بالاضافة الى اننا لا ينبغي ان نقدم مستوى للفضيلة فوق طاقة الشخص العادي بحيث يجب اعتبار الحياة التي يستطيع اكثرية الشعب المشاركة فيها ، واشكال الحكومات التي تستطيع ان تبلغها الدول على وجه العموم ، او بعبارة اوضح فان نظام افلاطون مفرط في المثالية ، وفوق مستوى طاقة الناس .وحكومته المثالية التي وصفها في كتابه الجمهورية حكومة غير عملية ومفرطة في المثالية .

وهكذا فان نقد ارسطو اعظم تلاميذ افلاطون (وأشدهم غيرة) يسير في نفس الاتجاه مع نقد معظم النقاد المتأخرين لافلاطون .

لقد ذكر ان افلاطون قلل من اهمية العرف والعادة المتأصلة في نظام وحدة الازواج « عدم تعدد الازواج والزوجات » والناحية الاخلاقية المرتبطة بهذا النظام وقلل من اهمية غيرة الرجال ورغبتهم في امتلاك المرأة مفترضاً اقتناع الرجل بنصيب وجزء من هذه المرأة . كما قلل من غريزة الامومة في المرأة مفترضاً موافقة الامهات على اخذ اطفالهن منهن ، وتربيتهم بغير ان يعرفوا ابويهم . وفوق كل شيء فقد نسي في الغائه لنظام الاسرة انه يقضي على اعظم مصدر للتربية

الخلقية . ويدمر المصدر الاساسي لهذه العادات الشيوعية والتعاونية التي اراد لها ان تكون القاعدة النفسانية لدولته ، وبفعله ذلك فقد نشر بيده غصن الشجرة التي يجلس عليها .

ونستطيع الاجابة ببساطة على جميع هذه الانتقادات التي وجهت لافلاطون بانها ليست في محلها او موضعها ، وهي كمن يحاول تدمير شبح وهمي او مخلوق خيالي . لان افلاطون يستثني بصراحة اكثرية الشعب من خطته الشيوعية ، ويدرك بوضوح كاف ان القلة من الرجال فقط يقدرون على التضحية بالامور المادية والمنافع الذاتيه . وهذه القلة هي التي يقترح افلاطون تأليف الحكومة منها . حيث تكون الاخوة خاصة بهذه الطبقه فقط ، حيث يعتبر كل رجل الآخر اخاً ، وكل بنت اختاً ، ويحرم الذهب والمتاع على هذه الفئة فقط . اعني فئة الحكام والحراس للدولة . او بعبارة اوضح الطبقة الحاكمة . اما اكثرية الشعب فستحتفظ بجميع النظم والحقوق من العقار والمال والترف ، والمنافسة وكل حرية خاصة ترغب بها . وستكون زوجاتهم خاصة بهم لا يشاركهم بها احد ، وما تقوم عليه الاسرة ونظام وحدة الازواج والزوجات من فضائل خلقية . وسيحتفظ الآباء بزوجاتهم ، والامهات باطفالهن . اما بالنسبة الى الحكام ، فهم لا يحتاجون الى نزعة شيوعية بمثل ما يحتاجون الى معنى الشرف ومحبته والتعلق به ، والفخر وليس اللطف هو الرابطة التي سترتبطهم وتجمعهم . اما بالنسبة الى غريزة الامومة فهي لا تكون قوية قبل الولادة حتى نمو الطفل ، فان الام العادية تقبل المولود الجديد باستياء اكثر من الفرح ، وحب الطفل ينمو ويتطور مع الوقت وليس معجزة مفاجئة ، وينمو هذا الحب بنمو الطفل ، بفضل جهود الام وعنائها في تربيته .

اما الاعتراضات الاخرى على افلاطون فهي اعتراضات اقتصادية اكثر منها نفسانية . وتشير هذه الاعتراضات الى ان افلاطون في جمهوريته استنكر تقسيم

كل مدينة الى مدينتين كما ذكرنا وهما مدينة الفقراء ومدينة الاغنياء ، وبعدئذ نجده يقدم لنا مدينة تنقسم الى ثلاث مدن. والجواب على هذا الاعتراض ان التقسيم في الحالة الاولى ناجم عن الصراع الاقتصادي بين الاغنياء والفقراء . اما في دولة افلاطون فقد استثني الحكام والمساعدين من الاشتراك في هذه المنافسة حول الذهب والمتاع والمادة . وهنا يرد على افلاطون اعتراض وهو ان نظامه سيجعل من الحكام اصحاب سلطة بغير مسؤولية ، وقد يؤدي هذا الى تحولهم في حكومتهم الى طغيان . او بعبارة اوضح فان الحكام الذين اعتبرهم افلاطون فوق القانون ، والذين لا يقيد حكمهم برلمان عن الشعب يكون بمثابة العين الحارسة لتصرفاتهم ، وبمثابة صمام الامان لحكمهم قد يحيلون هذه السلطة في ايديهم الى مصالحهم الخاصة ، وبذلك يتحول حكمهم الى طغيان واثرة لمنافعهم .ولكن هذا الامر مستبعد لان سلطتهم سياسية وتوجيهية وليست اقتصادية او مادية . او بعبارة اوضح فان ما في يدهم هو السلطة السياسية والتوجيهية وليس الاقتصاد والثروة . وبذلك تستطيع الطبقة الاقتصادية المؤلفة من العمال والمزارعين والتجار وغيرهم اذا كانت غير راضية عن تصرف هؤلاء الحكام وطريقتهم حجب تقديم المؤنة والطعام عنهم ، وبذلك تأمن انحرافهم وتحويل السلطة التي في يدهم لمصلحتهم .

ولكن اذا كانت سلطة الحكام سياسية وليست اقتصادية كيف يمكنهم الاحتفاظ بهذه السلطة ؟ ألم يظهر كارل ماركس وهارينجتون وغيرهم بان السلطة السياسية ليست سوى انعكاس للسلطة الاقتصادية ، وتصبح مزعزعة ومقلقلة بمجرد ان تنتقل السلطات الاقتصادية الى الجماعة الخاضعة سياسياً ، كالطبقات الوسطى في القرن الثامن عشر ؟ .

ان هذا يمثل اعتراضاً جوهرياً ، وربما كان اعتراضاً مميتاً . وقد يكون الجواب عليه هو ان الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي ركع امام سلطتها حتى

الملوك ، كانت تقوم في القرون الاولى من حكمها على العقيدة اكثر منها على الثروة ، ولكن ربما تكون سيادة الكنيسة الطويلة هذه بسبب اوضاع اوروبا الزراعية ، حيث تميل الشعوب الزراعية الى الايمان بالقوى الخارقة بسبب اعتمادها اليائس على اهواء العناصر الطبيعية ، وعجزها عن السيطرة على الطبيعة التي تؤدي دائماً الى الخوف الذي يؤدي الى العبادة. وبتطور الصناعة والتجارة ، ظهر نوع جديد من العقول والرجال ، اكثر واقعية ودنيوية ، وبدأت سلطة الكنيسة في الانهيار بمجرد ان بدأ الصراع بينها وبين هذه الحقيقة الاقتصادية الجديدة . يجب على السلطة السياسية باستمرار تكييف نفسها مع ميزان القوى الاقتصادية المتغير . ان اعتماد حكام افلاطون الاقتصادي على الطبقة الاقتصادية سيحيلهم الى حكام سياسيين خاضعين لهذه الطبقة الاقتصادية . وحتى احتكار السلطة العسكرية في ايديهم سوف لا يحول دون هذه النهاية التي لا مفر منها ، تماماً كما اخفقت القوات العسكرية في روسيا الثورية في منع زيادة امتلاك الارض امتلاكاً شخصياً بين الفلاحين الروس الذين يسيطرون على الاطعمة وبذلك يسيطرون على مصير الشعب . وهنا سوف لا يبقى لافلاطون سوى ان نقول فقط ، وهو انه على الرغم من ان السياسات السياسية تقررها الجماعة المسيطرة على الاقتصاد في البلد ، فان من الافضل ان يقوم على ادارة هذه السياسة موظفون اعدوا خصيصاً لهذا الغرض ، بدلاً من رجال يتعثرون ويقفزون من الاوساط التجارية والصناعية الى المناصب السياسية بغير اعداد او تدريب في شؤون ادارة الدولة .

ان ما ينقص افلاطون على ما يحتمل ، هو (معنى) التدفق والتغيير ، فهو حريص جداً على وضع صورة هذا العالم المتغير في اطار ثابت دائم . فهو يحب النظام بشكل خاص ، كأي فيلسوف هياب وجل ، ارعبه الاضطراب الديمقراطي في اثيناودفعه الى تطرف كبير في اغفال قيمة الفرد ،فهو

ينظم الناس ويرتبهم في طبقات مما يرتب عـــالم الحشرات الذباب ، ولا يتورع عن استخدام الترنيمات الدينية لتأمين هذه الغاية. ان دولته دولة ساكنه، ويمكن ان تتحول بسهولة الى مجتمع قديم يتمسك بالقديم ويحكمه الشيوخ الجامدون المعادون لكل اختراع وتغيير . ان دولته علم مجرد عن الفن ، فهي تعظم النظام العزيز على العقل العلمي ، وتهمل الحرية التي هي روح الفن ، انهـا تعبد اسم الجمال ، ولكنها تنفي الفنانين المبدعين وخـدمهم للجمال والمبرزين له . انها اسبارطة او بروسيا، وليست دولة مثالية .

والآن بعد توجيه هذا النقد اللازم الصريح . يتبقى علينا ان نعرب عن ولائنا وتبجيلنا الى القوة والعمق في تفكير افلاطون . فهو بالضرورة على حق ، اليس كذلك ؟ ان ما يحتاجه العالم هو حكم افضل الرجال واحكمهم ، وينبغي علينا تكييف افكاره مع الوقت الذي نعيش فيه . يجب ان نـــأخذ اليوم الديمقراطية كقضية مسلمها ، اذ لا نستطيع تقييد وتحديد حق التصويت كا يقترح افلاطون ، ولكننا نستطيع وضع قيود على تولي المناصب ، وبهذه الطريقة نضمن ونؤمن ذلك المزيج بين الديمقراطية والارستقراطية التي يبدو انها كانت في ذهنه . ويجب ان نتقبل بلا نزاع قوله بوجوب تدريب رجال السياسة تماماً كما نقوم بتدريب رجال الطب . بتأسيس اقسام للعلوم السياسية وشئون ادارة الدولة في جامعاتنا . وعندما تبدأ هذه الاقسام في عملها ، نشترط في المرشحين الى المناصب السياسية ان يكونوا من خريجي هذه المدارس السياسية. ونستطيع ايضاً ان نشترط تدريب الشخص كأساس لتوليه المنصب ، وبذلك نتخلص من نظام التعيينات السياسية المعقدة التي يكمن فيها فساد نظامنـــا الديمقراطي . حيث ندعو الناخبين الى اختيار اي انسان تؤهله مؤهلاته وتدريبه لترشيـــح نفسه ، وبهذه الطريقة يكون الاختيار الديمقراطي أوسع ممـــا هو عليه الآن.

ولا يحتـاج هذا لأكثر من ادخـال تعديل دستوري لتنفيذ هـذه الخطة وحصر المنصب في خريجي الاعمال الاداريه . وان يفتـح باب المساواة في التعليم امام جميع الرجال والنساء . بغض النظر عن ايراد عـائلاتهم الى التدريب الجامعي والتقدم السياسي . ومن السهل تقديم مساعدات دراسية من البلديات والمقاطعات والولايات لجميع خريجي مدارس القواعد اللغوية ، والثانوية والكليات من الذين اظهروا مستوى معيناً من المقدرة ، ولم يتمكنوا مـن مواصلة دراساتهم المقبلة بسبب عجز ذويهم ، اذ ان مثل هذا يجعل الديمقراطية جديرة باسمها .

واخيراً ، من العدل ان نضيف ان افلاطون يعرف ان دولته المثالية لم تظهر بعد في حيز العمل . ويعترف بانه وصف دولة مثالية صعبة التحقيق . ويجيب على هذا بقوله، ان هناك فائدة في رسم هذه الصور التي في اذهاننا ، وان اهمية الانسان تكمن في قدرته على تصور عالم أفضل ، وتحقيق جزء على الأقل من هذه الدولة المثالية . ان الانسان حيوان يعمل الدول المثالية ، ونحن ننظر امامنا وخلفنا ونتوق الى ما ليس في ايدينا ، وهذا لا يعني ان هذا بلا نتيجة ، فقد نما الكثير من الاحلام اطراف فمشت ، او نمت لها اجنحة فطارت ، كحلم ايكاروس حول طيران الناس ، وحتى مجرد رسمنا للصورة قد يفيدنا بجعلها هدفاً ونموذجاً لحكومتنا وسلوكنا . وعندما يتمكن عدد كاف منا من رؤية الصورة وتتبع وميضها ولمعانها ، ستجد الدولة المثالية عندئذ طريقها الى خريطة العالم . وفي الوقت ذاته نكون قد وضعنا في السماء نموذجاً لهذه المدينة لمن يشاء ان يصل اليها ، ويحكم نفسه وفقاً لها . ولكن سواء أكان يوجد في الحقيقة مثـل هذه المدينة ، او سيوجد مثلها على الأرض ، فانه سيعمل وفقاً لقوانين تلك المدينة فقط ، وليس غيرها . لأن الانسان الفاضل سيطبق القانون الكامـل حتى في المدينة الناقصة .

ومع ذلك فقد كان السيد افلاطون شجاعاً جداً، الى مدى المخاطرة بنفسه، عندما سنحت له فرصة لتحقيق خطته . فقد تلقى افلاطون في عام ٣٨٧ قبل الميلاد دعوة من ديونيسيوس حاكم سرقسة المزدهرة القوية عاصمة صقلية في ذلك الوقت . للحضور وتحويل دولته الى دولة مثالية . وأعتقد افلاطون ان من الاسهل تثقيف رجل واحد حتى ولو كان ملكاً من تثقيف جميع النـــاس ، ووافق، ولكن عندما وجد ديونيسيوس ان الخطة تستدعي بان يصبح فيلسوفاً او يتوقف عن كونه ملكاً ، بدأ بينهمانزاع مرير ، والقصة تقول ان افلاطون بعد هذا النزاع بيع في سوق العبيد ، حيث قام بعد ذلك بشرائه وتحريرة من العبودية تلميذه وصديقه الاثيني انيسيرس ، الذي رفض ان يدفع له اتبـــاع افلاطون من الاثينيين الفدية التي دفعهالاعتاق افلاطونطالبامنهمان لا يستأثروا وحدهمفيشرف مساعدة الفلاسفة . قد تكون هذه التجربة الاليمة قد اضافت الى خيبة آمال افلاطون ودفعته الى اتخاذ موقف محافظ كما يظهر في كتابه الأخير وهو كتاب القوانين .

ومع ذلك فقد كانت السنوات الاخيرة التي اختتمت حياته سنوات سعيدة ، وانتشر تلاميذه في كل مكان واتجاه ، واحاطه نجاحهم في حياتهمبالشرف في كل مكان . وعاش في سلام في داخل الاكاديمية، يتنقل من جمـــاعة لاخرى من تلاميذه مقدماً لهم المسائل والواجبات لوضع ابحاث عنها ، لقد عرف افلاطون كيف يتعلم مثل صولون ويعلم مثل سقراط ، ويرشد الشباب ويحظى بحبهم ، فقد احبه تلاميذه كما احبهم ، وكان صديقاً كما كان فيلسوفـــاً ومرشداً لهم .

وقام احد تلاميذه بدعوته لحضور عقد قرانه ، وحضر افلاطون ناعماً

باعوامه الثمانين وشارك الموجودين سعادتهم ، وبعد انتهاء ساعـــات السعـادة والفرح ، جلس الفيلسوف الأعظم المسن على كرسي في احدى الزوايا الهادئـة ليصيب غفوة صغيرة من النوم ، وفي الصباح بعد انتهاء الحفلة اتوا لايقـــاظه فوجدوه قد انتقل من غفوته الصغيرة الى غفوة ابدية ، وسارت كل اثينا وراءه الى مثواه الاخير .



الفصل الثـــاني

ارسطو والعلم اليوناني

١ ـــ النشأة التاريخية

ولد ارسطو في اسطاغيرا وهي مدينة مقدونية تقع على بعد نحو مئتي ميل من شمالي اثينا ، في عام ٣٨٤ قبل الميلاد . وكان والده صديقاً وطبيباً للملك مينتاس ملك مقدونيا وجد الاسكندر الكبير . ويبدو ان ارسطو نفسه اصبح عضواً في جمعية أخوة اسكيبيادس الطبية . وشب في شذا الطب كما شب الكثيرون من الفلاسفة المتأخرين في شذا الطهارة والقداسة . وتوفرت امامه كل فرصـــة وتشجيع للنمو بعقلية علميـــة . وأعد منذ البداية ليكون مؤسس العلم .

لدينا بعض القصص عن حياته ايام شبابه . واحدى هذه القصص تصوره مبعثراً الاموال التي ورثها في حياة ثائرة ، اضطرته الى الالتحـــاق في الجيش

ليتجنب الموت جوعاً . ويعود الى اسطاغيرا ليمارس الطب، ويذهب الى اثينا في سن الثلاثين ليدرس الفلسفة تحت اشراف افلاطون .

وتذكر قصة اخرى انه ذهب الى اثينا في سن الثامنة عشرة . وانه تتلمذ منذ ذلك الوقت على السيد افلاطون العظيم . وتشير هذه القصة ايضاً الى حياة ارسطو المغامرة الشاذة الطائشة . وتجمع القصتان على ان ارسطو استقر اخيراً بين حدائق الاكاديمية الهادئة .

لقد درس على افلاطون ثماني سنوات او عشرين سنة ، والواقع ان تأملات ارسطو الافلاطونية النافذة الشاملة ، تدل على ان دراسته على افلاطون قد استغرقت عشرين سنة . وحتى افكاره المعارضة لافلاطون توحي بهذه المدة الأطول . يود المرء ان يتصور ان هذه السنوات كانت من سني ارسطو السعيدة . تلميذ لامع تحت ارشاد استاذ لا يضاهى . يسير كعشاق اليونان في حدائق الفلسفة ، وكان كلاهما عبقرياً ولكن التفاهم بين العباقرة امر صعب كتفاهم النار والديناميت . لقد فصلت بين افلاطون وتلميذه ارسطو خمسون سنة تقريباً . وكان من الصعب سد الفجوة التي احدثتها بينهما هذه الاعوام ، واخفاء هذا التناقض بين روحيهما. لقد ادرك افلاطون عظمة هذا التلميذ الجديد الغريب القادم من الشمال من بلاد كانت اثينا لا تزال تعتبرها بلاداً همجية . ووصفه مرة بانه الذكاء المجسم في الاكاديمية . لقد انفق ارسطو باسراف في شراء الكتب وجمعها ، ولم يضاهه في جمع الكتب سوى يوربيد ، لقد جمع ارسطو مكتبة كبيرة ووضع الاساس لتصنيف وتبويب الكتب وهذا من جملة ما ساهم به العلم. مما دفع افلاطون الى تسمية بيت ارسطو بيت القارىء . ويبدو انه اراد أن يقدم لارسطو أخلص تحياته القلبية . ولكن يبدو ان خلافاً حقيقياً وقع بينهما في اواخر ايام افلاطون ، وان شابنا الطموح بدأ يعاني عقدة ضد والده الروحي في

حب الفلسفة والحظوة بها . وبدأ يشير الى ان الحكمـــة سوف لن تموت بموت افلاطون . بينما كان الحكيم المسن يشبه تلميذه بمهر يرفس امه الفرس بعـــد استنزافها وتجفيفهـــا . وهذا يدل على نشوب خلاف بينهما اذ لا دخان بغير نار .

لا تزال الجوانب الاخرى عن حياة ارسطو في هذه الفترة الاثينية غير ثابتة وقابلة للاحتمال . ويخبرنا بعض كتاب مشاهير التاريخ والسير ان ارسطو انشأ مدرسة لتدريس الخطابة لمنافسة ايسوقراط وانه كان بين تلاميذه في هـــذه المدرسة الوسر هيرمياس الذي اصبح بعد مدة وجيزة حاكماً لمدينـــة ولاية اتارنيس . حيث دعا ارسطو الى بلاطه ، وفي عام ٣٤٤ قبل الميلاد كافأ استاذه على فضله عليه بتزويجه اخته (ويقال ابنة اخته) . يشك المرء ان تكون هذه مكافأة يونانية . ولكن المؤرخين يسارعون في الجزم بان ارسطو على الرغم من عبقريته . عاش بسعادة مع زوجته ، وكان يذكرها بالحب والخير . وبعد سنة فقط دعاه الملك فيليب ملك مقدونيا الى بلاط بيلا ، وعهد اليـــه بتثقيف الاسكندر . وقد دلت هذه الدعوة على ذيوع شهرة فيلسوفنا،واتجاه أعظم ملك في ذلك الوقت الى اعظم معلم . واختياره ارسطو ليكون معلماً للاسكندر الذي سيغدو سيد العالم في المستقبل .

لقد عزم فيليب على تقديم كل ميزة من مميزات التعليم لابنه .لانه قد اختط له خططاً واسعة ، فقد مكنه غزوه لتراقيا والاستيلاء عليها في عام ٣٥٦ قبـل الميلاد من السيادة على مناجم الذهب التي بدأت فوراً تقدم له من هذا المعدن النفيس عشرة اضعاف كمية الفضة التي كانت ترد على اثينا من لوريوم . كما امتاز سكان بلاده الفلاحين بالعنف والمقدرة الحربية . ولم تفسدهم بعد مفاسد المدينة ورذائلها وترفها . وقد توفر له بذلك ، الامور اللازمة التي تمكنه من اخضاع

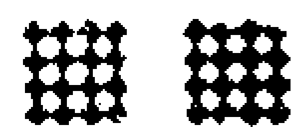
مئة من دول المدن الصغيرة ، وتوحيد اليونان توحيداً سياسياً. لم يشعر فيليب بأي عطف نحو الفردية التي غذت الفن والعقل في اليونان . ولكنها في الوقت ذاته ادت الى تمزيق نظامها الاجتماعي . ولم ير في هذه العواصم الصغيرة التمدن والثقافة المبهجة ، والفن الذي لا يجازي ، بل رأى الفساد التجاري والفوضى السياسية . فقد رأى تجاراً وأصحاب مصارف استبد بهم الجشع وتملكهم الشره واخذوا يمتصون موارد الشعب الحيوية ، ورجال سياسة عاجزين ، وخطباء مفوهين ضللوا الشعب وساقوه الى مؤامرات وحروب وكوارث . وطبقات تمزقت الى جماعات وزمر ، وطبقات تجمعت في شيع وقبائل . لقد قال فيليب، ان هذا ليس شعباً ولكنه خليط من الافراد ، عباقرة وعبيد ، وانه سيحيل هذا الاضطراب الى نظام ، ويوحد اليونان ويقويها ، ويجعلها مركز العالم السياسي وقاعدته . لقد درس في شبابه في مدينة طيبة فن الخطط العسكرية ، والتنظيم المدني تحت اشراف النبيل ابامينوداس ، وبشجاعة لا تقل عن طموحه ، هزم الاثينيين في عام ٣٣٨ قبل الميلاد . ووحد اليونان في النهاية ، على الرغم من كونه توحيداً مقيداً بالسلاسل . وبعد انتصاره هذا وضع الخطط التي تمكنه هو وابنه من سيادة العالم وتوحيده . ولكنه وقع صريع اغتيال اودى بحياته .

لقد كان الاسكندر عند قدوم ارسطو شاباً متوحشاً في الثالثة عشرة من عمره ، وكان عاطفياً ومصاباً بالصرع وكحولياً في الأغلب ، ويصرف وقته في ترويض الخيل الوحشية . ولم تحرز جهود الفيلسوف في تبريد نار هذا البركان الثائر فائدة كبيرة . لقد احب الاسكندر لفترة من الوقت ارسطو العزيز محبة لا تقل عن محبته لابيه ، قائلاً انه على الرغم ان والده انجبه الى هذه الدنيا فقد علمه ارسطو فن الحياة فيها . (يقول مثل سائر يوناني ان الحياة هبة الطبيعة ، ولكن الحياة الجميلة هبة الحكمة) لقد قال الاسكندر في رسالة له لارسطو ،

اني قد افرطت في معرفة الأفضل اكثر من معرفتي عن كيفية توسيع سلطتي وبسط نفوذي ، ولكن هذه الاشارة لم تكن اكثر من تحية ملوكية فتية من الاسكندر الى ارسطو . لقد كان وراء حماسة الفلسفة الحديثة العهد شراسة الطبع المتوقدة لابن ملك متوحش . ولم تقو كوابح العقل على تقييد هذه الاحاسيس الوراثية المنطلقة . وترك الاسكندر الفلسفة بعد سنتين ليرتقي العرش ويفتح العالم . ان التاريخ يفسح امامنا الحرية في (على الرغم من ريبتنا في هذه الافكار السارة) الاعتقاد بأن رغبة الاسكندر في الوحدة قد استمدت بعض قوتها وعظمتها من معلمه ، اعظم مفكر تركيبي في تاريخ الفكر . وان الغزو السياسي من جانب التلميذ ، والغزو الفلسفي من جانب المعلم ليسا سوى جانبين مختلفين لمشروع واحد نبيل وحماسي . حيث يقوم مقدونيان عظيمان في توحيد عالمين تسودهما الفوضى وعدم النظام .

عندما خرج الاسكندر لغزو آسيا ترك وراءه في المدن اليونانية حكومات موالية له ، ولكن شعوب هذه المدن كانت معادية له . لان الحرية قد تأصلت في هذه المدن اليونانية بالاضافة الى ماضي اثينا الامبراطوري . مما جعل اخضاع هذه المدن حتى بالنسبة الى فاتح متألق شهير امراً لا يحتمل . كما ان فصاحة ديموستين جعلت الجمعية العامة دائماً على حافة الثورة ضد الحزب المقدوني الذي كان يتولى زمام الحكم في المدينة . وعندما عاد ارسطو بعد جولة اخرى في الخارج الى اثينا عام ٣٣٤ قبل الميلاد كان من الطبيعي ان ينضم الى الجماعة المقدونية . ولم يخف تأييده وموافقته على حكم الاسكندر وتوحيده للمدن اليونانية . وعندما ندرس الاعمال البارزة المتعاقبة في التأملات والابحاث التي نشرها ارسطو في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة من حياته ، ونرقبه في مهامه المتشعبة ، في تنظيم مدرسته ، وتنسيق كنوز المعرفة التي لم تر اطلاقاً قبل ذلك

بعقل رجل واحد ، فلنتــذكر بهذه المناسبة ان هذا لم يكن طريقاً امينــاً وهادئاً في البحث عن الحقيقة . وان الجو السياسي قد يتغير في اية لحظـــة ، ويؤدي الى هبوب عاصفة في هذه الحياة السياسية المسالمة . وبوضع هذا الموقف موضع الاعتبار في اذهاننا نستطيع ان نفهم فلسفة ارسطو السياسية ونهايتـه الحزنـــة .



٢ ـــ اعمال ارسطو

لم يكن عسيراً على معلم ملك الملوك العثور على تلاميذ له حق في مدينـــة معادية كأثينا . وعندما بلغ الثالثة والخمسين من عمره ، انشــأ مدرسته (اللوقيون) ، واجتمع حوله الكثير من التلاميذ مما استدعى ضرورة وضع ترتيبات معقدة لحفظ النظام . حيث قام التلاميذ انفسهم بتقرير النظـــام وانتخبوا كل عشرة ايام واحداً من بينهم ليشرف على المدرسة . ولكن ينبغي ان لا نفكر بأن هذه المدرسة كانت ذات نظام صارم ، فالصورة التي جاءت لنا تصور لنا طلبة علم يتناولون طعامهم بالاشتراك مع استاذهم ويتعلمون منه عندما كانوا يذرعون معه الميدان الرياضي الذي إستمدت المدرســـة اسمها منه .

لم تكن المدرسة صورة طبق الأصل من المدرسة التي تركها افلاطون وراءه، حيث اختصت اكاديمية افلاطون فوق كل شيء بالرياضيات والفلسفة السياسية التأملية . اما مدرســـة ارسطو فقد مالت اكثر الى تدريس علم الاحيـــاء والعلوم الطبيعية . واذا جاز لنا أن نصدق ما ذكره بليني ، فان الاسكندر امر رجال صيده وبساتنتة وصيادي اسماكه بان يمدوا ارسطو بكـل المواد الحيوانية والنباتية التي يرغب بها ، ويخبرنا كتاب قدامى آخرون انه كان تحت تصرفه في وقت واحد الف رجل انتشروا في انحاء آسيا واليونان ، يجمعون له

النماذج والعينات الحيوانية والنباتية من كل ارض . وقد تمكن بهـذه الثروة المادية من انشاء اول حديقة حيوانية عظيمة شاهدها العالم . ومن العسير ان نبالغ في تأثير هذه المجموعة على علمه وفلسفته .

كيف جمع ارسطو الاموال لتمويل هذه الجهود الكبيرة ؟ لقد كان نفسه في ذلك الوقت رجلاً ذا دخل واسع . فقد ذكر اثيناوس (مع شيء من المبالغة) ان الاسكندر اعطى ارسطو نحو (٨٠٠) وزنة من المال مما يعـادل القوة الشرائية لاربعة ملايين دولار في يومنا هذا ويذكر البعض ان الاسكندر بطلب من ارسطو ارسل بعثة باهظة التكاليف لاكتشاف منابع النيل ،وكشف اسباب فيضانه كل سنة . ان اعمالا كهذه كتنسيق مئة وثمانية وخمسين دستوراً سياسياً اعدت لارسطو ، يشير الى وجود عـدد كبير من المساعدين والموظفين معه ، وبالاختصار ، لدينا هنا أول مثال في التاريخ الاوروبي على تقديم مقادير كبيرة من المال في خدمة العلم . والواقع اننا سنجني كسباً وافراً لو قامت الحكومات في ايامنا بتمويل الابحاث بمقادير كبيرة من المال .

ومع ذلك فاننا نظلم ارسطو لو تجاهلنا المعدات المحدودة التي رافقت هذه المصادر والتسهيلات التي حصل عليها . فقد كان مرغماً على تعيين الوقت بغير ساعة ومقارنة درجات الحرارة بغير ميزان للحرارة ، ومراقبـة السماء بغير مرصد والطقس بغير بارومیتر... فقد كان لديه من بين جميـع المعدات والآلات الرياضية والعصرية التي في حوزتنا ، المسطرة والبوصلة فقط . مع بعض الآلات الاخرى الناقصة ، اذ ان التحليل الكيماوي والمقاييس الصحيحة والاوزان ، وتطبيق الرياضيات على العلوم الطبيعية لم يكن معروفاً بعد . كما ان قانون الجاذبية والظواهر الكهربائيـة ، وشروط التركيب الكيماوي ، وضغط الهواء وتأثيره ، وطبيعة الضوء ، والحرارة والاحتراق وغيرها وبالاختصار ، فـان جميع الحقائق التي تقوم عليها نظريات العلم الطبيعية الحديثة ، كانت جميعها او معظمها لم يتم اكتشافها بعد .

انظر الآن كيف تصنع الاختراعات التاريخ . ان علم الفلك الذي وضعه ارسطو ليس سوى سلسلة من الحكايات المضحكة لعدم وجود مرصد في ذلك الوقت ، وبسبب افتقاره الى المجهر تاه علم الاحياء بعيداً عن الحقيقة ، والواقع ان اليونان تأخرت بعيداً في الاختراعات الصناعية والتقنية عن المستوى العام لما قامت به من اعمال اخرى لا تبارى . ان احتقار اليونان للاعمال اليدوية ابتعد بكل شخص باستثناء العبيد عن الاطلاع المباشر لعمليات الانتاج ، واستخدام الآلات والاتصال بها وهو الحافز الذي يكشف عن عيوبها ، لقد كان الاختراع الفني متوفراً فقط لاولئك الذين ليست لهم رغبة به ، والذين لا يصيبهم اي نفع او فائدة مادية منه . ربما يكون رخص العبيد سبباً في ضعف الاختراعات . فقد كانت العضلات لا تزال ارخص من الآلات ، وهكذا ففي الوقت الذي غزت التجارة اليونانية البحر الابيض المتوسط ، وغزت الفلسفة اليونانية عقول شعوب هذا البحر ، هام العلم اليوناني على وجهه ، وبقيت الصناعة اليونانية في مستوى الصناعة الايجية عندما غزا اليونان هذه البلاد قبل آلاف السنين . وهذا هو السبب بلا شك الذي ابتعد بارسطو عن التجربة والاختبار الا في حالات قليلة ، لان الآلات اللازمة في التجارب لم تكن مصنوعة بعد . واقصى ما يمكن ان يقوم به هو الاعتماد على الملاحظة الكونية المستمرة . ومع ذلك فان المعلومات الواسعة التي جمعها مع اعوانه ، اصبحت اساساً لتقدم العلم ، ونصوصاً للمعرفة لمدة الفي سنة .

يبلغ عدد الكتب التي وضعها ارسطو المئات . ويذكر بعض الكتاب القدامى ان عددها بلغ اربعمئة كتاب . والبعض يقول بلغت الألف . ولكن لم يبق منها سوى الجزء ، ومع ذلك فهي مكتبة في حد ذاتها ، تصور مدى وعظمة الكل . وهي تحتوي أولاً على كتابات منطقية ، « المقولات » « الموضوعات » « المقدمة » « التحليلات التالية » « الموضوع والمحمول » و « الدحض السفسطائي » . لقد جمع هذه الاعمال وحررها الرواقيون تحت

اسم وسائل التفكير الصحيح . وثانياً الاعمال العلمية ، « الطبيعيات » « وفي السماء » « التطور والانحلال » « علم الظواهر الجوية » « التاريخ الطبيعي » « عن النفس » « اجزاء الحيوان » وثالثاً اعمال في فن الذوق والبلاغة « البلاغة » « علم العروض » ورابعاً تأتي الأعمال الفلسفية « الاخلاق » « السياسة » « الميتافيزيقا » و« العلم الالهي » .

هنا نجد بوضوح موسوعة اليونان ، كل مشكلة تحت الشمس تجد مكاناً لها ، ولا غرابة ان نجد اخطاء وسخفاً في ارسطو اكثر من اي فيلسوف آخر ، هنا بحث تركيبي للمعرفة والنظرية لم يبلغه انسان اطلاقاً حتى عصر سبنسر . لقد كانت فلسفة ارسطو غزواً للعالم افضل من غزو الاسكندر للعالم وانتصاره الهمجي ، واذا كانت الفلسفة سعياً للوحدة فان ارسطو جدير بالاسم العظيم الذي اطلقه عليه القرن العشرون — وهو اسم « الفيلسوف .

وطبيعي ان لا نجد في عقل ارسطو العلمي الاسلوب الشعري الجميل الذي يتسم به اسلوب افلاطون ، وعلينا الا نتوقع ذلك الأدب اللامع الذي ينساب باشراق وجمال في صفحات افلاطون المسرحي . وبدلاً من ان يقدم لنا ارسطو ادباً عظيماً ، تتجسم فيه الفلسفة (وتبدو غامضة) في الاسطورة والخيال والاشباح . فهو يقدم لنا علماً فنياً مجرداً مركزاً . ولو ذهبنا له للنزهة والترفيه ودفعنا اجرة دخولنا ، فاننا سنحتج على ما شاهدنا ونطالب باعادة اموالنا لنا. فهو بدلاً من الانصراف الى الاساليب والعبارة الادبية كما فعل افلاطون ، قام ببناء الاصطلاحات الفنية للعلم والفلسفة ، ومن العسير ان نتحدث اليوم عن أي علم بغير استخدام عبارات ابتدعها . وقد يكون هذا الانتقال من الحوار البهيج الذي امتاز به اسلوب افلاطون الى الكتاب العلمي الدقيق خطوة ضرورية في تطور الفلسفة والعلم العمود الفقري للفلسفة . لقد كتب ارسطو ايضاً محاورات ادبية ذاعت شهرتها في ايامها كمحاورات افلاطون ، ولكنها ضاعت ولم تصل لايدينا تماماً كما فقدت كتب افلاطون العلمية .

ربما يكون الزمن قد احتفظ لكل واحد منها افضل جزء من كتاباته .

واخيراً ، من الممكن ان لا تكون الكتـابات التي نسبت الى ارسطو من كتاباته ، وربما كان معظمها من جمع وتصنيف التلاميذ والاتباع الذين طيبوا وعطروا في مذكراتهم جوهر محاضراته الجافة . ويبدوا ان ارسطو لم ينشر في حياته اية كتابات فنية باستثناء كتاباته عن المنطق والبلاغة ، والشكل الحالي لمؤلفاته في المنطق قد حرر بعد ذلك ، اما بالنسبة الى كتاباته ومقـالاته او رسائله في الميتافيزيقا والسياسة ، فيبدو ان الرسائل المختصرة التي تركهـا قام بجمعها منفذ وصيته بغير تنقيح او تغيير . وقد تكون حتى وحـدة الاسلوب التي تميز كتابة ارسطو ، وتدعم اولئك الذين يؤيدون كتابته لها ، ناجمـة عن تحرير المدرسة الرواقية المشترك لها . ان الدخول في تفصيلات حول هــذا الموضوع لا يهم القارىء المنشغل . وقد نكون على يقين في جميـع الحـالات ان ارسطو هو الكاتب الروحي لجميـع هذه الكتب التي تحمل اسمه ، وقد تكون اليد في وضع هذه الكتب في بعض الحالات يـداً اخرى ولكن الرأس والقلب فيها رأس ارسطو وقلبه .

٣ ـ اصل المنطق

ان أول تميز عظيم يمتاز به ارسطو عن سلفه ، وهو من وضعه وتفكيره ، هو وضعه لعلم جديد وهو المنطق . يعتقد رينان بضرورة تدريب العقل بطريقة مباشرة او غير مباشرة على الطريقة الادبية اليونانية . ويرى ان العقل لايكتمل بدون هذا التدريب . والواقع ان العقل اليوناني نفسه كان في حالة من الفوضى وعدم النظام الى ان قدم ارسطو وسيلة لفحص وتصحيح الفكر . وحتى افلاطون كان روحاً منطلقة غير محكمة ، تتخلله سحابة الخرافة دائماً ، ويحجب جبال اسلوبه وجه الحقيقة . كما ان ارسطو نفسه كما سنرى قد خالف القواعد التي وضعها كثيراً ، ولكنه في ذلك الوقت كان لا يزال متأثراً بالماضي ، لا المستقبل الذي قامت افكاره بعد ذلك ببنيه . لقد ادى انحلال اليونان السياسي والاقتصادي الى ضعف العقل والاخلاق الاغريقية بعد ارسطو ، ولكن عندما جاء جنس جديد بعد الف سنة من التأخر والظلام ووجد مرة ثانية الراحة والمقدرة على الفكر والتأمل ، قام بيوثيوس بترجمة منطق ارسطو (٤٧٠ ـ ٥٢٥ ميلادية) الذي اصبح نموذجاً للفكر في العصور المتوسطة ، وأما للفلسفة في القرون الوسطى التي على الرغم من انها كانت مجدبة وعقيمة بسبب العقائد المحيطة بها ، فقد تمكنت من تدريب الفكر والعقل الاوروبي اليافع على التفكير والتعقل

والتأمل والذكاء ووضعت الاصطلاحات الفنية للعلم الحديث ، وارست قاعدة النضوج العقلي لينمو ويقلب نفس النظام والوسائل التي اوجدته وأمدته بالحياة .

ان المنطق يعني ببساطة ، الفن والاسلوب الذي يساعدنا على تصحيح تفكيرنا . انه نظام واسلوب كل علم ، وكل نظام ، وكل فن ، وحتى الموسيقى تلجأ اليه . انه علم ، لان وسائل التفكير الصحيح يمكن اختصارها الى مدى كبير وتحويلها الى قواعد كالطبيعيات والهندسة ، وتدريسها لكل عقل عادي . انه فن لانه بالممارسة يقدم للفكر اخيراً ذلك الاتقان والدقة والضبط اللاشعوري السريع الذي يرشد ويوجه اصابع عازف البيانو بانسجام سهل في العزف على آلته . لا شيء اثقل على الفهم من المنطق ولا شيء اكثر منه اهمية .

لقد وردت اشارات عن علم المنطق الجديد هذا في مناقشات سقراط التي كان يلح فيها دائماً على وضع تعريف للاشياء ، كما ان رسالة ارسطو الصغيرة عن « التعاريف » تظهر ان منطقة قد تغذى من هذا المنبع . اقد قال فولتير اذا كنت ترغب في التحدث معي عرف ما تقول وحدد قولك . كم من نقاش قد ينكمش ويتحول الى مقطع لو تجرأ المتناقشون على تحديد عباراتهم وجملهم ، هذا هو الأول والآخر في المنطق ، وقلبه وروحه ، بان تخضع كل عبارة هامة في حديث جدي الى أشد انواع التعريف والتحديد والفحص . انها طريقة صعبة ، وامتحان لا رحمة فيه للعقل .

كيف يمكننا تحديد الموضوع او العبارة ؟ ويجيب ارسطو على ذلك بقوله ، ان كل تعريف جيد يتألف من جزئين ، ويقف على قدمين ثابتين . فهو اولاً ،

يعين الموضوع الذي يتناوله السؤال الى طبقة او جماعة تشترك معه في مميزاتها العامة . لذلك يكون الانسان أولاً وقبل كل شيء حيواناً ، وثانياً فهويشير الى اي شيء يختلف فيه عن جميع الاعضاء الآخرين في طبقته ، وهكذا فإن الانسان في طريقة ارسطو حيوان عاقل . والفرق الوحيد الذي يميز الانسان عن بقية الحيوانات هو كونه عاقلاً (هنا اصل الاسطورة الجميلة) حيث يسقط ارسطو الموضوع في بحر طبقته ، وبعدئذ ينتزعه وهو يقطر بالمعنى النوعي ، بعلامات نوعه وجماعته . بينما تشع فرديته وفارقه بالمزيد من الوضوح ، نظراً لتلاصق ذاك الموضوع والمواضيع الاخرى التي تشبهه مثل ذلك الشبه الكبير ، وتختلف عنه اختلافاً كذلك .

ان من اهم ما ادخله ارسطو على الفلسفة هو مذهبه في القياس ، والقيـاس تدليل مؤلف من ثلاثة اجزاء ، وهذه الاجزاء الثلاثة هي . مقدمـة كبرى ، ومقدمة صغرى ونتيجة ، وهذه النتيجة تنتج عن الحقيقة المسلم بها في المقدمة الكبرى والمقدمة الصغرى . مثال على ذلك الانسان حيوان عاقل ، ولكن سقراط انسان ، لذلك فان سقراط حيوان عاقل . ان القارىء الرياضي سيرى فوراً ان بناء القياس يشبه التدليل القائل بان الشيئين المساويين الى نفس الشيء يكون احدهما مساويا للآخر . فـاذا كانت (ا) هي (ب) و (س) هي (ا) عندئذ تكون (س) هي (ب) فقد وصلنا الى النتيجة كما في القضية الرياضية بالغاء الحد المشترك (ا) من المقدمتين . وهكذا نصل الى النتيجة في القياس بالغاء الحد المشترك وهو « انسان » من المقدمتين ووصل ما بقي . ان وجه الصعوبة كما اشار رجال المنطق من ايام بيرو الى ايام ستيوارت مـل ، تكمن في ان المقدمة الكبرى في القياس تأخذ النقطة المراد اثباتها قضية مسلماً بها ، لانه اذا لم يكن سقراط عاقلاً (ولا احـــد يشك في ان سقراط انسان)

عندئذ لن تكون القضية القائلة بأن الانسان حيوان عاقل صحيحة صحة شاملة، ويجيب ارسطو بلا شك على انه عندما يتوفر في الفرد عدد من الصفات المميزة لنوع « سقراط انسان » فإن هذا يدل على افتراض اشتراك الفرد في الصفـــات الاخرى المميزة للنوع ،وهي « العقلية ». ولكن القياس على ما يلوح ليس نظاماً آليا لكشف الحقيقة بقدر مــــا هو توضيح للعرض والفكرة .



٤ ـــ تنظيم العلم

١ ـــ العلم اليوناني قبل ارسطو

يقول رينان ، ان سقراط اعطى العالم الفلسفة ، وان ارسطو اعطاه العلم ، لقد كانت الفلسفة موجودة قبل سقراط وكان العلم موجوداً قبل ارسطو ، وتقدمت الفلسفه والعلم تقدماً كبيراً بعد سقراط وارسطو ، ولكن هذا التقدم جميعه كان مبنياً على الاسس التي وضعها هذان الفيلسوفان . لقد كان العلم قبل ارسطو جنيناً ، وولد بمجيئه .

لقد قامت المدنيات السابقة قبل اليونان بمحاولات علمية ، ولكن هذه المحاولات العلمية كانت مرتبطة بالنواحي الدينية ، كما يظهر من افكارهم التي تعبر عنها كتاباتهم الهيروغليفية والاشورية التي لا يزال الغموض يكتنفها . او بعبارة اوضح فان هذه الشعوب التي سبقت اليونان كانت تفسر كل ظاهرة طبيعية غامضة تفسيراً دينياً خارقاً حيث نجد الآلهة في كل مكان .

والواضح لنا ان اليونانيين في ايونيا هم أول من أقدموا على تقديم تفسيرات طبيعيه عن تعقيدات الكون وحوادثه الغامضة . لقد بحثوا في الطبيعيات عن الاسباب الطبيعية وراء الحوادث المعينة ، كما بحثو في الفلسفة عن نظرية طبيعية للكل .

لقد كان طاليس ابو الفلسفة فلكياً ، وقد ادهش سكان ملطيا عندما ذكر لهم ان الشمس والكواكب (التي ينبغي عليهم ان لا يعبدوها كآلهة) ليست سوى كرات من النار . واعتقد تلميذه انكسمندر (٦١٠ - ٥٤٠ قبل الميلاد) وهو أول يوناني يقوم بوضع خرائط جغرافية وفلكية، ان العالم قد بدأ من كتلة متشابهة ، وان الاشياء كلها مستمدة من عنصر اولي واحد ، نشأت منه جميع الاشياء بانفصال الكميات المتعارضة . وان التاريخ الفلكي يعيد نفسه في اوقات دورية في نشوء وانحلال عدد من العوالم لا حصر لهـا . وان الأرض تقوم في الفضاء بواسطة توازن الدوافع الداخلية ، وان جميع كواكبنا كانت سائلاً في وقت من الأوقات وكانت تتبخر بفعل الشمس ، وان الحياة اتخذت شكلها الأول في البحر ، ولكنها خرجت الى البر برسوب الماء ، وان بعض هـذه الحيوانات الساحلية تطورت فيها مقدرة تنفس الهواء ، وأصبحت اسلافـاً وجدوداً لجميع الاحياء التي تناسلت منها على الأرض .

لقد وصف اناكسمانس وهو من ملطيا ايضاً (عام ٤٥٠ قبل الميـلاد) اصل حالة الاشياء كتلة لطيفـة تكاثفت تدريجيـاً الى هواء فغيوم فماء فتراب فصخور . وان الاشكال الثلاثة للمادة وهي الغاز والسائل والجسامد كانت مراحل تقدمية للتكثف ، وان الحرارة والبرودة كانتا مجرد تخلخل وتكثف ، وان الزلازل ناجمة عن تجمد تراب مائع الأصل ، وان الحياة والروح واحدة ، وان قوة باعثة للحياة ومتسمة موجودة في كل شيء وفي كل مكان . ويبدو ان اناكسجوراس (٥٠٠ - ٤٢٨ قبل الميلاد) معلم باركليز قد قـدم تفسيراً صحيحـاً عن كسوف الشمس وخسوف القمر . واكتشف طرق التنفس في النباتات والاسماك .

وهرقليطس (٥٣٠ - ٤٧٠ قبل الميلاد) الذي ترك الثروة والغنى ليعيش عيشة فقر ودراسة في ظل المعبد . وتحول بالعلم من الفلك الى الاهتمام بالأرض . فهو يقول ان جميع الاشيـــاء تجري وتتدفق وتتغير ، وحتى في أكثر المواد سكوناً نجد تدفقاً وحركة غير منظورة ، وان تاريخ الكون يجري في دورة متكررة ، تبدأ كل منها وتنتهي في نار (هنا احد مصادر المبـــدأ الرواقي والمسيحي عن اليوم الآخر وجهنم) ويقول ان كل شيء يوجد ويفنى .. وان الحرب أب وملك على الجميع ، وهي التي جعلت بعض الافراد آلهة وبعضهم بشرا ، وبعضهم عبيداً وبعضهم احراراً ، وحيث لا يوجد كفاح يوجد فناء ، والمزيج الذي لا يخض يفسد وينحل وفي هـــذا التدفق من التغيير والصراع والاختيار ، يوجد شيء واحد ثابت فقط ، وهو القانون ، وهذا النظام يسري على الجميع ولم تصنعه آلهة او بشر . وكان موجـوداً دائماً وهو موجود وسيبقى .

ودفع امباذقليس (٤٤٥ قبل الميلاد في صقلية) بنظرية النشوء مرحلة الى الامام حيث قال :

ان الاعضاء تنشأ بالاختيار لا بالوضع ، وان الطبيعة اجرت الكثير من التجارب والاختبارات على الاعضاء ، حيث تجمع الاعضاء المختلفة الانواع . وعندما يواجه هذا المزيج من الاعضاء الجسدية حاجـات البيئـة فانه يعيش ويخلد مثيله . وعندما يفشل هـــذا التركيب العضوي في مواجهة البيئـــة يزول ويتم استئصاله ومع مرور الوقت تتكيف هذه التركيبات العضوية بنجاح مع البيئة المحيطة بها . وأخيراً نأتي الى آخر مرحلة من مراحل العلم الذي سبق عهد ارسطو في ليوسبوس الذي ازدهر في (٤٤٥ قبل الميلاد) وديمقريطس (٤٦٠ - ٣٦٠) وهي مرحلة ذرية مادية لقد قـــال ليوسبوس ، كل شيء مدفوع بالضرورة وقال ديمقريطس كل شيء مدفوع في الحقيقة

يوجد أو وجد وسيوجد عدد غير محدود من العوالم ، وفي كل لحظة تصطدم الكواكب بعضها ببعض وتفنى . وتظهر عوالم جديدة من الاضطراب من مجموع الذرات الاختياري ذات الحجم والشكل المتماثل ، وليس هناك تصميم او تخطيط وراء خلق هذه العوالم ، والكون يسير بطريقة آلية مثل المكنة .

هذا موجز طفيف عن قصة العلم اليوناني قبل ارسطو، ومن الممكن التسامح بعباراتها وافكارها الفجة اذا اعتبرنا الدائرة الضيقـــة في المعدات والآلات اللازمة في التجارب والاختبار التي ارغمت فيها هذه الطليعة من العلماء على العمل . ان جمود وركود الصناعة اليونانية تحت كابوس نظام الرق حالت دون التطور التام لهذه البداية الهامة . كما حول تعقيد الحياة السياسية السريع فى اثينا السفسطائيين وسقراط وافلاطون بعيداً عن البحث في الطبيعة والاحياء الى النظرية السياسية والاخلاقية .

ومن مآثر ارسطو انه قام بوصل هذين الخطين من التفكير اليوناني وهمـــا الفيزيائي والاخلاقي ، اللذين يعودان الى ما قبل معلمه افلاطون . حيث امسك مرة ثانية بحبل التطور العلمي الذي اتخذ طريقه في اليونان في الفترة السابقة لايام سقراط ، وواصل اعماله بتفصيل اكثر حزماً ، وملاحظات واستقصاء اكثر تعدداً ، وجمع كلّ النتائج المتراكمة في مجموعة هامة من العلم المنظم .

٢ ـ الاخلاق وطبيعة السعادة

عندما نضج ارسطو والتف الشباب حوله في عدد كبير طلباً للعلم والتهذيب بدأ عقله يتحول اكثر فاكثر عن التفصيلات العلمية الى المشاكل الاخلاقيـة الاوسع والاشد غموضا . وبدا له بوضوح ان السؤال الاساسي الذي يفوق جميع الاسئلة التي تناولت العالم الطبيعي هو السؤال ؛ عن الحياة الفاضلة ، ما هي الحياة الفاضلة ؟ وما هو الخير الاعظم في الحياة ؟ وماهي الفضيلة ؟ كيف نستطيع بلوغ السعادة وتحقيقها .

كان ارسطو واقعيا بسيطا في اخلاقه ، لان تدريبه العلمي يبتعد به عن التبشير بمثل عليا فوق مستوى البشر ، ونصائح فارغة عن بلوغ الكمال . يقول «سانتيانا» ان ادراك الطبيعة البشرية في ارسطو صادق تماما . لكل مثل اعلى قـاعدة طبيعية ، ولكل شيء طبيعي تطور مثالي ، ويبدأ ارسطو بالاعتراف بصراحة بان هدف الحياة ليس الخير في حد ذاته ، بل السعادة ، لاننا نختـار السعادة لذاتها ، لا لشيء آخر ، ونحن نختار الشرف ، والسرور والادراك ... لاننا نعتقد اننا نصل عن طريقها الى السعادة ، ونكون سعداء بفضلها ، ولكن ارسطو يعرف ان تسمية السعادة بالخير الاسمى مجرد حقيقة اولية ، وما نريده هو تفسير اوضح عن طبيعة السعادة ، وطريق الوصول اليهـا ، وهو يرجو ان

يجد لهذا الطريق بسؤاله عما يجعل الانسان مختلفـــا عن الـكائنات الاخرى ، وبافتراض ان سعادة الانسان ستكمل في العمل التام لهـذه الصفة المختصة بالانسان .

ويمتاز الانسان عن غيره بقوة فكره التي بفضلها يتفوق ويحكم جميع اشكال الحياة الاخرى ، وبما ان نمو وتطور هـــذه المقدرة على الفكر مكنتـــه من السيادة ، لذلك يمكننا ان نفترض ان تطور هذه المقدرة الفكرية سيحقق له السعادة .

عندئذ تكون حياة العقل شرطا للسعادة باستثناء قضاء بعض اللوازم الجسدية ، وتتوقف الفضيـــلة او بالاحرى الفضل على الرأي الواضح ، وضبط النفس وتناسق الرغبات وفن الاعتدال ،وهي ليست ملـكا للانسان البسيط او هبة للقصد البريء ولكنها نتيجة خـبرة الانسان المتضـور تطوراً كبيرا . ومع ذلـك هنـاك طريق لبلوغ السعادة ، ومرشد لبلوغ الفضل قـــد يوفر علينا الكثير من التأخير والعناء . وهو الطريق الوسط ، او الوسط الذهـــبي ، حيث تنظم الاخلاق في شكل ثلاثي يكون الطرفان الاول والاخير فيه تطرفا ورذيلة . والوسط فضيلة او فضل . وهكذا يكون بين التهور والجبن فضيـــلة الشجاعة ، وبين البخل والاسراف فضيلة الكرم ، وبين الكسل والجشع فضيلة الطموح ، وبين الخضوع والعتو فضيلة الاعتدال ، وبين الكتمان والثرثرة فضيـــلة الامانة ، وبين الكآبة والمزاح فضيلة البشاشة وبين محبة الخصام والتملق فضيلة الصداقـة . عندئـذ لا يختلف الصواب في الاخلاق والســـلوك عن الصواب في الرياضيات والهندســـة ، حيث يعني الصحيـح والمنـــاسب وافضل عمل لافضل نتيجة ، على كل حال فان الوسط الذهبي ليس كالوسط الرياضي ، أي متوسط محكم لنقيضين محسوبين بدقـة . ولكنه يتـذبذب مع الظروف المحاذية لكل وضع ، ويبدي نفسه للعقل النـاضج المرن فقط . ان الفضيلة فن

يمكن كسبه بالمران والعادة . اننا لانعمل الصواب لان لدينا فضيلة او فضل . ولكن الفضيلة موجودة فينا لاننا عملنا الصواب . هذه الفضائل تتشكل في الانسان بعمله لها . اننا عبارة عما نفعل دائما . ان الفضل او الخير في الانسان هو عمل النفس في طريق الفضيلة طيلة حياته .. وكما ان ظهور عصفور الجنة او السنونو او وقوع يوم صحو من الامطار لا يعني اننا في فصل الربيع لذلك لا يكفي يوم واحد او زمن قصير لجعل الانسان صالحا وسعيدا .

الشباب هو زمن التطرف ، وعندما يرتكب الشباب خطأ فإن هذا الخطأ يجنح الى جانب التطرف والمبالغة . ان صعوبة الشباب الكبرى هي في الخروج من تطرف والوقوع في تطرف معاكس له . لان التطرف الواحد يؤدي بسهولة الى الاخر سواء بسبب زيادة التقويم او غيرها . اولئك الذين يشعرون بتطرفهم في امر من الامور لايطلقون اسم الفضيلة على الوسط ولكن على التطرف المقابل لتطرفهم . قد يكون هذا حسنا احيانا ، لاننا اذا كنا نشعر باخطائنا في امر واحد متطرف ، ينبغي ان نوجه هدفنا الى الاخر ، وبهذا قد نصل الى الموقف الوسط ، كما يفعل الناس في تقويم جذع الشجرة المنحني ولكن المتطرفين الذين لايشعرون بتطرفهم ينظرون الى الوسط الذهبي على اساس كونه رذيلة كبرى ، ويتقاذفون الانسان المعتدل فيما بينهم كما يتقاذفون الكرة ، فالجبان يعتبر الشجاعة تهورا واندفاعا ، كما يعتبر المتهور الشجاعة جبنا وضعفا ، وقس على ذلك بقية الامور .

من الواضح ان مبدأ الوسط والاعتدال هذا يميز تقريبا كل منهج من مناهج الفلسفة اليونانية . لقد كان هذا الوسط في ذهن افلاطون عندما عرّف

الفضيلة بانها انسجام في العمل ، وسقراط الذي عرّف الفضيلة بالمعرفـــة ، لقد اوجد الحكماء السبعة تقليدالاعتدال والوسط هذا عندما نقشوا على معبد ابولو في دلفي عبـارة لا شيء في افراط ،ربما يكون جميع هذا كما يقول نيتشه الفيلسوف الالماني محاولات من جانب اليونان لكبح عنفهم ودوافع اخلاقهم . والأصح انهـــا كانت تعكس الشعور اليوناني بان العواطف ليست رذائل في حد ذاتهـا ، وإنما التطرف والانحراف في العواطف رذيلة والانسجام والاعتدال فضيلة .

ويعتقد ارسطو بان الوسط الذهبي ليس كل السعادة ، بحيث يجب ان يتوفر لدينا جانب من متاع الدنيا وحاجاتها ، والفقر يجعل من الانسان بخيلا شحيحاً ، بينما المال يحرر الانسان من الحرص والشره . ان انبل الامور التي تساعد في الوصول الى السعادة هي الصداقة ، حقا ان الصداقة ضرورية للانسان السعيد اكثر من الانسان التعيس . لان السعادة تزيد وتتضاعف بمشاركة الاخرين فيها ، وهي اكثر اهمية من العدالة ، اذ لا حاجة للعدالة عندما يكون الناس اصدقاء. ولكن عندما يكون الناس عادلين مقسطين ، تبقى الصداقة نعمة وفضل، فالصديق روح واحد في جسدين ، ومع ذلك فان الصداقة تعني قلة الاصدقاء لا كثرتهم ، وذلك الذي له اصدقاء كثيرون لا صديق له . ومن المتعذر ان تكون صديقا لكثير من الاصدقاء اذا اردت الصداقة المخلصة . والصداقة الحقة تقتضي الدوام لا الشدة المتقطعة، وهذا يعني استقرار في الاخلاق ، وانحلال الصداقة يعود الى تقلب الاخلاق في الشخص ، هذا كان الصداقة تتطلب المساواة ، لان الامتنان يكسوها تقلبا وتلونا . اذ نرى اهل الجود والاحسان يحملون في نفوسهم صداقة نحو الذين يساعدونهم اكثر من الصداقة التي يحملها هؤلاء لهم . وجوهر المسئلة ان ترضي معظم الناس ، ان البعض دائن والآخر مدين . . . والمدينون يتمنون

التخلص من دائنيهم ، بينا اصحاب الديون حريصون على المحافظة على مدينيهم. ولكن ارسطو يرفض هذا التفسير ، و يعتقد ان لطف المحسن ينبغي ان يتساوى مع حب الفنان لعمله ، وحنو الام على طفلها . اذ انا نحب ما صنعته ايدينا .

ولكن على الرغم من ان اعمال الخير والعلاقات الخارجية ضرورية للسعادة فان جوهرها يبقى في داخلنا ، في معرفة واسعة وروح صافية ، واذا كان السرور او اللذة ليس الطريق ، فان ذلك الطريق يكون دائرة ، كما عبر سقراط عن ذلك الرأي الابيقوري السمج ، اننا نحك لنهرش ونهرش لنحك . كما ان المنصب السياسي ايضا ليس طريقا للسعادة ، لاننا بذلك نسير وفقا لنزوات الشعب واهوائه ، ولا شيء اشد تقلبا من الجمهور . كلا ، يجب ان تكون السعادة في لذة الذهن ، وان لانثق بها الا اذا صدرت عن البحث عن الحقيقة او الوصول اليها . ان عمل الفكر لا يستهدف شيئا وراء ذاته ، ويجد في ذاته السرور الذي ينعشه الى مضاعفة عمله . وبما ان الاكتفاء الذاتي ، والمثابرة والمقدرة على الراحة تنتمي بوضوح الى هذا العمل الفكري ، لذلك يجب ان تكون السعادة كامنة فيه .

إن الانسان المثالي في رأي ارسطو هو الذي لا يعرض نفسه بغير ضرورة للمخاطر ، ولكنه على استعداد لان يضحي حتى بنفسه في الازمات الكبيرة ، مدركا ان الحياة لا قيمة لها في ظروف معينة . وهو يعمل على مساعدة الناس ، ولكنه يرى العار في مساعدة الناس له ، لان مساعدة الناس ونفعهم دليل التفوق والعلو ، ولكن تلقي المساعدات منهم دليل التبعية وانحطاط المنزلة ، ولا يشترك في المظاهر العامة ، وينأى بنفسه عن التفاخر والتظاهر . وهو صريح في كراهيته وميوله ، وقوله وفعله ، بسبب استخفافه

بالناس وقلة اكتراثه بالاشياء . لايهزه الاعجاب بالناس او اكبارهم ، اذ لاشي يدعو الى الاعجاب والاكبار في نظره ، ولا يساير الاخرين الا اذا كان صديقا لان المسايرة من شيم العبيد ، ولا يشعر بالغل او الحقد ابدا ، ويغفر الاساءة وينساها ، ولا يكثر الحديث .... ولا يبالي بمدح الناس له او ذمهم لغيره . ولا يتكلم سوءا عن الاخرين ولو كانوا اعداء له ، شجاعته رصينه ، وصوته عميق ، وكلامه موزون ، لاتأخذه العجلة، لان اهتمامه قاصر على اشياء قليلة فقط . ولا تأخذه الحدة او يستبد بهالغضب، لانه لايبالي بشيء ، لان حدة الصوت وحث الخطى تنشأ في الشخص بسبب الحرص والاهتمام . ويتحمل نوائب الحياة بكرامة وجلال ، باذلا جهده قدر طاقته وظروفه ، كقائد عسكري بارع ينظم صفوفه بكل ما في الحرب من خطط . وهو افضل صديق لنفسه ، ويبتهج في الوحدة ،بينما نرى الجاهل العاجز المجرد عن الفضيلة او المقدرة عدو نفسه ويخشى الوحدة .

هذا هو الرجل المثالي في نظر ارسطو .

٣ ــ السياسة

١ ــ الشيوعية ومذهب المحافظين

طبيعي ان تؤدي هذه الاخلاق الارستقراطية التي تميز ارسطو الى فلسفة سياسية ارستقراطية شديدة . وليس من المتوقع ان نجد في معلم الامبراطور (الاسكندر) أو زوج الاميرة روابط وثيقة مع عامة الشعب . او حتى مع طبقة التجار البورجوازية ، ان سياستنا تكمن في كنوزنا اوبعبارة اوضح من ثروتك اعرف ميولك . اضف الى ذلك ان ارسطو كان محافظاً اميناً بسبب الاضطراب والكارثة التي نجمت عن الديمقراطية الاثينية . وكعالم مثالي نموذجي فقد تاق الى النظام والأمن والسلام . وشعر ان الوقت غير صـــالح للتطرف والاندفاع السياسي . ويقول ارسطو ان عادة تغيير القوانين باستخفـــاف واستهتار عادة سيئة ، وعندما تكون الفائدة من تغيير القوانين صغيرة ، من الأفضل مواجهة العيوب سواء كانت في الحاكم او القانون وتقويمهـــا بالتسامح الفلسفي . وسيكون كسب المواطن من تغيير القانون أقل من خسارته بعدم اطاعة الأوامر . ان سلطة القانون في تأمين الطاعـــة والولاء والمحافظة على الاستقرار السياسي تقوم الى مدى كبير على العرف ، والاستخفاف بسهولة

بالقوانين القديمة واستبدالها بقوانين جديدة سيؤدي الى اضعاف اعماق جوهر القانون . يجب علينا ان لا نستخف بتجارب الاجيال الماضية ، ولا شك ان « هذه الاشياء » الجديدة لو كانت صالحة لما بقيت مجهولة من الناس في الاعوام الطويلة الماضية .

« وبهذه الاشياء » يعني ارسطو جمهورية افلاطون الشيوعية . ان ارسطو يحارب واقعية افلاطون في الكليات ومثاليته في الحكومات . فقد وجد بقعاً سوداء عدة في الصورة التي رسمتها ريشة الاستاذ . ولم يستسغ طعم فكرة المعسكرات التي فرضها افلاطون على فلاسفته ، وكثرة الاتصال والاحتكاك فيها . وباعتبار كونه محافظاً فهو يضفي اهمية وتقديراً على صفات العزلة والانفراد والحرية ، ويضعها فوق المقدرة الاجتماعية والسلطة . ولا يحرص على مناداة كل معاصر بأخ أو اخت ولا كل مسن بأب او ام ، واذا كان الجميع اخوتك ، فلا اخوة لك . اليس من الأفضل ان تكون خالاً او عماً حقيقياً البعض عن ان تكون أباً على طريقة افلاطون . وفي الدولة التي يشترك فيها النساء الاطفال يكون الحب مائعاً .. ان امتلاكك للشيء يبعث في نفسك حبه والاهتمام به ، ويوقظ الحب الحقيقي في نفسك وهذا مستحيل في دولة كدولة افلاطون .

ربما شاهد الماضي البعيد المظلم ، مجتمعاً شيوعياً ، كانت الاسرة فيه الدولة الوحيدة ، وكانت المراعي والفلاحة وسيلة الحياة الوحيدة . ولكن في دولة ذات مجتمع أكثر انقساماً حيث ينقسم العمل الى اعمال غير متساوية الأهمية تؤدي الى اتساع الفوارق وعدم المساواة بين الناس ، هنا في مثل هذا المجتمع تنهار الشيوعية لانها لا تقدم حافزاً كافياً لجد وكد الفئة المتفوقة في قدرتها . ان باعث الكسب ضروري للكدح في العمل المضني . كما ان حافز الملكية ضروري للصناعة والفلاحة والاهتمام في العمل .

وعندما يملك كل فرد كل شيء لا أحد يهتم بأي شيء . واشتراك الكثيرين من الناس في الشيء يدعو الى قلة اهتمامهم به ، كل انسان يفكر أولاً في مصلحته وما تملك يداه . وبالكاد ان يفكر في المصالح العامة . ومن الصعب دائماً ان يعيش الناس مع بعضهم في معسكرات مشتركة ، او يشتركون في ملكية الاشياء وخصوصاً في اشتراكية الملكية . ان اشتراك الاصدقاء في السفر (من غير ان نذكر شيئاً عن صعوبة الزواج الشيوعي ومتاعبه) خير مثال على هذه الناحية فهم يتخاصمون في الطريق ويتشاجرون على اتفه الاشياء وأصغرها .

ان الدولة المثالية تستهوي افئدة الناس وتثير اهتمامهم وتجتذب استماعهم والتفاتهم . وتغريهم بسهولة الى الاعتقاد بانها بطريقة رائعة ستجعل من كل انسان صديقاً للآخر ، خصوصاً عندما يسمعون المبشر بالدولة المثالية يعلن استنكاره لشرور العالم ومفاسده القائمة .. ويدعي ان هذه المفاسد والشرور ناجمة عن الملكية الخاصة . لكن هذه الشرور تنهض من مصدر آخر ، وهو سوء الطبيعة البشرية وميلها الى الشر . ان العلم السياسي لا يصنع الناس ، وينبغي ان يأخذهم على سجاياهم الطبيعية .

ان طبيعة الانسان ، الانسان المتوسط اقرب الى الوحش منها الى الاله ، ومعظم الناس اغبياء وكسالى بالطبيعة ، وفي كل نظام مهما كان نوعه نجدهم يهبطون الى أسفل الدرك وينطسون في الاعماق . وتقديم المساعدات الحكومية لهم كصب الماء في برميل مثقوب يسيل . مثل هؤلاء الناس يجب ان يحكموا سياسياً ويوجهوا صناعياً بموافقتهم اذا امكن ، او بغير موافقتهم اذا استدعت الضرورة الى ذلك . لقد طبع الناس منذ الساعة الاولى من ولادتهم ليكون بعضهم حكاماً وبعضهم محكومين . وذلك الذي يدرك بعقله اعدته الطبيعة ليكون سيداً ، وذلك الذي لا يقدر على العمل الا بجسمه اعدته ليكون عبداً . ان العبد من السيد كالجسم من العقل ، وبما ان الواجب خضوع الجسم للعقل

لذلك من لأفضل ان يتدرج جميع الضعاف تحت حكم السيد . ان العبد آلة حية ، والآلة عبد لا حياة فيها ، وبعدئذ يكتب ارسطو وكأنه قد لاحت امام عينيه الامكانيات التي قدمتها الثورةالصناعية لايدينا ، لو « قامت كل آلةبانجاز عملها ، ولو قام المكوك بالغزل والنسيج ، وعزفت الريشة على القيثار بغير يد تحركها وترشدها عندئذ لا يحتاج رؤساء العمال الى مساعدين ، ولا الاسياد الى عبيد .

هذه الفلسفة توضح احتقار اليونان للاعمال اليدوية . لم تصل هذه الاعمال اليدوية في اثينا الى درجة التعقيد الشديد الذي وصلت اليه في ايامنا . عندما اصبح الذكاء المطلوب في كثير من التجـــارة اليدوية اكثر بكثير من الذكاء المطلوب في الاعمال التي تقوم بها الطبقة السفلى المتوسطة ، لقد كان العمل اليدوي بجرد عمل يدوي ، وقد نظر ارسطو الى الاعمال اليدوية نظرة ترفع ، من فوق الى اسفل ، من اعالي الفلسفة واعتبرها جديرة بصغار العقول او الذين لا عقول لهم . تتناسب مع العبيد فقط .

وهو يعتقد ان العمل اليدوي يؤدي الى بلاده العقل واتلافه . ولا يترك وقتاً او نشاطاً الذكاء السياسي ويرى نتيجة لذلك ضرورة اشتراك من تتوفر لهم اوقات الفراغ في الحكومة .

وينبغي على أفضل دولة ان لا تقبل الميكانيكيين كمواطنين متجنسين فيها ، لقد كان في طيبة قانون ينص على منع تولي اي شخص منصباً حكومياً مـــا لم يكن قد تقاعد عن العمل قبل عشر سنوات . وحتى التجار واصحاب المصارف وضعهم ارسطو في طبقة العبيد ، وتجـــارة المفرق ليست طبيعيـــة في

نظره ، ... ووسيلة يكسب بها الناس بعضهم من بعض . وأكثر انواع هذا التبادل المـــالي كراهية في نظره هو الربا . . . اذ ان الربا يستخرج الربح من المال نفسه ، ولا يستخدم المال استخداماً طبيعياً ، لأن المقصود بالمال ان يكون وسيلة للتبادل ، لا لتوليد الفائدة ، هذا الربا الذي يولد المال من المال أكثر وسائل الكسب بعـــداً عن الطبيعة ، ويجب عدم توليد المال من المال . وبذلك فان بحث الشئون المالية جدير بالفلسفة ، ولكن الانشغال في الشؤون المالية او كسبها لا يليق بالرجال الأحرار .



٢ - الزواج والتعليم

ان المرأة من الرجل كالعبد من السيد ، وكالعمل اليدوي من العمل العقلي ، وكالبربري من اليوناني . والمرأة رجل ناقص ، تركت واقفة على درجة دنيا من سلم التطور . والذكر متفوق بالطبيعة ؛ والمرأة دونه بالطبيعة ، والاول حاكم والثانية محكومة ؛ وهذا المبدأ ينطبق بالضرورة على جميع الجنس البشري . ان المرأة ضعيفة الارادة ، وبذلك فهي عاجزة عن الاستقلال في المرتبة والخلق . وافضل مكان لها حياة بيتية هادئة ، تكون لها السيادة المنزلية بينما يحكمها الرجل في شؤونها الخارجية . يجب ان لاتتساوى النساء مع الرجال كما في جمهورية افلاطون ، ولا بد من زيادة الفوارق بينهما . لا شيء اشد جاذبية من الاختلاف ، ليست شجاعة المرأة متماثلة مع شجاعة الرجل كما افترض سقراط ، شجاعة الرجل في القيادة ، وشجاعة المرأة في الطاعة . . او كما يقول الشاعر صمت المرأة مجد لها .

يبدو ان ارسطو يرتاب في تحقيق هذا الاستعباد المثالي للمرأة بالنسبة الى الرجل ، ولكي يقدم للذكر فائدة لا بد منها ينصحه ان يؤخر

الزواج حتى يبلغ السابعة والثلاثين من عمره ، وبعدئذ يتزوج من امرأة في نحو العشرين من عمرها . والذي يدفع ارسطـو الى هذا الحساب في الزواج ، هو التفكير في ان هذين الشخصين سيفقدان قوتهما التناسلية وعـــاطفتهما في نفس الوقت تقريبا . لأنه اذا كان الرجل لايزال قادرا على انجاب الاولاد ، بينما تكون المرأة عاجزة عن الحمل ، او العكس ؛ يؤدي ذلك الى نشوب الخلاف والنزاع بينهما . ولما كان زمن التناسل محددا عموما في سن السبعين في الرجل وسن الخمسين في المرأة ينبغي ان يتناسب الشروع في اتحادهما واتصالهما مع هاتين المــدتين . ان الاتصال الجسدي بين النساء والرجال في سن مبكر امر سيء بالنسبـــة الى تكوين الاطفال . وفي الحيوانات يكون نسل الحيوانات الصغيرة في السن ضعيفا وهزيلا وفي الاكثر اناثا ، والصحة اكثر اهمية من الحب ، بالاضافة الى ان التريث في الزواج وعدم الاستعجال به يساعد على الاعتدال . لان النساء اللاتي يتزوجن في سن مبكرة ينزعن الى الهوى والطيش والتقلب ، وفي الرجال ايضا يتوقف النمو الطبيعي في بناء اجسامهم عندما يتزوجون وهم في طور النمو . يجب ان لاتترك هذه الامور الى هوى الشباب ونزواتـــه . ويجب ان تكون تحت اشراف الحكومة وسيطرتها ، بحيث تقرر الحكومة الحد الاعلى والادنى لسن الزواج في كل جنس ، وافضل الفصول للحمل ، ومعدل الزيادة في السكان . واذا كان معدل الزيادة في السكان مرتفعا جدا يحل الاجهاض والاسقاط محل وأد الاطفال . بان نقوم بالاجهاض قبل بدأ الحياة في الجنين . هناك عـــدد مثالي للسكان في كل دولة ، يختلف مع اختلاف مكانها ومصادرها . والدولة التي تتألف من عدد صغير من السكان لاتكتفي نفسها بنفسها فان كانت تضم عدداً كبيراً من السكان تصبح شعبا لادولة ، وتصبح في الاغلب عاجزة عن اقامة حكومة دستورية ،

او وحدة قومية او سياسية . وكل زيادة في السكان عن العشره الاف غـير مرغوبة .

كما يجب ان يكون التعليم ايضا في يد الدولة . ان اكثر شيء يساعـد في بقـاء الدستور هو تكييف التعليم مع شكل الحكومـة . .. اذ يجب تكييف المواطن مع شكل الحكومة التي يعيش فيها ، وباشراف الحكومة على المدارس وسيطرتها عليها قد نتمكن من تحويل الناس عن الصناعة والتجارة الى الزراعة . ونتمكن من تدريبهم مع الحفاظ على الملكية الخاصة على فتح ممتلكاتهم واستعمالها مشاعا بين الجميع . هناك قول مأثور يقول بالنسبة الى استعمال الممتلكات ، بوجوب اشتراك الاصدقـاء في كل شيء ، ولكن فوق كل شيء يجب تعليم المواطن النـاشيء اطاعة القانون والا كان قيام الدولة مستحيلا . لقد قيـل ان ذلك الذي لم يتعلم ابدا كيف يطيـع الاوامر لا يصلح ان يكون قائدا صالحا . .

اذ يجب ان يكون المواطن الصالح قادرا على اطاعة الاوامر والقيادة معا . والنظام المدرسي الحكومي وحده هو الذي يستطيـع تحقيق الوحدة الاجتماعية بين الاجناس والسلالات المختلفة . والدولة تجمع وتعدد لطوائف مختلفـة يجب توحيده عن طريق التعليم . كما يجب تعليم الشباب ايضا النعم والبركات التي افاضتها الدولة عليهم وحققتها لهم ، والامن المستمـد من التنظـيم الاجتماعي ، والحرية الناجمة عن القانون . ان الانسان افضل الحيوانات اذا تم اعداده وتعليمه وتدريبه جيدا ، ولكنه اسوأها اذا اغفل امره واهمل شأنه . لان الظلم اشد خطرا عندما يكون مسلحا ، وقد تسلح الانسان منذ ولادته بسـلاح الذكاء ومؤهلات خلاقة قد يستخدمها في اسوأ الغايات . واذا لم تتوفر لديه الفضيـلة يكون اشد من الحيوان وحشية ورجساً . يمور بالنهم والشراهة والشهوة

والضبط وحده يعطيه الفضيلة . لقد تطور الناس بفضل المقدرة على الكلام الى مجتمع . وعن طريق المجتمع الى ذكاء ، وعن طريق الذكاء الى نظـــام ، وعن طريق النظام الى تمدن وفي دولة منظمة كهذه يجد الفرد امامه الاف الفرص وسبل التطور مفتوحة له ولا يمكن ان تقدمها له حياة وحيـــدة مقفرة ، اذ لايستطيع ان يعيش وحده سوى الاله او الوحش .

لهذا السبب تكون الثورة دائما تهورا وطيشا ، قد تحقق بعض الفوائد و بلكن لقاء الكثير من الشرور التي تأتي بها ، واشد هذه الشرور هو اشاعة الاضطراب ، وربما انحـلال النظام والبناء الاجتماعي الذي يعتمد عليه كل خير سياسي .

قد يرحب الشعب بنتائج البدع المباشرة التي تحدثها الثورة وقد يتمكن من احصائها : ولكن النتائج الغير مباشرة لا يمكن عدّها وتسبب كوارث في الكثير من الاحيان . اولئك الذين يحسبون حساب القليل من الامور يسهل عليهم اعلان حكمهم فيها ، كما ان الانسان يسرع في حزم رأيه في البسيط من الامور ، ومن السهل تضليل الشباب ، لسهولة بعث الآمـال في نفوسهم . ان كبح العادات القديمة المتأصلة في النفوس منـذ مدة طويله سيؤدي الى قلب الحكومات التي تدخل بدعا جديدة بسبب تأصل العادات القديمـــة بين الناس وتشبثها بالبقاء . ان تغيير العادات ليس سهلا كتغيير القوانين . والدستور الذي يكتب له البقاء والدوام هو الدستور الذي ترضى عنه كل فئات الشعب وترغب بمحض ارادتها في المحافظة عليه . لذلك ينبغي على الحاكم الذي يريد ان يتجنب الثورة ان يمنع في بلاده تطرف الفقر وتطرف الثروة ، ويشجع (مثل البريطانيين) الاستعمار في الخارج كمخرج لتكاثف

السكان الخطير في بلاده . و يكون متدينا وينمي النزعة الدينية في بلاده . كما ينبغي ان يظهر الحاكم ، وخصوصا الحاكم المطلق او المستبد اهتمامه في اقامة شعائر الدين وعبادة الالهة ، لان الناس اذا اعتقدوا بتدين الحاكم وتوقيره للالهة ، يقل خوفهم من نزول الظلم بهم على يديه ، ويقل ميلهم وتدبيرهم في التآمر عليه ، لاعتقادهم بان الالهة ستحارب بجانبه .



٣ ـ الديمقراطية والارستقراطية

وبفضل هذه التحصينات في الدين ، والتعليم ، وتنظيم حياة العائلة . يكون كل نوع من انواع الحكومة التقليدية تقريبا صالحا ومرضيا ومحققـــا للغرض المطلوب منه . ان جميع انواع الحكومات تحمل في جنباتها مزيجا من الخير والشر . وروعي في وضعها منفصلة تكيفها مع الظروف المختلفة . ان الحكومة المثالية من الناحية النظرية تعني تركيز جميع السلطات السياسية في افضل انسان وهوميروس على صواب عندما قال ، ان تعدد الرؤساء امر سيء ، ومن الافضل ان تجعلوا شخصا واحدا حاكما لكم وسيدا عليكم ، ويكون القانون بالنسبة الى هذا الحاكم الافضل اداة وليس قيدا او حدا ، اذ لا قانون يسري على اصحاب المقدرة البارزة من الرجال ، انهم هم القانون ، ومن السخرية ان يحاول احدنا وضع قانون لهم . وسيكون جوابهم على من يحاول وضع ذلك بما ذكر في اسطورة أنتيشيناس ، قالت الاسود للارانب في مجلس الوحوش عندما طالبت الارانب بالمساواة للجميع ، اين مخالبك ؟

والحكومة الملكية من الناحية العملية اسوأ انواع الحكومة ، بسبب عدم تحالف الفضيلة الكبرى والقوة الكبرى تحالفا وثيقا . لذلك فـان افضل نظام عملي للحكومة هو الارستقراطية وهي حكم القلة من المثقفين واصحـــاب

المؤهلات والمقدرة . والحكومة امر معقد جدا ولا يجوز ترك مصير تقرير قضاياها للعدد والكثرة، في حين تترك القضايا الاقل اهمية في ايدي رجال المعرفة والمقدرة. وكما يجب ان يحكم على الطبيب ، طبيب مثله ، كذلك ينبغي ان يحكم على الرجال عموما بامثالهم وانداده . والان هل ينطبق نفس هذا المبدأ على الانتخابات ؟ لان الانتخابات الصحيحة لايقوى على القيام بها الا اصحاب المعرفة ٠ فالمهندس على صواب في اختياره شؤون الهندسة ، والطيار على حق في امور الطيران ، لذلك يجب ان لايترك امر انتخاب القضاة او محاسبتهم للعدد الكثير «للشعب»

ولكن وجه الصعوبة في هذه الارستقراطية الوراثية انها لاتقوم على قاعدة اقتصادية ثابتة ، لان طبيعة حب المال الابدية ستجعل المنصب السياسي ان عاجلا او اجلا لمن يستطيع ان يدفع أكثر . ومن المؤسف ان تباع اعظم المناصب وتشترى . . والقانون الذي يسمح بمثل هذا الانتهاك يجعل الثروة اكثر اهمية من المقدرة ، وبذلك تسود الدولة كلها شراهة المال ونهم الثروة ، لان بقية المواطنين ستحذو حذو رؤسائها في تكديس الثروة وشراء المناصب والقاب الشرف . وعندما لاتحتل الكفاءة والمقدرة المكان الاول في الدولة ، لاتكون تلك الدولة دولة ارستقراطية بالمعنى الحقيقي .

تأتي الديمقراطية عادة نتيجة ثورة على حكومة الاغنياء (البلوتقراطية) ان حب الكسب والربح في الطبقات الحاكمة يؤدي الى تضاؤل عـــددها ، وهذا يقوي الجماهير التي تتمكن في النهاية من التخلص من اسيادها واقامـــة حكومة ديمقراطية . ان حكم الفقراء هذا له بعض الفوائد اذ ان الناس على الرغم من كونهم كافراد اقل مقدرة على الحكم من اصحاب المعرفة والتخصص لكنهم كمجموعة افضل منهم كافراد . وفوق ذلك قد يحكم على عمل الفنانين من لايفهم الفن خيرا من حكمهم على انفسهم . كما ان ساكن البيت او صاحبه اصدق حكما على البيت ممن قام ببنائه .

والضيف اقدر على الحكم على الوليمة من الطباخ ، والكثرة اقل استعدادا للفساد من القلة ، وهي كالماء الكثير اقل عرضة للفساد من الماء القليل ، والفرد قد يتملكه الغضب وتسوده العاطفة وبذلك يفسد رأيه ويزيغ حكمه . ومن الصعب افتراض استبداد العاطفة بعدد كبير من الناس وارتكابهم الخطأ في وقت واحد .

ومع ذلك فان الديمقراطية كمجموعة اقل مرتبة وقدرا من الارستقراطية ، لانها تقوم على افتراض كاذب من المساواة . اذ انها تقوم على فكرة ان المتساوين في حق واحد (حق المساواة امام القانون مثلا) يكونون متساوين في جميع الحقوق . ولما كان الناس متساوين في الحرية فهم يطالبون بالمساواة في كل شيء . والنتيجة لذلك تضحية الكفاءة والمقدرة على مذبح العدد ، والجماهير عرضة للغش والخداع لانها سهلة التضليل ، متقلبة الاهواء. لذلك يجب ان يكون الانتخاب قاصرا على العقلاء . وما نحتاج اليه هو مزيج من الديمقراطية والارستقراطية .

والحكومة الدستورية تقدم هذا الاتحاد السعيد بين الديمقراطية والارستقراطية . انها ليست افضل حكومة يمكن تصورها لان افضل حكومة هي حكومة المتعلمين الارستقراطية . ولكن الحكومة الدستورية افضل حكومة ممكنة . يجب أن نبحث عن افضل دستور لمعظم الدول وعن افضل حياة لمعظم الناس ، والا نفكر في مستوى للفضيلة فوق طاقة الاشخاص العاديين ، والا نفكر في دولة مثالية لا تزال في عالم الاماني والخيال . بل نفكر في حياة تستطيع اكثرية الشعب الاشتراك فيها ، وشكل حكومة تستطيع الدول بلوغها على وجه العموم .من الضروري ان نبدأ بافتراض مبدأ يمكن تطبيقه تطبيقا عاما ، بأن يكون الجزء الذي يرغب في بقاء الحكومة اقوى من الجزء الذي لا يرغب في بقائها ، وهذه القوة ليست في كثرة العدد وحده ، ولا في الملكية وحدها ،

ولا في المقدرة العسكرية او السياسية وحدها ، بل في كل هذه الامور ،وبذلك نكون قد اخذنا بعين الاعتبار والاهتمام ، الحرية ، والثروة ، والثقافة ونبـــل المحتد ، او المولد ، والتفوق العددي ايضا . والآن كيف السبيل الى ايجـــاد اكثرية ساحقة لدعم حكومتناالدستورية ؟ قد يكون هذا متوفرا افضل في الطبقة الوسطى . وهنا نعود إلى الوسط الذهبي مرة ثانيـــة ، والحكومة الدستورية وسط بين الديمقراطية والارستقراطية . سيتوفر في دولتنا ديمقراطية كافية اذا كان الطريق لكل منصب في الدولة مفتوحا امام الجميـــع . وارستقراطية كافية اذا اغلقت ابواب المناصب ولم تفتح الا للمتعلمين الذين قطعوا مرحـلة طويلة في التعليم . من اي جهة نقترب فيها من مشاكلنا السياسية الدائمـة نصل الى نفس النتيجة ، وهي وجوب تقرير الامة لغاياتها واهدافها التي ستسير عليها ، شريطة قيام الخبراء باختيار وتطبيق الوسائل . ووجوب توسيع الاختيار توسيعا ديمقراطيا ، ووجوب حجز المناصب لافضل الناس استعدادا لها وهم اصحاب المقدرة والعلم .

٤ ـ ارسطو العالم في التاريخ الطبيعي

اننا لو بدأنا هنا بكتابه عن الفيزياء فان هذا الكتاب سيخيب املنا ، لان هذا الكتاب الصغير في الواقع ليس الا كتابا عن الميتافيزيقا وهو تحليل غامض عن المادة والحركة والفراغ والزمان واللانهائية والعلة وغيرها. ان احدى المقاطع الحيوية التي جاءت في هذا الكتاب هجومه على ديمقريطس الذي اعتقد ان كل شيء مركب من ذرات ، وان هذه الذرات يفصلها بعضها عن بعض فراغ ، حيث ينكر ارسطو وجود الفراغ ويقول بعدم وجود فراغ في الطبيعة ، لان جميع الاجسام تسقط في الفراغ بسرعة متساوية ، وبما ان هذا مستحيل ، فان الفراغ المفترض يتحول الى ان لا يكون فيه شيء . لقد جرت عادة فيلسوفنا ان يبدأ اقواله بوصف تاريخي مختصر عما ذكر سابقا عن الموضوع الذي يريـــد بحثه ، ويضيف على كل شيء ذكر في الموضوع دحضه له ، لقد قال فرنسيس بيكون عن ارسطو انه يسير على الطريقة العثمانية وهو انه لايستطيع ان يحتفظ بالحكم الا اذا قتل جميع اخوته . ولكننا مدينون لأرسطو وطريقته في دحض اقوال غيره بالكثير من معرفتنا عن الفكر اليوناني السابق لسقراط .

وللاسباب التي ذكرناها سابقا فان علم فلك ارسطو يمثل تقدما صغيرا عن

اسلافه ، فهو يرفض ما قاله فيثاغورس من ان الشمس هي مركز نظامنا ، ويفضل ان يقدم هذا الشرف للارض ، ولكن الكتاب الصغير عن علم الظواهر الجوية الذي كتبه حافل بالملاحظات الرائعة ، وحتى تأملاته تشع نورا ونارا . فهو يقول ، ان هذا العالم دوري تبخر فيه الشمس الى الابد مياه البحر، وتجفف الانهار والينابيع ، وتحول اخيرا المحيط الواسع الى صخور عارية ، وبعدئذ تتجمع الرطوبة والنداوة المتصاعدة وتتحول الى غيوم تتساقط بامطارها وتملؤ الانهار والبحار مرة ثانية ، يسير التغيير في كل مكان بطريقة فعالة لا ندركها. ان مصر من صنع النيل ، وانتاج رواسبه عبر الاف السنين . هنا البحر يتخطى البر . والبر يغوص تدريجيا في البحر . وتظهر قارات ومحيطات جديدة وتختفي محيطات وقارات قديمة . ويتغير وجه العالم كله مرة فمرة في انقباض وامتداد من النمو والانحلال ، وقد تحدث هذه التأثيرات بغتة ، وتدمر قواعد المدنية الجيولوجية والمادية ، وتقضي حتى على الحياة . لقد جردت الكوارث الارض بطريقة دورية وهبطت بالانسان مرة ثانية الى البداية الاولى ، مثل مدنية الملك سيسقوس التي بلغت اوجها مرات كثيرة لتعود الى حياة همجية بربرية ، وتبدأ في الصعود والتقدم في رحلتها من جديد . وبسبب هذا التكرار الابدي في ظهور المدنية بعد المدنية في نفس الاختراعات والاكتشافات ، ونفس العصور المظلمة ذات التطور الثقافي والاقتصادي البطيء، ونفس مولد التعليم والعلم والفن مرة ثانية ، لا شك ان بعض الخرافات والاساطير الشعبية ، هي تقاليد غامضة مبهمة عاشت وانحدرت لنا من الحضارات السابقة الفانية الاولى . وهكذا تسير قصة الانسان في دائرة مخيفة . لانه لم يخضع بعد الارض التي يعيش عليها .

٥ ــ اصل علم الاحياء

وعندما كان ارسطو يطوف ويتجول في حديقته الحيوانية ، اقتنع بان من الممكن ترتيب التنوع الغير متناهي في الحياة في سلسلة مستمرة ، لا تختلف كل حلقة فيها في الاغلب عن الثانية . ففي كل ناحية سواء في البنـــاء ، او نمط الحياة ، او التناسل ، او التربية او الاحساس والشعور ، يوجد تدرج دقيق وارتقاء من احط الانظمة العضوية الى اسماها . ومن الصعب ان نفصل في درجات السلم الدنيا بين الحي والميت . فالطبيعة تجعل مرحلة الانتقال من الحالة الميتة الى الحالة الحية بشكل يجعل الحدود التي تفصل بينهما غامضة ومريبة . قد يوجد درجة من الحياة حتى في الجماد اللاعضوي . والكثير من الانواع لا نستطيع ان نطلق عليها بالتأكيد اسم نباتات او حيوان . كما ان من المستحيل تعيين هــذه الانظمة العضوية الدنيا الى نوعها وفصيلتها ، لانها متشابهة جداً ، وهكذا فان استمرار التدرج والتسلسل والخلاف في كل نظام من الحيـــاة جدير بالاعتبار كالخلاف في الاعمال والاشكال . ولكن في وسط هذه الوفرة والخصب المذهل المحير في البناء نقتنع بوقوف بعض الاشياء . ان الحياة قد تطورت باستمرار في تعقيد وقوة . وان الذكاء والعقل قد تقدم مرتبطاً مع تعقيد البناء وتحرك النوع ، وان هناك تخصصاً متزايداً في العمل ، وتركيزاً مستمراً من السيطرة والضبط الوظائفي

وبالتدريج خلقت الحياة لنفسها جهازاً عصبياً وعقلاً، وتحرك العقل بحزم لسيادة البيئة المحيطة به .

ومما يبعث على الدهشة ان ارسطو على الرغم من هذه التدرجات والمشابهات التي تثب امام عينيه ، فانه لم يصل الى نظرية التطور . ورفض نظرية امباذقليس الذي يقول ببقاء الاصلح من الاعضاء والاجسام ، ورأى اناكسجوراس بأن الانسان اصبح ذكياً باستخدام يديه في الاعمال اليدوية اكثر من الحركة . اما ارسطو فيعتقد عكس ذلك وهو ان الانسان قد استخدم يديه لانه اصبح ذكياً والحقيقة ان ارسطو قد ارتكب الكثير من الاخطاء وهو أمر منتظر من انسان اوجد علم الاحياء . فهو يعتقد مثلاً ان عنصر الذكر في التناسل يحيي ويقوي الجنين فقط ، ولم يخطر على باله (اننا الآن نعرف من الاختبار عن طريق التناسل او الحبل الذاتي بغير تلقيح من ذكر) ان العمل الاساسي للسائل المنوي لا يقصد منه كثيراً تخصيب الرحم بقدر مد الجنين بالصفات الوراثية لوالده ، وبذلك السماح للنسل بالتنوع العنيف والمزيج الجديد من الابوين . وبما ان التشريح البشري لم يكن يستعمل في ايامه ، فقد وقع في اخطاء وظائفية فيسيولوجية ، ولم يقدر على التمييز بين الاوردة والشرايين ، وكان يعتقد بان الدماغ عضو لتبريد الدم ، واعتقد ان في جمجمة الرجل تداريز اكثر من المرأة . وان للرجل ثمانية اضلاع فقط في كل جهة ، وان اسنان المرأة اقل من اسنان الرجل ، (يبدو ان علاقته مع النساء كانت خالية من العض والعراك) ومع ذلك فقد احرز اعظم تقدم في علم الاحياء من اي يوناني قبله او بعده . وهو يتصور ان الطيور والزواحف متقاربة في البناء والتركيب . وان القرد في شكله وسط بين الحيوانات والانسان . واعلن مرة بشجاعة ان الانسان ينتمي الى مجموعة واحدة من الحيوانات الولود (ذات الثدي) ويشير الى

ان النفس في الرضيع يصعب تمييزها عن النفس في الحيوان ، وان الطعام والغذاء غالباً ما يقرر نمط واساوب الحياة ، وان بعض الوحوش ولوفة وتعيش متجمعة ، وبعضها تعيش منفردة منعزلة فهي تعيش في الطريقة الافضل لها للحصول على الطعام الذي تختاره . كما توقع قانون فون باير المشهور بان الصفات العامة في الجنس (مثل العين والاسنان) تظهر في الجسم الحي قبـــل الصفات الخاصة بنوعها (مثل شكل تركيب الاسنان) او بفرديتها (مثل اللون الأخير للعيون) وتوقع قبل الفي سنة تعميم سبنسر وهو انه كلما كان النوع او الفرد اكثر تطوراً وتخصصاً كلما قل عدد نسله ، لقد قام بملاحظات حيوانية رفضها مؤقتـــاً بعض علماء الاحياء ولكن اثبتتها الابحاث الحديثة عن الاسماك التي تصنع اعشاشها مثلاً واسماك القرش او كلب البحر التي تمتاز بخلاص حنينها .

واخيراً اوجد ارسطو علم الأجنة . فهـــو يكتب ان الشخص الذي يرى الاشياء تنمو وتكبر منذ بدايتها او ولادتها سيكون لديه افضل الرأى فيها . لقد قدم ابقراط ابو الطب واعظم طبيب يوناني مثلاً حسناً عن الطريقة التجريبية وذلك بكسر بيض الدجاج في مراحل مختلفة من حضانة البيض . وطبق نتائج هذه الدراسات في كتابه الصغير (عن اصل الطفل) وحذا ارسطو حذو ابقراط واجرى تجارباً مكنته من وصف تطور الصوص او الكتكوت اثارت اعجاب علماء الاجنة حتى في يومنا هذا . ويجب ان يكون قد اجرى بعض التجارب التناسلية او الوراثية النـــادرة . فهو يرفض النظرية التي تقول ان جنس الطفل يعتمد على الخصية التي تزود السائل التناسلي ، مستنداً الى حالة كانت فيها خصية الاب اليمنى مربوطة وعاجزة عن العمل ، ومع ذالك فقـــد جاء الاولاد من اجناس مختلفة . كما اثار بعض المشاكل الوراثية الحديثة ، فقد تزوجت امرأة من (اليس) رجلاً زنجياً . فولدت اولاداً جميعهم من البيض . ولكن ظهر اولاد زنوج في احفاد العائلة ، ويتساءل ارسطو اين كان الســـواد مختفياً في الجيل

الوسط . لم يكن بين هذا السؤال الذكي وبين تجارب جريجور ميندل (١٨٢٢ – ١٨٨٢) سوى خطوة واحدة . عندما يعرف الشخص كيف يسأل يكون قد عرف نصف الجـواب . على الرغم من الاخطاء التي تشوه هذه الاعمال البيولوجية فانها تشكل اعظم وثيقة علميـة قام بوضعها انسان بمفرده .



٦ ــ الميتافيزيقيا وطبيعة الله

لقد نشأت ميتافيزيقا ارسطو من علم احيائه . كل شيء في العالم يحركه باعث داخلي ليصبح شيئاً أكبر مما كان عليه . وكل شيء هو كلتا الصورة او الحقيقة التي نشأت عن شيء كان مادة لها . والذي قد يكون بدوره مادة لصور أكبر تنشأ عنه . وهكذا فان الرجل هو الصورة الذي كان الطفل مادة لها . والطفل هو الصورة التي كان الجنين مادة لها . والجنين هو الصورة والبويضة هي المادة وهكذا نعود الى الخلف الى ان نصل بطريقة غامضة الى تصور المادة بغير صورة اطلاقاً . ولكن هذه المادة بغير صورة سوف لا تكون شيئاً ، لأن كل شيء صورة . ان المادة بمعناها الأوسع ، هي امكانية الصورة . والصورة هي الحقيقة ، الحقيقة التامة للمادة . المادة تسد والصورة تبني ، ان الصورة ليست الشكل فقط ولكنها القوة المشكّلة . وهي ضرورة داخلية وباعث يعجن المادة المجردة الى شكل وغرض خاص . انها تحقيق مقدرة المادة القوية . انها كمية القوى الكامنة في اي شيء ليعمل ويكون ويصبح . ان الطبيعة غزو الصورة للمادة والتدرج والتقدم الدائم وانتصار الحياة .

كل شيء في العالم يتحرك بشكل طبيعي الى تحقيق شيء معين . ومن بين الاسباب المختلفة التي تقرر حادثاً ، يكون السبب الأخير الذي يقرر الغرض أكثر الاسباب اهمية وحسماً . ان اخطاء وسخافات الطبيعة ناجمة عن قوة

استمرار مقاومة المادة لقوة الغرض المشكلة . ان التطور ليس عرضياً او مصادفة ، كل شيء يرشده من داخله ارشاد معين ، بطبيعته وبنائه ، ان بيضة الدجاجة مصيرها ان تصبح كتكوتاً لا بطة . وجوزة البلوط تصبح بلوطة لا صفصافاً . ان هذا لا يعني وجود عناية إلهية خارجية تنظم الحوادث والبناء . ان هذا النظام والتصميم بالنسبة الى ارسطو أمر داخلي وينشأ من نوع الشيء وعمله ، فهو يعتقد بأن العناية الإلهية تنسجم تماماً مع عملية الاسباب الطبيعية .

ومع ذلك هناك اله . مع انه قد لا يكون الإله البسيط في صورة الانسان الذي تصوره العقل الساذج اليافع . يعالج ارسطو هذه المشكلة من المشكلة القديمة المحيرة عن الحركة . وهو يتساءل كيف تبدأ الحركة ؟ وهو لا يقبل امكانية ان تكون الحركة بلا بداية كما تصور ان تكون عليه المادة ، قد تكون المادة أبدية ، لانها الامكانية المستمرة الدائمة لصور المستقبل ، ولكن متى وكيف بدأت هذه العملية الواسعة للحركة والتشكيل التي ملأت اخيراً الكون الواسع باشكال لا نهاية لها . وارسطو يقول انه لا بد ان يكون للحركة مصدر اذا اردنا ان لا نغطس في رجوع لا نهائي . واضعين خلفنا مشاكلنا خطوة فخطوة الى ما لا نهاية . ويجب ان نقوي الايمان بالله المحرك الاكبر ولكنه هو نفسه لا يتحرك ، وهو كائن ، معنوي لا مادي ، غير مرئي ، ولا مكان له لا مذكر ولا مؤنث ، ولا يتغير او يتأثر ، تام وأبدي . ان الله لا يخلق العالم ، بل يحركه ، ولا يحرك العالم كقوة ميكانيكية ولكن كمحرك كلي لجميع عمليات العالم . ان الله يحرك العالم كما يحرك المحبوب المحب . انه السبب النهائي للطبيعة . والقوة الدافعة للاشياء وهدفها ، انه صورة العالم ، ومبدأ حياته . ومجموع تفاعله الحيوي وقوته ، وهدف نموه الغريزي . وهو حيوية محضة خالصة ، وربما القوة الغامضة للفيزياء الحديثة والفلسفة — ، وهو ليس شخصاً كما هو قوة مغناطيسية جاذبة .

ومع ذلك فان ارسطو بتناقضه المعتاد يصور الله روحاً مدركة لنفسها ، او بالاحرى يصوره روحاً غامضة مبهمة . لأن الله لا يفعل شيئاً ابداً في نظر ارسطو وليست له رغبات ولا ارادة ولا هدف . انه حيوية خالصة لدرجة انه لا يعمل ابداً ، وهو كامل كمالا مطلقا ، لذلك ليس بمقدوره ان يرغب بأي شيء لذلك فهو لا يفعل شيئاً ، وعمله الوحيد هو التفكير في جوهر الاشياء . وبما انه نفسه جوهر جميع الاشياء وصورة جميع الصور . فان وظيفته الوحيدة هي التفكير في ذاته ، يا له من اله فقير هذا الاله الذي يعتقد به ارسطو ، انه ملك لا يفعل شيئاً ملك بالاسم لا بالفعل . ولا غرابة في ان يحب البريطانيون ارسطو لأن إلهه صورة طبق الاصل من ملكهم ، او صورة عن ارسطو نفسه ، لقد احب فيلسوفنا التأمل والفكر الى درجة ان ضحى من اجل هذا التأمل بمفهومه عن الله . ان الهه من نوع لا خيال فيه ، وهو منعزل في برجه العاجي بعيداً عن صراع الاشياء .

٧ ـ علم النفس وطبيعة الفن

ان علم نفس ارسطو يشوهه غموض وتذبذب مماثل . هناك مقاطع ممتعة جدا . ومنها تأكيد قوة العادة ، ويسميها للمرة الاولى الطبيعة الثانية ، كما تجد قوانين الاجتماع هنا على الرغم من عدم تطورها وصفا محدودا لها . ولكن مشكلتي الفلسفة وعلم النفس الاساسيتين وهما حرية الارادة وخلود النفس تركتا في شك وغموض . ان ارسطو يتحدث احيانا كرجل جبري . فهو يقول اننا لانستطيع ان نريد مباشرة ان نكون خلافا عما نحن ، ولكنه يسترسل في النقاش ضد الجبرية بقوله ، اننا نستطيع ان نختار ما سنكون ، باختيار البيئة التي تصوغنا وتشكلنا . وهكذا فنحن احرار بمعنى اننا نصوغ اخلاقنا وعاداتنا باختيارنا للاصدقاء والكتب والاعمال واسباب المتعة والتسلية ، وهو لا يتوقع جواب الجبري الفوري الجاهز ، وهو ان هذه الامور الاختيارية المشتقة في حد ذاتها تقررها عادات واخلاق اسلافنا ، وانها في النهاية نتيجة وراثة وبيئة لا اختيار لنا فيها ، وهو يؤكد بان استخدامنا الدائم للمدح واللوم يدل على مسؤولية الخلاقية وارادة حرة ، ولم يدرك ان الجبري قد يبلغ من المقدمات ذاتها نتيجة معاكسة تماما ،

وان توجيه المدح واللوم قـــد يكون جزءا من العوامـــل المقررة للعمل اللاحق .

ان نظرية ارسطو عن النفس تبدأ بتحـــديد ممتـــع ، وهي ان النفس المبدأ الحيوي التام لاي جسم حي . ومجموع قواه وتفاعله ، والنفس في النباتات ليست سوى قوة مغذية مولدة . وفي الحيوانات ايضاتكون قوة حساسة محركة وفي الانسان ايضا قوة العقل والتفكير ، والنفس كمجموعة قوى الجسدلاتعيش بدونه ، اي انها تفنى بفنائه والنفس والجسد اشبه شيء بالشمع وشكله ، يبدو انفصالهما في الفكر فقط ولكنهما في الحقيقة شيء واحد. ان النفس الخاصـــة والشخصية تستطيع ان تعيش فقط في جسدها ، ومع ذلك فان النفس ليست مادة كما ارادها ديمقريطس ان تكون ، وهي ايضا لاتفنى كلها . ان جزءا من القوة العاقلة في النفس الانسانية مستكن او مستسلم ، وهو مربوط بالذاكرة ، ويموت مع الجسد الذي يحمل الذاكرة ، ولكن « العقل الفعـــال » وهو قوة الفكر المحضة مستقل عن الذاكرة ولا يصيبه الفناء ، ان العقل الفعـــال هو العنصر العام الذي يمتاز عن العناصر الفردية في الانسان . ان الذي يخـــلد ليس الشخصيه برغباتها وعواطفهـــا المتغيرة العابرة ، بل العقـــل في شكله المجرد اللاشخصي .

وبالاختصار فان ارسطو يدمر النفس ويجعل للعقل ابدية وخـلودا . ولا يسع الانسانالا ان يبدي دهشته احيانا هل كانت هذه الطريقة الميتافيزيقية حول النفس حيث نرى ارسطو يأكل الكعكة ويبقيها عندما يدمر النفس

ويفنيها ويبقي جزءا منها وهو العقـل او الفكرة المجردة التي يقـول بخلودها ، قد يكون وسيلة بارعة لجأ لها ارسطو لانقاذ نفسه خوفا من ان يحكم عليه الفريق المعادي للمقدونيين في اثينا بالاعدام بشرب السم ، اذا جـاهر صراحة بفناء النفس .

وهو يكتب باصالة اكثر في ميدان اكثر امنا وسلامـة كالميدان السيكولوجي ، فقد اوجد دراسـة نظرية الجمال والفن ،فهو يقول ان الخلق الفني ينبـع من الباعث المكون والشوق او الحنين الى التعبير العاطفي . ان شكل الفن يسعى الى تقليد الحقيقـة ، وهو مرآة للطبيعة ، وفي الانسان لذة ومتعة في التقليد ، لانجدها في الحيوانات السفلى على ما يظهر ، ومع ذلك فان هدف الفن لايقوم على تقديم المظهر الخارجي للاشياء ولكن اهميتهـا الداخلية ، لان الحقيقة تكمن في هذه الاهمية الداخلية لا في التصنع والتكلف والتفصيل الخارجي .

ان اعظم الفنون نبلا هي التي تؤثر على العقل والمشاعر ايضا (وهو مثل السمفونيا لاتؤثر علينا بانسجامها وسياقها فحسب بل ببنائها وتطورها ايضا) وهذا السرور العقـلي هو اعظم اشكال السرور الذي يمكن ان يرتفع له الانسان . كما ان عمل الفن ينبغي ان يستهـدف الشكل . وفوق كل شيء الوحدة ، التي هي عمود البناء الفقري ومركز الشكل ، حيث يجب توفر وحدة العمل في الرواية او القصة المسرحية بأن لا يكون فيهـا مؤامرات منحطة مخزية ، او حوادث شاذة . بحيث ينبغي ان يكون عمل الفن منظفا ، ومنقيا لان الانفعالات التي تتراكم فينا تحت الضغط والكبح الاجتماعي وتكون قابلة لمخرج مفاجيء في اعمال مخربة غير اجتماعية ، يتم اصلاحها عندما يمسها التهييج المسرحي الانيس عن طريق الخوف والشفقة

التي تؤثر على تنقية هذه المشاعر وتطهيرها . لقد نسي ارسطو معالم معينـــة في الرواية المسرحية المحزنة « وهي تصادم المبادىء والشخصيات مثلا » ولكنه قدم في نظرية التطهير اقتراحا سيبقي على مر الازمان في تفهم قوة الفن التي يكتنفها الغموض في معظم الاحيان ، وهو شاهد ساطع على مقدرته في الدخول الى كل ميدان من الفكر وتزيين كل ما يمسه بفكره .



٤ ــ نقــــد

ماذا نقول عن هذه الفلسفة ؟ قد لا نجد فيهـا شيئاً مطرباً ، من الصعب ان تأخذك الحماسة بارسطو ، لأنه هو نفسه لم يكن متحمساً لشيء ، اذا طلبت مني البكاء وجب عليك ان تبكي انت اولاً . كما ان اسلوبه وامثلته لا تثير الاكبار والاعجاب . اننا نفقد فيه حماسة افلاطون للاصلاح ، وحبه للانسانية المتوقد الذي حدابه الى انذار مواطنيه ، كما نفقد فيه اصالةافلاطون استاذه وجرأته ، وخياله الشامخ ، ومع ذلك ، فاننا بعد قراءة افلاطون لا شيء ينفعنا اكثر من ارسطو الهاديء المرتاب .

دعنا نلخص عدم اتفاقنا معه ، ان ما يثير فينا الاستياء منه اولاً اصراره على المنطق ، فهو يعتقد بان القياس وسيلة الانسان الصحيحة على التفكير السليم، مع انه مجرد وسيلة يلبس فيها تفكيره لأقناع عقول الآخرين ، وهو يفترض بان الفكر يبدأ بالمقدمات والبحث عن نتائجها . بينما يبدأ الفكر في الحقيقة بالنتائج الافتراضية والبحث عن مقدماتها المبررة لها،والبحث عنها بطريقة افضل بملاحظة الحوادث المعينة في حـــالات التجربة المنفصلة ، ومع ذلك ينبغي الا ننسى ان الفي سنة لم تغير سوى منطق ارسطو العرضي وانه« اوكام ، وبيكون،

وويل ، ومل، ومئات الآخرين لم يجدوا سوى بقع صغيرة في شمس ارسطو ،وأن خلقه لهذا النظام الجديد في الفكر، ووضعه الحازم لخطوطه الضرورية ستبقي احدى الاعمال العظيمة الخالدة للعقل البشري .

ومرة ثانية نجد ان افتقاره الى التجربة والاختبار والآراء العلمية ترك علمه عن الطبيعة كتلة من الملاحظات الفجة عسيرة الهضم ، لقد امتاز في جمع المعلومات وترتيبها، وفي كل ميدان نجده يحسن استعمال تنسيقاته ويضع فهارس لها. ويسير جنباً الى جنب مع هذه الميول والمواهب في الملاحظة انشغاله وانهماكه في الميتافيزيقا الافلاطونية . وهذا يجعله يطوف في كل علم ، ويورطه في مقدمات واسعة ، وهنا يكمن عيب اليونان الكبير الذي كان يعوزه النظام والتحديد والتقاليد الثابتة ، فقد جال بحرية في ميدان غير محدود ، وجرى طوعاً الى النظريات والاستنتاجات وبذلك فقد حلقت الفلسفة اليونانية وقفزت فوق مرتفعات لا يمكن بلوغها مرة ثانية ، بينما تخلف العلم اليوناني وراءها . ان الخطر الذي يواجهنا في الوقت الحاضر مقابل لهذا تماماً ،اذ ان المعلومات المستنبطة ، تنصب فوقنا من كل حدب وطرف كحمم بركان فيزوف ، وتكاد تخنقنا الحقائق المبعثرة غير المنسقة ، وعقولنا مفرقة بسبب زيادة العلوم وتفرعاتها التي ادت الى الفوضى والاضطراب والبلبلة بسبب حاجتها الى فكر متناسق وفلسفة موحدة .

والاخلاق ارسطو فرع عن منطقه ، والحياة المثالية في نظره تشبه قياسه ، انه يقدم لنا كتاباً موجزاً عن اللياقة والحشمة لا يثير فينا باعث الاصلاح والتحسين . لقد قال عنه احد النقاد القدماء بأنه معتدل الى حد الافراط في الاعتدال . وقد يصف احد المتطرفين « الاخلاق » عند ارسطو بانها ضربت رقماً قياسياً في جمع سخافات الادب وتوافهه . وسيعزي السياسي البريطاني نفسه بالتفكير في ان الانجليز في شبابهم قد كفروا مقدماً عن خطاياهم الاستعمارية في

كهولتهم وسنوات نضجهم ، لأنهم كانوا يجبرون على قراءة كل كلمة في اخلاق ارسطو في جامعتي اكسفورد وكمبردج . ويخبرنا (ماتثوارنولد) ان الاساتذة في اكسفورد في وقته كانوا يعتبرون كتاب الاخـلاق الوضعيـة معصوما عن الزلل والخطأ . لقد شكل هذا الكتاب عن الاخلاق عقلية الطبقة البريطانية الحاكمة وربما دفع بها الى تحقيق اعمال نبيلة وعظيمة ولكنه اضفى عليها قطعاً قدرة باردة وقاسية . باترى ، كيف تكون النتيجه لو تتلمذ اسيادا عظم الامبراطوريات على الحماس المقدس والعاطفة البناءة التي تطبع كتاب جمهورية افلاطون ؟ .

هذا بالاضافة الى ان ارسطو لم يكن يونانياً ، فقد رسخ وتكون قبل ان يحضر الى اثينا ولا شيء فيه يطبعه بالطابع الاثيني المتسرع ، أو التجارب الاثينية الفكرية التي جعلت اثينا تخفق بالنزاع السياسي الذي ساعد في اخضاعها الى الاسكندر الذي كان يعمل لتوحيد اليونان . لقد ادرك ارسطو تماماً الاوامر المكتوبة على معبد دلفي التي تنص على تجنب الافراط . لقد حرص كثيراً على تقشير تفاحة الافراط الى درجة لم يترك فيها شيئاً . انه يخشى الفوضى كثيراً لدرجة انسته الخوف من العبودية والرق . ويخشى عواقب التغيير لدرجـــة دفعته الى تفضيل عدم التغيير الذي يعني الجمود والموت . وينقصـــه معنى التدفق الذي امتاز به هرقليطس . وينسى بأن شيوعية افلاطون كانت تقصد الأقلية فقط ، وهي الأقلية البعيدة عن الشراهة والاثرة . ولكنه مع ذلك ينتهي الى النتيجة الافلاطونية بانحراف عندمـــا يحث على استخـــدام الملكية الخـــاصة استخداماً مشاعاً ومشتركاً انه لم ير (ومن المتعذر ان يرى في تلك الأيام) ان السيطرة الفردية على وسائل الانتاج كانت حـــافزاً منعشاً عندما كانت وسائل الانتاج بسيطة يستطيع ان يشتريها كل انسان ، وان زيادة التعقيد فيها ، وزيادة تكاليفها تؤدي الى احتكارها والى تركيز خطير في الملكية والقوة ، وأخيراً الى تباين وخلاف كبير يؤدي الى تفكك وتمزق في المجتمع .

ولكن بعد هذا النقد الضروري لارسطو ، ستبقى فلسفته أبدع النظـــم

الفكرية وأكثرها تأثيراً ، والتي قام بوضعها عقل واحد فقط . ونشك في ان يكون مفكر آخر قد ساهم بمثل هذه الكثرة في تثقيف العالم وتنويره . لقد استمدت الاجيال كلها من ارسطو ، ووقفت على كتفيه لترى الحقيقة . لقد استمدت ثقافة الاسكندرية العظيمة من كتاباته ، واستوحت الهامها ومعرفتها الغزيرة من فلسفته ، ولعب منطقه دوراً كبيراً في تشكيل العقول في العصور الوسطى البربرية وفي تثقيفها وتهذيبها وصقلها وتنظيمها في افكار متماسكة منظمة .

وقام المسيحيون من اتباع المذهب النسطوري بترجمة أعماله الاخرى الى اللغة السريانية في القرن الخامس بعد الميلاد، والى اللغة العربية في القرن العاشر. وثم ترجمت الى اللغة اللاتينية حوالي عام ١٢٢٥ ، محولة الفلسفة اللاهوتية من بداية فصاحتها في (ابلارد) الى نهايتها في توما الاقويني . لقد اعاد الصليبيون معهم نسخاً يونانية من كتب ارسطو اكثر دقة ، وأحضر العلماء اليونان في القسطنطينية معهم كنوزاً أكثر من افكار ارسطو عندما هربوا من المدينة اثناء حصار الاتراك لها في عام ١٤٥٣ . لقد كانت اعمال ارسطو بالنسبة الى الفلسفة الأوروبية بمثابة الأنجيل للدين . واعتبرت نصوصها منزهة عن الاخطاء والزلل وحل لكل مشكلة . وقام جريجوري التاسع في عام ١٢٣١ بتعيين لجنة لتهذيب هذه النصوص وتنقيحها . وفي عام ١٢٦٠ بدأ تدريس ارسطو في كل مدرسة مسيحية . كما فرضت الجمعيات الكنائسية عقوبة الضلال على المنحرفين عن آرائه . ويصف لنا شوسير سعادة تلميذه في اقتناء عشرين كتاباً من كتب ارسطو . يقول دانتي في الحلقات الاولى من كتابه الجحيم « رأيت ارسطو هناك وسط الاسرة الفلسفية ، وسط اكبار الجميع وتقديرهم ، وهناك رأيت افلاطون وسقراط يجلسان بجانبه على اقتراب اكثر من الجميع » .

هذه السطور تشير الى الشرف الذي احاط بارسطو طيلة الف عام . وبقي

كذلك الى ان تمكنت المعدات والآلات العلمية الحديثة ، والتجارب المتراكمة ، والملاحظات والتجارب الواسعة من تطور العلم ، وزودت د اوكام ، وراموس ، وروجر وفرانسيس بيكون ، بأسلحة لا تقاوم ادت الى انتهاء تأثير ارسطو وسيطرته . لم يتحكم عقل آخر في عقول البشر هـذه المدة الطويلة مثل ارسطو .



٥ ـــ ايامه الأخيرة وموته

لقد تعقدت الحياة امام فيلسوفنا تعقداً كبيراً ، وبدأ الشقاق بينه وبين الاسكندر لاحتجاجه على اعـــدام كاليثينيس (ابن اخت ارسطو) الذي رفض ان يعبد الاسكندر الذي فرض الوهيته على الشعب : وقد اجاب الاسكندر على هذا الاحتجاج مشيرا الى انه لن يتورع عـن اعدام الفلاسفة ايضاً ، وان هذا ضمن نطاق قدرته . وكان ارسطو في الوقت ذاته منهمكاً في الدفاع عن الاسكندر بين الاثينيين ، وآثر التماسك اليوناني على الولاء الوطني للمدينة الواحدة ، واعتقد بان انتهاء النزاع وزوال سيـادة المدن واستقلالها بامورها سيؤدي الى ازدهار العلم والثقافة . ورأى في الاسكندر ما رآه (جوته) بعد ذلك في نابليون ، رأى فيه الوحدة الفلسفية لعـــالم تسوده الفوضى والاستياء . وسخط الاثينيون الجائعون للحرية على ارسطو وزاد سخطهم عندما اقام الاسكندر تمثالاً لارسطو في قلب المدينة المعادية . وفي وسط هذا الاضطراب ينتابنا شعور عن ارسطو يختلف تماماً عن ذلـــك الذي اوجدته فينا فلسفته الاخلاقية . فنحن لا نواجة الانسان البارد الأعصـــاب والهادىء ، بل الشجاع المحارب الذي يواصل اعماله وسط اعداء يحيطونه من كل جانب ، ومنهم خلفاء افلاطون في الاكاديمية . والجماهير الغاضبة التي الهبتها فصاحة ديمستين النارية ، والتي تآمرت ونادت بنفيه او موته .

ومات الاسكندر بعد ذلك فجأة . وطغت الفرحة الوطنية على اثينـا ، وقام انقلاب أودى بالحزب المقدوني الحاكم وأعلن الاثينيون استقلالهم ، واتجه انتيبتر خليفة الاسكندر وصديق ارسطو المقرب في اتجاه اثينا الثائرة ، وهرب معظم المقدونيين ، واقام يورميدون الاسقف الأول دعوى على ارسطو ، واتهمه بانه قال بعدم فائدة الصلاة والقرابين ، وعندما وجد ارسطو ان مصيره قد ينتهي في محاكمته وسط جماهير اشد عداء من تلك التي قتلت سقراط ، ترك المدينة محكمة قائلاً انه سوف لا يقدم لأثينا فرصة ارتكاب خطيئة ثانية ضد الفلسفة . ولا ينطوي عمله هذا على الجبن ، اذ جرت العادة في اثينا دائماً على تخيير المتهم بين النفي او المحاكمة . وعندما وصل الى تشالسيس وقع مريضاً وقيل انه انتحر بشرب السم بسبب تحول الامور ضده . على كل حال فقد كان مرضه مميتاً ، وبعد شهور قليلة من تركه اثينا مات وحيداً في عـــام (٣٢٢ قبل الميلاد) وعمره ٦٢ سنة .

وفي السنة ذاتها شرب ديمستين الد اعداء الاسكندر السم وعمره ٦٢ سنة ايضاً وفي اثني عشر شهراً فقدت اثينا حاكمها الأعظم وخطيبهـــا الأعظم وفيلسوفها الأعظم ، وذوى مجد اليونان ببزوغ فجر الرومان . ولكن عظمة روما قامت على عظمة القوة لا على ضوء الفكر . واندثرت عظمة روما بعـد ذلك وساد اوروبا ظلام طويل استمر الف سنة ، انتظر العالم فيها بعث الفلسفة من جديد

الفصل الثـــالث

فرنسيس بيكون

١ – من ارسطو الى عصر النهضة العلمية .

عندما حاصرت اسبارطة اثينا وانزلت الهزيمة بها في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد تحولت السيادة السياسية عن اثينا ام الفلسفة اليونانيه والفن ، مماادى الى انحطاط نشاط واستقلال العقل الاثيني . وباعدام سقراط في عام (٣٩٩ قبل الميلاد) ماتت روح اثينا معه ، لتتريث قليلا في تلميذه الفخور افلاطون . – ثم هزم فليب المقدوني الاثينيين في عام (٣٨٨ قبل الميـــلاد) واحرق الاسكندر مدينة طيبة العظيمة بعد ذلك بثلاثة اعوام . ان سيـــادة ارسطو المقدوني على الفلسفة اليونانية تعكس خضوع اليونان السيـاسي لشعـوب الشمال الشجاعة الفتية ؛ وقد سارع موت الاسكندر في عام(٣٢٣ قبل الميلاد) بهـذا الانحلال اليوناني . لقد بقي الاسكندر متوحشا على الرغم من جهود ارسطو في محاولة تثقيفه ، ولكن على الرغم من وحشيته هذه فقد تعلم توقير الثقـــافة اليونانية واحترامها ، وكان يحلم بنشرها في الشرق ابان انتصارات جيوشه . لقـد اوجد تطور التجارة اليونانية، وزيادة المراكز التجارية اليونانية ، في جميع انحاء

اسيا الصغرى ، قاعدة اقتصادية لتوحيد هذه المنطقة كجزء من الامبراطورية الهيلينية . واعتقد الاسكندر بان الفكر سيسطع من هذه المراكز اليونانية التي تخرج منها البضائع اليونانية ايضا . ولكنه في اعتقاده هذا قلل من اهمية قـــوة الاستمرار والمقاومة في العقل الشرقي . واغفل جوهر وعمق الحضارة الشرقية . لقد كان ذلك من اوهام الشباب فقط ، اذ من الصعب فرض حضارة لم يـــتم نضوجهـــا ، وتوطيد اقدامهـــا واستقرار امورها ، على حضارة شرقية اكثر اتساعا واشد تأصلا في اكثر التقاليد وقارا . فقد تغلبت روح الشرق على الاسكندر نفسه في ساعات اوج انتصارته وتزوج (بالاضافة الى عدة زوجات اخرى) ابنة داريوس ملك الفرس وتبنى التاج والكساء الرسمي الفـــارسي في الدولة . واستقدم الى اوروبا الفكرة الشرقية عن حق الملوك المقدس . واخيراً فاجأ اليونان باعلان نفسه الها بطريقة شرقية جليلة . وسخرت اليونان منـــه ، ولاقى بعد ذلك حتفه . وقد تبـع اشراب الجسم اليوناني المضنى بهذه الروح الشرقية ، إنصباب الطقوس الدينية ، والديانات الشرقية الى اليونان عـــبر نفس خطوط المواصلات والطرق التي شقها الفاتح الشاب . وتداعت السدود المنهارة امام سيل الافـكار الشرقية ، التي تدفقت على الاراضي الاوروبية التي لا زال العقل فيها فتيا . وزاد انتشار الدياناتالخرافية الغامضة التي كانت قد تأصلت في نفوس الهيلينيين الاكثر فقرا ، وانتشرت في كلجانب،ووجدت روح الاستسلام والجمود الشرقية تربة خصبة صالحة في اليونان المضمحلة اليائســـة . ولم يكن استقدام الفلسفة الرواقية او الزينونية ، التي جاء بها التاجر الفينيقي زينون الى اثينا حوالي عام (٣١٠ قبل الميلاد) سوى وجه واحد للتسرب الشرقي الواسع الذي دخل الى اليونان ، لقد كان المذهب الرواقي والابيقوري استسلاما وقبولا للهزيمة ، وجهودا لمحاولة نسيان الهزيمة في احضان اللذة والسرور ، ونظريات حول كيفية بلوغ الانسان السعادة على الرغم من ذل الاستعباد والخضوع . تماما

كما كانت فلسفة شوبنهور الرواقية الشرقية المتشائمة ، وفلسفة رينان الابيقورية اليائسة في القرن التاسع عشر شعارات للثورة المدمرة وفرنسا المحطمة .

لم يكن هذا التناقض الطبيعي في النظرية الاخلاقية جديدا بالنسبة الى اليونانيين . اذ نجده في الفيلسوف المكتئب هرقليطس ، والفيلسوف الضاحك ديمقريطس ، وانقسام تلاميذ سقراط الى كلبيين ساخرين بالعالم ولا يؤمنون بصلاح البشر او قورينائيين يقولون بان الملذات غاية الحياة بزعامة انتستينس واريستبوس حيث مجدت اولى هاتين المدرستين الجود ومجدت الثانية السعادة . ومع ذلك فقد كانت فلسفة هاتين المدرستين غريبة على التفكير اليوناني ولم تأخذ بها اثينا . ولكن عندما رأت اليونان كيرونيا تتحول الى دماء وطيبة الى رماد ، اصغت الى تعاليم ديوجينس الكلبي . وعندما فارقها المجد اصبحت معدة لتعاليم زينون وابيقور .

لقد بنى زينون فلسفته الجامدة على جبرية وجد احد الرواقيين المتأخرين وهو كريسبوس صعوبة في تمييزها عن القدرية الشرقية . وعندما كان زينون الذي كان لايؤمن بنظام الرق يضرب عبدا له ارتكب ذنبا ، توسل العبد ان يخفف من ضربه له ، قائلا له ان فلسفته تقول انه مصير لا مخير في ارتكاب ذنبه ، فاجابه زينون بانه هو ايضا مصير لا مخير في ضربه له ، وكما ظن شوبنهور ان من العبث ان تحارب الارادة الفردية ضد الارادة الكلية إعتقد الرواقيون ان عدم الاهتمام الفلسفي هو النظرة المعقولة الوحيدة للحياة المحكوم على الصراع من اجل المعيشة فيها بالهزيمة التي لامفر منها . واذا كان النصر مستحيلا لذلك ينبغي احتقاره . ان سر السلام يكمن في ان لا نجعل منجزاتنا متساوية مع رغباتنا ، ولكن في خفض رغباتنا الى مستوى ما نحققه من امور . لقد قال الرواقي سنيكا الروماني الذي توفي (عام ٦٥ بعد الميلاد)

اذا كان ما لديك لايكفيك ، عندئذ ستكون بائسا وفقيرا حتى ولو ملكت العـــالم .

لقد نادى هذا المبدأالسيء مطالباًبمبدأمعاكس له . وعلى الرغم من انابيقور كان في حياته رواقيا مثل زينون ، فقد قام بتقديم هذا المبدأ المعاكس . لقد اشترى ابيقور حديقة جميلة كان يحرثها ويزرعها بنفسه ، وانشأ مدرسته فيها ، وعاش فيها مع تلاميذه حياة لطيفة سارة مرضيـة . وكان يعلمهم وهـو يمشي ويعمل ... لقد كان لطيفا وانيسا ودودا مـع جميع الناس ، وقال انه لاشيء انبل من تكييف الانسان نفسة على الفلسفة وتطبيقها على نفسه .واعتقد باستحالة جمود المشاعر ، وان اللذة(ليس من الضروري انتكون اللذة الحسية ،) هي الغاية الشرعيةالوحيدة التي يمكن ادراكها للحياة والعمل . ان الطبيعةتسوق كل جسم حي الى تفضيل خيره على كل خير آخر ، وهو يمجـد مسرات الفكر اكثر من مسرات الحس الاخرى ، ويحذر من اللذائذ التي تهيـج النفس وتزعجها بحيث تكون هذه اللذائذ هادئة ومسالمة . وفي النهاية يقـترح ان لا نبحث عن اللذة في معناها المـادي ولكن في هدوء واتزان العقل وراحتـه وهجوعه .

وعندما قام الرومان بنهب هلينيا (في عام ١٤٦ قبل الميلاد) وجدوا هذه المدارس المتنافسة تتقاسم الميدان الفلسفي . وبما ان الرومانلم يكن لديهمالوقت والفراغ او المقدرة على التأمل والتفكير انفسهم، فقد عادوا بهذه الاراءالفلسفية مع جملة مغانمهم الى روما . لقد اتجه كبار المنظمين الى الاساليب الرواقية . وهكذا فقد كانت الفلسفة السائدة في روما تقريبا فلسفة زينون الرواقية ، سواء اكانت هذه الفلسفة في مرقص اورليوس الامبراطور ، او ابكتاتوس العبد وحتى لوكريتوس كان يتحدثعن الابيقوريةبطريقة رواقية ، وانهيانجيله العبوس عن اللذة بالانتحار.. وشعره النبيل عن طبيعة الاشياء يسير على منوال

ابيقور في لعن اللذة في مدح ضعيف . لقد عاصر يوليوس قيصر وبومبي وعاش في جو من الاضطراب والرعب . وكانت يراعه العصبية المرتعشة تدعو دائما الى الصلاة من اجل الهدوء والسلام . ويصوره احدهم بانـــه كان نفسا هيـابة وجلة ، وان المخاوف الدينية طبعت شبابه بلون قاتم اسود . فهو لم يتعب من اخبار قرائه بعدم وجود جحيم الا هنا، وعدم وجود آلهة باستثناء الهة فاضلة تعيش في حديقة ابيقور في السحاب ، وهي لاتتدخل في حيـــاة البشر ، ويعترض على انتشار فكرة الجنة والنار بين السكان في رومـــا بنظرية مادية قاسية ، ويقول بان النفس والعقل يتطوران مع الجسم وينمـوان بنموه ، ويتألمان بأله ويعتلان بعلته ويفنيان بفنا ـــه . ولا شيء يبقى سوى الذرات والفراغ والقانون ، وقانون القوانين هو قانون التطور والانحلال في كل مكان . لاشيء يبقى وكل الاشياء تفنى .

تنمو الاشيـــاء بالتصاق القطع الصغيرة بعضهـا ببعض الى ان نعرفها ونسميها ، فتأخذ في الفناء تدريجيا ، ولا تعود الاشيـاء التي كنا نعرفهـا ونعهدها .

العالم من الذرات ، تتساقط ببطء او بسرعة ، ارى الشموس ونظـــام رفعها ، واشكالها ، وحتى الشموس ونظمها ستعود ببطء الى حركتها الابدية .

وانت ايضا ايتها الارض ستذهبين وامبراطورياتك ، واراضيك ،وبحارك ، ستذهب ، وانت ذاهبة ساعة فساعة مثلها .

لا شيء يبقى
وبحارك في ضباب ناعم
ستذهب وتفنى .

وستهجر هذه الرمال التي يضيئها القمر مكانها ، وتأتي بحار اخرى تحتــل مكانها . وتحصد في مناجلها البيضاء خاجان اخرى .

وهو يضيف الى التطور والانحلال الفلكيين اصل الانواع وفنائها فيقول .لقد حاول الكثير من الوحوش ذات الخلقة الغريبة التي ظهرت على الارض التناسل والتكاثر ، وهي وحوش غريبة الوجوه والايدي والارجل ، بعضها بغير اقدام وبعضها بغير ايدي ، وبعضها بلا افواه وبعضها بلا اعين . . لقد انتجت الارض هذا النوع من الوحوش ولكن بغير فائدة ، لان الطبيعة اوقفت زيادتها وتكاثرها ولم تستطع بلوغ زهرة العمر ، ولم تجد طعاما لها ، او تتحد بالزواج ، والكثير من الاجناس والانواع الحية قد ماتت وعجزت عن التناسل والتوالد والاستمرار لأن جميــع الأنواع التي نراها تتنفس انفاس الحياة .. قد حمتها الشجاعة او السرعة او الحيلة منذ البداية .وحافظت على انواعها . . .

اما الانواع التي لم تهبها الطبيعة مثل هذه الصفات فتبقى فريســة وغنيمــة لغيرها الى ان تستأصل الطبيعة نوعها .

والشعوب ايضا كالافراد تنمو ببطء وتفنى حتما . بعض الشعوب تتكاثر ، واخرى تتناقص وتزول . وتتغير الاجناس الحية في مدى قصير ، وتفارق الحياة بسرعة وفي وجه الصراع والموت الذي لا مفر منه ، لا حكمة سوى الهــدوء والبرود الفلسفي . والنظر الى الاشياء بعقل هادىء مطمئن .

يبدو لنا هنا بوضوح اختفاء السرور الوثني القديم بالحيــاة ، وعزف روح اجنبية على القيثارة المحطمة . واذا كانت هذه هي روح اتباع ابيقور فما هي الروح التي طبعت الرواقيين من امثال اوروليوس الامبراطور او ابكتاتوس العبــد . لاشيء يقبض النفس في تاريخ الادب اكثر من « رسائل » العبد ما لم ترد عنها « تاملات » الامبراطور .

« لاتطلب وقوع الاشياء كما تختارها بل اختارها على اساس حدوثها كما تقع

لكي تعيش في نجاح » .

وتروى لنا قصة ان سيد ابكتاتوس الذي كان عبدا كما ذكرنا كان يعامله بقسوة شديدة ، وانه ذات مرة اخذيلوي ساقه للتسلية ، فقال ابكتاتوس لسيده لو واصلت لويك لساقي فانك ستكسرها ، قال هذا بهدوء ، ولكن سيده استمر في لويها حتى كسرها ، وهنا قال ابكتاتوس بلطف ورقة ، الم اقل لك بانك ستكسرها ؟ ومع ذلك فاننا نلمس نبلا غامضا معينا في هذه الفلسفة كما في شجاعة بعض الدستفسكيين المسالمه ، لا تقل ابدا انني فقدت شيئا ، ولكن قل استعدته ، اذا مات طفلك فهو عائد ؟ واذا ماتت زوجتك فهي عائدة واذا جردوك من اراضيك . هل تعود ايضا ؟ اننا نشعر من هذه العبارات باقترابنا من المسيحية وشهدائها البواسل . الم تدع الاخلاق المسيحية الى انكار الذات الم يدع المثل الاعلى المسيحي السياسي الناس الى الاخوة ، وفلسفة الحشر والنشر المسيحية عن الاحتراق النهائي لجميع العالم الم تكن مستمدة عن المبدأ الرواقي .

لقد فقدت الروح اليونانية الرومانية وثنيتها في ابكتاتوس. واصبحت ممهده لدين جديد . «وتأملات » اورليوس لاتبعد سوى خطوة واحدة عن تعاليم المسيح .

وفي الوقت ذاته اخذ الماضي التاريخي يذوب ويتحول الى مشاهد جديدة . ونلمس هذا التحول من قراءه بعض المقاطع البارزة في ليوكريتس الذي يصف تدهور الزراعة في الدولة الرومانية ويعزوها الى جفاف الارض وتعبها . مهما كان السبب ، فقد تحولت ثروة روما الى فقر ، وتنظيمها الى فوضى » وقوتها ومجدها الى جمود وخراب ، وتضاءلت المدن الى اطراف نائية صغيرة وتعطلت الطرق ولم تعد تصلح للتجارة التي كانت تدوى فيها كدوي النحل . واخذت القبائل الجرمانية العنيفة تزحف سنة بعد اخرى عبر الحدود . واستسلمت الحضارة

والثقافة الوثنية الى الطقوس الدينية الشرقية . وتحولت الأمبراطورية بلا شعور الى البابوية .

لقد دعم الاباطرة الكنيسة في القرون الاولى من قيامها . وامتصت الكنيسة تدريجيا سلطة الملوك والاباطرة ، ونمت نموا كبيرا في عددها وثروتها ونفوذها. وفي نحو القرن الثالث عشر اصبحت الكنيسة تملك ثلث الارض في اوروبا . وامتلأت خزائنها بتبرعات وهبات الاغنياء والفقراء . واستطاعت ان توحد لمدة الف سنة تقريبا معظم شعوب القارة الاوروبية بفضل سحر دستورهـا وعقيدتها الموحدة . ولم يشاهد العالم ولن يشاهد مثل هذه المنظمة في انتشارها ومسالمتها . ولكن هذه الوحدة استدعت وجود ايمان مشترك ينتظمه تصديق بما فوق الطبيعة يعلو على عوامل التغيير والتآكل في الزمان. لقد القت الكنيسة بعقيدة محدودة ومحددة طوقت بها العقل الاوروبي اليافع في العصور الوسطى، واحاطت هذه العقيدة العقل الاوروبي كما تحيط الصدفة الحيوان البحري الصغير في داخلها .

لقد تحركت الفلسفة المدرسية من داخل هذه الصدفة الضيقة من العقيدة والايمان الى العقل ، وعادت ثانية الى الوراء في دائرة مخيبة للأمل ، ومثبطة للعزيمة من فرضيات مسلم بهـا ولا يمكن نقدها واستنتاجات تم فرضها وتنظيمها مقدماً . وفي القرن الثالث عشر تحرك العالم المسيحي وتنبه بما ترجمه العرب واليهود عن فلسفة ارسطو . ولكن سلطة الكنيسة كانت لاتزال قوية لتأمين نفسها عن طريق توما الاكويني وغيره بتحويل فلسفة ارسطو الى فلسفة إلهية للقرون الوسطى . ولم تكن نتيجة هذا حكمه بل خبثاً ومكراً لأن فطنة الانسان وتنقله كما يقول فرنسيس بيكون تحمله على البحث ، وفقاً للموضوع ومادته وبذلك يكون معيناً ، ولكن عندما يعمل حول نفسه ، كما يصنع العنكبوت نسيج بيته ، عندئذ يكون عمله عقيما يدور في دائرة لفافة ، وينسج نسيجاً من العلم يستحق التقدير بسبب جمال الخيوط وصنعها

ولكنه نسيج مجرد عن اللب والفائدة .

وبعد الف سنة من العزق والفلاحة ، اينعت التربة وازدهرت مرة ثانية . وكثر الانتاج وزادت البضائع وأدت الى توسع التجارة . وأنشأت التجارة عبر طريقها مدناً عظيمة مرة ثانية ، وتعاون الناس فيها على تغذية الثقافة واعادة بناء المدنية . وفتح الصليبيون الطريق الى الشرق ، وأدخلوا معهم لدى رجوعهم كثيراً من الترف والبدع الدينية التي قضت على الزهد والتقشف والعقيدة . راستوردوا الورق باثمان زهيدة من مصر ، ليحل محل الجلود الرقيقة باهظة الثمن التي كانت تستخدم في الكتابة ، والتي جعلت الرهبان والقسس يحتكرون العلم والتعليم بسبب فداحة اثمان هذه الجلود. وبرزت الطباعة التي طال انتظارها وكانت تكاليفها رخيصة وانتشرت في كل مكان . وخاطر الملاحون المسلحون الآن بالبوصلة بشجاعة في عبور البحار المظلمة وتغلبوا على جهل الناس حول الأرض وخاطر المراقبون ورجال بالفلك المزودون بالمرصد وراء حدود العقيدة الدينية ، وتغلبوا على جهل الانسان حول الفلك والماء . هنا وهناك في الجامعات والأديرة وأماكن العزلة المختفية توقف الناس عن الخلاف والنزاع ، وبدأ البحث يتجه الى تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب عن طريق السيمياء ، وتحولت السيمياء الى كيمياء ، وتحول الرجال عن التنجيم وتلمسوا طريقهم بشجاعة الى علم الفلك ، وتحولت اساطير التحدث بلسان الحيوانات الى علم الحيوان .

لقد بدأت اليقظة بروجر بيكون الذي توفي في عام ١٢٩٤ وكبرت وترعرعت في ليوناردو (١٤٥٢ - ١٥١٩) وبلغت كمالها في فلك كوبر نيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣) وجاليلو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) وفي ابحاث جلبرت (١٥٤٤-١٦٠٣)في المغنطيسية والكهربائية وابحاث فاسيليوس(١٥١٤-١٥٦٤) في علم التشريح وابحاث هارفي (١٥٧٨ - ١٦٥٧) في الدورة الدموية . وعندما نمت المعرفة ، ضعف الخوف . وضعف تفكير الناس في عبادة المجهول وزاد في محاولة التغلب عليه وارتفعت كل نفس نشيطة بثقة جديدة وتحطمت

الحدود ، ولم يعد هناك حدود امام ما يمكن الانسان ان يصنع . وراحت السفن تجوب العالم ، وتجاوزت حدود التطرف والافراط في اجتيازها الحدود. وبذلك فقد تخطت حدود التطرف والافراط التي يصورها مثـــل قديم عن سفينة تعود بعد ان وصلت الى مضيق جبل طارق في البحر الأبيض المتوسط ، وقد نقش عليها عبارة « لا افراط ولا تفريط » .

لقد كان عصر تحقيق وأمل وعنف ، لبدايات ومشاريـع جديدة في كل ميـــدان . عصراً انتظر صوتـاً ينادي به ورروحاً محلـلة تجمل روحـــه وتشحذ عزمه .

وقام فرنسيس بيكون أعظم عقل في العصور الحديثة وقرع الجرس الذي جمع العقول والذكاء ، وأعلن ان اوروبا قد أقبلت على عصر جديد .

٢ ـــ حياة فرنسيس بيكون السياسية

ولد بيكون في الثاني والعشرين من شهر يناير من عام ١٥٦١ ، في بيت يورك في مدينة لندن . وهو المنزل الذي كان يقيم فيـــه والده السيد نيقولاس بيكون ، الذي كان في العشرين سنة الاولى من حكم الملكة اليزابيث حارســـاً للختم الملكي الاعظم . ويقول ماكولي الكاتب الانجليزي المعروف ، ان شهرة الابن قد طغت على صيت والده الذي لم يكن شخصاً عادياً . اذ ان العبقرية ذروة تسير نحوها العائلة عن طريق المواهب . وقد تجلت ذروة هذه المواهب في فرنسيس بيكون الذي بلغ قمة المجد السياسي والفلسفة. وكانت امه السيدة آن كوكي عديلة السير وليام سيسل لورد بورغلي امين خزينة الملكـــة اليزابيث ، وكان من اعظم الرجال سلطة وقوة في انكلترا . كان والدها المعلم الأول للملك وارد السادس . وكانت هي نفسها عالمة بلغات كثيرة ومعلمة لاهوت . وجعلت من نفسها معلمة لابنها ، ولم توفر وقتاً في تعليمه وتثقيفـه . ولكن عصر الملكة اليزابيث كان المربي الحقيقي والمعلم الرئيسي لعظمة بيكون . لقد كان عصر اليزابيث اعظم العصور لأعظم دولة من الدول الحديثة . لقد حول اكتشاف اميركا التجارة من البحر الأبيض المتوسط الى المحيط الاطلسي وبذلك ارتفع شأن الشعوب الاطلنطية وهي اسبانيا – وفرنسا – وهولندا – وانكلترا واحتلت السيادة التجارية والمالية التي كان تحتلها ايطاليا، التي جعلت منها نصف الدول الأوروبية مرفأ لها في تجارتها الشرقية . وبهذا التغيير انتقلت النهضة من

فلورنسا وروما وميلانو والبندقية الى مدريد وباريس وامستردام ولندن. وبعد تدمير قوة الاسطول الحربي الاسباني في عـام ١٥٨٨ ، انتشرت التجـارة الانكليزية في جميع البحار ، وخفقت مدنها بالصناعات الداخلية وطـاف ملاحوها بحراً حول العالم وظفر ربابنتها بأمريكا . وأينع الأدب فيها في شعر سبنسر ونثر سيدني وخفق مسرحها بروايات شكسبير ، ومارلو وبن جونسون، ومئات من اصحاب الأقلام المنيفة . لا يمكن لانسان ان يخفق في بلوغ النجاح والازدهار في مثل هذا الوقت والبلد ، اذا كان يحمل في جنباته بذوراً. وأرسل بيكون عندما بلغ الثانية عشرة من عمره الى كلية الثالوث في جـامعة كمبردج حيث بقي فيها ثلاث سنوات وتركها ساخطاً على نصوص كتبها ووسيلـة تعليمها . واستقر رأيه على نقل الفلسفة الى تربة اكثر خصوبة تحولها من الجدل والنزاع والحوار المدرسي ، الى التحسين والتحرر وزيادة خير الانسـان . وعلى الرغم من كونه يافعاً في السادسة عشرة من عمره فقد عرض عليه وظيفة مـع السفير الانكليزي في باريس ،وبعد تفكير طويل في هذه الوظيفة وما عليها قبلها. وهو يتحدث في مقدمة كتابه « تفسير الطبيعة » عن هـذا القرار الذي حوله من الفلسفة الى السياسة ، ولا بد لنا من ذكر هذا المقطع الذي جـاء في الكتاب لأهميته .

لقد اعتقدت بأنني ولدت لخدمة الناس وقدرت اهمية الخير العام بأن أكرس نفسي لخدمة الواجبات والحقوق العامة ، التي يجب ان يتساوى فيهـا الجميع كتساويهم في استنشاق الهواء والحصول على الماء لذلك فقد سألت نفسي عـن أكثر الامور نفعاً للناس ، وما هي المهمات التي اعدتني الطبيعة لادائها او ما هي المهمات التي تتناسب مع مؤهلاتي الطبيعية ، وبعد بحث لم أجد عملاً يستحق التقدير أكثر من اكتشاف الفنون والاختراعات والتطور بهـا للرقي بحياة الانسان ...

وفوق كل شيء اذا قدر لأي انسان ان ينجح لا في ابراز اختراع معين الى الوجود فحسب مهما كان نافعاً بل في اشعال كوكب نير درى في الطبيعة يلقي في أول بزوغه بعض الضوء على الحدود الحاضرة للاكتشافات الانسانيـــة ، ويكشف كلما زاد ارتفاعه وضوحاً عن كل شق وزاوية في دياجير الظلام . لقد بدا لي ان مثل هذا المكتشف جدير بأن يسمى الباسط الحقيقي لمملكة الانسان فوق الكون وبطل الحرية الانسانية ، ومحطم القيود التي تكبل الانسان في العبودية ، وبالاضافة الى ذلك فقد وجدت في طبيعتي مقدرة على البحث عن الحقيقة ، وعقلاً دواراً يكفي للبحث عن تلك الغاية العظيمة اعني ادراك الامور المتشابهة ، وفي الوقت نفسه فقد كان عقلي مركزاً تركيزاً ثابتاً لملاحظة اوجه الخلاف ، وكانت بي رغبة للبحث ومقدرةعلى ارجاء الرأي بالصبر والتأمل والتفكير . والقبـــول بحرص ، والاستعداد ، لتصحيح الانطباعات المزيفة وترتيب افكاري في عناء وشك وريبة . لم تكن بي لهفـة للجديـد او تقدير أعمى للقديم ، أو كراهية شديدة لكل ادعاء وتدجيل من كل نوع ، لذلك من اجل هذه الاسباب كلها وجـــدت في طبيعتي وميولي نوعاً من الصلة والقرابة التي تربطني بالحقيقة .

ولكن مولدي وتربيتي وثقافتي اتجهت بي جميعها الى السياسة لا الى الفلسفة ، فقد كنت على ما يبدو مشرباً بالسياسة منذ طفولتي . وكنت اشعر بأن واجباتي تجاه بلادي تستدعي مطالب خاصة مني . واخيراً فقد رجوت ان اتمكن بفضل احتلالي لمنصب مشرف في الدولة من تأمين المساعدة والسند في اعمالي بالنسبة الى تحقيق المهمة المقـدرة لي . وبهذه الدوافع توجهت للسياسة . ولكن والده توفي بغتة عام ١٥٧٩ . لقد اراد ان يوفر له ضيعة تساعده في مستقبله ولكن الموت حال بينه وبين امنيته ، واستدعي السيامي الشاب الى لندن بسرعة ليجد نفسه في الثامنة عشرة من عمره يتيماً معدماً ، لقـــد اعتاد على حيـاة الترف

والبذخ في عصره ووجد صعوبة في تكييف نفسه على حياة البساطة التي فرضت عليه . بدأ يمارس القانون بينما الح على اقاربه من ذوي النفوذ لتعيينه في احدى المناصب السياسية لتحرير نفسه من المخاوف الاقتصادية ، ولكن رسائله الملحة لم تسفر عن نتيجة ، على الرغم من جـــلال اسلوبها وعنفها ومقـــدرة كاتبها . وقد يكون السبب في عدم تلبية طلبه انه لم يقلل من مقدرته ، واعتبر نفسه جديراً بالمنصب مما جعل قريب امه اللورد بيرغلي يخفق في الاجابة المرغوبة على هذه الرسائل او قد يكون اسرف في رسائله في اثبات ولائه في الماضي والحاضر والمستقبل الى اللورد ، ففي السياسة كما في الحب لا ينفع ان يقـــدم الشخص نفسه كلها للحبيب ، وان يقدم نفسه في جميع الاوقات لا كل نفسه في وقت من الاوقات ، والعرفان يغذيه الرجاء .

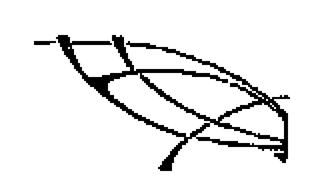
واخيراً اخذ بيكون في الصعود من غير ان يرفعه احد . ولكن كل خطوة كلفته عدة سنوات . وفي عام ١٥٨٣ انتخب عضواً في البرلمان ، واحبه ناخبوه واعادوا انتخابه مرة بعد مرة ، لقد كانت به فصاحة انيقة العبارة محكمة السبك جلية ساطعة في النقاش ، وكان خطيباً مفوهاً . قال بن جونسون عنه لانجد انساناً يتحدث اكثر منه رشاقة وتأكيداً ووزناً او اقـل منه سخافة وفراغاً ، ولا يملك سامعوه لو سعلوا او حولوا ابصارهم الا ان يخسروا . وكان مسموعاً ومجاباً اينما تكلم مالكاً عواطف المستمعين بقوة لا يجاريه فيهـــا شخص آخر وكان تأثيره في خطبه كبيراً لدرجـة انهم كانوا يخشون ان ينتهي من خطابه ، لقد كان خطيباً مفوهاً ومحـموداً .

لقد كان احد الاصدقاء من ذوي النفوس والجاه سخياً مع بيكون ، وهو الايرل اسيكس الذي فشلت الملكة اليزابيث في حبها له ، وبذلك تحول حبها الى كراهية . وفي عام ١٥٩٥ اهدى اسيكس الى بيكون ضيعـــة جميلة في

نويكنهام ، لفشله في تأمين منصب سياسي له . لقد كانت هدية عظيمة يفترض فيها الانسان ان تربط بيكون برباط الولاء والعرفان مدى الحياة ، ولكن هذا لم يحدث. فقد قام اسيكس بعد سنوات قليلة بتنظيم مؤامرة لخلع الملكة اليزابيث وزجها في السجن . واختيار ولي عهدها للعرش . وكتب بيكون الرسالة تلو الرسالة الى المحسن له ، محتجاً فيها على هذه الخيانة ضد الملكة ، وعندما الح اسيكس على السير في المؤامرة ، انذره بيكون بأنه سيضع ولاءه لملكته فوق عرفانه بجميله . وقام اسيكس في محاولته ، وفشل ، والقي القبض عليه ، وتوسل بيكون الى الملكة بالنيابة عن صديقه اسيكس للعفو عنه ، الى ان طلبت منه في النهاية ان يتحدث في اي موضوع يشاء الا في موضوع اسيكس . وعندما اطلق سراح اسيكس مؤقتاً ، اخذ يجمع قوات مسلحة حوله ، وزحف على لندن ، وحاول اثارة سكانها ، ودفعهم الى الثورة . وهنا اتجه بيكون بغضب شديد ضده . وفي الوقت ذاته فقد عين عضواً في المحاكمة ، وعندما اعتقل اسيكس مرة ثانية وقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة ، اشترك بيكون اشتراكاً فعالاً في المرافعة ضد صديقه المقرب الذي احسن اليه .

وحكمت المحكمة على اسيكس بالموت ، وأفقده اشتراكه في المحاكمة شعبيته مدة من الوقت . ومنذ ذلك الوقت بدأ يعيش في وسط اعداء يتربصون الفرص للايقاع به والقضاء عليه ، ولكن طموحه الجشع لم يترك له وقتاً للراحة ، ولم يكن راضياً أو قانعاً ابداً ، وبقي مبذراً ومسرفاً ومتلافاً ، تزيد نفقاته على دخله . وكان التظاهر بالنسبة له جزءاً من السياسة ، وعندما تزوج في الخامسة والاربعين من عمره ، انفق جزءاً كبيراً من المهر الذي تقدمه الزوجة عادة على الاحتفال بزواجه . وفي عام ١٥٩٨ القي القبض عليه لعجزه عن

سداد ديونه ، وعلى الرغم من ذلك استمر في تقدمه ، ومكنته مواهبـــة ومقدرته ومعرفته الواسعة من أن يغدو عضواً ذا قيمة في تشكيل كل لجنة هامة . وفتحت الوظائف العليا امامه تدريجياً ، وفي عام ١٦٠٦ عين وكيلاً للمدعي العام ، وفي عام ١٦١٣ عين مدعياً عاماً ، وفي عام ١٦١٨ في سن السابعة والخمسين تولى منصب رئاسة الوزارة .



٣ ـ المقالات

ان صعود بيكون الى اعلى مناصب الدولة اوشك ان يحقق احلام ـ افلاطون عن الملك الفيلسوف . لان صعوده خطوة فخطوة نحو السلطة السياسية جعله يمتطي ذرى الفلسفة . نكاد ان لا نصدق ان يكون هذا الانتاج الادبي الغزير ، والمعرفة والاطلاع الواسع الذي طبع حياة هذا الرجل ، نتيجة تسلية ولهو لحياة سياسية هائجة ومضطربة . لم يستطع اتخاذ قرار فيما اذا كان يفضل حياة التأمل والفكر ، ام الحياة الفعالة ـ السياسية اكثر . وكان يرجو ان يكون فيلسوفاً وسياسياً ايضاً . مع انه كان يرتاب في ان يؤخر هذا الاتجاه المزدوج نحو الفلسفة والسياسة معاً وصوله الى ما يبتغي ويقلل من بلوغ اهدافه . وهو يكتب عن هذا الجمع بين السياسة والفلسفة فيقول « ان من الصعب ان نقرر فيما اذا كان الجمع بين التفكير والتأمل والحياة الفعالة ، او ـ الاقتصار اقتصاراً تاماً على حياة الفكر والتأمل يضعف العقل ويؤخره كثيراً . »

لقد شعر ان الدراسة ليست غاية او حكمة في حد ذاتها وان المعرفة ان لم تكن مقرونة بالعمل ليست سوى زهو وغرور علمي شاحب فهو يقول : « ان انفاقك في الدراسة النظرية وقتاً طويلاً ضرب من الكسل والخمول ، والتحلي بها تصنع وتكلف ومحبة في الظهور واستنادك في حكمك دائماً على احكام الدراسة النظرية وقواعدها ضرب من مجون العلماء ومزاجهم ... ان

رجال الاعمـال يذمون الدراسة والبسطاء يكبرونها والحكماء يستخدمونها . لان الذين يتلقون الدراسة النظرية لا يتعلمون طريقة استخدامها عملياً لان الدراسة النظرية لا تعلم وسيلة استخدامها لانها نظرية في حد ذاتها . وهناك حكمة خـارجة عن الدراسة النظرية وهي افضل منهـا وهي حكمة تكتسب بالملاحظة . »

ان تعليق بيكون هذا على الدراسـة النظرية يضع حداً للفلسفـة المدرسيـة ، ويضع اهميـة التجربة والنتيجـة التي تميز الفلسفة الانكليزية ، والتي بلغت ذروتها في فلسفة البراجما تزم . « او المذهب العملي » وهو المذهب الذي يقول ان اهمية المبادىء في نتائجها العملية . ان هذا لا يعني ان بيكون توقف عن حبه للكتب والتأمل والتفكير ، فهو يكتب في كلمات تذكرنا بسقراط ، « لا استطيـع الحياة بلا فلسفة » ويصف نفسه بقوله انني رجل يصلح بطبيعته للادب اكثر من اي شيء آخر ، ولكن شاءت الاقدار ان تبعده عن ميول عبقريته ، وتحوله الى الحياة السياسية الفعالة . لقد كان « مديح المعرفة » تقريباً اولى منشوراته وحماسته للفلسفة في هذه الرسالة تجبرنا على اقتطاف بعض ما جاء فيها .

« سأقدم مديحي للعقل نفسه ، العقل هو الانسان ، والمعرفـة هي العقل ، وليس الانسان الا ما يعرف . اليست لذائذ العاطفة والحب اقوى من لذائذ الحواس ، اليست لذائذ العقل اعظم من لذائذ الحب . اليس حقـاً اننا لا نشبع من لذة البحث عن الحقيقة ؟ وان المعرفة وحدها تنقي العقل من جميع انواع التهيج والاضطراب . كم من الاشياء موجودة ولا نتصور وجودها . وكم من الاشياء تنال تقديرنا اكثر من قيمتها وقدرها ؟ هذه التطورات والتخيلات التي لا طائل تحتها ، هـذه الاراء والافـكار والقيم الضعيفة ، التي ستكون سحباً للاخطاء التي ستتحول الى عواصف من الاضطرابات والهياج . هل هناك

سعادة كسعادة انتشال عقل الانسان من فوضى الاشياء واضطراباتها ، حيث يتوفر له امر احترام نظـــام الطبيعة واخطاء الناس ، الا نفطن ايضاً الى ثروة الطبيعة كما نفطن لجمالهـــا . هل الحقيقـــة عقيمة مجدبة ، أليس في وسعنا انتاج امتعة ذات قيمة ، واعطاء حياة الانسان سلعاً لا نهاية لها . »

ان ابدع مقالاته الادبية تظهره لا زال حائراً وموزعاً بين هذين الحبيبين، حبه للسياسة وحبه للفلسفة . ففي « مقال الشرف والشهرة » نراه يعطي كل درجات الشرف الى الاعمـــال السياسية والعسكرية العظيمة ، ولا يعطي شيئاً للفلسفة والادب . ولكنه يكتب في مقال « الحقيقة » ان البحث عن الحقيقة وهو حبها وتعشقها ، ومعرفة الحقيقة وهي حمدها ومدحها ، والايمان بالحقيقة ، وهو التمتع بها ، هو سلطان الخير للطبائع البشرية . ففي الكتب نتحدث مع الحكماء وفي الاعمال نتحدث مع الاغبياء، ذلك اذا كنا نحسن اختيار كتبنا: بعض الكتب تذاق ، بعضها تبلع ، وبعضها تمضغ . وجميع انواع هذه الكتب تشكل بلا شك قطرة صغيرة جداً من شلالات الحبر وبحاره التي يغتسل فيها العالم ويغرق كل يوم .

ان المقالات تعد حتماً من بين "الكتب القليلة التي تستحق المضغ والهضم . ومن النادر ان تجد كمية كبيرة من اللحم حمرت وطيبت وطعمت وبهرت في صحن صغير كهذا . ان بيكون يمقت الحشو واطالة الشرح ، ويحتقر اضاعة الكلام ، ويقدم لنا ثروة كبيرة في عبارة صغيرة ، وكل واحدة من هذه المقالات تقدم لنا في صفحة او اثنتين براعة وحذقاً مقطراً ،لعقل استاذ متمكن من قضية هامة كبرى من قضايا الحياة . ومن المتعذر ان نفضل بـــين اسلوبه ومادته ، اذ أن لغته بلغت من جمـــال النثر ، ما بلغه شكسبير من جلال الشعر ، واسلوبه محكم ولكنه مصقول . والواقع ان بعض الايجاز في اسلوبه يعود الى تبنيه البارع للاسلوب والجملة اللاتينية . ولكن ثروة المجاز والامثلة في اسلوبه

صفة من صفات عصر الملكة اليزابيث التي تعكس غزارة النهضة . لا نرى رجلا في تاريخ الادب الانكليزي اكثر خصوبة وجمعا لجوامع الكلم والمقارنة منه . ان اسرافهم في الباس الالفاظ حللا قشيبة هو احد عيوب اسلوب بيكون . فـالاستعارات ـ والتشبيهات والتوريات التي لا نهاية لها تنصب على اعصابنا كالسياط فتلهبها وترهقها في النهاية . ان المقالات كالطعام الثقيـل الذي يتعذر هضمه لو تناولنا منه كمية كبيرة دفعة واحدة ، ولكن عندما نقرأ اربعاً او خمساً منها في كل وقت ، تكون ابدع الغذاء الفكري في اللغة الانكليزية ـ ماذا نلخص من هذه الحكمة الملخصة ؟ ربما تكون اعظم تحول وبداية ، واعظم ارتداد عن ازياء فلسفة العصور الوسطى ، هل قبول بيكون الصريح للاخلاق الابيقورية ، تلك الفلسفة التي تقول ، لا تستخدم كيلا ترغب ولا ترغب كيلا تفزع يدل على عقل ضعيف خجول جبان . والواقع ان معظم مبادىء الفلاسفة لا يوثق بها ، وهي تعنى بالناس اكثر مما تتطلبه طبيعة الاشياء ، فهي تزيد من مخاوف الموت بما تقدم ضده ، ما دامت تجعـل من حياة الانسان اعداداً للموت وتنظيما له . ان من المستحيل على العدو الا ان يظهر مخيفاً عندما لا يكون نهاية للدفـاع ضده . لا شيء اكثر ضرراً للصحة من كبت الرواقيين للرغبات ، اذ ما قيمة الحياة الطويلة التي احالها كبت المشاعر وجمودها الى موت سابق لأوانه ؟ هذا بالاضافة الى انها فلسفة مستحيلة ، لان الغريزة ستخرج ، لان الطبيعة دائماً مختبئة ، وقد نتغلب عليها ، ولكن من النادر استئصالها . والقوة تجعل الطبيعة اشد عنفاً في عودتها ، والمبادىء والحديث تجعل الطبيعة اقل الحافاً ولجاجة ، ولكن العادة وحدها التي تغيرها او تخضعها ... ولكن لا ينبغي على اي انسان ان يثق في انتصاره على طبيعته ، كثيراً ، اذ ان الطبيعة قد ترقد دفينة وقتاً طويلا ، ولكنها تنهض مع المناسبة والاغراء . كما حدث مع عذراء السوب التي تحولت من قطة الى امرأة وجلست بحشمة في نهاية المائدة الى ان مر فأر امامها . لذلك على الانسان

ان يتجنب الباعث او المناسبة دفعة واحدة ، او يضع نفسه فيها حتى يقل تأثره بها . والواقع ان بيكون يعتقد بوجوب تعويد الجسم وتمرينه على التطرف والافراط ، وتعويده على الكبح والكبت ايضا . لئلا تقضي عليه برهة انطلاق وعدم مقدرة على الكبح .

« وهكذا فإن الشخص الذي يتعود على اكل اكثر الاطعمة سهولة في الهضم يشعر بعسر الهضم والاستياء عندما تحول الضرورة او النسيان بينه وبين عادته » ومع ذلك فان تنويع المسرات افضل من الافراط فيها » لان « قوة الطبيعة في الشباب تمر بحالات افراط وتطرف كثيرة ، تملك الانسان حتى موته . ان نضج الانسان يدفع ثمن شبابه . ان طريق الصحة الملوكية الوحيدة هي الحديقة ، وهو يتفق مع كاتب سفر التكوين والخلق في التوراة « ان الله العزيز زرع حديقة في الاول » ومع فولتير الذي يقول بوجوب زراعة ساحات بيوتنا الخلفية .

ان فلسفة مقالات بيكون الاخلاقية تنزع الى الميكيافيليه اكثر منها الى المسيحية . « اننا مدينون بالفضل الى مكيافيللي وامثاله من الكتـــاب الذين اعلنوا بوضوح وبغير تستر او التواء عما يفعل الناس ، لا عما ينبغي ان يفعلوه لان من المستحيل ان تجمع بين حكمة الثعبان وبراءة الحمام من غير معرفة سابقة بطبيعة الشر . اذ بدون ذلك تبقى الفضيلة معرضة بلاحراسة او حماية ، وهناك مثل ايطالي يقول ، انه صالح جدا لدرجة انه لا يصلح لشيء . ان بيكون يوفق بين اقواله واعماله ، وينصح بمزيـج فطين بين النفاق والامانـــة كخلط المعدن ألذي يحول المعدن الانقى والاطرى الى معدن اقوى على البقـــاء مدة اطول . انه يريد حياة تامة متنوعة . . . والمعرفة توسع العقل او تعمقه وتقويه وترهفه . انه لايكبر او يقدر مجرد حياة الفكر والتأمل وهو في هـذا مثل «جوته» الذي يحتقر المعرفة التي لاتؤدي للعمل ، يجب على الناس ان يفهموا

ان الملائكة والآلهة هم المتفرجون وحدهم في مسرح الحياة الانسانية .» اندينه على وجه الخصوص كدين الملك ، على الرغم من انه اتهم بالالحاد اكثر من مرة، كما كان اتجاه فلسفته كله اتجاها دنيويا وعقليا . وقد دافع عن اتهامه بالالحـــاد بفصاحة واخلاص بقوله « قد لا اعتقد بجميع القصص والاساطير التي جاءت بالكتب الدينية ولكن لا يمكن ان اعتقد بعدم وجود عقل مدبر لهذا العالم . ان القليل من الفلسفة ينزع بعقل الانسان الى الالحاد ولكن التعمق فيهـــا ينتهي بعقول الناس الى الايمان لان عقل الانسان عندما ينظر الى الاسباب الثانوية المبعثرة قد يتوقف عندها ولا يتجـــاوزها ، ولكن عندما يشاهد تسلسلهـــا واتحادها ، واتصالها بعضها بعضا ينتهي به ذلك الى الايمان بوجود العناية الالهية . ان قلة الاكتراث بالدين تعود الى كثرة المذاهب والانقسامات الدينية التي تؤدي الى التعصب ، كما ان الانقسامات الدينية تؤدي الى الالحاد . » ولكن قيمـــة بيكون في الدين والاخلاق اقل منها في النواحي السيكولوجية . فهـــو محلل صادق النصح للطبيعة البشرية ، يرسل سهمه الى كل قلب ، وفي كتابته اصالة منعشة حتى في اقدم المواضيـع واتفهها « يكبر الانســـان سبـع سنوات في افـكاره في اليوم الأول من زواجه . » وقد ذكـر هذا في رسالته الى اللورد بيرغلي . .

« كثيراً ما نرى اسوأ الازواج يتزوجون من افضل الزوجات » يبدو ان بيكون قد انصرف الى الاعمال انصرافاً كبيراً ولم يترك للحب وقتا في حياتـه او انه لم يشعر به ابدا شعورا قويا . ويقول « انه لأمر غريب ان نلاحظ هذا الافراط في العاطفة » اذ لا نجد انسانا يعتز بنفسه ويرضى بهوان الحب . . قد لا نجد انسانا واحدا بين اعاظم الناس واكبرهم قدرا انجرف الى درجة جنونية في الحب ، وهذا يظهر ابتعاد النفوس الكبيرة والاعمال العظيمة عن عاطفـــة الحب الضعيفة . »

انه يقدر الصداقة اكثر من الحب ، مع انه يرتاب بالصداقـــة ايضا « ان

الصداقة نادرة في العالم وخصوصا بين الانداد والمتساوين .»

وفي مقاله «عن الشباب والشيخوخة» يقول « ان الشباب اقدر على الابتكار من الحكم وانسب للتنفيذ من المشورة ، وللمشاريع الجديدة من الاعمال الثابتة ، لان تجارب العمر بالاشياء التي تقع داخل محيطها توجهها ولكنها تسيء استعمال الاشياء الجديدة . ان الشباب يتحملون في تسيير الاعمال وادارتها فوق طاقتهم، ويميلون الى الحركة اكثر من الهدوء ويسارعون الى النتائج بغير تفكير في الوسائل والدرجات ويتبعون بسخافة بعض المبادىء القلية التي اتاحتها لهم الظروف، اما المتقدمون في السن فانهم يعترضون كثيراً ويتشاورون طويلا ويخاطرون قليلا ، ويندمون سريعا، ومن النادر ان يسيروا بالاعمال مدة تامة ، ويقنعون بالمتوسط من النجاح . لذلك من الخير استخدام الجانبين منهما . . لان فضائلهما قد تصلح نواقصهما . »

اما آراء بيكون السياسية كما تظهر في المقالات التي كتبها فهي محافظة جامدة، وهذا امر طبيعي من شخص يطمع في الوصول الى مناصب سياسية كبيرة ، ويعيش في عصر محافظ متزمت . لان التطرف في الاراء السياسية في مثل هذه الظروف يعني التضحية بمطامحه السياسية ، ان بيكون يؤيد حكومة مركزية قوية . والملكية في نظره افضل انواع الحكومة . وهو يقول بوجود اعمال ثلاثة في الحكومة التحضير والاعداد ، النقاش والفحص ،والكمال (او التنفيذ)واذا كنت تبحث عن السرعة اترك الوسط وهو النقاش والفحص في يد الاكثرية من الشعب ، اما التحضير والاعداد وهو المرحلة الأولى ، والكمال وهو المرحلة الأخيرة ، فيجب ان يترك في ايدي القلة . وهو صريح في ميوله العسكرية . ويأسف لتقدم الصناعة وتطورها لانها تفسد الناس وتصرفهم عن الحرب. ويندب السلام الطويل لانه يخمد الروح الحربية في الناس . ولكنه مع ذلك يدرك اهمية

المواد الخام . لقد قال صولون مرة لقارون (اغنى الاغنياء في ذلك العهد عندما اطلعه على ذهبه) ياسيدي لو جاء شخص لديه من الحديد اكثر مما عندك فنــه سيستولي على ذهبك ، (وهذا يعني اهمية الحديث في الصناعة الحربية) ويقدم بيكون بعض النصائح لتجنب الثورات كما فعل ذلك ارسطو من قبله ، ويقول ان افضل وسيلة لتجنب الفتن والثورات ، هو استئصال اسباب هذه الثورات ، اذ لاندري متى تقدح الشرارة وتشعل النار في الوقود . كما لا ينفع قمع الحريات (كحرية الحديث) بقسوة شديدة للقضاء على الاضطراب ، لأن الاستهانة بها واغفالها كثيراً مايكون افضل في ضبطها والسيطرة عليها ، ومحاولة ايقافها تستغرق العمر كله . ان جوهر الثورة ينقسم الى نوعين . الافراط في الفقر والافراط في الثروة . . . اما اسباب الثورة فهي ، البدع الدينية ، والضرائب ، وتغيير القوانين والعادات ، وتحطيم الامتيازات ، والظلم على نطاق واسع ، وتقديم الاشخاص الذين لايستحقون التقديم ، والاجانب ، والمجاعات والجنود المسرحون . وهنا ينمو الشغب وتشتد الفتنة ، وكل اساءة توجه الى الناس تزيد في توحيدهم وتوحيد اهدافهم . كل زعيم طبعا يهدف الى بث الانقسام والتفرقة في صفوف اعدائــه وتوحيد اصدقائه . ان اثارة الانقسام في العناصر المعارضة للدولة ، وتفرقتها وابعادها عن الحكم ، او على الاقل عدم الثقة بها ليست امورا سيئة على العموم . ولكنهــا تكون حالة يائسة لو نشب الخلاف والانقسام بين افراد الطبقــة الحاكمة ، في الوقت الذي تجمع المعارضة ضدها وحدة الهدف والغاية . وافضل وسيلة لتجنب الثورات هو التوزيع العادل للثروة والمال « ان المال كالسماد لاينفع الا اذا فرد وبسط . » ولكن هذا لايعني الاشتراكية او الديموقراطية ، ان بيكون لا يثق بالشعب الذي كان محروما من التعليم في ايامه ، ان احط انواع النفاق والرياء في نظره هو مداهنة الشعب وتملقه . وقد اصاب فوقيون عندما صفق الجمهور له

استحسانا لقوله ، وتساءل بقوله اي خطأ صنعت ، اشارة الى ان الجمهور لايصفق الا لنقص ، وما يريده بيكون اولا جماعة من صغار المزارعين الذين يملكون

راضيهم ؛ وحكومة ارستقراطية يتربع على رأسها ملك فيلسوف . اذ لا نجد حكومة واحدة اصابها الفشل تحت زعامة الناس المتعلمين ، او بعبـــارة اوضح كان النجاح حليف جميع الحكومات التي حكمها الفلاسفة المتعلمون الذين ذكر منهم سنيكا وانطونيوس وبيوس واورليوس ولعله كان يرجو ان تضيف الاجيال القادمة اسمه الى هذه الاسماء .

٤ ـ البناء الجديد العظيم

لقد كان قلبه بغير وعي منه في وسط انتصاراته مع الفلسفة . لقد كانت الفلسفة مرضعة له في طفولته ، ورفيقا له في منصبه ، كما كانت سلواه في سجنه وحرمانه . لقد انتحب على السمعة السيئة التي هبطت لها الفلسفة في رأيه، ووضع اللوم في هذا على الفلسفة اللاهوتية . الناس عرضة لاحتقار الحقيقة ، بسبب المناقشات التي اثيرت حولها واعتبار اولئك الذين لايتفقون معهم في خطأ . العلوم ... تقف جامدة بغير اضفاء زيادة عليها جديرة بالجنس البشري . . . ان نظام المدارس كله لا زال نظاما لتخريج علماء واساتذة ، لامخترعين .

وكل ما احرز حتى الان في العلوم لايعدو ان يكون دوامة تدور حول نفسها ، وعاصفة مثيرة دائمة تنتهي من حيث بدأت . لقد كان بيكون يفكر طيلة حياته وفي ايام نجاحه السياسي في اعادة بناء الفلسفة وتجديدها . واعتزم على تركيز كل دراسته حول هذه المهمة ، فهو يخبرنا اولا ، في «خطة اعماله» انه سيكتب بعض المقدمات في كتب صغيرة ، يفسر فيها اسباب ركود الفلسفة بسبب التشبث بالوسائل القديمة ، ويلخص اقتراحاته لبداية جديدة ، كما يحاول ثانيا وضع تصنيف جديد للعلوم ، مضيفا لها موادها ، ومبينا المشاكل التي لم يتوصل الى شرحها او حلها في كل ميدان . ويصف ثالثا طريقته الجديدة

في تفسير الطبيعة . ورابعا يجري يده على العلوم الطبيعية الحقيقية ، ويبحث في ظواهر الطبيعة . وخامسا يظهر سلم العقل الذي تسلقه الكتاب السابقون في طريقهم نحو الحقائق التي تأخذ شكلها الان من القرون الوسطى ، وسادساً نجده يتوقع الوصول الى نتائج علمية معينة كان على ثقة من الوصول اليهـا بفضل استخدام طريقته ، واخيرا فهو يصور المدينة الفاضلة التي يتخيلها لاسعـاد البشر ، والتي ستزدهر في هذه البراعم العلمية التي كان يرجو ان يكون نبيا لها ، والتي تشكل جميعها البناء الجديد العظيم للفلسفة . لقد كان مشروعـا عظيما ، لامثيل له في تاريـخ الفكر باستثناء ارسطو . ويختلف عن كل فلسفـة اخرى بالاتجاه الى الناحية العملية اكثر من الناحية النظرية . حيث يقوم على انتـاج متماسك خاص اكثر من قيامه على تناسق الفكر والتأمل . ان المعرفة قوة ، وليست نقاشا او زينة ، وليست فكرة نتمسك بها ... بـل عملا علينا عمله ، وأنا الان اعمل لوضع اساس لا لمذهب او مبدأ ، ولكن لفائدة وقوة. هنا نسمع لاول مرة صوتا ونغما جديدا للعلم الجديد .

١ ـ تقدم العلم

اذا اراد الانسان ان ينتج اعمالا ، ينبغي ان تكون لديه معرفـة بحيث يكون عالما وعارفا . لاننا لايمكن ان نسود الطبيعة الا اذا درسنا قوانينها ، لذلك دعنا نتعلم قانون الطبيعة ، وبذلك نصبـح اسيادا لها . لأننا بجهلنا بهـا نكون عبيداً لها . والعلم هو الطريق للحياة السعيدة الفاضلة . ولكن هذا الطريق الذي سيوصلنا الى الحياة السعيدة ليس بالطريق الهين . انـه طريق ملتف ومعوج ومظلم ، يدور حول نفسه ، ضائع في ممرات وتعرجات عديمة

الجدوى ، لايؤدي الى الضوء بل الى الفوضى . دعنا الان نبدأ في دراسة العلوم ، ونشير الى ميادينها المميزة لها ، ونضع كل واحد منهما في مكانه المعين ، ونفحص عيوبها ، وحاجاتها ، وامكانياتها ونشير الى المشاكل الجديدة التي تنتظر القاء الضوء عليها . وان نقوم على وجه العموم بفتح الارض وتحريكها قليلا عن جذور هذه العلوم .

هذه هي المهمة التي اوقف بيكون نفسه عليها في « تقدم المعرفة » فهو يقول « ان قصدي ان احيط بالمعرفة ، والاحظ الاجزاء المهملة والمغفلة التي تخلى عنها الانسان ولم يتناولها بالتهذيب . وان اعمل بتخطيط صادق على حفز النشاط بين الاشخاص الذين يعملون في النواحي الخاصة والعامة وتحسين النواحي المهجورة المتروكة » كمن يمسح الارض وينظفها من الاعشاب الضارة تمهيدا لحراثتها وزرعها . وتقويم الطريق ، وتقسيم الحقول بين العمال . لقد كانت خطته خطة جريئة طموحة . ولكنه كان لا يزال في سن الثانية والاربعين ولا يزال صغيرا بالنسبة الى الفلسفة ليخطط اعمالا عظيمة كهذه . فقد كتب الى اللورد بيرغلي في عام ١٥٩٢ رسالة قال فيها « أنه اطلع على انواع المعرفة » انه لم يقصد بقوله هذا انه قد اعد نفسه لوضع موسوعة بريطانية ولكنه يشير الى ان عمله يمكنه من الدخول في كل ميدان ، كناقد ومنسق لكل علم في مهمة تجديد البناء الاجتماعي . ان كبر هدفه يضفي على اسلوبه جلالا وعظمة ويضعه احيانا في قمة النثر الانكليزي .

لذلك نجده يجول على ارض المعركة الواسعة التي يتصارع فيها البحث الانساني وسط العراقيل الطبيعية والجهل الانساني . ويضيف تحسينا ويلقي ضوءا في كل ميدان . وهو يعلق اهمية كبيرة على الفيزيولوجيا والطب ، ويمجد الاخير وقدرته على التنظيم ويشبهه بآلة موسيقية بديعة الصنع

والالحان ، ولكنه يعترض على تساهل الاطباء المعاصرين في التجارب الطبيـــة ، وميلهم الى معالجة جميـع الامراض بنفس الوصفه التي تكون عادة مسهـــلا ، واعتمادهم كثيرا على مجرد تجارب فردية غير منسقـــة ، اذ ينبغي عليهم التوسع في تجاربهم ، والقاء ضوء على جسم الانسان بالتشريـح . بتشريـح الجثث واذا استدعت الضرورة الى تشريح اجسام الحيوانات الحية من اجل الاغراض العلمية . وفوق كل شيء وضع سجل عن التجارب والنتائج حيث يمكن الوصول اليـه بسهولة . ويعتقد بيكون بأن يسمح للاطباء في تسهيل الموت والاسراع به اذا كانت حياة المريض ستطول الى ايام قليـــلة فقط ، يتعرض فيها الى اشد انواع الالم . ويحث الاطباء على توسيـع دراستهم في فن اطالة الحياة الانسانية ، « هذا جزء جديد » من الطب وهـــو ناقص ، على الرغم من انه اكثر نبلا منها جميعا ، لانه اذا امكن مـــد حياة الانسان واطـــالتها ، عندئذ لايكون الطب كله قاصرا على تقديم العلاج ، أو اكرام الاطباء في حـــالة الضرورة فقط ، بل على اساس كونهم الموزعين لاعظم السعادة على الارض . قد نسمع احتجاج بعض اتبـــاع الفيلسوف الالماني شوبنهور ضد هذا الزعم القائل بان اطالة الحياة نعمة وبهجـــة ، لانهم يحضون على عكس ذلك ، ويثنون على السرعة التي يضع بعض الاطباء فيها نهـاية لامراضنـا . ولكن بيكون على الرغم من جزعه وقلقه وزواجه لم يشك ابدا في ان الحياة بديعة وجميلة وجديرة بالاهتمام .

اما في علم النفس فهو « سلوكي » ويطـالب بدراسة دقيقة عن الاسبـــاب والنتائج في العمل الانساني ، ويرغب في التخلص من كلمة «مصادفة» من قاموس الكلمات العلمية . ان كلمة مصادفة اسم لشيء غير موجود ، وماتكون عليه المصادفة في الكون تكون عليه الارادة في الانسان هنا يطالعنا عالم له معنى ، وتحدي

الحرب ، في سطر صغير . لقـــد دفع جانباً بالمبدأ المدرسي عن حرية الارادة، وصرف النظر عن الافتراض الكلي عن « ارادة» تتميز عن العقل ، هناك مقدمات لم يتبعها بيكون ، وهي ليست الحالة الوحيدة التي يضع فيها كتابا في جمـــلة ، ثم يتابع طريقه في بهجة وسرور .

ومرة ثانية في كلمات قليلة نجده يخترع علما جديدا ،علم النفس الاجتماعي فهو يقول « يجب على الفلاسفة ان يبحثوا عن قوى وطاقات العرف، والعادة ، والتعليم ، والمثل والتقليد والمناقشة، والشراكة ،والصداقة ، والمدح والتبكيت والنصح ، والحض ، والانذار ، والسمعة والقوانين ، والكتب ، والدراسة الى آخر ما هنالك . لان هذه الاشياء تتحكم في اخلاق الناس وتشكل العقـــل وتخضعه . ان هذه الكلمات الموجزة التي ذكرها بيكون تشبه الى مدى كبير محتويات الكتب التي وضعها علماء من امثال تارد وليبون . وولاس ودوركهايم في علم النفس الجديد . لاشيء فوق العلم ولا شيء تحته ، حيث ينبغي اخضاع السحر والنبوءات ؛ والاحلام وتبادل الشعور والمخـــاطبة التلباثيـــة (تليباثي) والظواهر الروحية والعقلية ، جميعها الى فحص علمي دقيق « لاننا لانعرف في اية حالات ، والى اي مدى تشترك فيه التأثيرات المنسوبة الى الخرافات في الاسباب الطبيعية .» وعلى الرغم من ميله الى العلوم الطبيعية نجـــده يشعر بسحر هذه القضايا، لاشيء يختص بالانسان وغريب عليه . من يعرف اي علم جديد او حقيقة ثابتة قد تخرج عن هذه الابحاث كما خرجت الكيمياء من السيمياء ؟ من الممكن مقارنة السيمياء مع الرجل الذي قال لاولاده انـــه ترك لهم مقدارا من الذهب مدفونا في مكان ما في كرم عنبه ،وعند بحثهم لم يجدوا الذهب ولكنهم بحفرهم للارض ازاحوا الطين عن جذور كروم العنب وحصلوا على الكثير من من القطاف والغلة . وهكذا ساعد البحث والجهود في محاولة استخراج الذهب

من المعادن الاخرى (السيمياء) في الوصول الى اختراعات مفيدة وتجارب بناءة .

وهناك علم آخر يبدأ في النمو في الكتاب الثامن لبيكون وهو علم النجاح في الحياة . اذ يقدم لنا بيكون وهو لايزال في اوج نجاحه وقبل سقوطه من الحكم بعض الاشارات الاولية حول كيفية الصعود والنجاح في الحياة . والمطلوب الاول في النجاح هو المعرفة . معرفة انفسنا ومعرفة الاخرين .

يجب ان نحيط انفسنا علما بالاشخاص الذين نتعامل معهم ، بطباعهم ورغباتهم وارائهم ، وعاداتهم وسجاياهم ، والمساعدات والمعونات والضمانات التي يعتمدون عليها اعتمادا كبيرا . ومن اين استمدوا قوتهم وسلطتهم ونقائصهم وضعفهم ، ونعرف عن اصدقائهم واحزابهم وعملائهم ، والمعتمدين عليهم ، واعدائهم ، وحاسديهم ومنافسيهم ، واوقاتهم وطرق الاتصال بهم والدخول عليهم ... ولكن اضمن طريقة وافضل مفتاح لفتح عقول الآخرين يدور على بحث وتفحص وغربلة طباعهم وطبائعهم اوغاياتهم وخططهم . . نستطيع ان نحكم على الاضعف والابسط من الناس بطريقة افضل ، من طباعهم ولكن الاشد دهاءا وفطنة وغموضا نحكم عليهم بخططهم . ولكن اقصر وسيلة لهذا الاستقصاء والاستعلام كله تقوم على ثلاثة امور معينة ، ١ – في الحصول على أصدقاء كثيرين ... ، ٢ – في اتباع الفطنة والاعتدال بين حرية الحديث والصمت ... ولكن ، لاشيء اضر على الانسان في تقديم نفسه ، وتأمين حقه ، من الافراط في الرقة والطيبة ، التي تعرضه الى الاذى واللوم ، والاصح ان يرسل احيانا بعض الشرر الذي لايقل فيه اللسع عن العسل .

ان الاصدقاء بالنسبة الى بيكون وسيلة للسلطة والقوة ، وهو يشارك

مكيافيللي في وجهة نظر يميل الشخص في البداية الى عزوها الى عصر النهضة ، الى ان يفكر في الصداقات الجميلة الكثيرة البريئة لميخائيل انجلو ، ومونتاني ، والسير فيليب سدني . . ربما يساعدنا تقدير بيكون العملي على تفسير الاسباب التي ادت سقوطه من الحكم . كما تساعدنا آراء مماثلة على تفسير سقوط نابليون ، لان من النادر ان يطبق الاصدقاء فلسفة اعلى في علاقاتهم معه من تلك التي يعلنها في معاملته لهم . وهنا يستشهد بيكون في بياس احد الحكماء السبعة في اليونان القديمة ، « احبب صديقك وكأنه سيصبح عدوا لك ، وعدوك وكأنه سيصبح صديقا لك » لاتفض حتى لصديقك عن الكثير من اهدافك وافكارك ، وفي الحديث اسأل اكثر مما تتكلم ، وعندما تتكلم ، قدم معلومات وبيانات اكثر من تقديم عقائد وآراء . عزة النفس الصريحة تساعد على التقدم والمباهاة خطأ في الاخلاق اكثر من السياسة . وهنا يتذكر الشخص نابليون ، كان بيكون مثل نابليون رجلا بسيطاً داخل جدرانه اما في خارجها فقد كان يبدي التصنع والتظاهر والتفاخر ، اعتقادا منه بأنه ضروري للشهرة العامة . وهكذا نجد بيكون يجري من حقل الى آخر ناثرا بذور افكاره في كل علم . وفي نهاية بحثه يتوصل الى ان العلم في حد ذاته لايكفي ، حيث ينبغي ايجاد قوة ونظام خارج العلوم لتنسيقها وتوجيهها الى هدف . وهناك سبب قوي استدعى عدم تقدم العلوم تقدما كبيرا وهو استحالة سيرها في طريق صواب قبل تحديد الهدف نفسه ووضعــه في المكان الصحيح ، ان ما تحتاجه العلوم هو الفلسفة ، تحليل الطريقة العلمية وتنسيق الاهداف والنتائج العلمية ، وكل علم بغير هذا يكون سطحيا ، وكما اننا لانستطيــع ان نشاهد منظر المدينة تماما من مكان منبسط او منخفض ، كذلك من المستحيل ان نكتشف الاجزاء البعيدة والعميقة لاي علم ، بالوقوف على مستوى العلم نفسه ، بدون الصعود الى ارتفاع اعلى : وهو يستنكر

عادة النظر الى الحقائق المنعزلة خارج سياقها وعلاقاتها ، من غير اعتبار وحدة الطبيعـــة كمن يحمل شمعة صغيرة يطوف فيها زوايا غرفـــة تشع بضوء مركزي .

لقد احب بيكون الفلسفة في النهاية اكثر من العلم ، اذ الفلسفة وحدها هي التي تستطيـــع ادخال السلام الجليل الناجم عن الفهم حتى الى الحياة الحزينة المضطربة ، ان المعرفة تقهر اوتخفف من خوف الموت وتعكس الحظ . ويستشهد بيكون بأبيات الشاعر اللاتيني فرجل :

« سعيد الانسان الذي تعلم اسباب الاشياء ، وداس تحت اقدامه جميـــع المخاوف ، والقدر العنيد الذي لايلين ، وضجيـج كفاح نار الشره » قد يكون افضل ثمرة للفلسفة ان لانتعلم عن طريقها دروس التملك التي لانهاية لها الـــتي تثيرها البيئة الصناعية بالحاح . ان الفلسفة توجهنا اولا الى البحث عن حاجات العقل ، والبقية اما ان تتوفر لنا او لانحتاجها كثيرا . قليل من الحكمة فرحـة الى الابد .

والحكومات كالعلم تماماً تعاني كثيراً من افتقارها الى الفلسفة . ان ارتباط الفلسفة بالعلم وعلاقتها به هو نفس ارتباط ادارة الدولة بالسياسة وعلاقتها بها . ان الحركة تهديها المعرفة التامة والمرئيات ، ضد البحث الفردي الذي لاهدف له ، وكما تحول البحث عن المعرفة الى علم اللاهوت عندما انفصل عن حاجات الناس والحياة الحقيقية ، كذلك اصبح السعي نحو السياسة جنونا مهلـكا عندما انفصل عن العلم والفلسفة . من الخطأ ان نثق في تطبيب اجسامنا بالدجالين الذين يدعون الطب ، او الممارسين للطب بالخبرة والتجربة ، الذين يعتمدون على القليـــل من التحصيل ، ولكنهم لايعرفون اسباب المرض او تركيب اجســـام المرضى او خطر الحوادث ، او طريقة العلاج الصحيحة . لذلك من الخطر ايضا ان يدير شؤون الدولة وامورها الدجالون من رجال السياسة ، على اساس استفادتهم

من التجارب والخبرة اثناء الحكم . الا اذا امتزج هؤلاء بالرجال الراسخين في العلم ... قد يتهم من قال بوجوب حكم الفلاسفة للدول بالتحيز والمحاباة ، « ما لم يتحول الفلاسفة الى ملوك والملوك الى فلاسفة » ومع ذلك فقد اثبتت التجارب ان افضل الحكومات هي التي قامت في عهد امراء حكماء عقلاء متعلمين .
ويذكرنا بيكون في الاباطرة العظام الذين حكموا روما بعد دوميتسيان وقبل كوموداس من اباطرة الرومان . وهكذا نجد بيكون مثل افلاطون ومثلنا جميعا يعظم من الفلسفة ويعتبرها منجاة وخلاصا للانسان . ولكنه ادرك بوضوح اكثر من افلاطون الحاجة الى اخصائيين في العلم والى تخصص عسكري بين الجنود والجيش . لايستطيع عقل واحد حتى ولا بيكون نفسه ادارة كل ميدان ومعرفة كل علم حتى ولو كان ينظر من فوق جبل الاولمب نفسه . لقد ادرك بيكون انه بحاجة الى المساعدة ، وشعر بوحدته وانفراده في مشروعه الذي لايساعده فيه احد .

لقد سأل مرة صديقا له عن اصدقائه الذين يعملون معه ، ثم قال ، اما بالنسبة لي فأنا في عزلة تامة . انه يحلم في علماء ينتظمهم التخصص ويجمعهم التعاون والاختلاط الدائم . ويفكر في منظمة كبيرة توحد هدفهم . يجب تنظيم العلم في منظمة ، ويجب ان تكون هذه المنظمة دولية ولا تحدها حدود الدول ، حيث تجعل من اوروبا وحدة ثقافية واحدة . ويلاحظ بيكون ضعف الشعور والرابطة بين الكليات والجامعات في جميع انحاء اوروبا وانجلترا ويدعو جميع هذه الجامعات الى تحديد وتوزيع المواضيع والقضايا بينها ، والتعاون في البحث والنشر . بهذا التعاون والارتباط تصبح هذه الجامعات جديرة بالمساعدات والتأييد الملكي ، الذي سيجعلها جامعات مثالية ، ترتكز على تعليم عادل يسود العالم . ويلاحظ بيكون ضآلة المرتبات المخصصة للمحاضرات العامة ، سواء في العلوم او الفنون . ويشعر بأن هذا سيستمر الى

أن تتولى الحكومات مهام التعليم الكبرى بنفسها .

« لقد اشتكت حكمة الاجيال القديمة من انشغال الحكومات بوضع القوانين، وتهاونها في امور التعليم » وحله العظيم هو تأميم العلم لغزو الطبيعة وتوسيع قوة الانسان .

وهكذا نجده يتوسل لتحقيق هذا الهدف الى الملك جيمس الاول ، مستعينا على اقناعه بشتى ضروب التملق الذي كان الملك يحب ارتشافه وسماعه ، فقد كان جيمس عالما مخورا بقلمه اكثر من فخره بصولجانه وسيفه . لقد ترقع شيئا من هذا الملك العالم العلامة . وهو يخبر الملك بان الخطط التي وضعها هي مهام ملكية في الحقيقة ، ومن الصعب تحقيقها على يد رجل واحد ، وكل محاولة من جانب شخص واحد لتحقيق هذه الخطط اشبه شيء بتمثال على مفترق طرق ، يشير باصبعه الى الطريق ولكنه لايستطيع ان يدوسها او يسير فيها . ان هذه المشاريع التي سيشرف عليها الملك تحتاج الى الانفاق عليها . وكما ينفق الامراء والحكومات على جواسيسهم ووكلائهم وعملائهم لتزويدهم بالمعلومات التي يحتاجون اليها ، يجب عليهم الانفاق على العلماء الذين يستجوبون اسرار الطبيعة وغوامضها ، اذا كنا لانريد ان نبقى جاهلين باشياء تستحق اهمية معرفتها والاطلاع عليها . واذا كان الاسكندر وضع مبلغا كبيرا من المال تحت تصرف ارسطو للانفاق على صيادي الحيوانات والطيور والاسماك وغيرها ، فان هؤلاء الذين سيكشفون اسرار الطبيعة ويستطلعون غوامضها احق بالمساعدة والجود في الانفاق عليهم .

وبهذه المساعدة الملكية يتم مشروع بيكون ، الجديد العظيم في سنوات قليلة ، وبدونها سيستغرق عدة اجيال . .

والشيء الجديد الذي يبعث على الانتعاش في بيكون ، هو ثقته العظيمة في غزو الانسان للطبيعة ، فهو يقول « انني اراهن بكل شيء على انتصار

الفن على الطبيعة .» ولكن لم كل هذا الامل ؟ الم يبحث الناس عن الحقيقة ويجوبوا سبل العلم في الالفي سنة الماضية ؟ وكيف يأمل الانسان الان في تحقيق نجاح عظيم ، بينما لم يحقق في هذه المدة الطويلة السابقة سوى نجاح معتدل ؟ ان بيكون يوافق عـــلى هذا ولكنـــه يقول ربما يعود السبب في عدم تحقيق نجاح كبير الى اتباع وسائل خاطئة وعديمة الفائدة في البحث ؟؟ . وبذلك فقد ضلوا الطريق وذهبت جهودهم ادراج الرياح . اننا نحتاج الى ثورة في وســـائل ابحاثنا وافكارنا ، وفي نظام علمنا ومنطقنا ، ونحن بحاجة الى منطق جديد افضل من منطق ارسطو ، يتناسب مع هذا العالم الاوسع . وهكذا يقدم لنا بيكون كتابه الاعظم ..

٢ ـ البحث الجديد

يقول اشد النقاد نقدا لبيكون ان اعظم ما وضعه بيكون هو كتابه الاول عن البحث الجديد ، الذي ادخل فيه حياة جديدة على المنطق لايجاريه فيها انسان آخر ، حيث جعل من الاستنتاج تجربة وغزوا . اذا اراد الانسان ان يدرس المنطق يجب عليه ان يبدأ بقراءة هذا الكتاب . « ان هذا الجزء من الفلسفة الانسانية لا يتفق مع ذوق الكثيرين ، ولا يبدو في نظرهم سوى فخ وشرك ينطوي على المراوغة والخبث ... ولكن اذا اردنا وضع الاشياء وفقا لأهميتها وقيمتها الحقيقية ، عندئذ تكون العلوم العقلية ومنها المنطق مفتاح بقية العلوم.» يقول (بيكون) لقد اجدبت الفلسفة مدة طويلة لانها كانت تحتاج الى طريقة جديدة لتخصيبها . كما ان خطأ فلاسفة اليونان الكبير هو انهم صرفوا وقتا كبيرا في النواحي النظرية ، والقليل في الملاحظة والبحث العلمي ، ولكن الفكر ينبغي ان يكون مساعدا للملاحظة لابديلا لها . وكان بيكون يتحدى كل ما جاء به الفلاسفة من ميتافيزيقا ، فهو يقول ان الانسان كمفسر وشارح للطبيعة يدرك ويعمل بقدر ما تسمح له به ملاحظاته عن نظام الطبيعة ، ولا يعرف او

يقدر على اكثر من ذلك . لقد كان اسلاف سقراط على صواب اكثر في هـذه الناحية ممـن اتوا بعده . وامتاز ديمقريطس بأنف لشم الحقـائق اكثر من عين ينظر بها الى السحاب . لاغرابة ان لاتتقدم الفلسفة الا قليلا منذ ايام ارسطو ، فقد كانت تعتمد على استخدام وسائل ارسطو في البحث . وفي التقدم عما وصل اليه ارسطو على ضوء افكار ارسطو يعني ان نفكر اننـــا باستعارة ضوء منه نستطيـــع ان نزيد الضوء الاصلي الذي استعرنا منه الضوء ، او بعبارة اوضح فأننا بذلك نكون كمن يحاول ان يزيد الضوء بالاستعانة بنفس الضوء . والان بعد الفي سنة من تخريط المنطق وفرمه بالالة التي اخترعهـــا ارسطو ، سقطت الفلسفة الى درجة فقدت احترام الجميع .يجب ان نقذف بجميع نظريات القرون الوسطى والجدل والحوار والنظريات التي تحتاج الى اقامة البرهان بعيدا وننساها . ويجب على الفلسفة كي تجدد نفسها ان تبدأ مرة ثانية بقلم جديد ولوح نظيف وعقل مغسول مطهر .

لذلك تكون الخطوة الاولى هي تطهير العقل وتنقيته وكأننا اطفـالا عدنا صغارا ابرياء من الافكار المجردة . وغسلنا عقولنا من التصورات السابقـــة والآراء المتحـــيزة . يجب ان نحطم اوهـــام العقل . ان كلمـــة وهم كما يستعملها بيكون (تنعكس على ما يحتمل عن رفض البروتستانت عبادة الصور والتماثيل وتقديسها) هي الصورة التي ترتسم في الذهن عن الحقيقة ، اي الفكرة الخاطئة عن الشيء ، اخطاء في عقولنا .

ومشكلة المنطق الاولى هي تتبـــع مصادر هذه الاخطاء وسدها . ويتقدم بيكون الان الى تحليل مشهور لهذه الاخطاء . يقول كونديلاك ، لم يفهم احد اسباب اخطاء الانسان اكثر من بيكون .وهذه الاخطاء هي :

اولا ، اوهام القبيلة ، وهي اوهام طبيعية بالنسبة الى البشرية عموما ، فقد زعم الانسان باطلا (لقد اعتبر بروتاجورس الانسان مقياساً لجميع الاشياء) انه مستوى الاشياء ، والعكس هو الصحيح لان ادراك الانسان العقلي والحسي تصوير لنفسه وليس تصويرا للكون . وعقل الانسان يشبه المرآة غير المستوية التي تعكس خواصها على ألاشياء المختلفة ، وتشوهها وتجعلها تبدو قبيحة . ان افكارنا صور عن انفسنا اكثر من كونها صورا للاشياء . من طبيعة الفهم الانساني الخاصة به انه يفرض في الاشياء درجة من النظام اكبر مما يجده فيها ... من هنا توهم ان جميع افلاك الكواكب دوائر تامة . ومن اخطاء العقل انه اذا آمن برأي ما سواء كان ايمانه بهذا الرأي عن طريق التسليم والايمان العام به . او من اجل لذة تعود عليه من هذا الرأي ، نجده يرغم كل شيء آخر لتأييد واثبات رأيه ، على الرغم من وجود الادلة الكثيرة القاطعة المغايرة لرأيه ، والتي تثبت بوضوح بطلان رأيه . ومع ذلك فهو اما ان لا يلاحظها او يستخف بها ، او يرفضها ويتخلص منها بعنف وتحيز ضار ، بدلاً من ان يضحي بالرأي الذي آمن به اولا . ومن امثلة محاولة الناس ارغام غيرهم على ارائهم ، واجبارهم على التفكير مثلهم ، القصة التي يسوقها لنا بيكون وهي ان رجلا دخل الى معبد وعرضت امامه لوحات كثيرة ، علقها الذين نجوا من خطر الغرق في البحر بعد ان تحطمت بهم السفينة ، استجابة لنذورهم التي تقربوا بها الى الآلهة . وطلب منه ان يعترف بعد هذا الذي شاهده بقوة الآلهة وفائدة النذور ... فأجاب ولكن اين لوحات الذين غرقوا وماتوا في البحر على الرغم من نذورهم وايمانهم وتضرعهم ؟ كل الخرافات والاساطير متشابهة ،

سواء أكانت ناجمة عن التنجيم ، او الاحلام ، أو الطيرة ، او العقاب وما شابهها .

وبعد ان ينتهي الانسان من تقرير القضية وفقا لارادته ، نجده يلجأ الى التجربة ، فيخضعها ويجعلها موافقة لرأيه ، ويسوقها كأسير في موكب . وبالاختصار فان العقل الانساني ليس ضوءا جافا ولكنه يتأثر بالارادة والعواطف .

يقدم لنا بيكون في هذه الناحية نصيحة ذهبية ليأخذ كل طالب لعلم الطبيعة بها كقاعدة . وهي ان يضع موضع الشك كل شيء يحتجزه عقله ويقتنع به . وان نوجه اهتماما اكثر عندما نتناول مثل هذه الاسئلة ، لنحتفظ بصفاء العقل وهدوئه . وان لا نسمح للعقل بان يقفز ويطير من المسائل المعينة الى البديهيات البعيدة العامة الشاملة ... يجب ان لا نمد العقل بأجنحة والأولى ان نقيده بالاثقال لنحول بينه وبين القفز والطيران . قد يكون الخيال والتصور الد اعداء العقل ، مع انه يجب ان يكون اختباره وتجربته فقط . واما الطائفة الثانية من اخطاء العقل التي يسميها بيكون «اوهام الكهف» ، فهي الاخطاء التي يختص بها الانسان الفرد ، «لان لكل انسان كهفا خاصا به ، يعمل على حرف اضواء الطبيعة وتغيير لونها» وهذا الكهف هو طبعه كما كونته الطبيعة ، ومزاجه او حالة جسمه وعقله . فبعض العقول مثلا تنزع الى التحليل ، وترى اوجه الخلاف والتباين في الاشياء اينما وجدت ، وبعض العقول بطبيعتها تركيبية تميل الى البناء والتركيب وترى اوجه الشبه بين الاشياء . وينتمي الى الفئة الاولى العلماء والرسامون كما ينتمي الى الفئة الثانية الشعراء والفلاسفة . وبعض العقول تميل كثيراً الى تقدير

كل ما هو قديم ، وبعضها تحتضن بحماس كل امر جديد ، والقليـــل منها تستطيـع الاحتفاظ بالحد الوسط ، فلا تقضي على ما اوجده الاقدمون من امور صحيحة ولا تنظر بعين الاحتقار الى الاختراعات الجديدة النافعة ، لان الحقيقة لاتعرف تحيزا او تحزبا .

اما الطائفة الثالثة من اخطاء العقل فهي اوهام السوق ، التي تنشـــأ من التجارة واجتماع الناس بعضهم ببعض . لان الناس يخاطبون بعضهم بعضا عن طريق اللغة التي فرضت كلماتها على الناس وفقا لعقلية اهل السوق والعامة من الناس ، حيث ينشأ عن سوء تكوين هذه الكلمات وعدم موافقتها تعطيـــل شديد للعقل . ان الفلاسفة يتحدثون عن المسبب الذي لا يتسبب او المحرك الذي لايتحرك ، ولكن اليس الغرض من هذه العبارات والجمل اخفاء جهلهم الفاضح العاري وقد تدل على ضمير آثم فيهم ؟ ان كل عقل امين صاف يعرف استحالة وجود مسبب بلا سبب او محرك بلا حركة . قد يكون البناء الجديد الاعظم للفلسفة هو هذا ، وهو ايقاف الكذب فيها .

والطائفة الاخيرة من اخطاء العقل ، هى الاوهام التي انتقلت الينا من نظريات الفلاسفة المختلفة ، وقوانين البراهين والادلة الخاطئة ، وهي التي يسميها بيكون بأوهام المسرح . اذ ان جميـع الانظمة الفلسفية التي نتلقاها عن الفلاسفة من وقت لآخر ، ليست سوى روايات مسرحية ، تمثل عالما خلقه الفلاسفة انفسهم بطريقة روائية مسرحية .. وقد تلاحظ في روايات هذا المسرح الفلسفي نفس الاشياء التي توجد في مســرح الشعراء . وان القصص التي ابتدعت للمسرح اكثر احكاما وانسجاما وظرفا من قصص التاريخ الحقيقية . ان العـــالم كما

يصفه افلاطون ليس سوى عالم بناه افلاطون ويصور افــلاطون اكثر من تصويره للعالم .

سوف لانتقدم في طريقنا نحو الحقيقة ما دامت هذه الاوهام لاتزال تحلق بنا الى اعلى ، اننا نحتاج الى اساليب جديدة للتفكير ، ووسائل جديدة للفهم والعقل ، وكما كان من المستحيل اكتشاف مناطق الهنـــد الغربية ، قبل اكتشاف البوصلة . كذلك لا غرابة ان لاتحرز اكتشافات الفنون تقدما كبيرا عندما يبقى فن اختراع واكتشاف العلوم مجهولا ايضا . ومن العار ان يبقى عالم العقل والفكر مغلقا داخل حدود الاكتشافات القديمة الضيقة ، في زمن اتسعت فيه اكتشافات العالم الجغرافية المادية اتساعا كبيرا في ايامنا .

واخيرا ، فان مشاكلنا ومصاعبنا ناجمة عن العقائد والاستنتاجات التي تحول بيننا وبين الوصول الى الحقيقة . اننا لانتوصل الى حقيقة جـــديدة، لأننا نأخذ بعض القضايا او الآراء الموقرة كقضية مسلم بها ، ولا نزاع فيها، مع ان هذه القضايا او الاراء عرضة للسؤال والخطأ . اننا نأخذ هذه القضايا المسلم بهـــا نقطة الابتداء في البحث ، ولا نفكر ابدا في وضع هذه القضايا المسلم بها موضع الفحص والملاحظة والتجربة . لان الانسان عندما يبدأ باليقينيات فانه سينتهي بالشك ولكنه عندما يبدأ راضيا بالشك فانة سينتهي باليقينيات . هنا ملاحظة تطبع الفلسفة الحديثة ، وهي جزء من اعلان استقلالهـــا . وحتى ديكارت يتحدث عن ضرورة « اساليب الشك » اللازمة للاتجاه بالفكر اتجــاها امينا . ويشرع بيكون في تقديم وصف يدعو الى الاعجاب والتقدير عن وسيلة البحث والاستفهام العلمية . « هناك يبقى التجربة البسيطة التي لو اخذناها كما تأتي لنا

فانها عندئذتسمىعرضا(تجريبيا)واذا بحثنا فيها ، اختبارا .. ان طريقةالتجربة الحقيقية تضيء الشمعة اولا (افتراض) وبعدئذ بفضل الشمعـــة تظهر الطريق (ترتيب وتجديد الاختبار) والشروع بالتجربة المنظمة والمهضومـــة في وقت واحد باتقان وانتظام ، ومنها استنتاج الاوليات، ومن هذه الاولياتالموضوعة تجري اختبارات وتجارب جديدة مرة ثانية (لدينا هنا كما في مقطـع آخر يتحدثعننتائج التجارب والاختباراتالاولية كقطاف اول لارشادناالىابحاث اخرى اعتراف صريح للحاجة الى الافتراضات ، والتجربة والاستنتاج ، التي يفترض بعض نقاد بيكون انه قد اهملها تماماً) . يجب ان نتجه الى الطبيعةبدلا من الكتب والتقاليد ، ونحاسبهـــا ونرغمها على ان تشهد حتى ضد نفسها حتى نتمكن من تسخيرها لاغراضنا واستخدامها لغاياتنا . يجب ان نجمع ونجمع من كل ناحية « تاريخا طبيعيا » للعالم يقوم ببنائه بحث العلماء الاوروبيين متحدين . يجب ان يكون لدينا استقراء . ولكن هذا الاستقراء لا يعني عدا واحصاء بسيطا لجميع هذه المعلومات ، لأن هذا لا نهاية له ولا فائدة منه . اذ لايمكن لاية مادة مجموعة ان تصنع علما ، وهو اشبـــه شيء بمطاردة الصياد للصيد فوق ارض فسيحة ، يجب تضييق وتسييج ميداننـا كي نمسك فريستنا . كما يجب ان تشمل وسيلة الاستقراء طريقة فنية لفرز المعلومات وتنسيقها واسقاط الفرضيات منها . وهكذا باسقاط والغـاء ما لا علاقة له بالظاهرة التي نبحث عنها ، سيبقى معنا واحد منها فقط .ربمايكون انفع شيء في هذه الطريقة الفنية هو « مائدة الاكثر والاقل » التي تشمل امثلة ذات صفتين او حالتين تزيد وتنقص مع بعضها ، وبهذا تكشف على ما يفترض

عن علاقة سببية بين الظواهر الطبيعية المتغيرة في آن واحد . وهكذا عندما يتساءل بيكون عن الحرارة ؟ فانه يبحث عن بعض العوامل التي تزيد بزيادة الحرارة ، وتقل بقلتها ، لقد وجد بعد تحليل طويل علاقة صحيحة بين النار والحركة وانتهى بذلك الى ان الحرارة صورة للحركة ، او بعبارة اوضح ان الحركه هي سبب الحرارة . وهذه النتيجة التي توصل لها بيكون حول سبب الحرارة هي احدى الاشياء القليلة الخاصة التي ساهم بها في العلوم الطبيعية .

ولكن جمع المعلومات وتحليلها يؤدي بنا الى ما يسميه بيكون «صورة» الظاهرة الطبيعية التي ندرس طبيعتها الغامضة ، وجوهرها الداخلي . ان نظرية الصور عند بيكون تشبه الى مدى كبير نظرية المثل عند افلاطون : ميتافيزيقا العلم . عندما نتكلم عن الصور فاننا لا نعني شيئاً سوى تلك القوانين والقواعد والتنظيمات للعمل البسيط التي تنظم وتشكل كل طبيعة بسيطة ... لذلك فان صورة الحرارة او صورة الضوء لا تعني اكثر من قانون الحرارة او قانون الضوء .

(لقد قال سبينوزا بجهد مماثل ان قانون الدائرة هو جوهرها) . لانه على الرغم من انه لايوجد في الطبيعة سوى الاجسام الفردية التي تظهر تأثيرات فردية واضحة وفقا لقوانين خاصة ، ومع ذلك فاننا نجد في كل فرع من فروع العلم والمعرفة ان هذه القوانين والبحث عنها واكتشافها وتطورها يأتي عن طريق النظر والعمل . عن طريق الامور النظرية والعملية ، وفصل الواحدة لا يؤدي الى فائدة . ان المعرفة التي لا تولد عملا معرفة شاحبة لادم فيها لاتستحق اهتمام الناس . اننا نكافح لنتعلم صور الاشياء لا من اجل الصور

في حد ذاتها ، ولكن لاننا بفضل معرفة الصور ، « القوانين » . قد نتمكن من تجديد صنع الاشياء وفقالرغباتنا .

وهكذا فاننا ندرس الرياضيات لكي نحسب الكميات ونبني الجسور . وندرس علم النفس لكي نجد طريقنا ونخرج من غابة المجتمع . واذا استطاع العلم ان يكشف لنا صور الاشياء كشفا وافيا فان العالمسيكونعندئذمجردمادة خاملاقامة المدينة الفاضلة التي يعتزم على اقامتها .



٣ ـــ مدينة العلم الفاضلة

وباتقان العلم والوصول به الى مرتبـــة الكمال بهذه الطريقة التي شرحهـــا بيكون ، وباتقان النظام الاجتماعي ، بوضع العلم تحت سيطرتنا واشرافنا ، نكون قد حققنا المدينة الفاضلة المثالية التي علق الانسان آماله عليها واتجه ببصره لها منذ آلاف السنين . هذا هو شكل العالم الذي وصفه لنا بيكون في كتابـه الموجز الذي كان آخر انتاجه واسمه «اطلنطس الجديدة» والذي نشره قبـــل وفاته بعامين . والذي يقول عنه الكاتب الانجليزي ولز « اعظم خدمة قدمها بيكون للعلم » . لقد رسم لنا بيكون في هذا الكتاب ، صورة لمجتمع وجد فيه العلم اخيرا مكانه الجدير به ، كسيد للاشياء . لقد كانت هذه المدينة الفاضلة التي وصفها بيكون ، روعة ملوكية في الخيال ، اوحت بالكثير للعلماء الذين يكافحون في سبيل الوصول الى المعرفة والاختراع ، والقضاء على الجهل والمرض ، وكانت هدفا لهم طيلة قرون ثلاثة . هنا في هذه الصفحات القليلة نقف على حقيقـــة بيكون « وصورته » وقانون وجوده وحياته ، وطموح روحه .

لقد ذكر لنا افلاطون في «تيماوس» اسطورة اطلنطس القديمة ، القارة الغارقة في البحار الغربية . لقد شبه بيكون وآخرون غيره ، امريكا الجديدة الـــتي

اكتشفها كولمبوس وكابوت بقارة الاطلنطس القديمة التي غرقت . ان القــارة العظيمه لم تغرق ولكن الذي غرق هو شجاعة الناس في خوض البحار . ان قارة الاطلنطس القديمة اصبحت معروفة الان «امريكا» ويسكنها شعب عنيف لايشبه سكان المدينة الفاضلة التي تصورها بيكون. لقد تصور اطلنطس جديدة، جزيرة تقع في ذلك المحيط الهادي البعيد، الذي لم يعبره احد سوى ماجيلان، ودريك . جزيرة بعيدة بعدا كافيا عن اوروبا والمعرفة . ليقدم مدى واسعـــا فسيحا لتصور المدينة المثالية الفاضلة .

تبدأ القصة ببراعة عظيمة وبساطة . لقد ابحرنا من «بيرو» في طريقنا الى الصين واليابان عن طريق البحر الجنوبي . وخيم علينا سكون طويل، بقيت فيه السفن عدة اسابيـع جاثمة بهدوء على صفحات مياه المحيط، التي لاحدود لها كبقع فوق مرآة . وكادت مؤونة المغامرين ان تنفذ، وعندئذ هبت علينا ريح عاتيـــة، دفعت السفن بلا رحمة شمالا، وشمالا فشمالا متوغلين في بحر واسع لانهـاية له . وبدأنا نقلل من وجبات طعامنا، وفشا المرض في الملاحين، واخيرا عندمـــا استسلم الملاحون للموت، رأوا وكأنهم لايصدقون عيونهم، جزيرة جميلة تلوح في الافق . وعندما اقتربت السفن من الشاطىء، لم يروا اناساً متوحشين، بـــل رجالا يرتدون ملابس بسيطة ولكنها جميلة، ونظيفة، ويبدوا عليهم الذكاء والتقدم بوضوح .

لقد سمحوا للملاحين بالنزول الى الشاطىء، واخبروهم ان حكومة الجزيرة لاتسمح للاجانب بالبقاء، ولكنهم بسبب مرض الملاحين، سيسمحون لهم جميعا بالبقاء، الى ان يستردوا صحتهم ويتماثلوا للشفاء مرة ثانية .

وخلال اسابيع النقاهة اخذوا يكتشفون يوما بعد يوم غوامض هذه الجزيرة. واخبرهم احد السكان ان ملكا حكم هذه الجــزيرة منذ الف وتسعمئة سنـــة

لاتزال ذكراه في قلوبنا ، ولا يزال موضع حبنا وتقديسنا ... وكان اسمه سليمان ونحن نعتبره مشرّع قوانين هذه البلاد فقد كان له قلب كبير وكرس حياته لسعادة شعبه وبلاده . ومن جملة اعماله العظيمة ، واكثرها رفعة وشأنا انشاء المعهد الذي نسميه «بيت سليمان» وهو من انبل واعظم المؤسسات التي شاهدتها الارض على ما نعتقد ، ودرة هذه المملكة .

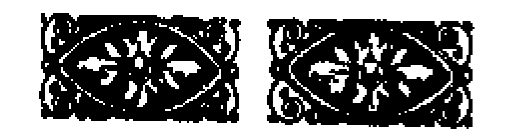
ويتبع هذا وصف بليغ لبيت سليمان ارغم مـاكولي الكاتب الانجليزي المشهور واعتف من نقد بيكون على الاعتراف به بقوله « لا نجد مقطعا اكثر عمقا وحكمة وبروزا من المقطع الذي وصف فيه بيكون بيت سليمان . »

ان بيت سليمان في اطلنطس الجديدة بمثابة البرلمان في لندن وهو مقر حكومة الجزيرة . ولكن هـذا البيت لا يضم سياسيين منتخبين متغطرسين ولا يعرف لغواً ولا نفاقا كما يقول كارليل ، ولا احزابا ولا اجتماعات سياسية ، ولا انتخابات اولية ، ولا مؤتمرات ولا حملات سياسية ، ولا شارات حزبية ، ولا نشرات ومطبوعات توزع على الناخبين ، ولا افتتاحيات صحفية ، ولا خطب سياسية ، واكاذيب وانتخابات . ان فكرة شغل المناصب وملئها بمثل هذه الوسائل المفجعة لم يفكر بها ابـدا سكان جزيرة اطلنطس . ولكن الطريق للوصول الى اوج الشهرة العلمية مفتوحة امام الجميع . واولئك الذين اجتازوا الطريق بفضل مواهبهم ومؤهلاتهم يجلسون في مجالس الدولة . انها حكومة الشعب للشعب تديرها الصفوة المختارة من الشعب . وهي حكومة يتولى امورها الفنيون والمهندسون المعماريون ، والفلكيون ، وعلماء طبقات الارض ، والبيولوجيون والاطباء ، والكيماويون ورجـال الاقتصاد وعلماء الاجتماع ، وعلماء النفس ، والفلاسفة .

الواقع انه لايوجد حكومة في اطلنطس الجديدة لان هؤلاء الحكام مشغولون في بسط نفوذهم على الطبيعة ، والسيطرة عليها اكثر من الحكم على الشعب « ان الغاية من مؤسستنا معرفة اسباب الاشياء وحركاتها الخفية . وتوسيع رقعة الامبراطورية الانسانية للتأثير على كل شيء ممكن » هذه الجملة هي مفتاح بيكون وكتابه . سنجد الحكام مشغولين في دراسة النجوم ، والانتفاع بقوة مساقط المياه في الصناعة وتطوير البخار والغازات لمعالجة الامراض المختلفة واجراء التجارب على الحيوانات لزيادة المعرفة بالعمليات الجراحية ، والحصول على انواع جديدة من النبات والحيوان عن طريق التركيب والتهجين الى آخر ما هنالك. أن نقلد الطيور في طيرانها ، وقد بلغنا شأوا في الطيران في الهواء ، ونحن نملك سفنا وقوارب تغوص تحت الماء ، وفي البلاد تجارة خارجية ولكنها من نوع غير عادي فان الجزيرة تنتج وتستهلك ما تنتج . ولا تدخل في حرب من اجل تأمين الاسواق الخارجية ، ان تجارتنا ليست للذهب او الفضة او الجوهرات ، وليست للحرير ، ولا للتوابل والبهارات ولا لأي نوع آخر من السلع والمواد ، ولكنها فقط للحصول على ما خلقه الله اولا وهو العلم . للحصول على التطور والمعرفة في جميع انحاء العالم . ان تجار العلم هؤلاء اعضاء في بيت سليمان يرسلون الى الخارج كل اثني عشر عاما ليعيشوا بين الشعوب الاجنبية في كل قطر من اقطار العالم المتمدن ويتعلموا لغاتها ، ويدرسوا علومها وصناعاتها وآدابها ، ويعودوا في نهاية الاثني عشر عاما ، ليقدموا تقاريرهم عن مشاهداتهم وابحاثهم ، الى زعماء بيت سليمان. بينما تحتل جماعة اخرى جديدة من العلماء المستطلعين اماكنهم في الخارج . وبهذه الطريقة يدخل الى اطلنطس الجديدة افضل ما في العالم .

وعلى الرغم من اختصار وصفها فاننا نجد فيها مرة ثانية موجزا لكل مدينة فاضلة وضعها فيلسوف . رجال عقلاء حكماء يرشدون شعبهم في سلام واعتدال ان حلم كل مفكر هو استبدال محترفي السياسة بالعلماء . لماذا بقيت هذه الامنية

حلما بعد كل هذا التجسيد ؟ والسبب هو ان المفكر مثقف واسع الاحلام، ولا يحاول الدخول في الميدان ليبني افكاره ويخرجها الى عالم الحقيقة . لان طموح الروح الضيقة الميالة للتملك والمال ، كتب عليها الى الابد التغلب على اماني الفلاسفة والقديسين اللطيفة الانيقة المدققة . او ان العلم لم يتطور بعد ويبلغ حد النضج والقوة الواعية ؟ وان علماء الطبيعة والكيماويين والفنيين بدأوا يرون اليوم فقط ان نهوض دور العلم في الصناعة والحرب يقدم لهم مركزا اساسيا في النواحي الاجتماعية . ويشير الى الوقت الذي سيتمكنون فيه بفضل تنظيمهم من اقناع العالم الى دعوتهم الى تولي الزعامة ؟ ربما لايستحق العلم بعد سيادة العالم . وربما سيبلغ هذا الاستحقاق والجدارة في وقت قريب .



٥ — نقـــد

والان هل تحظى فلسفة فرنسيس بيكون بتقديرنا ؟

هل هناك شيء جديد فيها ؟ ان ماكولي الكاتب الانجليزي المشهور ، يعتقد ان الاستقراء الذي وصفه بيكون ، موضوع قديم جدا ، ولا يستحق كل هذا الاهتمام والاثر . وطريقة الاستقراء التي جاء بها، يقوم بها كل انسان من الصباح الى المساء منذ ظهور العالم . والشخص الذي يستنتج بان فطائر اللحم لاتوافق صحته ، لانه اصيب بالمرض بعد اكلها ، والذي يشعر بأن صحته تتحسن عندما يتجنب اكلها ، ويشتد مرضه عندما يأكل من هذه الفطائر كميات اكثر ، ويقل مرضه عندما يأكل منها اقل ، فان هذا الشخص يستخدم بغير وعي منه كل ما جاء به بيكون عن طريقة الاستقراء . ولكن من النادر ان يلجأ هذا الشخص او اي شخص آخر الى تطبيق هذه الطريقة . وهي طريقة القليل او الكثير على وجه دقيق . والاكثر احتمالا انه سيستمر في اكل فطائر اللحم على الرغم من آلامه واضطراب معدته . وحتى اذا كان هذا الشخص حكيما وعاقلا في ملاحظة صحته فان هذا لا يجرد بيكون من اهمية طريقته ، لان عمل المنطق تنظيم تجارب الحكماء ، ومهمة النظام ليست سوى محاولة تحويل فن القلة الى علم ليدرسه الجميع ؟

ولكن ، هل طريقة الاستقراء هذه من وضع بيكون وصنعه ؟ أليست الطريقة التي اتبعها سقراط طريقة استقرائية ؟ الم تكن طريقة ارسطو البيولوجية طريقة استقرائية ؟ الم يزاول روجر بيكون ويدعو أيضا الى هذه الطريقة الاستقرائية التي دعا لها فرنسيس بيكون ؟ الم يصف جاليلو طريقة افضل استخدمها العلم في الحقيقة ؟ ان هذا صحيح بالنسبة الى روجر بيكون ، واقل صحة بالنسبة الى جاليلو ، واقل صحة حتى بالنسبة الى ارسطو ، واقل الاقل بالنسبة الى سقراط . فقد اوجز جاليلو هدف العلم اكثر من وسيلته . رافعا امام اتباعه هدف المعادلة او الصيغة الرياضية والمقدارية لجميع التجارب والعلاقة . لقد مارس ارسطو الاستقراء عندما كان لايجد امامه شيئا آخر ليفعله ، وعندما كانت المادة لاتستجيب الى ميله في استخراج نتائج خاصة من الافتراضات العامة العظيمة . ولم يمارس سقراط الاستقراء كثيرا – جمع المعلومات – كما كان يمارس تحليل تعريف وتمييز الكلمات والافكار .

لم يزعم بيكون او يدع الاصالة في طريقته فقد تناولت يده برفعة مثل شكسبير كل شيء لمسته ؛ واضافت عليه زينة وجمالا . لكل انسان مصادره ، كما لكل جسم طعامه . والشيء الخاص به هو الطريقة التي يهضم بها هذه المصادر ويحيلها الى لحم ودم .

وكما يقول رولي ، فان بيكون لم يزدر ملاحظات غيره ، وكان يضيء مشعله من كل شمعة ، كما انه اعترف بفضل غيره عليه ، فهو يشير الى طريقة ابقراط المفيدة ، وبهذا يرسلنا رأسا الى المنبع الحقيقي للمنطق الاستقرائي بين اليونان ويقول عن افلاطون بأنه يقدم مثلا حسنا عن الاستفهام عن طريق الاستقراء . ومرة ثانية نتساءل ، هل طريقة بيكون الاستقرائية صحيحة ؟ وهل هي اكثر الوسائل التي استخدمها العلم فائدة ؟ والجواب كلا . لم يستخدم العلم جمع المعلومات

«التاريخ الطبيعي » بطريقة بيكون المعقدة ، ولكن العلم استخدم وحصل على افضل النتائج من الطريقة الاسهل وهي الافتراض والاستدلال ، والتجربـــة .
وهكذا فقد ادرك دارون عندما قرأ مقال مالثوس عن السكان فكرة تطبيق الافتراض المالثوسي على جميع الاجسام الحية ، وهو ان زيادة السكان تنزع الى السرعة اكثر من وسائل الرزق والمعيشة . وقد استنتج دارون من هـذا الافتراض النتيجة المحتملة ، وهي ان ضغط السكان على وسائل الغذاء والطعام سيؤدي الى صراع من اجل التعايش يكون فيه البقاء للاصلح. وان كل نوع يتغير في كل جيل ليتكيف اكثر مع البيئة التي يعيش فيها . واخيرا (بعد ان حدد دارون المشكلة التي تواجهه ومجال ملاحظاته عن طريق الافتراض والاستدلال) اتجه الى وجه الطبيعة النضر ، واجرى لمدة عشرين سنة فحصا استقرائيـــا صبورا للحقائق . كما ان اينشتاين اخذ عن نيوتن الافتراض بأن الضوء يسير في خطوط منحنية وليست مستقيمة ، واستدل بذلك على النتيجة بأن النجم الذي يبدو (على اساس نظرية الخطوط المستقيمة) بأنه في مكان معـــين في السماء يكون في الحقيقة بعيدا قليلا الى جانب ذلك المكان ، واجرى تجربة وملاحظة ليفحص النتيجة ، ومن هذا يبدوا لنا بوضوح بأن عمل الافتراض والتصور اكبر مما ذهب اليه بيكون ، وان الطريقة العلمية اكثر مباشرة واحاطة من طريقته .
لقد توقع بيكون نفسه الاستغناء عن طريقته ، وان مزاولة العلم بطريقة علمية ستؤدي الى اكتشاف وسائل افضل في البحث ، من طريقته التي توصل لها خلال فترات راحته وابتعاده قليلا عن مشاغل السياسة . فقد ذكر مرة ، ان هـــذه الاشياء تحتاج الى عدة اجيال لـكي تنضج وتصبـح صالحة . وحتى اولئك الذين يحبون بيكون ويعجبون به ، لايسعهم الا الموافقة ايضا على انه في الوقت الذي كان يضع فيه قانون العلم ، فشل في متابعة ما يدور من ابحاث علمية في زمنه . لقد رفض ان يأخذ بآراء كوبرنيك ، وتجاهل كبلر وتيشوبراهي وبخس من

قيمة جلبرت ويبدو انه لم يكن عارفا بهارفي . والواقع انه كان يحب الحديث اكثر من البحث . او ربما اعوزه الوقت للقيام بابحاث متممة شاقة ، وترك عند موته اعماله الفلسفية والعلمية مبعثرة غير مرتبطة ينقصها التنظيم وطافحـــة بالتكرار والتناقض ، والطموح ، والمقدمات .

ان الفن طويل والزمن سريع ، هذه هي مأساة كل نفس كبيرة .

ان مواطن العظمة والضعف في بيكون تكمن تماما في ولعه بالوحدة. انـــه يحب مد اجنحة عبقريته المنسقة فوق عشرات العلوم . وكان يطمح ان يكون مثل افلاطون « رجلا ذا عبقرية سامية ينظر الى جميـع الاشياء من فوق صخرة عالية . » لقد تداعى بيكون تحت عبء المهمات التي ارهق نفسه بها ، وفشل لانه اخذ الكثير على عاتقه . لم يستطع دخول ارض العلم الموعودة ، ولكنه كما يقول كوللي استطاع ان يقف على حدودها ويشير الى جمال معالمها من بعيد . ان اعماله الفلسفية على الرغم من قلة مطالعتها الان « حركت العقول التي حركت العالم » لقد جعل من نفسه صوت التفاؤل البليـغ وشارح عصر النهضة . لانجد شخصا مثله اثار الهمم في غيره من المفكرين . لقد رفض الملك جيمس حقاقبول اقتراحاته حول تقديم المساعدة للعلم ، وقال عن كتابه عن البحث الجديد ، بأنه مثل سلام الله الذي يفوق كل عقل . ولكن في عام ١٦٦٢ انشأ رجال افضل ، المجتمع الملكي الذي تحول الى اعظم جمعية للعلماء في العالم . وجعـــلوا بيكون نموذجا وملهما لهم . كما رجوا ان تمهد منظمة الابحاث الانجليزية هذه ، الطريق الى جمعية اوروبية اوسع ، اسوة بما حث عليه بيكون في بحثه عن تقدم العلم . وعندما قام عظام العقول في عهد التنوير الفرنسي بمهمة وضع المشروع الفكري

العظيم الرائع ، وهو كتاب دائرة المعارف « الموسوعة » اهدوها الى فرنسيس بيكون - وقال ديدرو اننا لو انتهينا من وضعها بنجاح ، نكون مدينين بالكثير الى بيكون الذي وضع خطة قاموس عالمي عن العلوم والفنون في وقت خلا من الفنون والعلوم . لقد كتب هذا العبقري الفذ عن الاشياء التي ينبغي تعلمها في الوقت الذي تعذر فيه وضع تاريخ للاشياء المعروفة .

لقد اطلق داليمبرت على بيكون اسم اعظم وابلغ واوسع الفلاسفة . ونشر المؤتمر اعمال بيكون على نفقة الدولة . وسارت جميع الاتجاهات والاعمال الفكرية البريطانية على فلسفة بيكون .. لقد قدم ميله لتفهم العالم بطريقة ديمقريطسية ميكانيكية اوحت الى سكرتيره « هوبز » نقطة البداية الى مذهبه المادي . كما ان طريقته الاستقرائية اوحت الى جون لوك فكرة علم النفس التجريبي ، المرتبط بالملاحظة ، والمتحرر من اللاهوت والميتافيزيقا .

لقد كان بيكون صوت جميع الاوروبيين الذين حولوا القارة الاوروبية من غاب الى ارض كنوز الفن والعلم وجعلوا منها مركز العالم . قال بيكون لقد وهبنا الله ارواحا تساوي جميع العالم . وكل شيء ممكن بالنسبة الى الانسان . ان الزمن شاب . اعطنا بضعة قرون من السنين ، وبذلك نسود ونعيد بناء كل شيء . وقد نتعلم على الاقل انبل واعظم درس في الحياة ، وهو ان لايحارب الانسان اخاه الانسان . ويشن الحرب فقط على العقبات والعراقيل التي تحول بين الانسان وانتصاره على الطبيعة . يقول بيكون في واحد من اروع مقاطعه الكتابية ان هناك ثلاثة انواع من البشر . والاول ، اولئك الذين يطمعون في بسط نفوذهم وسلطانهم على بلادهم وهم نوع سافل ومنحط . والثاني

اولئك الذين يسعون في بسط سلطان بلادهم وسيادتهـــا على شعوب اخرى .
وهؤلاء اكثر كرامة حتما عن النوع الاول ، ولكنهم ليسوا اقل شرها ونهما ،
ولكن لو حاول انسان اقامة وتوسيـع سيادة الجنس البشري نفسه على الكون
فان طموحه بلا شك اعظم نفعا ، واكثر نبلا ، من النوعين الاخرين ، لقـــد
فرقت هذه المطامح المكافحـــة من اجل السيطرة على روحه ، مصيره الى
قطع ، وحطمته الى شظايا



٦ ـــ خاتمـــة

ينقسم الناس الى ثلاثة ، خدم السلطان او الدولة ، وخدم الشهرة ، وخدم الاعمال ، ولا حرية لهم في اشخاصهم او اعمالهم او اوقاتهم . . . ان الصعود يأتي بالمثابرة والاجتهاد ، وبالآلام ينتهي الناس الى آلام اشد . وبالخسة يصل الناس الى الشرف والمقام . الواقف هو المراوغ ، والتراجع سقوط او كسوف .

يقول «جوته » ان نقائص الانسان مستمدة من عصره ، وفضائله وعظمته من نفسه . وهذا تحامل وظلم بالنسبة الى روح العصر ، ولكنه حق بالنسبة الى ظروف بيكون . ويقول «ابوت» بعد دراسة دقيقة للاخلاق السائدة في بلاط الملكة اليزابيث ، ان جميع الشخصيات البارزة من النساء والرجال كانوا متشبعين بفلسفة ماكيافيلي ، كما وصف «روجراشام » في ابيـــات من الشعر الركيك امهات الفضائل المطلوبة في بلاط الملكة بقوله ان الغش ، والكذب ، والنفاق ، والمداهنة امور اربعة لابد منها للوصول الى الفضل والنعمة واذا كنت مجردا من هذه الكلمات الاربع اولى بك ان تعود ايها الاخ الطيب الى بيتك . ومن العادات المألوفة في ذلك العصر ، قبول القضاة الهدايا من الاشخاص الذين ينظرون في قضاياهم في محاكمهم . ولم يكن بيكون شاذا عن عصره في هـــذه الناحية . يبدو ان علاقته مع الملك كانت طيبة ، وعين بارونا على فيرولام في عام

١٦١٨ . وفيكونت سانت الباتز في عام ١٦٢١ . وتولى منصب المستشار وهو اعظم منصب في الدولة مدة ثلاث سنوات . وبعدئذ فاجأته الضربة بسرعة ، فقد اتهمه رافع دعوى فاشل بأنه اخذ منه بعض المال للفصل في القضية . لقد كانت مسئلة شاذة ، وادرك بيكون ان اعداءه لو استغلوها فان هذا يعني سقوطه فاعتكف في بيته ، وانتظر التطورات . وعندما بلغه ان جميع اعدائه يطالبون باستقالته ، اعترف للملك . وقد اضطر الملك جيمس امام ضغط البرلمان المنتصر الى ارساله الى السجن . ولكنه افرج عنه بعد يومين . وتسامح الملك عن الغرامة المالية الباهظة التي وضعت عليه ولكن كرامته لم تحطم بعد فقد قال « لقد كنت اعدل قاض في انجلترا في الخمسين سنة الاخيرة . »

وامضى الخمس سنوات الباقية له من حياته في سلام في بيته ، يضايقه الفقر الذي لم يتعود عليه ، ولكنه وجد عزاء وسلوى في متابعة الفلسفة بنشاط . فقد كتب في هذه السنوات الخمس اعظم اعماله اللاتينية ، ونشر طبعة اخرى لمقالاته بعد ان ادخل عليها توسيعات منها تاريخ هنري السابع . وندب حظه لانه لم يبتعد عن السياسة قبل ذلك لينصرف بكل وقته الى الادب والعلم . وحتى الدقيقة الاخيرة بقي منهمكاً في العمل ، ومات في ميدان معركة العمل . لقد اوضح في مقاله « عن الموت » امنيته ان يموت بلا مرض أو ألم ، وقد اجاب الله امنيته وبينما كان راكبا في شهر مارس عام ١٦٢٦ ، من لندن الى هاي جيت ، مفكرا في مدى ما يحتاجه من الوقت حفظ اللحم من الفساد لو غطيناه بالثلج . وعزم على اجراء تجربة سريعة ، فتوقف امام كوخ واشترى دجاجة ، وذبحها ودفنها في الثلج . وبينما كان يقوم بعمله هذا شعر برعشة قوية من البرد ، واحس بالضعف ، وشعر بعجزه عن الرجوع ، وطلب ان ينقل الى بيت اللورد اروندل القريب من ذلك المكان ، والتزم الفراش ولكنه لم يعتزل

الحياة بعد ، وكتب في فرحة ، لقد نجحت التجربة نجاحاً كبيرا ، وكانت هذه عبارته الاخيرة ، لقد استنفذت حمى حياته الصاخبة المتقلبة المختلفة جسده الذي انطفأ الان ، واضحى عاجزا عن محاربة المرض الذي زحف الى قلبه ببطء . وتوفي في التاسع من شهر ابريل عام ١٦٢٦ في الخامسة والستين من عمره .

لقد كتب في وصيته هذه الكلمات الفخورة :

« اترك روحي الى الله ... ودفن جسدي بغموض ، واسمي للاجيال القادمة والامم الاجنبية . » وقبلته الاجيال والامم .



الفصل الرابـع

سبينوزا

١ ـــ سيرته وتاريخـــه

٢ ـــ تشريد اليهـــود

ان قصة اليهود منذ تشتيتهم هي احدى صور التاريخ الاوروبي . لقد طردهم الرومان من القدس عند استيلائهم عليها عام (٧٠ بعد الميلاد) وتفرقوا عن طريق التجارة والهجرة بين جميع الشعوب وفي جميع القارات . وتعرضوا لاضطهاد الديانات الاخرى . كما حرم عليهم النظام الاقطـاعي حق ملكيـــة الاراضي ، وحالت النقابات الحرفية بينهم وبين الصناعة .

لقد بدأ انتشار اليهود في جميع انحاء العالم قبل عدة قرون من سقوط القدس في يد الرومان ، فقد سافروا الى الخارج عن طريق صور وصيـــدا وموانيء اخرى ، وانتشروا في كل بقعة في منطقة البحر المتوسط، الى اثيناوالاسكندرية وقرطاجنة والى روما ومرسيليا وحتى الى اسبانيا البعيدة ، وبعد تدمير المعبد تحولت هجرتهم الى نطاق واسع ، واخيرا سارت هذه الهجرةوالحركةالواسعة

في اتجاهين ، احدهما عبر الدانوب والراين متجها بعدئذ الى بولندا وروسيا ، والثاني نحو اسبانيا والبرتغال التي كانت خاضعة لحكم المسلمين عام (٧١١ ميلادية) وقد اتجه اليهود في اوروبا الوسطى الى الاعمال التجارية والمصرفية ، واستوعبوا في شبه الجزيرة الاسبانية علوم العرب الرياضية والطبية والفلسفية . وتطوروا بثقافتهم الخاصة في مدارس المدن الاسبانية العظيمة . لقد لعب اليهود هنا في القرنين الثاني والثالث عشر دورا هاما في نقل الحضارات الشرقية القديمة الى اوروبا الغربية . هنا في قرطبة قام موسى القرطبي (١١٣٥ – ١٢٠٤) اعظم طبيب في عصره بكتابة تعليقاته على التوراة « ارشاد الحائر » وفي برشلونة اعلن حسداي من شبروت آراءه الدينية التي هزت الديانة اليهودية بأسرها .

لقد ازدهر اليهود في اسبانيا وجمعوا ثروة ، الى ان قام فرديناند باخراج المسلمين منها نهائياً . وهنا فقد اليهود في اسبانيا الحرية التي تمتعوا بها وعاشوا في ظلها تحت حكم المسلمين المتساهل المتسامح ، وزحف ديوان التفتيش عليهم ، وخيرهم بين التعميد ومزاولة الشعائر المسيحية ، وبين النفي وتجميد اموالهم ، لايعني هذا ان الكنيسة كانت تناصب اليهود العداء ،فقد احتج البابوات باستمرار ضد اعمال ديوان التفتيش الهمجية . ولكن ملك اسبانيا اراد ان يزيد في امواله وكنوزه بثروة اليهود الجنس الاجنبي ، وفي السنة التي اكتشف فيها كولمبوس امريكا اكتشف فرديناند اليهود .

لقد قبلت الاكثرية الساحقة من اليهود الخيار الاكثر صعوبة ، وبحثت عن مكان تلجأ اليه . وركب بعضهم السفن وحاولوا دخول جنوا وموانيء ايطالية اخرى . ولكن لم يسمح لهم بالدخول ، واجبروا الى ان وصلوا الى الساحل الافريقي حيث قتل الكثير منهم لاستخراج الجوهرات من بطونهم التي ساد

الاعتقاد بأنهم بلعوها قبل خروجهم من اسبانيا . واستقبل القليـــل منهم في البندقية « فيليسيا » ، وعول آخرون رحلة كولمبوس على أمل ان يجد لهم هذا الملاح العظيم وطنا جديدا

وركب عدد كبير منهم السفن وابحروا شمال المحيط الاطلنطي ، بين انكلترا المعادية وفرنسا المعادية ليجدوا اخيرا بعض الترحيب في هولندا . ومن بين الذين نزلوا في هولندا نزلت اسرة برتغالية تدعي سبينوزا .

وبعد ذلك اخذت اسبانيا في الانحلال ، وازدهرت هولندا باليسر والرخاء. وبنى اليهود اول كنيس لهم في امستردام في عام ١٥٩٨ . وبنوا كنيسا آخر بعد خمس وسبعين سنة ، ساعدهم على بنائه جيرانهم المسيحيون . وشعر اليهود الان بالسعادة ، ولكن في نحو منتصف القرن السابع عشر تعكر صفو الحوادث واحتدم الجدل داخل الكنيس اليهودي عندما كتب « اوريال كوستا » الذي شعر بتأثير الشك الذي ولده عصر النهضة كغيره من اليهود ، كتابا صغيرا هاجم فيه الاعتقاد بالآخرة هجوما عنيفا . لم تكن الناحية السلبية في هـذا الكتاب مناقضة للمبدأ اليهودي القديم . ولكن الكنيس ارغمه على التراجع عن اقواله لئلا تثير سخط البـــلد الذي رحب بهم واكرمهم . ومعنى الـتراجع عن اقواله ان يستلقي الكاتب المتكبر على الارض ، مقابل عتبـــة الكنيس ليمشي جماعة المصلين فوق جسمه لاذلاله . ولكن اوريال ذهب الى البيت وكتب احتجاجا شديد اللهجة استنكر فيه مضطهديه واطلق الرصاص على نفسه .

لقد حدث هذا في عام ١٦٤٠ عندما كان باروخ سبينوزا اعظم يهودي في الازمنة الحديثة ، واعظم الفلاسفة في العصر الحديث طفلا في الثامنة من عمره، حيث كان التلميذ المحبوب المفضل في الكنيس .

٢ ـ ثقافة سبينوزا

لقد ملأ تشتيت اليهود هذا عقل سبينوزا ، وجعل منه يهوديا قطعا ، على الرغم من حرمانه من الكنيس . وعلى الرغم من ان اباه كان تاجرا ناجحا . لم يظهر الشاب ميلا للتجارة وآثر تمضية وقته في داخل الكنيس اليهودي ، منكبا على مطالعة تاريخ قومه ودينهم ، وابدى نبوغا في دراسته استلفت نظر كبار اليهود ، وجعلهم يعلقون عليه آمالا واسعة في المستقبل ، لعله يبث قبسا من النور في بني قومه . وسرعان ما انتقل من قراءة التوراة ذاتها الى تعليقات التلمود (مجموعة شرائع وسنن وتقاليد اليهود) ومنها الى كتابات ابن ميمون ، وليفي بن جيرسون وابن عزرا وحسداي بن شبروت ، وامتد نهمه في المطالعة الى فلسفة ابن جبريل الصوفية ، وفلسفة موسى القرطبي الصوفية المعقدة . وتأثر بما ذهب اليه موسى القرطبي من وحدة الله والكون واطلع على آراء ابن جيرسون الذي قال بأبدية العالم ، وحسداي الذي اعتقد ان الكون المادي هو جسم الله وقرأ في ابن ميمون بحثا في نظرية ابن رشد بأن الخلود لا يتعلق بالاشخاص ، ولكنه وجد في كتاب « ارشاد الحائر » حيرة اكثر من الارشاد ، لان الحاخام الاعظم اثار فيه اسئلة اكثر من الاجوبة ، ان ابرع حماة الدين هم اشد اعدائه ، لان آراءهم تولد الشك وتحفز العقل ، واذا كان هذا يصدق على كتابات ابن ميمون فأنه يصدق اكثر على كتابات ابن عزرا ، حيث اثيرت مشا كل الديانة اليهودية

بطريقة مباشرة اكثر ، وفي بعض الاحيان كانت تترك على اساس تعذر الاجابة عليها ، وكلما زاد سبينوزا في مطالعته وتأملاته ، كلما تلاشت اليقينيات في نفسه وتبددت وتحولت الى شك وحيرة . ودفعه حب الاطلاع الى معرفة ما كتبه مفكرو العالم المسيحي حول هذه القضايا العظيمة عن الله ومصير الانسانية ، وبدأ يدرس اللغة اللاتينية على يد عالم هولندي يدعى « دناندي» ، ودخل بذلك الى مجال اوسع من التجربة والمعرفة . لقد كان في معلمه الجديد بعض الالحاد والهرطقة ، كما كان نقادا للقوانين والحكومات ، دفع به حب المخاطرة والمغامرة الى ان يترك المكتبة ويشترك في مؤامرة ضد ملك فرنسا وحكم عليه بالاعدام شنقا في عام ١٦٧٤ ، وكان لهذا المعلم ابنة جميلة نجحت في منافسة اللغة اللاتينية في الحصول على قلب سبينوزا وحبه ، وكان لهذا الجو المغرى من الاثر الجميل على قلب سبينوزا ولكن هذه السيدة الجديدة سرعان ما تركت سبينوزا وفقدت رغبتها فيه عندما تعرفت على رجل آخر احاطها بهداياه الثمينة ، لا شك في ان سبينوزا اصبح فيلسوفا منذ تلك اللحظة

على كل حال فقد تغلب على اللغة اللاتينية واجادها . ودخل عن طريقها الى تراث الفكر الاوروبي في العصور الوسطى والقديمة . ويبدو انه درس سقراط وافلاطون وارسطو ولكنه كان يفضل عليهم اعاظم فلاسفة الذريين، ديمقريطس وابيقور وليوكريتس . كما ترك الرواقيون فيه اثرا لا يندثر . وقرأ الفلاسفة المدرسيين ولم يأخذ عنهم علم الاصطلاحات الفنية فحسب بل اخذ عنهم ايضا طريقتهم الهندسية في عرض البداءة والتعريف والقضية والبرهان والحاشية والنتيجة . كما درس فلسفة برونو ذلك الثائر العظيم الذي طاف متنقلا من بلد الى بلد ، ومن عقيدة الى عقيدة ، وكان دائما يخرج من نفس الباب الذي دخل منه باحثا متعجبا ، والذي حكمت عليه محكمة التفتيش بالموت بغير اراقة

دمه وذلك بان يحرق حيا . اي ثروة من الافكار والاراء كانت في هذا الفيلسوف الايطالي الثائر اولها ، فكرة وحدة الوجود العظيمة ، كل الحقيقة واحدة في العنصر ، واحدة في العلة ، واحدة في الاصل . والله وهذه الحقيقة شيء واحد واعتقد برونو ايضاً بأن العقل والمادة شيء واحد ، وكل ذرة من الحقيقة تتألف من عنصر مادي وعنصر روحي غير منفصلين ، لذلك فان موضوع الفلسفة هو ادراك وحدة الوجود في تعدد مظاهره والعقل في المادة ، والمادة في العقل . وايجاد التركيب الذي تتقابل فيه الاضداد والمتناقضات وتندمج . والارتفاع الى ذروة المعرفة عن الوحدة الكلية التي تتساوى فكريا مع محبة الله. لقد اثر كل رأي من هذه الآراء على تفكير سبينوزا .

واخيرا فقد تأثر سبينوزا اشد الاثر بفلسفة ديكارت واضع التقليد الذاتي والمثالي (كما كان بيكون واضع التقليد الموضوعي والواقعي) في الفلسفة الحديثة. ان الفكرة المركزية في ديكارت هي اسبقية الوعي ، وان العقل يعرف نفسه بسرعة مباشرة اكثر من مقدرته على معرفة اي شيء آخر ، وانه يعرف العالم الخارجي فقط عن طريق اثر ذلك العالم على العقل بالادراك الحسي ، وبناء عليه يجب ان تبدأ كل الفلسفة بعقل الفرد وذاته ، وتبدأ نقاشها الاول في كلمات ثلاث ، انا افكر لذلك انا موجود ، قد يكون في هذه البداية شيء من فردية عصر النهضة . ولكن هذه الناحية من فلسفة ديكارت لم تثر اهتمام سبينوزا ، فهو لايريد ان يضل في متاهة المنطق والمعرفة ، ولكن الذي اثار اهتمامه في ديكارت هو ما ذهب اليه من ان الوجود ينحل الى عنصرين . عنصر متجانس تنطوي تحته جميع اشكال المادة ، وعنصر متجانس آخر يندرج تحته جميع اشكال العقل . لقد كان تقسيم الوجود هذا الى عنصرين نهائيين تحديا لشعور سبينوزا الذي ينزع الى التوحيد . كما اثر على تفكيره . والذي اثار اهتمام

سبينوزا بديكارت ايضا ، هو تفسيره للعالم كله ماعدا الله والنفس بالقوانين الآلية والرياضية . وهي فكرة تعود الى ليونارد وجاليلو وربما كانت انعكاسا لتطور الآلات والصناعة في المدن الايطالية . فقد قال ديكارت ان الله دفع العالم الدفعة الاولى (تماماً كما قال انكسجوراس قبل الفي سنة) وبقية الظواهر الفلكية والجيولوجية وجميع العمليات غير العقلية والتطورات يمكن تفسيرها من عنصر متجانس وجد اولا في شكل منحل ... وكل حركة لكل حيوان وحتى في جسم الانسان هي حركة ميكانيكية آلية ، وأن جميع العالم وكل جسم عبارة عن آلة ، ولكن في خارج العالم نجد الها كما في داخل الجسم روحا . وهنا توقف ديكارت .

٣ - حرمانه من الكنيس اليهودي

هذه هي المقدمات العقلية التي استقى منها سبينوزا آراءه وافكاره . هذا هو سبينوزا الشاب الذي كان يبدو هادئا ولكن في نفسه هما وكربا . والذي استدعي امام كبار رجال الكنيس اليهودي في عام ١٦٥٦ بتهمة الهرطقة او الضلال الديني . حيث سألوه ، هل صحيح ما يقال انك قد ذكرت لاصدقائك ان لله جسدا وهو عالم المادة ، وان الملائكة خلط وهذيان ، وان النفس قد تكون مجرد الحياة ، وان التوراة القديمة لم تذكر شيئا عن الخلود ؟

لاندري بماذا اجاب ، وكل ما نعرف انهم عرضوا عليه راتبا سنويا شريطة ان يوافق على موالاة الكنيس اليهودي والديانة اليهودية ، بكل ما في الطقوس الدينية العبرانية من اجراءات قاتمة وصارمة . وكان يسمع اثناء قراءة اللعنة صوت بوق كبير يرسل نغمات نائحة من وقت لآخر ، وكانت الاضواء ترى قوية ناصعة في اول الاحتفال ، ثم تخبو الواحدة تلو الاخرى كلما تقدم الحفل ، الى ان خبت آخر جذوة من الضوء الذي يشير الى انطفاء الحياة الروحية في الشخص المحروم ، وبعد ذلك خرج اعضاء الكنيس الى الظلام الحالك .

لقد قدم لنا « فان فلوتين » الطريقة المتبعة في الحرمان من الكنيس .

يعلن رؤوساء المجلس الملي اليهودي بعد ان تبين لهم تماما حقيقة آراء باروخ

سبينوزا واعماله الآثمة وبعد ان ، حاولوا بمختلف الوسائل وشتى الوعود ارجاعه عن غيه وضلاله ، انهم قد فشلوا في تقويمه وابعاده عن آرائه وافكاره ، وانه تمادى في غيه وضلاله ، وانهم ترد اليهم كل يوم الشهادات الكثيرة عن هرطقته وبدعه الدينية المريعة التي يقدمها ويجاهر بها والسخافة التي تنتشر فيها هذه البدع والهرطقة في الخارج . وان الكثيرين من ذوي القدر والمكانة يشهدون على ذلك . بحضور باروخ سبينوزا ويتهمونه بما ذكرناه من التهم . وقد عرضت القضية وبسطت امام رؤساء المجلس الملي . وتم القرار بموافقة اعضاء المجلس على انزال اللعنة والحرمان بالمدعو سبينوزا وفصله عن شعب اسرائيل . وانزال الحرم به من هذه اللحظة مع اللعنات الآتية : بقرار الملائكة وحكم القديسين نحرم ونلعن وننبذ ونصب دعاءنا على باروخ سبينوزا ، بموافقة الطائفة المقدسة كلها ، وفي وجود الكتب المقدسة ذات الستمئة والثلاثة عشر ناموسا المكتوبة بها ، نصب عليه اللعنة وجميع اللعنات المدونة في سفر الشريعة . وليكن مغضوبا وملعونا ، نهارا وليلا ، وفي نومه وصحه ، ملعونا في ذهابه وايابه ، وخروجه ودخوله . ونرجو الله ان لايشمله بعفوه ابدا . وان ينزل عليه غضب الله وسخطه دائما ، ويحمله جميع اللعنات المدونة في سفر الشريعة . ونسأل الله ان يخلص اولي الطاعة منكم وينقذهم . وان لايتحدث معه احد بكلمة ، أو يتصل به كتابة ، وان لايقدم له احد مساعدة او معروفا ، وان لايعيش احد معه تحت سقف واحد ، وان لايقترب احد منه على مسافة اربعة اذرع ، وان لايقرأ احد شيئا جرى به قلمه او املاه لسانه .

٤ - عزلتـــه وموته

لقد قابل سبينوزا الحرمان من الكنيس بشجاعة هادئة . قائلا ، لم يرغمني على شيء ولم يحل بيني وبين شيء اعمله . ولكن قوله هذا كان صفيرا في الظلام ، فقد وجد التلميذ الشاب نفسه وحيدا بلا رحمة . لاشيء اكثر رعبا من الوحدة ، وخصوصا فصل الانسان عن بني جنسه ، لقد تحمل سبينوزا فقدان ايمانـــه وعقيدته الدينية قبل الحكم عليه بالحرمان بوقت قليل ، وهكذا تلقى ضربتين متلاحقتين في وقت وجيز ، كمن يستأصل كل ما في ذهن الانسان في عمليـــة جراحية واحدة ، تترك وراءها جروحا كثيرة دامية . ولم يحاول اعتنـــاق مذهب ديني آخر ، وعاش حياته وحيدا ، وطرده والده الذي كان يتوقـــع بروز ابنه وتفوقه في العلوم العبرانية . وحاولت اخته ان تحتال عليه لانتزاع بعض حقه في الميراث القليل الذي ترك له . وتجنبه اصدقاؤه. ولا غرابـــة ان لانجد فيه ميلا للمرح والفكاهة عندما يتذكر من وقت لآخر بمرارة والم حمـــاة الدين والقانون الذين يصفهم بقوله : هؤلاء الذين يريدون البحث عن اسبـــاب المعجزات ، وفهم ظواهر الطبيعة كالفلاسفة ، والذين لايكتفون بالتحديق فيها في دهشة كما يفعل الاغبياء ، سرعان ما نعتبرهم ملاحدة كفرة . بينما ترفع عامة

الشعب اولئك الذين يتصدون للفلسفة ، وتعتقد فيهم العلم والقدرة على تفسير اسباب الطبيعة والالهة . لان الذين يتربصون بالفلسفة ورجالهـــا يعلمون بان اظهار الحقيقة وتبديد الجهالة ،سيؤدي الى ازالةالغشاوة عنقلوب الناس وعقولهم لأن الجهل هو وسيلتهم الوحيدة للاحتفاظ بسلطتهم ونفوذهم .

وبينما كان سبينوزا يسير ذات ليلة في احد الشوارع ، هاجمه وغــــد متدين يريد اثبات تدينه بالقتل والجريمة ، وطعنه في خنجر . واستــــدار سبينوزا بسرعة واسرع في الهرب ، والدم يجري من جرح صغير في رقبته ، وانتهى بعد هذا الحادث الى الاعتقاد بالخطر الذي يهدد حياة الفلاسفة وقلة الاماكن الامينة التي يستطيــع أن يخلد فيها الانسان-للفلسفة بأمان . واستأجر غرفة هادئــــة في طابق علوي لمنزل يقع في شارع بعيــــد عن امستردام ، ومن المحتمل ان يكون الان قد استبدل اسمه من باروخ الى بندكت . وكانت العائلة التي سكن معها تدين بمذهب مسيحي يعارض فكرة تعميد الاطفال وبها استعـداد لتفهم الهرطقة والضلال الديني الى مدى محدود . لقد احبت هذه الاسرة كآبة الحزن التي كانت تعلو قسمات وجهه « اولئك الذين يتعرضون للاضطهاد ، ويقاسون الام الحرمان ، بسبب اختلاف مذهبهم عن اكثرية الشعب ، يمتازون بالكياسة اللطيفه او الضراوة العنيفة » وكانوا يرحبون به ، ويسرون بمجلسه عندما كان يسهر معهم منوقتلآخر،يدخن غليونه،ويفرج عما في صدورهم من كبت وتوتر بحديثه . وكان يكسب قوته في بادىء الامر من تعليم الاطفال في مدرســـة في فان اندى ، وبعدئذ اشتغل في صقل العدسات البلورية ، وكأنه كان بـــه ميل للعمل في المادة الصعبة . لقد تعلم التجارة النظرية عندما كان يعيش بـــين الطائفة اليهودية ، فقد كانت شريعة اليهود تحتم على كل تلميذ مزاولة حرفة يدوية

لان الدراسة والتعليم الشريف لايضمنان في حد ذاتهما المعيشة ، كما قال جماليل، ان العمل يحفظ للانسان فضيلته بينما يتحول المتعلم الذي اخفق في تعلم التجارة او الحرفة الى التشرد والاحتيال .

وبعد خمس سنوات انتقل صاحب المنزل الذي كان يسكن فيه الى رينسبرج قرب ليدن ، وانتقل سبينوزا معه . ولا يزال هذا البيت قائما حتى يومنا هذا ، ويحمل الشارع الذي يقع فيه هذا البيت اسم الفيلسوف سبينوزا . لقد كانت هذه السنوات سنوات عيش بسيط ، وفكر عظيم . وكثيرا ما كان يبقى في غرفته مدة يومين او ثلاثة لايرى فيها احد ، يتناول طعامه البسيط الذي يعده له اهل البيت . ولم يدر عليه عمله في صقل العدسات البلورية سوى الكفاف . لقد احب الحكمة كثيرا ولم يبال في النجاح العملي . يقول لنا كوليروس الذي تتبع سبينوزا في هذا المنزل ، وكتب نبذة قصيرة عن حياة هذا الفيلسوف ، من تقارير اولئك الذين كانوا يعرفونه . انه كان يحرص على جمع حساباته كل ربع سنة كيلا يصرف اقل او اكثر مما في وسعه صرفه كل سنة ، وكان يقول لاصحاب المنزل احيانا ، انه كالثعبان الذي يشكل دائرة بذنبه في فمه ، يشير بذلك الى انه لاشيء لديه في نهاية العام . ولكنه كان سعيدا في حياته البسيطة ، واجاب على رجل نصحه ان يضع ثقته بالدين والوحي بدلا من العقل والتفكير بقوله « على الرغم من انني اجد احيانا بطلان النتائج التي جمعتها بعقلي وتفكيري الطبيعي ، ولكن هذا لن يزيدني الا اقتناعا ، لانني سعيد في التفكير وجمع المعلومات ولا اضيع اوقاتي في التحسر والحزن ، بل انفقها في السلام والصفاء والسرور » لقد قال احد اعاظم الحكماء « لو كان نابليون ذكيا وفطنا كما كان سبينوزا ، لكان آثر ان يعيش في غرفة على السطح مثله وكتب اربعة كتب . »

وسنضيف الى الصور التي وصلتنا عن سبينوزا صورة اخرى وصفها لنا لوليروس ، لقد كان الفيلسوف ربع القامة متوسط الحجم ، وسيم الوجه القسمات ، يميل لونه الى السمرة ، شعره اسود ومجعد ، وحاجباه طويلان سودان ، حيث يدرك من ينظر اليه انه ينحدر من اسرة يهودية برتغالية .وكان لايهتم بملابسه ، لقد زاره يوما احد اعضاء مجلس الشورى ، ووجده في وب صباحي مهلهل ، ولامه على ذلك ، وعرض عليه ثوباً آخر ، فاجاب سبينوزا ، ان الثوب الجميل لايزيد في قدر الرجل ، واضاف قائلا ، من غير المعقول لف الاشياء الزهيدة بغلاف ثمين

وفي خلال هذه السنوات الخمس التي عاش فيها سبينوزا في رينسبرج كتب فيها رسالته الصغيرة في تحسين العقل ، وكتابا اسمه « الاخلاق مؤيدة بالدليل الهندسي » الذي فرغ من كتابته في عام ١٦٦٥ ، ولم يحاول نشره طيلة عشر سنوات ، ففي عام ١٦٦٨ قام ادريان كويرباغ بنشر آراء مماثلة لآراء سبينوزا وحكم علية بالسجن عشر سنوات مات بعد قضاء ثمانية عشر شهرا منها ، لقد ذهب سبينوزا في عام ١٦٧٥ الى امستردام ، واثقا في نشر كتابه في امان . ولكنه عدل عن نشره ، فقد سرت في البلد اشاعة على انه سينشر كتابا يقيم فيه الدليل على عدم وجود الله ، كما يقول في رسالة له لصديقه اولدنبرج .ثم يقول ، من المؤسف ان عددا كبيرا من الناس قد صدقوا هذه الاشاعة،واستغل بعض رجال الدين هذه الفرصة (يحتمل ان يكون رجال الدين هؤلاء هم مصدر الاشاعة) لتقديم شكوى ضدي للامير والقضاة . وعندماتلقيت اشارةمن بعض الاصدقاء حول ما يبيت لي من شرور وأن رجال الدين يتربصون في كل مكان للايقاع بي ، قررت ارجاء نشر الكتاب الى وقت آخر .

ولم ينشر كتاب الاخلاق الا بعد موت سبينوزا وذلك في عام ١٦٧٧ مع رسالة صغيرة عن السياسة لم يفرغ الفيلسوف من كتابتها بعد . لقـــد كتبت جميــع هذه الكتب باللاتينية التي كانت لغة الفلسفه والعلم في اوربا في القرن السابــع عشر . واكتشف فان فلوتن في عام ١٨٥٢ رسالة قصيرة له مكتوبة باللغة الهولندية عن « الله والانسان » قصد بها على ما يلوح ان تكون مقدمـــة لكتاب الاخلاق . اما الكتب الوحيدة التي نشرها سبينوزا في حيـــاته فهي «مبادىء الفلسفة الديكارتية » و «رسالة في الدين والدولة » وقـــد ظهرت في وقت واحد في عام ١٦٧٠ ووضعت فورا في القائمة السوداء ، او قائمة الكتب التي ينبغي « تطهيرها » وحظرت الحكومة بيعها ، وكان هذا دافعاعلىانتشارها تحت عناوين مختلفة لتضليل الرقابة ، فقد نشرت تحت عنوان رسالة طبية ، واخرى تحت عنوان قصة تاريخية . ووضعت عشرات الكتب لدحضهـــا . ووصفه احدهم بكونه « اعظم الملحدين الذين ظهروا على هذه الارض فجورا واثما » واطرى احدهم عليها بقوله « انها كنز أبدي عظيم الفائدة » ولم يبق مما وجه لها سوى هذه الملاحظة الاخيرة . وبالاضافة الى هذا فقد تلقى سبينوزا بعض الرسائل التي حاول اصحابها هديه واصلاحه ، ومنها رسالة وردت له من تلميذ سابق له يدعى البرت برج الذي اعتنق المذهب الكاثوليكي .

لقد زعمت بانك توصلت الى الفلسفة الحقـــة آخر الامر . كيف عرفت ان فلسفتك افضل جميــع الفلسفات قديمها وحديثها ؟ ناهيك عما سيأتي به المستقبل من فلسفات . هل اختبرت الفلسفة كلها قديمها وحديثها ، التي تدرس هنا وفي الهند وفي جميــع انحاء العالم ؟ ولو سلمنا جدلا بانك اختبرتهـــا وامعنت النظر فيها ، فمن ادراك انك اخترت منها افضلها ؟ .. وكيف تجرؤ على وضع نفسك فوق رجال الدين والانبياء والرسل والشهداء والعلماء واباء الكنيســـة ؟ انك

لانسان بائس ودودة تسعى على الارض ، نعم انك رفات وطعـــام للديدان ، كيف تستطيــع مواجهة الحكمة الخالدة بكفرك العنيد ، وما هو الاساس الذي يقوم عليه هذا المبدأ اللعين الطائش ، الاحمق الحقير الذي تنادي به وتدعو له . واي غرور شيطاني ينفخ فيك ، ويدفعك الى الحـكم على خفايا الكون التي يعلن الـكاثوليك انفسهم بأنهـــا فوق العقل والادراك ؟ واجـــاب سبينوزا على هذا بقوله :

انت يا من تدعي انك وجدت اخيرا افضل الديانات ، واحسن المعلمين ، ووضعت ايمانك فيهم ، كيف عرفت انهم افضل من علموا الديانات ،او يعلمونها الان او سيعلمونها في المستقبل ؟ هل اختبرت كل هذه الديانات ، قديمها وحديثها، التي تعلم هنا وفي الهند وفي جميع انحاء العالم . ولو فرضنا انك اختبرتها جميعها، فمن انبأك انك اخترت افضلها ؟

ومن هذا يبدو لنا بوضوح ان بمقدور الفيلسوف ان يكون حـــازما اذا استدعت الضرورة الى ذلك . ولكن لم تكن جميع الرسائل الـــتي وردت على سبينوزا من هذا النوع المكدر المزعج . فقد وصلته رسائل كثيرة من رجال ذوي ثقافة ومكانه عـــالية . ومن ابرز هؤلاء الرجـــال نخص بالذكر هنري اولدنبرج سكرتير المجتمع الملـكي في انجلترا ، وفون تشيرنهاوس وهو مخترع الماني شاب ! وهويجينز العالم الهولندي ، وليبنتز الفيلسوف الذي زاره في عام ١٦٧٦ ولويس ماير الطبيب في لاهاي ، وسيمون دي فري التاجر الغـني في امستردام الذي بلغ اعجابه وتقديره بسبينوزا الى حد توسل فيه اليه ان يقبل مبلغ الف جنيه هدية منه له ، ولكن سبينوزا اقنعه ان يترك ثروته لأخيه بدلا منـــه . وعندما مات التـــاجر ، وجـــدوا انه اوصى بأن يدفـــع الى سبينوزا مبلغ مئتـــين وخمسين جنيها سنويا من دخـــل املاكه .

واراد سبينوزا ان يرفض هذا المبلغ مرة ثانية قائلا ، ان الطبيعــة يرضيهـا القليـل وانا يرضيني القليل ايضـا ، ولكنهم اجبروه بعد ذلـك على قبـول مئة وخمسـين في السنة . كما اجرى عليه صديق آخر وهو جان ديويت قاضي قضاة الجمهورية الهولندية راتبا سنويا تصرفه له الدولة وقدره خمسون جنيها . واخيرا عرض عليـه الملك لويس الرابع عشر مبلغـا كبيرا شريطة ان يقدم اهداء الكتاب الثاني له ، ولكن سبينوزا رفض ذلك بطريقة لبقة مهذبة .

ولادخال السرور الى قلوب اصدقائه ومراسليه انتقل الى فوربرج في ضواحي لاهاي في عام ١٦٦٥ ، وفي عام ١٦٧٠ انتقل الى لاهاي نفسها . وفي خلال هذه السنوات الاخيرة تطورت الالفة والمحبة بينه وبين جان ديويت قاضي القضاة في الجمهورية الهولندية ، وعندما قامت الدهماء بقتل ديويت واخيه اعتقادا منهـا بانه مسؤول عن هزيمة القوات الهولندية على يد الفرنسيين في عام ١٦٧٢ ، وعلم سبينوزا بالحادث المفجع الذي ذهب ضحيته صديقه انهمرت الدموع من عينيه، وبعد وقت قصير دعاه الامير دي كوندي قائد الجيش الفرنسي الفاتح الى مقر قيادته ، ليقدم له الراتب الملكي الذي اجراه عليه ملك فرنسا ، وليقدم اليه بعض المعجبين به الذين كانوا معه ، ولم يجد سبينوزا ما يمنعه من تلبية الدعوة ، خصوصا وانه كان يعتبر نفسه مواطناً اوروبياً ، لا قوميا . ولدى عودتـه الى لاهاي سرت انباء زيارته هذه بين الشعب ، وظهرت امارات الاستياء والغضب بين الناس . وخاف صاحب البيت الذي كان ينزل به سبينوزا الهجـوم على منزله ، ولكن سبينوزا هدأ من روعه بقوله : انني استطيـع ان ابرىء نفسي من جميـع شبهات الخيانة ... ولكن لو اظهر الناس ادنى رغبة في ازعاجك،

او تجمهروا وقاموا بضجة امام منزلك ، سأنزل لهم ولو كان مصيري القتل كصديقي المسكين دويت . ولكن عندما علم الناس بان سبينوزا مجرد فيلسوف لاضرر منه ، قل هياجهم وهدأ صخبهم .

لم تكن حياة سبينوزا كما نرى من هذه الحوادث الصغيرة حياة عوز وعزلة، كما تواترت عنه الروايات . فقد كان له مورد يكفل له الطمأنينة واصدقاء من ذوي النفوذ . لقد اظهر اهتماما بالقضايا السياسية التي كانت تجري في وقته ، وعرض نفسه بسبب السياسة لمخاطر كادت ان تودي بحياته . واستطاع ان يشق طريقه على الرغم من حرمان الكنيس له . وان ينال احترام معاصريه الذي يبدو في العروض التي قدمت له . ففي عام ١٦٧٣ عرض عليه كرسي استاذ الفلسفة في جامعة هايدلبيرج ، واقترن هذا العرض باعمق شعور التقدير له ، كما تعهد بمنحه حرية تامة في بسط آرائه الفلسفية . ولكن سبينوزا اعتذر عن قبول هذا المنصب ، وفضل حياة الهدوء والفكر .

وجاء فصل النهاية في حياته في عام ١٦٧٧ . انه الان في الرابعة والاربعين من عمره ، ولكن اصدقاءه شعروا بان سنواته اصبحت محدودة . لقد ورث مرض السل عن والديه ، كما اثرت حياة الحصر التي عاشها والجو المشحون بالغبار الذي كان يعمل فيه على صحته ، وبدأ يشعر بصعوبة التنفس اكثر فاكثر ، ونخر المرض رئتيه عاما بعد عام . لقد اعد نفسه لهذه النهاية المبكرة، ولم يخف الا على كتابه الذي لم يجرؤ على نشره في حياته لئلا يضيع اويتلف بعد موته . لقد وضع كتابه هذا (الاخلاق) في درج مكتب صغير واقفل عليه واعطى المفتاح لصاحب المنزل ، وطلب منه ان يرسل المكتب والمفتاح الى الناشر في امستردام بعد موته .

وفي يوم الاحد في العشرين من فبراير ، خرجت الاسرة التي كان يعيش معها الى الكنيسة ، بعد ان اكد لها بانه لايحس بشدة المرض ، وبقي الطبيب ماير وحده معه ، وعندما عادت العائلة وجدت الفيلسوف مسجى بين ذراعي الطبيب وقد فارقته الحياة . وبكاه الكثيرون . لقد احبه البسطاء لرقته ، كما احبه العلماء لحكمته . وانضم الفلاسفة والقضاة الى الشعب وساروا وراءه الى مقره الاخير . واجتمع حول قبره رجال من كل مذهب ومن كل دين .



٢ ــ رسالته في الدين والدولة

دعنا ندرس الان كتب سبينوزا الاربعة وفقا للترتيب الذي كتبها فيه . قد تكون رسالته في الدين والدولة اقل كتبه متعة لنا اليوم ، والسبب في ذلك انه افاض كثيرا في التدليل على وجهة نظره ، وبذلك فقدت كتابته الغموض والابهام الذي يجتذب الفئة المثقفة ويغريها على البحث والدرس . وقد حدث هذا مع فولتير كما حدث مع سبينوزا في رسالة الدين والدولة .

والمبدأ الاساسي الذي يقوم عليه هذا الكتاب ، هو ان لغة التوراة يغلب عليها المجاز والاستعارة ، وهذا المجاز والاستعارة امر متعمد ومقصود ، لا لانه يتناول النزعة الشرقية وميلها الى الادب الرفيع ، وتزيين الالفاظ وتدبيجها ، والمبالغة في الوصف والتعبير فحسب ، ولكن لان الانبياء والرسل قد لجأوا الى اثارة الخيال في دعوة الناس الى مبادئهم ومذاهبهم ، واضطروا الى تكييف انفسهم وفقا لرغبات الشعب وتفكيره .

فقد كتب كل كتاب منزل لدعوة شعب معين اولا ، ودعوة شعوب العالم كلها ثانياً . ويترتب على ذلك ان ينسجم ما جاء في هذا الكتاب ويتناسب مع

عقلية الجماهير ما امكن الى ذلك سبيلا . ان الكتب السماوية المنزلة لا تفسر الاشياء باسبابها الثانوية ، ولكنها تقصها وترويها في طريقة واسلوب قوي متدفق للتأثير على الناس ، ودفعهم الى الايمان والنسك والعبادة ، وخاصة الفئة الجاهلة غير المتعلمة منهم . ان الكتاب المنزل لا يستهدف مخاطبة العقل واقناعه ، بل جذب الخيال والسيطرة عليه . ومن اجل ذلك يكثر فيه ذكر المعجزات وتكرار مظاهر الله .

يعتقد الناس ان قوة الله وعنايته تتجليان بوضوح اكثر بالحوادث الخارقة التي تناقض الفكرة التي كونوها عن الطبيعة . ويظنون ان الله ساكن لا يعمل ما دامت الطبيعة تعمل في نظامها المعهود ، والعكس بالعكس ، وهو ان قوة الطبيعة والاسباب الطبيعية تكون عاطلة وساكنة ما دام الله يعمل ، وهكذا فهم يتصورون قوتين تختلف احداهما عن الاخرى ، قوة الله ، وقوة الطبيعة (وهنا تدخل الفكرة الاساسية في فلسفة سبينوزا ، وهي ان الله وسير الطبيعة امر واحد) .

يميل الناس الى الاعتقاد بأن الله يحطم النظام الطبيعي للحوادث من اجلهم وهكذا يرى اليهود في اطالة النهار معجزة لهم للتأثير على غيرهم « وربما للتأثير على انفسهم » ودفعهم الى الاعتقاد بانهم شعب الله المختار ، لان البيانات الرصينة الحرفية لاتستهوي مشاعر الناس ولا تحرك نفوسهم ، اذ لا يحرك نفوس الناس ويدفعها الى الايمان والعبادة والتصديق اكثر من المعجزات التي تحرك خيالها وعواطفها ، فلو قال موسى لقومه ان الرياح الشرقية هي التي شقت لهم طريقهم في البحر الاحمر ، لما كان لقوله اثر على عقولهم . ولهذا

السبب لجأ الرسل الى سرد قصص المعجزات كما لجأوا الى سرد الامثلة والحكايات التي تتناسب مع عقلية الشعب . ان تأثير الانبياء والرسل الكبير على الناس بالمقارنة مع تأثير الفلاسفة والعلماء يعود الى الاسلوب البياني الساحر الذي امتاز به اصحاب الديانات من الانبياء والرسل بحكم طبيعة رسالتهم وشدة عواطفهم . ويقول سبينوزا ، اننا لو فسرنا التوراة على هذا الاساس لما وجدنا فيها شيئا يتناقض مع العقل . اما اذا فسرناها تفسيرا حرفيا ، فاننا نجدها طافحة بالاخطاء والمتناقضات والامور المستحيلة . كذلك الاسفار الخمسة التي جاء بها موسى . اما التفسيرات الفلسفية فتكشف لنا من وراء ضباب البيان والشعر افكار المفكرين والزعماء العميقة ، وتوضح تأثير التوراة الكبير على عقول الناس . وكلا التفسيرين لهما مكان وعمل معين ، فسيطلب الناس دائما دينا يتسم باثارة الخيال ، ويتحدث عن الحوادث الخارقة . واذا اصيب هذا الدين بالعطب فهم سيخلقون دينا آخر ليحل في محله . ولكن الفيلسوف يعرف ان الله والطبيعة شيء واحد ، يعملان بالضرورة ووفقا لقانون ثابت لايتغير . وهو يقدس ويوقر بالطبع هذا القانون العظيم . وهو يعرف ان الله قد وصف في الكتب المنزلة بكونه مشرعا او اميرا ، وبكونه عادلا ورحيما ، الى آخر ما هنالك من صفات . ليتفق فقط وينسجم مع عقول الناس ومعرفتهم الناقصه التي لم تبلغ حد الكمال .

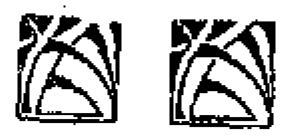
ان سبينوزا لا يفرق بين التوراة والانجيل ، وينظر الى اليهودية والمسيحية على اساس انهما دين واحد ، وذلك عندما تزول البغضاء والخلاف من قلوب الناس . ويجد التفسير الفلسفي جوهر العقيدتين المتنافستين . فهو يقول — لقد كانت تأخذني الدهشة كثيراً عندما كنت

اری بعض الناس الذين يفاخرون بتعاليم الديانة المسيحية ، وخـاصة بالحب والسعادة والسلام والاعتدال والاحسان الى جميع الناس - يقاتل بعضهم بعضا بمثل هذه الكراهية المريرة التي اصبحت مقياسا لعقيدتهم بدلا من الفضائل التي يدعون بها ويعلنون عنها . لقد احتفظ اليهود ببقائهم الى مدى كبير بسبب كراهيـة المسيحيين لهم ، ودفعهم الاضطهـاد الى الوحـدة والتماسك لاستمرار بقـاء جنسهم . وكان من الممكن لولا هذا الاضطهاد دمجهم وصهرهم مع الشعوب الاوروبية عن طريق الزواج وغيره . وابتلاعهم وسط الاكثرية الساحقة التي تحيط بهم من كل جانب . ولا سبب يمنع الفلسفة اليهودية والفلسفة المسيحية من الوصول الى اتفاق حول عقيدة تمكنهم من العيش في سلام وتعاون ، وخصوصا بعد ازالة هذه الخلافات التي لامعنى لها .

ويعتقد سبينوزا ان اول خطوة لبلوغ هذا التفاهم والكمال ، هو التفاهم المشترك حول امر المسيح . وتنحية العقائد المستحيلة . وعندئذ سيدرك اليهود بان المسيح اعظم الانبياء وانبلهم . ان سبينوزا لا يعترف بتأليه المسيح ، ويضعه في مصاف البشر ، فهو انسان . « ان حكمة الله الخالدة ... قد تجلت في جميـع الاشياء ، وبوجه خاص في عقل الانسان ، وفي يسوع المسيح بوجه اخص من الجميع . لم يرسل المسيـح لتعليم اليهود فقط ، ولكنه ارسل لتعليم الناس كافة . » لذلك فقـد كيف نفسه وجعلهـا ملائمة لادراك الناس وفهمهم .. ووضع معظم تعاليمه في شكل قصصي ، واستعـان بالامثلة البسيطة لتوضيح تعاليمه وجعلها تتناسب مع عقول الناس . وهو

يستنير اخلاق المسيح طافحة دائما بالحكمة . وان توقير المسيح يسمو بالانسان الى حب الله العقلي » .

وان شخصية المسيح النبيلة لو تخلصت من حواجز العقائد التي تؤدي الى الانقسام والنزاع فقط ، تستطيع ان تجتذب جميع الناس حولها . ووجد يجد العالم الذي تمزقه الحروب الانتحارية ، حروب السيف والقلم فيها وحدة في الدين وامكانية للاخوة آخر الامر .



٣ ــ تحسين العقل

يبدأ سبينوزا كتابه هذا بمطلع من درر الادب الفلسفي . ويخبرنا عن الاسباب التي دفعته الى التضحية بكل شيء من اجل الفلسفة :

بعد ان علمتني التجارب ان جميع الاشياء التي تقع في الحياة العادية عبث وباطل ، ورأيت ان جميع الاشياء التي كنت اخشاها وتخشاني ، لاخير فيها او شر الا بمقدار ما يتأثر بها العقل ، عقدت النية اخيرا ان ابحث عما اذا كان هناك شيء يمكن ان يكون خيرا حقا وقادرا على ايصال خيره ، ويمكن ان يتأثر به العقل الى حد يستغني به عن جميع الاشياء الاخرى ، اقول انني عزمت ان ابحث عما اذا كان في مقدوري ان اكشف وابلغ المقدرة على التمتع بسعادة سامية دائمة .. لقد رأيت في الشرف والثراء فوائد كثيرة ، وانني سأحرم من الحصول عليها اذا اردت البحث باهتمام عن مسألة جديدة . . وانه كلما ازداد حظ الانسان من الثروة والشرف كلما ازدادت سعادته . وازداد تبعا لذلك تحمسا لزيادتها ، ولكن اذا خاب املنا وفشلنا في جمع المال وبلوغ الشرف ، فان هذا يبعث في نفوسنا اشد الالم . وفي الشهرة ايضا مثل هذا النقص الكبير . فاذا اردنا الشهرة وجب علينا ان نوجه حياتنا بطريقة تبعث الرضي والسرور

في الناس ، وان نتجنب ما يكرهونه ، وان نبحث عما يبعث السرور في نفوسهم ... ولكن التوجه يجبنا الى شيء ابدى خالد سيغذي عقولنا بسعادة خالصه لا الم فيها ... ان الخير الاعظم هو معرفة الاتحاد الذي يربط العقل بالطبيعة كلها .. وكلما ازداد العقل علما ازداد فهما لقواه ولنظام الطبيعة . وكلما ازداد فهما لقواه ازدادت مقدرته على توجيه نفسه ووضع احكام لها ، وكلما ازداد فهما لنظام الطبيعة ازداد مقدرة وسهولة على تحرير نفسه من الاشياء التي لافائدة فيها .

اذن فالعلم وحده هو القوة والحرية . والسعادة الدائمة الوحيدة هي طلب المعرفة ولذة الفهم . ويجب على الفيلسوف في الوقت ذاته ان يبقى انسانا ومواطنا . كيف يكون نمط حياته اثناء طلبه للحقيقة وسعيه وراءها ؟ وهنا يضع لنا سبينوزا قاعدة بسيطة من قواعد السلوك التي تتفق مع سلوكه اتفاقا تاما على ما نعتقد .

١ - ان يتحدث بطريقة يفهمها الناس ، وان يفعل لهم جميع الاشياء التي لاتحول بينه وبين بلوغ غاياته .

٢ - وان يتمتع فقط بالملذات الضرورية لحفظ الصحة .

٣ - واخيرا ان يبحث فقط عما يكفيه من المال .. الضرورى لحفظ حياته وصحته . وان يذعن للعادات التي لاتتعارض مع مايبحث عنه .

ولكن في وضع مثل هذا البحث يجد سبينوزا نفسه وجها لوجه مع المشكلة التالية ، وهي ، كيف اعرف ان معرفتي هى المعرفة الحقة ، وهل من الممكن الوثوق بحواسي فيما تنقل الى ذهني من المحسوسات ، وهل من الممكن الاعتماد على عقلي بالنتائج التي يستمدها من الاحاسيس التي تقدمها له الحواس ؟ اليس من

الواجب ان نبذل ما في وسعنا لاصلاحها ؟ فقبل كل شيء يجب علينا ان نفكر في وسيلة لاصلاح العقل وتنقيته . ويجب ان نميز بين انواع المعرفة ، ولا نضع ثقتنا الا في افضلها واحسنها .

اذ ان اول انواع المعرفة تأتينا عن طريق الاخبار والاشاعات . كمعرفتي مثلا بتاريخ ميلادي ، وثانيها ما يأتي عن طريق التجربة الغامضة كأن يعرف الطبيب علاجا عن طريق التأثير العام بنجاح هذا العلاج في شفاء المريض . ولكن هذا العلاج لم يتوصل له الطبيب عن طريق التجارب العلمية الثابتة القـــاطعة . وثالث انواع المعرفة هو ما يأتينا عن طريق الاستدلال السريع او المعرفة التي نصل لها عن طريق التفكير . كأن ينتهي بي التفكير الى كبر حجم الشمس ، عندما ارى ان جميع الاشياء يصغر حجمها كلما ابتعدت عن النظر . وهـــذا النوع من المعرفة ارقى من النوعين الاولين ، ولكنه مع ذلك عرضة للدحض والنقض السريع عن طريق التجربة المباشرة . كما فكر العلم منذ مئات السنين في شق طريقه الى الفضاء بهذا النوع من المعرفة التي لايستحسنها علماء الطبيعة الان . لذلك فان ارقى انواع المعرفة هو النوع الرابـــع وهو ما يأتي عن طريق الاستدلال السريـــع والادراك المباشر كأن نرى ان ٦ هو العدد المحذوف في النسبة ٢ : ٤ = ٣ : س او كما ندرك ان الكل اكبر من الجـــزء . ويعتقد سبينوزا ان الاشخـــاص المتضلعين في الرياضيات يعرفون الكثير عن اقليدس بهذه الطريقة البديهية ، ويعترف بحسرة واسف ان الاشياء التي تمكن من معرفتها عن طريق هذا النوع من المعرفة قليلة جدا .

يخفض سبينوزا في الاخلاق النوعين الاولين من المعرفة الى نوع واحـــــد ، ويسمى المعرفة البديهية بكونها ادراك الاشياء في نواحيها وعلاقاتها الابـــدية . وبهذه الجملة يقدم تعريفا للفلسفة ، لذلك فهو يحاول ان يجد وراء الاشياء والحوادث قوانينها وعلاقاتها الابدية وبذلك يفرق سبينوزا بين النظام المؤقت وهو « عالم »

الاشياء والحوادث وبين «النظام الابدي» وهو عالم القوانين والبناء الذي يسير هذه الاشياء والحوادث .

دعنا ندرس هذا التفريق بعناية كما يقدمه لنا سبينوزا . « جدير بالذكر هنا ان اقول انني لاافهم هنا من سلسلة الاسباب والوجود الحقيقي سلسلة الاشياء الفردية المتغيرة ، ولكن بالاحرى سلسلة الاشياءالابدية الثابتة . لانمن المستحيل بسبب الضعف البشري تتبع سلسلة الاشياء الفردية المتغيرة ، لا لأن عددها لايتجاوز الحصر فحسب ، ولكن بسبب تعدد الحالات في الشيء الواحد نفسه والتي قد يكون كل واحد منها سببا في وجود هذا الشيء . لانوجود اشياء معينة في الحقيقة لاعلاقة له بماهيتها وليس حقيقة ابدية ، على كل حال لاحاجة بنا ان نعرف سلسلة الاشياء الفردية المتغيرة ، لان ماهيتها من الممكن ان توجد فقط في الاشياء الثابتة الابدية ، ومن القوانين المدرجة في تلك الاشياء كقوانين حقيقية لها . التي تتشكل وتصنع بموجبها جميع الاشياء الفردية . ان هذه الاشياء الفردية المتغيرة تعتمد بالضرورة على هذه الاشياء الثابتة التي بدونها لاتقدر على الوجود ولا يمكن ادراكها . »



٤ ـ الاخلاق

يعتبر كتاب الاخلاق من اروع وانفس ما انتجته الفلسفة الحديثة . لقـــد كتب سبينوزا هذا الكتاب في شكل هندسي بغية توضيـح افكاره وتبسيطها، ولكن جاءت النتيجة على خلاف ما اراد ، فقد جاء موجزا وغامضا يحتاج كل سطر فيه الى «تلمود» من الشرح والتعليق .

لقد وضع المدرسيون افكارهم بمثل هذه الطريقة ، ولكنهم لم يضعوها بمثل هذه الحدة ، وقد ساعدهم في توضيح انفسهم نتائجهم المقدرة . لقد رأى ديكارت ان الفلسفة لايمكن ان تكون محكمة ما لم تعبر عن نفسها في اشـكال رياضيـة . ولكنه لم يتشبث ابدا بمثله الاعلى . ولكن سبينوزا يشترط ان يكـون العقـل الرياضي المدرب اساسا لجميع الابحاث العلمية المدققة وتأثرا بما وصل اليه كوبرنيك وكبلر وجاليلو . وبهذا تكون النتيجة بالنسبة الى عقولنا الاكثر تساهلا تركيزا مرهقا ومضنيا في كلتا المسألة والشكل . ونميل الى تعزية انفسنا بنبذ هــــذه الفلسفة الهندسية كلعبة شطرنج من الافكار المصطنعة التي نتناول فيها البديهيات والتعاريف والادلة والقضايا ، كما نتناول في لعبة الشطرنج احجار الشاه والفيل والفرس والكلب . وحدة منطقية اخترعها سبينوزا ليتعزى بها عن وحدته .

النظام ضد طبيعة عقولنا ، ونحن نفضل ان نتبع خطوط الاوهام الضالة ، وان نحيك فلسفتنا من احلامنا . ولكن سبينوزا كانت له رغبة ملحة ، لتحويل الفوضى في العالم الى نظام ووحدة . فقد كان به جوع اهل الشمال في البحث عن الحقيقة اكثر من شهوة الجنوب في البحث عن الجمال . والفنان بالنسبة الى سبينوزا مهندس صرف ، يبني نظاما من الافكار لتناسق وشكل تام .

والطالب الحديث يجد نفسه مرة ثانية يتعثر ويتضجر من المصطلحات التي استعملها سبينوزا . فقد اضطر بسبب استخدامه اللاتينية في الكتاب الى وضع افكاره الحديثة في عبارات واصطلاحات المدرسية والقرون الوسطى ، بسبب عدم وجود لغة اخرى للفلسفة يمكن فهمها في ذلك الوقت . لذلك فهو يستعمل كلمة جوهر حيث نضع كلمة حقيقة الى آخر ماهنالك .

وبالاختصار لاتكفي قراءة سبينوزا بل يجب دراسته . وان تدرسه كما تدرس اقليدس . مدركا انه كتب في المئتي صفحة المختصرة افكار حياته بطريقة رواقية لكل شيء لازم وغير لازم . ولا تفكر بانك ستجد لبه وقلبه بقراءة عاجلة . اذ اننا لانجد عملا في تاريخ الفلسفة يتكبد فيه القارىء خسارة بتخطيه سطور قليلة مثل هذا الكتاب ، وكل جزء منه يعتمد على الاجزاء السابقة وقد تتحول بعض القضايا الواضحة والتي تلوح بانها لاحاجة لها الى ان تكون اساسا لتطور منطقي جليل . كما انك لن تفهم اي فصل هام فهما تاما ما لم تكن قد قرأت وتفكرت وامعنت النظر في كل الكتاب .

كما ان سبينوزا نفسه يعرف صعوبة فهم كتابه ، فهو يقول في الجزء الثاني من كتابه « هنا سيرتبك القارىء بلا شك ، وسيتذكر عدة اشياء تنتهي به الى

التوقف ، ولهذا ارجوه ان يتقدم معي برفق والا يحكم على هذه الاشيـاء حتى يقرأ الكتاب كله . لاتقرأ الكتاب كله مرة واحدة ، واقرأ القليل منه في كل مرة ، وبعد ان تنتهي منه ، اعتبر نفسك انك قد بدأت تفهمه ، واقرأبعد ذلك بعض التعليقات كتعليقات بولوك على سبينوزا ، او مارتينيه في دراسـة سبينوزا ، او الافضل قراءة الاثنين معا ، واقرأ الاخلاق مرة ثانية ، وسيبدو كأنه كتاب جديد بالنسبة لك . وعندما تفرغ منه للمرة الثانية ، فانك ستعشق الفلسفة طيلة حياتك ، واليك اهم ما جاء في هذا الكتاب .



١ ـ الطبيعة والله

اننا نجد في اسلوب سبينوزا ثلاث كلمات او اصطلاحات محـــورية ، وهي جوهر ، ويعني بها الحقيقة الاساسية الثابتة وبناء وقوانين العالم وصفة وهي احدى مظاهر الجوهر او الحقيقة الغير متناهية كالاتساع او الفكر ، وعرض وهو شيء معين ، او شكل او حادث او فكرة .

سنترك الـكلمة الثانية وهي صفة جانبا مؤقتا بسبب ببساطتها . اما العرض فهو كما ذكرنا اي شيء او حادث فردي او اي شكل او صورة معينة زائلة ، فانت وجسمك وافـكارك وفصيلتك ونوعك وكواكبك ونجومك جميعها اعراض، جميعها صور واشـكال وهيئات من حقيقة ابدية خالدة ثابتة لاتتغير تقع وراء هذه الاشياء العرضية وتحتها .

ما هي الحقيقة التي تقع تحت هذه الاشياء ؟ ان سبينوزا يسميها جوهر كما تدل عليه اصل هذه الكلمة التي تعني ما يقف تحت ، لقد ساد الخـــلاف حول حقيقة هذه الكلمة ثمانية اجيال . ولذلك يجب ان لاتثبط همتنا اذا اخفقنا في حل هذه القضية في مقطع واحد من كتابنا ، ولكن هناك غلطة واحدة يجب ان نتجنب الوقوع فيها وهي ان كلمة جوهر لايعني بها سبينوزا المادة التي تشكل

الشيء كما نقول عن الخشب مادة الكرسي . اننا لوقارنا الان تقسيمه للعالم الى جوهر وعرض مع تقسيمه له في كتابه اصلاح العقل الى نظام ابدي للقـــوانين وعلاقات ثابتة من جهة ، والنظام المؤقت للاشياء الزائلة من جهـــة اخرى ، فان هذا يسوقنا الى النتيجة ، وهي ان سبينورا يعني بالجوهر هنا تقريبا مـــا قصده بالنظام الابدي هناك .

فلنعتبر ذلك كعنصر واحد في كلمة جوهر ، وبهذا فانه يشير الى بنـــاء الوجود ذاتـــه الكامن تحت كل الاشيـــاء والحوادث ، والذي يشكل لب العالم .

ولكن سبينوزا يمثل الجوهر بالطبيعة والله . وهو يتصور الطبيعة اوالكون ذات مظهرين فهي فعالة حيوية خالقة من جهة ، وهي منفعلة مخلوقة من جهة اخرى . وان هذا الجانب المنفعل هو المادة وما تشتمل عليه الطبيعة منغابات، وهواء وماء وجبال وحقول وعشرات الالوف من الاشياء الخارجية . وهـــذه الطبيعة كلها من انتاج الجانب الفعال وخلقة ، وعندئذ يكـــون في الكون قوه خالقة تخلق الاشياء وهي التي يسميها « جوهر وهي الله » وفيه اشياء مخلوقـــة وهي الاعراض او العالم .

ومن هذا يتضح لنا ان سبينوزا يقسم الكون الى جوهر وعرض ، الىقديم وحادث ، الى الله والعالم المحسوس . اما الجوهر او الله فهو حقيقة لامادة لها ، بخلاف عالم الاشياء . قد يساعـدنا المقطـع الاتي على توضيـح فكرة سبينوزا « اني اتصور الله والطبيعة في صورة تختلف تماما عن الصورة التي يصورها لمسيحيون المتأخرون عادة ، لانني اعتقد ان الله هو الاصل وليس الطارىء ، وان الله هو السبب لجميع الاشياء ، اقول ، ان كل شيء كامن في الله ، وكل شيء

يحيا ويتحرك في الله ، وانني متفق في هذا مع الرسول بولس ، وربما اكون متفقا مع كل واحد من فلاسفة القديم . على الرغم من ان طريقتي تختلف عن طريقتهم ، وقد اجرؤ على القول ان رأيي هو نفس الرأي الذي جاء به العبرانيون في القديم . على كل حال لقد اخطأ فهمي اولئك الذين يقولون ان غرضي هو ان ابين ان الله والطبيعة شيء واحد ، والقائلون بهذا يفهمون من لفظ الطبيعة كتلة معينة من المادة المجسدة ، انني لا اقصد ذلك . »

وهو يكتب مرة ثانية في رسالته عن الدين والدولة «انني اقصد بساعدة الله ، نظام الطبيعة الثابت الذي لا يتغير ، او سلسلة الاحداث الطبيعية » ان قوانين الطبيعة العامة وأوامر الله الخالدة شيء واحد . وان كل الاشياء تنشأ من طبيعة الله اللانهائية كما ينشأ من طبيعة المثلث ان زواياه الثلاث تساوي قائمتين . وان الله بالنسبة الى العالم كقوانين الدوائر بالنسبة الى الدوائر كلها . فالله هو السلسلة السببية ، الكامن وراء كل الاشياء ، وهو قانون تركيب العالم . وهذا الكون المتماسك من الاعراض والاشياء من الله بمثابة الجسر من تصميمه وبنائه ، وتركيبه ، والقوانين الرياضية والميكانيكية التي بني عليها .

فهي جوهر الجسر والقاعدة الاساسية التي بني عليها . والتي بدونها يتداعى وينهار . وان العالم نفسه مدعوم ومسنود ببنائه وقوانينه ، مدعوم بقوة الله كالجسر المدعوم في بنائه وتصميمه بالقوانين الرياضية والميكانيكية التي بني عليها .

ان ارادة الله وقوانين الطبيعة اسمان يطلقان على حقيقة واحدة» . ويتبع ذلك ان كل الاحداث التي تقع في العالم ان هي الا نتيجة آلية لقوانين الطبيعة الثابتة ، وليست نزوة من نزوات حاكم مطلق يجلس في النجوم ، وليست هذه

الآلية قاصرة على المادة والجسم فقط كما ذهب ديكارت ، فان سبينوزا يرى انها تشمل الله والعقل ايضا .

ان العالم جبري ، وليس مقصودا او له غرض . انه عالم مجبر يسير في طريقة لامناص منها او محيص . ولاننا نعمل من اجل غايات واعية مستيقظة فاننا نفترض ان جميع الاتجاهات والحوادث لها مثل هذه الغايات . ولاننا بشر فاننا نفترض ان جميع الحوادث تنتهي الى الانسان . وانها وضعت بطريقة تصلح لحاجاته . ولكن هذا وهم كالكثير من الاوهام في تفكيرنا . ان جذور اعظم الاخطاء في الفلسفة تقع في ابراز اغراضنا البشرية والمقاييس والاشياء التي نفضلها في سير العالم . ومن هنا نشأت مسألة الشر ، فاننا نكافح لنوفق بين شرور الحياة مع خير الله ، ناسين الدرس الذي علمه الله الى ايوب ، ان الله فوق خيرنا وشرنا . وان الخير والشر نسبيان وفي الغالب يعودان الى اذواق البشر وغاياتهم .

وعندما يبدو لنا اي شيء في الطبيعة مضحكا او سخيفا ، غامضا او شراً فذلك لأننا ليست لدينا سوى معرفة قليلة بالاشياء ، واننا جاهلون بنظام الطبيعة وتماسكها ككل واحد ، ولأننا نريد ان تجري الاشياء وفقاً لتفكيرنا وارائنا ، مع ان ما يعتبره عقلنا سيئا او شرا ليس شرا او سيئا بالنسبة الى نظام الطبيعة وقوانينها الشاملة الكلية . بل بالنسبة الى قوانين طبيعتنا الخاصة المنفصلة . اما بالنسبة الى كلمة الخير والشر فانها لاتدل على شيء ايجابي في حد ذاتها .. لأن الشيء الواحد نفسه قد يكون في وقت واحد خيرا او شرا ، او لا هذا ولا ذاك كالموسيقى مثلا فانها خير بالنسبة الى المنقبض النفس ، وشر بالنسبة الى النائح الحزين الذي فقد شخصاً عزيزاً عليه وهي ليست خيرا او شرا بالنسبة الى الميت

ان الخير والشر اعتباران لاتعترف بهما الحقيقة الخالدة . والحق هو ان يصور العالم طبيعة اللانهائي التامة ، لا مُثل الانسان العليا المعينة فقط . وكما ان الخير والشر امران اعتباريان فكذلك القبح والجمال امران اعتباريان ايضا لا يدلان على حقيقة ثابتة « انني لا اعزو الى الطبيعة جمالا او قبحا ولا نظاما او اضطرابا . والاشياء توصف بالجمال او القبح والنظام او عدمه بالنسبة الى مداركنا وتصورنا فقط . فان كانت الحركة التي تستقبلها الاعصاب من الاشياء التي امامنا بواسطة العين باعثة للصحة فانها تسمى جميلة واذا لم تكن كذلك تسمى قبيحة . » وسبينوزا في هذه الفقرات يتجاوز افلاطون الذي اعتقد ان آراءه في الفن والجمال ينبغي ان تكون قوانين الخلق واحكام الله الابدية .

هل الله شخص ؟ وكما ادخل الانسان شخصه في النظر الى الحقيقة الخالدة من حيث الخير والشر والجمال والقبح ، فقد نظر الى الله ايضا من وجهة نظر بشرية محضة . اما سبينوزا فيرفض هذه النظرة رفضا باتا ، وينكر ان يكون الله ، شخصا باي معنى من معاني هذه الكلمة . ويشير الى الاعتقاد الشعبي السائد بين الناس في تصوير الله في صورة المذكر لا في صورة المؤنث ويرفض بشجاعة تصوير الله بصورة المذكر التي تنعكس عن تبعية المرأة للرجل وخضوعها له على هذه الارض . ويجيب سبينوزا على رجل اعترض عليه في تصويره الله بصورة مبهمة غير شخصية بقوله : « عندما تقول انني انكر بان يكون لله بصر وسمع وارادة وما الى ذلك فانك لاتعرف اي نوع من الله إلهي ، واظن انك تعتقد بان لا اله اعظم كالا من الله الذي يتصف بالصفات السابقة ، وهذا لايدعو الى اثارة الدهشة في نفسي . لانني اعتقد ان المثلث لو استطاع ان يتكلم لقال بنفس الطريقة على ان الله مثلثي في اضلاعه ، ولقالت الدائرة ان طبيعة الله دائرية في سموها ، وهكذا يخلع كل شيء صفاته الخاصة على الله . »

واخيرا ، لا العقل ولا الارادة ينطبقان على طبيعة الله بالمعنى العادي الذي تعزى فيه هذه الصفات البشرية الى الله . ولكن ارادة الله هي مجموع الاسباب كلها والقوانين كلها . وعقل الله هو مجموع العقول كلها . ان عقل الله كما يفهمه سبينوزا هو كل القوى العقلية المنتشرة في ارجاء المكان والزمان ، وهو الوعي والادراك المنتشر الذي يبعث الحياة في العالم ، كل الاشياء حية بدرجات ، والحياة والعقل وجه واحد لكل مانعرفه من اشياء كما ان الامتداد المادي او الجسم وجه آخر . وهذان العقل والجسم هما الوجهان او الصفتان اللتان بهما ندرك عمل الجوهر او الله . وبهذا المعنى يمكن ان يقال ان الله وهو الحقيقة الابدية وراء تدفق الاشياء له عقل وجسم . فلا العقل وحده ولا المادة وحدها هي الله ، ولكنه العمليات العقلية والعمليات الذرية التي تشكل تاريخ العالم المزدوج ، هذه واسبابها وقوانينها هي الله .

٢ ـــ المادة والعقل

ما هو العقل ، وما هي المادة ؟ هل العقل مادي ، كما يظن بعض الناس من ذوي الخيال المحدود ، او هل الجسم مجرد فكرة ، كما يفترض بعض الخياليين؟ هل العملية العقلية هي السبب ام النتيجة لعملية الدماغ ، او انهما مستقلان ولا يمت احدهما للآخر ، ويسيران في خطين متوازيين كما ذكر مالبرانش .

ويجيب سبينوزا على هذا التساؤل بقوله ، ان العقل ليس مادة ، ولا المادة فكرا ، وليست عملية الدماغ سببا ، كما انها ليست نتيجـة او اثرا ، وليست هاتان العمليتان مستقلتين ومتوازيتين ، اذ ليس هنـــا عمليتان وليس هنـــا وجودان . بل هناك عملية واحدة نراها من الداخل فكرا ، ومن الخارج حركة هنا وجود واحد نراه من الداخل عقلا ومن الخارج مادة . ولكنه في الحقيقة ليس الا مزيـج مندمج من الاثنين . والعقل والجسم لا يؤثر احدهما بالاخر لانهما ليسا شيئين بل شيئا واحدا ، ولا يستطيـع الجسم ان يحمل العقل على ان يفكر ولا يستطيـع العقل ان يحمل الجسد على أن يبقى في حركة او سكون او يتخذ وضعا آخر . والسبب في ذلك بسيط وهو « ان حكم العقل ورغبة الجسم وميوله شيء واحد بعينه . وكل العالم متحد بنفس هذه الطريقة المزدوجة . فاينما وجدت

ا عملا ماديا فليس ذلك الا جانبا واحدا من العملية الحقيقية ، التي لايراهابوجهيها الا النظر الشامل الذي يمكنه ان يدرك العملية العقلية الباطنة المستترة وراء الظاهرة المادية . والعملية العقلية الداخلية ترتبط في كل مرحلة مع العملية الخارجية المادية . ونظام الافكار وارتباطهما هو نفس نظام الاشياء وارتباطها . وبهذا فان عنصر الفكر وعنصر المادة شيء واحد يبدو مرة فكرا ومرة امتدادا .

وبعد ان ازال سبينوزا الفرق بين الجسم والعقل ، وجعل منها حقيقة ذات وجهين او مظهرين ، نراه يتجه الى تقليل الفرق بين العقل والارادة . ويقول انها حقيقة واحدة ، وكل ما بينهما من فرق فهو فرق في الدرجة لا في النوع . اذ لايوجدفي العقل ملكات ، ولا موجودات منفصلة تسمى عقلا وارادة او خيالا او ذاكرة ، لأن العقل ليس وكالة للبيع تتجر بالافكار . ولكنه هو الافكار نفسها في سيرها وتسلسلها . ولفظة العقل مجرد كلمة مجردة موجزة نطلقها على سلسلة الافكار ، كما نطلق لفظ الارادة على سلسلة الاعمال والمشيئات. ان العقل والارادة مرتبطان مع هذه الفكرة او تلك الفكرة او الرغبة كالصخرية في هذه الصخرة او تلك الصخرة . واخيرا الارادة والعقل شيء واحد بعينه . لأن المشيئة فكرة طال بقاؤها في الشعور ثم تحولت الى عمل، وكل فكرة تصير عملا ما لم تؤخرها فكرة معارضة . فالفكرة نفسها هي المرحلة الاولى لعملية عضوية متحدة يتممها العمل الخارجي .

ويعتقد سبينوزا ان ما يسمى غالبا بالارادة هو في الحقيقة رغبات او غرائز أساسها جميعا حفظ بقاء الفرد ، ان ما يسمى غالبا ارادة ، كالقوة الباعثة التي تقرر استمرار الفكرة في الشعور ينبغي ان يسمى بالرغبة التي هي جوهر الانسان. ان الرغبة عبارة عن شهوة او غريزة نشعر بها ، ولكن الغرائز لاتعمل دائما عن

طريق الرغبة الواعية ، اذ ان وراء الغرائز يكمن المجهود الغامض لحفظ البقاء. وسبينوزا يرى هذا المجهود في حفظ البقاء في جميع البشر تماما كما يرى شوبنهور ونيتشه ارادة الحياة او ارادة القوة في كل مكان، ومن النادر ان يختلف الفلاسفة. فكل نشاط بشري مهما تنوع صادر عن هذه الرغبة في حفظ البقاء .

كل شيء يحاول ان يبقي على وجوده ، وليس هذا المجهود لحفظ بقائه الا جوهر حقيقته ، والقوة التي يستطيع بها الشيء ان يبقى هي قوام وجـــوده وجوهره ، وكل غريزة هي خطة ارتقت بها الطبيعة للمحافظة على بقاء الفرد . والسرور والألم هما ارضاء الغريزة او تعطيلها ، وهما ليسا سببين لرغباتنـــا بل نتيجة لها ، اننا لانرغب في الاشياء لانها تسرنا ، ولكنها تسرنا لاننا نرغب فيها ولا مناص لنا من ذلك .

ويترتب على ذلك ان لايكون للانسان ارادة حرة ، لان ضرورة البقـــاء تقرر الغريزة ، والغريزة تقرر الرغبة ، والرغبة تقرر الفكر والعمل . وقرارات العقل ليست سوى رغبات ، وليس في العقل ارادة مطلقة او حرة ، وهنـــاك سبب يسير العقل في ارادة هذا الشيء او ذاك ، وهذا السبب يسيره سبب آخر ، وهذا يسيره سبب آخر وهكذا الى مالانهاية ، يظن النـــاس انهم احرار لانهم يدركون رغباتهم ومشيئاتهم ، ولكنهم يجهلون الاسباب التي تسوقهم الى ان يرغبوا او يشتهوا ، ويقارن سبينوزا الشعور بالارادة الحرة بحجر رمي الى الفضاء وان هذا الحجر لو وهب شيئا من الشعور لظن اثناء رميه وسيره في الفضاء انه يقرر مسار قذفه ، ويختار المكان والوقت الذي يسقط به على الارض .

وبما ان الاعمال البشرية تعمل وفق قوانين ثابتة كقوانين الهندسة ، لذلك ينبغي علينا دراسة علم النفس في شكل هندسي ، وبطريقة رياضية . وفي هذا يقول سبينوزا « سأكتب عن الكائنات البشرية ، وكأنني اكتب عن الخطوط والسطوح

والاجسام الجامدة » . « وقد حرصت على ان لا اسخر او انـدب او العن او اكره الاعمال البشرية بل افهمها ، ولذلك نظرت الى العواطف . . لا باعتبار كونها رذائل وشروراً في الطبيعة البشرية ولكن بوصفها خواص لازمة لها كتلازم الحرارة والبرودة والعواصف والرعد وما شابهها لطبيعة الجو » . ان هذا العدل وعدم التحيز في البحث اضفى على دراسة سبينوزا للطبيعة البشرية تفوقا قال عنه فرويد العالم السيكولوجي انه « اكمل دراسة قام بها فيلسوف اخلاقي حتى الان . » ولم يجد «تين» طريقة افضل لمدح تحليل بيلي من مقارنته مع سبينوزا ، وكتب يوهانس ميلر في موضوع الغرائز والعواطف ، « بالنسبة الى علاقـات العواطف احداها للاخرى ما عدا حالاتها الوظائفية ، من المستحيل ان نقدم دراسة افضل من الدراسة التي وضعها سبينوزا بتفوق لايبارى .

٣ ـــ العقل والاخلاق

واخيرا تندرج الاخلاق في اشكال ثلاثة فقط ، أي ان هناك ثلاث صور للمثل العليا والحياة الاخلاقية . اولها ما دعا اليه بوذا والمسيح من فضل الرحمة واللين والمحبة التي تدعو الى المساواة بين الناس ، وتدفع الشر بالخير ، وتعتبر الحب هو الفضيلة ، وتميل في السياسة الى الديمقراطية المطلقة . وثانيها ما دعااليه ماكيافيللي ونيتشه من فضائل العنف والرجولة التي تدعو الى عدم المساواة بين الناس ، وتمجد الحرب والفتح والحكم ، وتعتبر القوة هي الفضيلة ، وتعظم الارستقراطية الوراثية في الحكم . وثالثها اخلاق سقراط وافلاطون ،وارسطو التي تنكر امكانية تطبيق النوعين الاولين من الاخلاق تطبيقا شاملا ، وتعتقد ان العقل الناضج المثقف وحده هو الذي يستطيع ان يحكم تبعاً للظروف المختلفة متى يجب ان يسود الحب ومتى ينبغي ان تتحكم القوة ، وبذلك تكون الفضيلة في نظر سقراط وافلاطون وارسطو هي العقل ، ويدعو هؤلاء الفلاسفة الى نظام من الحكم يجمع بين الارستقراطية والديمقراطية في الحكومة .

هذه هي الصور الثلاث للاخلاق المثالية كما يراها بوذا والمسيح وماكيافيللي ونيتشه وسقراط وافلاطون وارسطو . فالفضيلة في الاولى هي الحب

والفضيلة في الثانية هي القوة والفضيلة في الثالثة هي العقل .

ويجيء سبينوزا ويوفق بحركة لاشعورية منه بين هذه الصور الفلسفية المتنافرة المتضاربة ويحبكها في وحدة منسجمة ، ويقدم لنا نظاما اخلاقيا يعد اسمى ما وصل اليه الفكر الحديث .

يبدأ سبينوزا بحثه بأن يجعل السعادة هدفا للاخلاق ويعرف السعـــادة ببساطة بكونها وجود اللذة وانتفاء الالم . ولكن اللذة والالم امران نسبيان وليسا مطلقين ، وليسا حالتين معينتين بل انتقاليين . « ان اللذة هي انتقـــال الانسان من حالة كمال اقل الى حالة اعظم كمالا . » واللذة تأتي هنا من زيادة قوة الانسان . « والالم هو انتقال الانسان من حالة كمال اعظم الى اخرى اقـــل كمالا ، وانا اقول انتقال لأن اللذة ليست كمالا في حد ذاته : فلو ولد انسان كاملا لما شعر بعاطفة اللذة ، ونقيض هذا يزيد الامر وضوحا . » . ان جميع العواطف والمشاعر تحرك وانتقال نحو الكمال والقوة او انتقـــال وهبوط من الكمال والقوة . فالعواطف والمشاعر جميعها انتقال وتحرك الى القوة والكمال او هبوط منها . ويقول سبينوزا « انا افهم من العاطفة اوضاع الجسد التي تزيد فيه او تنقص قوة العمل والتي تساعد او تقيد هذه القوة ، وافهم منها في الوقت ذاته الافكار التي ترافق هذه الاوضاع . » (ان نظرية العواطف هذه تنسب الى جيمس ولانج ولكن سبينوزا وضعها هنا بدقة واحكام اكثر من هذين العالمين النفسانيين ، وتتفق كثيراً مع ما وصل اليه البروفسور كانون) . فالعاطفة او الشعور ليست خيرا او شراً في نفسها ، ولكن بمقدار ماتنقص او تزيد من قوتنا . « وانا اقصد بالفضيلة والقوة نفس الشيء » لأن الفضيلة هي قوة العمل ، فهي نوع من المقدرة ، « وكلما زادت مقدرة الانسان في الاحتفاظ ببقائه والبحث عما ينفعه كلما

زادت فضيلته .» . ولا يطلب سبينوزا من الانسان ان يضحي بنفسه من اجل مصلحة الاخرين ، اذه اكثر لينا وتساهلا من الطبيعة . والانانية عند سبينوزا نتيجة لازمـــة للغريزة العليـــا ، وهي غريزة الاحتفاظ بالنفس . « لايهمل انسان شيئا نافعا له الا اذا كان يرجو خـــيرا اعظم منـه . » وهذا في نظر سبينوزا معقول جـــدا . « فاذا كان العقل لا يطلب شيئـــا يتعارض مع الطبيعة . لذلك يجب على كل انسان ان يحب نفسه ، ويبحث عما يفيده ، ويسعى الى كل شيء يؤدي به في الحقيقة الى حالة اعظم من الكمال . وان كل انسان يجب ان يحاول المحافظة على بقائه كلما استطاع الى ذلك سبيلا». وهكذا فان سبينوزا لايقيم اخلاقه على محبة الآخرين وطبيعة الخير في الانسان كغيره من المصلحين المثاليين، ولا على الانانية وطبيعة الشر في الانسان كالمحافظين الـكلبيين ، ولكنه يقيمها على ما يعتبرها انانية لامفر منها ولها ما يبررها . ان نظام الاخلاق الذي يدعو الناس الى الضعف ويعلم الانسان ان يكون ضعيفا هو نظام لا قيمة له وغـــير جدير بالاهتمام . ان اساس الفضيلة ليس الا مجهود الانسان في الاحتفاظ ببقائه ، وسعادة الانسان تتألف من قوة الانسان على حماية وجوده .

وسبينوزا مثل نيتشه لايؤمن بالتواضع ، والتواضع في نظره نفاق وتملق من جانب من له غرض ، او خجل ووجل ومن صفات العبيد . ويدل على الضعف والعجز بينما جميـــع الفضائل في نظر سبينوزا متفرعة عن القوة والمقـــدرة ؛ ويترتب على هذا ان يكون لوم الضمير او الندامة نقصا وليس فضيلة ، والندم والتأسف يضاعف من شقاء الانسان ويزيد في ضعفه ، ولكن سبينوزا لايسرف في تضييع الوقت في القدح والذم في التواضع مثل نيتشه الفيلسوف الالماني ،

لأن التواضع امر نادر بين الناس ، وكما قال شيشرون اعظم خطباء الرومان وفلاسفتهم ، وحتى الفلاسفة الذين يضعون الكتب في مدح التواضع يحرصون على وضع اسمائهم على غلاف الكتاب رغبة منهم في اظهار اسمائهم والدعاية لانفسهم . وكما يكره سبينوزا التواضع نجده يكبر ويقدر الاعتدال ،ويعترض على الفخار أو الكبر ان لم يكن مقرونا بالعمل . ان الكبرياء او الخيلاء تثير الاذى والضرر ، وتبعث القلق والازعاج بين الناس . والانسان المتكبر يتحدث عن اعماله العظيمة وينسب اعمال الشر الى الآخرين ، ويبتهج في مجلس الناس الذين دونه في المرتبة والمنزلة ، الذين يسبحون بكماله ويطرون اعماله ، ويستغلونه الى ان يصبح ضحية الذين يمجدونه ويحرقون بخور المدح والثناء بين يديه اكثر من غيرهم . اذ ليس بين الناس من يؤخذ بالتملق والمداهنة والاطراء اكثر من الشخص المتكبر الفخور .

حتى هذا الحد نجد فيلسوفنا اللطيف يعرض علينا اخلاقا اسبارطية ، او بعبارة اوضح نوعا من الاخلاق كانت تسير عليها اسباطة . ولكنه يخفف من نغمته هذه في مقاطع اخرى ، فهو يبدي دهشته من كثرة الحسدوالحقدوالبغض وتحقير الناس بعضهم لبعض وتصغيرهم لبعض ، ولا يرى علاجا لامراضنا الاجتماعية الا بالتخلص من هذه النزعات والمشاعر السيئة وامثالها . وهو يعتقد ان التخلص من هذه النزعات الخبيثة امر سهل وميسور . فالبغض مثلا يمكن التغلب عليه بالحب اكثر من تبادل البغض بالبغض . لان البغض يشتمل بسبب تبادل الشعور فيه . اما الذي يحس في نفسه بانه محبوب من الشخص الذي يبغضه فانه يصبح فريسة للعواطف المتضاربة ، عواطف الحب والبغض وبما ان الحب (كما يعتقد سبينوزا بتفاؤل كبير) ينزع الى توليد الحب لذلك فان بغضة يذوب ويفقد قوته . ان البغض اعتراف منا بنقصنا وخوفنا ، اننا لا نبغض عدوا نثق

باننا في وسعنا التغلب عليه ، ان ذلك الذي يريد أن ينتقم من شخص اصابه منه الاذى بصب بغضه عليه سيعيش في شقاء ، وتصبح حياته لا تطاق . اما الذي يحاول ان يدفع البغض بالحب ، فانه يكافح من اجل هذه الغاية بسعادة ولذة وثقة ، وفي وسعه ان يقاوم بالتساوي رجلا او عدة رجال ، ومن النادر ان يحتاج الى مساعدة ، واولئك الذين يتغلب عليهم يستسلمون له عن طيب خاطر وسرور . ان التغلب على العقول لا يأتي عن طريق السلاح والعنف ولكن عن طريق الحب وعظمة النفس « ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . »

ولكن على الرغم من هذه النزعة المسيحية نحو الحب ، فإن اخلاق سبينوزا اخلاق يونانية في جوهرها اكثر منها مسيحية ، لانه « يعتبر محاولة الفهم الاساس الاول والاوحد للفضيلة . » وهو بهذا يتفق مع سقراط تماما الذي ذهب الى ان الفضيلة هي المعرفة . اننا تتقاذفنا الاسباب الخارجية من كل ناحية ، ونتحرك كامواج تدفعها رياح معاكسة لا نعرف شيئا عن مصيرنا . والانسان اذا تحكمت به العواطف لا يرى الا جانبا واحدا من الموقف . وبالفكر وحده يستطيع الانسان ان يرى موقفه من جميع نواحيه . ان العاطفة فكرة ناقصة . والعواطف الغريزية عظيمة كقوة دافعة ولكنها خطيرة كمرشد لنا ، لان كل واحدة من الغرائز تبحث عن اشباع رغباتها ، غير مهتمة بمصلحة الشخصية كلها . اي دمار نزل بالناس بسبب الافراط في الطمع وحب الخصام او الشهوات حتى غدوا عبيد غرائزهم التي تسيطر عليهم . ان العواطف التي تهاجمنا كل يوم مرتبطة بجزء من الجسد الذي يتأثر بها اكثر من بقية الاجزاء ، والعواطف متطرفة وتمنع العقل من التفكير الا في موضوع واحد ،

ولا يعود يقوى على التفكير في الاشياء الاخرى . ولكن الرغبات التي تنبعث من اللذة او الالم التي لها ارتباط مع جزء او اجزاء معينة من الجسم لافائدة للانسان منها بالمرة .

ان هذا كله طبعا هو التمييز الفلسفي القديم بين العقل والعاطفة ، ولكن سبينوزا يضيف على ما جاء به سقراط والرواقيون ناحية هامة . فهو يعرف بان العاطفة تكون عمياء اذا تجردت عن العقل وان العقل يكون ميتا اذا تجرد عن العاطفة ، وان العاطفة لاتكبح او تكبت الا بعاطفة معاكسة لها اقوى منها فبدلا من عقم معارضة العقل للعواطف ومحاولة كبتها والسيطرة عليها وهو نزاع ينتهي بانتصار العواطف الاكثر رسوخا وتأصلا وقدما . يرى سبينوزا ان تحارب العواطف الهوجاء التي لاتقوم على العقل بالعواطف التي يسندها العقل . وبذلك يتعاون العقل والعواطف على الوصول الى الهدف المطلوب . ويقول سبينوزا ان الفكرة يجب ان لاتنقصها حرارة الرغبة ، كما ان الرغبة يجب ان لاينقصها ضوء الفكرة . لان العاطفة لا تظل عاطفة اذا ما تكونت في الذهن عنها فكرة واضحة جلية . وبعبارة اوضح كلما استطاع العقل ان يحول ما فيه من عواطف الى افكار كلما صار اقوى وابعد عن ان تؤثر عليه العواطف الجامحة . وشهوة الانسان ان كان مصدرها الذي تولدت عنه فكرة مبهمة ناقصة عدت عاطفة ، اما اذا نشأت عن فكرة مضبوطة واضحة كانت فضيلة محمودة . فكل ما يعمله الانسان ويكون مبنيا على اساس من العقل والتفكير ، لا على المشاعر والعواطف فهو عمل فاضل واذن لا فضيلة في رأي سبينوزا الا بالعقل . ان جميع الشهوات تكون عواطف فقط ما دامت تقوم على افكار غير سديدة او مناسبة ، وتتحول هذه العواطف الى فضائل عندماتتولد عن افكار سديدة .

ان اخلاق سبينوزا تسير مع فكرته فيما وراء الطبيعة . فكما ان العقل في الميتافيزيقا يحاول ان يدرك القانون الكامن وراء الاشياء الجزئية التي تقع تحت الحس ، فهو يقرر هنا ان العقل يجب ان يضع قانونا ينتظم رغبات الانسان المتنافرة . وبعدئذ يستطيع الانسان ان يسلك سلوكا يتفق مع ما يمليه العقل الذي يعيننا على ان ننظر الى المواقف المختلفة نظرة واسعة شاملة تنفذ بمساعدة الخيال الى ابعد النتائج . فبالعقل والخيال معا يستطيع الانسان ان يتنبأ بما عساه يحدث ، وبهذا يستطيع ان يتحكم في مستقبله وان يحرر نفسه من الكثير من القيود .

بهذا وحده يكفل الانسان حريته ، اذ الحرية الحقة هي سيطرة العقل وفاعليته وهي التخلص من اغلال العواطف العمياء التي لاتسترشد بهدى العقل . ولن يكون الانسان حرا الا بقدر ما هو عالم عاقل . ولكي تكون انسانا كاملا لاينبغي ان تتحرر من قيود المجتمع ونظامه ، لان سمو الانسان هو في التحرر من فردية الغرائز وتحكمها ، وبهذا وحده يكمل الانسان الحكيم . ان الانسان الحكيم في نظر سبينوزا يختلف في شخصيته عن شخصية البطل الأرستقراطي الذي تحدث عنه ارسطو . وهو اقل من الانسان الاعلى المثالي الذي تحدث عنه نيتشه ، ولكنه اكثر الفة وهدوءا واتزانا عقليا .

ان الرجال الحكماء في نظر سبينوزا هم رجال صالحون بفضل عقولهم ، رجال يسترشدون العقل في البحث عما ينفعهم ويحبون لانفسهم ما يحبونه لغيرهم . وكونك عظيما لا يعني انك فوق الانسانية وتتحكم بالاخرين ، بل يعني ان تقف فوق الشهوات وان تحكم نفسك بنفسك . ان

حكم الانسان لنفسه هو اعظم ما يطلبه من حرية . وهي حرية انبل من التي يسميها الناس بالارادة الحرة ، لان الارادة ليست حرة ، وقد لا يكون هناك ارادة ، وهذا لا يعني ان يفترض الانسان لانه ليست له ارادة حرة انه ليس مسئولا عن سلوكه واعماله وبناء حياته من الناحية الاخلاقية .

ان عقيدتنا بالجبر تصلح من حياتنا الاخلاقية وتعلمنا ان لا نكره او نسخر من احد او نغضب من احد ، وان الناس في الواقع براء مما يقترفون من آثام ، وان تأخذنا الرحمة في معاقبة الاشرار لانهم لايعلمون ما يفعلون .

كما ان الجبرية تقوينا على احتمال متاعب الحياة وارزائها . لاننا نتذكر ان جميع الاشياء تسير وفقا لقوانين الله الابدية . وربما تعلمنا محبة الله العقلية . وان نتقبل قوانين الطبيعه بسرور . ان الانسان الذي يرى الاشياء تسير وفقا لقوانين الله لن يستاء او يتذمر ، مع انه قد يقاوم ، لانه يرى الاشياء تسير تحت نظام ابدي معين ،وبذلك يرتفع الانسان من لذات العواطف المتقلبة الى صفاء الفكر والتأمل السامي الذي يري جميع الاشياء اجزاء من نظام وتطور ابدي خالد . ويتعلم الابتسام في وجه الامور الحتمية التي لامفر منها ولا مناص من وقوعها . ويتعلم الدرس القديم بان الله ليس شخصية متقلبة الاهواء منهمكا في شؤون المتعبدين له وامورهم الخاصة . ولكنه الثابت المدبر لنظام الكون . لقد ذكر افلاطون نفس هذه النظرية بكلمات جميلة حيث قال ان الذي يركز فكره وعقله على حقيقة الكون والوجود . لن يكون لديه وقت لينظر الى شؤون الناس التافهة او تأخذه الغيرة او يستبد به العداء في الصراع معهم . لان عينيه دائما متجهة الى المبادىء الثابتة المستقرة . وفي هذا يقول

نيتشه « ان ما هو ضروري لايضرني لأن حب القدر نواة طبيعتي » . ان هذه الفلسفة الجبرية تعلمنا ان لا نفكر كثيرا بالموت ، لأن الانسان الحر لا يفكر في شيء اقل من تفكيره في الموت . وحكمته التأمل في الحياة لا في الموت . كما انها تخفف من انانيتنا وحبا لذاتنا وقد تؤدي بنـــا الى الاستسلام والتواكل والاستكانة المعروفة عن اهالي الشرق . ولكنها اساس لا بد منه للحكمة والقوة .

٤ ـــ الدين والخلود

لقد دعا سبينوزا في فلسفته حتى الى حب العالم الذي عاش فيه منبوذا ووحيدا . لقد خفف عنه بعض الوقت اعتقاده بأن العالم يسيره قانون ثابت مبهم . ولكن روحه الدينية حولت هذا العالم الى شيء محبوب جداً . فقد حاول ان يدمج رغباته الخاصة مع النظام الشامل للاشياء ، ويصبح جزءاً لاينفصل عن الطبيعة . وهو يقول « ان اعظم الخير هو معرفة الاتحاد بين العقل والطبيعة كلها . » والحقيقة ان انفصالنا الفردي مجرد وهم ، اننا اجزاء من مجرى القانون والسبب العظيم . اجزاء من الله ، اننا اشكال من وجود اعظم من انفسنا . وهو باق لاينتهي بينما نحن فانون . ان اجسامنا خلايا في جسم الجنس ، وجنسنا طارىء عرضي في رواية الحياة ، وعقولنا اضواء متقطعة من ضوء ابدي . ولان الانسان جزء من الكل فهو خالد لان العقل الانساني لايفنى كله مع الجسم الانساني ، اذ ان جزءا من العقل الانساني سيبقى وهذا الجزء الخالد هو الذي يدرك الاشياء . وكلما ادركنا الاشياء اكثر كلما كانت افكارنا ابدية اكثر . وهنا يبدو سبينوزا اكثر غموضا من العادة . وعلى الرغم من نزاع لاينتهي بين المفسرين والشارحين له فان لغته لاتزال تتحدث بطريقة مختلفة ، الى عقول مختلفة .

وهنا يختلف المفسرون في تفسير ما يقصده سبينوزا من معنى الخلود ، فيذهب بعضهم الى انه يريد به الشهرة او الذكر ، حيث يبقى اجمل ما في تفكيرنا وحياتنا اثراً خالداً على مر السنين . وبعضهم يرى ان سبينوزا عندما يتكلم عن الخلود انما يعني خلوداً فردياً شخصياً . ومع ذلك فهو يفرق بين الابدية والبقاء فيقول « اننا اذا وجهنا اهتمامنا الى الرأي السائد في الناس نجدهم يدركون ابدية عقولهم ، ولكنهم يخلطون بين الابدية والبقاء ، وينسبونها الى الخيال او الذاكرة التي يعتقدون ببقائها بعد الموت . » . ولكنه مثل ارسطو على الرغم من انه يتحدث عن الخلود فانه ينكر بقاء الذاكرة الشخصية . « ان العقل لايقدر على التصور او التذكر الا اذا كان في الجسم . » وهو لايعتقد بالثواب والعقاب في الآخرة فهو يقول « ان الذين ينظرون الى الفضيلة على اساس كونها اذلال النفس ويتوقعون ان يجزيهم الله على قدر اذلال نفوسهم ، ويعتقدون بزيادة ثوابهم كلما ازدادوا اذلالا واستعبادا لنفوسهم ، لأبعد ما يكونون عن فهم الفضيلة فهما صحيحاً . لأن الفضيلة وعبادة الله هي السعادة نفسها والحرية الكبرى . » ليس النعيم ثواب الفضيلة ، ولكن الفضيلة نفسها هي النعيم والسعادة .

وبهذا ينتهي كتاب الاخلاق . ومن النادر ان نجد كتابا حوى مثل هذا التفكير الغزير ، واثار مثل هذه التعليقات الكثيرة ، كما انه لايزال ميدان معركة ضارية لتفسيرات مختلفة . وقد يكون ما ورد فيه من ميتافيزيقا خطأ ، وما ذكر فيه من نواح سيكولوجية ناقصا ، وما جاء فيه من لاهوت غامضاً ، ولكن لايسع الانسان الا ان يقف موقف الاحترام والتقدير امام جوهر الكتاب وعمقه وروحه . وفي المقطع الاخير من هذا الكتاب تشع علينا روح سبينوزا في بلاغة سهلة لاتكلف فيها .

« وهكذا فقد اكملت كل ما ارادت ان اظهره حول سلطان العقل على العواطف . او حرية العقل الذي يبدو واضحا في تقدم الانسان العاقل وتفوقه على الجاهل الذي تسوقه الشهوة فقط كما ان الجاهل لايتمتع اطلاقا براحة العقل وقناعته الحقيقية ولو مرة واحدة . ويعيش لايعرف نفسه والله والاشياء . اما العاقل فلا تحركه نفسه الا قليلا ، ويعرف وجوده والله والاشياء . ويتمتع براحة العقل ورضاه دائما . ومن الممكن اكتشاف الطريق الذي يؤدي الى ما اوضحته على الرغم من صعوبته . ومن الواضح ان يكون صعبا لندرة وجوده، اذ ان جميع الاشياء العظيمة الممتازة تكون صعبة ونادرة . »



٥ ـــ الرسالة السياسية

لم يبق امامنا الان سوى الرسالة السياسية التي كتبها سبينوزا في اعوام نضجه الاخيرة . ولكن الموت اختطفه بغتة قبل ان يتم كتابتها . ولكنها جاءت مليئة بالافكار على الرغم من قصرها . ولا يسع الانسان الا ان يشعر بالخسارة الجسيمة بانتهاء حياة هذا الفيلسوف في البرهة التي بلغ فيهـــا اوج نضوجه الفكري . لقد وضع سبينوزا الذي كان صديقا الى ديويت الجمهوري فلسفة سياسية عبرت عن آمال الاحرار والديمقراطيين في هولنـــدا في ذلك الوقت . واصبحت احدى المنابـع الاساسية لجدول الافـكار التي بلغت اوجها في روسو والثورة الفرنسية . لقد وضع سبينوزا فلسفته السياسية التي يؤيد فيها الديمقراطية في نفس العصر الذي كان فيه « هوبز » يمجد الملكية المطلقـــة في انجلترا ، ويستنكر ثورة الشعب الانجليزي على مليكه بنفس الشدة التي كان ملتون يدافع فيها عن هذا الشعب .

يعتقد سبينوزا بان الفلسفة السياسية تنبع من التمييز بين النظام الطبيعي والاخلاقي او بعبارة اوضح بين حياة الانسان البدائية قبل تنظيم المجتمعات ، وبين حياته بعد تنظيم المجتمعات . وهو يرى بأن الناس كانوا يعيشون قبل نشأة

المجتمع في فوضى بغير قانون او تنظيم اجتماعي . ولم يكن لديهم مفهوم عن الصواب والخطأ او العدل والظلم ، وكانت القوة عندهم هي الحق .

ولم يكن في هذه الحالة الطبيعية التي كان يعيش فيها الانسان قبل تنظيم المجتمع شيئا يسمى خيرا او شرا . لأن كل انسان في هذه الحالة الطبيعية لاينظر الا" الى مصلحته فقط . ولا يعتبر نفسه مسؤولا امام احد خلا نفسه . وليس لاحد سلطة قانونية عليه ، لذلك من المستحيل ادراك معني الفضيلة في هذه الحالة الطبيعية ، لأن معنى الفضيلة لايمكن ادراكه او تصوره الا في الحياة المدنية حيث يتقرر بالموافقة العامة واجماع الاراء ما هو الخير وما هو الشر . ويصبح كل واحد مسؤولا امام الدولة .

ان قانون الطبيعة وشريعتها لايقيد رغبات الانسان ولا يعارض الصراع بين الناس ، ولا يمنع الخيانة والبغض والغضب او اي شيء تشتهيه النفس .

ونستطيع ان نلمس قانون الطبيعه هذا ، او بعبارة اوضح قانون الغاب او انعدام القانون اطلاقا في سلوك الدول بعضها مع بعض . اذ لاوجود لمحبة الغير بين هذه الدول ، لأن القانون والاخلاق لاتوجد الا في ظل نظام متفق عليه ، وهذا يعني وجود سلطة مشتركة معترف بها .

ان حقوق الدول الان هي حقوق الافراد سابقا ، والقوة والحق شيء واحد بالنسبة لها . وكل دولة من هذه الدول تسعى لمنفعتها بغض النظر عما اذا كان هذا حقاً لها او يتضارب مع مصالح غيرها . واذا استطاعت الدولة ان تظفر باقليم او بلد كان حقا لها . وما ذكرناه عن الدول يسرى على فصائل الحيوان التي لايجمعها نظام او يقيدها قانون . والقوي منهـا يأكل الضعيف

ويفعل به ما يريد .

ولكن حاجة الناس بعضهم لبعض استدعت تبادل المساعدة فيما بينهم . وهذا ادى الى استبدال الحالة الطبيعية التي كانت السيادة فيها للقوة ، الى حياة المجتمع المنظم الذي يسود فيه القانون والحقوق . لأن حياة العزلة بعيدا عن المجتمع تثير في الناس الخوف ، كما ان الانسان الذي يعيش في عزلة ليست لديه القوة الكافية للدفاع عن نفسه وتأمين ضروريات معيشته . وهـذا ادى الى اتجاه الانسان الى اقامة مجتمع منظم ليحمي نفسه ضد الاخطار التي يتعرض لها لأن قوة الفرد وحده لاتكفي لمواجهة هذه الاخطار . ولا بد للناس من اقامة مجتمع وتبادل المساعدات فيما بينهم . ان الناس ليسوا مهيئين بطبعهم لاحتمال النظام الاجتماعي ، ولكن الخطر هو الذي ولد فيهم الاجتماع . والاجتماع يقوي الغرائز الاجتماعية . ان الناس لم يولدوا مواطنين اجتماعيين ويجب تدريبهم واعدادهم على ذلك .

ان النزعة الفردية تسود معظم الناس . وهي متأصلة في قلوبهم . وفي نفوسهم ثورة على القانون والعرف والتقاليد . والغرائز الاجتماعية اضعف من الغرائز الفردية ومتأخرة عنها . وتحتاج الى تقويتها وتعزيزها . والانسان ليس خيّرا وصالحا بطبيعته (كما اعتقد روسو) . اننا نحب من يشبهنا في شكلنا ، ونشعر بالعطف والشفقة لاعلى من نحبه فقط ولكن على من يشبهنا ايضا . ومن هنا ينشأ تقليد العواطف واخيرا تنشأ درجة من الضمير . ان الضمير على كل حال ليس فطريا ولكنه مكتسب ، ويختلف باختلاف الارض والمكان : وهو وديعة في عقل الفرد النامي . وبالضمير يخلق المجتمع لنفسه حليفا وصديقا ضد روح الانانية الفردية الطبيعية عدوة كل مجتمع .

واخذ الانسان تدريجيا يتنازل عن قوته وسيادته الفردية التي كانت

لديه في حياته البدائية الطبيعية الى سلطة — الجماعة القانونية في المجتمع المنظم . لازالت القوة هي الحق ، ولكن قوة الجماعة كلماحددت من قوة الفرد ، بان يتفق استخدامه لقوته مع حرية الاخرين من افراد المجتمع . لقد تنازل الفرد عن جزء من قوته وسيادته الطبيعية الى الجماعة المنظمة مقابل توسيع مدى ما تبقى له من القوة والسيادة . فقد تخلينا مثلا عن حق العنف والغضب لتأمين انفسنا من خطر اعمال العنف من جانب الاخرين . او بعبارة اوضح فقد تنازلنا عن اعمال العنف مقابل تنازل الآخرين عن اعمال العنف . ان القانون ضروري لأن الناس تسيطر عليهم العواطف والاهواء . ولو كان الناس جميعا مسوقين بالعقل لما كان المجتمع في حاجة الى القوانين . والقانون الكامل بالنسبة الى الافراد بمثابة العقل الكامل من العواطف . وستكون مهمة القانون تنسيق القوى المتنازعة في المجتمع لتجنيبه الدمار وزيادة سلطة الجماعة . وكما ذهب سبينوزا في الميتافيزيقا » الى ان العقل هو البصيرة المدركة للنظام بين الاشياء وكما ذهب في « الاخلاق » الى ان العقل اقامة النظام بين الرغبات ، فهو ايضا في السياسة اقامة النظام بين الناس . فالدولة الكاملة ينبغي ان لاتحد من قوة مواطنيها الا اذا ادت هذه القوة الى الحاق الضرر والاذى بافراد المجتمع . وينبغي على الدولة ان لاتنزع حرية من مواطنيها الا اذا اضافت في مكانها حرية اوسع منها .

ليست الغاية الاخيرة من الدولة التسلط على الناس او كبحهم بالخوف ، ولكن الغاية منها ان تحرر كل انسان من الخوف كي يعيش ويعمل في جو تام من الطمأنينة والامن . ويعيش في وئام مع جيرانه فلا يضرهم ولا يضرونه .

اني اكرر القول بان الغاية من الدولة ليست تحويل الناس الى وحوش

كاسرة والآت صماء ، ولكن الغاية منها تمكين اجسامهم وعقولهم من العمل في امن واطمئنان . وان ترشدهم الى حياة تسودها حرية الفكر والعقـــل . كيلا يبددوا قواهم في الكراهية والغضب والغدر ، ولا يظلم بعضهم بعضا . وهكذا فان غاية الدولة هي الحرية في الحقيقة .

ان هدف الدولة هو الحرية ، لأن عمل الدولة هو ترقية النمو والتطور ، والنمو يتوقف على المقدرة وتوفر الحرية . ولكن ماذا يفعل الناس لو كبتت القوانين النمو وخنقت الحرية ؟ وماذا يفعل الناس لو اتجهت الدولة الى ايثـــار مصلحة الطبقة الحاكمة والتسلط على الشعب واستغلاله ، وسعى الحكام الى الاستئثار بالمناصب والكراسي وعدم افساح المجال لغيرهم للوصول الى الحكم ؟ ويجيب سبينوزا على هذه الأسئلة بوجوب اطاعة القوانين حتى ولو كانت جائرة وظالمة ما دامت الحكومة لاتمنع الناس من حرية الكلام والاحتجاج للوصول الى تغيير الاوضاع بالوسائل السلمية . اذ ان حرية الكلام والاحتجاج والنقد ستؤدي في النهاية الى تغيير الاوضاع الفاسدة بالوسائل السلمية . يعترف سبينوزا ببعض المساوىء الناجمة عن مثل هذه الحرية ، ولكنه يقول لايمكننا تجنب المساوىء في حل قضية من القضايا مهما اوتينا من حكمة ، والناس غير معصومين عـــن الاخطاء . ان القوانين التي تقيد حرية الكلام والفكر والنقد تهدم جميع القوانين في الدولة . لان الناس لن يلبثوا زمنا طويلا على احترامهم للقوانين التي لايجوز لهم نقدها .

وكلما زادت الحكومة في مكافحة حرية الكلام وخنقها ، كلما زاد الشعب عنادا في مقاومتها . لن يتصدى لمقاومة هذه القوانين اصحـــاب الشره والطمع من رجال المال ، بل اولئك الذين تدفعهم ثقافتهم واخلاقهم وفضائلهم الى اعتناق الحرية . فقد جبل الناس بوجه عام على الا يطيقوا كبت آرائهم التي

يعتقدون بانها حق والا" يصبروا على محاربتها واعتبارها جرائم ضد القانون. وعندئذ لايعتبر الناس ان مقت القوانين والامساك عن مقاومة الحكومة عار وخزي بل شرف عظيم .

وينتهي سبينوزا كأي مواطن امريكي دستوري صالح بقـــوله « لو جعلنا الاعمال وحدها اساس المقاضاة والمرافعة وتدخل القانون ، واطلقنا الحرية للكلام والنقد ، لكنا بذلك قد جردنا الثورة من جميـع مبرراتها ومسوغاتها . »
فكلما قلت رقابة الدولة على العقل ، ازداد المواطن والدولة صلاحا .
وبينا نجد سبينوزا يعترف بضرورة الحاجة الى الدولة فهو لايثق بها . ويعرف ان الحـكم مفسدة ويفسد حتى الصالحين . ولا ينظر بعين الرضى الى امتداد سلطة الدولة من اجسام الناس واعمالهم الى نفوسهم وافكارهم . لان هذا يؤدي الى توقف نمو الجماعة وموتها . وهكذا فهو يعارض سيطرة الدولة على التعلـــيم . وخصوصا في الجامعات . ان المؤسسات العلمية العامة التي تنفق عليها الحكومة لاتستهدف تنمية امكانيات الناس الطبيعية بل تقييدها . اذ ان العلوم والفنون تزدهر اكثر في المعاهد العلمية الحرة اذا سمح لكل انسان بالتعلم على مسؤوليته ومجازفته . كيف السبيل الى ايجاد وسيلة وسط بين الجامعات الحكوميـــة والجامعات الخاصة ، وهي مشكلة لم يقدر سبينوزا على حلها . لقد كان يستهدف عـلى مـا يـلوح نوعاً من التعلـيم العالي مماثلا لذلك التعلـيم الذي ازدهر في اليونان ، وهو لايقوم على المعاهد بل على الافراد ، كالمعلمين السفسطائيين الذين كانوا يتجولون من مدينة الى اخرى . وكان تعليمهم مستقلا وبعيدا عن السيطرة العامة او الخاصة .

اذا نال الناس هذه الحرية . فلن يضيرهم اي نوع من انواع الحكومة تتولى امورهم ، سواء اكانت ديمقراطية او ارستقراطية او ملكية او غيرها .

وهنا سبينوزا يميل الى تفضيل الحكومة الديمقراطية . اي نوع من انواع الحكومة يفي بالغرض ما دام يستهدف تربية الفرد وتوجيهه الى تفضيل حق الجماعة العام على مصلحته الخاصة وهذه هي مهمة المشرعين وواضعي القوانين ويصف سبينوزا الحكومة الملكية بكونها قادرة ولكنها مستبدة وظالمة وعسكرية . وهو يعارض وضع السلطة في يد رجل واحد فيقول :

يظن الناس ان وضع السلطة كلها في رجل واحد يؤدي الى السلام وتوطيد الامن وتوحيد الصفوف في الدولة . اذ لانجد دولة بين الدول لبثت امدا طويلا ولم تتعرض لحوادث وتغييرات هامة تعكر صفو السلام والامن فيها كدولة الاتراك التي يحكمها رجل واحد . ومن جهة اخرى لانجد بين الدول اقصر اجلا واقل عمرا واكثر عصيانا وتمردا من الدول الشعبية او الديمقراطية . ولكن اذا كانت العبودية والوحشية والخضوع تدعى سلاما فليس اتعس للناس من هذا السلام . ولا شك ان النزاع بين الاباء والابناء اشد واكثر من النزاع بين السادة والعبيد . ومع ذلك فليس في صالح الاسرة ان يتحول حق الاب في ادارتها وتوجيهها الى امتلاكها ومعاملة اولاده معاملة العبيد . ومن هذا يتضح لنا ان وضع السلطة كلها في يد رجل واحد يؤدي الى العبودية لا الى السلام .

ويضيف سبينوزا الى ما تقدم كلمة عن الدبلوماسية السرية .

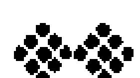
يتشدق الذين يتعطشون الى السلطة المطلقة بقولهم ان مصلحة الدولة تقتضي تسيير شؤونها في جو من السرية والتكتم الشديد حرصا على سلامتها ، ومنعا من تسرب اخبارها الى العدو وهذا التكتم يستحيل ايجاده في دولة ديمقراطية تطلع الشعب على سياستها . ولكن مثل هذه الأقوال التي تحاول اخفاء نواياها وراء ستار مصلحة الشعب لن تؤدي الا الى زيادة استعباده . كما ان معرفة العدو لاخبار الدولة خير من اخفاء اسرار الحكام الطغاة عن الشعب

ان هؤلاء الذين يتصرفون في شؤون الشعب بالسر ، يخضعون هذا الشعب اطلاقاً لسيطرتهم ؟ وكما يتآمرون على العدو في زمن الحرب ، سيتآمرون ايضا على مواطنيهم في زمن السلم .

فالديمقراطية افضل انواع الحكومة . لان سلطان الحكومة الديمقراطية يمتد الى اعمال الناس لا الى عقولهم وتفكيرهم وبما ان الناس يختلفون في تفكيرهم ، فان صوت الاكثرية هو القانون . اما النظام العسكري لهذه الدولة الديمقراطية فيجب ان يقوم على اساس الخدمة العسكرية العامة . وقاعدتها المالية الضريبة المنفردة . ان عيب الديمقراطية هو في ميلها الى وضع طبقة العامة في السلطة ، والطريقة الوحيدة لتجنب هذا العجز في الديمقراطية ، هو حصر المناصب في الدولة في اصحاب الكفاءات والمؤهلات والخبرة والبراعة . لان الحكمة ليست في كثرة الناس . وقد ينتخب الشعب اكثر الناس بلاهة وبلادة ويضعهم في اعظم مناصب الدولة ، لا لشيء الا لمقدرتهم على تملق الشعب ومداهنته . كما ان الجماهير متقلبة في ميولها واهوائها ، وهذا التقلب في طبيعة الجماهير يدفع اصحاب الخبرة والمواهب الى اليأس . لان الجماهير تسوقها العواطف وتحكمها الاهواء لا العقل . وهكذا تصبح الحكومات الديمقراطية في يد المشعوذين والدجالين والمنافقين الذين يسايرون اهواء الشعب ، وهذا يؤدي الى اشمئزاز اصحاب المواهب والقدر والذكاء والابتعاد عن ترشيح انفسهم في انتخابات تضعهم تحت حكم من هم اقل منهم مقدرة وخبرة وذكاء . وسيثور اصحاب المواهب والمقدرة ضد هذا النظام ان عاجلا او آجلا على الرغم من كونهم اقلية . « وهنا على ما اعتقد تتحول الديمقراطية الى ارستقراطية ثم تنقلب الارستقراطية الى ملكية في آخر الامر . . . » ويفضل الناس في النهاية حكم الطاغية على الفوضى . ان مساواة الناس في السلطة امر متعذر التحقيق وينقصه

الاستقرار . لان الناس غير متساوين بطبيعتهم . وذلك الذي يبحث عن المساواة بين غير المتساوين يبحث عن المستحيل . وينبغي على الديمقراطية ان تحل هذه المشكلة الخطيرة التي تواجهها ، وذلك بحصر حق الترشيح في الانتخابات في اصحاب المواهب والمقدرة والعلم والخبرة ، واشتراك الناخبين في انتخاب من يريدون من بين هؤلاء ، وبذلك نكون قد اغلقنا باب المناصب الكبيرة في الدولة امام الدجالين والمنافقين والجهلاء والاغنياء وغيرهم .

من يدري اي ضوء من العبقرية كان سيلقيه سبينوزا على مشـــاكل السياسة الحديثة لو طالت حياته وفرغ من كتابة هذه الرسالة السياسية؟ وحتى هذه الرسالة السياسية التي وصلت لايدينا لم تكن سوى المسودة الاولى لافكاره قد اختطفه الموت عندمـــا كان يكتب فصلا عن الديمقراطية .



٦ ــ تأثير سبينوزا

لم يحاول سبينوزا ان يضع مذهبا ، ولم يضع مذهبا ، ومع ذلك فقد نفذت افكاره الى الفلسفة من بعده . لقد كان اسمه مصدر بغض ومقت في الاجيال التي أعقبت موته . ويقول لنا ليسينج ان الناس كانوا يتحدثون عن سبينوزا باحتقار وكأنه كلب ميت . ولكن ليسينج هو الذي اعاد له شهرته وذكره . واثار دهشة الناقد الكبير جاكوبي في احاديثهما المشهورة في عام ١٧٨٠ بقوله انه قد تأثر بسبينوزا الى درجة كبيرة في اعوام نضجه ، مؤكداً له ان لا فلسفة الا فلسفة سبينوزا . وبعد سنوات قليلة استلفتت كتابات هيردر عن سبينوزا اهتمام معلمي اللاهوت الاحرار الى كتاب (الاخلاق) وكتب زعيمهم شلايمخار عن سبينوزا المقدس المحروم والمنبوذ . واطلق عليه الشاعر الكاثوليكي نوفاليس اسم (الله مسكر الناس) .

وفي الوقت ذاته فقد اثار جاكوبي اهتمام جوته بسبينوزا ، الذي قال بعد قراءة كتاب (الاخلاق) لاول مرة ، انه الفلسفة التي تاقت لها روحه ، والتي طغت بعد ذلك على شعره ونثره واثرت على تفكيره ومجرى حياته . وبدمج فلسفة سبينوزا مع فلسفة « كانت » عن المعرفة والمنطق توصل فختــه وشلنج وهجل الى وحدة الوجود كما رآها كل واحد منها. كما تأثر به شوبنهور ونيتشه

وبرجسون . لقد اعترض هجل على فلسفة سبينوزا وقال عنها بانها جـــافة ولا حياة فيها ، ولكنه اعترف بأمانة بان من يريد ان يكون فيلسوفـا ينبغي ان يقرأ سبينوزا اولا .

لقد ارتفع تأثير سبينوزا في انجلترا اثناء الثورة ، وتأثر بـــه كوليردج وويردسورث واقتبس شيلي من رسالة الدين والدولة ، وبدأ في ترجمتها،ووعده بيرون بوضع مقدمة لها ، ووقعت بعض اجزاء هذه الترجمة في يـــد ميدلتون الذي حسبها من انتاج شيلي واطلق عليها اسم (تأملات تلميذ مدرسة)وقامت اليوت بترجمة (الاخلاق) ولكنها لم تنشرها . وقد يكون سبنسر قد اطلع على هذه الترجمة بحكم صداقته مع الكاتبة اليوت وتأثر بها . وفي القرن الثاني بمـــد سبينوزا جمعت التبرعات لاقامة تمثال له في لاهاي ، وانهالت هذه التبرعات من كل حدب من العالم المثقف . وعند ازاحة الستار عن تمثاله في عام ١٨٨٢ القى ارنيست رينان كلمة اختتمها بقوله (ويل لمن يمر امام هذا التمثال ، ويوجه اهانة او لعنة لهذا السيد والفيلسوف المفكر ، لانه سيعاقب بخسته كما تعاقب جميع النفوس الخسيسة العاجزة عن تصور الله . سيشير هذا الرجل من وراء تمثـــاله الصوان الى جميع الناس الى طريق النعيم الذي اهتدى اليه . وستمر الاجيال ويقول السائح الذكي المثقف الذي يمر من هنا في قلبه ، قد تكون اصدق بصيرة عن الله جاءت من هنا .

الفصل الخامس

فولتير وعصر التنوير الفرنسي

١ ــ باريس

كان فولتير في باريس عام ١٧٤٢ يدرب الممثلة دوميشل كي تبلغ ذروة الحزن في تمثيلها ، اثناء تمرينها على الالقاء في روايته « ميروب » فاشتكيت بقولها لابد ان يكون الشيطان في نفسها كي يثير فيها هذه العاطفة التي يطلب منها اظهارها . فاجابها فولتير ان ما تقولين هو الصحيح ، ويجب ان يكون في نفسك شيطان لتنجحي في اي نوع من انواع الفنون . وقد اعترف نقاده واعداؤه بان الشيطان قابع في نفسه ، وكان ديستر يسمي فولتير بالرجل الذي وضعت جهنم في يديه كل نارها وقوتها .

كان فولتير قبيحاً بشعاً ، مختالاً ، معجبا بنفسه ، فصيحا بذيئا ، مستهتراً ، واحياناً غادراً وفاسقا . لقد كان رجلا يحمل اخطاء زمنه وعصره ومكانه ومع ذلك فقد كان ينقلب احيانا ويصبح لطيفا رصينا ، منصفا ، سخيا مسرفا في تبديد نشاطه وماله في مساعدة اصدقائه وتحطيم اعدائه ، وكان قادرا على قتل عدوه بضربة قلم . هذا هو فولتير الرجل المتناقض .

ولكن هذه الصفات كلها خيرها وشرها صفات ثانوية لا تدل على حقيقة فولتير ، لان الشيء المدهش المثير فيه هو خصوبة وتألق عقله الذي لا ينضب او يكل . لقـــد كتب في حياته تسعة وتسعين كتاباً ، تتألق كل صفحة من صفحاتها بنور الحكمة والفائدة ، على الرغم من تنقلها من موضوع لآخر حول العالم . وامتاز بشجاعته وسعة اطلاعه وصراحته . « وتجارتي ان اقول مـــا اعتقد » وكل ما فكر به كان دائماً قيماً ، كما كان قوله رائعاً ، واذا كنا لا نقرأ له الان ، فلأن المناقشات والمعارك اللاهوتية التي خاضها من اجلنا قد استوفت زمنها ، ولم تعد مألوفة لنا او تثير اهتمامنا . قد نكون قد انتقلنا الى ميادين اخرى من القتال ، وزاد اهتمامنا وانهماكنا باقتصاديات الحياة الدنيا اكثر من اهتمامنـــا بالحياة الآخرة . ان انتصار فولتير الساحق على سلطـــة القساوسة والخرافات ، قضت على هذه القضايا التي كانت تدب فيها الحياة في عصره . كما ان الكثير من شهرته ايضاً يعود الى مقدرته الكلامية التي لا تبارى ، لان الكلمات المكتوبة تبقى ، امـــا الاحاديث فتذهب وما بقي لنا هو الكثير من لحمه ، والقليل جداً من نار روحه السنية . ومع ذلك فيها ، كان مظلماً كما نراه من خلال منظار الزمن ، اي روح كانت فيه . لقد كان ذكياً صريحـاً جلياً ، يحول الغضب الى هزل ، والنار الى ضياء وكان مخلوقاً من الهواء واللهب واسرع الناس تهيجاً . وربما كان اعظم المفكرين حيوية ونشاطاً في كل التاريخ ؟ .

لا جدال في ان انتاجه الفكري كان اعظم انتاج في عصره ، ولا يضاهيه اي مفكر آخر في غزارة انتاجه ، وكثرة كتبه ، ومضاعفة اوقات عمله . لقد قال ان من لا يعمل لا قيمة لحياته ، وكل الناس اخيار الا الكسالى . لقد ذكرت سكرتيرته عنه انه لم يكن بخيلا بشيء سوى بوقته . وهو يقول : « كلما تقدمت في العمر اكثر شعرت بضرورة العمل اكثر ، واصبح العمل لذتي

الكبرى ، وحل في مكان اوهـــام الحياة ، اذا اردت الا ترتكب الانتحار ، اوجد لنفسك عملا . » ربما كانت فكرة الانتحار تطارده وتستهويه ، لانـــه امضى حياته كلها في العمل ، لقد ملأ بحياته حياة عصره كله . كان عصره من اعظم العصور الاوروبية ، وكان هو جوهر عصره وروحه . لقد قال فكتور هوجو ، ان اسم فولتير يصف القرن الثامن عشر كله . لقد كان لايطاليا نهضة ، ولألمانيا اصلاح ، ولكن فرنسا كان لها فولتير . فقد كان لبلاده بمثابة النهضة والاصلاح ، وكان نصف ثورتها . لقد جمع بين شك مونتاني وفكاهة رابلييه وحارب الفساد والخرافـات بضراوة وفعالية اكثر من لوثر أو اراسموس أو كلفن . وساعد في صنع البارود الذي مكن ميرابو ومارا ودانتون وروبسبير من نسف النظام الفرنسي القديم . قال لا مارتين ، اذ كنا سنحكم على الرجال بافعالهم عندئذ يكون فولتير اعظم كاتب في اوروبا الحديثة بلا منازع... لقد وهبه الله ثلاثاً وثمانين سنة من العمر ، ليتمكن من تحليل العصر الفاسد . وكان لديه الزمن ليحارب الزمن ، وعندما سقط كان المنتصر .

لا نجد كاتباً له من النفوذ في حياته مثل فولتير . وعلى الرغم من النفي والسجن ومصادرة اتباع الكنيسة والدولة كل كتبه تقريباً ، فقد شق طريقه بجرأة وقوة لاعلان الحقيقة . الى ان طلب الملوك والاباطرة والبابوات رضاه ، واهتزت العروش امامه ، ووقف نصف العالم مصغياً لسماع كلمة منه . لقـــد كان عصره عصراً نادى فيه كل شيء بظهور مدمر ، قال نيتشه ، لا بد للاسود الساخرة من ان تجيء ، وجاء فولتير فأذل الطغاة بسخريته . وكان له فضل كبير هو وجان جاك روسو في الانتقال السياسي والاقتصادي الكبير من حكم النظام الارستقراطي الاقطاعي الى حكم الطبقة المتوسطة . عندما لا ترتاح الطبقة الناهضة في البلد الى قوانين البلد او عاداتها ، وتريد مخرجاً منهـا فانها

تحارب القانون بالدعوة الى الرجوع الى حياة الطبيعة الاولى ، عندما كان الانسان حراً طليقاً لا يقيده قانون ، ولا تثقله مدنية . وتحارب التقاليد القديمة المحافظة بالدعوة الى التحرر من هذه التقاليد القديمة والاعتماد على العقل والتفكير. وهكذا ايدت الطبقة البورجوازية الغنية اسلوب فولتير العقلي ومذهب روسو الطبيعي ، فقد دعا الاول الى التخلص من الخرافات والتقاليد البالية ، وهاجم الثاني القوانين والمدنية ، ودعا الى العودة الى الطبيعة . لقد كان من الضروري حل قيود العادات القديمة والتقاليد والعرف لتجديد وتنشيط الشعور والفكر ، لتفتيح العقول للتجربة والتغيير تمهيداً للثورة الفرنسية . لم يكن فولتير ولاروسو السبب في الثورة الفرنسية ، وربما كانا والثورة نتيجة للقوى التي كانت تفور وتموج تحت سطح الحياة الفرنسية السياسية والاجتماعية . لقد كانا الضوء واللهب المنبعث من نار البركان المشتعل. ان الفلسفة من التاريخ بمثابة العقل من العواطف وفي كلتا الحالتين نجد عملية لا شعورية تقرر من الاسفل الفكرة الواعية الشاعرة في الأعلى .

ومع ذلك يجب ان لا نذهب بعيدا في محاولة تصحيح ميـــل الفيلسوف في المبالغة بتأثير الفلسفة . لقـــد قال لويس السادس عشر في سجنه بعد ان رأى نتيجة اعمال فولتير وروسو .

لقد دمر هذان الرجلان فرنسا ، ويعني بذلك تدميره وتدمير النظام الملكي في فرنسا . وقال نابليون لقد كان في وسع العائـــلة المالكة البقاء في الحكم لو سيطرت على الاقلام وراقبت الكتابة . لقد قضى ظهور المدفع على النظام الاقطاعي ، وسيقضي القلم والحبر على النظام الاجتماعي الحديث . وقال فولتير ان الكتب تحكم العالم ، او على الأقل فانها تحكم الشعوب التي لها لغة مكتوبة ، اما بقية الشعوب فلا تهم . لا شيء يقضي على العبودية كالتعليم وتقـــدم فولتير

ليحرر فرنسا . عندما يبدأ الشعب في التفكـــير مرة من المستحيل ان يقف ، وبظهور فولتير انتعش التفكير في فرنسا .

ولد فولتير في باريس عام ١٦٩٤ ، وكان والده كاتب عدل ناجحاً ، وامـه ذات نزعة ارستقراطية . وقـــد يكون مديناً لوالده بدهائه وسرعة غضبه ، ولامه بشيء من طيشه وذكائه . جاء الى العالم في عناء وضيق ، فقد ماتت امه اثناء ولادته . وكان طفلا مريضاً هزيلا مما حمل المرضة ان تقول انه لن يعيش اكثر من يوم واحد . ولكنها كانت مخطئة قليلا ، فقد عاش اربعة وثمانين عاماً. كان يشرف على تثقيفه اخوه الاكبر ارماند ، وكان مثالياً تقياً ولكنه نزع الى الالحاد وحكم عليه بالموت . واعتاد والدهما ان يقول ، ان الله قد رزقه ولدين مجنونين احدهما مجنون بالشعر ، والثاني بالنثر. والواقع ان فولير كان ينظم الشعر بنفس السهولة والسرعة التي يكتب فيها اسمه ، وقد ادى هذا الى اقتناع والده العملي الذي لا يؤمن بالامور النظرية ان ابنه لن يصلـــح لشيء ولن يرجى منه خيراً . ولكن السيدة المشهورة نينو دي اونكل ، التي كانت تعيش في ضواحي المدينة التي عاد اليها والد فولتير بعد ولادته ، رأت في الولد علامـــات النبوغ والعظمة ، وتركت له بعد موتها مبلغ الفي فرنك لشراء الكتب . التي كانت مصدر ثقافته الاولى . كما علمه رئيس دير الشك في صلاته . وعلمه اليسوعيون بعد ذلـــك الحوار الذي ادى به الى الشك . وهوفن اثبات كل شيء ، والذي ينتهي عادة بعدم الايمان في شيء . وبرع فولتير في النقاش ، وفي الوقت الذي كان كل الاولاد يلعبون في الملاعب ، كان يبقى للبحث في اللاهوت مع العلماء ، ولما يناهز الثانية عشرة من عمره . وعندما حان الوقت ليعمل ويكسب قوته ، خيب رجاء والده ، باصراره على احتراف الأدب . لقد قال له والده « ان الأدب مهنة ستنتهي بصاحبها الى ان يكون عالة على المجتمع وعبئاً على اهـله ،

ويموت جوعاً ، ولكن فولتير اتجه للادب .

كان يعود متأخراً في الليل ، بعد جولة يطوف فيها بالمدينة ، ويمتع نفسه بمباهجها وملاهيها ، مما حمل والده الساخط الى ارساله ليعيش مع قريب له في مدينة اخرى ، ولكن قريبه هذا وقع اسير ذكائه وفكاهته ، واطلق له العنان ليسهر كما يريد . واخيراً ارسله والده مع السفير الفرنسي الى لاهاي واوصاه بمراقبة الولد المجنون مراقبة شديدة ، الا ان فولتير وقع لتوه في حب سيدة صغيرة ، وراح يخلو بها في مقابلات مسكرة ، وكتب لها رسائل غرامية كان يختمها دائماً بقوله « سأحبك الى الابد » وسرعان ما تم كشف هذه المقابلات وارسل الى بلده ، وبقي يذكر تلك السيدة الصغيرة عدة اسابيع .

وفي عام ١٧١٥ اصبح فخوراً ببلوغه الحادية والعشرين من عمره ، وذهب الى باريس في الوقت الذي مات فيه لويس الرابع عشر . وعجز لويس الصغير الذي ورث عرش البلاد عن السيطرة والحكم لصغر سنه . وافلت زمام السلطة من يده الى وصي عليه . وفي خلال تلك الفترة وقعت مظاهرات في باريس عاصمة العالم في ذلك الوقت ، واشترك فولتير فيها ، واكتسب شهرة وصيتاً ، ولمع اسمه كثيرا وعندما باع الوصي على العرش لاسباب اقتصادية نصف الخيول التي كانت تملأ الاسطبلات الملكية اشار فولتير الى ذلك بقوله ، لقد كان من الافضل اطلاق نصف الحمير التي تملأ البلاط الملكي . واخيرا انصبت المتاعب التي كانت تدور في باريس على رأسه ، ووصل الى علم الوصي لسوء الحظ قصيدتان من الشعر نظمهما فولتير واتهم فيهما الوصي بمحاولة اغتصاب العرش . وهاج الوصي وماج وقابل فولتير ، في الحديقة ذات يوم وقال له « ايها السيد ، اراهنك على ان اريك شيئاً لم تره في حياتك ابدا » ماهو ذلك الشيء؟ « داخل

سجن الباستيل » ورأى فولتير الباستيل في اليوم التالي اي في السادس عشر من ابريل عام ١٧١٧ .

وعندما كان في الباستيل تبنى اسم فولتير لاسباب لانعرفها اذ ان اسمه الحقيقي هو فرنسوا اريت . واقبل على الشعر واصبح شاعرا ، وقبل ان يمضي احد عشر شهرا في السجن كتب قصة شعرية طويلة جديرة بالاهتمام سرد فيها قصة هنري نافار . وعندما تبين للوصي ان فولتير قد يكون بريئا اطلق سراحه واجرى عليه معاشا . وبعد ذلك كتب فولتير رسالة الى الوصي شكره فيها على الاهتمام بامور معاشه وسأله ان يسمح له بالاهتمام بامور سكنه بنفسه .

انتقل الان مضطرا من السجن الى المسرح ، وانتج روايته المحزنة مأساة اوديب في عام ١٧١٨ . التي ضربت الرقم القياسي في باريس ، واستمر تمثيلها خمسا واربعين ليلة متواصلة . جاء والده المسن لتوبيخه ، وجلس في احدى مقصورات المسرح ، واخذ يخفي سروره باظهار التذمر والاستياء من وقت لآخر بقوله ، آه اللئيم ، آه النذل ، وعندما قابله الشاعر فونتينل بعد عرض الرواية اطرى عليها بالمديح والثناء .

لقد عادت هذه الرواية عليه بربح صاف قدره اربعة الاف فرنك ، استثمرها بحكمة غير مألوفة من رجال الادب ، ففي عام ١٧٢٩ اشترى جميع تذاكر اليانصيب الحكومية في مشروع حكومي ضعيف التخطيط ، وكسب كمية كبيرة من المال . ولكنه بعد ان اصبح غنيا زاد كرمه وسخاؤه ، واحاطت به جماعة من الصنائع كلما كان يخرج الى نزهاته المسائية . لقد استفاد من براعته في الجمع بين المال والقلم ، لان روايته الثانية فشلت واحس فولتير

بالفشل تماما . فقد كان حساسا تجاه الرأي العام ، وكان يحسد الحيوانات لانها لاتعرف ما يقوله الناس عنها وشاء القدر ان يزيد في آلام فشله ، فقد اصابه مرض الجدري ، وعالج نفسه بان شرب مئة وعشرين بنشا من عصير الليمون والكثير من الادوية . وعندما تعافى بعد انتصاره على شبح الموت ، وجد ان قصته الشعرية « هنريت » قد جعلت منه رجلا مشهوراً . احسن الناس استقباله ووفادته في كل مكان ، واحاطت به الطبقة الارستقراطية ، واحالته الى اعظم رجل مثقف لامع في العالم ، وسيد الحديث الذي لايشق له غبار ، ووارث اعظم ثقافة وحضارة في اوروبا . واستدفأ لمدة ثماني سنوات في ضوء شمس الصالونات الارستقراطية والنوادي الكبيرة ، وبعدها اشاح الحظ بوجهه عنه . لم ينس بعض افراد الطبقة الارستقراطية ان فولتير ليس له ما يشرفه في الجلوس معهم سوى عبقريته ، ولا يحمل من الالقاب سوى نبوغه ، ولم يغفروا له هذا التمييز والفارق . وذات يوم بعد تناول الغداء في احدالمطاعم الفاخرة ، اخذ فولتير يتحدث بضع دقائق ببلاغته وفصاحته الجريئة المعهودة . وهنا تساءل النبيل دي روهان قائلا : من هذا الشاب الذي يتحدث بصوت عال ، واجاب فولتير بسرعة ، ياسيدي ، ان من يتحدث لا يحمل اسما كبيراً ، ولكنه ينال احترام الناس باسمه . لقد كان الجواب على نبيل امرا لايغتفر ، ودفع اللورد النبيل جماعة من الاوغاد للاعتداء على فولتير ليلا ، وطلب منهم الا يصيبوا بالضرب رأسه قائلا ، قد يخرج رأسه شيئاً عظيما في يوم من الايام . وظهر فولتير في اليوم التالي على المسرح معصب الرأس واتجه وهو يعرج الى الشرفة حيث كان يجلس اللورد روهان وتحداه الى المبارزة . وبعدئذ انصرف الى بيته ، وامضى طيلة اليوم يتمرن على السيف استعداداً للمبارزة . ولكن اللورد النبيل لم يكن على استعداد لارسال روحه الى السماء على يد شاب عبقري .

وتوسل الى عمه الذي كان وزيرا للشرطة لكي يحميه . وتم اعتقال فولتير واعيد الى بيته القديم سجن الباستيل مرة ثانية . تم الافراج عنه فورا شريطة ان يغادر البلاد منفيا الى انجلترا . فصدع للامر ولكنه بعد ان وصـــل تحت الحراسة الى دوفر ، عاد وعبر القنال متنكراً ليثأر لنفسه ، ولكنه انـذر بافتضاح امره ، واوشك ان يقبض عليه للمرة الثالثة ، فركب السفينة ثانية وسافر الى انجلترا حيث بقي هناك ثلاث سنوات .



٢ ـــ رسائل عن الانجليز

بدأ يدرس اللغة الانجليزية بصبر وشجاعة . وسرعان ما اجادها وملك زمامها في سنة واحدة .وقرأ افضل الادب الانجليزي في ذلك العصر .وقدمه اللورد بولينج بروك الى رجال العلم والادب ، وتناول الطعام معهم الواحد بعد الاخر ؛ وحتى مع دين سويفت المراوغ الساخر ، لم يدع فولتير الاصل او الحسب ولم يطلب اصلا او حسبا من احد . وعندما ذكر كونجريف بان رواياته هو نفسه تافهة ، وابدى رغبته في ان يعتبره الناس سيدا ذا نعمة ورخاء لا اديبا اجابه فولتير بحدة قائلا ، لو كنت مجرد سيد شريف كبقية الاسياد الاخرين لما زرتك ابدا .

لقد اثار دهشته الحرية التي كان يعمل في ظلها الكتاب الانجليز . فقد كتب بولينج بروك وبوب واديسون وسويفت كل ما ارادوا في جو من الحرية التامة .

هنا شعب له اراؤه الخاصة به ، شعب اصلح دينه وشنق مليكه ، واستورد ملكا اخر ، وانشأ مجلساً نيابيا اقوى من اي حـــاكم في اوروبا . ولا وجود لسجن الباستيل هنا . هنا ثلاثون مذهبا دينيا بغير قسيس واحد .

هنا اشجع المذاهب الدينية جميعا ، مذهب الاصحـــاب (الكويكر) الذين اثاروا دهشة العالم المسيحي باخلاقهم المسيحية .

لقد كانت انجلترا ايضا تخفق بالنشاط العقـــلي الجريء . وكان اسم بيكون لايزال محلقا في الاثير . وكانت طريقته الاستقرائية تحرز الانتصار في كل مكان . وتطور هوبز (١٥٨٨ – ١٦٧٩) بروح الشك التي امتاز بها عصر النهضة وروح استاذه بيكون العملية الى مادية تامة صريحة كانت تؤدي به لو كان في فرنسا الى حبل المشنقة بتهمة الكفر والضلال . كما قام لوك (١٦٣٢– ١٧٠٤) بكتابة تحليل سيكولوجي (مقال عن العقل البشري ١٦٨٩) من غير ان يقيم آراءه وافتراضاته على المعجزات . وقام كولينز وتندال وغيرهم من المؤمنين بوحدانية الله وانكار الوحي والانظمة الدينية بتأكيد ايمانهم بالله . ومات نيوتن في ذلك الوقت وحضر فولتير جنازته ، وكان يذكر دائما الانطباع الذي تركه في نفسه التكريم والشرف القومي الذي احاط بهذا الانجليزي الذي ينحدر من طبقة متوسطة .

لقد تساءلت جماعة عن اعظم رجل انجبه العالم ، هل هو قيصر ام نابليون ام كرومويل واجاب احدهم بأنه نيوتن . وهو على صواب ، لانه هو الذي استحوذ على عقولنا بقوة الحقيقة لا اولئك الذين استعبدوها بالعنف . اننا مدينون له بالاحترام . لقد غدا فولتير تلميذا مجتهدا لآراء نيوتن ، واضحى بعد ذلك البطل الاول في رواية افكار نيوتن في فرنسا .

لا يسع المرء الا ان يعجب بالسرعة التي استوعب فيها فولتير آداب انجلترا وعلومها وفلسفتها . لقد جمع كل هذه العناصر المختلفة من المعرفة وسبكها بنار الثقافة والروح الفرنسية ، واحالها الى ذهب من البلاغة والفصاحة الفرنسية . لقد سجل انطباعاته عن انجلترا في رسائل عن الانجليز ، وزعها على اصدقائه ،

ولم يجرؤ على طباعتها لعلمه بان الرقابة الملكية لن تستطيب مذاقها ، لانها قارنت بين الحرية السياسية الانجليزية والاستقلال الفكري في انجلترا والطغيان والاستعباد الفرنسي . وهاجمت الطبقة الارستقراطية الكسولة في فرنسا ، ورجال الدين الذين يستنزفون الشعب بجمع الاعشار والصدقات والتبرعات واللجوء الى سجن الباستيل كجواب لكل سؤال وكل شك . لقد حثت هذه الرسائل الطبقة الفرنسية الوسطى ان تنهض وتتبوأ مكانها في الدولة . اسوة بنظيرتها في انجلترا . لقد كانت هذه الرسائل بلا قصد او معرفة من فولتير نعيق الغراب الاول في الثورة الفرنسية .

* * *

٣ - الروايات

ومع ذلك وبغير علم بهذا القراب ارسل الوصي على عرش فرنسا اذنا لفولتير بالعودة الى فرنسا عام ١٧٢٩ . وتمتع فولتير خمس سنوات اخرى بحياة باريس التي كانت خمرها تجري في عروقه ، وروحها تسري في قلمه . الى ان وقعت هذه الرسائل في يد ناشر لئيم ارسلها الى الطباعة بغير اذن فولتير او اطلاعه . وباعها بيعا كبيرا واسعا . واصدر البرلمان قرارا بحرق الكتاب علناً، واعتباره مناقضا للدين والاخلاق واحترام الدولة . وادرك فولتير انه في طريقه مرة ثانية الى سجن الباستيل ، وكفيلسوف طيب شمر عن ساقيه وحرك مهمازه وهرب خفية مع امرأة متزوجة .

لقد كانت المركيزة دي شاتيله في الثامنة والعشرين من عمرها وكان فولتير مع الاسف في الاربعين . وكانت امرأة بارزة ، درست الرياضيات على يد كبار الرياضيين ، وكتبت ترجمة علمية شرحت فيها مبادىء نيوتن ، ونالت تقديرا اكثر من فولتير نفسه في منافسة للحصول على جائزة قدمتها الاكاديمية الفرنسية عن مقال عن طبيعة النار . وبالاختصار فقد كانت امرأة لايتوقع الانسان منها الاقدام على الفرار مع رجل اجنبي . ولكن زوجها المركيز كان غبيا جداً ، على عكس فولتير الذي كان ممتعا ومثيرا . فهو مخلوق محبوب من

كل جانب كما كانت تسميه ، اجمل حلية في فرنسا . وبادل حبها له باعجـــاب شديد الحرارة ، وكون عن طريقها وعن طريق عدد كبير من النساء رأيه بمساواة المرأة الفرنسية عقليا مع الرجل . لقد كان المركيز زوجها بعيدا بفيلقه الذي كان يأوي اليه كثيرا هربا من رياضيات زوجته ، ولم يعترض على الاجراءات الجديدة . لأن الاخلاق في ذلك الوقت كانت تبيح للمرأة ان تضيف حبيبـــا بجانب زوجها ، شريطة ان يجري هذا الحب بطريقة لا تتنافى مع احترام الناس وخاصة اذا لم يقع اختيار المرأة على حبيب فحسب بل على عبقري . كل العالم يسامحها . وقد نشأ هذا التساهل بسبب اقبال الكهول الاغنياء على زواج الشابات الصغيرات اللواتي سئمن خرف الشيخوخة ، واندفعن في جوع الى الحب .

ولم يضيــع فولتير والمركيزة وقتها في القصر (سيرى) في العناق والقبل والحب بل انصبا على العمل والدرس والبحث طيلة النهار . واقــام فولتير مختبرا باهظ التكاليف مجهزا للعمل في العلوم الطبيعية . وتبارى الحبيبان عدة سنوات في البحث والتحليل . وكانا يستقبلان الضيوف الكثيرين . وكان هؤلاء الضيوف يقومون بخدمة انفسهم طيلة النهار ، حتى وقت العشاء في الساعة التاسعة ، وبعد العشاء ينتقل الحديث عن المسرحيات وشؤون المسارح او يقوم فولتير بقراءة احدى قصصه على ضيوفه . واصبح القصر في (سيرى) في فترة وجيزة باريس العقل الفرنسي . واشترك ابناء الطبقة الارستقراطية والبورجوازية في الحج الى هذا المكان ليستقوا من خمر فولتير وحكمته . ويشاهدونه وهو يقوم بالتمثيل في رواياته المسرحية . وكان يسعده أن يكون مركز هـذا العـــالم الفاسد واللامع ، ولم يحمل الامور محمل الجد ، وكان شعاره ان يضحك ويُضحك واطلقت عليه كاترين امبراطورة روسيا اسم « آله السرور » وكان يقول لو لم تهبنا الطبيعة شيئا من الاستخفاف واللهو لكنا اتعس المخلوقات ، ولولا روح

المرح والاستخفاف في بعضنا لشنق الاكثرية منا نفوسهم . ويل للفلاسفة الذين لايضحكون ، وانا انظر الى الجد والوقار نظرتي الى المرض . ومن الحلاوة ان نكون مجانين بعض الوقت .

لقد بدأ في هذا الوقت في كتابة رواياته السارة المبهجة ، كنديد ، صادق ، ميكروميجاس ، لانجينو ، لوموند كوم الفا الخ .

لقد اظهرت هذه الروايات روح فولتير بصفاء اكثر من اي شيء آخر في مؤلفاته التسعة والتسعين . لم تكن هذه روايات بل كانت من نوع جديد ، ابطالها آراء ، والاوغاد فيها خرافات ، والحوادث افكار ، وبعضها يتألف من فصول قصيرة مثل لانجينو وهي روسو امام جون جاك . وهو هندي جاء الى فرنسا برفقة بعض الرواد المكتشفين ، واول مشكلة واجهته هي تحويله الى الديانة المسيحية . لقد قدم له احد رؤساء الاديرة نسخة عن العهد الجديد « الانجيل » الذي احبه الهندي كثيراً . وقدم نفسه لا للتعميد فقط بل وللطهور ايضاً . لانه يقول ، لانني لم اجد في الكتاب الذي وضع في يدي شخصاً واحداً لم يتطهر ، ومن الواضح اذن ان اقدم تضحية للعادة العبرانية ، وكلما كان ذلك اسرع كلما كان احسن . ولم يكد ينتهي من عملية الطهور هذه حتى واجه مشاكل الاعتراف ، ويسأل في اي مكان من الانجيل امرنا الله بالاعتراف . ويرشدونه الى مقطع في رسالة سانت جيمس حيث تقول « اعترف بخطاياك الى الاخرين » ويقوم الهندي بالاعتراف ولكنه بعد ان اعترف سحب القسيس من كرسي الاعتراف ، واجلسه على المقعد ، وطلب منه ان يعترف له عن خطاياه بدوره قائلا ، تعال يا صديقي ، لقد قيل باننا يجب ان نعترف بذنوبنا بعضنا لبعض ، وقد اعترفت لك بذنوبي ، ولن تتحرك من هنا حتى تعترف لي بذنوبك .

وبعد ذلك وقع الهندي في حب الانسة سانت ايفيس، ولكنه قيل له انه لا يستطيع ان يتزوجها لانها قامت بدور ام الاله اثنـــاء تعميده ، وهنا ثار غضبه لهذا المصير ، وتوعد بالانسحاب من التعميد ، وبعد ان اذن له بالزواج منها ، اندهش من اجراءات الزواج التي تقتضي وجـــود المسجلين والقسس والشهود والعقود والحل ... ويقول ، ان هذه الاحتياطات تدل على كونكم مخادعين وغشاشين ، والا لما اشترطتم هـذا الاحتياط والحذر . وهكذا تسير القصة من حادث الى آخر ، حيث ادخل التناقض بين المسيحية البدائية والكنائسية على المسرح . وهنا يفقد المرء في مثل هذه الرواية العدل الذي يميز العالم ، والتساهل واللين الذي يميز الفيلسوف . ولكن فولتير بدأ الحرب ضد الخرافات ، وفي الحرب لا نطلب الانصاف والعدل واللين الا من اعدائنا .

امـــا رواية ميكروميجاس فهي تقليد للكاتب الانجليزي سويفت ، ولكنها تمتاز بتصور الكون ، لقد زار الارض ساكن من سكان كلب الجبار في الفلك وطولة خمسمئة الف قدم ، هو طول يتناسب مع طول مواطن لهذا النجم الكبير . وفي طريقه في الفضاء ، التقط رجلا من سكان زحل الذي ابدى حزنه لأن طوله بضعة الاف من الاقدام فقط . وعندما كانـــا يسيران فوق البحر الابيض المتوسط بلل العملاق الاول كعبيه في ماء البحر . وسأل زميله الذي من زحل عن عدد الحواس عند سكان زحل ؟ فأجابه «لدينا اثنتان وسبعون» وكم سنة تعمرون عادة ؟ يا للاسف انها مجرد سنوات قليلة تافهة ، اذ ان القليل من سكان عالمنا يتجاوزن الخمسة عشر الف سنة من اعمارهم . وهكذا كما ترى لا نـكاد نولد حتى نموت ، ان حياتنا ليست اطول من نقطة ، وبقـاءنا برهة ، وعالمنا ذرة ، ولا نـكاد نبدأ ان نتعلم قليلا حتى يتدخل الموت قبل ان نبدأ نستفيد من تجاربنا ، وعندما كانا واقفين في البحر رفعا سفينة كما يرفع الانسان ذبابة صغيرة

في يده ، ووضعهـا المملاق الاول من سكان كلب الجبار على ظفر ابهامه ، محدثاً الكثير من الاضطراب والهياج بين ركاب السفينة . « واخـذ القسس في السفينة في ارسال التعاويذ والعزائم ، والبحارة في الدعاء والصلوات واخـذ الفلاسفة في تفسير هذا الحادث الذي افسد قانون الجاذبية ، وانحنى ساكن كلب الجبار الى الامام كسحابة مظلمة قائلا لهم .

انتم يا صغار الاذكياء ، يا ذرات الاذكياء يا من احب الله ان يوضح فيكم علمه وقوته ، لا شك ان سعادتكم على هذه الارض نقية رائعة ، بتجردكم عن المادة . لذلك ينبغي ان تمضوا حياتكم في السعادة والسرور والفكر والتأمل، وهي متع الروح الحقيقية ، لقد وجدت السعادة الحقيقية اصلا ولكنها تسكن هنا حتماً .

لدينا الكثير من المادة ، أجابه احد الفلاسفة من على ظهر السفينة ، ونرتكب الكثير من الاذى ... ويجب ان تعرف ان هناك عشرة الاف من بني جنسنا يلبسون البرانيط يذبحون عدداً مماثلا من مخلوقـات مثلهم يلبسون العمائم ، او على الاقل فهم يقتلون ويُقتلون . وهذه هي الحالة عادة في جميع انحاء الارض منذ فجر التاريخ . « كفار جاحدون » صاح العملاق من سكان كلب الجبار « افكر بان اخطو خطوتين او ثلاث واسحق هؤلاء القتلة المقتالين جميعهم تحت قدمي . » « لا تزعج نفسك » اجاب الفيلسوف فهم جادون تماماً في سحق انفسهم . وبعد عشرة اعوام لن يبقى من هؤلاء البائسين جزء من مئة بالاضافة الى ان العقاب يجب الا ينزل بهم بل بالمتوحشين القعدة الكسالى الذين يصدرون الاوامر من قصورهم بقتل الملايين من الناس ، وبعدئذ يشكرون الله على نجاحهم .

تعتبر قصة صادق من افضل قصص فولتير باستثناء قصة كنديد التي كتبها في الفترة الاخيرة من حياته . لقد كان صادق فيلسوفاً بابلياً وحكيماً .. وكان يعرف عن الميتافيزيقا قدراً لم يعرفه احد من قبل ، يعني قليلا او لا شيء اطلاقا . لقد جعلته الغيرة يعتقد انه على حب مع سميرة . وفي الدفاع عنها اصيب بجرح في عينه اليسرى .

وارسل رسول الى ممفيس لاستدعاء الطبيب المصري العظيم هيرميس . الذي جاء محاطا بالكثير من الاتباع والخدم والحشم . وزار صادق ، واعلن ان المريض سيفقد عينه . وتنبأ حتى باليوم والساعة التي سيحدث فيها هذا الحادث المميت . وقال « لو كانت العين اليمنى لكان في وسعي علاجها بسهولة ؛ ولكن جرح العين اليسرى لايمكن علاجه » لقد بكى جميع البابليين على مصاب صادق ومصيره ، واكبروا مقدرة الطبيب المصري ومعرفته العميقة . ولكن بعد يومين انفجر الخراج حول عين صادق بطبيعته وتم شفاؤها ؛ وكتب الطبيب المصري كتابا يثبت فيه ان عين صادق ما كان لها ان تشفى ولكن صادق لم يقرأ الكتاب .

واسرع صادق الى سميرة ، ليسمع انها بعد سماع تقرير الطبيب المصري عن عينه كتبت كتابها على رجل آخر ، قائلة ؛ انها لاتستطيع مقاومة اشمئزازها ونفورها من الزواج برجل ذي عين واحدة . وبعد ذلك تزوج صادق من امرأة فلاحة . راجيا ان يجد فيها الفضائل التي لم يجدها في سيدة البلاط سميرة . وليتأكد من اخلاص زوجته ، تم الاتفاق بينه وبين صديق له بان يتظاهر صادق بالموت ، وان يتظاهر صديقه بالحب لزوجته بعد ساعة من وفاته . وهكذا علنت وفاة صادق ، ونام في داخل التابوت ، وواسى صديقه الارملة اولا ،

وبعد ان بلغ من الحكمة ذروتها ، عينه الملك وزيرا له . وحقق صادق الرخاء والازدهار والعدل والسلام في الدولة . ولكن الملكة وقعت في حبه ، وشعر الملك بذلك وبدا عليه الاضطراب ، ولاحظ ان حذاء الملكة ازرق وحذاء صادق ازرق وان وشاحها كان اصفر وقبعة صادق صفراء . وقرر ان يسم الاثنين معا . ولكن الملكة اكتشفت المؤامرة وارسلت رسـالة قصيرة الى صادق « اهرب ، اتوسل اليك بحبنا المتبادل ووشاحنا الاصفر المتبادل ، وهرب صادق مرة ثانية الى الغابات . »

واخذ يصور لنفسه الجنس البشري كما هو على حقيقته كمجموعه من الحشرات تلتهم احداها الأخرى على نبتة صغيرة . لقد بددت هـذه الصورة الحقيقية عن البشر مصيبته وجملته يشعر بتفاهة وجوده ووجود بابل . وانطلقت روحه هائمة الى مالانهايه ، وانفصلت عن حواسه مفكرة ومتأملة في نظام الكون الثابت الذي لايتغير . ولكن عندما افاق الى نفسه بعد ذلك ، شعر بالخوف على الملكة . قد تكون ماتت او انتحرت بسببه وهنا طار عقله وزاغ الكون عن بصره .

وفي طريق عودته الى بابل رأى رجلا يضرب امرأة بقسوة شديدة . ولبى صادق صراخها وهب لنجدتها ، وقاتل الرجل ، واخيرا لينقذ نفسه انزل بالرجل ضربة قوية اودت بحياته واتجه للسيدة بقوله ماذا تريدين مني ان افعل لك ايتها السيدة بعد ذلك . « مت ايها الوغد ! ، لقد قتلت حبيبي ، آه لو كنت استطيع تمزيق قلبك ! »

والقي القبض على صادق ، وبيع عبدا في سوق العبيد .واشتراه احد الاسياد وعلم صادق سيده الفلسفة ، واصبح مستشاره وموضع سره واشار عليه الغاء القانون الذي يقضي بدفن الارملة مع زوجها ، وسن قانون جديد يقضي ان تقضي الارملة ساعة مع رجل وسيم قبل استشهادها ودفنها ، وعندما ارسل في بعثة الى ملك سرنديب ، علم الملك ان يختار افضل وزير له من بين احسن الراقصين في البلد ، وقبل استدعاء الراقصين ملأ الممر المؤدي الى صالة الرقص بما خف حمله وثقلت قيمته من النفائس والجوهرات ، وطلب ان يدخل كل مرشح عن طريق ذلك الممر وحده بلا رقابة عليه ، وعندما دخلوا جميعهم طلب منهم أن يرقصوا .ولم يحدث ان قام راقصون برقص اقل فتورا واداء وتوقيعا من رقصهم في ذلك اليوم . فقد تدلت رؤوسهم وانحنت ظهورهم ومرت ايـــديهم على جيوبهم المثقلة بالمسروقات . وهكذا تسير القصة . ومن هنا نستطيع ان نتصور ليالي فولتير في (سيري) .

٤ ـ بوتسدام وفردريك

واولئك الذين لم يتمكنوا من القدوم اليه كتبوا له . وفي عام ١٧٣٦ بدأت المراسلات بينه وبين فردريك الكبير الذي كان اميراً ، وقبل ان يصبح كبيرا « فردريك الكبير » لقد كانت رسالة فردريك الاولى لفولتير اشبه شيء برسالة صبي الى ملك . اذ ان الاسراف بالرسالة يعطينا فكرة عما وصل اليه فولتير من شهرة . لقد نوه فردريك في رسالته بان فولتير اعظم رجل في فرنسا ، وانه شرف اللغة الفرنسية ... وقال ، ويشرفني ان ولدت في عصر رجل عظيم ، قام باعمال رائعة .. . لايستطيع كل انسان ان يجعل العقل يضحك . لقد كان فردريك مفكرا حرا ينظر الى العقائد كنظرته الى الرعية . وعلق فولتير عليه املا كبيرا في تحقيق النهضة الفكرية عندما يتولى العرش . وربما اراد ان يلعب الدور الذي لعبه افلاطون مع ديونيسيوس . وعندما اعترض فردريك على التملق والمديح الذي اجاب فيه فولتير على رسالته اجابه فولتير بقوله « ان الامير الذي يعترض على التملق ، فريد كالبابا الذي يعترض على العصمة عن الخطأ . » وارسل له فردريك نسخة عن كتاب له انتقد فيه ماكيافيلي وتحدث فيه حديثا جميلا عن إثم الحروب وشرورها ، وواجب الملك في صيانة السلام ، وبكى فولتير فرحا لهذه الروح السلمية الملكية . .

ولكن بعد اشهر قليلة تولى فردريك العرش وغزا سيليزيا ، واغرق اوربا في بحر من الدماء طيلة جيل كامل .

وفي عام ١٧٤٥ اتجه الشاعر والمركيزة الرياضية الى باريس ، ورشح نفسه لعضوية الاكاديمية الفرنسية ، وليبلغ هذا الامتياز الذي لالزوم له ، فقد اطلق على نفسه اسم الكاثوليكي الطيب . وجامل بعض اليسوعيين من ذوي الجاه والسلطان ، وكذب كثيرا بلا تعب أو ملل ، وعلى العموم فقد سلك سلوكا يسير فيه كل واحد منا في مثل حالته . لقد فشل ولكنه ظفر في هذا المنصب بعد سنة اخرى . والقى خطاباً يعتبر من اروع الخطب في تاريخ الأدب الفرنسي. وبقي في باريس فترة يتنقل من صالة الى اخرى ، وينتج رواية بعد رواية ، من اوديب في الثامنة عشرة الى ارين في الثالثة والثمانين . كتب سلسلة طويلة من الروايات المحزنة ، فشل بعضها ، ونجح معظمها ، فقد فشلت بروتوس في عام ١٧٣٠ واريفيل في عام ١٧٣٢ ، وحثه اصدقاؤه على ترك الروايات المحزنة ، ولكنه في نفس السنة انتج رواية زير التي صادفت اعظم نجاح له . واتبعها برواية محمد في عام ١٧٤١ ، وميروب في عام ١٧٤٣ ، وسميراميس في ١٧٤٨ ، وترانكريد في ١٧٦٠ .

وفي الوقت ذاته فقد دخلت المأساة والفكاهة حياته الخاصة . وبعد خمس عشرة سنة ضعف حبه لمدام دوشاتليه ، وقل النزاع بينهما ، وفي عام ١٧٤٨ وقعت المركيزة في حب الشاب الوسيم المركيز دي سانت لامبيرت ، وعندما اكتشف فولتير هذا الحب ثارت ثائرته ، ولكن عندما طلب سانت لامبيرت الصفح منه عفا عنه ومنحه بركته . لقد بلغ الان اوج حياته ، ولاح له شبح الموت عن بعد ، وقال هذه هي النساء ، لقد انتزعت المركيزة من زوجها ريشيليو وانتزعها سانت لامبيرت مني ، هذا هو نظام الاشياء ، ظفر يخلع ظفر ، هذه هي الدنيا ، وهكذا يسير العالم . وكتب شعرا جميلا عن هذا الظفر الثالث يقول فيه :

سانت لامبيرت كل شيء لك

الزهرة تنمو

وكل شوكها لي وكل وردها لك .

وفي عام ١٧٤٩ اختطف الموت بغتة مدام دوشاتليه اثناء مخاضها، وشاءت الاقدار ان يجتمع في جنازتها زوجها وعاشقاها سانت لامبيرت وفولتير بغير كلمة واحدة من تبكيت او تعنيف ، واحالتهما هذه الخسارة المشتركة الى اصدقاء .

لقد حاول فولتير نسيان حرمانه منها وفقدانه لها بالعمل ، وشغل نفسه فترة من الزمن بالكتابة عن لويس الرابع عشر . ولكن الذي انقذه من يأسه تجديد فردريك الكبير دعوته له للحضور الى بلاطه في بوتسدام ؛ وكانت دعوة ارفقها بمبلغ ثلاثة الاف فرنك لنفقات السفر لايمكن اغفالها او مقاومتها. واخذ فولتير طريقه الى برلين في عام ١٧٥٠ . لقد طيب خاطره وسكن نفسه تخصيص جناح فاخر له في قصر فردريك ، وقبوله على قدم المساواة مع اقوى ملك في ذلك العصر . وطفحت رسائله بالبشر والرضى اولا ، ففي الرابع والعشرين من يوليو كتب الى ارجنتال يصف بوتسدام بقوله « ١٥٠,٠٠٠ جندي .... اوبرا ، روايات هزلية ، فلسفة ، شعر ، جلال ، ابهة ، ونعم ، وفن ، وبوق ، وكمان ، وامسيات افلاطون ، مجتمع وحرية . من يصدق بذلك ؟ ومع ذلك فهو حقيقة . » لقد كتب قبل سنوات ، يا لها من حياة جميلة طروبة عندما يعيش ثلاثة او اربعة من اصحاب المواهب مع بعضهم بعضا في هدوء بلا غيرة او حسد ، يتذوقون فنون بعضهم ويتحدثون عنها ، ويستنيرون بآراء بعضهم ، لقد تخيلت نفسي بانني سأعيش في هذه الجنة الصغيرة وها انا فيها .

لقد تجنب فولتير تناول الطعام في الحفلات الرسمية . اذ كان لايقوى

على احاطة نفسه بالجنرالات العسكريين المنتفخين . واحتجز لنفسه مـــكانا في العشاء الخاص الذين كان يدعو فيه فردريك نخبة صغيرة ممتازة من رجال العلم والفكر والادب من اصدقائه . لقد كان فردريك اعظم امراء عصره وكان يصبو لان يكون شاعرا وفيلسوفا . لقد كانت الاحاديث في هذه الامسيات غالبا باللغة الفرنسية ، وحاول فولتير تعلم اللغة الالمانية ، ولكنه تحول عنها . وقال احد الذين استمعوا لهذه الاحاديث التي كانت تدور في تلك السهرات بانها اكثر متعة من احسن الكتب في العالم . لقد تحدثوا عن كل شيء ، وبسطـــوا آراءهم وافكارهم . لقد كان ذكاء فردريك مضاهياً لذكاء فولتير ، ولم يجرؤ على اجابته سوى فولتير وكان جوابه دائماً جميلا ومفحماً لبقاً . وكتب فولتير عن هذه الاحاديث بابتهاج « هنا يفكر الانسان بشجاعة وحرية . ان فردريك يجرح في يد ويداوي باليد الاخرى ... لاشيء يزعجني ، لقد وجدت مينـــاء ارسو به بعد عاصفة استغرقت خمسين عاما ، ووجدت فيه حماية الملك وحديث الفيلسوف ، وسحر الانسان ، كلها اجتمعت في رجل واحد ، واساني في همومي طيلة ستة عشر عاما وآواني من اعدائي . » اذا جاز للانسان ان يجزم بشيء فأنا جازم من اخلاق فردريك ملك بروسيا ، ولكن في نوفمبر من هذه السنة اراد فولتير ان يحسن وضعه المالي باستثماره في سندات سكسونية على الرغم من منع فردريك لهذا الاستثمار . وارتفعت قيمة السندات واستفــــاد فولتير ، ولكن وكيله هيرش حاول استغلاله بتهديده بنشر هذه الصفقة المالية ، وهنــــا قفز فولتير عليه واطبق على رقبته والقاه ارضا « وعلم فردريك بالحـــادث وثارت ثائرته » وقال « انني لازلت في حاجة اليه سنة اخرى » وقال الى لامتري « ان الانسان يعصر البرتقالة ويلقي بالقشر بعد ذلك » وربما كان لامتري مهتما في التخلص من منافسيه فقد اوصل ما قاله فردريك الى فولتـــير . واستمرت حفلات العشاء والاحاديث ولكن قشرة البرتقالة هذه ازعجت احلام فولتير . .

وعلى كل حال فقد كانت به رغبة للعودة الى وطنه . وجاءت اللحظة الحاسمة في عام ١٧٩٢ عندما استدعى فردريك العالم الرياضي العظيم ميبيرتويس من فرنسا مع علماء آخرين في محاولة للنهوض بالعقل الالماني باتصال مباشر مع رجال التنوير الفرنسي ، وحصل خلاف بين هذا العالم واحد مرافقيه من العلماء حول تفسير نيوتن . ودخل فردريك في النقاش الى جانب ميبيرتويس . اما فولتير الذي كان يتصف بالجرأة اكثر من العمل فقد ايد كوينج العالم الفرنسي الاخر . وقد كتب بهذه المناسبة الى مدام دينيس يقول ، لسوء حظي انني كاتب ايضاً وأقف في المعسكر المعارض للملك . لست املك صولجانا ولكني املك قلما . لقد جرى هذا في وقت كان فيه فردريك يكتب الى اخته « ان الشيطان متجسد في رجال الادب الذين حولي ، لاعمل اطلاقا معهم ، ومواهبهم تنحصر في النواحي الاجتماعية فقط . »

وفي هذا الوقت كتب فولتير كتابه (دكتور اكاكيا) الذي شهر بـه بالعالم الرياضي ميبيرتويس ، وقرأه على فردريك الذي بقي يضحك طيلة الليل ، ولكنه طلب من فولتير ان لايطبعه . وتظاهر فولتير بالاذعان ، ولكنه كان قد ارسل الكتاب للطباعة ، والكاتب لايسعه ان يقتل بنات قلمه وحبات فكره وعندما ظهر الكتاب غضب فردريك غضبا كبيرا ، وهرب فولتير من نارغضبه .

ولكن وكلاء الملك أوقفوه واعتقلوه في فرانكفورت على الرغم من كون هذه المدينة خارج سلطان الملك . ومنعوه من الخروج الى ان يسلم لهم بعض اشعار الملك التي لاتتناسب مع بلد متمدن . وزاد في الطين بلة ان هذه الاشعار كانت موضوعة في صندوق فقدمنه في الطريق . وبقي فولتير عدة اسابيع موقوفا الى ان عثر على الصندوق . وظن بائع كتب له على فولتير بعض الدين انها فرصة سانحة لمطالبته بالذي عليه وتصفية حسابه معه . وما كان من

فولتير الذي كان في حالة غضب شديد الا ان ناوله لكمة على اذنه ، وقام سكرتيره كوليني بمواساة بائع الكتب قائلا له ، ياسيدي لقد تلقيت لكمة على اذنك من اعظم رجل في العالم .

وبعد ان اطلق سراحه اخيرا ، واوشك دخول الحدود الفرنسية ، وصلته رسالة تمنعه من الدخول واعتبار نفسه منفيا . واحتار فولتير العجوز المطارد اين يتجه ، وفكر بعض الوقت في الاتجـــاه الى بنسلفانيا ، يستطيـع المرء ان يدرك يأسه ، وامضى شهر مارس من عام ١٧٥٤ بحثا عن مكان مناسب ليدفن نفسه وهمومه به . واشترى اخيرا في ضواحي جنيف ضيعة قديمة سماها النعيم جعلته بعيدا وآمنا من مطاردة حكام باريس وبرلين المستبدين . وانصرف الى زرع حديقته واسترداد صحته . وعندما بدأت حياته تسير في طريق الهرم والشيخوخة ، دخل في انبل واعظم انتاجه الفكري .



٥ ـ مقال الاخـــلاق

ما الذي دفعهم الى نفيه في منفاه الجديد ؟ ذلك لانه نشر في برلـين اعظم انتاج له جرأة وطموحاً وغزارة وقيمة . وعنوان هذا الكتاب ، مقـــال عن اخلاق وروح الشعوب من ايام شارلمان الى لويس الثالث عشر . لقد بـــدأ في كتابته لمدام شاتليـــه . ولكنه توقف عن الكتابة لانها لم تنل رضاها بقولها انها تقويم قديم « اذ ما يهم امرأة مثلي اعيش في ضيعـتي ان تعرف ان أبغل خلف هاكون في السويد وان عثمان هو ابن ارطوغرل ؟ لقد قرأت بشغف تاريخ اليونان والرومان ، وقدم لي هذا التاريخ صوراً ممينة اجتذبتني ، ولكني لم انته من مطالعة اي تاريخ طويل عن دولنا الحديثة . واكاد لا اجـــد فيها سوى الاضطراب ، انها سرد لعدة حوادث دقيقة بغـــير ارتباط او نتيجة . وآلاف المعارك التي لم تؤد شيئاً ولا احب مطالعة تربك العقل بلا فائدة . » .

لقد وافقها فولتير على ذلك ، فهو يقـــول « ان التاريخ صورة عن الجرائم والكوارث ليس الا" ولكنه عبر لمدام شاتليـــه عن امله في ايجاد حل في تطبيق الفلسفة على التاريخ، ومحاولة تتبع تاريخ العقل البشري من وراء تدفق الحوادث السياسية ، وقال لا ينبغي ان يكتب التاريخ سوى الفلاسفة . لقـــد شوهت الاساطير التاريخ عند جميع الشعوب . الى ان تقدمت الفلسفة لتثقيف الانسان وتنويره ، وعندما وصلت الفلسفة اخيراً بعد ان سلكت طريقها في وسط هذا

الظلام ، وجدت العقل البشري اعمى بسبب اخطاء القرون الطويـــلة ، ومن الصعب هديه ونصحه وارشاده . وتبين لهـا بالدليل كذب الكثير من الحقائق والشغائر والآثار . وينتهي فولتير بقوله ان التاريخ لاشيء سوى مجموعة من الاباطيل والخدع التي نلعب بها على الاموات بحيث نحول الماضي ليتناسب مع رغباتنا في المستقبل .

راح فولتير يكدح كعامل في منجم ليجد في هذا النهر من الاكاذيب جذور حقيقة تاريخ العالم الحقيقي . ولكنه بعد سنة اتجه الى دراسات تحضيرية تمهيدية منها ، تاريخ روسيا ، تاريخ شارلز الثاني عشر ، عصر لويس الرابـــع عشر ، وعصر لويس الثالث عشر . عندما قام الاب دانيال اليسوعي بكتابة تاريخ فرنسا وضع امامه في المكتبة الملكية في باريس نحـــو الف ومئتي مجلد من الوثائق والمخطوطات ، وبعد ان امضي ساعة في القاء نظرة عليها اعادها بعد ذلك الى الاب تورنيمين وهو معلم سابق لفولتير بقوله ، ان جميع هذه الوثائق والمخطوطات اوراق قديمة لا قيمة لها ولا يحتاجها في كتابته . اما فولتير فعلى عكس ذلك ، فقد قرأ كل شيء وقـــع تحت يديه عن موضوعه ، وغاص في مئات المجلدات ، والمذكرات ، وارسل مئات الرسائل لمن بقي على قيد الحياة من رجال اشتركوا في الحوادث المشهورة ، واستمر في دراسته حتى طبع انتاجه وأدخل تحسينات على كل طبعة .

ولكن جمع المعلومات لم يكن سوى عمل تمهيدي ، فقـد احتاج الى وسيلة جديدة في الاختيار والترتيب . ان مجرد الحقائـــق لا يكفي ، وحتى لو كانت تفي بالمهمة وهذا امر نادر الوقوع ؛ فانها ليست سوى حقائق ، ان التفصيلات التي لا تؤدي الى شيء تكون بالنسبة الى التاريخ بمثابة الامتعة من الجيش ، يجب ان ننظر الى الامور نظرة اوسع ، لان عقل الانسان صغير جداً ويغرق تحت وطأة التفاصيل . يجب ان يقوم على جمع الحقائق محللون بحيث ترتب في شكل قاموس تاريخي يجد فيه الشخص هذه الحقائق التي يحتاج اليها كما يجد الكلمات في القاموس » .

لقد كان فولتير يبحث عن طريقة موحدة ينسج حولها كل تاريخ المدنية في اوروبا في خيط واحد . واقتنع ان هذا الخيط هو تاريـــخ الحضارة . وعزم ان لا يتناول في بحثه التاريخي الملوك بل الحركات والقوى والجماهير . وان لا يتناول الدول بل الجنس البشري ، وان لا يتناول الحروب بـــل سير وتقدم العقل البشري « ان المعارك والثورات، امر ثانوي في مشروعه كان الجيوش والفرق والنصر والهزيمة وسقوط المدن واعادة الاستيلاء عليها امور تشترك فيها كل كتب التاريخ ... جرد التاريخ من الفنون وتقدم العقل وسوف لا تجد فيه شيئاً . » « لا اريد ان اكتب تاريخاً عن الحروب ولكن عن المجتمعات، وان أوكد كيف عاش الناس في داخل اسرهم وعائلاتهم ، وما هي الفنون المشتركة التي هذبوها وارتقوا بها .. ان موضوعي هو تاريخ العقل البشري وليس مجرد عرض تفصيلي للحقائق الجميلة . وسوف لا القي اهمية على تاريخ اللوردات والاسياد .. ولكني اريد ان اعرف حقيقة الخطوات التي خطـــا بها الناس من العصور البربرية الى المدنية . » . لقد كان امتناع فولتير عن ادخال الملوك في بحثه التاريخي جزءاً من الثورات الديمقراطية التي ابعدتهم عن الحكم اخيرا . وبدأت رسالته في الاخلاق في تجريد اسرة البوربون من الحكم في فرنسا .

وهكذا فقد انتج اول فلسفة عن التاريخ، اول محاولة منظمة لتتبع مجاري الاسباب الطبيعية في تطور العقل الاوروبي . وكان من المتوقع ان يغفـــل فيها التفسيرات التي تقوم على المعجزات والظواهر الطبيعية الخارقة . لن يقف التاريخ على ساقيه حتى نبعد اللاهوت عنه . لقد وضع كتاب فولتير كما يقول « بوكل » الاساس لعلم التاريخ الحديث . ولا شك ان جيبون ونيبور وبوكل وجروت مدينون له بالكثير . ولا يجاريه حتى الآن احد في هذا الميدان الذي اكتشفه اولا .

ولكن لماذا كان اعظم كتاب له سبباً في نفيه؟ لانه ضايق كل انسان بذكره

الحقيقة ! لقد اغضب على وجه الخصوص طبقة رجال الدين بتبنيه وجهة النظر التي تطور بها جيبون بعد ذلك ، وهي ان غزو الديانة المسيحية للوثنية في روما وتحويلها من دولة وثنية الى مسيحية قد ادى الى تفسخ الامبراطورية الرومانية من الداخل . ومهدالى سقوطها فريسة سهلة في يد الغزاة البرابرة . وزاد في سخط رجال الدين اكثر انه لم يفسح فراغا كبيرا في كتابه عن ارض الميعاد والبلاد المسيحية ، ولم يتحدث عن الصين والهند وفارس وعن دياناتها بانصاف وعدل . لقد كشف هذا الكتاب عن عالم جديد واسع . وادى الى جفاف العقائد نسبيا . واصدر الملك قرارا يقضي بمنع دخول هذا المواطن الفرنسي الذي تجاسر على اعتبار نفسه انسانا اولا وفرنسيا ثانيا ، وان لاتطأ قدماه ارض فرنسا بعد ذلك .

٦ ـ فيرني ـ كنديد

كانت الضيعة التي اشتراها منزلا مؤقتا الى أن يجد له مسكنا يستقر فيه . وفي عام ١٧٥٨ وجد هذا المسكن في فيرني ، داخل الحدود السويسرية ، وعلى مقربة من الحدود الفرنسية ، حيث يشعر بالأمان بعيدا عن السلطة الفرنسية ، ويكون قريبا من ملجأ فرنسي لو حاولت الحكومة السويسرية مضايقته . وقد وضع هذا المسكن الجديد حدا لطوافه المتقلب هنا وهناك . لقد دل طوافه من مكان الى آخر على توتر اعصابه ، كما دل على خوفه من المطاردة .

انه الآن في الرابعة والستين، ولأول مرة يعيش في بيت يملكه نفسه . هناك مقطع في خاتمة احدى قصصه « اسفار سكارمينتادو » ينطبق عليه . «بعد أن رأيت ما رأيت من جمال العالم ، عزمت على الا أرى في المستقبل شيئا سوى بيتي ، لقد اتخذت زوجة ، وسرعان ما بدأت أشك في اخلاصها لي ، ولكن على الرغم من هذا الشك فأني لا ازال اجد أن هذا اسعد حالات الحياة كلها » انه بلا زوجة الآن ، ولكن ابنة اخيه تعيش معه ، وهذا أفضل بالنسبة الى رجل عبقري . لم نسمع عن رغبته في العودة الى باريس ابدا ... لاشك أن هذا المنفى قد مد في حياته .

كان سعيدا في حديقته ، يزرع اشجار الفاكهة التي لم يتوقع ان يراها تزدهر وتحمل في حياته . وعندما أثنى معجب به على العمل الذي قام به لأجل ذريته أجاب « نعم ، لقد زرعت اربعة آلاف شجرة . وكان يرسل كلمة لطيفة لكل انسان ، ولكنه اذا اثير يندفع في كلمات أشد حدة من الابر . وذات يوم سأل زائراً عمن أرسله له . — فأجابه « لقد ارسلني اليك السيد هللر . » — فقال فولتير : — « انه لرجل عظيم ، وشاعر عظيم ، وعالم عظيم ، وفيلسوف عظيم ، وعبقري عالمي . » — ان ما تقوله ياسيدي هو اعظم التقدير للرجل ولكنه لا يقدرك كما تقدره . وهنا قال فولتير : « آه ، ربما نكون كلانا مخطئين . »

لقد اصبحت (فيرني) الآن عاصمة العالم المثقف . وزاره فيها كل عالم او حاكم مثقف بشخصه او بادله الرسائل . وزاره رهبان دخل الشك الى ايمانهم ، وأرستقراطيون أحرار ، وسيدات مثقفات ، وسعى اليه جيبون ، وبوزويل ، من انجلترا ، وثوار عصر التنوير وغيرهم كثيرون .

لقد أرهق هذا السيل من الزوار فولتير وكبده الكثير من النفقات . وكان يشكو من ذلك بقوله ، انه أصبح مدير فندق لأوروبا كلها وكان يقول — « احفظني يارب من اصدقائي وسأحافظ على نفسي من اعدائي . »

اضف الى هذه الضيافة المستمرة ، سيلا من الرسائل التي لم يشاهدها العالم من قبل . لقد وردت عليه الرسائل من كل صوب وحدب . ومن رجال على اختلاف انواعهم ومراكزهم . لقد كتب له عمدة بلد في المانيا — « يسأله بثقة عن وجود الله او عدم وجوده . ويسأله الجواب بعودة البريد . لقد اعتقد ملك السويد جوستاف الثالث بزهو أن فولتير قد لمح عن بلاده وكتب له يقول ، أن هذا اعظم تشجيع لهم ليبذلوا جهدهم هناك . واعتذر كريستيان السابع

ملك الدنيمرك لعدم قيامه فورا بجميع الاصلاحات . وأرسلت له كاترين الثانية ملكة روسيا هدايا جميلة ، وكاتبته باستمرار ، ورجت أن لايعتبرها لجوجة ملحاحة . وحتى فردريك بعد سنة من السكوت عاد الى مراسلته بقوله :

لقد ارتكبت معي اخطاء كبيرة ، وقد عفوت عنها جميعها ، واريد ان انساها . ولولا جنوني بحب عبقريتك النبيلة لما استطعت ان تهرب بريشك وتنجو بنفسك ... هل تحب سماع اشياء حلوة ، حسنا جدا ، سأخبرك بعض الحقائق ، أني ارى فيك أعظم عبقري ولدته الأجيال . وأكبر شعرك ، واحب نثرك ...

ما جاء كاتب قبلك أبدا بمثل حصافتك وذكائك وذوقك وبلاغتك . انك ساحر الحديث . وتعرف كيف تدخل المتعة الى قلوب الناس وكيف تعلمهم في وقت واحد . انك اعظم مغر عرفته اطلاقا . وقادر على اثارة حب الناس لك اذا اردت . ولديك من نعمة العقل ما يمكنك من الاساءة لمن يعرفونك مع ضمان تسامحهم معك . وبالاختصار فأنت كامل لو لم تكن انسانا .

من كان يتوقع من مثل هذا الانسان المرح ان يكون مصدرا للتشاؤم لقد رأى في شبابه الجانب المشرق من الحياة عندما كان شابا طروبا يرتاد صالات باريس على الرغم من دخوله الباستيل . ومع ذلك فقد ثار حتى في تلك الأيام العابثة على التفاؤل غير الطبيعي الذي اظهره ليبنتز ، وكتب الى شاب متحمس هاجمه كتابة ووافق مع ليبنتز على ان هذا العالم أفضل من جميع العوالم الممكنة ، بقوله ، يسرني ان اسمع ياسيدي أنك كتبت كتابا ضدي . وان هذا يشرفني ... عندما اوضحت شعرا او نثرا ، لماذا يقضي الكثيرون من الناس على حياتهم في هذا العالم الأفضل من جميع العوالم . وسأكون شاكرا لك كثيراً

وأنا في انتظار مناقشاتك ومحاوراتك ، وشعرك وذمك وشتمك . واؤكد لك من اعماق قلبي ، اننا كلانا لانعرف شيئا عن المسئلة .

لقد مزق الاضطهاد وخيبة الأمل ايمانه بالحياة . كما ان تجاربه في برلين وفرانكفورت قضت على حدة حماسه وتحطم ايمانه وحماسه أكثر عندما جاءت الاخبار في نوفمبر عام ١٧٥٥ عن وقوع زلزال مخيف في لشبونة ذهب ضحيته ثلاثون الفا من السكان . لقد وقع هذا الزلزال في يوم القديسين ، وامتلأت الكنائس بالمصلين . لقد تأثر فولتير تأثرا بالغا ، واحتدم غضبا عندما سمع أن رجال الدين الفرنسيين اعتبروا هذه الكارثة التي نزلت بسكان لشبونة عقابا لهم على خطاياهم وذنوبهم . وانفجر فولتير ونظم شعرا مؤثرا عبر فيه تعبيرا عنيفا عن هذه المعضلة القديمة .

أنا جزء صغير من الكل الكبير
نعم ، لقد حكم على جميع الحيوانات بالحياة
لقد ولدت جميع المخلوقات بمقتضى القانون ذاته
وهي تتألم مثلي ومثلي تموت
يشد الصقر على فريسته الوجلة
ويطعن بمنسره الدامي اطرافها المرتعشة
ويبدو كل شيء على ما يرام في عينيه لفترة
ويمزق النسر الصقر الى قطع شر تمزيق
ويرشق الانسان النسر بنباله ويقتله
ويسقط الانسان في غبار معارك الحروب
ويختلط دمه بدماء القتلى من رفاقه
ويصبح بدوره طعاما للطيور الكاسرة

وهكـذا كل شيء في هذا العالم يئن ويتألم

لقد ولد الجميع للعذاب والموت

ومن فوق هذه الفوضى الشاحبة ستقول

ينزل الشر بواحد لخير الجميع .

ما هو النعيم ! عندما تصرخ بصوت فان يرثى له كل شيء حسن .

ان الكون يناقضك ، ويناقض قلبك

ويدحض مئة مرة اوهام عقلك

ما هو رأي هذا العقل الأوسع ؟

صمتا ، ان كتاب القدر مغلق علينا

ان الانسان غريب في بحثه ولا يعرف من اين يجيء والى اين يذهب .

ذرات معذبة في فراش من طين يبتلعها الموت ، سخرية القدر

ان وجودنا ممزوج باللانهائي ولن نرى انفسنا او نعرفها ابدا .

ان هذا العالم مسرح للكبرياء والخطأ يعج بالمجـانين المرضى الذين يتحدثون عن السعادة .

لقد غنيت مرة بانغام اقل كآبة وحزنا بان السرور المشرق هو الحـكم العام ولكن الوقت قد تغير

وعلمني تقدم العمر ان اشارك الناس في انكسارهم وابحث عن ضـوء وسط الظلام العميق .

لا اقدر الا ان اقاسي ولن اتذمر أو أتضجر .

وبعد اشهر قليلة اشتعلت حرب السبع سنوات ، واعتـبرها فولتير جنوناً وانتحاراً وتدميراً لأوروبا سواء فازت فرنسا او بريطانيا ببضعة فدادين

من الأراضي الثلجية في كندا . لقد رد جين جاك روسو على قصيدة فولتير عن لشبونة ، ووضع روسو اللوم في هذه الكارثة التي نزلت بلشبونة على الناس ، بقوله ، لو عشنا في الحقول خارج المدن ولم نعش في المدن ، لما بلغت الخسارة في القتلى الى هذه النسبة العالية ، ولو كنا نعيش تحت السماء ، لا في البيوت ، لما سقطت البيوت علينا ، لقد اثارت الشعبية التي استقبلها مقال روسو الدهشة في فولتير ، وثار على تمريـغ اسمه بالتراب من جانب هذا المغامر ، وادار على روسو سلاح السخرية المخيف الذي لم يجاره في استخدامه انسان ابدا . وفي ثلاثة ايام في عام ١٧٥١ كتب كتابه كنديد :

لانجد كاتبا يناقش التشاؤم بسرور وحبور مثل فولتير في هذه القصة ، ولا نجد انسانا يضحك من اعماق قلبه على الرغم من معرفته بأن هذا العالم عذاب وألم ، ومن النادر ان نجد قصة بمثل هذا الفن البسيط الممتنع .

لقد كتبها بسرعة ، ولكن القلم يجري ويضحك بين اصابع فولتير كما يقول اناتول فرانس . قد تكون اجمل قصة في الادب كله .

ان كنديد كما يدل اسمه عليه شاب بسيط وامين وهو ابن بارون عظيم وتلميذ العالم بانجلوس .

كان بانجلوس استاذا في الميتافيزيقا واللاهوت والكون ... وقال ان من الممكن اثبات ان كل شيء وجد من اجل افضل غاية . لاحظ ان الأنف قد شكل ليحمل النظارة .. والسيقان قد وضعت بشكل واضح من اجل الجوارب ، والحجارة لبناء القصور .. والخنازير لنأكل لحمها طيلة السنة ، وبناء على ذلك فان اولئك الذين يؤكدون ان الكل حسن يقولون قولا سخيفا وكان الواجب ان يقولوا ان الكل للاحسن .

وبينما كان الاستاذ بانجلوس يتحدث ، هاجم جنود الجيش المنغـاري

القصر والقوا القبض على كنديد وجعلوا منه جنديا . وعلموه كيف يدور يمينا ويسارا ، ويسحب البندقية ويعيدها الى مكانها، ويستعد ويطلق النار ، ويسير.. وعزم في يوم جميل من ايام الربيع على المشى ، فانطلق ماشيا الى الامام معتقدا ان من حق الناس والحيوانات ايضا استعمال ارجلهم كما يحبون ، لقد تقـدم فرسخين، وادركه اربعة جنود ابطال طول كل واحدمنهم ستة اقدام ، واوثقوه وحملوه الى السجن ، وخيروه بين ان يجلده كل جندي في الغرفة ستـا وثلاثين جلدة ، او يتلقى مرة واحدة رصاصتين في رأسه ، وحاول عبثا ان يقنعهم بحرية ارادة الانسان ، وانه لايريد ان يختار لاهذا ولا ذاك ، واجبر على الاختيار ، وعزم بموجب هبة الله التي تسمى الحرية ، ان يتلقي من الجلد ستا وثلاثين جلدة . وتحمل هذا الجلد مرتين .

وهرب كنديد وسافر الى لشبونه بحرا ، وتقابل على السفينة مع الاستاذ بانجلوس ، الذي حدثه عن قتل البارون والبارونة وتدمير القصر ، وانهى حديثه بقوله كل هذا لامفر منه لأن مصائب البعض لخير الجميـع والكل . وكلما زادت مصائب البعض الخاصة كان ذلك لمنفعة الكل العامة . ووصلوا الى لشبونـه في الوقت الذي حدث فيه الزلزال تماما . وبعد انتهاء الزلزال راحوا يتحدثون عما اصابهم من مخاطر وعناء . واخذت خادمة عجوز تؤكد لهم ان مصـائبهم لاتقارن بمصائبها . قائلة لهم : لقد اوشكت على قتل نفسي مئة مرة ، ولكنني احببت الحياة ، قد تكون هذه النقيصة المضحكة ، احدى صفاتنا المميتة . اذ هل هناك شيء اكثر سخافة من ان ترغب في حمل عبء متواصل يمكن الانسان ان يلقيه عن ظهره دائما ؟ او بعبارة اوضح ، فان جميـع الناس يعتبرون حياة الملاح افضل من حياة قاضي القضاة ، ولكني اعتقد ان الفرق تافه ولا يستحق مشقة الفحص .

ويهرب كنديد من محاكم التفتيش الى براغواي ، هنـــاك يملك الآباء اليسوعيون كل شيء ، والشعب لايملك شيئاً . ويأتي الى مستعمرة هولندية، ويجد عبدا زنجيا بيد واحدة ، ورجل واحدة ، وقطعة بالية من القماش يستـتر بهـا جسده ، فشكى له العبد بقوله عندما نشتغل في قصب السكر ويعلق اصبع من اصابعنا في طاحونة القصب يقطعون يدنا ، وعندما نحاول الهرب يقطعون رجلنا . . . هذا هو الثمن الذي تأكلون به السكر في اوروبا . لقد وجد كنديد الكثير من الذهب الذي لم يكتشفه احد في الداخل ، وعاد الى الساحل واستأجر مركبا ليأخذه الى فرنسا ، ولكن ربان السفينة ابحر بالذهب وترك كنديد يفكر ويتفلسف على شاطىء المرفأ . واشترى كنديد بالقليل الذي تبقى معه تذكرة على سفينـــة متجهة الى باردو ، وبدأ حديثـــه مع عالم مسن ، يدعى مارتين .

هل تعتقد ، قال كنديد، ان الناس كانوا يذبحون بعضهم بعضا دائما كما يفعلون اليوم وبأنهم كانوا دائما كذبة ، مخادعين ، خونة ، ناكرين جاحدين ، قاطعي طريق ، حمقى ، لصوصا ، سفلة ، شرهين ، سكيرين ،بخلاء، حسودين، طموحين، سفاكي دماء ، مفترين ، فاسقين ، متعصبين ، منافقين ومجانين ؟.

فأجاب مارتين ، هل تعتقدان الصقور كانت تفترس الحمام دائما حيث وجدته؟

بلا شك قال كنديد .

حسنا اذن قال مارتين ، اذا كانت الصقور لم تغير من طباعها ، لمـــاذا تتصور الناس قد غيروا من طباعهم ؟ .

آه قال كنديد ، هناك فرق كبير شاسع ، لحرية الارادة ، وهنـــا وصلوا الى باردو .

اننا لانستطيـــع ان نتبع كنديد الى بقية مغامراته التي تشكل تعليقـا

مبسطا حول لاهوت العصور الوسطى وتفاؤل ليبنتز . وبعد ان تعرض كنديد الى ضروب مختلفة من الشرور على ايدي رجال كثيرين سكن في تركيا واشتغل مزارعا وتنتهي القصة بحوار اخير بين الاستاذ والتلميذ .

كان بانجلوس يقول احيانا الى كنديد :

يوجد ارتباط بين الحوادث في هذا العالم الذي هو افضل العوالم لأنك لو لم تطرد من القصر العظيم ... ولو لم تطاردك محاكم التفتيش ، ولو لم تسافر الى امريكا ... ولو لم تفقد كل ذهبك ، لما كنت هنا تأكل هذا النارنج المحفوظ والفستق الحلبي .

كل هذا حسن قال كنديد ، ولكن دعنا نزرع حديقتنا .



٧ ــ الموسوعة والقاموس الفلسفي

ان الشعبية التي استقبل بها هذا الكتاب الجريء «كنديد» تعطينا فكرة عن روح العصر، عن الحضارة العظيمة في عهد لويس الرابع عشر . لقد علم الناس ان يبتسموا في وجه العقائد والتقاليد . ان فشل الاصلاح الديني في اكتساح فرنسا لم يترك امام الفرنسيين طريقا وسطا بين الكفر والايمان وبين الخطأ والعصمة عن الخطأ . وفي الوقت الذي كان فيه الفكر في المانيا وانجلترا يتحرك براحة في خطوط التطور الديني كان العقل الفرنسي يقفز من الايمان الحار الذي ادى الى ذبح البروتستانت الى العداء البارد الذي انقلب فيه لامتر وهلفيتوس وهولباخ وديدرو على ديانة ابائهم . دعنا ننظر قليلا الى البيئة الفكرية التي تحرك فيها فولتير في المدة الاخيرة وعاش فيها .

كان لامتر (١٧٠٩ – ٥١) طبيبا في الجيش. لقد فقد وظيفته لانه كتب كتابا اطلق عليه اسم «تاريخ النفس الطبيعي» ونفي من فرنسا بسبب رسالة اطلق عليها اسم «الانسان آلة» ولجأ الى بلاط الملك فردريك، الذي كان نفسه مفكراً متقدما وعزم على الاحاطة بالثقافة الاخيرة في باريس . لقد تناول لامتر فكرة الآلية التي تخلى عنها ديكارت الوجل» كولد احرق

اصابعه . واعلن بشجاعة ان كل العالم بما في ذلك الانسان عبارة عن آلة ، والنفس مادة ، والمادة نفسانية ، ولكن مهما كانتا فان الواحـــدة تؤثر على الاخرى وتعمل فيها ، وتنموان وتفنيان مع بعضها بطريقة لاتـــترك شكا في تشابهما الضروري واعتمادهما المتبادل . اذا كانت النفس روحاً محضة ، كيف تستطيع الحماســة ان تـدفيء الجسم ، او ان تعكر حمى الجسم عمليـــة الفكر ؟ جميـع الاجسام الحية تطورت من نطفة اصلية خلال العمل المتبـادل للجسم والبيئة . والسبب في ان للحيوانات عقلا ، والنباتات ليس فيها عقل ، هو ان الحيوانات تتحرك للحصول على طعامها ، بينما تستمد النباتات مايأتي لها . والانسان يمتاز بالعقل والذكاء الاعظم لأن لديه اعظم الرغبات ، واوســـع التحركات . ان الكائنات المجردة من الرغبات كائنات بلا عقول ايضا . وعلى الرغم من ابعاد لامتر ونفيه بسبب ارائه هذه ، فقد تناول هلفيتوس (١٧١٥ — ٧١) اراء لامتر كقاعدة لكتابه عن الانسان ، واصبـح واحـــدا من اغنى الاغنياء في فرنسا ، وارتفع الى مقام الشرف والمركزالعالي. هنا نجد فيهلفيتوس اخلاق الالحاد ، كما وجدنا في لامتر ميتافيزيقا الالحـــاد . فهو يقول ان جميع الاعمال تمليها الانانية الذاتية أي حب النفس ، وحتىالبطل يتبـعالشعور الذي يرتبط مع اللذة الكبرى فيه ، والفضيلة هيالانانيةمزودة بنظارةوالضمير. ليس صوت الله ولكنه الخوف من الشرطة . انه الرواسب الباقية في داخلنا من سيل المحرمات والممنوعات التي تنصب على نفوسنا النامية من ابائنا ومعلمينا وصحفنا وكتبنا . يجب ان لاتقومالاخلاقعلى الدينواللاهوتبلعلى علم الاجتماع كما ان حاجات المجتمع المتغيرة ، لا وحي العقيدة الثابتة التي لاتتغير ، هي التي ينبغي ان تقرر الخير .

ان اعظم شخصية بين هذه الجماعة هودينيس ديدرو (١٧١٣ — ٨٤)

لقد عبر عن ارائه في كتابات متنوعة جرى بها قلمه ، وفي كتاب «نظام الطبيعة» لبارون هولباخ (١٧٢٣– ٨٩) الذي كان صالونه مركز نشاط ديدرو وجماعته يقول هولباخ ، اذا عدنا الى البداية نجد ان الآلهة قد وجـدت في نفوس الناس بسبب الخوف والجهل او بعبارة اوضح ، فان الجهل والخوف بين الناس هما مصدر تصور الناس بوجود آلهة . وان الوهم والخيال والحماسة ، والخـداع زينتها او شوهتها . والضعف عبدها ، والتصديق والتسليم وسلامة النية حافظت عليها ، والعرف يحترمها ويوقرها ، وحكم الطاغية يؤيدها كي يستخـدم عمى الناس وغفلتهم لمنافعه ويسخرهم لصالحه . ويقول ديدرو ان الايمان بالله مرتبط بالتسليم بحكم الفرد او الحكم المطلق ، كلاهما ينهضان ويسقطان معـاً ، ولن يتحرر الناس اطلاقاً الى ان يشنق آخر ملك بأمعاء ومصارين آخر قسيس . وتصحو الأرض على نفسها عند تدمير السماء ، وقد تكون المادية تسهيلا كبيرا للعالم وقد تكون كل انواع المادة حية بالغريزة ، ومن المستحيل تقليـل وحدة الوعي والشعور للمادة والحركة ، ولكن المادية سلاح ماض ضد الكنيسة ، ويجب ان نستخدمها الى ان نجد شيئا افضل منها . وفي الوقت ذاتـه يجب على الانسان ان يعمل على نشر المعرفة وتشجيـع الصناعة ، اذ ان الصناعـة ستحقق السلام ، والمعرفة ستخلق اخلاقا طبيعية جديدة .

هذه هي الآراء التي اجتهد ديدرو والعالم الرياضي دلامبرت في بـذر بذورها ونشرها في الموسوعة الكبيرة التي اصدراها جزءا فجزءا من عام ١٧٥٢ – ١٧٧٢ . لقد اوقفت الكنيسة الاجزاء الاولى ، وعندما زادت المعارضة ، تخلى اصدقاء ديدرو عنه ، ولكنه واصل عمله بنشاط وحيوية يدفعه غضبـه وسخطه ، وقال « انا لا اعرف شيئا فاحشا وشائنا ، اكثر من تحمس رجـال الدين ضد العقل ، والذي يسمهم يفترض ان الناس لا يمكنهم ان يدخـلوا الى

صدر المسيحية الا كما يدخل قطيع الماشية الى حظيرته .» . لقد كان ذلك العصر عصر العقل كما قال «بين» ، ان هؤلاء الرجال لم يرتابوا ابدا بان العقل هو الامتحان البشري النهائي لكل انواع الحقيقة والخير . لقد قالوا دع العقل ينطلق ويتحرر وسيقوم ببناء حياة مثالية فاضلة في اجيال قليلة . لم يخطر على بال ديدرو بان جان جاك روسو الشهواني العصبي الذي قدمه الى رجال الفكر في باريس كان يحمل في عقله او في قلبه بذور الثورة ضد تتويج العقل . وهي ثورة كانت تسلحها وتدعمها آراء « عمانويل كانت» الغامضة التي سرعان ما استولت على كل قلعة من قلاع الفلسفة .

ومن الطبيعي ان يحيط هؤلاء الملحدون الذين تعاونوا على وضع الموسوعة التي ذكرناها ، بفولتير الذي كان مهتما بكل شيء وله يد في كل معركة، وكانوا سعداء في اعتباره زعيما لهم ، ولم يرفض البخور الذي احرقوه حوله والعطر الذي رشوه فوق رأسه ، على الرغم من ان افكارهم كانت في حاجة الى شيء من التشذيب والتهذيب . وطلبوا منه ان يكتب مقالات لمشروعهم العظيم ، واستجاب لرغبتهم بسهولة وخصوبة اثلجت صدورهم واطربت نفوسهم . وعندما فرغ من مقالاتهم قام باصدار موسوعة خاصة به اطلق عليها اسم القاموس الفلسفي . تناول فيها بجرأة لامثيل لها الموضوع تلو الموضوع حسب الترتيب الابجدي . وصب في كل موضوع جزءا من معرفته وحكمته التي لاتنضب ولا تكل . تصور رجلا واحدا يكتب عن كل شيء وينتج موسوعة علمية تعتبر من اعظم انتاجه روعة واكثرها قراءة بجانب رواياته . كل مقال فيها نموذج في الاختصار والوضوح والذكاء ، قد يطيل البعض في كتابة كتاب واحد ، ولكن فولتير محكم ومختصر في المئة كتاب التي وضعها . وهنا على الاقل يثبت لنا فولتير بأنه فيلسوف .

فهو يبدأ مثل بيكون ، وديكارت ، ولوك وجميع الفلاسفة المحدثين بالشك . ويقول « لقد اتخذت لي مرشداً ومثلا اعلى القديس توما ديديموس الذي اصر دائما على الفحص والتجربة بيديه . » ويشكر بايل الذي علمه الشك ، وهو رفض جميع النظم » ويظن ان رئيس كل مذهب من مذاهب الفلسفة كان دجالا نوعا ما » ويقول كلما سرت اكثر ، كلما ازدادا اقتناعي بفكرة ان الميتافيزيقا بالنسبة الى الفلاسفة كالقصص بالنسبة الى النساء . ان الدجالين ، والمشعوذين هم الذين على يقين وحدهم . نحن لانعرف شيئا عن العلة الاولى ، والحقيقة انه من المغالاة والتطرف تعريف الله والملائكة والعقول ، وان نعرف بدقة لماذا خلق الله العالم ، في الوقت الذي لانعرف فيه لماذا نحرك اذرعنا بارادتنا . ان الشك ليس حالة مناسبة او موافقة ، ولكن اليقين حالة سخيفة ومضحكة ، انا لا اعرف كيف وجدت ، وكيف خلقت ، وكيف ولدت ، انا لااعرف شيئاً اطلاقاً طيلة خمس وعشرين سنة اسباب ما رأيت وسمعت وشعرت ... لقد رأيت ما يسمى بالمادة ، سواء أكانت في نجم كلب الجبار او في اصغر ذرة يمكن ادراكها بالمجهر ، ولا اعرف حقيقة هذه المادة .

وهو يتحدث عن قصة « الكاهن البرهمي الصالح » الذي تمنى « لو لم يولد ابدا ! » .

فسألته : لم لا ؟

فأجاب ، « لأنني قضيت اربعين سنة في الدراسة وخسارة الوقت ... اعتقد انني مركب من المادة ، ولكني لم اقدر على اقناع نفسي بحقيقة ذلك الذي يولد الفكر » كما انني جاهل تماما فيما اذا كان تفكيري مقدرة بسيطة كمقدرتي على المشي والهضم او اذا كنت افكر برأسي بنفس الطريقة

التي امسك بها شيئا بيدي ... اني اتحدث كثيرا وعندما اتحدث ابقى مبلبلا خجولا بما قلت .»

لقد تحدثت في نفس اليوم مع امرأة عجوز تعيش بجوار ذلك البرهمي الصالح ، وسألتها فيما اذا كانت مغمومة ومكتئبة لعدم فهمها لكيفية خلق نفسها ؟ ولم تدرك حتى سؤالي ، وقالت بعد ذلك انها لم تفكر في مثل هذه الاشياء التي يعذب فيها البرهمي الصالح نفسه ، وانها لم تفكر فيها لحظة واحدة. انها تعتقد اعتقادا راسخا من اعماق قلبها في تغير اله الهندوس ، وقالت انها جاءت بقليل من ماء النهر المقدس لتتوضأ به ، وتعتقد انها اسعد امرأة ، وبعد ان تأثرت بسعادة هذه المرأة الفقيرة عدت الى فيلسوفي وقلت له .

الا تشعر بالخجل من شقائك وبؤسك ، بينما تعيش امرأة على بعد خمسين ياردة منك لاتفكر بشيء وتعيش راضية ؟ . واجابني بقوله « انك على حق لقد قلت لنفسي الف مرة بأني لو كنت رجلا جاهلا كجارتي العجوز لكنت سعيدا ، ومع ذلك فان مثل هذه السعادة لا اريدها ولا ارغب فيها . »

لقد ترك جواب البرهمي اعظم الاثر في نفسي اكثر من اي شيء آخر مضى .

حتى ولو انتهت الفلسفة بشك تام مثل شك مونتاني ، فانها أنبل شيء في الانسان واعظم تجربة له . ولنقنع بتقدم معتدل في المعرفة ، بدلا من ان نحيك انظمة جديدة من وهمنا الكاذب.

يجب الا نقول ، لنبدأ بابتكار المبادىء ، وبذلك قد نقدر على تفسير

كل شيء ، بل يجب ان نقول :

لنقم بتحليل تام للمادة ، وبعدئذ نحاول ان نرى بتحسب اكثر ، هل تتناسب مع اي مبدأ ... لقد اوضح لنا بيكون الطريق الذي ينبغي ان يسير فيه العلم ... ولكن جاء ديكارت وفعل عكس ما كان ينبغي ان يفعل ، اذ انه بدلا من ان يدرس الطبيعة اخذ يقدسها ... ينبغي علينا ان نحسب ، ونزن ونقيس ونلاحظ ، هذه هي الفلسفة الطبيعية ، وكل مـــا تبقى فهو وهم وخيال .



٨ ـ اسحقوا العـــار :

من المحتمل ان لا يخرج فولتير عن هـــذا الشك الفلسفي الى المناقشات والجادلات المتعبة في سنواته الأخيرة او كانت الظروف التي واجهته في هـــذه السنوات الأخيرة ظروفاً عادية .

لقد وافقت الدوائر الارستقراطية التي حركها على وجهة نظره القائلة بعدم وجود حافز على المناقشة . وحتى القساوسة ابتسموا معه حول مصاعب الايمان. ما هي الاحداث التي حولته من مجرد السخرية المهذبـة من مذهب اللاادارية الى عدو مرير ضد رجال الدين لا يقبل المهادنة فراح يشن حرباً لا هوادة فيها على رجال الدين .

كانت طولوز لا تبعد كثيراً عن فيرني التي يعيش فيها فولتـير ، وكانت في ذلك الوقت المدينة الفرنسية السابعة ، وكان رجال الدين الكاثوليك يتمتعون بسلطة مطلقة في هذه المدينة في ايام فولتير ، لا يسمح لاي بروتستانتي في طولوز بأن يكون محاميا أو طبيباً ، صيدليا او بقالاً ، او بائع كتب ، او طباعـــاً . ومنع الكاثوليك من استخدام أي خادم او كاتب بروتستانتي وفي عام ١٧٤٨ حكم على امرأة بغرامة قدرها ثلاثة آلاف فرنك لأنها استعانت بقابلة بروتستانتية .

وحدث ان كان يعيش في طولوز رجـل بروتستانتي يدعى جان كالاس ،

وكانت له ابنة تحولت الى المذهب الكاثوليكي ، وولد شنق نفسه ، بسبب فشله في الحصول على عمل على ما نظن . وكان القانون في طولوز يقضي بأن يوضــع جثمان المنتحر عاريا عــلى حاجز من العيدان المشبكة ووجهه الى الاسفل ، ويسحب بهذه الطريقة عبر الشوارع وبعدئذ يعلق على المشنقة . ولكي يتجنب الأب وقوع هذا طلب من اقاربـــه واصدقائه ان يشهدوا على ان ولده توفى وفاة طبيعية ولم ينتحر . وعلى اثر ذلك انتشرت اشاعة بأن الوالد قتل ابنــه ليمنعه من التحــول الى المذهب الكاثوليكي . والقي القبض على الاب وبدأوا في تعذيبه ومات بسرعة على اثر التعذيب (١٧٦١) وتداعت عائلته ، وأمــام المطاردة هربت الى فيرني وطلبت مساعدة فولتير . واستقبلهم فولتــير في بيته وواسى جراحهم واثارت دهشته واشمئزازه قصة مطاردتهم وتعقبهم .

وفي الوقت ذاته تقريبا جاءت اخبار مصرع البزابيت سيرفينس ، وانتشرت الاشاعة مرة ثانية انها دفعت الى بئر وهي في طريقها لتعلن تحولها من البروتستانتية الى الكاثوليكية . واعتقل شاب صغير في السادسة عشرة من عمره على اثر هذه الاشاعة في عام ١٧٦٥ ، يدعى لابار ، بتهمة تشويه الصليب وعليه صورة المسيح وانزل به العذاب ، واعترف بذنبه ، فقطـع رأسه . وقذف بجسمه الى النار ، وسط هتاف الجماهــير وتصفيقها ، واحترقت معه نسخة من كتاب القاموس الفلسفي لفولتير وجدت في حوزته .

وهنا يتحول فولتير لاول مرة في حياته من الهزل الى الجد ، وعندما ابدى دلامبرت اشمئزازه من الدولة والكنيسة والشعب وكتب بانه سيسخر من كل شيء ، اجابه فولتير ، بقوله ، ليس هــذا وقت التهكم والسخرية ، ان الفطنة والسخرية لا تتفقان مع المجازر والقتل ... هل هــذه البلاد موطن الفلسفة والسعادة ؟ كلا ، انها بلاد المجازر والقتل ... لقد حدث مع فولتير الآن ،

ما حدث مع اميل زولا واناتول فرانس في قضيــة دريفوس ، لقد اثاره هــذا الظلم والطغيان، واحاله من كاتب رسائل وكتب الى رجل اعمال ايضا. ووضع الفلسفة جانبا واستعد للحرب ، او بالاحرى وجه فلسفته الى قوة دافعة عنيفة لا ترحم . وغادرت الابتسامة وجهه كما يقول « كل ابتسامة افلتت مـني رغم ارادتي في ذلك الوقت كانت تثير في نفسي التبكيت وكأنها جريمة ارتكبتها . » وهذا تبنى شعاره المشهور « اسحقوا العـــار . » وحرك روح فرنسا ضد مظالم الكنيسة . لقد بدأ يصب نارا فكرية ادت الى تحطيم الرهبانيـــة في فرنسا ، وساعدت في قلب العرش . لقد ارسل دعوة الى اصدقائه واتباعــه يدعوهم الى المعركة . « وحدوا انفسكم واقهروا التعصب والأوغاد ، واقضوا على الخطب المضللة والسفسطة المخزية والتاريخ الكاذب ، ... لا تتركوا الجهل يخضع العلم ، سيدين لنا الجيل الجديد بعقله وحريته . »

لقد حاولت الكنيسة في هـــذه الأزمة شراء ذمته ، وعرضت عليه قبعة كردينال في محاولة الوصول الى تسوية وصلح معه ، وكأن منصب الكردينال المعقود اللسان في ذلك الوقت سيثير اهتمام رجـل كانت له السيادة الفكرية في العالم بلا منازع . ورفض فولتير العرض ، واوقف رسائله التي كان يرسلها تحت شعار « اسحقوا العار » وبدأ في توزيع رسالته عن التسامح الديني ، وقال انه ما كان ليهتم بالعقيدة لو اقتصر رجال الدين على اقامة شعائرهم ، وتسامحوا مع الذين يختلفون عنهم في المذهب ، ولكن موقفهم وتعصبهم الذي لا نجد له اثرا في الانجيل هو مصدر النزاع الدامي في التاريـخ المسيحي ، « ان الانسان الذي يقول لي آمن كما اومن والا فان الله سيعاقبك ، سيقـول لي الآن آمن كما اومن والا سأغتالك . » ان التعصب المقرون بالخرافات والجهل كان اساس البلاء في جميـع القرون ، ولن يتحقق السلام الدائم ، ما لم يتسامح الناس مـع بعضهم

ويتعلم كل واحد منهم كيف يتسامح مع من يخالفه في الامور الفلسفية والسياسة والدينية . ان القضاء على السلطة الكهنوتية التي تعيش في ارضها جذور التعصب هو الخطوة الاولى في بناء مجتمع سليم .

لقد اتبع فولتير رسالته عن التسامح الديني سيلا من المنشورات التاريخية ، والمحاورات والرسائل والتعاليم الدينية التي بسطها عن طريق السؤال والجواب ، والخطب التشهيرية والهجو والتقريع والمواعظ والشعر والحكايات والقصص والتعليقات والمقالات التي كانت تحمل اسم فولتير ومئات الاسماء الاخرى المستعارة . وهذا العمري اعظم حملة من الدعاية الواسعة التي يقوم بها رجل واحد . لم تقم الفلسفة ابدا بمثل هذه الدعوة الواضحة والحيوية المتدفقة . لقد حلق فولتير باسلوبه لدرجة تجعل الانسان لا يشعر بانه كان يكتب فلسفة . لقد قال عن نفسه باعتدال كبير ، انني اعبر عن آرائي بوضوح كاف ، وانا كالجدول الصغير الشفاف ترى ما في قاعة لقلة عمقه . لقد قرأ له عدد كبير من القراء وحتى رجال الدين كانوا يقرأون منشوراته التي بلغ عدد بعضها ثلثمئة الف نسخة بيعت كلها على الرغم من ان عدد القراء كان اقل بقليل من عددهم الآن .

لا نرى شبيها لها في تاريخ الادب اطلاقا . لقد كان يقول ان الكتب الكبيرة مضى عهدها ، وهكذا فقد ارسل رسائله الصغيرة التي كانت بمثابة الجنود تباعا اسبوعا بعد اسبوع وشهرا بعد شهر بهمة لا تعرف الكلل ، مثيرا دهشة العالم بغزارة افكاره وخصوبة آرائه ، وحيوية اعوامه السبعين . قال هلفيتوس لقد اجتاز فولتير نهر الربيكون ووقف على ابواب روما .

بدأ بتوجيه نقد عنيف حول صحة الانجيل والوثوق به . لقد استمد الكثير

من كتاباته من سبينوزا ومن مذهب الايمان بالله وحده وانكار الوحي والانظمة الدينية وهو مذهب انجليزي ، ولكنه استمد معظم افكاره من قاموس بايــل الانتقادي . (١٦٤٧ - ١٧٠٦) ولكنه احال هذه الافكار بقلمه الى نور ونار . وكان عنوان احدى هذه الرسائل « اسئلة زاباتا » وهو مرشح للرهبانية . يتساءل زاباتا ببراءة بقوله « كيف نشرع في اثبات ان اليهود الذين نحرق منهم المئـــات كانوا شعب الله المختار طيلة اربعة آلاف سنة ؟ ويواصـــل الاسئلة التي تظهر التناقض الروائي والتسلسل التاريخي في التوراة . »

« عندما يلعن مجلسان احدهما الآخر كما يحدث دائمـــا ، اي مجلس منهما هو المعصوم عن الخطأ » وعندما فشل زاباتا في الحصول على اي جواب ، اخذ يدعو الى الله بشكل بسيط جـــدا . واعلن الى الناس عن الأب المشترك ، المجزي ، المعاقب ، الغفور . وانتشل الحقائق من الاكاذيب وفصل الدين عن التعصب ودعا الى الفضيلة وعمل بها ، لقد كان لطيفاً ومعتدلاً ورقيقا وأحرق في عـــام الخير في ١٦٣١ .

يظهر لنا فولتير كيف ان كل الشعوب القديمة كانت تؤمن بخرافات واساطير وينتهي الى القول بأن هذه الخرافات والاساطـير من صنع وابتكار القساوسة والكهنة . « لقد كان اول كاهن أول محتال يقابل اول احمق » عـلى كل حال ان فولتير لم ينسب الدين نفسه الى الكهنة والقساوسة ، ولكنه نسب لهم عـلم اللاهوت ، ان الخلافات البسيطة في علم اللاهوت هي التي سببت هذا النزاع المرير والحروب الدينية ، ليس الشعب البسيط العادي ... الذي اثار هـذه الخلافات السخيفة المميتة مصدر الخوف والرعب الشديد ... انهم الكهنة الذين يعيشون على كدكم وتعبكم في راحة وكسل ؛ ويثرون على حساب كدحـكم وبؤسكم . ويتنافسون على شراء الذمم واقتناء العبيد ويوحون لكم بالتعصب المذمـــوم ،

ليتمكنوا من سيادتكم والسيطرة عليكم ، وينشرون بينكم الخرافات والأساطير لا لتخافوا من الله بل لتخافوهم وترهبوهم .

ولكن يجب الا نفترض من هذا ان فولتير كان رجلا بلا دين . فقد رفض الالحاد رفضا باتا ، حتى ان بعض الملحدين الذين اشتركوا في كتابة الموسوعة التي تحدثنا عنها اتجهوا ضده ، وهو يقول في كتابه الفيلسوف الجاهـــل ، انه قرأ سبينوزا واراءه حول وحدة الكون وتأليهه ولكنه ابتعد عنها على اساس كونها اراء ملحدة . وهو يكتب الى ديدرو بقوله :

اعترف بأنني لا اوافق ساندرسون الذي انكر الله لأنه ولد فاقـد البصر ، وقد اكون على خطأ ولكنني لو كنت في مكانه لاعترفت بوجود عقل كبـــير عوضني الكثير عن فقدان بصري كالعقل والادراك والتأمل والعلاقات العجيبة التي تربط جميع الاشياء . وانا مشتاق جدا لرؤيتك والتحدث معك مهما كنت . فأنت جزء هام من ذلك الكل العظيم الذي لا افهمه .

ويشير الى هولباخ بان عنوان كتابه ذاته « نظام الطبيعة » يدل على عقل منظم مقدس هو الله ، وهو من جهـــة اخرى ينكر بشدة المعجزات وتأثير الصلاة .

« لقد كنت اقف امام دير للراهبات عندما قالت الأخت فوسي الى الاخت كونفيت : « ان الله يوليني عنايته ويحيطني برعايته ، فانت تعرفـــين انني احب عصفوري كثيراً ، وكان سيموت لولا اني صليت صلاة العذراء تسع مرات اطلب فيها شفاءه » . .

وقال لها عالم ميتافيزيقي « يا اختاه ، لا شيء افضل من صلاة العذراء وخصوصاً عندما تقرأهـــا فتاة باللغة اللاتينية في ضواحي باريس ، ولكني لا

«... ان اصدق أن الله منهمك ومشغول لهذه الدرجة بعصفورك على رغم كونه عصفوراً جميلا ، وارجو ان تعتقدي بان لدى الله اموراً اخرى للقيام بها ... فأجابت الأخت فوسي يا سيدي انني اتذوق في حديثك طعم الكفر والالحاد . وسيستدل الاب الذي اعترف له من قولك انك لا تؤمن بالله .»

فقال العالم الميتافيزيقي ، « انني اعتقد بعناية الهية عامة يا اختي العزيزة وهي التي وضعت منذ الابدية القانون الذي يحكم جميع المخلوقات والاشياء كالضوء من الشمس ، ولكني لا اعتقد ان عناية الهية خاصة ستغير من نظام العالم لاجل عصفورك » .

ويرى فولتير ان الحظ يقرر كل شيء في حياة المخلوقات ، كما ان الصلاة الحقيقية ليست في طلب اختراق القانون الطبيعي ، ولكن في قبول القانون الطبيعي على اساس كونه ارادة الله الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل .

وهو بالمثل ينكر الارادة الحرة ، أما بالنسبة الى النفس فهو لا ادرى ويقول ان قراءة اربعة آلاف كتاب عن الميتافيزيقا لن تعلمنا ما هي النفس « لقد كان يحب ان يؤمن بالخلود أو الحياة الاخرى وخصوصاً في سن شيخوخته ولكنه وجدها مسئلة صعبة .

« لا احد يفكر في اعطاء نفس خالدة للبرغوث ، فكيف يمكن اذن ان يكون هناك نفس خالدة للفيل او القرد او خادمي ؟ والجنين الذي يموت في رحم امه عندما تنبعث فيه روح ، هل سيبعث مرة ثانية جنيناً ، ام ولداً ام رجلا ؟ ولتبعث مرة ثانية ، وتكون نفس الشخص الذي كنت عليه ، ينبغي ان تكون ذاكرتك سليمة وحاضرة تماماً ، لأن الذاكرة هي التي تعطيك ذاتك فان ضاعت ذاكرتك ، كيف يمكنك ان تكون نفس الشخص ؟ ..

لماذا يمدح الناس انفسهم باعتقاد الخلود والابدية فيهم فقط ؟ .. ربما يعود هذا الى الافراط في زهوهم والتطرف في غرورهم . انا على يقين تام من ان الطاووس لو استطاع ان يتكلم لرفع صوته متفاخراً بروحه وقال انها موجودة في ذيله البديع » .

وهو في اخلاقه المبكرة يرفض الاعتقاد بان الايمان بالأبدية والخلود ضروري لتدعيم الاخلاق وتقويتها ويقول ان العبرانيين القدماء كانوا مجردين عن الاخلاق ، ومع ذلك كانوا يعتقدون بالابدية وبكونهم « شعب الله المختار » كما كان سبينوزا مثالا ونموذجاً للاخلاق على الرغم من الحاده .

ولكنه غير رأيه في الايام الاخيرة، واصبح يعتقد بأن الايمان بالله ليست له قيمة اخلاقية كبيرة ما لم يكن مقروناً بالايمان بالخلود والثواب والعقاب . وقد يكون الثواب والعقاب امرين ضروريين بالنسبة الى عامة الشعب ، كضرورة الايمان باله منعم ومنتقم . وعندما سأله بايل ، هل من الممكن لمجتمع من الملحدين ان يستمر ، اجابه فولتير « نعم ، اذا كان ابناء هذا المجتمع كلهم من الفلاسفة ، ولكن من النادر ان يكون كل الناس فلاسفة . ولا بد للبلد ليكون صالحاً ان يكون له دين . اريد من زوجتي وخياطي ومحاميي ان يؤمنوا بالله وبذلك يقل غشهم وسرقاتهم لي . واذا كان لا وجود لله يجب علينا ان نخترع الها ،لقد بدأت اعلق اهمية اكثر على السعادة والحياة من الحقيقة . » لقد دافع عن نفسه برقة ضد اصدقائه الملحدين ووجه كلامه الى هولباخ في مقال له عن الله في القاموس الفلسفي بقوله :

« لقد قلت انت نفسك ان الايمان بالله ... قد ساعد في ابعاد بعض الناس عن ارتكاب الجرائم ، ان هذا وحده يكفيني ، فاذا كان هذا الايمان

يمنع من وقوع عشرة اغتيالات وعشر وشايات ، فانه يجعلني اتمسك بان يؤمن كل العالم بهذا الدين ، انك تقول ان الدين قد سبب ايضاً في كوارث لا حصر لها وكان الاجدر بك ان تقول الخرافات الدخيلة على الدين التي تتحكم في عالمنـــا البائس . هذه الخرافات والاساطير هي اقسى عدو لنا يصرفنا عن عبادة الله عبادة خالصة تليق به . دعنا نمقت شبح الخرافات التي ادخلت على الديانات فشوهتهـــا . واولئك الذين يحاربون الخرافات هم اصحاب الفضل في الجنس البشري . ان هـــذه الخرافات ثعبان يهز الدين في حضنه ، ويجب علينا سحق رأسه من غير ان نجرح الأم التي تطعمه » .

ان التفريق بين الخرافات والدين امر أساسي بالنسبة الى فولتير . وهو يضفي على المسيح الصفات السامية والعظيمة التي لا تضاهيها صفحات النشوة والغيبوبة المقدسة . ويصور المسيح بين الحكماء يبكي على الجرائم التي ارتكبها الناس باسمه . وقام فولتير اخيراً ببناء كنيسة قال عنها انها الكنيسة الوحيدة التي بنيت في اوروبا لعبادة الله ، ويتجه الى الله بصلاة جليلة وفي مقاله « المؤمن بالله » نجده يعبر اخيراً عن ايمانه بوضوح .

« ان المؤمن هو الانسان المقتنع بوجود اله قوى وصالح خلق جميـــع الاشياء والكائنات . وهو يعـــاقب من غير قسوة على كل الذنوب ، ويجزي بالخير على كل اعمال الفضيلة والخير . وهو لا ينضم الى اي مذهب من المذاهب المختلفة التي تناقض بعضها بعضاً . ان دين الله هو اقدم الاديان واكثرها اتساعاً ، لأن عبادة الله البسيطة سبقت جميع الانظمة في العالم . وهو يتكلم لغـة يفهمها كل الناس ، بينما لا يفهم الناس بعضهم بعضاً . وهو صديق الحكمـــاء . وليس الدين عنده ما جـــاء في الميتافيزيقا من اراء ، ولا المظاهر التافهة ، ولكن في العبادة والعدل . وعمـــل الخير هو عبادة الله ، والتسليم له هو شريعته . وهو يغيث الملهوف ويلبي المعوز ويحمي المظلوم » .

٩ — فولتير وروسو

لقد انشغل فولتير في الكفاح ضد طغيان الكهنة ورجال الدين لدرجة اجبرته في السنوات الاخيرة من حياته على الانسحاب من الحرب ضد الظلم والفساد السياسي ، وهو يقول « ان السياسة ليست من شغلي ، لقد اوقفت نفسي دائماً على بذل جهدي المتواضع لاجعل من الناس اقل سخافة واكثر شرفاً . » وهو يعرف مدى ما تصل اليه الفلسفة السياسية من تعقيد . « لقد تعبت من هؤلاء الناس الذين يحكمون الدول من عليـاء قصورهم . هؤلاء المشرعون الذين يحكمون العالم ويعجزون عن حكم زوجاتهم او عائلاتهم ، ويتلذذون في تنظيم الكون . ان من المستحيل تسوية هذه المسائل كلها بإيجاد صيغة بسيطة وعامة ، او بتقسيم جميع الناس الى حمقى وخدم من جهة ، وحكام واسياد من جهة اخرى . ان الحقيقة ليست اسما يطلق على حزب . » .

ولكونه غنيا فقد كان موقفه محافظا ، اذ لا شيء يدفع الانسان الى التغيير في الاوضاع السياسية اكثر من الجوع ، ويرى ان علاج الخلل الاجتماعي يكمن في زيادة عدد الملاكين ، لان الملكية تكسب الانسان شخصية ، وترفع من كرامته ، ان روح التملك تضاعف من معنوية الانسان وقوته ، ومن المؤكد ان مالك الضيعة أقدر على تربية اولاده وتثقيفهم من الفقير المعدم .

وهو يرفض تبني اي نوع من انواع الحكومة ، ولكنه يميل نظرياً الى

النظام الجمهوري ، ويعرف عيوب هـــذا النظام الذي يجيز الانقسامات التي ان لم تؤد الى حرب اهلية على الاقل فانها تدمر وحدة الشعب . والنظام الجمهوري في نظره يتناسب مع الدول الصغيرة التي تحميها حــدود جغرافية ، والتي لم تفسدها الثروة ويعتقد بصورة عامة ان الناس غير كفاء لحكم انفسهم . ان الجمهوريات سريعة الزوال ، وهي اول تشكيل للمجتمع الذي ينشأ من اتحاد العائلات . لقد عاش الهنود الحمر الامريكيون في جمهوريات قبلية . وافريقيا لا تزال مليئة بمثل هـــذه الديمقراطيات الجمهورية . ولكن التفريق والتمييز في الوضع الاقتصادي سيضع حداً لهذه الحكومات . والتفريق الاقتصادي مقرون دائمـــاً بالتطور . وهو يتساءل ايهما افضل الحكومة الملكية أم الحكومة الجمهورية ؟ ويقول لقد اثير هذا السؤال منذ اربعة آلاف سنة ، واذا سألت الاغنياء عن الجواب ، يجيبونك بأنهم يفضلون الحكومة الارستقراطية ، واذا سألت عامة الناس تجدهم يفضلون الديمقراطية ، والملوك وحدهم يفضلون الحـكم الملكي . ولكن ما هو السبب في ان معظم شعوب العـالم يحكمها ملوك ؟ اسأل الجرذان التي اقترحت وضع جرس في رقبة القط ، الجواب على هذا السؤال . وعندما قال له احد المراسلين ان الحكومة الملكية هي افضل انواع الحكومات اجابه شريطة ان يكون ماركوس اراليوس (الملك الفيلسوف) هو الملك . اذ ما هو الفرق بالنسبة الى الرجل الفقير سواء اكله اسد او مئة من الجرذان .

وهو ايضا لا يهتم بالقوميات كالرحال المسافر الذي لا يهتم غالبا بالشعور الوطني بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، ويرى فولتير ان الوطنية او القومية تعني ان يكره الانسان جميع البلدان الا بلده . فاذا احب الانسان لبلده الخير والازدهار والرخاء ، ولكن لا على حساب البلدان الاخرى فهو وطني عاقل ومواطن عالمي . وكأوروبي صالح فقد اثنى على الادب الانجليزي واطرى على

ملك بروسيا في وقت كانت فيه فرنسا في حرب مع هاتين الدولتين. وما دامت الدول تحترف الحروب فليس لدينا الكثير من الاختيار بينها .

فقد كره فولتير الحرب اكثر من اي شيء آخر . « ان الحرب ام الجرائم واعظم الشرور . وكل دولة تحاول الباس جريمتها ثوب العدل . ان القتل حرام وجميع انواع القتل يعاقب عليها في زمن السلم . أما اذا نفخ في الصور واعلنت الحرب فيصبح القتل بالالوف مباحا » . ولديه صورة عامة مريعة عن الانسان وهو يقول في ختام مقال له عن الانسان في قاموسه الفلسفي :

« يحتاج الانسان الى عشرين سنة كي يبلغ اشده منذ كان جنينا في بطن امه فحيوانا في طفولته وشابا حيث يبدأ نضوج عقله ، وثلاثة آلاف سنة ليكشف القليل عن بنائه ، والابد الى ان يعرف شيئا عن نفسه . ولكن دقيقة واحدة تكفي لقتله . » .

هل يعتبر فولتير الثورة علاجا لحل مشاكل البلد ؟ كلا . فهو لا يثق بالشعب أولا : « عندما يتولى الشعب الحكم كل شيء يضيع .». ان الاكثرية الساحقة مشغولة جدا ومنهمكة في اعمالهـا وليس لديها الوقت لادراك الحقيقة أو تفهم امور الدولة ، الى ان يجعل التغيير الحقيقة خطأ . وتاريخ الشعوب ليس سوى احلال خرافة محل خرافة اخرى . « وعندما يتم استتاب الامر لخطأ قديم . تستخدمه السياسة كلقمة وضعها الناس في افواههم ، الى ان تأتي خرافة أخرى فتحطم هذا الخطأ ، وتستفيد السياسة من الخطأ الثاني كما استفادت من الاول.» وهكذا دواليك . ان عدم المساواة بين الناس امر لا مفر منه ، وهو اساس من اسس المجتمع. ومن الصعب التخلص من عدم المساواة بين الناس ما بقي الرجال رجالا والحياة كفاحا . « اولئك الذين ينادون بالمساواة بين الناس يقولون صدقا

لو عنوا بقولهم مساواة الناس في الحرية والفرصة وامتلاك الاشياء وحماية القانون ولكن المساواة اكثر الاشياء طبيعية واكثرها خيالا ووهمـــا في الوقت ذاته . فهي طبيعية اذا اقتصرت على الحقوق وغير طبيعية اذا حاولت مساواة الناس في الحكم والسلطة والاملاك والمتاع. لأن المواطنين ليسوا جميعهم على قدم المساواة في القوة ، ولكن يمكن مساواتهم في الحرية ، هـذه المساواة في الحرية هي التي فاز بها الشعب الانجليزي ... وكونـــك حرا يعني ان لا تكون خاضعا لشيء سوى القانون . » هذه رسالة الاحرار من تورغو وكوندورسي وميرابو وغيرهم من اتباع فولتير الذين حاولوا القيام بثورة سلمية ، ولكن هذه الثورة لم ترض المظلومين الذين لم يطالبوا كثيرا بالحرية بقدر ما طالبوا بالمساواة . لقد ارادوا المساواة حتى على حساب الحرية. لقد كان جان‌جاك روسو صوت عامة الشعب. وبما انه كان حساسا بالنسبة الى الفوارق الطبقية التي واجهته في كل مرحلة ، فقد طالب بالمساواة وازالة الفوارق . وعندما وقعت الثورة في يـــد اتباعة مارا وروبسبير جاء دور المساواة وارسلت الحرية الى المقصلة لقطع رأسها .

لقد كان فولتير يشك في مقدرة المشرعين الذين يحاولون اقامة بناء جديد للعالم من وحي خيالهم وأوهامهم. والمجتمع بالنسبة له عبارة عن تطور ووقت. وعندما يقذف الشعب بتقاليده وماضيه من الباب فانها تعود الى الدخول من النافذة . والمشكلة هي ان نظهر بدقة أي نوع من التغييرات تمكننا من تقليل البؤس والظلم في العالم الذي نعيش فيه في الحقيقه . لقـــد اظهرت الحقيقة ابنة العقل فرحتها في اعتلاء لويس السادس عشر عرش فرنسا ، وتوقعت اصلاحات عظيمة على يديه ، فأجابها العقل قائلا ، « يا ابنتي ، انك تعرفـــين جيدا انني ارغب في هذه الاصلاحات كما ترغبين فيها واكثر ، ولكن كل هـــذا يحتاج الى وقت وفكر . انني اكون سعيدا دائما عندما احصل على بعض الاصلاحات التي

تاقت نفسي لها طويلا . » ومع ذلك فقد ابتهج فولتير ايضا عندمـــا استولى تورغو على السلطة وكتب . « اننا غاطسون في العصر الذهبي حتى اعناقنــا . ». والآن فقد تحققت الاصلاحات التي نادى بها طويلا . ومنها نظام المحلفين والغاء المشور واستثناء الفقراء من جميع الضرائب الى غير ما هنالك . ألم يكتب تلك الرسالة المشهورة ؟ .

« كل شيء آراه ينبئ عن بذور ثورة لا مفر من وقوعها في يوم من الايام ، والتي لن اسعد برؤيتها . ان الفرنسيين يأتون متأخرين جدا دائما ، ولكنهم يأتون في النهاية ، ان الضوء يمتد من الجيران الى الجيران . وسيحدث انفجار ثوري عظـــيم في اول فرصة ، ويعقبه هياج نادر ، يا لسعادة الشباب لانهم سيشاهدون اشياء بديعة جميلة » .

ومع ذلك فانه لم يتحقق ممـــا سيحدث له . وهـــو لم يقصد اطلاقا بقوله « انفجار ثوري » ان تقبل فرنسا بحماس شديـد فلسفة جان جاك روسو الذي كان يهز مشاعر العالم من جنيف الى باريس . بقصص عاطفية ومنشورات ثورية. لقد بدا ان روح فرنسا المعقدة قد قسمت نفسها بين هذين الرجلين الفرنسيين على الرغم من اوجه الخلاف الشاسع بينهما . لقد وصف نيتشه فولتير عـــلى ما نعتقد بقوله « اقدام خفيفة وذكاء ونار وجلال ومنطق قوي » ، ونضع الآن روسو بجانب فولتير فنقول انه ، رجل يفيض بالحرارة والنزوة والخيال النبيل الضعيف ، الذي اعلن مثل باسكال ان للقلب تفكيرا لا يفهمه العقل ابداً .

اننا نرى في هذين الرجلين مرة ثانية الصراع القديم بين العقل والغريزة ، لقد آمن فولتير في العقل دائمـــا « اننا نستطيع تثقيف الناس واصلاحهم بالخطاب والقلم ». ولكن روسو لم يؤمن بالعقل الا قليلا ، ويريد العمل ولم ترهبه مخاطرة

زج البـــلاد في ثورة . واعتمد على مشاعر الاخوة لاعادة توحيد العناصر الاجتماعية التي بعثرتها الاضطرابات واستئصال العادات القديمة . فلنتخلص من القوانين وبعدئذ يحصل الناس على حكم المساواة والعدالة . وعندما ارسل الى فولتير رسالته عن اصل عدم المساواة التي هاجم فيها المدنية والاداب والعلوم ودعا الى العودة الى الحالة الطبيعية التي كان يعيش فيهــــا الانسان ، كما تبدو واضحة في حياة الحيوانات والمتوحشين ، اجابه فولتير : « لقد تلقيت كتابك الجديد يا سيدي ، الذي تهـــاجم فيه المدنية والعلوم والآداب واشكرك على ارساله . . . لم يقم احد بمثل هذه المحاولة التي تحاول فيها تحويلنا الى وحوش وحيوانات » . لقد احزنه ان يواصل جين جاك روسو اتجاهه الى الوحشية في كتابه « العقد الاجتماعي » . ونراه يكتب بهذا الخصوص الى مـــدام بوردي فيقول . « انــــك ترين الان ان روسو يشبه الفيلسوف كما يشبه القرد الانسان » .

ومع ذلـــك فقد هاجم فولتير السلطات السويسرية لمصادرتها كتاب روسو واحراقـــه ، تمسكا بمبدأه المعروف : « انا لا اتفق معك في كلمة واحدة مما قلته ، ولكني سأدافع عن حقك في الكلام وحرية التعبير عن افكارك حتى الموت » . وعندما هرب روسو من مئات الاعـــداء الذين كانوا يطاردونه ويحاولون الاعتداء عليه ، ارسل له فولتير دعوة صريحـة كريمة ليقيم معه .

لقد اعتقد فولتير ان ما ذهب اليه روسو من نبذ المدنية والحضارة والعلوم ليس سوى هذيان صبياني سخيف . وان حياة الانسان في حالة المدنية افضل من حياته في حالة الوحشية . وهو يُذكر روسو بان الانسان بطبيعته

وحش مفترس ، وان المجتمع المتمدن يعني تقييد هذا الوحش وتكبيله بالقيود والسلاسل ، وتخفيف وحشيته ، هذا بالاضافة الى امكانيه تطور العقـــل والتفكير عن طريق المجتمع المنظم ويوافق على : « ان الحكومة التي تسمح لفئة من الناس بأن تقول ، ان دفع الضرائب ينبغي ان يقع على عاتق الناس الذين يعملون ، اما نحن فسوف لا ندفع الضرائب لأننا لا نعمل ، ان هذه الحكومة ليست افضل من حكومة الافريقيين في جنوب افريقيا » . ان لباريس معالمها التي تستحق ان نفتديها حتى في وسط فسادها وانحلالها . ويروي لنا فولتير قصة الملاك الذي ارسل بابوك الى مدينة بيرسيبولس لينظر في امر هذه المدينة ويقدم له تقريراً عن اوضاعها ، وهل تستدعي اوضاع هذه المدينة تدميرهـــا والقضاء عليهـــا ، واتجه بابوك الى هذه المدينة ، ودخلها وهاله تفشي الرذيلة والفجور فيها ، ولكنه بعد ان اقام فترة من الزمن في هذه المدينة بدأ يحب سكانها الذين وجد فيهم رقة في المشاعر ودماثة وكرما ، على الرغم من تفشي الوشاية والنميمة وتقلب الاهواء والباطل بينهم ، وخاف ان ينزل الملاك حكمه على هذه المدينة ، وخشي ان يقدم تقريره عنها . واخيراً قام بتقديم تقريره عن هذه المدينة ، بأن امر ابرع سباك في المدينة بصنع تمثـال من خليط من المعادن والتراب والاحجار الثمينة والرخيصة في آن واحد ، وحمله الى الملاك ، وقـــال : « اعتقد انك سوف لا تحطم هـــذا التمثال ، لانه ليس مصنوعا كله من الذهب والاحجار الكريمة » . وعدل الملاك عن تدمير المدينة وعزم على ترك العالم يسير في طريقه . واخيراً عندما يحاول احدنا تغيير نظم المجتمع من غير ان يقوم بمحاولة تغيير طبيعة الناس ، فان هذه الطبيعة الغير متغيرة سرعان ما تبعث الحياة في هذه النظم التي تم تغييرها .

وهنا نواجه الحلقة القديمة ، الناس يشكلون النظم ، والنظم تشكل

الناس ، كيف يمكن ادخال التغيير الى هذه الحلقة ؟ يعتقد فولتير والاحرار ان هذا التغيير يأتي من طريق التثقيف والتعليم تدريجيا بالوسائل السلمية . ولكن روسو والمتطرفين اعتقدوا بأن هذه الحلقة لا يمكن تحطيمها الا عن طريق العمل العاطفي الغريزي الذي يقضي على النظم القديمة ، ويبني نظما جديدة يكون الحكم فيها للحرية والمساواة والاخوة . قد تكون الحقيقة بين هذين المعسكرين المنقسمين ، وهو ان تقضي الغريزة على النظم القديمة ، ولكن العقل وحده هو الذي يقدر على بناء النظم الجديدة .

١٠ ـ ختام

وفي الوقت ذاته راح الفيلسوف العجوز الضاحك يفلح الارض المحيطة بالفيلا ويزرعها ويقول : « ان الفلاحة والزراعة افضل عمل نقوم به على هذه الارض » . لقد كان يتمنى ان تطول حياته ليتم المهمة الملقاة على عاتقه . واستجاب الله الى امنيته ومد في عمّر ، وعمره ثلاثة وثمانين عاما . لقد كان كريما سخيا مضيافا ، لا حدود لكرمه . وسعى الناس اليه من كل صوب طلبا لحكمته ورأيه ومشورته وقلمه . ووجه عنايته الى الفقراء المتهمين بسوء سلوكهم ، وكان يسعى لدى السلطات للحصول على العفو عنهم ، ويعمل بعد ذلك على تعيينهم في اعمال شريفة . وبواصل في الوقت ذاته مراقبتهم وارشادهم ونصحهم . وعندما ركع امامه شابان صغيران طلبا للعفو منه لانهما سرقا بعض امواله ، انحنى واخذ بيديهما واوقفهما ، وعفا عنهما وسامحهما ، وقال لهما ، ان الركوع لله وحده ، ولا ينبغي لهما الركوع امام احد سوى الله .

وفي عام ١٧٧٠ قام اصدقاؤه واتباعه في جمع تبرعات لاقامة تمثال نصفي له . ومنع الاغنياء من ان يساهم كل واحد منهم باكثر من فلس ، لان الالوف من الناس ارادوا الاشتراك في هذا الشرف العظيم . وعندما سأل الملك فردريك الكبير عن المبلغ الذي يجب ان يتقدم به في هذه المناسبة ، قيل له ان يتقدم باسمه ولقبه وقطعة من تاجه .

انه الان في الثالثة والثمانين من عمره ، وقد اخذه الشوق والحنين لرؤية باريس قبل موته . لقد نصحه الاطباء ان لا يخاطر في رحلة متعبة شاقة كهذه. لقد عاش طويلا وعمل كثيراً ، وربما شعر بحقه في ان يموت في باريس التي ابعد عنها مدة طويلة . وسار يجتاز الاراضي الفرنسية ميلاً بعد ميل . وعندما وصلت عربته اخيرا الى باريس ذهب رأساً الى صديق شبابه دارجنتال قائلا : « لقد استهترت بالموت وجئت لاراك » . وفي اليوم الثاني احتشدت الغرفة بالزوار الذين بلغ عددهم نحو ثلثمئة ، فرحبوا بقدومه ترحيبهم بملك ، الامر الذي جعل الغيرة تأكل قلب الملك لويس السادس عشر . وكان بنيامين فرانكلين (الفيلسوف والسياسي الامريكي) بين الذين اتوا لزيارته مصطحبا معه حفيده للحصول على بركات فولتير الذي وضع يده النحيلة على رأس الطفل وطلب منه ان يكرس حياته الى « الله والحرية » .

اشتد به المرض الان الى درجة استدعاء القسيس ليسمع اعترافه . وسأله فولتير عمن ارسله ، فاجابه ان الله قد ارسله ، فسأله فولتير ان يقدم له اوراق اعتماده . وانصرف القسيس من غير ان يغنم بغنيمته . وارسل فولتير بعد ذلك في طلب قسيس آخر . ولكن هذا القسيس رفض تقديم الغفران الى فولتير ما لم يوقع على اعترافه وايمانه بالمذهب الكاثوليكي ايمانا راسخا . ولكن فولتير ثارت ثورته لهذا الطلب وكتب بدلاً من ذلك بيانا قدمه الى سكرتيره (واجنر) ذكر فيه : « اموت على عبادة الله ، ومحبة اصدقائي ، وكراهية اعدائي ، ومقتي للخرافات والاساطير الدخيلة على الدين . » ووقع هذا البيان، في الثامن والعشرين من فبراير عام ١٧٧٨ .

وعلى الرغم من مرضه وتداعي صحته فقد سار في عربته الى الاكاديمية

الفرنسية وسط الجماهير المحتشدة التي تسلقت على عربته ومزقت العباءة الثمينة التي اهدتها له كاترين ملكة روسيا الى قطع صغيرة لتحتفظ بها تذكارا له . لقد كان هـــذا الاستقبال العظيم الذي استقبلته به الجماهير من اعظم الاحداث التاريخية في ذلك القرن . ولم يجاره في هـــذا الاستقبال العظيم شخص آخر . ووقف في الاكاديمية والقى خطابا حافلا بحماس الشباب اقترح فيـــه تنقيح القاموس الافرنسي . وفي الوقت ذاته فقد اصر على حضور احدى رواياته التي كانت تعرض في احد المسارح في ذلك الوقت عـــلى الرغم من نصيحة اطبائه بعدم الذهاب . لقد كانت الروايه ضعيفة . ولم يبد الناس دهشتهم من ضعف الرواية بقدر ما ابدوا دهشتهم من قـــدرة فولتير وهو في سن الثالثة والثمانين على كتابة رواية ، واغرقوا حديث الممثلين في الرواية بوابل من الهتاف والتصفيق تمجيدا وتشريفا لمؤلف الرواية .

وعندما عاد ملك البيان والفصاحة الى منزله في ذلك المساء كان يقترب من الموت وشعر بالاعياء والتعب الشديد . وبأنه استنفذ النشاط العجيب والحيوية المتدفقة التي وهبتها له الطبيعة اكثر من اي انسان اخر . وكافح عندما شعر بالحياة تبتعد عنه ، ولكن الموت قاهر الرجال استطاع ان يقهره . وتوفي في الثلاثين من شهر مايو عام ١٧٧٨ .

لقـــد رفضت السلطات دفنه في مدفن مسيحي في باريس . ولكن اصدقاءه وضعوه في عربة وخرجوا به من باريس ، متظاهرين بانه لا زال على قيد الحياة ، ووجدوا قسيسا يفهم ان الاحكام الدينية لا تقف في وجه العباقرة . ودفنوه في ارض مقدسة . وفي عام ١٧٩١ اجبرت الجمعية الوطنية

التي تألفت بعد انتصار الثورة ، لويس السادس عشر على نقل رفاة فولتير الى مدفن عظماء الامة . وقام بحراسة رفاته اثناء مروره بباريس طابور يتألف من مئة الف من الرجال والنساء . بينما اصطف على جانبي الشارع الذي مر به نحو ستمئة الف من الجماهير . وكتب على العربة التي حملت جثمانه هذه الكلمات :

« لقد اعطى فولتير العقل قوة دافعة عظيمة ، واعدنا وهيأنا للحرية . »

وكتب على قبره هذه الكلمات الثلاث :

هنا يرقد فولتير .

الفصل السادس

عمانويل كانت والمذهب المثالي الالماني

١ ــ الطريق نحو كانت

لم يشهد تاريخ الفكر فلسفة بلغت من السيادة والنفوذ في عصر من العصور ما بلغته فلسفة عما نويل « كانت » من النفوذ والسيادة على الافكار في القرن التاسع عشر . فبعد ستين عاما من التطور الهادىء المنعزل قام « كانت » يهز العالم وايقاظه من نومه العقائدي في عـــام ١٧٨١ باخراج كتابه المشهور « نقد العقل الخالص » . لقد سادت فلسفة شوبنهور فترة قصيرة الموجة الرومانتيكية التي انفجرت في عام ١٨٤٨ . كما اجتاحت نظرية التطور كل شيء امامها بعـــد عام ١٨٥٩ . وفازت فلسفة نيتشه بقلب المسرح الفلسفي في نهاية القرن التاسع عشر . ولكن هذه الفلسفات لم تكن سوى تطـــور سطحي يتدفق تحته تيار فلسفة « كانت » القوي الثابت اشد عمقا واتساعا . ولا تزال فلسفة كانت حتى يومنا هذا قاعدة لكل فلسفة اخرى . فقـــد سلم نيتشه بكل ما جاء به كانت واعتبره قضية مسلما بها . وذكر شوبنهور عن كتاب « العقل الخالص » الذي وضعه كانت بانه اعظم الكتب في الادب الالماني واكثرها اهمية وعنده ان

الانسان يبقى طفلا في معرفته الى ان يفهم كانت . لم يستطع سبنسر فهم كانت . وقد يكون هذا هو السبب في انه لم يبلغ الذروة في الفلسفة . وما اجدرنا بهذه المناسبة ان نذكر العبارة التي قالها هجل في سبينوزا ، فنقول عن كانت ، لكي يكون المرء فيلسوفا لا بد من ان يدرس كانت اولا .

لذلك يجب علينا دراسة كانت . ولكن من الصعب دراسة هذا الفيلسوف بطريقة مباشرة ، بأن نعمـد الى كتبه فوراً وننكب على دراستها مباشرة ؛ والافضل اذا اردنا ان نقرأه ان نسبق قراءة ما كتبه بما كتب عنه . وان يكون آخر ما يجب ان نقرأه هو ما كتبه كانت نفسه . لانه يكتب باسلوب يحيطـه الغموض والتعقيد . ولا يحاول سياق الامثلة لتوضيح افكاره ، زاعما انها تطيل كتابه الذي بلغ ثمانمئة صفحة على الرغم من محاولته اختصاره ، وهو يقـول انه يكتب للفلاسفة المحترفين ، وهم ليسوا بحاجـة الى الشرح والتوضيح وسياق الامثلة . ومع ذلك فقد عجز هؤلاء عن فهم كتابه ، وذلك عندما ارسل كانت نسخة منه الى صديقه هرز ليطلع عليها . وكان هرز معروفا بسعة اطلاعـه وعمق تأمله . اعاد هرز الكتاب الى كانت بعد ان قرأ نصفه قائلا : انه يخشى على نفسه الجنون لو واصل قراءة الكتاب . فاذا كان هذا هو الحال مع من اتخذ الفكر والفلسفة حرفة له ، كيف السبيل اذن لتفهم هذا الفيلسوف ؟ .

دعنا ندنو منه في حرص واهتمام . بأن نبدأ في الاقتراب منه عن بعد عنه . وان نبدأ في نقاط مختلفة من مدار موضوعه . وبعدئذ نتلمس طريقنا الى تلك الفلسفة المبهمة والكنز المغلق .

من فولتير الى كانت

ان الطريق هنا يتجه من العقل النظري المجرد عن العقيدة والايمان بالدين ، الى العقيدة والايمان بالدين المجرد عن العقل النظري . ان اسم فولتير يدل على عصر التنوير ، ودائرة المعارف وعصر سيادة العقل . لقد الهمت حماسة فرانسس بيكون الحارة وايمانه بالعقل اوروبا بأسرها (ماعدا روسو) واخذت تثق ثقة عمياء بقوة العلم والمنطق في حل كل ما يواجه الانسان من مشكلات والتدرج به نحو الكمال . فكتب كوندورسي وهو في السجن كتابه التاريخي التصويري عن تقدم النفس الانسانية في عام ١٧٩٣ الذي اوضح فيه ثقة القرن الثامن عشر في المعرفة والعقل . واعتقد بأن الوصول الى الحياة المثالية لن يأتي سوى عن طريق التعليم الشامل العام. لقد غالى سكان باريس في عهد الثورة في تمجيد العقل الى درجة دفعتهم الى عبادة « الاهة العقل » المجسمة في شكل امرأة حسناء من نساء باريس .

لقد ولد هذا الايمان بالعقل في سبينوزا اقامة بناء عظيم من الهندسة والمنطق فقد ذهب سبينوزا كما رأيت الى ان الكون نظام رياضي يمكن وصفه عن طريق الاستدلال من البديهيات المقبولة . وتمخض الايمان بالعقل الذي دعا اليه بيكون عن الالحاد والنزعة المادية من جانب هوبز الفيلسوف البريطاني الذي قال ، لا شيء يبقى سوى الذوات والفراغ . واخذ الايمان بالدين يتحطم امام الايمان بالعقل منذ ايام سبينوزا الى ديدرو . واخذت العقائد الدينية في الاختفاء

الواحدة تلو الاخرى . وتداعت الكتدرائية القوطيـــة في القرون الوسطى . وسقط الاله القديم عن عرشه وملكوته بسقوط اسرة البوربون عن العرش في فرنسا . وتحولت الجنة الى مجرد اسماء ، والجحيم الى مجرد تعبير عاطفي . ونجح هلفيتوس وهو لباخ وغيرهم من كبار الملحدين في نشر الالحاد والكفر في صالونات باريس ونواديها الى درجة شملت رجال الكنيسة انفسهم . واتجه لا مـــتر الى المانيا لنشر الالحـــاد فيها برعاية ملك بروسيا نفسه . وعندما اعلن ليسنج الى جاكوبي في عام ١٧٨٤ انه من اتباع سبينوزا دل هذا على ان الايمان بالدين قـد بلغ الحضيض كما دل على انتصار العقل في المعركة بينه وبين الدين . ولكن الايمان بالدين الذي يحمل في جوانبه الامل والرجاء ، والذي تنادت به مئات الالوف من الكنائس المنتشرة في كل بقعة من بقاع اوروبا ، كان قد تأصل بعمق في قلوب الناس وانظمة الشعوب . ومن الصعب ان يستسلم الى هجوم العقل المعادي له . ولم يلبث ان نهض الايمان بالدين الى استجواب اهلية العقل الذي حكم عليه بالبطلان ودعا الى اختبار العقل الذي نصب نفسه حاكما على اهلية الدين ، ما هو هذا العقل الذي يقترح تدمير معتقدات وديانات آمن الناس بها منذ آلاف السنين؟ ما هو هذا العقل الذي يحاول تدمير معتقدات يؤمن بها الملايين من الناس في جميع انحاء العالم ؟ هل هذا العقل معصوم عن الخطأ ؟ هل هو منزه عن الزلل ؟ او هل هو عضو انساني كبقية الاعضاء الانسانية . ام هو محدود بحدود عمـله وقواه ؟ لقد حان الوقت لمحاكمة هذا الحاكم او القاضي الذي يسمى بالعقل . لقد حان الوقت لاختبار هذه المحكمة الثورية القاسية التي حكمت بالموت على كل أمـــل وايمان وعقيدة . لقد حان الوقت لنقد العقل الذي نصب نفسه حاكما على كل شيء . لقد جاء « كانت » ووضع هذا العقل موضع الاتهام واخـــذ في نقده والحكم عليه .

٢ ـــ من لوك الى كانت

لقد مهد لوك ، وبركلي وهيوم الطريق لهذا الاختبار للعقل . ومع ذلك فان ما وصل اليه هؤلاء الفلاسفة من نتائج كانت معادية للدين ايضاً .

لقد اقــترح جون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) تطبيق الاختبار الاستقرائي ووسائل فرنسيس بيكون على علم النفس . ولقد ارتد العقل لاول مرة في الفكر الحديث على نفسه يختبرها في مقالة لوك العظيمة عن العقــل البشري (١٦٨٩) وبدأت الفلسفة في تفحص الاداة التي ركنت اليها ووضعت ثقتها فيها مــــدة طويلة . ولم تعد تأتمن العقل وضعفت ثقتها به .

كيف تبدأ المعرفة وكيف تنشأ ؟ هل لدينا آراء فطرية عن الخير والشر والله مثلا كما يقول بعض الناس الصالحين . آراء يرثها العقل من ولادة الطفـــل وسابقة لجميع انواع التجربة ؟ لقد خشي علماء اللاهوت ان يزول الايمان بالله من نفوس البشر ، لان احداً من الناس لم ير الله في التلسكوب او العين المجردة ، وفكروا بامكانية تقوية الايمان والاخلاق ، بالقــــول بأن الآراء الرئيسية التي يقوم عليها الايمان والاخلاق امـــور غريزية وفطرية في كل نفس . ولكن جون لوك على الرغم من انه كان مسيحياً فاضلا وصالحاً ، وعـــلى استعداد للدفاع والنقاش بفصاحة عن معقولية المسيحية لم يقبل هذه الافتراضات اللاهوتية . فقد اعلن بهدوء ان جميع انواع المعرفـــة تأتينا من التجارب عن طريق حواسنا .

وان لا شيء في العقل سوى ما تنقله له الحواس . وقال ان العقل يكون عند ولادة الطفل كالصفحة البيضاء خاليا من كل شيء . وتأخذ الحواس والتجارب في الكتابة على هذه الصفحة بوسائل كثيرة . الى ان تـلد الحواس الذاكرة والذاكرة تلد الآراء . وكل هذا يؤدي الى النتيجة المفزعة ، وهي انه باعتبار ان الاشياء المادية وحدها هي التي تؤثر عـلى حواسنا ، فنحن لا نعرف شيئا سوى المادة. واننا يجب ان نقبل بهذه الفلسفة المادية . فاذا كانت الحواس هي وسائل الافكار ، عندئذ تكون المادة بالضرورة هي التي يستمد منها العقـل افكاره وآرائه .

ولكن جورج بركلي (١٦٨٤ – ١٧٥٣) يختلف مع ما وصل اليـه لوك من نتيجة على الرغم من انه يسلم بالمقدمات التي جاء بها لوك . ان تحليل لوك المعرفة يدل على ان المادة لا توجد سوى كصورة في العقل . الم يخبرنا لوك بأن معرفتنا كلها مستمدة من الحواس ؟ لذلك فان كل معرفتنا عن اي شيء تكون مجرد احساسنا بذلك الشيء ، والآراء مستمدة من هذه الحواس . ان الشيء مجرد حزمة من الاحساسات. احساسات منظمة ومفسرة. انك تحتج فتقول ان طعام فطورك اكثر مادية واهمية من ان يكون حزمة من الاحساسات . وان المطرقة التي تعلمك النجارة مادة صرف وتبدو فيهـا المادة بشكل واضح . ولكن فطورك ليس سوى مجموعـة من حواس البصر والشم واللمس اولا ، والذوق ثانياً ، وبعدئذ راحة داخلية وحرارة ، وكذلك المطرقة فهي مجموعة من احساسات اللون والحجم والشكل والوزن ، واللمس الى آخر ما هنالك . ان حقيقة المطرقـة بالنسبة لك ليس في ماديتها ولكن من الاحساسات التي انبعثت من ابهام يدك الذي يلمسها . واذا كنت مجرداً عن الحواس ، فان المطرقة لن تكون موجودة اطلاقاً بالنسبة لك . وقد تصيب هذه المطرقـة

ابهامك المشلول طرقاً مستمراً متواصلاً من غير ان تثير اهتمامك ، انها حزمة من الاحساسات فقط ، او مجموعة من الذكريات ، انها حالة للعقل .

ان جميع انواع المادة كما نعرف ، حالة عقليه ، والحقيقة الوحيدة التي نعرفها مباشرة هو العقل . اذن فنحن لا ندري عن الشيء الخــــارجي الا الاحساسات التي تنبعث الينا منه ، والافـكار التي تتولد من هذه الاحساسات عند وصولها الى الذهن .

فالبرتقالة مثلا يصل الينا لونها عن طريق البصر ، ورائحتها عن طريق حاسة الشم وهي الانف ، وطعمها عن طريق الذوق وملمسها عن طريق اللمس في اعصاب اليد ، فلو تناول هذه البرتقالة انسان ضرير كفيف البصر . فانــــه يعرف عنها كل شيء سوى لونها . وقد تطرق المطرقة يدك المشلولة فلا تشعر بها فلولا الحواس لمــــا كان للاشياء الخارجية وجود . فالحواس هي التي كونتها ، ولذلك لم يتردد باركلي في انكار المادة انكارا تاماً . ولم يعترف بوجود شيء الا حقيقة واحدة يحسها في نفسه الا وهي العقل .

ولكن بركلي لم يعمل حساب دافيد هيوم (١٧١١ – ١٧٧٦) الذي هز العــــالم المسيحي وهو لا يزال في سن السادسة والعشرين برسالته عن طبيعة البشر . وهي رسالة تعتبر احدى روائع الفلسفة الحديثة . قال هيوم ، اننــــا نعرف العقل فقط كما نعرف المادة عن طريق الاحساس ، على الرغم من انــــه داخلي في هذه الحالة . اننا لا ندرك بالحواس العقل اطلاقاً كذات مستقلة ، وكل ما ندركه او نشعر به هو مجرد اراء منفصلة وذكريات ومشاعر الى اخر مــــا هنالك . ان العقل ليس جوهرا ، او عضوا له اراء ، انه اسم مجرد فقط لسلسلة الآراء . ان المشاعر والذكريات والاحساسات هي العقل . وليس هناك نفس منظووة وراء عملية الفكر .

ونتيجة لذلك فقد قضى هيوم على العقل كما قضى بركلي على المادة . ولم يترك شيئاً . ووجـــدت الفلسفة نفسها وسط انقاض خربة قوضتها بنفسها ودمرتها بيدها .

ولكن هيوم لم يقتنع بتدمير الدين عن طريق تدمير النفس وتبديدها . وحاول تدمير العلم بحل فكرة القانون ايضاً . ان العلم والفلسفة شبيهان . فقد ساهما منذ ايام برونو وجاليلو بالكثير من القانون الطبيعي .

وهكذا اجهز بركلي على المـــادة وقضى عليها ومحاها من صفة الوجود ، ولكنه اشفق على العقل وسلم بوجوده . وجاء هيوم فسارع بتدمير العقل والدين عن طريق تدمير النفس وتبديدها . ولم يقنع بذلك بل اقترح ايضاً تدمير العلم بحل فكرة القانون . وانهار العقل كما انهارت المـــادة ولم يبق شيئا منهما فجاء « كانت » وقرأ في عام ١٧٧٥ ترجمة المانية لكتب ديفيد هيوم ، فروعته هذه النتائج واثارته وايقظته من نعاسه العقائدي الذي سلم فيه بغير سؤال بضروريات الدين واسس العلم . هاله ان يستسلم الدين والعلم الى الشك . ما العمل من اجل انقاذهما وتخليصهما مما الم بهما .

٣ — من روسو الى كانت

نادى رجال عصر التنوير بأن العقل ينتهي الى تأييد المذهب المادي. فأجاب بركلي بأن المادة لا وجود لها. واجاب هيوم بأن العقل ليس له وجود ايضاً. ومن الممكن الاجابة ايضاً بأن العقل ليس المرجع او الاختيار النهائي في الحكم على الامور. هنـــاك نتائج نظرية تتنافى مع كياننا، ولا حق لنا بالاعتراض بوجوب كبت مطالب طبيعتنا هذه انصياعا لاوامر المنطق الذي هو بعد كل شيء ليس سوى البناء الحديث لجزء ضعيف متقلب خداع منا. فكم من مرة ترفض مشاعرنا هذه النتائج المنطقية التي تريد منا ان نتجة في سلوكنا اتجاه الارقام والاشكال الهندسية. قـــد يكون العقل بلا شك وخصوصا في تعقيدات الحياة المدنية وامورهـــا المصطنعة خير دليل ومرشد لنا. ولكننا نثق في مشاعرنا في الازمات الكبيرة التي تواجهنا في حياتنا، وفي قضايا الايمان والسلوك اكثر من الثقة بعقولنا. فاذا كان العقل ضد الدين، فان هذا ليس في جانب العقل او مصلحته. فليس العقل قاضيا ينتهي بقوله كل زعم وادعاء. اذ اننا نميل بفطرتنا وشعورنا الى رفض الكثير من النتائج المنطقية التي ينتهي اليها العقل. ولا مبرر لرفض ما يمليه على شعوري وفطرتي لاستمع الى امـلاء العقل المنطقي وحـــده، مع ان هذا العقل احدث من ذلك الميل الغريزي عهداً واضعف بناء.

هذا مـا نادى به جان جاك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) الذي وقف وحده في فرنسا يحارب المادية ويكافح الالحاد الذي جاء به عصر التنوير .

كان روسو شابا سقيما وعصبيا ضعيف البنية . دفعـه اعتلال صحته وعدم شعور والديه واساتذته بالعطف عليه الى الانطواء على نفسه والابتعاد عن الحياة العملية الى حياة الفكر والتأمل . لقد هرب من عـالم الحقيقة الى عالم الاحلام ، حيث يعوض عليه الخيال ما حرمته الحياة من حب وعطف وصحة . ان اعترافاته تكشف عن مركب متناقض من العواطف والمشاعر تنطوي على الامانة والكرامة والشرف الذي يدل على سمو اخلاقه .

وفي عام ١٧٤٩ اعدت اكاديمية ديجون جائزة لمن يكتب احسن مقال حول موضوع « هـل ادى تقدم العلوم والفنون الى افساد الاخلاق ام الى اصلاحها ؟ وفاز المقال الذي كتبه روسو بالجائزة . لقد ذكر روسو في مقاله هذا بأن الثقافة اقرب الى الشر منها الى الخير . واشار الى الفوضى التي سادت اوربا اثر انتشار الطباعة والقراءة فيها . فحيثما تنشأ الفلسفة تفسد الاخلاق بين الشعوب . وهناك قول شائع بين الفلاسفة انفسهم وهو انه بظهور رجال العلم اختفى اصحاب الامانة . اعلن روسو بجرأة بـأن التفكير مناقض لطبيعة الانسان . وان الانسان المفكر حيوان سافل فاسد الاخلاق . ومن الافضل لنا التخلي عن تطورنا العقلي السريع والاتجاه بدلا من ذلك الى رياضة القلب والمحبة . ان التعليم لا يحيل الانسان فاضلا وصالحا ، ولكنه يجعل منه حاذقا وبارعا في الغش عادة . والغريزة والمشاعر جديرة بالثقة أكثر من العقل .

لقد شرح روسو باسهاب في قصته المشهورة هلواز تفوق الشعور على العقـل . واصبح التظاهر بالخير ورقة الاحساس سائدا « مودا » بين نساء

الطبقة الارستقراطية وبعض الرجال ، وافسحت حركة العقـــل الاوروبي العظمي في القرن الثامن عشر الطريق الى الادب العاطفي من عام (١٧٨٩ -١٨٤٨) وانعش هذا التيار العاطفي الشعور الديني ، وتأثرت الحركة الدينية بافكار روسو الى مدى كبير . وخلاصة ما جاء به روسو هو انه على الرغم من ان العقل يتجه اتجاها معاديا للايمان بالله والدين والخلود ، فـــان الشعور يؤيدها تأييدا كبيرا . لماذا لا نثق اذا بشعورنا الفطري هنا بدل ان نستسلم الى يأس الشك المجدب الذي يسوقنا له العقل .

وعندما قرأ « كانت » كتاب « اميل » الذي كتبه روسو ، انصرف اليه بكل اهتمامه ، حتى انه الغى خروجه لنزهته اليومية تحت اشجار الزيزفون واقبل على الكتاب بكل قلبه ليفرغ منه في ساعته . لقد كان ما قرأ في هـذا الكتاب حادثاً هاما في حياته اذا وجد فيه رجلا آخر يشق طريقه للخروج من ظلام الالحاد ، رجلا اكد بشجاعة اسبقية الشعور على العقل النظري . هنا في هذا الكتاب يكمن نصف الجواب على الالحاد والكفر . بحيث يمكن الآن تمزيق شمل اهل الشك والسخرية بالدين . اخذ «كانت» في جمع خيوط هــــذه المناقشة ولفها بعضهــــا ببعض ، وتوحيد اراء بركلي وهيوم مع تمجيد روسو للشعور وانقاذ الدين من العقل ، وفي الوقت ذاته العمل على انقاذ العلم من الشك هذه هي المهمة التي كرس كانت نفسه لها .

ولكن من هو عمانويل كانت

٢ ـ كانت نفسه

ولد كانت في كونسبرج في بروسيا عام ١٧٢٤ . لم يغادر مسقط رأسه باستثناء فترة قصيرة قضاها في التدريس في قرية مجاورة لبلده . لقد احب هذا الاستاذ الصغير القصير ان يحاضر كثيراً في جغرافية وعلم اصول السلالات البشرية عن البلدان النائية . انحدر من اسرة فقيرة نزحت عن اسكتلندا قبل ولادته ببضع مئات من السنين . كانت امه امرأة تقية وكانت عضوا في جماعة دينية مذهبية تمسكت باهداب الدين واقامة الشعائر الدينية تمسكا شديداً لا لين فيه ولا تساهل . وبحكم نزعة امه الدينية فقد غاص الى عنقه ابان طفولته في الدين من الصباح الى المساء . وادى به هذا الانغماس الشديد في الدين الى نتيجتين ، اولاهما ان احدث هذا التطرف في العبادة في نفسه رد فعل ادي به الى اعتزال الكنيسة في ايام نضجه ورجولته . وثانيهما هو انه احتفظ الى النهاية بطابع الكآبة الذي يميز الالماني المتدين . وشعر عندما تقدمت به السن بحنين كبير ورغبة شديدة للمحافظة على الاقل باصول ذلك الايمان الذي غرسته فيه امه ايام طفولته .

ولكن شابا مثله شب في عصر فردريك الكبير ملك بروسيا ، وفولتير ، من

الصعب ان يعزل نفسه وينأى بها بعيداً عن تيار الشك الذي اجتـاح اوروبا في ذلك الوقت. تأثر « كانت » تأثيراً كبيراً بالرجال الذين وجه همه اخـــيراً الى دحض آرائهم وافكارهم . وربما تأثربعدوه المفضل دافيد هيوم اكثر من غيره . وسنرى فيما بعد كيف تحول كانت عن آرائه المحافظة التي امتازت بها افكاره في ايام نضجه ورجولته الى اعتناق مذهب الاحرار والايمان بالحرية والدعوة لهـــا بشجاعة وجرأة في ايام فردريك الكبير . كان من الممكن الحكم عليه بالاعدام بسبب هذه الافكار الحرة التي تتنافى مع نظام الحكم في ذلـــك الوقت ، ولم يشفع له سوى كبر سنه وشهرته حيث كان قد بلغ من العمر سن السبعين وطبقت شهرته الآفاق . وعندما نقرأ ما كتبه « كانت » في ايامه الاخيرة يخيل لنا اننا نقرأ فولتـير . حتى في محاولته استرداد هيبة الدين وتخليصه من الشك الذي تعرض له . قال شوبنهور مما يدل على التسامح الفكري وحرية الافكار في عهد فردريك الكبير ، هو ان يتمكن كانت من نشر كتابه «نقد العقل الخالص» اذ من المتعذر في عهد حكومة اخرى ان يجرؤ استاذ موظف لدى الحكومة على مثل هذه المجازفة في نشر مثل هذا الكتاب . لقد اجبر كانت بعد ذلك على ان يقطع على نفسه عهداً لخليفة الملك العظيم على ان يتوقف عن الكتابة في مثـل هذه المواضيع الحرة . وتقديراً لهـــذا التسامح الفكري الذي قابله كانت من فردريك الكبير ، قام باهداء كتابه هذا الى زدلتز وزير المعارف في عهد فردريك الكبير ، تقديرا لهـــذه الحرية التي اطلقها فردريك للفكر والكلام في عهده العظيم .

وفي عام ١٧٥٥ بدأ كانت عمله كمحاضر خاص في جامعة كونسبرج ، وبقي

في هذا المنصب خمسة عشر عاماً . ورفضت الجامعة طلبه الذي تقدم به لتعيينه استاذا فيها مرتين. واخيراً عين استاذا للمنطق والميتافيزيقا في عام١٧٧٠ .وبعد سنوات في التدريس اكتسب فيها خـــبرة واسعة وضع كتاباً عن فن التعليم والتدريس ، قال عنه انه تضمن الكثير من الآراء القيمة في هـــذا الموضوع لم يتمكن من تطبيقها . ومع ذلك فقد كان مدرسا افضـل منه كاتبا . واحبه تلاميذه حبا شديداً . ومن بين مبادئه العملية هي ان يوجه المدرس قسطاً وافراً من عنايته واهتمامـــة الى التلاميذ من ذوي القدرة المتوسطة اذ لا جدوى في مساعدة الاغبياء من التلاميذ والعناية بهم . أما العباقرة والنوابغ منهم فـــلا يحتاجون مساعدة غيرهم لهم وعنايتهم بهم .

لم يتوقع احد ان يخرج هذا الاستاذ المعتدل الهادىء نظاماً جديدا للميتافيزيقا يهز العالم باسره . وهو نفسه لم يتوقع ان تحدث اراؤه ذلك الاثر الكبير الذي افزع اوروبا وهزها هزا قوياً . لقد كتب وهو في سن الثانية والاربعين : «لحسن الحظ ان اكون عاشقاً محباً للميتافيزيقا» ولكين عشيقتي لم تطلعني الا على القليل من جمالها وفضلها . » لقد تحدث في تلك الايام عن البحث في الميتافيزيقا بأنه هاوية سحيقة لا قاع لها ولا قرار . وانه محيط مظـــلم لا شواطىء له ولا منائر يهتدي بضوئها في خضمه ، تبعثرت فيه حطام الكثير من السفن الفلسفية الـــتي عصفت بها امواجه . وهاجم « كانت » المشتغلين بالميتافيزيقا وشبههم بالخياليين الذين يسكنون في ابراج عالية من التأمل والخيال حيث تكـثر الرياح فتعصف بارائهم وتأملاتهم . ولكنه لم يتنبأ بأن بحثه عما وراء الطبيعة سيثير اكـــبر عاصفة شاهدها العالم في الميتا فيزيقا .

لقد وجه اهتمامه في هذه السنوات الهادئة الى البحث في الطبيعة اكثر من الاهتمام فيما وراء الطبيعة . فكتب عن الكواكب ، والزلازل ، والنـــار ، والرياح ، والاثير والبراكين ، والجغرافيا واصول الاجناس البشرية ، ومئات المواضيــع من هذا القبيل .

لقد كانت نظريته في الاجرام السماوية عام (١٧٥٥) شبيهة بالنظرية السديمية التي ذهب اليها « لابلاس » حاول فيها ان يقدم تفسيرا آلياً لحركة الكواكب وتطورها . اعتقد « كانت » بأن جميع الكواكب قـــد سكنها الاحياء او سيسكنونها . وابعد هذه الكواكب عن الشمس يعيش فيها نوع من الكائنات الذكية العاقلة ارقى واسمى بكثير من الكائنات التي تعيش على ظهر هذه الارض التي نعيش عليها . لان تلك الكواكب البعيدة عن الشمس اقـــدم عهدا ، واطول عمرا وتعرضت الى مرحلة من التطور والنمو اطول من الارض لقد ذكر في كتابه عن الاجناس البشرية الذي تم جمعه من المحاضرات التي القاها في حياته بامكانية انحدار الانسان من الحيوان ، وانه تعرض الى الكثير من التطور والتغيير قبل ان يصل الى هذه المرحلة التي هو عليها الان. ويستدل على ذلك بقوله،لو كان الطفل يصرخ عند ولادته فيالعصور الاولى البعيدة التي كان الانسانفيها لا يزال تحت رحمة الوحوش الضارية- المفترسة ،ولو كان الطفل يملأ بعويله وصراخه المكان الذي ولد فية كما يصرخ اليوم،لما استطاع ان يعيشساعة واحـــدة ، لان صراخه سيدل الوحوش المفترسة على مكانه فتفترسه وتأكله . لذلك من المرجح ان الانسان اليوم في ظل المدنية والرقي يختلف عما كان عليه في العصور الاولى السحيقة في عهـــد البربرية والوحشية . ويتساءل كانت : « أما كيف احدثت الطبيعة مثل هـــذا التطور في الانسان ، وما هي العوامل التي ساعدت عليه ؟ فهو امر لا نعرفة ... ان اشارة « كانت » هذه حول تطور

الانسان تنقلنا الى طريق طويل . فهي تشير الى فكرة احتمال حدوث ثورة عظيمة في الطبيعة تؤدي الى انقلاب هذه المرحلة الحاضرة من التاريخ ، تعقبها مرحلة ثالثة يتطور فيها الاورنغوتان «الانسانالوحشي» او الشمبانزي باعضاء يستخدمها في المشي واللمس والكلام الى بناء الانسان المفصلي ، بالاضافة الى عضو مركزي يستخدمه للفهم ، وتتقدم فصيلة الشمبانزي والاورنغوتان تدريجياً بفضل النظم الاجتماعية التي تقيمها فيما بينها . هل اراد كانت بهذا التنبؤ عن المستقبل ان يذكر لنا بطريقة حريصة غير مباشرة رأيه حول تطور الانسان من مرحلة الوحشية الى المرحلة التي هو عليها الآن ؟ .

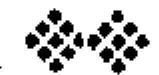
وهكذا فاننا نشاهد التطور البطيء الذي اتسم به هذا الفيلسوف الضئيل الحجم الذي لم يتجاوز الخمسة اقدام في طوله ، والذي امتاز بالاعتدال والانطواء على نفسه ، وكان يحمل في رأسه اعظم ثورة في الفلسفة الحديثة . لقد صب كانت حياته في قالب لا يحيد عنه من النظام والدقة كما يقول احد مترجمي حياته . فكان يستيقظ في الصباح فيبدأ بشرب القهوة ، فالكتابة ، فالمحاضرة ، فالغداء ، والخروج من منزله طلباً للمشي والنزهة . ويقول «هاين» ان لكل من هذه الامور وقتها المحدد . وعندما كان يظهر عمانويل كانت . بمعطفه الرمادي وعصاه في يده على باب منزله ، ويبدأ بالسير نحو الشارع الصغير الذي تكتنفه اشجار الزيزفون ، والذي لا يزال يحمل اسم (نزهة الفيلسوف) . يعرف الجيران ان الساعة قد بلغت منتصف الرابعة تماماً . وهكذا كان يأخذ في النزهه والتريض ذهاباً واياباً في جميع فصول السنة . وعندما يكون الجو قاتما او مكفهرا وغائما يتبعه خادمه الكهل بقلق متأبطا مظلة كبيرة ليقيه شر المطر .

لقد كان الفيلسوف « كانت » ضعيف البنية مما اضطره الى التحفظ كثيرا لوقاية نفسه . وكان يعتقد بأن الوقاية خير من العلاج واستشارة الطبيب . و... ا فقد عاش ثمانين عاما . وكتب وهو في السبعين من عمره مقالا عن « مقدرة ... على السيطرة على الشعور بالمرض بقوة العزيمة . » ومن بين عاداته المفضلة لوقاية نفس ...ر البرد الا يتنفس الا من انفه ، وخصوصا اذا كان خارج منزله ، وكان لا يسمح لاحد ان يكلمه في نزهته اليومية في فصول الشتاء والخريف والربيع ، اذ سيضطره الكلام الى التنفس من فمه وكان يقول ، الصمت خير من المرض بالبرد . لقد طبق الفلسفة حتى على ربط جواربه ، فكانت له طريقة خاصة في ربطها برباط يمر بجيوب بنطلونه . وكان يفكر في كل شيء تفكيرا طويلا قبل ان يقدم عليه . وبقي عازبا طيلة حياته . لقد فكر بالزواج مرتين ، ولكنه اطال التفكير في المرة الاولى الى ان تقدم للسيدة التي اراد الزواج بها خطيب آخر اشد سرعة واكثر شجاعة منه وفي المرة الثانية انتقلت السيدة التي اراد ان يخطبها من مدينة كونسبرج قبل ان يستقر قراره على الزواج منها . وربما اعتقد مثل نيتشه بأن الزواج سيحول بينه وبين البحث الامين عن الحقيقة .

قال تاليراند : « ان الرجل المتزوج على استعداد لأن يبيع نفسه ويفعل كل شيء مقابل الحصول على المال . » وكتب وهو في سن الثانية والعشرين بكل ما في الشباب من حماس وقوة : « لقد رسمت لنفسي الطريق الذي سأسير عليه في حياتي وعزمت على السير فيه ،

وسأدخل في هـذا الاتجاه ولن يمنعني شيء من متابعته والسير فيه » .

وهكذا واصل السير في طريقـــه وسط الفقر والغموض ، كاتبا ومنقحا كتابه العظيم الذي فرغ منه عام ١٧٨١ بعد ان استغرق خمسة عشر عامـا . لقد احدث كتابه انقلابا مفزعاً في عـــالم الفلسفة ، لم يحدثه اي كتاب آخر .



٣ - نقد العقل الخالص

ما هو المقصود من هذا العنوان « نقد العقل الخالص» ان كانت لا يعني مجرد النقد ، ولكنه يريد النقد التحليلي ، فهو لم يهاجم العقل الخالص بل كان يرجو ان يظهر امكانياته ، ويرفعه ويضعه فوق المعرفة غـــير النقية التي تأتي الينا عن طريق المعرفة المشوهة التي تنقلها الحواس . لأن العقـــل الخالص في نظره يعني المعرفة التي لا تأتي عن طريق الحواس. ولكنها معرفة مستقلة تماماً عن كل انواع التجربه او الحواس . معرفة خاصة بنا بحكم طبيعة العقل وتركيبه فقد اراد ان يرى هل في طبيعة العقل التي فطر عليها ما يمكنه من الوصول الى بعض المعرفة دون اعتماده على ما تأتي به الحواس من العالم الخارجي .

لقد تحدى « كانت » في البداية ما ذهب اليه لوك والمدرسة الانجليزية : فقال بأن المعرفة ليست مستمدة كلها من الحواس ، كما ذكر لوك والمدرسة الانجليزية. لقد انكر هيوم النفس والعلم ، وقال ان عقولنا ليست سوى افكارنا المتتابعـة المتعاقبة . وانه لا يجوز لنا ان نقطع برأي يقين . وان ما نسميه بالآراء اليقينية ليست سوى احتمالات معرضة دائماً لخطر نقضها ونفيها . واجاب « كانت » على ما ذهب اليه هيوم بقوله ان هذه النتائج الباطلة التي انتهى اليها هيـــوم . هي نتيجة للمقدمات الباطلة التي افترضها . لقد زعم هيوم ان كل معرفة الانسان

تأتي عن طريق الاحاسيس المنفصلة والمختلفه . ان هـذه السلسلة من الاحاسيس لا تقدم لك تتابعاً ضرورياً او سياقاً ثابتاً يجعلك على يقين الى الابد . وطبيعي ان لا تتوقع ان ترى نفسك حتى بأعين الحاسة الداخلية . نحن نسلم بان اليقين المطلق للمعرفة امر مستحيل ، لو كانت كل المعرفة تأتي عن طريق الاحساس ، من عالم خارجي مستقل لا يعدنا بالسير بانتظام . اذ لو كان هـذا هو مصدر المعرفة الوحيد لسلمنا بنتيجة هيوم من ان يقين المعرفة مستحيل . ولكن ما هو رأي هيوم لو وجدنا في انفسنا معرفة ليست مستمدة من التجربة الحسية ، معرفة نجزم بصحتها وحقيقتها حتى قبل التجربة ، وقبل ان يستقبل الذهن احساساً واحداً من العالم الخارجي. عندئذ الا تكون الحقيقة المطلقة والعلم المطلق ممكنين هل هناك مثل هذه المعرفة المطلقة التي لا تعتمد في وجودها على الحواس والتجربة؟ هذه هي قضية الكتاب الاول من النقد التي اراد كانت بحثها فهو يقول : « ان سؤالي ، هو ، ماذا نرجو ان نبلغ بالعقل ، اذا ابعدنا كل مساعـدة للتجربة الحسية . » لقد اورد كانت في كتابه تحليلا مفصلا لاصل الافكار ، واختبارا لاصل النظريات والافكار وتطورها وتحليلا لتركيب العقـل الموروث . وهو يعتقد بأن هذا هو قضية الميتافيزيقا كلها فهو يقول « لقد استهدفت الكمال في هذا الكتاب ، وانا اجرؤ على القول بأنك لن تجد قضية واحـدة من قضايا الميتافيزيقا الا الفيت حلا لها فيه ، او على الاقل وجدت مفتاحاً تستعين به على حلها .

ان نقد العقل الخالص يدخل فورا في صلب الموضوع . ويقول كانت : « ان التجربة ليست الميدان الوحيد التي تحدد فهمنا ، لذلك فهي لا تقـدم لنا اطلاق حقائق عامة ، وبذلك فهي تثير عقلنا المهتم بهذا النوع من المعرفة بدل ان تقنعه وترضيه . لذلك لا بد ان تكون الحقائق العامة التي تحمل طابـع الضرورة

الداخلية مستقلة عن التجربة واضحة ومؤكدة في نفسها . « اذ لابد ان تكون حقيقية ، بغض النظر عن نوع تجربتنا الاخيرة ؛ وحقيقية حتى قبل التجربة » ، ويصور لنا كانت بمثل رياضي رائع الى اي مدى نستطيع ان نتقدم مستقلين عن كل انواع التجربة فيقول ان المعرفة الرياضية ضرورية ومؤكدة . ولا نستطيع ان نتصور ما ينقضها في تجربة المستقبل . قد نعتقد ان الشمس قد تشرق غدا من الغرب ، او ان النار سوف لا تحرق العصي الخشبية في عالم لاتحرق فيه الاشياء . ولكننا لن نعتقد او نصدق طيلة حياتنا بان اثنين زائد اثنين يمكن ان يسفر عن عدد غير الاربعة . ان مثل هذه الحقائق حقيقية قبل التجربة . ولكن من اين نحصل على هذه الحقائق المطلقة والضرورة ؟ ليس من التجربة ، لان التجربة لا تعطينا شيئاً سوى احاسيس منفصلة وحوادث قد تغير تعاقبها في المستقبل . ان هذة الحقائق تستمد نوعها الضروري من تركيب عقولنا الفطري ، من الطريقة الطبيعية الحتمية التي يجب ان تعمل عليها عقولنا . لان عقل الانسان ليس لوحا جامدا من الشمع تكتب عليه الاحاسيس ؛ والتجربة ارادتها المطلقة والمتقلبة وليس سلسلة من الحالات العقلية . انه عضو نشيط يسبك وينسق الاحساسات الى افكار ، عضو يحول ضروب التجربة الكثيرة المشوشة وغير المنظمة الى وحدة من الفكر المنظم المرتب .

١ ـ الحس السامي

ان محاولة الاجابة على هذا السؤال ، هو دراسه التركيب الفطري للعقل او قوانين الفكر الفطرية . وهي ما يسميها كانت بالفلسفة السامية ، لانها تسمو على التجربة الحسية وتفوقها . فهو يقول « انني اسمى المعرفة سامية اذا كانت لا تُعنى كثيرا بالاشياء بقدر ما تعنى بافكارنا الفطرية البديهية عن الاشياء . » في وسائلنا . في وصل تجاربنا الى معرفة . وهناك مرحلتان في عملية تحويل مادة الاحساس الخام الى انتاج الفكر التام . المرحلة الاولى ، هي تنسيق الاحاسيس الاتية من الخارج واضفاء قـالبي الادراك الحسي وتطبيقه عليها ـ وهما المكان والزمان .

والمرحلة الثانية ، وهي تنسيق هذه المدركات الحسية المتطورة عن المرحلة الاولى بتطبيق انواع الرأي عليها ـ حتى نخرج منها مدركات عقلية .

والان ما هو المقصود بكلمة احاسيس ، وكلمة مدركات ؟ وكيف يغير العقل هذه الاحاسيس ويحولها الى مدركات ؟ . ان الاحاسيس في حد ذاتها ليست سوى وعي للدافع او الحافز . فقد نحس بطعم على اللسان او رائحة في الانف ، او صوت في الاذن ، او حرارة على الجلد ، او لمعة خاطفة من الضوء على شبكة

العين ، او ضغط على اصابع اليدين . هذه الاثار الحسية هي المادة الخام التي تبدأ بها التجربة » وهي التي تكون لدى الطفل في الايام الاولى من تلمس حياته العقلية . انها لم تبلغ حد المعرفة ، لانها منفصلة مفرقة . ولكن اذا اجتمعت هذه الاحاسيس المختلفة حول شيء في المكان والزمان ، في التفاحة مثلا ، اذا اجتمعت الرائحة في الانف ، والطعم على اللسان ، والضوء على شبكة العين ، والضغط على الاصابع واليد ، اذا اجتمعت ووحدت نفسها حول الشيء ، فان هذا يؤدي الى ادراك ذلك الشيء ، وبذلك يكون الاحساس قد تحول الى معرفة .

لان هذه الاحاسيس قد جاءت لنا عن طريق اقنية الحواس المختلفة ، عن طريق الالوف من الاعصاب التي تمر من الجلد والعين والاذن ، واللسان الى داخل المخ . يا له من خليط كبير من الرسائل عندما يجتمع ويحتشد في داخل جدران العقل ، وكل واحد منها يدعو العقل الى الانتباه ، لاغرابة ان يتحدث افلاطون عن لغط الحواس » فلو ترك هذا الجمع المحتشد وشأنه فسيبقى في لغط وفوضى عاجزا عن تنظيم نفسه الى معنى وغرض وقوة . وهو بذلك شبه بمجموعة من الرسائل وردت الى قائد عسكري من مئات مناطق جبهة القتال ، تتراكم فوق بعضها وتلتف حول نفسها بلا مساعدة للوصول الى تفهم للموقف الحربي واتخاذ قرار فيه . لابد لهذه الرسائل من منظم يتناولها وينسقها ويوحدها وينظمها ويصل عن طريقها الى قرار بشأن الخطة التي ينبغي اتباعها . لابد من منظم ومشرع لهذا الجمع من الاحاسيس . لابد لها من قوة موجهة ومنسقة لاتتلقى الاحاسيس فقط ، بل تأخذ هذه الذرات من الاحساسات وتصوغها وتسبكها الى معنى من المعاني .

وجدير بنا ان نلاحظ اولا ، انه ليس كل ما يبعث من الرسائل يقبل ، اذ ان الالوف من المؤثرات التي تندفع الى جسمك ، وتتلاعب به في تلك اللحظة ، عاصفة من الحوافز والبواعث والمؤثرات الحسية الخارجية تضرب اطراف الاعصاب ولكننا لانختار كل هذه المؤثرات . اننا نختار من بين هذه الاحساسات الواردة الينا ما يمكن سبكه وصياغته الى ادراكات حسية تتناسب مع غرضنا في تلك اللحظة . او تلك الاحساسات التي تنذر بالخطر . ان الساعة تدق ، ولكنك لاتسمع دقاتها ، ولكنك تسمع دقات هذه الساعة حالا اذا كان ذلك يتناسب مع غرضك مع ان دقاتها لم ترتفع عما كانت عليه سابقا . كما ان الام النائمة الى جانب فراش طفلها ، لاتسمع شيئا من الضوضاء حولها ، ولكنها تهب من نومها لمجرد حركة خفيفة من ولدها كغواص يشق طريقه بسرعة من الاعماق الى سطح البحر . وهذا يدل على اننا لانختار من الاحساسات الواردة الينا الا ما لايمكن سبكه وصياغته الى ادراكات حسية ، تتناسب مع غرضنا في تلك اللحظة . فاذا كان غرضنا هو الجمع فان الرقم (٢) والرقم (٣) يؤدي الى الجواب (٥) واذا كان غرضنا هو الضرب ، كانت النتيجة (٦) مع ان الاحساس المنبعث من الرقمين واحد لم يتغير في كلتا الحالتين . والذي تغير هو الغرض ، مما ادى الى اختلاف في معنى احساس بعينه . ان علاقة الاحساسات او الافكار ليست متوقفة على مجرد التقارب في المكان والزمان ، ولا في التشابه ، او الجدة او التكرار او شدة التجربة ، اذ انها خاضعة فوق كل شيء الى غرض العقل ، ان الاحساسات والافكار خدم لنا ، تنتظر دعوتنا . ولا تأتي الى اذهاننا الا اذا احتجناها . اذ ان فينا وكيلا يقوم

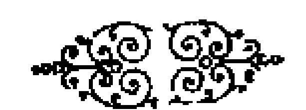
بالتوجيه والاختيار في استخدامها ، وهو سيد لها . الا وهو العقل الموجود بالاضافة الى هذه الاحساسات والافكار .

يعتقد كانت . ان هذا الوكيل الذي يشرف على الاختيار والتنسيق ، الا وهو العقل ، يستخدم اولا وسيلتين بسيطتين في ترتيب المواد المقدمة له : وهما معنى المكان ومعنى الزمان ، كما يرتب القائد العسكري الرسائل التي ترد اليه حسب المكان الواردة منه ، والزمان الذي كتبت فيه ، وبهذا ينظمها وينسقها . فكذلك العقل يرتب الاحساسات التي ترد اليه من العالم الخارجي حسب مكانها وزمانها ، ويعزوها الى هذا الشيء او ذاك الى الوقت الحاضر او الماضي ، ولكن ليس الزمان والمكان امرين مدركين ، ولكنهما كيفية للادراك ووسيلة لوضع معنى في الاحساس ، ان المكان والزمان وسيلتان للادراك الحسي .

انهما مسلم بهما بالاستدلال العقلي ، لان كل التجربة المنظمة تشملها وتفترض وجودهما ، وبغيرهما لايمكن للاحساسات ان تنمو الى ادراكات حسية ، انهما مسلم بهما بالاستدلال العقلي لاننا لن نصادف اي تجربة في المستقبل لاتشملها . ولانها مسلم بها ، فان قوانينها وهي قوانين الرياضيات ، مسلم بها بالاستدلال العقلي ، ومطلقة وضرورة ، عالم بلا نهاية ، انها ليست مجرد احتمال ، انه امر يقيني باننا لن نجد خطا مستقيا لا يكون اقصر مسافة بين نقطتين ، لقد تم انقاذ الرياضيات على الاقل من شك دفيد هيوم المتنافر .

هل من الممكن انقاذ بقية العلوم بالمثل ؟ نعم ان انقاذها ممكن اذا

اظهرنا صحة قانونها الاساسي ، قانون السببية الذي مؤداه ان العلة المعينة ينبغي ان يتبعها دائما معلول معين . فلو اثبتنا ان هذا القانون فطري موروث في جميع مراحل الفكر كما في الزمان والمكان ، بحيث لايمكن تصور تجربة في المستقبل تخالفه او تخرج عليه . هل السببية ايضا مسلم بها بالاستدلال العقلي ، ضرورة لازمة وحالة لجميع انواع الفكر .



٢ - التحليل السامي

وهكذا ننتقل من ميدان الاحساسات والمدركات الحسية الفسيح الواسع الى غرفة الفكر الضيقة. من الحس السامي الى المنطق السامي ، واولا الى تسمية وتحليل تلك العناصر في تفكيرنا التي لم تقدم الى العقل عن طريق الادراكات الحسية بقدر ما قدمت الى الادراكات الحسية عن طريق العقل . تلك الرافعات التي ترفع المعرفة الادراكية للاشياء الى معرفة فكرية ذات علاقات وسياق ، وقوانين . تلك الادوات في العقل التي تصفي وتنقي التجربة الى علم تماما كما تنظم الادراكات الحسية ، الاحساسات حول الشيء في الزمان والمكان ، هكذا تنظم الادراكات العقلية الادراكات الحسية (وهي الاشياء والحوادث) حول افكار السبب ، والوحدة والعلاقة المتبادلة والضرورة ، والملاسة الخ .. هذه الحالات وغيرها هي التركيب الذي يستقبل الادراكات الحسية والذي يرتبها ويسبكها ويصوغها الى مدركات فكرية منظمة هذه هي مميزات العقل الجوهرية ان العقل هو تنسيق وتنظيم التجربة .

لاحظ هنا مرة ثانية نشاط هذا العقل الذي اعتقد لوك وهيوم انه مجرد قطعة جامدة سلبية من الشمع تشكلها التجربة الحسية كما تريد . اذن فالعقل بالنسبة الى كانت ليس مجرد قطعة جامدة من الشمع ، ولكنه عقل نشيط فعال يتلقى التجربة فيرتبها وينظمها ويسبكها ويصوغها في فكر . فلو نظرنا الى

نظام فكري كفلسفة ارسطو ، هل من الممكن ان يكون هذا النظام الشامل العالمي من المعلومات قد اتى تلقائيا عن طريق هذه المعلومات المشوشة الآلية نفسها . انظر الى فهرس اسماء الكتب وعناوينها في المكتبات العامـة . والتي رتبت ونظمت بذكاء . وفقا للحاجة منها ، وبعدئذ تصور هـذه البطاقات التي كتبت عليها اسماء الكتب وقد القيت كلها على الارض واختلطت بعضها ببعض في غير نظام . فهل تتصور او تصدق انهذه البطاقات المبعثرة في وسعها سحب نفسها والتجمع من تلقاء نفسها والعودة بهدوء الى اماكنها في الصناديق حسب ترتيبها الا بجدي والموضوعي . ثم يعـود كل صندوق الى مكانه المعين . هـــذه هي القصة العجيبةالتي يقدمها لنا دعاة الشك . بقولهم ان الاحاسيس اذا وصلت الى العقل استطاعت ان تنظم نفسها وان تتحول الى فكر منظم مرتب .

ان الاحاسيس بواعث غير منظمة . والادراكات الحسية هي احاسيس منظمة ، والمدركات العقلية هي مدركات حسية منظمة ، والعلم هـو المعرفة المنظمة ، والحكمة هي الحياة المنظمة . وكل واحد عبارة عن درجة اعظم من النظام والسياق والوحدة . من اين جاء هذا النظام وهذا السياق والوحدة : انه لم يأت من الاشياء نفسها ، لاننا نعلم تلك الاشياء عن طريق الاحاسيس التي ترد علينا عن طريق الوف الاقنيه في كثرة وفوضى وازدحام . ان غرضنا هو الذي وضع نظاما وسياقا ووحدة على هذه الثورة الملحفة . اننا انفسنا بشخصياتنا وعقولنا القينا ضوءا على هذه البحار المظلمة . لقـد اخطأ « لوك » عندما قال « لاشيء في العقل الا ما كان في الحواس اولا » وكان « ليبينتز » على صواب عندما قال « لا شيء الا العقل نفسه . » يقول كانت « بأن الادراكات الحسية بغـــير المدركات العقلية عمياء » فلو كانت الادراكات الحسية قادرة وحدها عـلى تنظيم نفسها بطريقة آلية الى فكر منظم ولم يكن للعقل اثر فعال في تحويل

فوضى الاحساس الى نظام الفكر . كيف يمكن ان تسفر التجربة الحسية ذاتها التي يتعرض لها رجلان ، فتنتهي بالرجل الاول الى ان يكون عاديا ووسطا ويرتفع الثاني بفضل نشاطه وروحه المتوثبة الى ضوء الحكمة ومنطق الحقيقة وذروة المعرفة ؟

ادن للعالم نظام . ولكن هذا النظام ليس موجودا في العالم نفسه ، ولكن الفكر الذي عرف العالم وادركه هو المنظم لهذا العالم . ان المرحلة الاولى ترتيب التجربة الحسية التي تنتهي اخيرا الى العلم والفلسفة . ان قوانين الفكر هي قوانين الاشياء ايضا . لاننا نعرف الاشياء فقط عن طريق الفكرة التي تسير وفقا لهذه القوانين ، اذن فالقوانين العقلية هي نفسها قوانين الطبيعة . وكما قال هيجل ان قوانين المنطق وقوانين الطبيعة شيء واحد ، وينـدمج المنطق والميتافيزيقا . اذن فقوانين العلم ومبادئه ضرورية ، لانها هي قوانين الفكر ، الداخلة — والمتضمنة لكل تجربة ماضية وحاضرة ومستقبلة ، ان العلم مطلق والحقيقة خالدة .

٣ ـ المنطق السامي

ومع ذلك فان هذا اليقين ، وهذا الاطلاق الاعلى لتعميات المنطق والعلم محدود ونسبي ، محدود تماما داخل ميدان التجربة الحقيقية ، ونسبي تماما لهيئة تجربتنا البشرية ، اذا لو كان تحليلنا صوابا فان العالم كما نعرفه يكون بناء ، وانتاجا تاما ، شيئا مصنوعا اشترك في تشييده عاملان ، العقل من ناحية ، والاشياء نفسها من ناحية اخرى . العقل بما فيه من قوالب السبك والصياغة ، والشيء بما يبعثه من مؤثرات تؤثر على الحواس . فظاهر الشيء كما يبدو لنا قد يكون مخالفا كل المخالفة للشيء الخارجي قبل ان يجيء في دائرة حواسنا، ويستحيل علينا ابدا ان نعرف حقيقة ذلك الشيء الاصلي . لان الانسان لايعرف الا ما يصادفه في تجربته ، فان وقع الشيء في ذاته في حدود التجربة تغير اثناء مروره خلال الحواس والفكر « اننا نجهل ماهية الاشياء وحقيقتها المستقلة عن ادراك الحواس جهلا تاما . اننا لانعرف شيئا عن الاشياءالا كيفية ادراكنا لها ، ولما كانت تلك الكيفية خاصة بنا ، لم يكن من الضروري ان يشترك فيها كل الكائنات ولو انها لاريب عامة بين البشرجميعا . »

ان القمر كما هو معروف لدينا مجرد مجموعة من الاحساسات (كماارتأى هيوم) وحدها (وذلك ما لم يره هيوم) تركيب عقلنا عن طريق تنقيـــة

الاحساسات الى ادراكات حسية ، وتنقية ـ الادراكات الحسية الى مدركات عقليـــة او افـكار - والنتيجة فان القمر بالنسبة لنا ليس سوى افـكارنا .

ولكن هذا لايعني ان « كانت » يشك في وجود المادة والعالم الخارجي ولكنه يقول باننا لانعرف شيئا يقينيا عنهما خلا وجودهما . وان معرفتنا المفصلة عنهما تتعلق بمظهرهما وظاهريتهما . بما لدينا عنهما من احساسات فجزء كبير من كل شيء قد خلقته صور الادراك الحسي والعقلي ، فنحن نعلم الشيء بعد تحويله الى فكرة اما ما كان الشيء قبل هـــذا التحول فلا نستطيع ان نعرف . واذا ظن العـــلم انه يتناول الاشياء في حد ذاتها ، اي في حقيقتها كما هي فهو واهم ومخدوع . والفلسفة اكثر من العلم وهما وضلالا ان زعمت ان مادة العـــلم كلها لا تتألف من احساسات ، وادراكات حسية ومدركات عقلية بـــل من الاشياء نفسها . قال شوبنهور : (ان فضل كانت يكمن في تميـــيزه مظهر الشيء عن الشيء في نفسه) .

ويتبع ذلك ان كل محاولة يبذلها العلم او الدين في تعريف الحقيقة النهائية تنتهي لان تكون مجرد محاولة نظرية . لان العقل لا يمكن ان يتجاوز حدود الظواهر الحسية . فان مثل هذا التجاوز ينتهي بالعلم الى مناقضة نفسه وبالدين الى المغالطة . ومهمة المنطق السامي العسيرة هي فحص شرعية محاولات العقل التملص والفرار من دائرة الحس والظواهر والدخول في عـــالم الاشياء في ذاتها وهو عالم مجهول .

ان التناقض هو المعضلة التي لا حل لها الناجمة عن محاولة العلم تخطي التجربة فمثلا عندما يحاول العقل ان يقرر فيما اذا العـــالم محدود اولا نهائي من حيث

المكان وقع العقل في تناقض واشكال ، ورفض كل فرض من هذين الفرضين . فنحن مسوقون الى التصور بأن وراء كل حد شيئاً ابعد منه ، وهكذا الى ما لا نهاية ، ومع ذلك فان اللانهاية في حد ذاتها امر لا يمكن ادراكه . ومرة ثانية لو حاول العقل ان يعرف هل كان للعالم ابتداء زمني وقع في الاشكال نفسه . لاننا لا نستطيع ان نتصور الازلية التي ليست لهـــا نقطة ابتداء ، ولكننا في في الوقت ذاته لا نستطيع ان نتصور اية لحظة في الماضي نسميها بدء الزمن ، اذ لا يسعنا الا ان نشعر بانه قد كان قبل تلك اللحظة الاولى شيء . ثم لو تساءل العقل هل لسلسلة العلة والمعلول التي يدرسها العلم بدء ، اي هل للعالم عـــلة اولى نشأ عنها ، اجاب العقل بالايجاب والنفي معا ، فبالايجاب لانه لا يستطيع ان يتصور سلسلة لا نهاية لها . وبالنفي لانه لا يمكن تصور علة اولى لا علة لها . هل هناك مخرج لهذه المنعطفات والاشكال في الفكر ؟ ويجيب كانت على هذا السؤال بالايجاب نعم يمكن وجود مخرج لهذه الاشكال في الفكر لو تذكرنا بأن المكان والزمان والعلة ليست سوى وسائل للادراك الحسي والادراك العقلي ، والتي يجب ان تدخل الى كل تجربتنا باعتبار انها مفتاح وبناء التجربة ، وبدونها لا تكون لنا تجربة ولا معرفة . هذه المشاكل ناجمة عن افتراضنا بأن المكان والزمان والعلة اشياء خارجية مستقلة عن الادراك . وعلى الرغم من ان كل ما نصادف من تجـارب لا يمكن فهمه وتفسيره الا اذا صغناه بعبارات الزمان والمكان والسببية ، فلن تكون لنا فلسفة صحيحة ، اذا فاتنا ان هذه ليست اشياء واقعة ، ولكنها وسائل لتفسير التجارب وفهمها فقط .

كذلك يقع الدين في المغالطة والاشكال التي وقـع بها العلم عندما يحاول اللاهوت ان يبرهن بالعقل النظري ان الروح خالدة لا يجوز على عنصرها الفساد ، وان الارادة حرة ولا تخضع لقوانين السببية ، وان في الكون كائناً

موجود بالضرورة هو الله . هنا يجب على المنطق السامي ان يذكر اللاهوت ان العنصر والسببية والضرورة كلها صور محدودة ووسائل يطبقها العقل في ترتيب وتنظيم التجربة الحسية . وهي لا تكون مشروعة ويمكن الاعتماد عليها الا اذا طبقناها على الظواهر الحسية التي تظهر لمثل هذه التجربة . لا نستطيع ان نطبق هذه المدركات العقلية على عالم الظن والحدس والاستنتاج لذلك لا يمكن اقامة البرهان على صحة الدين بالعقل النظري .

وهكذا ينتهي الكتاب الاول في النقد، وكأننا نتخيل (دفيد هيوم) يستعرض هذه النتائج التي توصل لها كانت ، وتعلو وجهه ابتسامة مصطنعه تهكمية . هنا كتاب واسع ، يقع في ثمنمئة صفحة ، يحاول وضع حل لجميع مشاكل الميتافيزيقا وانقاذ العلم والدين . ماذا انجز هذا الكتاب في الحقيقة . لقد دمر عالم العلم البسيط وحدد من مداه حتما ان لم يكن في درجته، لقد حصره في عالم الظواهر السطحي ، فان تجاوز هذا العالم انتهى امره بالتناقض . وهكذا (انقذ) العلم. ويتناول كانت بفصاحة وبلاغة في جزء من كتابه موضوع الدين وحرية الروح وخلودها والخالق فيقول ، انها لا يمكن للعقل اثباتها واقامة الدليل عليها . وبهذا فقد « انقذ » الدين ايضاً .. ولا غرابة ان رفض رجال الدين في المانيا هذا الانقاذ للدين الذي قدمه لهم كانت واحتجوا عليه احتجاجاً شديداً ، وانتقموا لانفسهم منه بأن اطلقوا اسم « عما نويل كانت » على كلابهم .

ولا غرابة ان قارون « هيني » . بين « كانت » النحيل البنية الضعيف و « روبسبير » المخيف فقال ان روبسبير لم يقتل الا ملكا واحداً وبضعة آلاف قليلة من الفرنسيين — هي جريمة قد يتسامح فيها الرجل الالماني ، اما « كانت » فقد قتل الله وقوض اعظم الاركان والدعائم الغالية التي يقوم عليها بناء

اللاهوت . (ان الخلاف كبير بين حياة هذا الرجل الخارجية وبـــين افكاره الهدامة التي هزت العالم وارجفته رعبا . ولو قدر سكان كونسبرج اهمية هذه الافكار البالغة لارتاعوا من وجود هذا الرجل بينهم اكثر من خوفهم من جلاد ينفذ حكم الاعدام بالناس فقط . ولكن الناس لم يروا فيه الا استاذا للفلسفة . وعندما كان يخرج ويمر بهم في ساعة خروجه المحددة التي لا يحيــد عنها كانو يحيونه بهز رؤوسهم تحية الصداقة ويضبطون ساعاتهم .)

هل كان هذا صورة كاريكاتورية هزلية ام وحيا والهاما .

٤ — نقد العقل العملي

اذا كان الدين لا يمكن ان يقوم على اساس من العلم واللاهوت ، علام يقوم اذن ؟ لان بناءه على اساس من اللاهوت ليس مأمون الجانب ويعرضه للخطر . اذن فالافضل التخلي عن اللاهوت النظري ، والقضاء عليه بالابتعاد بالدين عن متناول حكم العقل وسيادته . ولنشيد الدين على اسس الاخلاق ، ولكن يجب ان تكون اسس الدين الاخلاقية مطلقة ، غير مستمدة من التجربة او الاستنتاج المزعزع ، والا يفسدها العقل المعرض للزلل والخطأ . يجب ان نستمد الاساس الاخلاقي من باطن النفس بادراك وبصيرة مباشرة . يجب ان نجد اخلاقا عامة وضرورية ، مبادىء اخلاقية مسلما بها ، ومطلقة ويقينية كالرياضيات . ويجب ان نظهر ان العقل الخالص يمكن ان يكون عمليا ، وانه يمكنه بطبيعته ان يقود الارادة مستقلا عن اي شيء تجريبي ، وان الاخلاق فطرية فينا ، ولم تستمد من التجربة ، وان الاوامر الاخلاقية التي نحتاج لها لتكون اساسا للدين يجب ان تكون عامة ومطلقة مستمدة من فطرة الانسان . ان هذا الشعور الفطري للاخلاق حقيقة تظهر في كل تجاربنا بشكل واضح يبعث الدهشة ، فكلنا نشعر شعوراً لا مفر منه اذا تعرضنا للاغراء ان هذا او ذلك العمل خطأ . قد نستسلم للخطأ ، ولكن الشعور بالخطأ موجود فينا على اية حال ، اذ لا يسعنا على الرغم من استسلامنا للخطأ الا ان نشعر بأننا قد اخطأنا . فقد

ارتكب سخافة واعرف اني ارتكبت سخافة ، واعزم مرة ثانية على عدم ارتكاب مثل هذه السخافة . ما هو الشيء الذي يثير فينا الندم والتبكيت ، ويدعونا الى اعتزام تجنب الخطأ . انه الآمر في نفوسنا، انه الضمير الذي يأمرنا ان نعمل وكأن مبدأ عملنا سيصبح قانونا عاماً للطبيعة . نحن نعلم لا بالتفكير ولكن بشعورنا القوي المباشر اننا يجب ان نتجنب السلوك الذي لو اتبعه الناس جميعا يؤدي الى تعذر الحياة الاجتماعية واستحالتها . قد اقع في مأزق حرج ، ولا استطيع الخروج من هذا المأزق الا اذا كذبت . ولكني في الوقت الذي اريد التخلص فيه من هذا المأزق بالكذب لا احب ان يكون الكذب قانونا عاما بأي حال من الاحوال . لان تحت مثل هذا القانون تضيع الثقة وتنتفي الوعود والعهود بين الناس . ولذلك فاني احس في نفسي انه لا يجوز ان اكذب حتى ولو كان الكذب في صالحي ومنفعتي . ان الحكمة امر افتراضي وشعارها الامانة اذا كانت الامانة تؤدي الى افضل النتائج السياسية ، ولكن القانون الاخلاقي في قلوبنا مطلق بلا قيد ولا شرط .

وبموجب هذا القانون الاخلاقي المفطور في نفوسنا يكون العمل فاضلا وصالحا لا بسبب ما ينتج عن هذا العمل من نتائج حسنة وطيبة او بما فيه من حكمة ولكن لان هذا العمل قد أدي وفقا لهذا الشعور الداخلي بالواجب . هذا القانون الاخلاقي الذي لم يأت عن طريق تجاربنا الشخصية ولكنه فطري طبيعي فينا . والخير الوحيد في هذا العالم هو ارادة الخير ، وهي الارادة التي تتبع القانون الاخلاقي ، بغض النظر عما يعود علينا من كسب او خسارة . اذ ليس المهم هو السعادة وانما هو الواجب . « اذاً ليست الاخلاق مبدأ يعلمنا كيف نجعل انفسنا سعداء ، ولكن كيف نجعل انفسنا جديرين

بالسعادة . » دعنا نسعى الى سعادة الآخرين ، ولكن بالنسبة الى انفسنا يجب ان نسعى الى الكمال سواء قدم لنا هذا الكمال سعادة او ألماً . ولكي تبلغ الكمال في نفسك والسعادة في الاخرين . اعمل وكأنك تعامل الانسانية سواء أكانت ممثلة في شخصك او في اي شخص آخر ، كغاية في كل حـــالة ، ولا يجوز لك قط ان تعتبرها وسيلة فقط » يجب ان يكون هذا المبدأ اساسا لحياتنا فان تمسكنا بهذا المبدأ فسرعان ما نخلق لانفسنا مجتمعا مثالياً فـــاضلا . والسبيل الى خلق مثل هذا المجتمع ان نعمل كما لو كنا ننتمي اليه من قبل. يجب ان نطبق القانون الكامل في الدولة الناقصة . قد نقول انها اخلاق عسيرة صعبة تلك التي تضع الواجب فوق الجمال ، والاخلاق فوق السعادة . ولكن بهـــذه الوسيلة فقط نتوقف عن مرتبـــة الحيوانية ونرتفع من حيوانات لنصبح الهـــة .

وجدير بنا ان نلاحظ ان هذا النداء المطلق لاداء الواجب يدل نهائيا على حرية ارادتنا . اذ كيف نستطيـــع ان نتصور فكرة الواجب ، لو كنـــا لانشعر بانفسنا احراراً ؟ اننا لانستطيـــع ان نقيم الدليل على هذة الحرية بالعقل النظري . ويمكننا ان نقيم الدليل على هذه الحرية بالشعور بها شعورا مباشرا اذا ما وقفنا موقف الاختيار بين سلوكين . اننا نشعر بهذه الحرية في داخل انفسنا «في الذات الخالصة» نشعر في داخل انفسنا بنشاط العقل التلقـائي وهو يسبك ويصوغ للتجربة ، ويختار الاهداف . وعندما نبادر في اعمالنا ، يبدو لنا انها تتبـــع قوانين ثابتة لاتتغير . ولكن هذا يبدو لنا لاننا ندرك نتائج اعمالنا بواسطة الحواس التي تلبس كل ما تحوله ثوب قانون السببية . ولكن هذه السببيـــة من صنع عقولنا ، ومع ذلك فاننا فوق القوانين التي تصنعها لنفهم تجاربنا الحسية .

إذ ان كل واحد منا مركز قوة ابداعية خالقة ، وكل واحد منا حر فيما يفعل رغم ما يقيد الاعمال من سببية ظاهرة ، ونحن نشعر بهذه الحرية ولكن لايمكننا اقامة الدليل عليها .

ومرة ثانية كما استنتجنا حرية ارادة الانسان عن طريق صوت الواجب الذي فطرنا عليه ، فاننا نشعر باننا خالدون . اننا نشعر بخلود الانسان ولكننا لانستطيع ان نقيم عليه الدليل . اننا نعلم بان الحياة ليست كما يحب الناس ، اذ ما يحبه الناس في هذه الحياة ازال العقاب بالمسيء ، ومكافأة المحسن بالثواب ، ولكن الحياة على نقيض ما يحبه الناس ، اذ لاعقاب فيها للمسيء ، ولا ثواب للمحسن . وتعلمنا الحياة كل يوم ان حكمة الثعبان افضل من رقة الحمامة وان السرقة تؤدي بصاحبها الى الفوز اذا كان المال المسروق كبيرا جدا او يكفي لتغطية معالم السرقة . فلو كان مجرد النفع في هذه الدنيا والوصول الى الغاية هو كل ما يبرر الفضيلة ، لما كان من الحكمة ان نكون فضلاء وان نتمسك باهداب الفضيلة . ولكن على الرغم من معرفتنا لكل هذا الذي يواجهنا كل يوم ويتكرر في حياتنا باستمرار فاننا لانزال نشعر بافضلية التقوى والفضيلة وعمل الخير ، ونعرف ان الواجب يدعونا الى عمل الخير على الرغم من عدم موافقته لنا وتنافيه مع مصالحنا . كيف يمكن لهذا الشعور بالحق ان يعيش ، ان لم نكن نحس في اعماق قلوبنا وقرارة نفوسنا ان هذه الحياة ليست الا جزءا من حياة ، وان هذا الحلم الدنيوي ليس الا مقدمة لميلاد جديد ، وبعث جديد . كيف يمكن لهذا الشعور بالحق ان يعيش اذا كنا لانحس وندرك بطريقة غامضة ان في الحياة الاخرى الاطول امدا سيجزى كل انسان فيها اضعافا مضاعفة من الحسنات والاجر على ما قدمه من اعمال صالحة في هذه الدنيا .

واخيرا فان هذا الدليل الذي اثبت حرية الانسان وخلوده ينهض برهاناً على وجود الله . لانه اذا كان الشعور بالواجب يتضمن ويبرر الايمان في الجزاء الذي سيأتي اي في التسليم بالخلود ، فان الخلود لا بد ان يتبعه فرض وجود علة متكافئة مع معلولها او بعبارة اخرى فان هذا يؤدي الى التسليم بوجود الله . وليس هذا ايضا برهانا بالعقل . بل هو مستمد من شعورنا الخلقي الفطري الذي يفوق المنطق النظري الذي لم يتطور الا لمعالجة الظواهر الحسية . ان عقولنا تجيز لنا ان نعتقد بان وراء الاشياء إلها ، وشعورنا الاخلاقي يأمرنا بالاعتقاد في ذلك. لقد كان (روسو) على صواب حين قال : (ان شعور القلب فوق منطق العقل واصاب بسكال عندما قال : (ان للقلب اسبابا خاصة به لا يمكن ان يفهمها العقل) .

٥ ـ في الدين والعقل

لم يكن (كانت) فيما دعا له مبتذلا وهيابا او رجعياً محافظاً والعكس هو الصحيح فقد كان جريئا وشجاعاً في انكاره اللاهوت النظري ، وانكاره ان يكون الدين قائما على العقل . لقد اثار ما ذهب اليه من خفض الدين والنزول به الى مجرد ايمان اخلاقي جميع رجال الدين في المانيا فقاموا بالاحتجاج . لقد تطلبت عاصفة احتجاج رجال الدين في المانيا شجاعة كبيرة من كانت . لقد ابدى شجاعة نادرة عندما نشر وهو في سن السادسة والستين كتابه (نقد الحكم) واعقبه بكتابه (الدين في حدود العقل الخالص) الذي نشره وهو في سن التاسعة والستين .

وهو في اول هذين الكتابين يعود الى التحدث عن الرأي القائل بأن وجود غاية يهدف اليها العالم ويقصدها دليل على وجود الله ، وكان قد رفض هذا الرأي في كتابه الاول نقد العقل على اساس انه لايدل دلالة كافية على وجود الله . وهو يبدأ في ربط القصد بالجمال ويعتقد بأن الجميل هو اي شيء يكشف عن تناسق ووحدة في البناء ، كأن عقلاً قد رسمه ووضع تصميمه وقصده وهو يلاحظ ان التأمل في تناسق تصميم الكون وقصده يقدم لنا دائما

سعادة نزيهة . وان الاهتمام في جمال الطبيعة يدل دائما على الخير . ان الكثير من الاشياء في الطبيعة تظهر لنا مثل هذا الجمال ومثل هذا التناسق والوحدة ، وتدفعنا الى التفكير بوجود قصد فوق الطبيعة مما يحملنا على التفكير بانها تسير الى غاية معينة ، ولكن « كانت » يقول ، ولكن هناك في الطبيعة امثلة كثيرة على الفوضى والاهمال والعبث والتكرار والتكاثر الذي لا فائدة فيه . ان الطبيعة تحفظ الحياة ولكن على حساب الكثير من الالم والموت ، لذلك فان مظهر الكون الخارجي وجماله وتناسقه ووحدته وابداعه ليس دليلاً قاطعا على وجود الله ، وعلى رجال اللاهوت الذين يعتمدون على هذه الفكرة في التدليل على وجود الله ان يتخلوا عنها وينبذونها . وعلى رجال العلم الذين تخلوا عن هذه الفكرة ورفضوها ان يستردوها ويستخدموها، لانها فكرة عظيمة ودليل جليل يؤدي الى كشف المئات من الامور الغامضة . اذ لاشك ان في العالم قصداً وتصميما ، ولكنه قصد داخلي ، قصدوضعه الكل لاجزائه ، ولو قام العلم بتفسير اجزاء الكائن العضوي ومعنى هذه الاجزاء بالنسبة الى الكل ، فان هذا سيؤدي الى توازن عظيم لمبدأ البحث الآخر الذي يقوم على نظرية آلية الحياة، ان هذه النظرية حول آلية الحياة تنطوي على الفائدة ايضا ، ولكنها وحدها لاتكفي لتفسير نمو ورقة واحدة من اوراق الاشجار او حشيشة واحدة من العشب .

أما رسالته عن الدين فهي انتاج عظيم بالنسبة الى رجل في التاسعة والستين من عمره . وقد بلغ كانت في هذه الرسالة ذروة الجرأة والشجاعة . وهو يقول في هذه الرسالة ان الدين لايجوز ان يقوم على اساس منطق العقل النظري .

ويجب ان يقوم على العقل العملي للشعور الاخلاقي . ذلك ان اي كتـــاب من الكتب المقدسة وكل ما ينزل به الوحي ، يجب ان يحكم عليه بما له من قيمـــة اخلاقية ، ولا ينبغي ان يكون هو نفسه الحاكم او القاضي الذي يرجع اليه في القانون الاخلاقي . ان قيمة الكنائس والمعتقدات الدينية تكون بمقدار ما تعاون الجنس البشري على التطور والرقي الاخلاقي ، اما اذا تحول الدين الى مجموعة من المراسيم والعقائد والطقوس الشكلية وعلق الناس اهمية بالغة على هذه الطقوس والمراسيم وفضلوها على الناحية الاخلاقية التي جاء بها الدين وجعلوا المراسيم والطقوس امتحانا تقاس به الفضيلة فان هذا يعني انتهاء أمر الدين وزواله . ان الكنيسة الحقيقية هي جماعة من الناس مهما بلغ تفرقهم وانقسامهم يجمعهم ويوحدهم ولاؤهم لقانون اخلاقي مشترك . وقد عاش المسيح ومات لتأسيس مثل هذه الجماعة . لقد اسس المسيح هذه الكنيسة الحقيقية للقضاء على نفاق ورياء رجال الدين ومراسيمهم وطقوسهم الشكلية ، ولكن ظهر بيننا طبقة كهنوتية من رجال الدين والقساوسة بطقوسهم ومراسيمهم التي طغت على فكرة الديانة المسيحية الاصيلة النبيلة . (لقد قرب المسيح ما بين مملكة الله والارض ، ولكننا اخطأنا في فهمه فاستبدلنا مملكة الله بمملكة الرهبان والقسيسين التي نشأت بيننا .

ومرة ثانية عادت الطقوس والعقائد الدينية الى الظهور . وحلت محل الحياة الفاضلة الطيبة . وبدل ان يرتبط الناس بعضهم ببعض برباط الدين، انقسموا الى الف مذهب . وراحوا يعتقدون بأن هذيان الورع نوع من العبادة يسترضي فيها الانسان عن طريق الرياء والنفاق حاكم السماء ، وكأن الله حاكم من حكام

الارض يمكن الوصول الى رضاه عن طريق التزلف والرياء والنفاق . هذا كما ان المعجزات لايمكن ان تؤيد الدين وتدل عليه ، لاننا لا نستطيع التعويل على شهادة من يؤيد هذه المعجزات . ولا فائدة في الصلاة اذا كانت تستهدف تعطيل قوانين الطبيعة التي تدل على صحتها التجارب . واخيرا فان هذا الانحراف عن الدين يبلغ الحضيض عندما تصبح الكنيسة اداة طيعة في يد حكومة رجعية . حيث يصبح رجال الدين الذي يقضي عليهم واجبهم تخفيف ويلات الانسانية وتعزيتها في نكباتها وهديها عن طريق الايمان الديني والأمل والاحسان ادوات ظلم سياسي .

لقد كان « كانت » جريئا جدا في نشر هذه الاراء التي تعرض فيها الى وصف الاوضاع في بروسيا في ذلك الوقت . فقد توفي فردريك الكبير عاهل بروسيا في عام ١٧٦٦ وخلفه في الحكم فردريك وليام الثاني الذي كان رجعيا . فقد أقال « زدلتز » وزير المعارف في عهد فردريك الكبير ووضع في مكانه القسيس فلنر الذي كان يتظاهر بالورع والتقوى ، والذي وصفه فردريك الكبير بكونه قسيسا متآمرا وخائنا مخادعا يضيع وقته سدى في تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب « السيمياء » لقد صعد هذا القسيس الى السلطة بعد ان وعد بتقديم نفسه اداة طيعة في تطبيق سياسة العاهل الجديد الذي اراد استرداد العقيدة الدينية بالقوة . وفي عام ١٧٨٨ اصدر هذا الوزير قانونا يحرم على كل مدرسة او جامعة ان تعلم ما لا يتفق مع التعاليم البروتستانتية اللوثرية ، وفرض رقابة شديدة على كل وسائل النشر ، وأمر بطرد كل مدرس مشبوه بالالحاد والزندقة . لقد ترك « كانت » اول الامر بعيدا عن هذه المضايقة والملاحقة الحكومية بسبب كبر سنه ، فقد قال عنه احد رجال البلاط

بأنه رجل تقدمت به السن ، ولا يقرأ كتبه سوى عدد قليل من الناس ، وهؤلاء الذين يقرأون له لا يفهمونه . ولكن لما اصدر « كانت » كتابه عن الدين كان اسلوبه جليا واضحا ومفهوما ، قرع فيه ناقوس الحقيقة بحماس الدين ، بطريقة فولتير واسلوبه ، فلم يفلت من يد الرقابة وامرت المطبعة التي تعهدت بطبعه بعدم طبعه ونشره .

وهنا ثارت ثائرة « كانت » فأبدى شجاعة لاتنتظر من رجل في السبعين من عمره ،وارسل الكتاب الى بعض اصدقائه في (بينا) وقامت مطبعة الجامعة هناك في طبعه ونشره . لقد كانت « بينا » خارج بروسيا تحت حكم الدوق «فيمار» المتحرر الذي افسح المجال امام حرية الرأي والفكر،والذي كان يرعى الشاعر الفيلسوف (جوته) ويفسح له المجال ليفكر ويكتب وينظم بحرية تامة . وكانت نتيجة نشر هذا الكتاب ان تلقى (كانت) في عام ١٧٩٤ رسالة بليغة ارسلتها له الوزارة بأمر من ملك بروسيا جاء فيها : « لقد اساء الى ذاتنا العلية اساءة بالغة سوء استعمال فلسفتك وتقويضها لكثير من اهم مبادىء الكتاب المقدس الاساسية والديانة المسيحية . ونأمرك ان توضح موقفك توضيحا دقيقا على جناح السرعة . ونتوقع ان تتوقف في المستقبل عن مثل هذه الاهانات التي وجهتها الى الدين . وان تستخدم مواهبك وصلاحياتك بحيث تتفق مع واجبك حتى نتمكن من بلوغ هدفنا الابوي . اما اذا واصلت معارضتك لما نأمرك به ، فلتتوقع من العواقب ما لا يرضي ولا تحمد عقباه .)

واجاب (كانت) على هذه الرسالة بانه يجب ان يكون لكل عالم الحق في الافصاح عن آرائه افصاحا مستقلا في الامور الدينية ،

والحرية في نشر آرائه بين الناس ، ولكنه يعد بأن يلوذ بالصمت ابان حكم الملك الحالي .

لقد لام بعض المؤرخين (كانت) لهـــذا الرضوخ لامر الملك . ولكن يجب ان لا يغيب عنا انه كان في السبعين من عمره ، ضعيفا ، سقيما لا يقوى على النضال والكفاح فضلا عن اقتناعه انه قام بواجبه ، وبلغ العالم رسالته .

٦ ـــ في السياسة والسلام الدائم

كان من الممكن ان تتسامح الحكومة البروسية مع ما نشره (كانت) من آراء في الدين على الرغم مما جاء فيها من الحاد ولكن لم يكن من السهـــل التسامح في آرائه السياسية المتطرفة في ذلك العهد . فقد جمع بين الالحادفي الدين والتطرف في السياسة ايضا . فبعد ثلاث سنوات من اعتلاء فردريك وليـام عرش بروسيا ، اندلعت الثورة الفرنسية وزلزلت قوائم العروش كلها في اوربا . وفي الوقت الذي هرع فيه اساتذة الجامعات في بروسيا لتقديم ولائهم وتأييدهم للنظام الملـكي ، استقبل (كانت) انباء الثورة الفرنسية بالبشر والسرور على الرغم من كهولته ، وقال لاصدقائه والدموع تغمر عينيه : « استطيع الآن ان اقول ما قاله «سيمون» يا الهي اسمح لعبدك ان يفارق العـالم بسلام ، لأني رأيت خلاصك وانقاذك . »

وكان (كانت) قد نشر في عام ١٧٨٤ ، شرحا موجزا لنظريتـــه السياسية تحت عنوان : (المبدأ الطبيعي للنظام السيـاسي وعلاقتـــه بفكرة التاريخ الدولي العام (لقد بدأ (كانت) هذا البحث بالاعتراف في النزاع بين الفرد والمجتمع ، ذلك النزاع الذي افزع «هوبز» لقد اقر «كانت» هذا النزاع بين الفرد والكل ورأى فيه وسيلة طبيعية لتطور امكانيات الحياة المستترة . اذ لو كان جميع الناس

اجتماعيين بطبعهم ويميلون للنزعة الاجتماعية ، لادى هذا الى خمود همة الانسان وركود نشاطه . ولا بد من مزيـج بين النزعة الفردية والمنافسة لتساعد في بقاء البشر وتطورهم . وهو يقول لولا ما لدى الناس من نزعات وصفات فردية ، وعزوفهم عن الحياة الاجتماعية ... لعاشوا عيشة بسيطة يعمها السرور والسعادة والانسجام التام والقناعة والحب المتبادل . ولكن هذا النمط من المعيشة والحياة يخنق المواهب ويقضي عليها في مهدها .

(وبهذا يختلف « كانت » مع جان جاك روسو الذي فضل العودة الى هذه الحياة البسيطة ورأى فيها منجاه وخلاصا للبشر للتخلص من قيود المدنية ومتاعبها .) ويقول : « نشكر الطبيعة على ما وهبتنا من نزعة فردية ادت الى اذكاء روح الغيرة والحسد والزهو والطموح والى رغبة جشعة للتملك والقوة والسلطة ... ان الانسان يحب ان يعيش فى صفاء ووئام ووفاق ولكن الطبيعة ادرى منه بما يعود بالنفع على البشر فالطبيعة تريد التنافر والنزاع والخصام الذي يجبر الانسان على حفز قواه من جديد والتطور بمواهبه وامكانياته الطبيعية تطورا متواصلا . »

اذن ليس النزاع من اجل البقاء شراً . ومع ذلك فقد اعتقد النـــاس وجوب تقييده ضمن حدود معينة ، وتنظيمه بالاحكام ، والعادات والقوانين . وهنا بدء اصل المجتمع المتمدن وتطوره . ان نفس هذه النزعة الفردية التي اجبرت الناس على ايجاد المجتمع هي السبب الذي يدعو كل حكومة الى التمسك بحريتها الكاملة في علاقاتها الخارجية مع الدول الاخرى . ونتيجة لذلك فان كل دولة تتوقع من الدول الاخرى نفس الشرور والمظالم التي كانت تنزل بالافراد قبل تنظيم المجتمع الذي اجبرهم على الدخول في اتحاد مدني ينظمه القانون . لقد

حان الوقت الآن لخروج هذه الدول من حالتها الطبيعية الوحشية ، والدخول في اتفاقات لحفظ السلام . ان حركة التاريخ في معناها تتجه الى الحد من العنف والخصام وتوسيع رقعة السلام في العالم .

اننا اذا استعرضنا تاريخ الجنس البشري كمجموعة لوجدناه يتجه الى تحقيق خطة خفية للطبيعة تستهدف اقامة نظام سياسي كامل يتيح التطور لكل الامكانيات والطاقات التي وهبتها الطبيعة للناس تطوراً كاملا ولولا هذا التطور والتقدم الى الامام ، لكانت جهود اعمال المدنيات المتعاقبة اشبه شيء بما حدث الى «سيفيوس» الذي حاول الصعود الى قمة الجبل رافعا بين يديه حجرا كبيرا مستديرا ، وكلما اوشك على بلوغ القمة افلت الحجر منه وتدحرج الى الوادي ليبدأ سيفيوس مرة ثانية في رفعه من جديد . ولو لم يتجه التاريخ في سيره نحو تحقيق هذه الغاية التي تهدف اليها الطبيعة لكان سخفا يدور في حلقة من السخافة لاتنتهي . وفي هذه الحالة يمكننا ان نقول ما يقوله الهندوسي بأن الارض هي المكان الذي يكفر فيه الناس عن خطاياهم وذنوبهم .

وتعتبر رسالة « كانت » « السلام الدائم » تطوراً بديعاً ونبيلا حول هذا الموضوع . لقد كان كانت يشكو بقوله : « ان حكامنا لا يملكون المال للانفاق على تعليم الشعب وتثقيفه لانهم حولوا كل مواردهم المالية في الاستعداد للحرب القادمة . » ولن تتمدن الشعوب حقا ما لم تعمل على تسريح الجيوش القائمة فيها والغائها . لاشك ان هذا الاقتراح حول تسريح الجيوش وتصفيتها كان ينطوي على جرأة بالغة ، لان بروسيا أول من بدأت في عهد والد فردريك الكبير في فرض نظام التجنيد الالزامي على الجميع . (ان الجيوش

تثير المنافسه بين الدول وتدفعها الى زيادة عدد جنودها الذي لايقف عند حد . ويصبح السلم في النهاية اشد ظلما من حرب قصيرة بسبب الافراط في تسليح الجيوش الذي يقع عبء الانفاق عليها على عاتق الشعوب . وهكذا تصبح هذه الجيوش القائمة سببا في الدخول في حروب عدائية تخوضها الدول لكي تتخلص من هذا العبء .) وذلك لان الجيش في زمن الحرب يعتمد في تزويد نفسه على البلد باجبار الشعب على تقديم ما يلزمه من مؤونة ومساكن او عن طريق السلب والنهب . ويفضل ان يلجأ الى مثل هذا العمل في ارض العدو ، ولكنه يقوم بذلك في بلاده اذا استدعت الضرورة لذلك . وحتى هذه الحالة الاخيرة خير من ارهاق مالية الدولة وتبديدها في الانفاق على الجيش .

يعتقد « كانت » ان هذه النزعة العسكرية سببها توسع اوروبا في امريكا وافريقيا واسيا ، وما ينجم عنه من صراع وقتال بين اللصوص على الاسلاب والغنائم الجديدة التي تقع في ايديهم « ان سلوك هذه الدول المشين البعيد عن الانسانية وخصوصا الدول التجارية في قارتنا الاوروبية ، والمظالم التى تنزلها في شعوب البلدان الخارجية يملأ نفوسنا بالرعب . ان مجرد زيارة هذه الدول لتلك الشعوب تعتبر كافية لغزوها . فقد اعتبرت الدول الاوروبية الاستعمارية البلاد التي اكتشفتها كامريكا وبلدان الزنوج ، وجزر التوابل ، ورأس الرجاء الصالح وغيرها بلادا مباحة لا تخص احدا . ولم تقم وزنا لسكانها الاصليين . وقد وقع هذا كله من أمم ملأت العالم ضجيجا ولغطا بتقواها وورعها . وفي الوقت الذي تسقي فيه هذه الامم الظلم كالماء ، تعتبر نفسها صفوة الدين وشعب الله المختار » .

لقد ذهب (كانت) هذا الشره الاستعماري الى نظام الحكم الاولجاركي « حكم القلة » الذي كان يسود الدول الاوربية ، حيث كانت تتسرب الاسلاب والغنائم الى الاقلية الحاكمة . اما اذا قامت حكومة ديمقراطية وحلت محل حكومات الاقلية ، وساهم كل الشعب في السلطة السياسية فان غنائم النهب والسرقات الدولية هذه ستوزع على افراد الشعب . ولا يصيب الواحد منهم الا مقداراً ضئيلا لايغرى على المخاطرة في الحرب من اجل الغنائم والاسلاب . لذلك فقد كانت المادة الاولى لتعريف شروط « السلام الابدي » الذي دعا اليه « كانت » هي « ان يكون الدستور المدني لكل دولة دستورا جمهوريا ، وان لاتعلن الحرب الا باستفتاء جميع المواطنين . لاننا اذا خيرنا الذين تقع عليهم اعباء الحرب وينكوون بنارها بين السلم والحرب ، فانهم سيختارون السلم حتما ، وبذلك لن يعود التاريخ يسطر بالدماء . اما في الدولة التي لا ينص دستورها على حق الشعب في التصويت والانتخاب ولا يشترك الشعب فيها بالحكم ، ولا يكون فيها نظام الحكم جمهوريا ، فان قرار الدخول في الحرب يكون في ايدي القلة الحاكمة . ويكون الحاكم في هذه الحالة لا مجرد مواطن فحسب بل مالك للدولة . وبفضل كونه حاكما فلن يتعرض الى اهوال الحرب ومخاطرها وآلامها . ولن يكون ملزما بالتضحية بملذاته في قصوره بين الموائد والحفلات والخروج الى الصيد والقنص وما شابه ذلك . لذلك فهو يعلن الحرب لاسباب تافهة وكأنها ليست سوى رحلة للصيد . اما بالنسبة الى تبرير اعلان الحرب فيتركه بلا اهتمام الى الهيئات الدبلوماسية التي تكون دائما على استعداد لتقديم خدماتها من اجل هذا الغرض » .

لقد بعث انتصار الثورة الفرنسية على جيوش الرجعية في عام ١٧٩٥ روح الامل في « كانت » ورجا ان ينتشر النظـــام الجمهوري في جميــع انحاء اوروبا . وان يسود العالم نظام دولي يقوم على الديمقراطية والغـــاء الرق والعبودية والاستغلال . وان يتعهد هذا النظام الدولي بنشر الســـلام في العالم . ان مهمة الحكومة هي الاخذ بيد الفرد ومساعـــدته على النمو والتطور ، وليس استخدامه وانتهاك حقوقه واستغلاله « ان احـــترام الفرد واجب لذاته ، وانها لجريمة ضد كرامة الفرد كانسان ان تقوم الحكومة باستخدامه كوسيلة لتحقيق مطامعها ومآربها في الخارج . « انه جزء من مجموعة المبادىء الخلقيه التى اذا تجرد الدين منها يتحول الى نفاق ورياء وسخافة مضحكة . ولذلك فان « كانت » يـــدعو الى المساواة بين افراد المجتمع ، واتاحـــة الفرص امامهم للتطور بالمواهب والامكانيـــات الـكامنـــة فيهم . وهو يرفض كل ضروب الامتيازات الطائفيـــة والعائلية والطبقيـــة . وهو يعزو جميع انواع الامتيازات الوراثيـــة الى اعمـــال الغزو والعنف الذي ظفرت فيه الاسر بهذه الامتيازات في المـاضي .

لقد وقف « كانت » مؤيدا للديمقراطيـــة والحرية في الوقت الذي اجمعت فيه الرجعية والظلم واتحـــاد ملوك اوروبا على سحق الثـــورة الفرنسية . وقد اتخذ موقفه هذا على الرغم من انه كان في السبعين من عمره . لقد دعا الى اقامة النظام الديمقراطي والحرية في كل مكان ولم يشاهد التاريـخ كهلا دعا الى مبادئه بشجاعة لا تقل عن شجاعة

الشباب مثله . لقد استنزف الكفاح وضعف الشيخوخـــة قواه ، لقد جرى في سباقه وحارب معركته ، واصابه خرف بسيط انتهى اخيرا الى جنون مؤذ ، واخذت قواه ومشاعره تفارقه الواحـــدة بعد الاخرى وفي عام ١٨٠٤ اسلم روحه بهدوء وسقط كورقة شجرة ذابلة في ايام الخريف .

٧ ـ نقد وتقـــدير

والان كيف استطاع هذا الصرح المركب الذي شيده «كانت» الصمودأمام العواصف والاعاصير الفلسفية التي عصفت به طيلة قرن من الزمان ؟ كيف استطاع هذا الصرح الذي يجمع بين المنطق ، والميتافيزيقا ، وعــلم النفس ، والاخلاق والسياسة ان يقف الى اليوم ؟ من الممتع الاجابة بأن الكثـــير من هذا الصرح لا زال باقيا ، وان الفلسفة النقدية التي اقامها ذات اهمية دائمة في تاريخ الفكر على الرغم من تداعي بعض النواحي التفصيلية في هذا البناءالعظيم الذي قام بتشييده .

ان اول ما اخذ عليه من وجوه النقد هو فكرته عن المكان . فهل اصاب «كانت» عندما قال ان المكان صورة حسية ليست له حقيقة مستقلة عن العقل المدرك ، والاجابة على هذا السؤال هو نعم ولا ، نعم ، لان المكان فكرة ذهنية تظل فارغه حتى تملؤها المدركات الحسية ، اذ ليس معنى المكان الا اشياء بعينها في موضع معين بالنسبة الى الشخص المدرك ، او هو مسافـــة تقاس بالنسبة الى اشياء مدركة . ويستحيل على الانسان ان يدرك الاشياء الخارجية ادراكا حسياً الا وهي في مكان . اذن لاشـــك ان المكان صورة

ضرورية لا بد منها للحس الخارجي ولا ، لأن ثمة حوادث تقع في المكان دون ان يدركها الانسان ادراكا حسياً ، وفي مثل هذه الحالة يكون المكان مستقلا عن الادراك الحسي ، ولا يكون كما قال « كانت » صورة عقلية يستخدمها الانسان في صياغة المدركات الحسية . والمثال على ذلك دورة الارض حول الشمس كل سنة . فهي تتم في المكان دون ان يدركها الانسان بحواسه . فليس صحيحا ان ما زعمه « كانت » من ان الانسان يتلقى احساسات لا مكانية فيخلع عليها عقله المكان ، بل الصحيح اننا ندرك المكان في نفس الوقت الذي ندرك فيه الاشياء .

وكذلك ليس الزمان حقيقة ذاتية فحسب ، بل هو ايضا موضوعي موجود في الخارج بغض النظر عن الانسان . فهذه الشجرة المعينة تكبر وتذوى وتتلاشى سواء ادركنا نحن مرور الزمن عليها وقسناه ام لم ندركه . والحقيقة ان « كانت » كان مهتما جدا في اقامة الدليل على ان المكان ذاتي محض ، وليس له وجود في الخارج . لعله ينجو من المذهب المادي ، فخشي ان يقرر موضوعية المكان ولا نهايته فينتج عن ذلك وجود الله في مكان ووجوده في المكان يعني ماديته .

لقد انتهى العلم الحديث بنظرية النسبية الى نفس ما قاله (كانت) عن الزمان والمكان . ولكن يؤخذ عليه ما ذهب اليه من ان الحقيقة مطلقة من حيث الثبوت واليقين . فقد جاءت الدراسات الحديثة التي قام بها بيرسون في انجلترا وماش في المانيا وهنري بونيكاري في فرنسا مؤيدة لهيوم فأثبتت بأن جميع العلوم حتى الرياضيات الدقيقة نسبية في حقيقتها . واصبح العلم يقنع برجحان كفه الاحتمال دون ان يطالب بحقيقة مطلقة .

ولكن اعظم ما وصل اليه « كانت » هو ما ذكره عن ان الانسان لايعلم عن العالم الخارجي الا ما يأتيه عن طريق الحواس ، وان العقل ليس مجرد صفحة بيضاء عاجز عن العمل وضحية للحواس . ولكنه وكيل ايجابي يقوم باختيار واعادة بناء التجربة عندما تصل اليه .. ولكن هنالك من يشكون في فطرية هذه الصور الذهنية . اي في وجودها عند الانسان قبل ان يصل اليـه من الخارج احساس ما . فيقول « سبنسر » ان ذلك قد يكون صحيحا في الفرد ، ولكنه خطأ بالنسبة للجنس كله ، اعني ان الانسان كجنس قـد استمد هذه الصور الذهنية من العالم الخارجي ، ثم ورثها لافراده . وهنالك من يقول ان هذه الصور الذهنية اقنية فكرية ، او عادات كونتها تدريجيا الاحساسات ثم المدركات الحسية ، فاصبح للانسان بعد تكوينها القـدرة على الادراك الحسي والعقلي ، ويقول هذا الفريق من المفكرين ان الذاكرة (اي الصور الحسيـة المحفوظة في الذهن ، والتي جاءت من الخارج على مر الايام (هي الـتي تفسر الاحساسات التي تأتينا عن طريق الحواس المختلفة وهي التي تنظمها وتبوبهـا وتحولها الى مدركات حسية ، ثم تحول هذه المدركات الحسية الى افكار فالذاكرة هي التي تسبب ما للعقل من وحدة وتماسك – واذن فوحدة العقل مكسوبة لاموهوبة كما قال « كانت » وقد يفقد الانسان ما اكتسبه من وحدة العقل في بعض الحالات كالجنون مثلا . وعلى ذلك تكون كل مدركاتنا العقلية من صنعنا وليست فطرية موروثة .

لقد تناول الناقدون في القرن التاسع عشر نظرية « كانت » في الاخلاق بالنقد الشديد ، وانكروا اطلاقها وفطريتها ، وذهبت فلسفة التطور الى ان شعور الانسان بواجبه ليس صادرا عن اخلاقية فطرية كما ذهب اليه « كانت »

ولكنه مستمد مما اودعه المجتمع في الفرد من قواعـــد للسلوك ، وان الضمير مكتسب على الرغم من ان النزعة الغامضة في الانسان نحو السلوك الاجتماعي فطرية . فالاخلاق ، والانسان الاجتماعي « ليس مخلوقا خاصا » صنعه الله كما هو عليه الان ، ولكنها نتيجة تطور استغرق فترة طويلة من الزمان ، وليست الاخلاق عامة مطلقة ، ولكنها قانون للسلوك يتطور وينمو بما هو ملائم لحياة الجماعة . وهي متغيرة بتغير طبيعة الجماعة وظروفها . فالنزعـــة الفردية مثلا تتنافى مع الاخلاق في شعب يحاصره العدو ، ولكنها تكون وسيلة ضرورية بالنسبة الى امة فتية آمنة لاستغلال ثروتها ومصادرها الطبيعية وتكوين اخلاقها القومية ، وتساعدها في تطورها وتقدمها ونهوضها . فليس هناك عمل خير في ذاته كما يقول « كانت » .

لقد ادت به تربيته الدينية في ايام شبابه ، وحياته الخشنة التي كان يسودها الشعور بالواجب وقلة اقباله على الملذات الى ميل اخلاقي ، فلقد انتهى اخيرا الى تأييد الواجب من اجل الواجب في حد ذاته ، وهكذا وقع بغـــير قصد بين ذراعي البروسية المطلقة . ان « كانت » يواصل السير في اصلاحات لوثر والرواقيين ، كما واصل فولتير نهضة مونتـــاني والابيقوريين . لقد كان « كانت » يمثل رد فعل قوي ضد الانانية وعبادة اللذة او مذهب السرور الذي طبع فيه هلفيسيوس وهولباخ حياة المرحلة المحطمة التي عاشوا فيها . لقد ثار مثل لوثر على حياة الترف والتهاون التي كانت تسود ايطاليا في ذلك العهـــد . ولكننا نجد انفسنا بعد قرن من الثورة ورد الفعل على اخلاق كانت مرة ثانية نتمرغ في وحل من عبادة الشهوات ، ونغوص في بحر من اللا اخلاقيـــة والفردية القاسية التي لم يخففها الضمير الديمقراطي او الشرف الارستقراطي .

وقد يجيء الوقت الذي ترحب فيه مدنيه منحلة على وشك الانهيار بدعـــوة الواجب التي دعا لها « كانت »

ان ما يسترعي النظر في فلسفة « كانت » هو انة عاد في كتابه النقدي الثاني الى اعادة احياء فكرة الله ، وحرية الارادة والخلود التي دمرهـــا في في كتابه الاول . وقد قال عنه احد النقاد « انك تشعر عندما تقرأ كتب « كانت » انك في سوق ريفية . وانك لاتستطيـــع ان تشتري منه اي شيء تريد من حرية الارادة وجبرها ، المثالية ودحضها ، الالحاد والايمان بالله . فهو اشبه شيء بالحاوي يخرج من كيسه الخاوية كل شي ، اذ تراه يخرج من فكرة الواجب ، الها وخلودا وحرية . مثيرا دهشة القارىء . ويعتقـــد « شوبنهور » ان « كانت » كان في حقيقة الامر شاكا كفرد بالدين نفسه ، ولكنه تردد في هدم ايمان الناس اشفاقا على الاخلاق العامة من ان يصيبها الدمار .

« لقد كشف « كانت » عن الاسس العقلية الواهية التي يقوم عليهـــا اللاهوت الشعبي من غير ان يمسه ، ودعمه بطريقة اكثر نبلا بجعله الايمان يقوم على الشعور الاخلاقي . » وكأنه ادرك الخطأ الناجم عن هدمه اللاهوت القديم فاتجه الى اللاهوت الاخلاقي يستمد منه بعض الدعائم الواهية المؤقتة عسى ان يظل البناء قائما ليتمكن من الفرار قبل ان تسقط انقـــاضه عليه وهكذا فاننا نجد « هيني » يمثل « كانت » بطريقة كاريكاتورية هزلية مقصودة بعـد ان هدم صرح الدين ، يسير في نزهته المعتادة مع خادمه « لامب » وفجأة يرى الدموع تجري في عيني خادمه الكهل ، فتأخذه الشفقة ويحاول ان يثبت للعالم انه ليس مجرد فيلسوف عظيم بل انسان طيب وصالح ايضا . ويريد ان

يدخل السعادة الى قلب خادمه الذي لا يستطيع ان يعيش بغير الله ، وفي ذلك فقد ذهب الى ان العقل العملي يضمن وجود الله ، واذا كان هذا صحيحا فاننا يصح ان نسمي كتابه النقدي الثاني « الغاز الخانق الثاني »

ولكن يجب ان لا نأخذ بعين الجد داخلية « كانت » ، وكونه يبطن في نفسه الحادا ، فان لهجته الحماسية في مقاله عن « الدين في حدود العقل الخالص » تدل على اخلاص شديد لايمكن الشك فيه ، كما ان محاولته تغيير الاسس الدينية من لاهوت نظري الى اخلاقي ، ومن عقيدة الى سلوك ، تدل على عقلية دينية عميقه . فقد كتب الى صديقه ميندلسون في عام ١٧٦٦ يقول انني افكر في اشياء كثيرة ارقن بصحتها ... ولكني لم اجد الشجاعة اطلاقا على الافضاء بها . ولكن لن اقول شيئا اطلاقا لا اعتقد بصحته . « وطبيعي ان تتضارب التفسيرات وتتناقض التعليقات حول كتاب « النقد» العظيم لما فيه من غموض واسهاب . لقد ذكر راينهولد في تعليق له على هذا الكتاب بعد سنوات قليلة من ظهوره كثيرا من اوجه النقد والتعليق التي نثيرها حوله اليوم فقال « لقد اعلن المتدينون العقائديون بأن « نقد العقل الخالص » محاولة شاك يحاول بها تقويض يقين المعرفة . وقال اصحاب الشك ، ان هذا الكتاب ادعاء وقح يحاول بناء صورة جديدة من اليقين في العقيدة على انقاض الانظمة الماضية . وقال المتقدمون بما فوق الطبيعة انه حيلة مدبرة خبيثة لمحو اسس الدين التاريخية واقامة المذهب الطبيعي بلا جدال . وقال الطبيعيون انه دعامة جديدة لفلسفة الايمان التي

محتضر . وقال الماديون انه مثالية تحاول نقض حقيقة المادة ، وقال الروحانيون ، انه تحديد لا مبرر له للحقيقة كلها وحصرها في العالم المادي .

« والواقع ان عظمة هذا الكتاب ومجده تقع في تقديره لجميع وجهات النظر وذكاء « كانت » نفسه ، ولعله قد وفق بينها وصهرها جميعها في بوتقة من وحدة الحقيقة لم تشاهد الفلسفة لها مثيلا في تاريخها الماضي كله .

اما بالنسبة الى تأثير آرائه ، فحسبنا ان نقول ان افكار القرن التاسع عشر الفلسفية كانت تلف وتدور حول آرائه . واخذت المانيا كلها تتحدث عن الميتافيزيقا من بعده . وقام شيلر وجوته بدراسته واقتبس بيتهوفن باعجاب شديد كلماته المشهورة عن غرائب الحياة الاثنين السماء المرصعة بالنجوم فوقنا ، والقانون الاخلاقي فينا » والتج فخته ، وشلنج ، وهجل وشوبنهور في تماقب سريع انظمة من الافكار استمدت ثقافتها منه . وفي هذه الايام المثمرة من ايام المانيا كتب جين باول ريشتر هذه العبارة :

— « لقد منح الله الفرنسيين البر ، والانجليز البحر ، والالمان امبراطورية السماء . »

« لقد مهد نقد « كانت » للعقل ، وتمجيده للشعور الطريق لمذهب الارادة في شوبنهور ، ونيتشه ، والوجدانية في برجسون والبراجماتزم في وليام جيمس . كما استمد هجل نظاما تاما من الفلسفة من تشبيه قوانين

الفكر بقوانين الحقيقة . واثر « الشيء في ذاته » على سبنسر تأثيرا كبيرا ، كما ان كيرد وجرين وولاس وواتسون وبرادلي وكثيرين غيرهم في انجلترا مدينون في الهامهم الى كتاب كانت « النقد الاول » وحتى نيتشه استمد فلسفته في المنطق والمعرفة من كانت . وبعد صراع استمر قرنا من الزمان بين مثالية كانت ومادية عهد التنوير ، يبدو ان النصر في جانب « كانت ».

٨ ـــ تعليق حول هجل

ولد جورج ولهلم فردريك هجل في شتجارت عام ١٧٧٠ وكان والده موظفا صغيرا في وزارة المالية في ولاية فرتمبرج . لقد كان هجل تلميذا نشيطا، وقام بتحليل كل الكتب الهامة التي قرأها تحليلا مفصلا . لقد اثارت مطالعاته ودراساته للادب اليوناني حماسة شديدة للحضارة الاثينية بقيت في نفســـه الى النهاية ، على الرغم من ان حماسه لفروع اخرى من فروع الادب والمعرفة في شبابة خف تدريجيا كلما تقدمت به السن فقد كتب (ان الالماني المثقف يجد نفسه في بيته عندما يطلع على حضارةاليونان . لقد اخذ الاوروبيون دينهم عن الشرق . ولكنهم استمدوا علومهم وفنونهم ، وكل ما يرفع من شأن حياتهم ويضفي عليها الجمال والرضى عن اليونان بطريقة مباشرة او غير مباشرة . لقد آثر هجل فترة من الوقت دين اليونان على المسيحية . وكتب كتـــابا انكر فيه معجزات المسيح وانكر الوهيته ، واعتبره ابنا لمريم ويوسف ، ولكنهقام باتلاف الكتاب بعد ذلك .

كما اظهر روحا ثائرة في السياسة ايضا على الرغم من ولائه وتأييـــد لوضع الراهن . فقد دافع دفاعا مجيدا بالاشتراك مع شلنج عن الثورة الفرنسية،

واتجه ذات صباح ليغرس شجرة الحرية في سوق المدينة . لقد تخرج من جامعة توبنجن عام ١٧٩٣ بشهادة اطرت على اخلاقه وتفوقه في اللاهوت وفقه اللغة، وضعفه في الفلسفة . لقد كان فقيرا لدى تخرجه واضطر لكسب عيشه الى التدريس في بيرون وفرانكفورت . وقد ساعدته هذه السنوات التي قضاها في التدريس على بناء افكاره وارائه . وفي الوقت الذي تمزقت فيه اوروبا الى شيع قومية ، كان هجل يجمع امره وينمي مداركه .

توفي والده في عام (١٧٩٩) وترك له ما قيمته « ١٥٠٠ » دولار . وشعر بانه اصبح غنيا بهذا المال فاعتزل التدريس . وكتب الى صديقه شلنج يسأله رأيه في مكان تتوفر فيه بساطه العيش ووفرة الكتب . واشار عليه شلنج بالاتجاه الى «ينا» التي كانت مدينة جامعيه يحكمها دوق فيار ، وكان شيلر استاذ التاريخ في جامعة المدينة ، بينما كان فخته وشلنج في دور اعداد فلسفتيها .وصل هجل الى تلك المدينة في عام ١٨٠١ وفي عام ١٨٠٣ عين استاذا في جامعتها .

لقد كان هناك في عام ١٨٠٦ عندما القت انتصارات نابليون على الجيش البروسي هذه المدينة العلمية الصغيرة في جو من الرعب والفوضى . واغار الجنود الفرنسيون على بيت هجل . فلاذ بالفرار كفيلسوف بارع يحمل معه نسخة من اول كتاب هام له « علم تجسد الروح » وبقي فترة من الوقت يعاني العوز مما دفع صديقه جوته ان يطلب من كنيبال مساعدته بقليل من المال . ولفترة من الوقت قام بتحرير صحيفة في بامبرج ، وفي عام ١٨١٢ ترأس مدرسة ثانوية في نورنبرج ، وكتب اثناء رئاسته لهذه المدرسة كتابه « المنطق » (١٨١٢ - ١٦) الذي اثار المانيا بغموضه ، وجعله يفوز بمنصب استاذ الفلسفة في جامعة

هايدلبرج حيث كتب هناك « موسوعة العلوم الفلسفية » وقد رفعت هـــذه الموسوعة من ذكره وشأنه وعين استاذا في جامعة برلين . ومنذ ذلك الوقت الى نهاية حياته ساد عالم الفلسفة بلا منازع ، كما ساد جوته عالم الادب وبيتهوفن عالم الموسيقى . لقد ولد بعد جوته بيوم واحد ، وتحتفل المانيا الفخورة بهما بعيديهما كل سنة .

لقد طلب مرة احد الفرنسيين من هجل ان يجمل فلسفته في جملة واحدة ، ولكنه لم يفلح تماما مثل ذلك الراهب الذي طلب منه تعريف المسيحية وهو واقف على قدم واحدة فقال : « ان تحب الخير لجارك كما تحبه لنفسك . » لقد فضل هجل الجواب على ذلك السؤال باخراج عشرة مجلدات واشتكى بعـــد كتابتها ونشرها وحديث العالم باسره عنها بقوله : « لم يفهمني سوى رجـــل واحد ، وحتى ذلك الرجل لم يفهمني جيدا . ان معظم كتاباته تتـألف مثل ارسطو من مذكرات محاضراته او مذكرات تلاميذه التي دونوها اثناء سماعهم لهذه المحاضرات . ولم يكتب بيده سوى كتابيه « المنطق » « وعلم تجسد الروح » وهما كتابان في غاية الغموض والابهام . ويصف هجل كتاباته بكونها « محاولة لتعليم الفلسفة النطق والتحدث باللغة الالمانية » وقد افلح في ذلك .

ان كتابه المنطق لايحتوي على وسائل التفكير ولكن عـــلى النظريات المتبعة في التفكير . وهي الكيف والكم ، والصلة وغيرها . ان مهمة الفلسفة الاولى هي تشريــح هذه الافــكار المرتبطة في جميــع تفكيرنا . واكثرها شمولا وانتشارا هي الصلة او العلاقة . ان كل فكرة تتألف من مجموعة من الصلات والعلاقات . اننا لانستطيــع التفكير بالشيء الا اذا قارناه بشيء آخر ، وادركنا اوجه الشبه والخلاف فيه . والفكرة تكون فكرة فـــارغة اذا تجردت

عن العلاقات . ولا يمكن لشيء ان يوجد او يكون له معنى اذا كان مجرداعن العلاقات والصلات .

واكثر هذه الصلات والعلاقات شمولا هي صلة التعارض او التناقض . فهو يقول ان كل حالة لفكرة او شيء ، وكل رأي وكل موقف في العالم يؤدي الى موقف معارض له ، وبعدئذ يتحد هذا المعارض او المضاد معه لتشكيل كل اعلى . ان هجل يدخل هذه « الحركة المنطقية » في كل ما كتبه من كتب والقاه من محاضرات . انها فكرة قديمة طبعا ، اشار اليها امبيزوقليس ، وتجسمت في « الوسط الذهبي » الذي ذهب اليه ارسطو الذي قال ان معرفة الاضداد امر واحد . « يعتقد هجل بأن الحقيقة (مثل الالكترون) وحدة عضوية لاجزاء مضادة . وبهذا فان الحقيقة في مذهب المحافظين والمتطرفين في السياسة هو مذهب الاحرار . ان تشكيل ارائنا بالنسبة الى القضايا الكبرى هو التذبذب بين قطرين . اذ اننا نجد حركة التطور هي حركة دائمة للتطور بين الاضداد والتوفيق بينها ودمجها . وهو يقول ان شلنج على صواب في قوله بوجود تماثل بين الاضداد كما أن فخته على صواب في ان الموضوع وضده وتوحيدهما معا يشكل سر التطور وكل الحقيقة . فمثلا الرأسمالية نظام والشيوعية نظام آخر مضاد للرأسمالية والتوحيد بين هذين النظامين او الفلسفتين يؤدي الى التطور بهما ومن هذا التطور ينبثق نظام ثالث ارقى منهما .

ليست الافكار وحدها خاضعة لهذا التطور الذي يتحدث عنه هجل . اذ ان الاشياء ايضا خاضعة لذلك ، فكل قضية تحتوي على تناقض وتعارض ينتهي به النمو والتطور الى وحدة وانسجام وتوفيق بين هذه الامور المتعارضة .

ان نظمنا الاجتماعية تخفي تآكلا وتعارضا في ذاتها . فالنزعة الفردية الباعثة . التي نحتاجها في فترة المراهقة والمصادر التي لم تستثمر بعـــد ، تثير في وقت متأخر النزعة والميل الى التعاون المشترك بين افراد الامه او بعبارة اوضح الى دولة تعاونية . وسوف لا يشاهد المستقبل الحقيقة الحاضرة ، ولا المثل الاعلى الخيالي . ولكن الوحدة والانسجام بين هذه الحقيقة والمثل الاعلى ستؤدي الى حياة ارقى وافضل وهذه الحياة الافضل والارقى ستنقسم ايضا الى اطراف متعارضة ومتناقضة ، وتنهض الى مستوى ارقى وافضل من التنظيم والتركيب والوحدة . لذلك فان حركة الافكار هي نفس حركة الاشياء . اذ يكمن في كل واحدة منها نفس التطور والتسلسل من وحدة الى تعارض ومن تعارض الى وحدة . ان الافكار والكون يتبعان نفس القانون . والمنطق والميتافيزيقا امر واحد . العقل وسيلة لابد منها لادراك هذه العملية المنطقية ، وهي التطور من وحـدة الى تعارض ومن تعارض الى وحدة . ان عمل العقل ومهمة الفلسفة هي اكتشاف الوحدة الكامنة في التعارض او التغاير . ومهمة علم الاخلاق هي توحيد السلوك والاخلاق ومهمة السياسة هي توحيد الافراد في داخل الدولة . ومهمة الدين هي بلوغ المطلق وهو الله والشعور بانه ذلك الذي تحللت فيه جميـع المتناقضات في وحدة ، ذلك المقدار الكبير للكون الذي اتحدت فيه المادة والعقل ، والفاعل والمفعول ، والخير والشر في واحد . ان الله هو نظام الصلات الذي تتحرك بـــه جميـع الاشياء وتعيش ، وتوجد وتجد فيه اهميتها . ان المطلق ينهض في الانسان الى وعي ذاتي . ويصبـح الفكرة المطلقة ، وذلك ان الفكرة تدرك نفسهـا كجزء مـن المطلق . متجاوزة حدود الفرد واغراضه ممسكة تحت الصراع العام الانسجام

المستتر لجميع الاشياء . ان العقل هو جوهر الكون . . ان تصميم الكون عقلي اطلاقا .

ليس الصراع والشر مجرد تصورين سلبيين . انهما حقيقة ، ولكنهما في نظر الحكمة مراحل لبلوغ الخير وتحقيقه . ان الصراع قانون النمو . كما ان الاخلاق تتشكل في الشدائد في هذا العالم . والانسان يصل الى سموه الكامل عن طريق الالزام والحاجة والمسئوليات والشدة والالم . وحتى الالم فيه تعليل عقلي . انه علامة الحياة والحافز لاعادة البناء . والعاطفة ايضا لها مكان في عقل الاشياء . اذ لم يتم انجاز شيء عظيم في هذا العالم من غير ان يكون مقرونا بعمل عاطفي وحتى طموح نابليون الاناني يساهم بغير قصد في تطور الامم . ان الحياة لم توجد للسعادة بل لتحقيق الاعمال وانجازها . « ان تاريخ العالم ليس مسرحا للسعادة، وفترات السعادة صفحات بيضاء فيه ، لانها فترات انسجام خالية من الصراع . » وهذا الرضى البليد غير جدير بالانسان . ان التاريخ يصنع فقط في الفترات التي يقرر فيها النمو والتطور اضداد الحقيقة والوجود . كما يمر تردد وارتباك الشباب الى سهولة ونظام سن الرجولة والنضج . ان التاريخ حركة منطقية وهو في الغالب سلسلة من الثورات . يستخدم فيها المطلق الشعوب اثر الشعوب والعباقرة اثر العباقرة أدوات في تحقيق النمو والتطور . ان اعاظم الرجال ليسوا الخالقين للمستقبل ولكنهم وسطاء في تحقيق هذا المستقبل وما يقومون بفعله ليس سوى تحقيق لما ترسمه روح العصر . ان العبقري لا يضع سوى حجرا آخر في كوم البناء كما يفعل الآخرون ، « ولكن لحسن حظ العبقري انه يجيء اخيرا ، وعندما يقوم بوضع حجره يقف البناء على دعائمه « ان مثل

هؤلاء الافراد لا يشعرون بالفكرة العـــامة التي يقومون بكشفها . . . ولكن لديهم بصيرة في حاجات الزمن ، وما هي الامور الـــتي تم نضجها وآن حصادها .

يبدو ان مثل هذه الفلسفة عن التاريخ تؤدي الى نتائج ثورية . ان هذه العمليه المنطقية في سير التاريخ تجعل من التغيير مبدأ الحياة الاساسي اذ لا شيء خالد ، وفي كل مرحلة من مراحل الاشياء يوجد تناقض وتعارض لا يقوى على حله سوى صراع الاضداد ، لذلك فان الحرية هي قانون السياسة ، وهي طريق مفتوحة للتغيير ، والتاريخ هو نمو الحرية وتطورها . وتكون الدوله او ينبغي ان تكون حرية منظمة . ومن جهة اخرى فان المبدأ الذي يقول ان « الحقيقه معقولة له لون محافظ ، اذ ان كل حالة على الرغم من ان مصيرهـــا الزوال فيها الحق المقدس الذي يخصها كمرحلة ضرورية في التطور . بمعنى انه حقيقة قاسية « كل شيء يكون فهو حق » وكما ان الوحدة هي هدف التطور فان النظام هو اللازم الاول للحرية .

واذا كان هجل قد مـــال في السنوات الاخيرة من حياته الى وجهة النظر المحافظة بدلا من التوريطات المتطرفه في فلسفته فذلك لان روح العصر كانت قد ملت التغيير فقد كتب بعد ثورة ١٨٣٠ : « اخيرا بعد حروب واضطرابات استمرت اربعين سنة،يسر الانسان ان يرى نهاية لهذا الصراع، ويرى بدايه سلام يسوده الرضي » من غير الطبيعي ان يتحول هذا الفيلسوف الداعي الى الصراع كوسيلة للنمو والتطور والرقي الى مؤيد ـ للقناعة والرضى . ولكن الانسان

في سن الستين له الحق في ان يطلب الهدوء ومع ذلك فان التناقض في افكاره كان اعمق بكثير من ان يحقق السلام . وانقسم اتباعه من بعده الى يمين ويسار . لقد تطور كارل ماركس بفلسفة التاريخ الهجلية الى نظرية صراع الطبقـــات التي تؤدي حسب الضرورة الهجلية الى اشتراكية لا مفر منها، فقد قدم ماركس بدلا من المطلق الذي يقرر التاريخ عن طريق روح العصر ، الحركات الجماهيرية والقوى الاقتصـــادية كاسباب اساسية لكل تغيير اساسي سواء في عـــالم الاشياء او في حياة الفكر . لقـــد فقس هجل الاستاذ الامبراطوري بيض الاشتراكية .

رفض هجل المتطرفين واتهمهم بالخيال ، واخفى كتاباتـه الاولى المتطرفة بحرص وحالف الحكومة البروسية وربط نفسه بها . وباركها بكونها التعبير الاخير عن المطلق . وتمتع مقابل هذا التأييد والولاء للحكومة في شمس ما عرضت عليه من مركز علمي كاستاذ في الجامعه واطلق عليه اعداؤه اسم الفيلسوف الموظف .

اخذت امارات الكبر والهرم تبدو عليه بسرعة ، وبدا عليه شرود الذهن حتى انه مرة دخل الى غرفة المحاضرات بفردة حذاء واحدة في قدمه ، حيث ترك الفردة الثانية من غير ان يشعر في الطين ، وهو في طريقـــه للجامعة .

وعندما تفشى مرض الكوليرا وطرق ابواب برلين فيعام ١٨٣١ كان هجل بجسمه المضنى الضعيف من اولى ضحاياها . ومات بعد مرض استمر يوماواحد

فقط . لقد خرجت روحه بهدوء وهو في نومه . وكما شـــاهدت اوروبا مولد ثلاثة من العبـــاقرة وهم نابليون وبيتهوفن وهجل في سنة واحدة فقد فقدت المانيا بين عـــامي ١٨٢٧ – ١٨٣٢ جوته ، وهجـل وبيتهوفن . لقـــد كانت خاتمة عهد ، لآخر مرحلة عظيمة من عصر المـــانيا الذهبي العظيم .



الفصل السابع

شوبنهـــور

١ ـــ العصر

ارتفعت اصوات التشاؤم في النصف الاول من القرن التاسع عشر في اوروبا ، وعلت اصوات الشعراء المتشائمين في كل مكان « بيرون » في انجلترا « ودي موسيه » في فرنسا ، «وهيني » في المانيا ، « ليوباردي » في ايطاليا ، « بوشكين وليرمونتوف » في روسيا . وظهرت طائفة من الملحنين الموسيقيين المتشائمين من امثال شوبرت وشوبان . وشوبن وحتى بيتهوفن كان موسيقيـــا متشائما يحـــاول ان يقنع نفسه بانه متفـــائل . ولكن ارثر شوبنهور الفيلسوف الالماني طغى على هؤلاء جميعا في روح التشاؤم الـــتي طبعت حياته وفلسفته .

لقد ظهر كتابه « العالم كارادة وفكرة » في عام ١٨١٨ . لقد كان عصر الحلف المقدس الذي اتحدت فيه اوروبا ضد نابليون وهزمته في معركة واترلو . وبذلك تم القضاء على الثورة الفرنسية وابعد نابليون الى صخرة

سانت هيلانه في البحر البعيد ، ان شيئا من تمجيـــد شوبنهور للارادة يعود الى تأثره بنابليون ، كما ان شيئاً من يأسه يعود الى تأثره بخاتمة نابليون المحزنة ، لقد هزمت الارادة اخيرا بهزيمـــة نابليون ، وانتصر الموت كعادتـــه في كل الحروب وعاد « البوربون » الى الملك في فرنسا ، وعاد امراء الاقطاع المطالبة في استرجاع اراضيهم ، وانتشرت حركة رجعية استغلت مثالية الاسكندر المسالمة وراحت تعمل على قمع التقدم في كل مكان .

وانتهى العصر العظيم ، وقال جوتـــه في ذلك العصر : اشكر الله ، بانـــني لست شابا في مثل هذا العالم المضطرب الذي انتهى فيـــه كل شيء بالخراب .

لقد كانت اوروبا كلها خرابا منهوكة القـــوى ، وقضت الحرب على ملايين الرجال الاشداء ، وتركت الملايين من فدادين الاراضي مهملة ، وكان على الحياة ان تبدأ من جديد من اول المرحلة ، تدريجيا وبتضحية مقرونة بالالم لاسترداد اقتصاديات البلاد التي استنزفتها الحرب .

لقد تأثر شوبنهور اثناء سفره وطوافه بفرنسا والنمسا عام ١٨٠٤ بما شاهده من حياة الفوضى والدمار والقذارة في القرى ، والفقر المدقع الذي انتشر بين الفلاحين والبؤس والتوتر الذي ساد المدن . لقد كانت اوروبا مسرحـــا للقتال الدائر بين جيوش نابليون وجيوش اعدائه ، وخلفت هذه الجيوش اثار الدمار والخراب في كل بقعة من بقاع اوروبا . وتحولت موسكو الى رمـــاد. وحتى في انكلترا الفخورة بانتصارها على نابليون ، فقد اصاب الفلاحين ازمة

اقتصادية شديدة بسبب هبوط اسعار القمح . وتعرض العمال فيها الى جميع انواع الرعب والخوف التي رافقت النظام الصناعي الناشيء الذي لم يكن خاضعا للاشراف من جانب الحكومة . واضاف تسريح الجيوش الى عدد البطالة والعاطلين عن العمل .

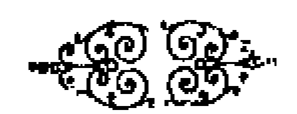
ومع ذلك فقد ماتت الثورة الفرنسية ، وماتت معها روح الحياة في اوروبا ، كم من الوف الابطال والمؤمنين بمبادىء هذه الثورة حاربوا من اجل انتصارها ؟ وكيف اتجهت افئدة الشباب في كل مكان في اوروبا صوب الجمهورية الفرنسية الفتية ، وعاشوا على ضوء الامل فيها ، وكم من الناس حاربوا من اجلها وآمنوا بها حتى النهاية .

واخيرا وقعت هذه النهاية بهزيمة جيوش الثورة في واترلو ومصير نابليون في سانت هيلانه ، ومؤتمر فينا ، وعودة اسرة البوربون الى عرش فرنسا المثخنة بالجراح ، عادوا ولم يتعلموا شيئاً من مأساة الحرب ولم ينسوا شيئا ، هذه هي الخاتمة المجيدة لعهد من الامل والرجاء والجهد لم يشاهد له تاريخ الانسانية مثيلا من قبل ... اية رواية هزلية اقترنت بهذه المأساة المروعة ، التي امتزجت فيها الافراح بالاتراح ، والضحك بالدموع .

لقد لاذ الكثير من الفقراء في تلك الايام التي سادها الالم وخيبة الامل الى الدين طلبا للسلوى والعزاء . وفقد قسم كبير من الطبقة العليا ايمانهم ، ونظروا الى هذا العالم الذي يسوده الدمار والخراب نظرة الكفر والالحاد والشك في وجود حياة اخرى يحل فيها العدل والجمال محل هذا

الخراب والدمار الذي روع هذا العالم . واصبح من المتعذر الايمان بوجود إله رحيم كريم يهيمن على شؤون هذا العالم كما شاهده الناس في عام ١٨١٨ .

وانتصر الشيطان على الخير والصلاح ، واستبد اليأس بالامل والرجاء . لقد زرع فولتير ارض الثورة ، وجاء شوبنهور لحصد هذه الارض .



٢ ـــ الرجل

ولد شوبنهور في دانزج في الثاني والعشرين من شهر فبراير عام ١٧٨٨. وكان ابوه تاجرا امتاز بالمقدرة وحدة الطبع، واستقلال الشخصية وحب الحرية ، وقد غادر دانزج التي جردها البولنديون من حريتها بضمها الى بولندا في عام ١٧٩٣ . وكان ابنه ارثر شوبنهور في الخامسة من عمره في ذلك الوقت. لقد نشأ شوبنهور الصغير في جو مشبع بروح العمل وكسب المال . وعلى الرغم من انه هجر حياة التجارة التي دفعه والده اليها ، فقد تركت اثرهـا في نفسه وطبعت نظرته الى الحياة بطابع الواقعية في التفكير ومعرفة بطبيعة الناس ، ومات والده منتحرا على الارجح في عام ١٨٠٥ . وتوفيت جدته وهي مصابة بالجنون .

لقد قال شوبنهور انه ورث من ابيه خلقه وارادته ، وعن امه ذكاءها . لقد بلغت امه اوج الشهره في عالم القصص والروايات، وغدت احدى مشاهير كتاب القصةُ في ذلك الوقت . لم تكن امه سعيدة في حياتها مع زوجها الذي لم تساعده ثقافته على الامتزاج معها ، وعندما توفي زوجها انطلقت ــ تبحث عن الحب المتحرر بعد ان تحررت من قيود هذه الحياة الزوجية . وارتحلت الى مدينة « فيمار » التي تنسجم مع هذه الحياةالمنطلقة التي كانت تتوق لهــا . وقد ثارت

ثورة شوبنهور على هذا الاتجاه الجديد من امـــه ، واثر النزاع بينهما على نفسه واثار فيها مقته الشديد للنساء الذي رافقه طيلة حياته ، ولا يسعنا هنا الا ان نسرد فقرات من خطاب ارسلته له يصور لنا مدى النزاع بين الام وولدهـــا . حيث تقول له : « انك عبء ثقيل لا يطاق ، والحياة معك عسيرة لا تحتمل . لقد طغى غرورك بنفسك على كل صفاتك الطيبة . وغدوت لا فائدة ترجى منك لعجزك عن منع نفسك من تسقط هفوات النـــاس وعيوبهم . » وهكذا تم الاتفاق بينهما على ان يعيشا منفصلين بعد ان تعذرت الحياة بينهما واصبح شوبنهور لا يتردد على منزل امه الا كما يتردد عليها الضيوف والزوار من وقت لاخر . وكانت الكلفة والمجاملة المصطنعة تطبع هذه الزيارات تماما كما يطبع التكلف المصطنع حديث الاغراب لا حديث الام لولدهـا . وقد زاد في توتر هذه العلاقة ان « جوته » الذي كان يحب ام شوبنهور لانهـــا كانت تسمح له باحضار كريستيان معه ، ان قال للام يوما بانه سيكون لولدها شأن عظيم ، وسيغدو رجلا مرموقا ومشهورا . وقد اثارت هذه الملاحظة استياء الام وغيرتها من منافسة ولدها لها في شهرتها ، فهي لم تسمع بظهور نابغتين في اسرة واحدة . واخيرا في ذروة نزاع بينهما ، دفعت الام ولدها ومنافسها في نبوغهـا من اعلى درج منزلها . ولكنه نهض واقفا وقال لها بصوت مختنق من المرارة والحسرة ، ان الاجيال القادمة لن تعرفها ، وتسمع بها الا عن طريقه ، وهو بشهرته وذيوع صيته سيخلد اسمها واسرع فيلسوفنا في مغادرة مدينة « فيمار » وعلى الرغم من ان امه عاشت بعد ذلك اربعة وعشرين عاما فانه لم يرهـــا بعد ذلك الحادث بينهما . ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد ان « بيرون » الشاعر الانجليزي قد ولد في عام (١٧٨٨) وهو العام الذي ولد فيه شوبنهور ، وكان حظه مع امه

سيئا مثل شوبنهور . وقد انتهى به هذا الحرمان من عطف امه الى ما انتهى اليه شوبنهور من تشاؤم ، فالانسان الذي يحرم من حنان الام وحبها ولا يعرف سوى مقتها وكراهيتها ، لن يفتنه او يغريه بعد ذلك شيء من محـــاسن الدنيا ومباهجها .

وفي الوقت ذاته فقد واصل شوبنهور العابه الرياضية ودراسته الجامعية ، واستوعب من المعلومات فوق ما درسه في برامج الجامعة . وسخر من الحب والعالم والقى بهما من وراء ظهره . وقد طبع هذه الاتجاه حياته وترك اثره في اخلاقه وفلسفته . وغدا كئيبا ساخرا مرتابا ، قلقا تستبد به المخاوف ويخشى على نفسه من شرور الناس وغدرهم . واغلق على نفسه الابواب . ولم يسلم ذقنه ورقبته لموسى الحلاق اطلاقا . ونام ومسدسه محشوا بالرصاص دائما الى جانبه في انتظار من تحدثه نفسه من اللصوص بالسطو عليه وكان لا يحتمل الجلبة والضجيج وهو يقول في ذلك: « اعتقد ان طاقة الانسان على تحمل الضوضاء والضجيج من غير ان يضيق به دليل على مقدرته العقلية ويكون مقياسا لها ... ان الضجة والجلبة تعذيب للمثقفين الاذكياء الذين يعملون بعقولهم ... لقد سببت لي الضجة والجلبة الناجمة عن الدق والطرق عـــذابا يوميا طيلة حياتي . » كان شوبنهور يحس في اعماق نفسه بعظمته ، على الرغم من عـــدم اعتراف الناس به ، وعندما فاته النجاح والشهرة انقلب الى نفسه ، يعضها ويقرضها باسنانه .

لقد عاش وحيدا بلا ام ولا زوجة ولا ولد، ولا اسرة ولا وطن ولا صديق. ولم تلهب حمى الحماس الوطني التي اجتاحت عصره شعوره واهتمامه . لقد تاثر في

عـــام ١٨١٣ بحماس « فختنه » للدخول في حرب تحررية ضد نابليون ، وفكر بالتطوع واشترى بعض الاسلحة اللازمة للقتـــال ، ولكن الحكمة اوقفته في الوقت المناسب ، وعدل عن التطوع مقنعا نفسه بان نابليون لم يزد عن الافصاح عن تأكيد ذاته وشهوته في الاستزادة من الحياة التي يشعر بهـا ضعاف الناس ويخفونها في صدورهم مرغمين » . وبدلا من الذهاب للحرب ، اتجه الى الارياف وكتب رسالة في الفلسفة لنيل شهادة الدكتوراة .

وبعد كتابة هذه الرسالة التي كان موضوعها عن « العقل » انصرف بكل وقته وقوته على كتابة كتابه الذي اطلق عليه اسم « العالم كارادة وفكرة » وعندما ارسله للناشر علق عليه بقوله : « ان هذا الكتاب ليس مجرد سرد لافكار واراء قديمة ، ولكنه بناء شامخ متماسك من الاراء الاصيلة ، والبيان الواضح ، ولا يخلو من الجمال على الرغم من عنف اسلوبه ،انه كتاب سيكون في المستقبل مصدرا وموردا لمئة كتاب .

لقد كان شوبنهور على ثقة تامة بانه قد حل في كتابه هذا جميع مشاكل الفلسفة حتى انه فكر في صنع خاتم منقوش عليـــه صورة ابي الهول ، وهو يلقي بنفسه في الهاوية ، حيث تعهـــد بان يفعل ذلك اذا حلت رموزه وطلاسمه .

ومع ذلك فان هذا الكتاب لم يلق رواجـــا او اهتماما ، فقد كان العالم فقيرا ومتعبا ، ولا حاجة به لقراءة كتاب عن فقره وتعبه وبعد ستة عشر عاما من طبع الكتاب ابلغ شـــوبنهور ان جزءا من نسخه بيعت بالجملة ورقا تالفا

ليستخدم في رزم ولف البضائع . وقد اشار شوبنهور في مقـال عن الشهرة في « حكمة الحياة » الى كتابة العظيم هذا بحرقة واسى بقوله : « ان كتابا مثل هذا اشبه بمرآة ، اذا نظر فيها حمار فلا ترجو ان يرى فيها ملاكا . » وهل اذا اصطدم رأس وكتاب وانبعث من احدهما صوت اجوف ، ايكون الاجوف هو الكتاب دائما ، ويواصل شوبنهور كلامه بصوت الكبرياء التي اصابهـا جرح : « كلما كان الكاتب او الفيلسوف عبقريا ويكتب للاجيال القادمة ، او بعبارة اوضح للانسانية بوجه عام ، كان غريبا بالنسبة الى معاصريه الذين يعيش بينهم، لان كتابه ليس موجها لهم وحدهم ، بل يخاطبهم كجزء من الانسانية عامة . لذلك سيكون هذا الكتاب خاليا من الصبغة المحلية التي تستهويهم، وتسترضيهم وتنال قبولهم .

وبعدئذ يقول في فصاحة الثعلب في قصة العنب :

« هل يشعر الموسيقي بالمديح والاطراء عندما يعلو استحسان جمهور سامعيه له ، اذا عرف ان ـ اكثرهم صم لا يسمعون ، وانهم اوصوا شخصـا او اثنين ليصفقوا عنهم ليخفوا عاهتهم وماذا هو قائل اذا عرف ان ذلك الشخص او الشخصين كانا مدفوعين بالرشوة لتقديم اعظم استحسان لاضعف عازف موسيقي .؟

لقد افرغ شوبنهور نفسه افراغا تاما لكتابه هذا ، وكل ما كتبه بعد ذلك كان تعليقا على هذا الكتاب . وبذلك فقد اصبح معلقا وشارحا ومفسرا ، لهذا الكتاب الذي جعله انجيـل حيـاته ، ففي عام ١٨٣٦ نشر مقـالا عن الارادة في الطبيعة ادت الى توسيع الطبيعة لكتابه هذا «العالم كارادة وفكرة»

الذي نشره في عام ١٨٤٤ ، وفي عام ١٨٤١ اصدر كتابا عن « مشكلة الاخلاق الاساسية » وظهر له مجلدان هامان في عام ١٨٥١ عن « النتاج والفضلات» ترجما الى اللغة الانجليزية . وقد تلقى شوبنهور مقابل هذين الكتابين الطافحين بالحكمة والذكاء ، عشر نسخ منهما تعويضا له على اتعابه ، لا شك ان التفاؤل في مثل هذه الظروف امر متعذر ومستحيل .

ولم يعكر صفو عزلته الرتيبة بعد ان غادر «فيمار» سوي مخاطرة كانت نفسه تتوق من اجلها منذ مدة طويلة ، وهي ان تسنح له الفرصة ليحاضر عن فلسفته في احدى الجامعات الكبيرة ، وقد اتيحت له هذه الفرصة في عام ١٨٢٣ عندما دعي الى جامعة برلين لبسط فلسفته امام طلابها كمحاضر خاص . فتعمد ان يحدد لالقاء محاضراته نفس الأوقات التي كان يلقي فيها «هجل» محاضراته ، وكان «هجل » في ذلك الحين في اوج شهرته . وكان شوبنهور على ثقة تامة بان الطلاب سيقارنون بينه وبين « هجل » بعين الاجيال القادمة فيفضلونه ويقبلون عليه . ولكنه احسن الظن كثيرا في مقدرة الطلاب على تقديره ، ووجد نفسه يلقي محاضراته امام صفوف من المقاعد الخاوية . فاستقال من منصبه وانتقم لنفسه من « هجل» بالتشهير به ، وفي عام ١٣٨١ انتشرت الكوليرا في برلين ، وفر « هجل » وشوبنهور من المدينة . ولكن « هجل » عاد الى برلين قبل ان ينتهي تطهيرها من الوباء تماما ، فاصيب بهاومات بعد اصابته بايام قليلة ، اما شوبنهور فلم يتوقف اطلاقا وواصل سيره الى ان وصل الى فرانكفورات حيث امضى البقية الباقية من حياته التي طالت الى سن الثانية والسبعين .

وكمتشائم حساس فقد تجنب الوقوع في حفرة المتفـــائلين ، وابى ان يسخر قلمه للكسب اسوة بسقراط الذي كان يرفض اجرا من تلاميذه . لقـــد ورث حصة من مصنع خلفه ابوه وعاش في اعتدال على ريــع هـــذه الحصة . واستثمر ماله بحكمة بالغة لاتتفق مع فيلسوف مثله ، وعندما فشلت احدى الشركات التي كان قد اشترى اسهما فيها ، عرضت عليه تعويضه بدفع ٧٠٪ من قيمة اسهمه ، وقد رضى بقية المساهمين بهذا التعويض ، ولكنـــه رفض وواصل مسعاه للحصول على قيمة اسهمه كاملة وظفر بذلك . ومكنه دخلههذا من استئجار غرفتين في بنسيون ، عاش فيها الثلاثين سنة الباقية من حياته بلا صديق سوى كلبه ، الذي اطلق عليه اسم « اطما » (وهو اسم يطلقه البرهمى على روح العالم) ولكن مجان المدينة اطلقوا على كلبه اسم « شوبنهور الصغير » وقد جرت عادته ان يتناول طعام غدائه في مطعم يتردد عليــه الانجليز وكان يضع دينارا ذهبيا على مائدة الطعام امامه في كل مرةقبل تناول طعامه ،ويعيده الى جيبه بعد انتهاء كل وجبة ، وسأله خادم المائدة في شيء من السخط عنهذا التصرف فاجابه شوبنهور ، انه قد اخذ على نفسه عهدا بالقاء هذا الدينــــار الذهبي في صندوق الفقراء في اول مرة يسمع فيها الضباط الانجليز الذين يأكلون في المطعم يوميا يتحدثون في شيء اخر سوى الحديث عن الخيل والنســـاء والكلاب . وهو يعيـــده الى جيبـــه لانهم لا حديث لهم ســـوى في هذه الامور .

لقد تجاهلته الجامعات وتجاهلت كتبه ، وكانها بذلك قد ايدت زعمه بان ما احرزته الفلسفة من تقدم كان خارج جدران المعاهد العلمية ، قال نيتشه « لاشيء اساء الى اساتذة الجامعة والعلماء الالمان اكثر من مخالفة شوبنهور

لهم . » « ولكنه صبر وكان على ثقة من اعتراف الناس به مهما جاء هذا الاعتراف متأخرا . وقد تحقق رجاؤه فاقبل المثقفون من ابنـاء الطبقـة المتوسطة من محامين واطباء وتجار على قراءة كتبـه لانهم وجـدوا فيه فيلسوفا لايقصر بحثه على ادعاء معرفة اوهام الميتافيزيقا الخيالية ، بل يقدم لهم دراسة وافية واضحة عن ظواهر الحياة الحقيقية .

لقد اتجهت اوروبا التي خيبت ظنها المثالية والجهود التي طبعت عام ١٨٤٨ بطابعها الى فلسفته التي صورت حالة اليأس التي عرفتها اوروبا في عام ١٨١٥ ، ان هجوم العلم على اللاهوت ، وآثار الحرب وانتشـار الفقر ، والكفاح من اجل البقاء والدعوة الى النظم الاشتراكية ، كلهاساعدتشوبنهور ورفعته الى ذروة المجد والشهرة .

لم يكن قد بلغ من الكبر عتيا ليقعده عن التمتع بشعبيته وشهرته ، واخذ يقرأ بشغف وشره كل ما كتب عنه من مقالات . وطلب من اصدقائه ان يرسلوا له كل ما يصل الى ايديهم من تعليقات تنشرها الصحف حوله . وتعهد ان يدفع لهم اجرة البريد . وفي عام ١٨٥٤ ارسل له فاجنر نسخـة عن قطعة من روائع موسيقاه مرفقة بكلمة تقدير لفلسفتـه الموسيقيـة . وهكذا اوشك ان يتحول المتشائم العظيم الى متفائل في ايام شيخوخته وراح يعزف على القيثارة كل يوم بعـد الغداء . ويحمد الوقت الذي خلصه من نيران الشباب . وهرعت جموع الناس من جميع انحاء العالم لرؤيته . وعندما احتفل ببلوغه السبعين من عمره انهالت عليه التهاني من كل بلد وكل قارة .

لم يحن الوقت بعد ، فقد عاش بعد ذلك سنتـــين ، وفي اليوم الحـــادي والعشرين من شهر سبتمبر جلس وحده لتناول طعـــام الافطار ، وكان يبدو وافر الصحة ، ووجدته ربة الدار بعـــد ساعـــة لا يزال جالسا على المائدة ساكنا لا يتحرك وتقدمت منـــه فوجدته ميتا .

٣ ـ العـــالم كفكرة

ان ما يثير دهشة القارىء لدى قراءة كتاب « العالم كارادة وفكرة » هو سهولة اساليبه ويسر فهمه . فقد خلا من تعقيد المصطلحات التي نجـــدها في كتب «كانت» والتشويش الموجود في «هجل» ومصطلحات الهندسة في سبينوزا. لقد كان كل شيء في كتاب شوبنهور واضحا ومنظما ومركزا وكيزا يدعو الى الاعجاب حول نظريته الاساسية وهي ان العالم ارادة ، وعلى ذلك يكون العالم كفاحاً، ويترتب على الكفاح بؤس وشقاء . لقد امتاز كتابه هذا بنزاهة البحث وامانته وعنفه وعدم تساهله ، وجاء زاخرا بالامثلة لتوضيـــح فكرته ، وجـــديدا في فكاهته ، وابتعاده عن الغموض الذي ميز سابقيه من الفلاسفة ولكن مـا هو السبب في عدم رواج هذا الكتاب وكساده وعدم تحمس القراء له ، قد يكون السبب هو ان شوبنهور هاجم في كتابه اولئك الذين كان في وسعهم الدعاية له ، وهم اساتذة الجامعة ، فقد كان (هجل) الحاكم بامره في عالم الفلسفة في المانيـا في عام ١٨١٨ ، ومع ذلك فان شوبنهور لم يعبأ به ولم يضيـــع وقتا في مهاجمته ونقده .فقد ذكر في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه :

لا شيء يسيء للفلسفة في وقت من الاوقات اكثر من اتخاذها وسيـلة

للتعيش وكسب الرزق والوصول الى مطامع واهداف سياسية .. لقد اتخـذ هؤلاء السادة من الفلسفة وسيلة لكسب الرزق وعملوا وفقا للمثـل القائل من ياكل من مال السلطان يحارب بسيفه ، او المثل القائل اغني اغنية من آكل من خبزه ، واعتبروا مثل هذا العمل صالحا . لقد اعتبر الفلاسفة الاقدمون اكتساب المال عن طريق الفلسفة صفة من صفات السفسطائيين . ولا شيء يمكن ان نجنيه من الذهب سوى الاعتدال وعدم التطرف في الاراء الفلسفية . . من المستحيل لعصر مجد (هجل) واعتبره اعظم الفلاسفة طيلة عشرين سنة ، تقدير من اخذ عليهم تقديرهم (لهجل) ان الحقيقة ستبقى دائما هدف القليل من الناس وستبقى في انتظار هؤلاء القلة بصبر وهدوء .

ان الحياة قصيرة ، ولكن الحقيقة « بعيدة الاثر وحياتها اطول ».

هذه كلمات نبيلة ولكنها ممزوجة بالمرارة والاستياء اذ اننا لانجـد انسانا كان يتوق لاستحسان الناس له واعجابهم به اكثر منه ، وكان مما يزيد في نبل كلامه ان لايتعرض الى هجل بشيء من هذا ، اذ لا شيء نستطيـع ان نقوله عن وسيلة التعيش وكسب الرزق سوى الخير ، اما بالنسبة الى الاعتدال في الاراء الفلسفية التي اخذها شوبنهور على هجل فامره متروك لاعتراف الناس به ، لقد اعتاد شوبنهور ان يقول : « انني لا ارى شيئا تم تحقيقه في الفـترة الواقعة بين (كانت) وبيني »فهو يقول : « اعتقد ان هذه الفكرة وهي ان العالم ارادة هي الفكرة التي بحثت عنها الفلسفة ، ان ما اقصده فقط هوتعريف وشرح فكرة واحدة فقط ، وعلى الرغم من جميع محاولاتي في ايجاز شرحهـا لم اجد وسيلة لاختصارها باقل من هذا الكتاب .. »اقرأ الكتاب مرتـين ، مستخدما الصبر وطول البال في المرة الاولى . ليس الاعتدال في الفلسفـة

سوى نفاق وتواضع مصطنع .

ولكننا لا نجد تواضعا في العبارة الاولى التي صدر بها شوبنهور كتابه الذي بدأه بقوله « العالم فكرة » وهو يقصد بذلك ما ذهب اليه «كانت» من اننا نعرف العالم الخارجي عن طريق احساساتنا وافكارنا . واتبع شوبنهور هذا بعرض واضح قوي للمذهب المثالي ، ولكن هذا العرض على الرغم من قوته اضعف اجزاء الكتاب واقلها اصـــالة في الرأي .. وكان من الافضل له تأخير هذا العرض وبحثه في اخر الكتاب لا في اوله . بقي شوبنهور مجهولا من العالم جيلا من الزمان لانه اخفى افكاره وراء مئتي صفحة تحدث فيها عن المذهب المثالي . ان اهم جزء في الفصل الاول من الكتاب هو هجومه على المذهب المادي . فهو يتساءل بقوله : كيف يمكننا ان نفسر العقل بانه مادة ما دمنا لا نعلم المادة الا عن طريق العقل .

كلا من المستحيل ان نصل الى حل لغز الميتافزيقا ، وان نستكشف كنه الحقيقة ، بان نبدأ ببحث المادة اولا ، ثم ننتقل منها الى بحث الفكر ، بل يجب ان نبدأ بذلك الذي نعرفه معرفة مباشرة قريبة — انفسنا . « اننا لن نصل ابدا الى طبيعة الاشياء الحقيقية من الخارج ، مهما طال بحثنا ولن نصل الى شيء سوى صور واسماء . » ونحن في ذلك مثل رجل يدور حول قصر يبحث عبثا عن مدخل واحيانا يرسم الواجهة . دعنا ندخل الى الداخل ، اننا اذا استطعنا كشف طبيعة عقولنا النهائية فقد نظفر بمفتاح العالم الخارجي .

٤ ـ العالم كارادة

١ ـ ارادة الحياة

لقد اتفق العلماء جميعا بغير استثناء على ان جوهر العقل هو الفكر والادراك ، والانسان عندهم حيوان عاقل . (يجب ان ننبذ هذه الغلطة القديمة العامة ونطرحها جانبا) لان الادراك مجرد قشرة سطحية لعقولنا ،ونحن لانعلم شيئا عما في داخل هذه القشرة السطحية كما في الارض لانعلم عنها سوى قشرتها ، اذ ان تحت العقل الواعي ارادة واعية اولا واعية ، وهي قوة حيوية مكافحة ملحة وهي فاعلية تلقائية . ارادة ذات رغبة آمرة عاتية . قد يبدو العقل احيانا وكانه هو الذي يقود الارادة ، ولكنه بذلك كالدليل الذي يقود سيده فقط ، ان الارادة (هي الرجل الاعمى القوي الذي يحمل على كتفيه الرجل الاعرج المبصر) فنحن لانريد شيئا لاننا وجدنا اسبابا له ، ولكننا نجد اسبابا له لاننا نريده ، كما اننا وضعنا الفلسفة والدين واحكمنا صنعهما لنحجب فيهما رغباتنا ، ولهذا يسمي شوبنهور الانسان « بالحيوان الميتافيزيقي » لان الحيوان يرغب بغير اللجوء الى الميتافيزيقا . والانسان مسوق بارادته لابعقله . يقول شوبنهور لا شيء اكثر اثارة وتهيجا للاعصاب عندما نحاول اقناع انسان عن طريق الادلة العقلية والبراهين المنطقية ، ونبذل جهودا والما

في محاولة اقناعه ، ثم يتضح لنا اخيرا انه لم يفهم وسوف لن يفهم ، واننا ينبغي ان نخاطبه عن طريق اثارة ما يريد ويرغب ، اي عن طريق ارادته . ومن هنا يتضح عدم فائدة المنطق . ولم يتمكن احد اطلاقا من اقناع احد بالمنطق، وحتى علماء المنطق انفسهم يستخدمون المنطق وسيلة لكسب العيش فقط . لكي تقنع انسانا يجب ان تلجأ الى اثارة مصلحته الشخصية الى رغباته وارادته . انظر كيف نتذكر انتصاراتنا مدة طويلة من الزمان وكيف ننسى هزائمنا بسرعـــة . ان الذاكرة خادمة الارادة . اننا نخطىء في اعداد حساباتنا خطأ يكون في الاغلب لمصلحتنا اكثر مما نخطىء لمصلحة غيرنا ، ويقع هذا الخطأ منا بغير ادنى اي قصد سيء من جانبنا ، ومن جهة اخرى فاننا نلاحظ ان عقل اغبى انسان يتحول الى ذكاء مرهف عندما تكون المسألة المطروحة للبحث متمشية مع رغباتــــه . وعلى العموم فان العقل ينمو ويتطور في الخطر كما في الثعلب او بدافع الحاجة كما في المجرم . ولكنه دائما يكون خاضعا للرغبة واداة في يدها . وعندما يحاول العقل ان يحل محل الارادة فان الاضطراب يتبع هذه المحـــاولة ، ولا يتعرض الى الخطأ اكثر من الشخص الذي يحكم عقله وفكره فقط .

تأمل في كفاح الناس لتأمين طعامهم وزوجاتهم او اطفالهم . هل يمكن ان يكون هذا من عمل العقل ؟ كلا ولا ريب ، والسبب هو ارادة الحياة النصف واعيه ، ارادة الحياة كاملة . « قد يبدو للناس انهم مسحوبون من الامـــام والواقع انهم مدفوعون من الخلف » فهم يفكرون انهم مسوقون بما يرون ، بينما هم في الحقيقة مدفوعون بما يشعرون بالغريزة التي لا يدركون عملها نصف الوقت ليس العقل سوى وزير للخارجية . « فقد انتجته الطبيعة لخدمة ارادة الفرد ، وقد اعد فقط لمعرفة الاشياء طالما هي دوافع للارادة ، لا ان يبحث عنها ليدرك

حقيقة وجودها وان الارادة هي الدائم الثابت الوحيد في العقل . . . وهي التي تعطي عن طريق غرضها الثابت وحدة لمشاعر الانسان ووعيه وتربط جميع ارائه وافكاره بعضها ببعض وجمعها في انسجام دائم مستمر . »

ان شخصية الانسان تكمن في ارادته ، وليس في عقله ، وشخصية الانسان واخلاقه ايضا استمرار للغرض ووجهة النظر ، وهذه ارادة . ان اللغة الشعبية صحيحة عندما تفضل القلب على الرأس وهي تعرف ان الارادة الطيبة اعمق من العقل الخالص واكثر اعتمادا . وعندما تسمى الانسان داهية او عالما ، او ماكرا فهي تدل على ريبتها فيه وكراهيتها له . ان نبوغ العقل يستثير الاعجاب والتقدير ولكنه يستحيل ان يحظى بالمحبة ، هذا كما ان جميع الديانات تعد بالجزاء وتنادي به ... لحسنات الارادة والقلب ، ولكنها لا تعد بمجازاة نبوغ العقل والفهم بالحسنات .

وحتى الجسم نفسه فهو من انتاج الارادة ، فالدم الذي تدفعه تلك الارادة التي نسميها بغموض بالحياة ، يبني اوعيته التي يجري فيها بشق اقنية في جسم الجنين ، وتزداد هذه الاقنية عمقا وتنغلق وتصبح عروقا وشرايين . ان ارادة الانسان ان يعرف تبني المخ ، تماما كما ان ارادته في ان يقبض على الاشياء تكون الايدي ، وارادته ليأكل تتطور بالجهاز الهضمي ، وليس هذا الازدواج ، وهو صور الارادة من جهة وصور الجسد من جهة اخرى – الا جانبين لعملية واحدة وحقيقة واحدة ، وافضل طريقة لرؤية هذه العلاقة بين الارادة والجسد هي العواطف حيث ترى الشعور يتبعه تغيرات بدنية معينة وحيث يشكل الشعور والتغيرات الجسدية الداخلية وحدة مركبة واحدة .

ان عمل الارادة وحركة الجسم ليسا شيئين مختلفين ، معروفين بالموضوعية توحدهما رابطة السببية ، وليس بينهما علاقة العلة بالمعلول ، بل هما شيء واحد، ولكنهما يحدثان بطرق مختلفة — كل الاختلاف - حالا ومرة ثانية في الادراك.. ان عمل الجسم ليس الا عمل الارادة مجسدا ، وهـــذا صحيح في كل حركة من حركات الجسم ، وليس الجسم كله سوى ارادة مجسدة .. لذلك يجب ان توافق اجزاء الجسم الرغبات الاساسية التي توضح فيها الارادة نفسها توافقا تاما ، ولا بد ان تكون هذه الاجزاء هي التعبير المرئي لهذه الرغبات . فالاسنان والحلق والامعاء هي الجوع مجسدا ، واعضاء التناسل هي الرغبة الجسدية مجسدة ... ويشكل الجهاز العصبي كـله السلك الموصل للارادة الذي تمده في الداخـــل والخارج ... وكما ان الجسم الانساني بصفة عامة يوافق الارداة الانسانيـة بصفة عــامة ، فكذلك البنيـــة الجسدية للفرد توافق ارادة الفرد ، اي شخصية الفرد .

ان العقل يتعب ، اما الارادة فلا تتعب اطلاقا ، والعقل يحتاج الى النوم، ولكن الارادة تعمل حتى في حالة النوم ، ان التعب كالالم له مـــكان في المخ ، والعضلات التي لاتتصل بالدماغ كالقلب مثلا لاتتعب اطلاقا والعقل يتغذى في النوم ، اما الارادة فلا تحتاج الى تغذية لذلك نجد الحاجة الى النوم تشتد اكثر عند الذين يعملون بعقولهم (يجب ان لاتؤدي بنا هذه الحقيقة الى الافراط في النوم لان الافراط يتحول الى مضيعة للوقت) . . ان حياة الانسان تهبط في النوم الى مستوى النبات ، وحينئذ تعمل الارادة وفقا لطبيعتها الأصلية الجوهرية لايزعجها شيء من الخارج ، ولا تقلل قوتها فاعلية المخ وما يبذل من مجهود في سبيل المعرفة ، وهي اثقل الوظائف العضوية . . . لذلك فان كل قـوة الارادة

تتوجه اثناء النوم الى الاحتفاظ بالجهاز العضوي وتحسينه ، وبـــذلك يتمكن الجسم من استرداد ما فقده من نشاط وحيوية اثناء النوم ، لقد اصاب « برداخ » عندما اعلن ان النوم هو الحالة الاصلية والجنين يكاد ان يكون نومه متصلاً ، والرضيع ينام معظم الوقت تقريبا . ان الحياة صراع ضد النوم وفي بادىء الامر نفوز بالنصر ضده ، ولكنه في النهاية يسترد منا ما سلبناه في انتصارنا عليه . ان النوم قطعة من الموت استعرناها لتجديد ما استنزفناه من حيوية وحياة اثناء النهار » ان النوم عـــدونا الابدي ، وهو يتملكنا جزئيا حتى في يقظتنا .

وفضلا عن ذلك ماذا نتوقع من عقول يتعرض أعقلها واحكمها كل ليلة الى احلام غريبة لا معنى لها ، وفي النهار يستمد الانسان افكاره وتأملاته منها ؟

اذن فالارادة هي جوهر الانسان ، والان ، ما المانع ان تكون جوهر الحياة في جميع صورها ، وان تكون جوهر الجماد؟ وماذا يمنع ان تكون الارادة هي الشيء في ذاته الذي بحثنا عنه طويلا ويئسنا من الوصول اليه — وان تكون الارادة هي الحقيقة النهائية الداخلية ، وكنه جميع الاشياء الخفي ؟ .

دعنا نحاول اذن تفسير العالم الخارجي بالارادة ، ولنتجه من فورنا الى اعماق الموضوع ، فنرفض ما قاله الآخرون من ان الارادة شكل من القوة ، ونقول ان القوة شكل او صورة من الارادة ، ونجيب على سؤال هيوم عن السببية فنقول ان السببية هي الارادة . فكما ان الارادة هي العلة العامة في انفسنا ، فهي كذلك علة الاشياء وما لم نفهم العلة على انها ارادة ، فستبقى السببية عبارة غامضة ولا معنى لها . وما لم نفهم العلة على انها ارادة فسنظل

مسوقين الى ترديد صفات غامضة مثل «القوة» والجاذبية» وغيرها ، نحن لانعرف ما هي هذه القوى ولكننا نعلم على الاقل بوضوح اكثر قليلا ما هي الارادة. دعنا نقول اذن بان الدفع والجذب والتركيب والانحلال والمغنطيسية والكهرباء والجاذبية والتبلور هي ارادة ؟ لقد عبر « جوته » عن هذه الفكرة في عنوان احدى قصصه ، عندما سمي تجاذب الحبيبين الذي لايمكن مقاومته بالامتزاج الانتخابي ، ان القوة التي تجذب الاحبة هي القوة التي تجذب الكواكب .

وهكذا في حياة النبات ، فكلما هبطنا الى اسفل صور الحياة ، كلما صغر الدور الذي يلعبه العقل ، ولكن هذا لايحدث في الارادة اذ انها تبقى كما هي :

ان ما فينا من ارادة تتابع اغراضها في ضوء المعرفة ، ولكن الارادة في النبات ، تكافح كفاحا اعمى وابكم بطريقة ثابتة لجهة واحدة لاتتغير ، ومع ذلك يجب ان تندرج تحت اسم الارادة في كلتا الحالتين . . . ان اللاشعور هو الحالة الاصلية والطبيعية لسائر الاشياء . ولذا فهو الاساس الذي تفرع عنه الشعور وبخاصة في الكائنات الحية ، حيث يكون الشعور تفتحها وتجوهرها الاسمى ، ولكن اللاشعور تبقى له السيطرة دائما . وعلى ذلك فان معظم الموجودات تكون بلا شعور ولكنها مع ذلك تعمل وفقا لقوانين طبيعتها — اي بارادتها ، وفي النباتات شبه ضعيف جدا من الشعور او الوعي . وليس في احط انواع الحيوان الافجر وبداية هذا الشعور ، وحتى بعد ان يصعد الشعور مجتازا مراحل الحيوان الى ان يصل الى الانسان وعقله ، فان اللاشعور في النبات الذي بدأ منه الشعور يبقى هو الاساس ، ويمكننا اقتفاء اثره في ضرورة النوم .

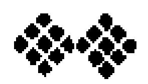
لقد كان ارسطو على حق عندما قال بوجود قوة في ذلك الذي يشكل كل صورة في النبات والكواكب والحيوان والانسان ، ان غريزة الحيوان بصفة عامة تقدم لنا افضل مثال لما بقي من فلسفة البحث عن غايات الطبيعة «الفلسفة الغائية» لأن الغريزة عمل شبيه لذلك الذي تقوده فكرة الغاية ، وهكذا فان كل بناء في الطبيعة يشبه ذلك الذي تهديه فكرة الغاية ، ومع ذلك فهو خال منها تماما .

ان البراعة الالية العجيبة في الحيوان تظهر لنا بوضوح كيف ان الارادة اسبق من العقل ، انظر الى ذلك الفيل الذي سيق الى اوروبا وعبر وهو في طريقه مئات من الجسور . كيف رفض عبور جسر ضعيف على الرغم من انه رأى كثيرا من الجياد والناس يعبرونه ، وانظر الى ذلك الكلب الصغير «الجرو» كيف يخشى القفز من المائدة وهو لا يخشى القفز عن طريق البرهان العقلي (لأنه لم يسبق له تجربة من هذا النوع من القفز) انـــه يخشى القفز بالغريزة ، وانظر الى قرود «الاورانج اوتانج» وهي تقترب من النار التي وجدتها امامها لتنعم بدفئها ولكنها يستحيل ان تخطىء فتحاول اكل هذه النـــار ، ومن هنا يتضح لنـــا ان هذه الاعمال غريزية ، وليست نتيجة لمنطق او تفكير ، انها ليست تعبيرا للعقل بل الارادة .

ان الارادة طبعا هي ارادة الحياة ، ارادة لبلوغ حد اعلى من الحياة ، كم هي عزيزة هذه الحياة بالنسبة الى جميع المخلوقات الحية ، ان البذور الجافة تبقى محتفظة بقوة الحياة الكامنة فيها ثلاثة الاف سنة ، وعندما تصادف في النهاية الظروف المناسبة تنمو وتترعرع الى شجرة او نبات ، وفكر في هذه

الضفادع البرية التي وجدت بين احجار الجير تدل على ان حياة الحيوان قادرة على ارجاء نفسها حيث بقيت هذه الضفادع بين احجار الجير عدة الاف من السنين تنتظر العودة الى الحياة ، ان الارادة هي ارادة الحياة ، وعدوها الابدي هو الموت

ومن يدري فقد تتغلب ارادة الحياة هذه على الموت ؟



٢ ـــ ارادة التناسل

تستطيــع ان تهزم الموت بالتناسل اذ ان كل كائن عضوي عادي يسارع الى تضحية نفسه من اجل التناسل اذا ما بلغ حد النضوج ، من العنكب الذي تلتهمه انثاه بمجرد تلقيحه اياها ، والزنبور الذي يكرس حياته في جمع القوت لنسل لن يراه ابدا ، الى الانسان الذي يحمل نفسه اعباء جسيمـــة ينوء تحت اثقالها ليطعم اولاده ويلبسهم ويعلمهم ويثقفهم ، فالنسل هو الغرض النهائي لكل كائن عضوي ، وهو اقوى الغرائز ، وهو الوسيلة الوحيدة الـــتي تمكن الارادة من قهر الموت ، ولكي تضمن الارادة قهر الموت فقد تعمدت الا تضع ارادة النسل تحت رقابة العقل او المعرفة والتأمل ، وحتى الفلاسفة فقد تناسلوا وانجبوا اولادا .

ان الارادة تبدي نفسها في التناسل مستقلة عن المعرفة وهي تعمل في هذا المجال بطريقة عمياء كما تعمل في الطبيعة اللاشعورية ... ولذلك فقد جاءت اعضاء التناسل مركز الارادة ، وتشكل المركز المقابل للمخ الذي يمثل المعرفة .. واعضاء التناسل هي اساس حفظ الحياة لانها تضمن حياة لا تنتهي ، ومن اجل هذا السبب فقد عبدها اليونان والهندوس .

فقد ذكر هوزيود وبارمنيدس ان اله الحب هو الاول وهو الخالق الذي صـــدرت عنه جميع الاشياء ، ان العلاقة بين الجنسين .. هى في الحقيقة النقطة المركزية الخفية لجميع الاعمال والسلوك ، وهي تسترق النظر الى كل مكان عـــلى رغم جميـــع الحجب والاقنعة التي القيت عليها ، وهي سبب الحروب وغايـــة السلام ، وهي اساس الجد والرصانة وهدف الهزل والمـــزاح ، وينبوع النكتة الفيـــاض الذي لا ينضب ، ومفتاح كل وهم خـــداع ، ومعنى كل تلميح مبهـــم وغامض ... فنحن نراها في كل برهة تبرز نفسها كسيدة العالم ووارثته الحقيقية. جالسة على عرش الإباء في كمال قوتها تنظر من عليائها نظرة ازدراء واستخفاف وسخرية وتضحك على ما يعـــده الناس من قيود لتقييدها وكبتها وسجنها ، او تحديدها على الاقل اولاخفائها كلما امكن الى ذلك سبيلا ، او السيطرة عليها واخضاعها والتقليل من شأنها ، او تخفيف الاهتمام بها والنزول بهـــا الى مرتبة ثانوية من مراتب الحياة .

ان ميتا فيزيقا الحب تدور حول تبعية الاب للام او الوالد لولده ، او الفرد للنوع ، وقانون الجاذبية الجنسية اولا ، هـــو ان اختيار الوليف او العشير مهما كان اختيارا ، لا شعوريا يتقرر الى مدى كبير بحيث يتلاءم الوليفان لانتاج النسل .

كل وليف يبحث عـــن وليفه الذي يمحـــو منه عيوبه ونقائصه حتى لا تورث ، فالرجل الضعيف البنية يبحث عن امرأة قوية البنية ... وكل واحد سيرى في عينيه جميلا كل ما ينقصه من كمال موجود في وليفه ، ويصف بالجمال نواحي النقص في وليفه التي تناقض نواحي النقص فيه نفسه ..

ان الصفات الجسدية في الوليفين تكون بحيث تحتفظ للنوع بصفاته المميزة

بقدر الامكان ، بحيث يكون الواحد منهما مكملاً ومتمماً للآخر وهو ما يرغب فيه رغبة خاصة . . . ان شعورنا العميق عندما نفكر في كل جـزء مـن الجسد ، وارتيابنا ووسوستنا في النظر الى المرأة التي تبدأ في اسعادنا ... كل هـذا يحدث للفرد من غير ان يعرف به ، بدافع نظام فوق نفسه . .

كل فرد يفقد جاذبيته للجنس الآخر بمقدار ابتعاد كل واحد منهما عـن انسب فترات حياته للتناسل ولذلك فان للشباب جاذبية حتى ولو خلا من الجمال ولكن لا جاذبية لجمال بغير شباب . .

ومع ذلك فان اشقى حالات الزواج هو الزواج الذي تم على اساس الحب والسبب في ذلك هو ان هدف الزواج هو بقاء النوع لا لذة الفـرد . يقول المثل الاسباني « ان الذي يتزوج عن حب سيعيش في كرب » ان نصف مشا كل الزواج ناجمة عن التفكير في الزواج بانه لذة وتوليف بدلا من التفكير فيه كنظام لحفظ الجنس ان الطبيعة لا تبالي فيما اذا دامت سعادة الزوجين يوما واحدا او الى الابد ما دام التناسل ممكنا . ان اسعد الزواج هو ما يتم باشراف آباء الزوجين ، وهو اسعد من زواج الحب . ومع ذلك لا يسعنا الا تقدير المرأة التي استجابت لنداء الحب فتزوجت بمن تحب مخالفة نصيحة ابويها ، لانها بذلك قد استجابت لروح الطبيعة وفضلت ما هو اهم . بينما كانت نصيحة والديها تقوم عـلى روح الانانية الفردية ، ولكن الحب هو افضل وسيلة لتحسين النسل .

وبما ان الحب خديعة تدبرها الطبيعة لاداء اغراضهـــا فالزواج يبلي الحب ويقضي عليه ، ولا يسعد بالزواج سوى الفلاسفة ولكن الفلاسفة لا يتزوجون .

ان خضوع الفرد لنوعه ، وانه مجرد أداة يتخذها الجنس لاستمرار بقائه ، يظهر مرة ثانية في اعتماد حيوية الفرد على حالة خلاياه التناسلية .

يجب اعتبار الغريزة الجنسية كحياة شجرة النوع الداخلية التي تنمو عليها حياة الفرد ، فالفرد من نوعه كالورقة من الشجرة لتغذى منها وتساعد في تغذيتها ، وهذا هو السبب في قوة الغريزة الجنسية ، وفي انها تنبع من اعماق طبيعتنا فاذا قمنا بخصي فرد نكون بخصينا له قد قطعناه من شجرة النوع التي ينمو عليها مما يؤدي به الى الذبول والوهن ، وانحطاط قواه العقلية والجسدية . ان خدمة الفرد للنوع اي عملية الاخصاب والتلقيح يتبعها دائماً تعب موقت وانهاك وانحطاط في كل القوى في الحيوان . ويتبعها موت عاجل عند معظم الهوام والحشرات . اما بالنسبة الى الانسان ، فان خمود القوى التناسلية معناه ان الفرد يدنو من الموت ، كما ان الافراط في استخدام هذه القوة في كل سن يؤدي الى تقصير العمر ، بينما الاعتدال في استخدامها يزيد في قوة الانسان كلها ، وخصوصا القوى العضلية ، وقد روعي هذا الاعتدال في تدريب الرياضيين الاغريق . كما ان كبح الحشرة عن التلقيح قد يطيل حياتها ويمددها ربيعا آخر ، كل هذا يشير الى ان حياة الفرد في اعماقها مستعارة من حياة النوع ... ان التناسل هو الذروة العليا الذي يهوي منها الفرد بعد بلوغه اياها هويا سريعا او بطيئا بينما تؤكد الحياة الجديدة (المولود) للطبيعة بقاء النوع ، وهي تعيد الظاهرة نفسها ... وهكذا فان تعاقب الموت والانسال بمثابة نبضات القلب للنوع ... ان الموت بالنسبة الى النوع كالنوم بالنسبة الى الفرد ، هذا هو مبدأ

الخلود العظيم .. لان العالم باسره بجميع ما فيه من ظواهر ، هو تجسيد لارادة واحدة خفية ... الفكرة التي تنسب اليها جميع الافكار الاخرى كما ينسب الانسجام الى الصوت المنفرد .. يقول« جوته » ... : « ان لارواحنا طبيعة لاينالها الفناء ونشاطها يمتد من الابد الى الابد ، انها كالشمس التي تبدو لاعيننا بانها غاربة ولكنها في الحقيقة لاتغرب ابدا وتضيء بلا انقطاع » لقد اخذهومني هذا التشبيهولست انا الذي اخذته عنه .

ان الزمان والمكان يظهران اننا كائنات منفصلة ، لانهما يشكلان مبدأ الفردية التي تقسم الحياة الى كائنات عضوية متميزة كما تظهر في اماكن اوازمنة مختلفة ... اذ ليس الزمان والمكان الا حجابا وهميا يخفي عنا وحدةالاشياء. اذ ليس في الحقيقة الا نوعا واحدا ، وحياة واحدة وارادة واحدة . ان جوهر الفلسفة هو ان تفهمك في وضوح ان الفرد ليس الا ظاهرة وليس الشيء في ذاته ، وان تريك «دوام الصورة الثابتة من خلال تغير المادة المستمر »ان شعار التاريخ هو كلما تغيرت الاشياء اكثر كلما بقيت نفسها اكثر .

ان من لم تظهر الناس وجميع الاشياء في عينيه دائما مجرد اشباح واوهام ليست لديه مقدرة على الفلسفة ... ان فلسفة التاريخ الحقيقية تكمن في ادراك وجود ثابت لايتغير ، وان ظهر لنا كما نراه متغيرا تغيرا لانهاية لهفي الحوادث المتشابكة ، وهو يتابع اليوم نفس الغايات التي تابعها بالامس والتي سيتابعها الى الابد ، وعلى فيلسوف التاريخ ان يتعرف على الصفة المتماثلة في كل الحوادث ... وان يرى الانسانية هي نفسها في كل مكان على الرغم من اختلاف الظروف الخاصة للعادات والاخلاق والازياء ... ان قراءتك

« لهيرودوتس» من وجهة نظر فاسفية تكفي لدراسة التاريخ . . . ان رمز الطبيعـــة الحقيقي في كل مكان وزمان هو الدائرة ، لانهـــا تشير الى التكرار .

اننا نميل الى الاعتقاد بان التاريخ كله ليس سوى خطوات تمهيـــدية ناقصة قصد منها ان تؤدي الى العصر العظيم الذي نعيش فيه ، ولكن هـــذه الفكرة عن تقدم العالم ليست سوى، مجرد خداع ووهم ، لقـــد تحدث الحكماء بصفة عامة عن نفس الحكمة في جميع العصور ، وتشابه الحمقى من الناس في اعمالهم في جميع العصور . وهكذا ستستمر الحال لاننا كما يقول « فولتير » سنرث العالم كما وجدناه في سخافته وشره وفساده .

اننا نرى على ضوء ما تقدم معنى جديدا للجبرية التي لا مفر منهـــا ، كما يقول « سبينوزا » لو كان للحجر الذي يلقى في الهواء ادراك لاعتقد انه يتحرك بارادته الحرة ، وانا اضيف الى قوله ان الحجر على صـــواب ، لان الحافز الذي يدفع الحجر هو الحافز الذي يدفعـــني ، وان ما يظهر في الحجر من تماسك وجاذبية وصلابة ، هو في طبيعته الداخلية ، هو ما اراه في نفسي ايضا واسميه الارادة وهو ما كانت الصخرة ستسميه بالمعرفة لو اوتيت المعرفة ، ولكن الارادة ليست حرة لا في الحجر ولا في الفيلســـوف .. ان الارادة كمجموعـــة تكون حرة ، لانه لا يوجد ارادة اخرى بجانبهـــا لتحددها . ولكن كل جزء من الارادة العامة ـ كل نوع ، كل كائن عضوي وكل عضو يقرره الكل .

يعتقد كل انسان بانه حر حرية تامة ، حتى في اعماله الفردية ويعتقد

انه قادر في كل لحظة على ان يبدأ اتجاهاً جديدا من الحياة ، وهذا يعني انـه يستطيع ان يكون شخصاً آخر ، ولكن التجربة تدله على انه ليس حرا وانه خاضع لحكم الضرورة . ولا يستطيع ان يغير من سلوكه وسيره على الرغم من جميع افكاره وعزمه ، وانه لابد له طيلة حياته من اولها لاخرهـــا ان يحمل نفس الاخلاق التي يقرعها ويحاول تغييرها كما هي ، وان يلعب الدور الذي اسند اليه الى النهاية .



٥ ـــ العالم شر

ولكن اذا كان العالم في حقيقته ارادة ، لا بد ان يكون مليئا بالالم والعذاب ، وذلك لان الارادة نفسها تعني الرغبة ، وهي دائما تطلب المزيد عما حصلت عليه ، وفي اشباع رغبة يطل من ورائها عشرات الرغبات التي تطلب اشباعها وتحقيقها ، ان الرغبه لا نهاية لها ، ومن المتعذر اشباعها جميعها انهـــا كالصدقة التى تدفعها للفقير تغنيه عن الجوع اليوم ليواجه البؤس والفقر غدا ... ما دامت الارادة تطغى وتملأ شعورنا ، ومـــا دمنا خاضعين لتجمع الرغبات وآمالها ومخاوفها الدائمة ، وما دمنا خاضعين للارادة ، فلن نبلغ السعادة الدائمة او السلام اطلاقا ، هذا بالاضافة الى ان تحقيق الرغبات لا يستتبع القناعة ، ولا شيء يقتل المثل الاعلى اكثر من بلوغه وتحقيقه ، ان اشباع العـاطفة يؤدي في الغالب الى الشقاء بدلا من السعادة لان حاجاتها كثيرا مـا تتعارض مع مصلحة صاحبها الى ان ينتهي الامر بالقضاء على هذه المصلحة . كل فرد يحمل في نفسه متناقضات هدامة ممزقة والرغبة المشبعة تولد رغبة جديدة تريد اشباعها وهكذا الى ما لا نهاية . والسبب في هذا هو ان الارادة لا بد ان تعيش على نفسها ، اذ لا يوجد شيء بجانبها ، وهي ارادة جائعة .؟

ان مكيال الالم في كل فرد امر لا مفر عنه تقرره طبيعته وهو مكيال يستحيل ان يظل فارغا او يتسع اكثر من عياره .. فاذا ازيح عن صدورنا هم كبير يضغط عليها .. حل مكانه على الفور هم آخر ، لقد كانت مادة هذا الهم موجودة من قبل ، لكنها لم تتمكن من شق طريقها الى الشعور بها لعدم توفر متسع لها .. اما الان وقد توفر متسع لها فانها تتقدم وتحتل عرشها .

ان الحياة شر لان الالم دافعها الاساسي وحقيقتها ، وليست اللذة سوى مجرد امتناع سلبي للالم ، ولقد اصاب ارسطو عندما قال : ان الرجل الحكيم لا يبحث عن اللذة ، ولكن عن التحرر من الالم والهم .

ان كل ضروب القناعة والرضى ، او ما يسمى عادة بالسعادة سلبي في حقيقته وجوهره فقط ... فنحن لانشعر تماما بما لدينا من النعم والفوائد ، ولا نقدرها حقيقة قدرها ، بل نفكر بها باعتبارها شيئا عاديا ليس الا ، وذلك لانها ترضينا بشكل سلبي فقط ، بان تخفف من عذابنا وتكبح جماحه ، ولا نشعر بقيمتها ونقدرها حق قدرها الا اذا فقدناها ، لان الحاجة والحرمان والحزن هي الجانب الايجابي الذي يتصل بنا اتصالا مباشرا ... ما الذي دفع الكلبيين الى طرح اللذة ونبذها في كل صورها ان لم يكن الالم في الواقع ممزوجا باللذة دائما قليلا او كثيرا .

ان الحياة شر لانه لايكاد الانسان يشعر براحة من الالم والحاجة حتى يتملكه شعور بالسأمة والملل مما يدفعه الى البحث عن شيء يعوضه شعوره بالملل والسأمة ، ويبدأ في مواجهة المزيد من الالم ، وحتى لو تحققت احلام الاشتراكيين في اقامة المدينة الفاضلة فسيبقى من الشرور ما لا يحصيه العد ، لان بعضها كالكفاح مثلا امر ضروري للحياة . واذا تمكنا من القضاء

على كل شر ، ووضعنا حداً للكفاح في هـــذه الحياة اصبحت السأمة عبئاً لا يحتمل كالألم سواء بسواء ، وهكذا تجد الحياة تتأرجح كالبندول الى الامـــام والخلف بين الالم والسأم .. وبعد ان قلب الانسان آلامـــه وعذابه الى فكرة الجحيم ، لم يبق لديه شيء عن الجنة سوى الملل . اننا كلما ازددنا في الحيـــاة نجاحاً ازددنا مللا ، وكما ان الحاجة هي السوط الدائم الذي يلهب ظهور الناس ، فكذلك السآمة هي السوط الذي يلهب ظهر العالم الحديث .

والحياة شر لانه كلما صعد الكائن العضوي وارتقي كلما زاد مـــا يقاسيه من آلام ، وان زيادة – معرفته لن تحل مشكلة آلامه .

لانه كلما ازدادت ظاهرة الارادة كلا ازداد العذاب وضوحـاً ، وفي النبات لا يكون الاحساس قد اكتمل بعد ، ولهذا لا يشعر النبات بالالم ، ان احط انواع الحيوان يشعر قدراً صغيراً جداً من الالم مثل النقاعيات ، وحتى في الحشرات لا تزال امكانية الشعور والالم محدودة ، واول ما تظهر امكانية الشعور بدرجة عالية باكتمال تكوين الجهاز العصبي للحيوانات آكلة الاعشاب ، وتزداد – اكثر بنمو العقل . وهكذا يزداد الالم كلما ازداد العقل ، اي بمقـــدار اقتراب المعرفة من الدقة ويزداد الالم ويبلغ ذروتـــه في الانسان ، ويزداد ما يحسه الانسان من الالم كلما دقت معرفته واشتد ذكاؤه ، والعبقري الموهوب اشد انواع الناس مقاساة للالم .

ان زيادة المعرفة في الانسان تؤدي الى زيادة آلامه ، كما ان ذاكرة الانسان وبعد نظره يزيد ان في آلامه ، لان الشطر الاكبر من آلامنا كامن في تأمل الماضي او في التفكير بما سيقع في المستقبل .

ان الالم في حد ذاته قصير ، ان الانسان يتألم من فكرة الموت اكثر من الم الموت نفسه ، واخيراً وفوق كل شيء ، الحياة شر لانهـــا حرب ، اينما وليت وجهك لا تقع عينك الا على صراع – ومنافسة ونزاع ، وتبادل انتحاري بين الهزيمة والنصر ، وكل نوع يقاتل للفوز بالمادة والارض والسيطرة .

انظر الى الهيدرا (افعوان البحر) التي تنمو كالبرعوم من امها الكبيرة ثم تفصل نفسها عنها ، كيف تقاتل وهي لا تزال متصلة بامها لكي تظفر بالفريسة التي تعرض نفسها امامها وكل واحدة منها تختطفها من فم الاخرى . ان النملة الاسترالية تقدم لنـــا اغرب الامثلة من نوعها اذ تنقسم النملة الى قسمين وتبدأ المعركة بين الرأس والذنب ، ويأخذ الرأس بعض الذنب باسنانه ، ويدافـــع الذنب ـ عن نفسه بشجاعة بلدغ الرأس ، وقد تدوم المعركة بينهما نصف ساعة الى ان يموتا او يسحبهما بقية النمل ويروى لنا « يونجهان » انه شهد في « جاوا » سهلا يمتد على مدى البصر تغطيه تماماً هياكل عظمية وظن انه في ساحة قتال ، ولكنهـــا لم تكن سوى هياكل سلاحف كبيرة ... خرجت من البحر لتضع بيضها ، فهاجمتها الكلاب الوحشية فالقتهـــا ارضاً على ظهورها ، ونزعت – القشرة الصغيرة عن معدتها وراحت تلتهمها وهي حية وكثيراً ما ينقض نمر على هذه الكلاب ... من اجل هـــذا ولدت السلاحف .. وهكذا تفترس ارادة الحيـــاة نفسها في كل مكان .. ويكون غذاؤها في اشكال مختلفة . الى ان يجيء في النهاية الجنس البشري الذي يحسب لأنه اخضع كل شيء اخر بان الطبيعة اعدت له وصنعت من اجله ، ومع ذلك فحتى الجنس البشري .. يكشف في نفسه عن ابشع انواع الصراع والنزاع . وهو النزاع بـين الارادة ونفسها . ان الانسان ذئب للانسان وان لم تكن ذئباً اكلتك الذئاب .

ان صورة الحياة في مجملها مؤلمة جـــداً اذا تأملناها ، وهي تعتمد على جهلنا بها .

اننا لو عرضنا امام نظر الانسان ما تتعرض له حياته دائماً من ضروب الالم والبؤس المروع عرضا واضحاً لامتلأ رعباً ، ولو دخلنا بالمتفائل الشديد في تفاؤله الى المستشفيات وملاجيء العجزة والمقعدين وغرف العمليات الجراحية ولو دخلنا به الى السجون وغرف التعذيب ، وحظائر العبيد ، ولو اخذناه الى ميادين القتال واماكن الاعدام ولو فتحنا له كل مساكن البؤس والفاقة المظلمة حيث يواري البؤس نفسه من نظرات الفضول السمجة الباردة واخيراً لو سمحنا له بالنظر الى السجون التي يموت الناس فيها جوعاً ، لعلم هذا المتفائل اخيرا طبيعة هذا « العالم افضل العوالم » والا من اين جاء دانتي « بمادة جحيمه ، لقد استمدها طبعاً من هذا العالم الواقعي الذي نعيش فيه واستطاع ان يصور من هذا العالم جحيماً ما بعدها من جحيم . ولكنه اصطدم بمشكلة لم يفلح في التغلب عليها عندما اراد ان يصف الجنة وما فيها من نعيم مقيم وذلك لان عالمنا لا يصلح ان يكون مادة لتصوير فردوس « الجنة » ، ان كل الملاحم التمثيلية لا يسعها الا ان تصور نزاعاً وجهداً وقتالا من اجل السعادة ولكنها لا تحتمل السعادة نفسها ابداً وهي تسير بابطالها الى الاف المخاطر والمصاعب للوصول الى الهدف المنشود وبمجرد ان يبلغ هؤلاء الابطال اهدافهم تسارع القصة الى اسدال الستار اذ لم يعد لها شيء بعد ذلك لتظهره سوى ان الهدف اللامع البراق الذي توقع البطل ان يجد فيه السعادة قد خيب امله ، وانه لم يكن بعد بلوغه اسعد حالا منه قبل بلوغه .

نحن تعساء في زواجنا ، في عزوبتنا وعزوفنا عن الزواج ، تعساء في انعكافنا ووحدتنا تعساء في اجتماعنا بالناس اننا كالقنافد تقترب من بعضها لتشعر بالدفء ولا تشعر بالراحة اذا اشتد التصاقها ، ومع ذلك فهي تعيسة في ابتعادها عن بعضها ، ان الحياة مضحكة ولكنه ضحك كالبكاء — فلو استعرضنا حياة الفرد في مجموعها وامعنا النظر في ابرز معالمها فقط لوجدناها مأساة في الحقيقة ، اما اذا تناولناها في تفصيلها لوجدناها ملهاة مضحكة . انظر وفكر وتدبر .

يدخل الصبي منا وهو في الخامسة من عمره الى مغزل القطن او اي مصنع اخر ، ويظل منذ ذالك الوقت يذهب الى المصنع كل يوم، ويعمل في بادىء الامر عشر ساعات وتزيد الى اثنتى عشرة الى ان تصل اخيرا الى اربع عشرة ساعة ، يؤدى فيها نفس العمل الآلي ليشتري باغلى الاثمان انفاس الحياة . ولكن هذا هو مصير الملايين من البشر . ان تحت القشرة الارضية قوى طبيعة كامنة جبارة ، اذا ما اتيح لها الخروج من مكمنها لا بد ان تدمر القشرة الارضية وكل مـــا عليها من كائنات حية ، كما وقع ثلاث مرات على الاقل على هذه الارض ، وقـد يتبعهذا اكثر في المستقبل . ان الزلازل التي وقعت في لشبونة وهاييتي وتدمير بومبي ليست سوى اشارات لما يمكن ان يقع في المستقبل .

امـــام كل هذه الآلام والكوارث ألا يكون التفاؤل سخرية من ويلات البشر ، لقد صور فولتير في كتابه كنديد الام البشر تصويرا عظيما ، وخلاصة القول فان طبيعة الحياة تقدم لنا نفسها كأنها مقصودة – ومدبرة لتوقظ فينا الاعتقاد بان لا شيء فيها جدير بكفاحنا وجهودنا وجهادنا وان ما فيها من طيبات وخيرات فهو باطل ومن متاع الغرور، وانالعالم مصيره الافلاس والحياة عمل فاشل لا يقوم بتغطية نفقاته .

ولكي يكون الانسان سعيدا ينبغي ان يكون في جهل الشباب الذي يظن ان السعادة بالكفاح والارادة ، لانه لم يتبين له بعد شره الرغبة المضني ونهمها الذي لا يشبع ، وظمأها الذي لا يرتوي ، ولم يعلم ان مثل من يحاول اشباع رغباته كمن يضرب مسمارا في ماء او يصب ماء في برميل مثقوب ، اذ لا حدود للرغبات ومن المستحيل اشباعها ، كما ان الشباب لم يجرب بعد اثر الهزيمة المحتومـــة .

ان فرح الشباب ومرحه ناجم عن اننا لا نرى الموت عندما نكون صاعدين الى ربوة الحياة ، لان الموت يكون في اسفل الجانب الاخر من الهضبة ... فاذا اقتربنا من نهايةالحياة فان كل يوم يمر بنا يبعث في نفوسنا نفس الاحساس الذي يحس به المحكوم عليه بالاعدام ، في كل خطوة يخطوهـــا وهو في طريقه الى المشنقة .. ولكي يعلم الانسان مدى قصر الحياة لا بد ان يعيش طويلا ..

فمنذ بدأنا عملنا حتى السادسة والثلاثين من عمرنا نكون بتبديدنا لنشاطنا وبذلنا لحيويتنا اشبه بالذين يعيشون على ارباح اموالهم يعوضون في الغد مـا ينفقونه اليوم، ولكن موقفنا بعد ان نتجاوز السادسة والثلاثين من عمرنا يكون كموقف صاحب المال الذي بدأ الانفاق من رأس ماله ... ان فزع الانسان من هذه البلية يزيد في حبه للمال كلما تقدم في السن .

ان اسعد اوقات الحياة هي الابتعاد عن ايام الشباب ، وما اصدق افلاطون عندما قال في – مستهل كتاب الجمهورية ، من الافضل ان نقدم احسن الجزاء لذوي السن المتقدمة ، لان الشيخوخة تحرر صاحبها من العاطفة الحيوانية التي استبدت به ولم تتوقف عن تحريكه حتى ذلك الوقت ، ومع ذلك لا يجوز لنا ان ننسى انه بعد خمود هذه العاطفة فانها تاخذ معها حبة الحياة ونواتها ولا يبقى سوى القشرة الجوفـــاء وتتحول الحياة عندئذ الى مهزلة بدأت بممثلين حقيقيين وانتهت اخيرا باشباح آلية ارتدت ملابسهم وحلت في مكانهم .

وفي النهاية نواجه الموت ، وفي الوقت الذي تبدأ التجربة في تنسيق نفسها والتحول الى حكمة يبدأ العقل والجسم في التدهور والانحطاط ، ان كل شيء لا يعيش الا برهة ويسرع الى الموت والفناء ، فاذا امهلنا الموت وطال اجلنا فهو يلعب بنا كما يلعب القط بالفأر الضعيف الذي لا حول له ، اذ من الواضح اننا

في مشينا نتجنب السقوط ما امكن الى ذلك سبيلا ، ونحن في حياتنا نتجنب الموت ونحاول دفعه وابعاده ما امكن . لذلك يحتفظ طغاة الشرق بين حليهم النفيسة وملابسهم الفاخرة بقارورة من السم . « ان فلسفة الشرق تفهم وجود الموت في كل مكان وتقدم لطلابها هدوء المظهر والصبر والكرامة في تحمل الحياة ومواجهة الموت الناشئة عن ادراكهم لقصر حياة الانسان . ان خشية الموت هي بدء الفلسفة وهي العلة النهائية للدين ، والانسان العادي عاجز عن التوفيق بين نفسه وبين الموت ، لذلك فهو يضع فلسفات وديانات لا تحصى . ان مـــا يسيطر عــلى الناس من عقيدة الايمان بالخلود لدليل عــلى خوف الناس وفزعهم من الموت .

وكما ان الدين واللاهوت مهرب من الموت ، فكذلك الجنون مهرب من الالم ، ان الجنون وسيلة يلجأ اليها الانسان لتجنب الالم والهروب منه ، فهـــو توقف لخيوط الادراك الذي ينقذه من الامه ، اننا نستطيع التغلب على المخاوف بنسيانها فقط .

كثيراً مـــا نفكر باشياء رغم ارادتنا تضر بمصالحنا وتجرح كبرياءنا وتصطدم مع رغباتنا ، على الرغم من الصعوبة التي نواجهها عند وضع هـــذه الاشياء امام عقولنا لنتناولها بالبحث الدقيق .. وفي مقاومة الانسان لارادته والسماح بما هو نقيضهـــا ان يوضع تحت بحث العقل ، تكمن الثغرة التي ينفذ الجنون منها الى العقل..... فاذا بلغت مقاومة الارادة ضد استيعاب معرفة ما الى حد تعطيل عملية العقل تعطيلا يعجزه عن اداء عمـله على الوجه الاكمل ، عندئذ يتكون في العقل عناصر وظروف معينة تكبت فيه كبتاً تاماً ، لان الارادة لا تطيق رؤيتها ، وعندئذ لضرورة الاتصال تمتلىء الفجوات التي حدثت باللذة ويظهر الجنون ، لان العقل قـــد سلم بطبيعته لارضاء الارادة ، ويبدأ

الانسان في تصور اشياء وهمية لا وجود لها ، ومع ذلك فان الجنون الذي نشأ على هذا النحو هو في الواقع نسيان وسلوان لالام شديدة غير محتملة ، وبهـذا يكون الجنون العلاج الاخير من طبيعة ارادتنا المزعجة .

اما المهرب الاخير فهو الانتحار ، هنا اخيراً يتغلب الفكر والخيال على الغريزة وهو امر يدعو الى الدهشة . لقد قيل ان « ديوجنيس » وضع حـداً لحياتـه بان رفض ان يتنفس . يا له من انتصار رائع على ارادة الحيـاة ! ولكنه مجرد انتصار فردي . لان الارادة لا تزال في حياة النوع ، ان الحياة تضحك من الانتحار وتبتسم للموت ، لأن كل انتحار مقصود يتبعه الاف المواليد غير المقصودة . ان الانتحار وهو القضاء الارادي على وجود الفرد الظاهري عمـل ينطوي على العبث والسخافة ، لان الشيء في ذاته ، وهو النوع والحياة والارادة صفة عامة لا تتأثر به وتبقى كما يبقى قوس قزح مهما بلغت سرعة تساقط نقط الماء الذي يكونه . ان البؤس والكفاح يبقيان بعد موت الفرد ولا بد ان يبقيا ما دامت الارادة تستعبد الانسان وتسيطر عليه ، ويستحيل الانتصار على امراض الحياة الا اذا تم اخضاع الارادة للمعرفة والعقل اخضاعاً تاماً .

٦ ــ فلسفة الحياة

١ ــ الفلسفة

تأمل اولا في سخافة الرغبة في نزوعها الى اقتناء الاشياء المادية والحصول عليها . اذ يظن سخفاء الناس انهم يستطيعون ارضاء ارادتهم واشباعها اشباعا تاما ببلوغ الثروة وجمع المال ، ويفرضون ان صاحب الثروة لديه الوسيلة لاشباع كل رغباته . كثيراً ما يعاب على الناس رغبتهم في المال وسعيهم لجمعه اكثر من اي شيء آخر ، وحبهم له اكثر من سواه ، ولكن من الطبيعي ان يحب الناس المال ، وهو امر لا بد منه لانه قادر على اشباع رغباتهم الهائمة ، اذ كل شيء خلا المال لا يشبع سوى رغبة واحدة ، والمال وحده هو الخير المطلق . . لانه استجابة مجردة لجميع الرغبات . « ومع ذلك فان اتجاهنا لتكريس حياتنا لجمع المال لا فائدة فيه الا اذا عرفنا كيف نحول هذا المال الى سعادة . وهو فن يحتاج الى ثقافة وحكمة ، إذ يستحيل ارضاء الرغبات المتلاحقة .

ولا بد للانسان ان يفهم اغراض الحياة ، كما لا بد ان يفهم فن تحصيل وسائل الحياة « ان الناس يميلون الى جمع المال والثروة الف مرة اكثر من ميلهم الى تحصيل الثقافة ، مع ان اليقين الذي ــ لا شك فيه هو ان سعادة الانسان تتوقف على ثقافته اكثر ما تعتمد على ماله وثروته »

فالرجل المجرد عن المقدرة العقلية لا يدري كيف يملأ اوقات فراغه ،

فهو يندفع اندفاع الشره النهم من مكان لاخر بحثاً عن الملذات واشباع الرغبات وملء الفراغ والحاجات الحسية الجديدة ، الى ان تقهرة اخيراً السآمة الهة الانتقام من الاثرياء والكسالى .

كلا ، ليست الثروة هي الطريق القويم بل الحكمة ففي الانسان ناحيتان في آن واحد ، فهو من ناحية كفاح عنيف من الارادة التي مركزها الجهاز التناسلي ، ومن ناحية اخرى شخص خالد حر حكيم ذو معرفة خالصة ومركزه المخ ، والعجيب ان تتمكن المعرفة احياناً من السيطرة على الارادة مع انها وليدتها . ان امكان استقلال المعرفة عن الارادة يبدو اولا في استخفاف العقل احيانا بمطالب الرغبة (فقد يرفض العقل ان يطيع الارادة مثال ذلك حينما نحاول عبثاً تركيز عقولنا على شيء ما (حيث تريد الارادة ان يفكر العقل ، فيرفض العقل ان يطيع) او حينما نحاول عبثا استدعاء الذاكرة لاستحضار شيء ما ائتمنتها الارادة على حفظه ، وانه يتضح لنا العلاقة بين الارادة والعقل واختلافهما في غضب الارادة من العقل في مثل هذه الاحوال ، قد يتأثر العقل احيانا من غضب الارادة فيستحضر ما اريد منه بعد بضع ساعات او في اليوم التالي ، وقد يفعل هذا فجأة وبغير مناسبة » ومن هذه العلاقة الناقصة قد يتحول العقل ويصبح سيد ـ الارادة بعد ان كان خاضعا لها . فقد يقدم الانسان مثلا على اشد الاعمال رعبا والما بشجاعة وقلة اهتمام ، كأن يقدم على الانتحار والقتل والمهالك وتعريض حياته لاشد الاخطار ، ويقبل بصفه عامة على ارتكاب اشياء ضد طبيعته الغريزية وهذا يظهر لنا بوضوح الى اي مدى استطاع العقل ان يسيطر على هذه الطبيعة الحيوانية فينا .

ان سيطرة العقل على الارادة تفسح لنا طريق التطور والرقي . فالمعرفة

تعدل الرغبة وتسكنها واللجوء الى الفلسفة الجبرية يساعدنا مساعدة كبيرة في تخفيف حدة رغباتنا وتعديلها ، لأن الفلسفة الجبرية تسلم بان كل شيء نتيجة حتمية لسوابقه ،ونستطيع التغلب على تسعة امور مثيرة تعكر صفونا وتنغص حياتنا من بين كل عشرة تواجهنا ، اذا نحن ادركنا اسبابها ادراكاً ، وعرفنا حقيقة طبيعتها وضرورة وقوعها ... ففي وسع العقل ان يكون من ارادة الانسان بمثابة اللجام من الجواد الجموح . لا شيء يبعث فينا الانسجام اكثر من المعرفة الدقيقة . وكلما ازددنا معرفة لعواطفنا كلما قلت سيطرتها علينا . ولا شيء يحمينا اكثر من السيطرة على نفوسنا ، فاذا اردت ان تخضع كل شيء لنفسك اخضع نفسك لعقلك. ان قاهر العالم لا يثير فينا الاعجاب كما يثيره قاهر نفسه .

وهكذا تصفو الارادة بالفلسفة ، ولكن ينبغي ان نفهم الفلسفة على اساس انها تجربة وفكر ، لا مجرد قراءة ومطالعة ودراسة .

ان تعرض عقولنا باستمرار لتدفق افكار غيرنا لا بد ، ان يحصر افكارنا ويكبح انطلاقها ، ويؤدي في النهاية الى شل قوة تفكيرنا ، ان ميل معظم العلماء للقراءة هو نوع من امتصاص الفراغ وذلك لان ـ اجداب عقولهم يدفعهم الى سحب افكار الاخرين رغما عنهم . ومن الخطر ان نقرأ عن موضوع قبل ان نكون قد فكرنا فيه بانفسنا ... فنحن عندما نقرأ لغيرنا يكون غيرنا يفكر لنا ، ولا نكون حينئذ الا معيدين لافكار غيرنا . لذلك فان الشخص يفقد تدريجيا مقدرته على التفكير اذا قضى ايامه في قراءة غيره ، فالخبرة التي نكتسبها من الحياة يمكن اعتبارها متن كتاب ، وشرح هذا المتن والتعليق عليه هو التفكير والمعرفة . فاذا كانت ثقافة الانسان وتأملاته واسعة ولكن خبرته في الحياة قليلة كان كالكتب التي تحتوي كل صفحة من صفحاتها على سطرين من المتن واربعين سطراً من التعليق والتوضيح .

لذلك فان اول نصيحة نوجهها هي الاستفادة من خبرة الحياة وتجاربها اولا قبل الكتب ، وثانيا مطالعة الكتب نفسهاقبل مطالعة ما كتب حولهامن تعليقات . وان نقرأ ما كتب المؤلفون قبل قراءة ما كتب النقاد والمعلقون . اذ لا يمكن تلقي الافكار الفلسفية الا من المؤلفين انفسهم . لذلك ينبغي على كل من يشعر بنفسه ميلا الى الفلسفة ان يبحث عن معلميها الخالدين في معبد انتاجهم ومؤلفاتهم . ان كتابا واحدا من عبقري يساوي الفا من كتب المعلقين .

ان السعي وراء المعرفة والثقافة ضمن هذه الحدود امر ذو قيمة ، لان سعادتنا تعتمد على ما في عقولنا من علم لا على ما في جيوبنا من مال ، وحتى الشهرة نفسها سخف وحمق ، لان سعادة الانسان الحقيقية ليست في تقدير الناس له . ان نظرة الناس للشخص ليست مهمة جداً ، لان كل شخص في النهاية يقف وحده . ان السعادة التي نستمدها من انفسنا أعظم من تلك التي نتلقاها ممن يحيط بنا . ان العالم الذي يعيش فيه الانسان يشكل بحسب نظرة الانسان له.. وما دام لايوجد شيء او يقع للانسان الا في ادراكه ، ولا يحدث إلا له وحده ، لذلك فان اهم شيء له هو تشكيل ادراكه . . . وقد صدق ارسطو عندما قال : « اذا اردت ان تكون سعيدا ، ينبغي ان يكون لديك اكتفاء ذاتي »

ان السبيل لانقاذ الانسان من شر رغبات الارادة التي لاتنتهي هي في تأمل الحياة تأملا عقليا ومطالعة ما كتبه اعظم الرجال في جميع العصور والبلدان . فالعقل الاريحي الخالي من الاثرة يصعدفوق اخطاء الارادةوسخافاتها كما تصعد رائحة العطر الزكية . لن يرتفع معظم الناس ابدا فوق النظر الى الاشياء باعتبارها مواضع رغبة ، ومن هنا ينشأ بؤسهم ، والصعود للحرية هوان ننظر للاشياء نظرة خالصة باعتبارها موضوعا للفهم .

اذا ما انتشلنا بغتة من سيل الرغبات المتدفقة التي لاتنتهي استعـــداد خارجي او داخلي ، وانقذ المعرفة من استعباد الارادة ، فان اهتمامنا سيعدل عن الاتجاه الى بواعث الارادة (ويدرك الاشياء منفصلة وحرة عن علاقاتهـــا بالارادة ، وبذلك ينظر اليها نظرة مجردة عن المصلحة الشخصيـــة اي ينظر اليها نظرة موضوعية خالصة ، اذا انصرف العقل بكليته الى الاشياء باعتبارها افكارا – لا باعتبارها دوافع مثيرة للرغبة ، عندئذ يحل بنا السلام الذي طالما بحثنا عنه والذي كان يهرب دائما منا في طريق الرغبات ، ونصل الى حـــالة مجردة عن الالم ، وهي الحالة التي امتدحها « ابيقور » ووصفها بانها الخير الاسمى وانها حيـــاة الالهة ، لاننا نكون قد حررنا انفسنا من كفاح الارادة – التعيس .

٢ ــ العبقري

العبقري هو اعلى صورة من صور هذه المعرفة التي تجردت عن الارادة ، كما ان احط ضروب انواع الحياة هو ما كان ناجما عن ارادة بحته ، بغير معرفة. والانسان بصفة عامة تغلب عليه الارادة اكثر من المعرفة ، اما العبقري فتغلب فيه المعرفة وتقل الارادة ، وفي العبقري ، تكون الملكة العارفة قد نمت وتطورت تطورا كبيرا يزيد عما تتطلبه خدمة الارادة ، وهذا يؤدي الى انتقال بعض القوة من النشاط التناسلي الى النشاط العقلي . « والصفة الاولى للعبقرية هي سيطرة غير مألوفة للحساسية والغضب وقوة التأثر على القوة التناسلية ومن هنا كانت العداوة بين العبقري والمرأة ، لان المرأة تمثل التناسل وخضوع العقل لارادة الحياة » قد يكون للنساء موهبة عظيمة ، ولكنها لن تبلغ العبقرية ، لانهن ذاتيات وكل شيء فيهن شخصي وينظرن الى الامور نظرة ذاتية شخصية كوسيلة لمصلحتهن الشخصية .

اما العبقرية فهي النظرة اللاشخصية السامية المجردةعن المصلحةالشخصية تماما . ان العبقرية هي القوة التي يتمكن فيها الفرد من نبذ مصالحه ورغباته واغراضه وابعادها تماما عن بصره . والقوة التي يستطيع بها انكار شخصيته انكاراً تاما ، مدة من الوقت ، ليبقى معرفة خالصة وبصيرة واضحة بالعالم ،

ولهذا فان العبقرية هي سيادة المعرفة على الارادة سيادة واضحة ، امـــا في الحالات العادية فان الارادة تسود على المعرفة ، والمعرفة تنشط بدافع الارادة فقط ، بحيث تكون المصالح الشخصية والمنفعية هي الموجه للمعرفة .

فاذا تحرر العقل من الارادة استطاع ان يرى الشيء كما هو فالعبقرية تمسك لنا بيدها المرآة السحرية التي يظهر لنا فيها كل ما هو ضروري وهـــام مرتبطا بعضه ببعض وواضحا وضوحا تاما ، اما ما هو عرضي واجنبي فيبقى مطروحا في الخارج ، وفي العبقرية ينفذ الفكر خلال العاطفة ، كما تنفذ اشعة الشمس من خلال السحب ، فيكشف عن قلب الاشيـــاء ، ويسمو الفكر ، ويتجاوز الفردي والخاص الى (المثال الافلاطوني) او الجوهر العام الذي هو صورة عنه . تماما كما يرى الرسام في الشخص الذي يرسمه لا مجرد ملامحـــه وشخصيته الفردية ، بل يرى صفة عامة وحقيقة خالدة ليس الفرد سوى رمزلها ووسيلة للكشف عنها ، فسر العبقرية اذن يكمن في ادراك الحقيقة الموضوعية والجوهرية العامة ادراكا واضحا وعادلا

ان هذا الانكار الذاتي والشخصي في العبقري يجعله غريبا في هذا العالم الذي تسوده المصالح الذاتية والرغبات النفعية والدوافع الشخصية . لذلك نجد العبقري بامتداد بصره الى الامور البعيدة ورؤيته لها ، لايلتفت الى الاشيـــاء القريبة فلا يراها .

انه شاذ وشارد الذهن وقد يتجه ببصره الى السماء يتأمل النجوم فيقع في حفرة اثناء سيره وانشغاله بالتفكير ، وهذا هو السبب في انطوائه على نفسه وعزلته ، وابتعاده عن مخالطة الناس ومعاشرتهم لانه مشغول عنهم بالتفكير في اصل الاشياء الموقتة الخاصة السريعة ، فليس بين عقله وعقولهم صلة مشتركة

ولن يتقابلا ابدا » القاعدة ان يكون الرجل اجتماعيا بمقدار ماهو عامي وضعيف العقل . » ان العبقري له ما يعوضه عن هذا الانطواء على ذاته ووحدته وعزلته ، فهو ليس بحاجة الى الرفيق والزميل كعامة الناس الذين يعتمدون في حيـــاتهم دائما على ما هو خارجي عنهم « فالسعادة التي يستمدها العبقري من الجمال على اختلاف صوره والسلوى التي يقدمها له الفن ، وحماس الفنان الذي يتصف بـــه تمكنه من نسيان مشاغل الحياة ، وتعوضه عن الالم الذي يزداد في الانسان بنسبة وضوح ادراكه ووحدته الموحشة بين جنس من البشر يختلف عنه تمـــام الاختلاف . »

ويتبع ذلك ان يجبر العبقري على التزام العزلة التي قد تؤدي به احيانا الى الجنون . ان التطرف في الحساسية التي تسبب له الألم بالاضافة الى الخيـــال والوجدان وقوة الادراك ، بالاضافة الى العزلة والانصراف عن الحياة ، تعمل جميعها على قطع الروابط التي تمسك العقل ليتمكن من الانصراف في تفكيره الى الحقيقة ، وقد كان ارسطو على صواب عندما قال : « ان الممتازين من الرجال في الفلسفة او السياسة والشعر والفن كلهم من ذوي المزاج المكتئب او الجنون الساكت » والاتصال المباشر بين الجنون والعبقرية يؤيده تاريخ اعاظم الرجال مثل روسو وبيرون الفييري وغيرهما ، « وبعد بحث دقيق في مستشفيـــات المجانين وجدت حالات فردية لمرضى كانوا من ذوي المواهب العظيمة وكانت تظهر لي عبقريتهم جلية واضحة من خـــلال جنونهم » ومـــع ذلك ففي انصاف المجـــانين العباقرة هؤلاء تكمن الارستقراطية الحقيقية للجنس البشري .

« ان الطبيعة من حيث العقل ارستقراطية الى مدى كبير . وقـد

اوجدت من الفوارق بين الناس ما يفوق الفوارق التي اوجدتها ميزات المـــولد والرتب، والثروة والطبقة .» ان الطبيعة لا تمنح العبقرية الا للقليل من الناس، لأن العبقرية تعوق سير الحيـــاة العادية التي تقتضي التركيز في الامـــور الخاصة السريعة ، لقد ارادت الطبيعة ان يكون حتى المتعلمين والمثقفين حارثين للارض ، واساتذة الجامعات يشملهم هذا المستوى .

٣ ـــ الفن

ان مهمة الفن هي تحرير المعرفة من استعباد الارادة ، ونسيان الذات الفردية ومصالحها المادية . والسمو بالعقل الى مرتبة تأمل الحقيقة اللاارادي . فان كان موضوع العلم هو الكلي الذي يشمل جزئيات كثيرة ، فموضوع الفن هو الجزئي الذي يشمل الكلي « وحتى الصورة التي يرسمها الفنان للشخص يجب ان تكون كما يقول (ونكلمان) المثل الاعلى للشخص » وفي رسم الحيوانات تكون اكثر الصور اظهارا للطابع المميز للحيوان هي اجملها ، لانها تكشف عن النوع كشفا واضحا لذلك يقاس نجاح الفن بنسبة ما يقدمه من المثال الافلاطوني للشيء او الصفة العامة للنوع الذي ينتمي له ذلك الشيء الذي رسمت صورته ، لذلك يجب على الفنان ان لايقصر همه على اجادة الصورة الفوتوغرافية من حيث الدقة الفوتغرافية اذا اراد ان يصور رجلا ، بل ينبغي عليه ان يعرض في هذه الصورة كل مـــا يمكن عرضه من صفات الانسان العـــامة الضرورية ، فالفن اعظم من العـــلم لأن العلم يتقدم عن طريق التفكير الحذر والمثابرة الشاقة في تجميـــع المعلومات بينما يصل الفن الى هدفه دفعة واحـــدة بالتمثيل والبصيرة . والعـــلم يشق طريقه بالموهبـــة ، ولكن الفن يحتاج الى العبقرية .

ان استمتاعنا بالطبيعة كما في الشعر والتصوير مستمد من تأمل الشيء والتفكير فيه من غير ان نمزج بـــه الارادة الشخصية . فنهر الراين بالنسبة الى الفنان عبارة عن سلسلة مختلفة من المناظر الساحرة الخلابة ، التي تثير فيـــه الاحساس والخيال بمـــا توحيه له من جمال . اما المسافر الذي تشغله اموره الشخصية ، « فلا يرى في نهر الراين وضفافه سوى خط تقطعه خطوط اخرى هي الجسور » لأن الفنان قد حرر نفسه من مشاغله الشخصية « بحيث يتساوى لدى الفن رؤية غروب الشمس من سجن او قصر . » هـــذه هي نعمة الادراك المتحرر من الارادة ـ الذي يخلع فتنة خلابـــة وسحراً على الماضي والبعيد ويقدمها لنا في ضوء جميل . وحتى الاشياء المعادية اذا تأملناها بغير استفزاز الارادة وبغير احساس بخطر قريب بدت لنا في غاية الروعة والسناء والجلال . ومما يزيد في قدرة الرواية التمثيلية وجمـــال فنها هي ان تبتعد بنا عن كفاح الارادة الفردية ، وتمكننا من مشاهدة الألم بشكل اعم واوسع . والفن يلطف ويخفف من امراض الحياة باطلاعنا على العنصر الابدي العام وراء المؤقت الفردي . لقد كان سبينوزا على حق حين قال « ان العقل يشترك في الابدية بمقدار ما يرى الاشياء في مظهرها الخالد » .

تفوق الموسيقى بقية الفنون في مقدرتها على رفعنا والسمو بنا فوق كفاح الارادة . ليست الموسيقى بحال من الاحوال كبقية الفنون الاخرى نسخة من المثل او جواهر الاشياء ، ولكنها نسخة من الارادة نفسها ، فهي تظهر لنـــا الارادة في حركتها وكفاحها وطوافها الدائم ، التي لا تلبث ان تعود الى نفسها بعد طواف طويل لتبدأ كفاحها من جديـــد . وهذا هو السبب في ان تأثير الموسيقى اقوى اثراً واكثر تغلغلا من بقية الفنون . لان الفنون تتحدث عن

اشباح فقط بينما الموسيقى تعبر عن الاشياء نفسها . وهي تختلف ايضاً عن بقية الفنون لانها تؤثر في شعورنا تأثيراً مباشرا لا عن طريق الافكار ، انها تخاطب فينا شيئاً ارق من العقل . ان الاوزان من الموسيقى كالتناسق من فنون النحت والتصوير ، لذلك كانت الموسيقى وفن العمران فنين متقابلين ويقول « جوته » ان فن العمران عبارة عن موسيقى متجمدة والتناسق في فن العمران اوزان موسيقية صامتة .

٤ ــ الدين

لقد ادرك شوبنهور في ايام نضجه ان نظريته في الفن ، وهو الانسحاب من الارادة ، والانصراف الى تأمل الحقيقة الخالدة الشاملة ، تصلح ان تكون ايضاً نظرية للدين . لقد تلقى شوبنهور في شبابه قليلا من الثقافة الدينية ، ولم يكن بطبعه ميالا لاحترام النظم الكنائسية السائدة في عصره . وكان يشعر بمقت لرجال اللاهوت واعتبـــار الناس لهم المرجع الاعلى في الامور الدينية . ووصف الدين بكونه « ميتافيزيقا الجمـــاهير » ولكنه بدأ يرى في السنوات الاخيرة من حياته اهمية عميقة في بعض الشعائر والمعتقدات الدينية « ان الجدل بين من يعتقدون بكفاية العقل دون الوحي وبين من يعتقدون بالوحي والمعجزات يكمن في جهلهم ادراك الطبيعة المجازية في جميع الديانات فالديانة المسيحية مثلا فلسفة تشاؤمية عميقة ، وجوهر المسيحية قائم على مبدأ الخطيئة الاصلية (وهو تقرير للارادة) والتكفير عن الخطايا (وهو انكار للارادة) كما ان الصوم فيه نفع في اضعاف تلك الرغبة التي يستحيل ان تؤدي الى السعادة ، بل تؤدي الى خيبة الامل او الى التطلع الى رغبة اخرى . ان القوة التي بفضلها استطاعت المسيحية التغلب على الديانة اليهودية اولا ، ثم على وثنية اليونان والرومان تكمن في نظرتها التشاؤمية واعترافها بان حالنا يسودها التطرف في البؤس والخطيئة اما اليهودية والوثنية فقد كانتا متفائلتين واعتقدتا ان الدين عبـــارة عن رشوة

يقدمها الناس الى الآلهة لتساعدهم على النجاح في الدنيا . اما المسيحية فقد رأت في الدين درعا واقيا لحماية الناس من غزو الملذات الارضية الزائلة التي لا خير فيها . لقـــد رفعت المسيحية مثلها الاعلى الذي يتجلى في حياة القديس المتبتل الزاهد في وسط عالم يطفح بالترف والبذخ والجاه والسلطان . ودعت الى جهاد النفس والتغلب على الارادة الفردية تغلبا مطلقا .

والديانة البوذية اكثر عمقا من المسيحية . لانها تجعل من هدم الارادة غاية الدين واساسه . وهي تدعو الى اخماد الشهوات الجسدية ، وتبشر بسعادة النفس في عالم الخلود حيث الراحة الابدية . والهندوس ابعد غوراً واشد عمقا من مفكري اوروبا ، لانهم يفسرون الدنيا تفسيرا داخليا ووجدانيا لا خارجيا وعقليا . والعقل في نظرهم يقسم كل شيء اما الوجدان فيوحد كل شيء . وقد رأى الهنود ان « انا » وهم وخداع وان الفرد عرضي زائل ، وان الحقيقية هي « الواحد اللا نهائي » وان كل من صفت روحه وبصره بحيث يرى اننا جميعا اعضاء من كائن عضوي واحـــد ، واننا جميعا تيارات ضئيلة في محيط الارادة فهو » بالغ كل فضيلة وبركة ، وسائر في طريق الخلاص والتكفير عن ذنوبه » ولا يعتقد شوبنهور ان في وسع المسيحية ان تحل محل البوذية في الشرق . وكل محاولة منها مصيرها الفشل كمن يطلق رصاصة على جبل . ويعتقد بأن الفلسفة الهندية ستتدفق على اوربا وانها ستغير من معرفة الاوربيين وتفكيرهم تغييرا عميقا . وان الادب الهندي (السنسكريتي) سيتغلغل في اوروبا تغلغلا لا يقل عمقا عن تغلغل الآداب اليونانية عند بعثها في القرن الخامس عشر .

وعلى هذا تكون الحكمة النهائية هي في اخماد الشهوات وهبوط الانسان

بذاته الى حد ادنى من الرغبة والارادة ، لأن ارادة العالم اقوى من ارادتنـــا
ولذلك يجب ان نذعن لهـــا ونستسلم لها فوراً . وكلما خف تهييج الارادة
واثارتها كلما خفت الآمنا ومتاعبنا. وان يكون السلام الذي يسمو على العقل
وهدوء الروح الكامل ، والراحة العميقة والثقـــة الحصينة انجيلا لنا . حيث
تبقى المعرفة وتزول الارادة .

٧ ـــ حكمة الموت

ولكننا بحاجة الى شيء اكثر . يستطيـع الفرد ان يبلغ السعادة بفضل « النرفانا » وهي نظرية هندوسية تعتقد ببلوغ حالةمن السعادة الناجمة عن كبت الرغبات والشهوات وايقافها ايقافا تاما . يستطيع ان يبلغ الفرد الســـلام والخلاص من رغباته بفضل« النرفانا » ولكن ما الذي يخلص الانسانية باسرها؟ ان الحياة لتسخر وتضحك من موت الفرد لانها ستبقيه حيا في ذريته ونسله ، او في ذرية ونسل الآخرين . وحتى لو جف نبع ماء حياته الصغير فهنـــاك الالوف من الجداول والينابيـع التي تتفجر وتجري بعمق وانسياب وتدفق اكثر في كل جيل . وما هي الطريق لانقاذ الانسان وخلاصه ؟ اليس ثمة نرفانا تشمل الجنس كله كما تشمـل الفرد ايضا .

وهنـــا يبدو لنا بوضوح ان الوسيلة الوحيدة والاخيرة لقهر الارادة تكمن في ايقاف منبع الحياة وهو ارادة النسل « ان اشباع الغريزة الجنسية هو الملوم لانه اقوى ما يقوي شهوة الحياة » ماذا جنى هؤلاء الاطفال لندفع بهم الى الحياة وآلامها ؟

اننا لو تأملنا صخب الحياة واضطرابها لوجدنا الناس جميعهم مشغولين في تلبية حاجاتها وشقائها . مستنزفين كل قواهم في ارضاء حاجاتها التي لا نهاية

لها وابعاد احزانها المختلفة . وليست لديهم الجرأة في التفكير في شيء آخر سوى الاحتفاظ بهذه الحياة المعذبة لفترة قصيرة من الوقت . ومن العجيب ان نشاهد وسط صخب الحياة وشغبها نظرات الاحبة والعشاق وهي تتقابل في لهف واشتياق في تستر وخفاء ، وخوف ووجل . لماذا يلتقي هؤلاء الاحبة في مثل هذه التستر ؟ لانهم خونة يطلبون دوام هذه الحاجة المضنية التي لولاها لانتهى امرها بسرعة . هذا هو السبب العميق لما يحيط عملية التناسل من خجل .

ان المتهمة هنا هي المرأة ، وعليها تقع مسئولية الجريمة ، لأنه اذا رجحت معرفة الرجل على ارادته ، تعود المرأة باغرائه على التناسل . وليس لدى الشباب من الذكاء ما يكفي ليرى ان سحر المرأة ومفاتنها قصيرة الامد ، فاذا اكتمل عقله ونضج تفكيره تكون الفرصة قد افلتت من يده وفاته الوقت .

لقد وهبت الطبيعة الفتيات جمالا آخاذا وسحرا وافرا لسنوات قليلة . يستطعن خلالها اسر قلوب الرجال ، وايقاعهم في حبائلهن وحبهن . وهكذا يسارع الرجال في قبول شرف الانفاق عليهن . ولو فكر الرجال لما اقدموا على تحمل عبء الانفاق على النساء ... وكما يحدث دائما في طبيعة هذا العالم ، وكما تفقد النملة جناحيها بعد ان يقوم الذكر بتلقيحها ، فان المرأة تفقد جمالها ويذبل سحرها بعد انجاب ولد او اثنين ، ولو فكر الرجال بان النساء اللواتي أوحين لهم باغاني العشق واناشيد الغرام قد ولدن قبل عشرين سنة لما القوا عليهن نظرة واحدة . واخيرا فان الرجال اجمل كثيرا وخصوصا في تركيب الاجسام من النساء .

لا شك ان الرجل الذي اطلق على النساء اسم الجنس اللطيف قد غيمت

سحب الغريزة الجنسية على عقله ، واعمت الشهوة بصره ، اذ كيف يمكن ان يطلق هذا اللقب على ذلك الجنس النسائي القصير القامة ، الضامر الاكتاف ، العريض الافخاذ القصير الساقين اسم الجنس اللطيف . ولا شك في ان جمال المرأة قائم كله على الغريزة الجنسية وحدها . وكان الاجدر ان نسمي النساء بالجنس الذي لايتذوق الفن ، فهن خلو من قابلية التأثر بالموسيقى والشعر والفنون الجميلة . ويتظاهرن التأثر بهذه الفنون لادخال السرور على قلب من يحاولن استدراجه وصيده من الرجال . وهن عاجزات عن تذوق كل فن . واذا استعرضنا تاريخ النساء المثقفات لما وجدنا منهن واحدة قد ابدعت في تاريخ الفنون لوحة فنية او قطعة موسيقية او قصيدة شعرية واحدة ذات اصالة وابداع . او قدمت للعالم اية قيمة خالدة في اي موضوع .

ان هذا التوقير الذي يبديه الرجل للمرأة وليد الديانة المسيحية والحنو والاحساس الالماني . وهو سبب لتلك الحركة الرومانتيكية التي تمجد الشعور والغريزة والارادة وتضعها جميعا فوق العقل . والاسيويون افضل منا علما بطبيعة المرأة ويعترفون اعترافا صريحا بانحطاطها وانها دون الرجل . «وينبغي على القانون الذي يساوي المرأة مع الرجل في الحقوق ان يساوي بينهما في العقول ايضاً .» كما ان آسيا اظهرت امانة اكثر منا في نظم الزواج واعترفت بنظام تعدد الزوجات اعترافا قانونيا . وفي الوقت الذي يستنكر فيه الاوروبيون نظام تعدد الزوجات بالكلام نراهم ينفذونه بالعمل ، ولن نجد بينهم من يقتصر على معاشرة زوجته ويطبق مبدأ الزوجة الواحدة بامانة واخلاص .

ومن الحماقة ايضا ان نبيح للنساء حق الارث . لانهن يملن للتبذير والاسراف باستثناء القليل ويفكرن بأن الرجال قد خلقوا لكسب المال وتقديمه لهن لينفقن بغير حساب . هذه هي نظرة النساء في تقسيم العمل . « اعتقد بعدم

السماح اطلاقا للنساء بادارة مصالحهن ، وان يكن دائما خاضعات لاشراف الرجال ، كالآباء والاولاد والازواج او تحت اشراف الحكومة كما في هندوستان. وان لايخولن صلاحية كاملة في ادارة اي عقار مالم يكن من ثمرة عملهن واتعابهن. » لقد ادى تبذير النساء وحياة البذخ التي كن يعشن فيها في بلاط لويس الثالث عشر الى فساد الحكومة مما ادى الى اشتعال الثورة الفرنسية .

لذلك كلما قل اتصال الرجل بالمرأة وخفف علاقته بها ، كان ذلك افضل واحسن . وليس النساء شراً لا بد منه كما يقال ، لأن الحياة بغيرهن اكثر أمنا واوفر هدوءا . وليتبين الرجال احابيل النساء وشراكهن الكامنة في جمالهن . ووضع نهاية لمهزلة ارادة التناسل . ان تطور العقل والذكاء سيضعف او يؤخر ارادة التناسل . وسيتمكن بذلك من استئصال الجنس . لماذا نرفع الستار عن حياة جديدة كلما اسدل على هزيمة او موت ، وعن كفاح جديد وهزيمة جديدة ؟ الى متى ننخدع بهذه الحياة والميت كلب والجنازة حارة . والى متى نصبر على هذا الالم الذي لايؤدي الا الى نهاية اليمة . متى سنجد الشجاعة فنتحدى الارادة ونخبرها ان حب الحياة اكذوبة ، وان الموت اعظم بركة ونعمة للناس .

٨ ـ نقـــد

والجواب الطبيعي لمثل هذه الفلسفة هو ان نخضع الانسان والعصر الذي يعيش فيه الى فحص وتشخيص طبي .

اذ ينبغي ان لا يفوتنا اننا نشاهد في هذا العصر الذي عاش فيـــه شوبنهور فترة شبيهة تماما بالفترة التي اعقبت حكم الاسكنـــدر في اليونان ، وقيصر في روما . حيث تعرضت اليونان اولا وروما ثانيا الى سيل جارف من العقائد والافكار الشرقية . اذ ان من ممـــيزات الشرق ان ينظر الى الارادة الخارجية في الطبيعة بأنها اقوى بكثير من ارادةالانسان وهذا يؤدي الى التسليم بالقضاء والقدر واليأس . وكما ان انحلال اليونان جعلها عرضة للرواقية الشاحبة، والابيقورية المستسلمة فقد احدثت الكوارث والفوضى التي خلفتها الحروب النابليونية في اوروبا فتورا ومللا وحزنا جعلها تصغي الى شوبنهور وتجعل منه صوتا لفلسفتها . لقد كانت اوروبا تعاني صراعا مخيفا في عام ١٨١٥ .

لقد اعترف شوبنهور ان سعادة الانسان تتوقف على الانسان نفســـه اكثر من توقفها على الظروف الخارجية . ان التشاؤم تهمة تقع على عاتق المتشائم نفسه . لقد استمد شوبنهور فلسفته من مزاجه العصبي وفراغ حياته وعزلتـه

ووحدته وانطوائه على نفسه الذي طبع حياته بطابع السأم والملل المعتم القاتم. هذا بالاضافة الى الآلام والاحزان التي كانت تسود عصره . اذ لا شيء يبعث التشاؤم في الانسان اكثر من الفراغ وحياة الكسل . والحياة النشيطة تؤثر على النفس وتقوي من معنوياتها وتزيد في نشاط العقل والبدن . لقـــد كان لديه من المال ما يساعده على الاستمرار في حيـــاة الفراغ والراحة ، ووجد ان الفراغ المستمر لا يحتمل واشد عبئاً من العمل المستمر . ولعـــل نزوع الفلاسفة الى الكآبة يعود الى خـــلو حياتهم من النشاط والعمل ، وملازمـــة الجلوس وعدم الحركة .

ان النرفانا هي المثل الاعلى للانسان فاتر الهمة . ان الانسان الذي يبدأ حياته بالطموح الى الوصول الى غايات كبيرة واهـــداف عظيمة وينتهي امره بالفشل في تحقيق هذه الغايات والآمال يمضي بقية حياته في ضجر وتزق . ولا شك ان تجارب شوبنهور المبكرة مـــع النساء احدثت في نفسه ريبة شاذة وحساسية ضدهن . كما حدث مع نيتشه وفلا وبرت وشتنند هال . فغدا ساخراً منمزلا ، فهو يقول « لا تخبر صديقك بشيء تخفيه عن عدوك . » وينصح بحياة هادئة ناسكة رتيبة . وهو يخشى المجتمع ، ولا يتذوق متعة الاجتماع بالناس . والواقع ان السعادة لا معنى لها اذا لم يشاركنا فيها الآخرون .

لا شك ان في التشاؤم من الحياة قدرا كبيرا من الانانية وحب الذات . واذا كان العالم لم يضحك بوجهه لنا انقلبنا عليه وتحولنا عنه والقينا التبعة عليه . ولكننا بذلك نكون قد نسينا الدرس الذي القاه « سبينوزا » وهو ان رضانا وسخطنا ولومنا للعـــالم ليس سوى احكام بشرية لا تتناسب في الاغلب اذا طبقناها على العالم . وربمـــا كان اشمئزازنا من العـــالم بسبب اشمئزازنا من

انفسنا ، وقد يكون الخطأ والزلل منا ولكنا نضع اللوم على البيئة او العالم ، اللذين ليست لهما السنة يدافعان بها عن نفسيهما . ان الانسان الناضج ليقبل ما في الحياة من حدود طبيعية ، ولا يتوقع من العناية الالهية ان تتحيز الى جانبه وتراعي خاطره وتفضل مصلحته . ولا يطلب منها ان تؤثره بزهر الطاولة الرابح « النرد » ليلعب به لعبة الحياة ، ويتفق مع « كارليل » بأن من السخف والحمق ان نلعن الشمس لانها لم تشعل لنا سيجارتنا ، مع ان الشمس قد تفعل ذلك لو اوتينا من العلم شيئاً . وقد ينقلب هذا الكون الفسيح المحايد الى مكان سعادة عظيمة لو ساعدناه بشيء من ضياء نفوسنا واشراق روحنا . والواقع ان العالم ليس معنا او علينا ، فما هو الا مادة اولية في ايدينا ، وقد يكون نعيماً او جحيما وفقا لما جبلت عليه نفوسنا .

ان بعض التشاؤم في شوبنهور ومعاصريه ناجم عن وجهة نظرهم الرومانتيكية والآمال الكبيرة التي علقوها على المستقبل . ان الشباب واسع الآمال ويتوقع الكثير من العالم . والتشاؤم هو الصباح الذي يعقب أمس التفاؤل . وكما دفع عام ١٨١٥ ثمن اعمال عام ١٧٨٩ ، فان التمجيد الرومانتيكي وتحرير الشعور والغريزة والارادة ، والاحتقار الرومانتيكي للعقل وكبح المشاعر والنظام كل هذه الامور انتهت بأن يدفع العالم ثمناً باهظا لها . وعندما تبين للرومانتيكي ان مثله الاعلى في السعادة قد انتهى به الى شقاء حقيقي ، لم يوجه اللوم الى مثله الاعلى ، بل وجه اللوم الى العالم ، وان هذا العالم ليس جديرا بانسان منظم مثالي مثله . اذ كيف يمكن ان يرضي عالم هوائي متقلب الاطوار روحا هوائية متقلبة الاطوار ؟

لقد اوحى الى شوبنهور بأولية الارادة ونهايتها ما شاهده في العالم من

نهوض نابليون الى السلطة والامبراطورية وما دعا اليه روسو من رفض العالم والمدنية ، وفلسفة « كانت » ونقده للعقل وقد تكون معركة واترلو ومصير نابليون في سانت هيلانه قد اوحت له بفلسفته المتشائمة . فقد كان نابليون اعظم ارادة فردية ظهرت في تاريخ العالم، وبسط نفوذه وسيطرته على اوروبا وغيرها من قارات العالم ، ومع ذلك فقد كان مصيره الفشل كحشرة تحمل الموت المحتم في جنباتها في اليوم الذي جاءت فيه الى هذه الدنيا . وكان الاجدر بشوبنهور ان يفهم بأن من الافضل ان نحارب في هذه الحياة وان نخسر المعركة من ان نقعد ولا نحـــارب اطلاقا . ولم يشعر مثل « هيجل » الاكثر رجولة واشد عنفاً بمجد الكفاح والنضال في هذا العالم . لقد تاقت روح شوبنهور الى السلام . لانه عاش في وسط الحرب ، وكان الكفاح يجري حوله في كل مكان ، ولم يستطع ان يرى وراء هذه الحرب مساعـــدة الجيران الودية ، وبهجة الاطفـال ، ومرح الشباب ، ورقص الفتيات ، وتضحيات الاباء والاحبة ، وجود الارض ، وجمال الربيـــع .

ثم ماذا يضير من ان رغباتنا لا تنتهي ، وان اشباع رغبة يؤدي الى بعث رغبة اخرى ، وقد يكون من الافضل لنا الا نقنع ونرضى . فالسعادة كما قال القدامى هي في بلوغ المنى والمراد وليست في الامتلاك والشبع . والانسان السليم العقل والصحة لا يبحث عن السعادة بقدر ما يبحث عن فرصة تمكنه من ممارسة قواه ومواهبه . وهو على استعداد لان يدفع عن طيب خاطر ثمن هذه الحرية من عنائه وآلامه . اننا لفي حاجة الى المقاومة لترفعنا كما ترفع الطائرة والطائر ونحن بحاجة الى العقبات لترهف بها قوانا وننعش نمونا . والحياة بغير مأساة ليست جديرة بالانسان .

لقـــد ذهب شوبنهور الى أن زيادة المعرفة تستتبـع زيادة الالم ، وان ارقى الكائنات نظاما هي اشدها تعرضاً للالم . وهو عـلى صواب في قـوله

هذا . ولكن من الصواب ايضا ان نفهم بأن زيادة المعرفة تزيد في السرور كما تزيد في الألم ، وان الانسان الراقي المتطور هو وحده الذي يتمتع بأعظم الفرح وأشد الألم . وقد اصاب « فولتير » عندما آثر لنفسه شقاء الحكمة البرهمية على نعيم جهل المرأة الفلاحة . اننا نحب ان نختبر الحياة اختبارا عميقا وذكيا ولو كان على حساب ما نقاسيه من آلام . ونحب ان نخاطر ونجازف في كشف اسرارها ولو كان على حساب فشلنا وخيبة آمالنا . لقد مل « فرجل » الذي تذوق كل لذة ، وعرف كل ترف من كـل شيء في هـذه الحياة الا لذة الفهم وبهجة المعرفة .

هل اللذة سلبية كما يقول شوبنهور ، كلا ان اللذة ليست سلبية في جميع الحالات . ان اللذة هي انسجام ما تقوم به غرائزنا من عمل وكيف يمكن ان تكون اللذة سلبية الا اذا كانت الغريزة الدافعة اليها غريزة تراجع وتقهقر ، لا تقدم واقتراب . ان لذة الهرب والراحـة والاستسلام والامن ، والانعزال والهدوء لذات سلبية بلا شك ، لأن الغرائز التى تدفعنا لها غرائز سلبية — فهي حالات من الخوف والهرب . ولكن من مـنا يقول ان الملذات الناجـة عن الغرائز الايجابية كغرائز التحصيل والامتلاك والحكمة والسيادة والعمل واللعب والاجتماع والحب ملذات سلبية ؟ وهـــل من المعقول ان نعتبر المرح والسرور والبهجة ملذات سلبية ، وهل من الممكن ان يكون مرح الطفولة ، واغنية الطير لوليفه ، او صياح الديك في بهجة الفجر ، او نشوة الفن الاصيلة ملذات سلبية ؟ ان الحياة نفسها قوة ايجابية ، وكل عمل عادي فيها يطفح بالمتعة والسرور .

ويقول شوبنهور ان الموت مفزع ومرعب ، وهو على حق في قوله ، اذ لا شك ان الموت مفزع ومرعب ولكن الخوف من الموت يزول لو عاش الانسان حياة عادية . ولكن هل الخلود وعـــدم الموت سعادة لنا اذ من منا يحسد مصير « اهاسورس » الذي حكمت عليـه الآلهة بالخـلود في الحياة كشاهد

عقاب يمكن ان تنزله بانسان ؟ والواقع ان الفزع من الموت دليل على ان الحياة حلوة وممتعة . ولا حاجة بنا لان نردد ما قاله نابليون بان جميع الذين يخشون الموت يحملون بين جنباتهم قلوباً ملحدة وكافرة وان شوبنهور بتخطيه السبعين من عمره قد تجاوز مرحلة التشاؤم من حياته، وفي ذلك يقول « جوته » لاتشاؤم بعد سن الثلاثين او قبل العشرين . لان التشاؤم في حقيقته فيض الشعور بالذات ، وشعور الاهمية في الشاب . ويشعر به الشاب الذي خرج من حرارة الاسرة وعطفها وحبها الى برودة العالم الذي تسوده الفردية والمنافسة والجشع . عندئذ يشعر ذلك الشاب بحنين الى حياة الاسرة . شاب قذف بنفسه امام طاحونة الحياة وشرور العالم فعصفت بمثله وطحنت احلامه . ان بهجة الجسد قبل العشرين وبهجة العقل بعد الثلاثين . فقبل العشرين يشعر الانسان بلذة الامن والحماية . وبعد الثلاثين بلذة الابوة والاسرة .

ولكن كيف يمكن لشوبنهور ان يتجنب التشاؤم وقد عاش طيلة حياته في غرفتين في فندق وتخلى عن طفله الوحيد وتركه لايحمل اسما شرعيا طيلة حياته . ان السبب في شقائه وتشاؤمه ناجم عن نبذه للحياة ، ونبذه للنساء والزواج والاطفال . فهو يعتبر الابوة اعظم الشرور ، بينما يعتبر الانسان السليم الابوة اعظم السعادة والرضى . وهو يعتقد بان التستر في الحب ناجم عن الخجل من عملية التناسل واستمرار الجنس . ولا شك ان اعتقاده هـذا ينطوي على الحماقة والادعاء ، اذ هل يمكن لشيء ان يكون اكثر بطلانا وادعاء من هذا الاعتقاد ؟ وهو يرى في التناسل تضحية من جانب الفرد للجنس فقط . ويتجاهل متعة الغريزة في مقابل هذه التضحية . هذه المتعة العظيمة التي كانت مصدر الهام لكل ما عرفه العالم من شعر وغناء وموسيقى . فهو لايعرف من النساء سوى

الاثم والخطيئة والنهم ، ولا يطيق ان يتصور وجود نساء فاضلات قانعات مخلصات شريفات . وهو يعتقد بحمق الرجال الذين ينفقون على نسائهم ، ولكن من الواضح ان هؤلاء الرجال ليسوا اكثر سخافة وتعاسة من رسول التعاسة والهم والكدر الأوحد . وكما يقول بلزاك ، ان الانفاق على الرذيلة لايقل عن الانفاق على العائلة . وهو يحط من جمال المرأة ، ولست ادري اي نوع من الجمال يمكن ان يعوضنا عن جمال المرأة ، وكأنه يريد منا بابتعادنا عن المرأة ان نحرم انفسنا من لون الحياة وشذاها وعطرها . اي كره للنساء واي نكبة ولدت هذه الروح التعيسة .

هناك مشاكل ومصاعب اخرى اكثر فنية واقل حيوية في هذه الفلسفة المنعشة البارزة ، اذ كيف نفسر وقوع حوادث الانتحار في عالم تكون الارادة فيه هي القوة الدافعة الحقيقية الوحيدة للحياة . اذ كيف يقدم على الانتحار من يريد الحياة ويتشبث بها . وكيف يمكن للعقل مولود الارادة وخادمها ان يستقل عنها ؟ هل العبقرية تكمن في المعرفة المنفصلة عن الارادة ، وهل تحتوي كقوة دافعة لها على قوة كبيرة من الارادة . وحتى على مزيج كبير من الطموح والغرور ؟ وهل الجنون مرتبط بالعبقرية وملازم لها بصفة عامة . او انه مرتبط فقط بالنوع الرومانتيكي من العباقرة من طراز (بيرون ، شيلي ، بوي ، وهايني ، وسونبرن ، وشترنبيرج ، ودوستويفسكي وغيرهم .) وهل يمكن لاحد ان يشك في سلامة عقل العباقرة الاكثر عمقا من طراز (سقراط وافلاطون وسبينورا ، وبيكون ونيوتن وفولتير وجوته ، وداروين وويتمان وغيرهم ؟) وماذا اذا لم يكن عمل العقل والفلسفة انكار الارادة بل تنسيق الرغبات وسبكها في ارادة موحدة منسجمة ؟ ثم ماذا اذا كانت

الارادة نفسها مجرد وهم خرافي كوهم القوة . إلا كنتيجة موحــدة لهذا التنسيق ؟

ومع ذلك فان في هذه الفلسفة من الامانة ما يجعــل الكثير من المذاهب المتفائلة نفاقا . من المعقول ان نقول مع سبينوزا بأن الخــير والشر عبارتان موضوعيتان واصطلاحات انسانية . ومع ذلك فاننــا مضطرون لان نحكم على هذا العالم من ناحية آلام البشر الواقعيه وحاجاتهم: لقد فعل شوبنهور خيرا بأن اجبر الفلسفة على مواجهة حقيقة الشر الاولية ، ووجه الافكار الى مهام الانسان في التخفيف من هــذه الشرور والالآم . واصبح من الصعب على الفلسفة منذ ذلك اليوم ان تعيش في جو المنطق والميتافيزيقا الوهمي ، وبدأ المفكرون يعرفون بأن الفكر المجرد عن العمل ليس سوى مرض .

لقد فتح شوبنهور اعين علماء النفس الى قوة الغريزة . لقد سقط المذهب العقلي (الذي اعتقد بأن الانسان حيوان مفكر اولا وقبل كل شيء) مريضا على يد روسو والتزم الفراش على يد كانت ، وخر ميتا على يد شوبنهور . وبعد قرنين من التحليل والفحص والتأمل وجدت الفلسفة ان وراء الفكر الرغبــة ووراء العقل ، الغريزة . تماما كما وجد علم الطبيعيات بعد قرن من المــذهب المادي وجود الطاقة وراء المادة . اننا مدينون الى شوبنهور لانه كشف لنــا عن خفايا قلوبنا ، واظهر لنا ان رغباتنا هي قاعدة فلسفاتنا . واوضح الطريق امامنا لان نفهم الفكر لا على اساس كونه تقديرا مجردا لاحداث غير شخصية ، ولكن على اساس كونه اداة للعمل والرغبة .

واخيرا وعلى الرغم من تهويله وتطرفه ، فقد علمنا ضرورة العبقرية ،

وقيمة الفن . ورأى بأن الجمال هو الخير النهائي وان ابداع الجميل هو السعادة وانضم الى جوته وكارليل في استنكار محاولة هجل وكارل ماركس وبوكلي في اسقاط العبقري كأداة اساسيـــة في صنع تاريخ البشرية . ونادى بتعظيم الابطال وتمجيدهم ورفع منزلتهم في وقت كفر فيه الناس بكل عظمة وعظيم .

وعلى الرغم من جميع اخطائه فقد افلح في وضع اسمه في قائمة العظماء .

الفصل الثـــامن

هربرت سبنسر

١ ـ كومت وداروين

لقد اعلنت فلسفة « كانت » عن نفسها بانها مقدمة تمهيدية لكل مايجيء في المستقبل من ابحاث في الميتافيزيقا ، فكانت بعمد طعنة قاتلة لطريقة التفكير التقليدي ، وبغير عمد ضربة مؤذية للميتافيزيقا كلها . فقد كان القصد من دراسة الميتافيزيقا . (ما وراء الطبيعة » في مراحل تاريخ الفكر كلها هو محـــاولة الكشف عن طبيعة الحقيقة النهائية . ولكن ها هم الناس قد تعلموا من اعظم الثقاة في الموضوع ان من المستحيل ان يجد الانسان الحقيقة عن طريق الخبرة والتجربة . وعرفوا ان الحقيقة هي معنى نتصوره ولكننا لانعرفه ، وان اعظم العقول لم تستطع ان تعدو الظواهر او تتجاوزها ، وعجزت عجزا تاما عن ان تنفذ الى الجوهر وتكشف عن نقاب الحقيقة . لقد اسرف فخته وهجل وشلنج في بحوثهم الميتافيزيقية اسرافا شديدا ، ومطالعتهم للاحاجي والالغاز القديمة وكتاباتهم عن الذاتية والفكرة والارادة ، ونسخ كل منهم ما كتبه الاخر ،

وغدت نتيجة دراستهم في النهاية صفرا ، وبقي الكون حتى عام ۱۸۳۰ محتفظا بسره المغلق . وبعد جيل من «المطلق » اخذ العقل الاوروبي عهدا على نفسه بأن يقف ضد الميتافيزيقا من اي نوع .

وكان من الطبيعي ان يخرج من بين الفرنسيين الذي عرفوا بالشك من يؤسس الحركة الايجابية ، وهو «اجست كومت » او كما كان والداه يسميانه « اسيدور اوجست ماري فرانسوا كزافيير كومت » الذي ولد في «مونتبلييه» في عام ۱۷۹۸ ، وكان مثله الاعلى ومعبوده في ايام صباه هو «بنيامين فرانكلن» الذي كان كومت يسميه « سقراط » الحديث ، وقال عنه انه قد اعتزم وهو في الخامسة والعشرين من عمره ان يبلغ الحكمة ويغدو حكيما ، واستطاع ان يحقق امله وانجز وعده ، وقد اخذت على نفسي عهدا ان احذو حذوه واقتفي اثره وابلغ من الحكمة شأوها ، وكان هذا جرأة بالغة مني ، اذ لم اكن قـــد بلغت العشرين من عمري ،وقد استهل كومت حياته استهلالا حسنا بان اصبح سكرتيرا للكاتب المثالي العظيم الذي كان يحلم باقامة المدينة الفاضلة « سانت سيمون » الذي اشعل في نفسه حماسة اصلاح « تورجوت وكندرست» والفكرة القائلة بان الظواهر الاجتماعية كالظواهر الطبيعية يمكن النزول بها الى قوانـــين وعلم ، وان الفلسفة كلها يجب ان تركز جهودها في اصلاح النوع البشري اصلاحا اخلاقيا وسياسيا .

ولكن كومت كغيره من المصلحين الذين تصدوا لاصلاح العالم ، وجد صعوبة في ادارة اموره وفي عام ۱۸۲۷ بعد عامين من المنغصات الزوجيـــة والمتاعب العائلية ، اصيب بمرض عقلي وانهيار عصبي وحاول الانتحار بالقاء نفسه في نهر السين ، ونحن مدينون لمنقذ حياته بشيء ما من الخمسة مجلدات في « الفلسفة الايجابية » التي ظهرت ما بين عامي ۱۸۳۰ – ١٨٤٢ والاربعة مجلدات عن السياسة الايجابية التي ظهرت بين عامي ۱۸٥۱ – ١٨٥٤ .

وهي مجلدات تأتي في المرتبة الثانية في مداها وطول اناتها من فلسفة سبنسر، فهو يبوب العلوم تبعا لتدرج مادتها في البساطة والتعميم، الرياضيات، فالفلك فالطبيعة فالكيمياء، فعلم الاحياء، فعلم الاجتماع، وكل واحد من هذه العلوم يرتكز على نتائج العلوم التي قبله، لذلك فقد كان علم الاجتماع رأس العلوم كلها وذروتها، ولا تبرير لوجود العلوم الاخرى الا بمقدار ما تمدنا به من توضيح وشرح لعلم الاجتماع، ويرى كومت ان العلم بمعنى المعرفة اليقينية قد سار من موضوع الى آخر على الترتيب السابق، ومن الطبيعي ان تكون ظاهرة الحياة الاجتماعية المعقدة آخر ما يخضع ويستسلم للطريقة العلمية. ان مؤرخ الفكر يستطيع ان يلحظ في كل ميدان من - ميادين الفكر قانونا ذا مراحل ثلاث: فقد كان الانسان في اول الامر ينظر الى الموضوع من وجهة نظر لاهوتية ويفسر جميع المسائل تفسيرا الهيا، ويعتقد بوجود الله ما وراء جميع المسائل التي لا يستطيع فهمها. مثال ذلك عندما اعتبر النجوم آلهة او عربات للالهة وانتقل بعد ذلك بهذا الموضوع نفسه الى مرحلة الميتافيزيقا، وراح يفسر الاشياء تفسيرا ميتافيزيقيا مجردا، فاعتقد ان النجوم تسير في دوائر، لان الدائرة هي اكمل الاشياء، واخيرا نزل هذا الموضوع الى مرتبة العلم الايجـــابي او اليقيني الذي يقوم على الملاحظة الدقيقة، والفروض، والتجربـــة، واخذ يعلل الظواهر عن طريق قانونية العلة والمعلول. واستسلمت ارادة الله الى ذاتيات وهمية كالمثل العليا عند افلاطون والفكر المطلق عند هجل، واستسلمت هذه بدورها الى قوانين العلم، واعلن «كومت» ان الميتافيزيقا حاجز معطل وموقف للتطور وان الوقت قد حان للتخلي عن هذه الولدنات والسخافات الصبيانية، وان الفلسفة لا تختلف عن العلم، اذ هي تنسيق للعلوم كلها بالنظر الى تحسين الحياة الانسانية.

«ولكن كومت» غير من تعصبه للمذهب العقلي الذي يبدو في فلسفته

الايجابية التي يمكن ان تعكس خيبة امله وانعزاله ، ففي عام ١٨٤٥ استولت مدام « كلوتلدفو » على زمام قلبه وكان قد حكم على زوجها بان يمضي حياته في السجن ، لقد اشعل حبه لها قلبه وادفأ افكاره ولون فلسفته ، وادى الى رد فعل في تفكيره ، فمجد الشعور ووضعه في منزله اسمى من العقل ، واعتبره اقوى من العقل كقوة دافعة للاصلاح ، وانتهى الى ان العالم لا يمكن خلاصه وانتشاله الا بدين جديد يغذي في قلوب الناس محبة الغير الواهنة ويقويها بتمجيد الانسانية واتخاذها دينا جديدا وموضوعا للعبادة . وقد امضى « كومت » ايام كهولته في ابتكار نظام معقد من القساوسة والطقوس الدينية ، والصلوات لهذا الدين الجديد ، دين الانسانية . واقترح تقويماً جديداً استبدل فيه اسماء الالهة الوثنية وقديسي العصور الوسطى بابطال الرقي والتقدم الانساني .

لقد وجدت هذه الحركة الايجابية صدى في مجرى التفكير الانجليزي الذي استمد روحه من الحياة الصناعية والتجارية ، والذي كان ينظر الى الحقائق الواقعة نظرة توقير واحترام ، فقد تحولت فلسفة بيكون بالتفكير الانجليزي في اتجاه الاشياء ، والعقل في اتجاه المادة ، كما ان مذهب هوبز المادي ولوك في مذهبه الاحساسي وهيوم في شكه ، وبنتام في مذهبه النفعي الذي ـ يعتقد بان النفع غاية الفضيلة كانت كلها جوانب الفلسفة عن الحياة العملية ، لقد كان بركلي ـ الايرلندي نشازا في وسط هـــذه السمفونيات الانجليزية الداخلية ، فقد رأى هؤلاء جميعا من قبل ما رآه « كومت » و « سبنسر » من تعريف الفلسفـة بانها تعميم نتائج العلوم كلها ، وهكذا فقد وجدت هذه الفلسفة الايجابية مؤيدين لها في انجلترا اكثر من مما وجدت في مسقط رأسها فرنسا ، ربما كان هؤلاء الاتباع الانجلــيز لهذه الحركة الايجـــابية اقل حماسة وحرارة من حماسة وحرارة ليتري ولكنه حماس مقرون بالولاء والتمسك المعروف عن الانجليز الذي جعل جون ستيوارت مل (١٨٠٦-٧٣) وفردريك هاريسون - (١٨٣١-٩٢٣)

مخلصين وموالين طيلة حياتهم لفلسفة « كومت » .

اخذت الثورة الصناعية في تنشيط العلوم وانعاشهـــا فنزل نيوتن وهرشل بالنجوم الى انجلترا وفتح بويلي ودافي كنوز الكيمياء وقام فارادي بالاكتشافات التي ستكهرب العالم ، وكان راموفود وجول يقومان باثبات امكانية تحويل ومعادلة القوة وصيانة الطاقة . وكان العلم قـــد وصل الى مرحلة من التعقيد ، ولكن علم الاحياء كان قد بلغ من النمو والتطور مكانة اثرت على انجلترا تاثيرا كبيرا وهزتها هزا قويا اكثر من اي شيء اخر في ايام شباب سبنسر ، لقد كان مبدأ التطور هذا دوليا في مداه ، فقد تحدث « كانت » عن امكانية تطور القرد الى انسان ، وكتب « جوته » عن تطور النبات ، وتوسع ارامos وداروں ولامارك في نظرية ان النوع قد تطور من انواع ابسط بوراثة تاثير الاستعمال وعدم الاستعمال . وهز هيلير اوروبا في عام ١٨٣٠ وادخل السرور على قلب جوته الكهل بانتصاره على كوفيي في ذلك النقاش المشهور حول التطور الذي بدا ثورة اخرى على النظريات القائلة بوجود قواعد ثابتة ونظم ثابتة لعالم ثابت لا يتغير .

وفي عام ١٨٣٠ كان التطور يملأ الجو لقد عبر سبنسر عن فكرة التطور في مقال له حول هذا الموضوع «نظرية التطور» في عام (١٨٥٢) قبل دارون بزمن طويل ، وفي كتابه مبادىء علم النفس » في عام (١٨٥٥) وفي عام (١٨٥٨) قام دارون وولاس بنشر أبحاثهما المشهورة في روسيا ، وفي عام (١٨٥٩) اهتز العالم القديم ورجال الدين الافاضل اهتزازا كبيرا بنشر كتاب دارون عن « اصل الانواع » لم يكن هذا الكتاب مجرد عرض لفكرة غامضة عن تطور الانواع العليا من انواع سفلى ، ولكنه جاء مفصلا وحـــافلا بالادلة عن حقيقة عملية التطور بواسطة الانتخاب الطبيعي أوبـــقاء الاجناس المفضلة في تنازع البقاء .

وراح العالم باسره يتحدث عن نظرية التطور طيلة عشرين عاما ، وجاء سبنسر وامتطى صهوة موجـــة نظرية التطور بفضل صفـــاء فكره ، ووضوح عقله ، فتناول فكرة التطور بالتطبيق على كل ميدان من ميادين الدراسة ، وكما سادت الرياضيات على الفلسفة في القرن السابع عشر وانجبت للعالم ديكارت وهوبز وسبينوزا وليبنتز وبسكال ، وكما اخذ علم النفس يسطر الفلسفة في اراء بركلي وهيوم وكوندلاك وكانت ، فقد كان علم الاحياء في القرن التاسع عشر عمـــود الاراء الفلسفية الفقري في اراء شلنج وشوبنهور وسبنسر ونيتشه وبرجسون .

لقد كانت هذه الاراء من انتاج رجال كثيرين ، ولكنها ارتبطت باسم الرجال الذين تناولوهـــا بالتنسيق والترتيب والتنظيم والتوضيح وكما حمل العالم الجديد « امريكا » اسمه من امريقو الذي رسم خريطة هذا العـــالم ، فقد كان هربرت سبنسر امريقو عصر داروين وواضع خريطته وأحد مكتشفيه ايضا .

٢ ـ نشأة سبنسر

ولد في دربي عـــام ١٨٢٠ ولم يكن اجداده لابيه وامه من التابعين او المنشقين ، وكانت جدته لابيه من اتباع جون ويسلي ، وعلى الرغم من ان عمه توماس كان قسيسا انجليكانيا، فقد تزعم حركة لاتباع ويسلي في داخل الكنيسة، ولم يستمع في حياته قط الى جوقة موسيقية او يحضر رواية مسرحية ، واشترك اشتراكا فعالا في حركات سياسية اصلاحية . لقد اشتدت نزعة الالحاد في ابيه ، وبلغت ذروتها فيه نفسه . فقد رفض والده تفسير الامور بالمعجزات وخوارق الطبيعة رفضا باتا ، ووصفه احد معارفه بانه رجل لا دين له ولا ايمان في قلبه ، على الرغم من ان ابنه سبنسر اعتبر هذا القول مبـــالغة في حق والده ، لقد كان ابوه يميل الى العلم وكتب كتابا في الهندسة ، وكان فرديا في السياسة مثل ابنه ، ولم يخلع قبعته لانسان قط مهما كانت منزلته او رتبته، واذا كانت زوجته توجه اليه سؤالا ولا يفهمه ، كان يلوذ بالصمت ولا يسألها عن السؤال ويفضل عدم الاجابة . وقد استمر على هذه ـ الطريقة طيلة حياته على الرغم من عبث موقفه هذا الذي لم يتحسن. ان موقف الوالد هذا يذكرنا بموقف هربرت سبنسر ابنه في الايام الاخيرة من الحكومة ومقاومته لتوسع اعمالها وصلاحياتها

لقد كان والده وعمه وجده لابيه معلمين في مدارس خاصة ، ومع ذلك فقد بقي سبنسر الذي كتب له ان يكون اشهر فيلسوف انجليزي في القرن التاسع

عشر بغير تعليم حتى بلغ الاربعين من عمره، فقد كان كسولا، وكان ابوه مشغولا واخيرا عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره ارسله ابوه الى « هينتون » ليدرس هناك تحت مراقبة عمه الذي كان معروفا بالصرامة والشدة ، ولكن سرعان ما هرب سبنسر من عمه واتجه الى منزل والده في دربي مشيا على الاقدام حيث قطع في اليوم الاول ثمانية واربعين ميلا وفي اليوم الثاني سبعة واربعين ميلا، وفي اليوم الثالث عشرين ميلا مستعينا على ذلك بقليل من الخبز والجعة ، وعلى الرغم من هذه الرحلة الشاقة فقد اعاده والده الى « هينتون » بعد ثلاثة اسابيع فلبث فيها اعواما ثلاثة، كانت الفترة الوحيدة التي تلقى فيها تعليما منظما في حياته، وهو لا يستطيع فيما بعد ان يتذكر المواضيع التي درسها في هذه الاعوام الثلاثة، ويقول في كبرياء واعتزاز انني لم اتلق درسا واحدا في اللغة الانجليزية لا في ايام الطفولة ولا في عهد الشباب ، كما اني لم اتعلم قواعد اللغة حتى هذه الساعة » وفي الاربعين من عمره حاول ان يقرأ الالياذة وهو يقول ولكني شعرت بعدما قرأت منها ما يقرب من الستة فصول بصعوبة مواصلة القراءة وجسامة المهمة التي اخذتها على عاتقي وشعرت انني افضل ان ادفع مبلغا كبيرا من المال على ان اواصل قراءتها حتى نهايتها . ويحدثنا كوليير سكرتيره انه لم يقرأ كتابا واحدا في العلوم الى اخره، وحتى في مواضيعه المحببة وميادينه المفضلة لم يتلق دراسة منظمة، وحتى سن الثلاثين لم تكن لديه فكرة اطلاقا عن الفلسفه ، وبعدئذ قرأ لويس وحاول ان يقرأ « كانت » ولكنه لم يكد يبدأ في قراءته حتى اصطدم بما اعتبره كانت من ان الزمان والمكان صورتان للادراك الحسي وليسا حقيقتين موضوعتين فحكم عليه بالغباء والقى بالكتاب جانبا ، ويخبرنا سكرتيره انه الف كتابه الاول « التوازن الاجتماعي » دون ان يقرأ في موضوع علم الاخلاق الا كتابا قديما ولم يقرأ في الموضوع قبل كتابته الا « هيوم ومنسيل ورايد ، وهكذا كان شأنه في « علم الاحياء » بعد ان قرأ كتابا عن علم وظائف الاعضاء من تأليف

كاربنتر . وكتب كتابه عن علم الاجتماع من غير ان يقرأ كومت « وتيلر » .

وكتابه عن الاخلاق من غير ان يقرأ « كانت » او « مل » او اي عـــالم اخلاقي اخر باستثناء « سيدجويك » ومن هنا يتضح لنافلة ثقافته ومطالعاته بالمقارنة مع ثقافة جون ستيوارت مل ومطالعاتة الواسعة .

فمن اين استمد اذن هذه الالوف من الحقائق التي ساقها في كتاباته ومناقشاته ؟ لقد استمدها من الملاحظة المباشرة اكثر من القراءة . لقد امتاز بشدة الملاحظة وحب الاستطلاع ، وكان يوجه دائما اهتمام رفاقه الى بعض الظواهر الهامة التي لم يرها حتى ذلك الوقت احد سواه . وبعد ان استقر قراره على ما يريد وحدد هدفه ، وبعد ان ركز اهتمامه حول فكرة التطور اصبح دماغه كالمغناطيس في جذب المواد التي لهـــا علاقة بموضوعه ، ثم يبدأ فكره المنظم تنظيما كبيرا ، والذي لم يسبق له مثيل في المقدرة على التنظيم في تبويب هذه المواد بطريقة آلية . ولا عجب ان وجدت كتبه قلوبا واعية واذانا صاغية بين طبقة العمال ورجال الاعمال ووجدوا في عقله عقلا ينسجم مع عقولهم بعيدا عن مطالعة الكتب وبريئا عن الثقافة . ومع ذلك فقد امتاز بالمقدرة على معرفة الحقائق بفضل دراسته وتجاربه العلمية .

كان مضطرا لان يعمل من اجل كسب عيشه وقوت الاعمال التي مارسها تفكيره العملي ، فقد اشتغل مساحا ومشرفا ومخططا للجسور وخطوط سكك الحديد او بصفة عامة فقد كان مهندسا وقد هيأت له هذة الحرفة مجالا واسعا لملاحظاته وتجاربه وكانت له في كل يوم تجارب حديدة ـ واختراعات جديدة ولكنها كثيرا ما كانت تنتهي بالفشل . وكان يعود على مراجعتها بشغف كبير لا يقل عن شغف الوالد لولده العنيد المتشبث برأيه ، ولبث نباتيا في طعامه فترة من الزمن ولكنه عدل عن ذلك عندما رأى صديقا نباتيا له يصاب بفقر الدم

« الانيميا » وقد احس نفسه بضعف في صحته واضطر الى اعادة ما كتبه ايام كان نباتيا ، لافتقار ما كتبه الى القوة . لقد كان يخضع في تلك الايام كل شيء الى التجربة والملاحظة والتفكير الطويل ، وفكر مرة في الهجرة - الى زيلنده الجديدة ، ناسيا ان هذه البلاد الصغيرة لا تحتاج الى فلاسفة ، فاعد كشوفـــا وبيانات وازى فيها الاسباب التي تؤيد هـــذه الرحلة والاسباب التي تعارضها معطيا قيمة عددية للاسباب المؤيدة والمعارضة ، وكان مجموع هذه الارقام المؤيدة لبقائه في انجلترا (١١٠) والتي تؤيد السفر (٣٠١) ومع ذلك فقد بقي في انجلترا ولم يسافر .

ومع ذلك فقد افقدته نظرته الواقعية العملية روح الفن وحماسة الشعر ، وخلت المجلدات العشرون التي وضعها من لمسات الشعر إلا ما ادخله الناشر عليها من وقت لاخر من قصائد شعرية يصف فيها سبنسر نبوءات علمية ، ومما يميزه مقدرته على جمع الادلة لتأييد وجهة نظره . ولكنه كان لا يقدر وجهات نظر الاخرين ، لقد امتاز بصراحـة جريئة مقرونة بشيء من الغطرسة والتشبث برأيه ، ومقاومة شديدة لكل انواع التملق والمداهنة ورفض ان يقبل القاب الشرف التي قدمتها له الحكومة ، وواصل عمله المضني طيلة اربعين عاما قضاها في عزلة معتدلة وضعف مزمن لازم صحته . لقد تركت عزوبته وعزلته اثرا في عواطفه الانسانية وكان يفتقر للحرارة في عواطفه لقد كانت له علاقات مع الكاتبة الانكليزية العظيمة « جورجي اليوت » ولكنها كانت على جانب كبير من الذكاء - ولم تفلح في اسعاده وادخال السرور الى قلبه. لقد كان ينقصه المرح ، وعندما خسر مرة في لعبة البليادرو وهي لعبته المفضلة ، انحى اللوم على من غلبه متهما اياه بانه قد صرف الكثير من وقته في هذه اللعبة فاجادها واصبح خبيرا بها .

وهو يذكر لنا في ترجمة حياته انه كان يقوم باستعراض كتبه السابقة ،

ولا شك ان هذه المهمه اضطرته الى ان ينظر الى الحياة نظرة جدية اكثر مما تستحق ، وعند ما كان في باريس ادهشه ما رأى في الفرنسيين من صبينة وهو يقول انهم لا يتوقفون عن كونهم صبياناً ويقول لقد رأيت رجالا ونساء ، ابيضت رؤوسهم بالشيب يركبون على الفريرات والمراجيح تماماً كما يفعل الصغار في معارضنا وملاعبنا . وكان مشغولا كثيراً في تحليل الحياة ووصفها حتى لم يبق له من الوقت مـا يعيش فيه . وعندما شاهد شلالات نياجرا ذكر في مفكرته انه رأى فيها اكثر مما كان يتوقع ، وكانت لـه مقدرة على وصف الامور العادية بحذلقة كبيرة ، ومن ابرز صفاته مقدرة منطقية كبيرة فقد كان قادراً على تنظيم استدلالاته بدقة لاعب الشطرنج . وهو اقدر من عرفهم التاريخ الحديث في توضيح وتبسيط اكثر الموضوعات تعقيداً ، فقد كتب في اعوص المشاكل واشدها تعقيداً ، واكثرها صعوبة ، في وضوح وصفاء ـ ونورانية جعلت العالم باسره مدى جيل كامل يتمشق الفلسفة ويقبل عليها . وهو يشير الى مقدرته العجيبة في عرض الموضوعات وتنسيقها فيقول « لدى مقدرة عجيبة على العرض واستطيع ان اعرض وابين معلوماتي وتفكيري ونتائجي بوضوح وتماسك غير مألوف . » وهو مولع بالتعميمات الفسيحة كما اضفت نظرياته على انتاجه متعة اكثر من ادلته وبراهينه .

وعندما كان يقوم بتنقيح مقالاته في عام ١٨٥٨ ، تمهيداً لنشرهـا ، راعه فيها وحدة التفكير ، وتسلسله ولمعت في رأسه فكرة مشرقـة كما يلمع ضوء الشمس المشرقـة على زجاج نوافذ البيوت وابوابها ، وهي احتمال تطبيق نظرية التطور على جميع العلوم كما امكن تطبيقها على علم الاحيـاء ، وانها لا

تقتصر على تفسير الانواع والاجناس ولكنها تتناول بالتفسير الكواكب والطبقات والتاريخ الاجتماعي والسياسي والنظريات الاخلاقية وفن الذوق والجمال . وما لبث ان اندفع بحماس شديد لوضع سلسلة من الكتب يبين فيها تطور المادة والعقل من السديم الى الانسان ومن الوحش الضاري الى شكسبير . ولكنه يئس من مواصلة السير في هذا العمل بعد ان وجد نفسه قد قارب الاربعين من عمره ، اذ كيف يمكن لانسان في عمره ان يستعرض ما وعته الانسانية من معرفة قبل ان يتداركه الموت .

لقد كان فقيرا ومع ذلك لم يطل التفكير في كسب عيشه ، اشتغل محرراً في مجلة الايكونومست ولكنه استقال من تحريرها بعد ان تلقى مبلغ الفين وخمسمائة جنيه اوصى له عمه بها . ولكنه ما لبث ان بدد هذا المبلغ وفكر في جمع اشتراكات مقدمة عن كتبه التي اعتزم اصدارها ، وقد نجح في جمع اربعمئة واربعين اشتراكا من اوروبا ، ومئتي اشتراك من امريكا ، بلغ مجموعها الفاً وخمسمئة جنيه في السنة ، وشعر بالرضى وباشر عمله بعزم وتصميم ولكن الكثيرين من هؤلاء المشتركين قاموا بسحب اشتراكاتهم بعد ان نشر كتابه « المبادىء الاولى » عام ١٨٦٢ » وذلك بسبب ما جاء في الجزء الاول من الكتاب اذ حاول التوفيق بين العلم والدين ، فهاجم الدين والعلماء على السواء ، واصبح كتاب « المبادىء الاولى » وكتاب » اصل الانواع ميداناً لمعركة عنيفة بين الكتاب قام فيها هكسلي بدور الجنرال في الدفاع عن القوات الداروينية واللاادرية « مذهب اللا ادرية القائل بعدم كفاية العقل لفهم الوحي الالاهي » ونشر في هذه المعركة سيلا دافقا من الكتب ، وابتعد الناس الافاضل من ذوي المكانة المحترمة عن انصار التطور واتهموهم بالخروج عن قواعد الاخلاق . وتطوع الناس لعمل الخير في مهاجمتهم علانية ، وانخفض عدد المشتركين في كتب سبنسر وتحمل هذه الخسارة وواصل النشر دافعا من

جيبه العجز في كل طبعة الى ان نفـذ ماله وانهارت شجاعته ، واعلن لبقية المشتركين عن عجزه في مواصلة عمله .

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، ووقع ما لم يقع في تاريـخ الفكر من تشجيـع وتقدير للنبوغ والموهبة وتقدم جون ستيوارت مل اعظم منافس لسبنسر والذي احتل مكان الصدارة في الفلسفة الانجليزية قبل ان يقوم سبنسر بنشر كتابه ، المبادىء الاولى ، والذي احس بعد نشر هذا الكتاب بان سبنسر فيلسوف التطور قد طغى عليه وحل محله فارسل الى سبنسر بالرسالة التالية في الرابـع من شهر فبراير عام ١٨٦٦ .

سيدي العزيز ،

عندما وصلت الى هنا في الاسبوع الماضي ، وتصفحت عدد شهر ديسمبر من سلسلة كتابك في علم الاحياء ، ولست بحاجة الى التعبير عن اسفي الشديد لدى رؤية الاعلان في الصحيفة المرفقة بالعـــدد ، من رأيي ان تواصل نشر رسائلك القادمة وساتعهد بدفع قيمة الخسارة الى الناشر ، وارجو الا تعتـــبر اقتراحي هذا مساعدة شخصية لك ، وحتى لو كان كذلك فلا زلت ارجو ان تسمح لي بالتقدم به ، ولكن لاشيء من هذا القبيل ، بل هو اقتراح للتعاون على غاية هامة عامة وهبت من اجل تحقيقها عملك وصحتك .

صديقك المخلص
جون ستيوراث مل ،

ولكن سبنسر رفض بلباقة ودماثة هذا العرض ، فاتجـــه «مل» الى اصدقائه واقنع كثيرا منهم على ان يشترك كل واحد منهم في مئتين وخمســين نسخة ورفض سبنسر مرة ثانية ، ولم يتزعزع في رفضه ، وصله خطـــاب من الاستاذ يومانز يقول فيه ، ان المعجبين الامريكيين بفلسفته قد اشتروا باسمه

اسهما قيمتها سبعة الاف دولار وان ريعها سيرسل له ، واستسلم لهذا العرض في هذه المرة ، فقد جددت هذه الهبة الهامة وحماسه واستــأنف مهمته ، وربط كتفيه في عربة العمل طيلة اربعين عاما ، الى ان وصلت فلسفتــه التركيبية بامانة الى دار الطباعة والنشر ، ان انتصار العقــل والارادة على المرض والوف العقبات هو احدى النقاط المشرقة في سجل تاريخ الانسان .

٣ ـ المباديء الاولى

١ – الحقيقة المغلقة

يقول سبنسر في مطلع كتابه (المباديء الاولى) اننا ننسى غالبا ان في الشر روحاً من الخير وان في الخطأ روحا من الحقيقة لذلك فهو يرى ان نقوم بفحص الاراء الدينية واضعين نصب اعيننا البحث عن جوهر الحقيقـــة وراء الصورة المتغيرة في كثير من الديانات . هذه الحقيقة التي اضفت على الدين قوته الملحة على روح الانسان .

وهو يرى ان كل نظرية عن اصل الكون تسوقنا الى امور لا يدركهـا العقل ويقف حيالها عاجزا لايستطيـع ان يفهم عنها شيئا ، فالملحد الذي ينكر وجود الله يحاول ان يفكر في عالم قائم بذاته ، لم ينشأ عن علة وليس له بداية ، ولكننا لايمكننا ان ندرك او نتصور شيئا لابداية ولا علة له ، اما معلم اللاهوت او رجل الدين الذي يقول ان الله خلق العالم ، فانه يترك المشكلة بلا تفسير بل يؤخرها خطوة الى الوراء ، ويرد عليه السؤال الذي لا يتوانى الطفـــل عن سؤاله ، ولكن من اوجد الله ، وجميـــع الآراء الدينية نعجز عن فهمها فهما منطقيا .

ويقف على قدم المساواة مع الديانات في هذا الموضوع جميع الاراء العلمية ، فهي كلها وراء الادراك العقلي .

ما هي المادة ؟ لقد قسمناها الى ذرات ، ووجدنا انفسنا بعد ذلك مضطرين الى تقسيم الذرة الى ذريرات ، ثم الى اخرى ادق ، وهذا يسوقنا الى المضلة بان المادة قابلة للتجزئه الى ما لا نهاية له من الاجزاء ، وهو امر من الصعب ادراكه وتصوره وقبوله . وان هناك حدا يقف عنده التقسيم وهو امر من الصعب ادراكه ايضا .

وعندما نحلل المادة لا نجد شيئا في النهاية سوى قوة ، ومن سيخبرنا ما هي القوة ؟ وفي التحول من العلوم الطبيعية الى علم النفس نأتي الى العقل والشعور ، وهنا نصادف الغـــازا ـ اشد حيرة من سابقتها . عندئذ تكون الآراء العلمية النهائية تقديما لحقائق لا يمكن ادراكها... فان البحث العلمي في جميع الاتجاهات ينتهي في مواجهة الغاز واحـــاجي لا يمكن حلها فالعلم يعرف بسرعة مدى عظمة وتفاهة العقل الانساني .. وقوته في تناول كل ما يدخل في نطاق التجربة وعجزه عن تناول ما يخرج عن نطاق التجربة ويتجاوزها ، وهو يعرف تمـاما انه لا يمكن معرفه حقيقة طبيعة الاشياء النهائية . وان الفلسفة الامينة الوحيدة كما يقول هكسلي هي الفلسفة اللاادرية .

والسبب الرئيسي العام لهذا الغموض هو نسبية جميع انواع المعرفة . اذ ان التفكير امر نسبي ، وليس هناك فكرة يمكنها التعبير عن اكثر من نسب تقريبية ... فقد اعد العقل البشري لكي يفهم ظواهر الاشياء ، وعندما نحاول استخدام هذا العقل في فهم ما وراء الظواهر فاننا نزج انفسنا في عبث ـ لا طائل تحته . ومع ذلك فان هذه الظواهر والامور النسبية التي يدركهـــا العقل ولا يستطيع ان يتجاوزهـا تدل بطبيعتها واسمها على وجود شيء وراءها ، وهو شيء نهائي ومطلق . « عندما نرقب افكارنا نرى كيف ان المستحيل التخلص من الشعور بوجود حقيقة كامنة وراء الظواهر . وكيف يترتب من هذه الاستحالة ايماننا القوي الذي لا يتزعزع في وجود هذه الحقيقة » ولكن ما هي هذه الحقيقة ؟لا نستطيع ان نعرف .

وعلى هذا الاساس من وجهة النظر يصبح التوفيق بين العلم والدين امرا هينا وميسورا « الحقيقة عادة تقع في تنسيق الاراء المتخاصمة المخالفة .. » فليعترف العلم بان قوانينه تنطبق على الظواهر والامور النسبية فقط . وليعترف الدين ان لاهوته خرافة لتبرير ايمان يتنافى مع العقل . وليتوقف الدين عن تصوير الله بشكل انسان عظيم ، والاسوأ في تصويره بالقسوة والغدر والتعطش لسفك الدماء ومحبة النفاق والرياء من الناس . وليتوقف العلم عن انكار وجود الله ، او التسليم بالمادية على اساس انها قضية مسلمة . ان كلا العقل والمادة ظواهر نسبية ، وهما معلول مزدوج لعلة نهائية ينبغي ان تظل طبيعتها مجهولة .. ان الاعتراف بهذه القوة الغامضة هو جوهر الحقيقة في كل دين ، وبداية الفلسفة .

٢ ـ التطور

وبعد ان اشرنا الى هذا المجهول او الحقيقة الغامضة المبهمة ، لا يسع الفلسفة اي العقل ، الا ان تعترف بعجزها عن ادراك هذه الحقيقة الكامنة وراء ظواهر الاشياء . وان تدير وجهها الى ما يمكن ادراكه ومعرفته . لان الميتافيزيقا او البحث فيما وراء الطبيعة سراب خادع . وافضل ميدان تعمل فيه الفلسفة هو في تلخيص وتوحيد نتائج العلم . ان تمام هذا التوحيد يحتاج الى قانون عام يشمل جميع التجارب ، ويصف المعالم الرئيسية لجميع انواع المعرفة ، هل هناك قانون من هذا النوع ؟

قد نقترب من هذا القانون بمحاولة توحيد اعلى التعميمات في العلوم الطبيعية . وهي عدم تلاشي المادة او فنائها ، وبقاء الطاقة ، واستمرار الحركة ، وثبات العلاقات بين القوى (حرمة القانون الطبيعي) وامكانية التحويل والمساواة للقوى (حق القوى العقلية والطبيعية) واتزان او نظم الحركة . ان هذا التعميم الاخير الذي لم يعترف به عـادة يحتاج الى الاشارة اليه فقط . ان الطبيعة كلها موزونة او منظومة ، من خفقان الحرارة الى اهتزاز اوتار الكمان ، من تموجات الضوء والحرارة والصوت الى حركة المد والجزر في البحار ، ومن تعاقب الجنس الى دوران الكواكب والمذنبات والنجوم ، ومن تعاقب الليل والنهار الى تعاقب الفصول ، وربما الى اتزان التغييرات المناخية ، ومن تذبذب الذرة ، الى نشأة وسقوط الشعوب والامم ومولد وفناء النجوم .

وترد جميع هذه القوانين عن الاشياء المعلومة لنا الى قانون نهـائي للقوة الثابتة . ولكن هذا القانون يحوطه الجمود والسكون ، وهو لا يشـير الى سر الحياة ، ما هو القانون المؤثر في الحقيقة ؟ وما هو قانون النمو والانحلال لجميع الاشياء ؟ اذ يجب ان يكون هذا القانون قانون تطور وانحلال . اذ ان التاريخ الكلي لجميع الاشياء هو ظهورها من بدء مجهول غير مدرك ، واختفـاؤها في مجهول غير مدرك . وهكذا يقدم لنا سبنسر قانونه المشهور عن التطـور الذي شرحه فيعشرة مجلدات استغرقت اربعين عاماً . يقول سبنسر ان «التطور تجمع لاجزاء المادة يلازمه تشتيت او تبديد للحركة ، تنتقل المادة خلاله من حـالة التجانس المنقطع غير المحدود الى حالة التباين المتلاصق المحدود .» ما معنى هذه العبارة ؟ ان معناها هو .

ان تجمع المادة يتضح في تكوين الكواكب من السديم ، وتشكيـل البحار والمحيطات والجبال على الارض ، وتطور القلب في الجنين واتحاد العظام بعد الولادة ، وتوحيد الاحساسات والذكريات الى معرفة وفكر ، ومن معرفة الى علم وفلسفة . وتطور العائلات والاسر الى قبائل ومدن ودول واحـلاف « واتحاد العالم » هذا هو تجمع المادة . كل هذه امثلة لتجمع اجزاء الاشيـاء المنفصلة في كتل وجماعات وكل . ان هذا التجمع طبعا يلازمه تحديد وتقليل في حركة الاجزاء ، تماما كما يحد تطور الدولة من حرية الفرد فيها . ولكن تجمع الاجزاء هذا يقدم للاجـزاء اعتمادا متبادلا ، ونسيجا من العلاقات الوقائيـة التي تشكل التصاقا وتنمي تضامنا واتحادا مشتركا من اجل البقاء . كما ان عملية التجمع هذه تحدث تحديداً اكبر في شكل الاجزاء وعملهـا . فالسديم لاشكل له ومع ذلك فقد تكون منه نظام الكواكب الاهليلجي البيضاوي ، وخطوط سلاسل الجبال الحادة الى اخر ما هنالك . هذا بالاضافة الى ان

أجزاء هذا الكل المتجمع تصبح متنافرة ومتباينة في طبيعتها وعملها . فقد كان السديم الاول مركبا من مادة متجانسة يشبه بعضهابعضا ، ولكنها سرعان ما تنوعت الى غازات وسوائل واجسام صلبة ، فـــاصبحت الارض خضراء تكسوها الاعشاب ، او بيضاء كما في قمم الجبال او زرقاء في تجمع البحـــار ، انظر الى الجبلة الاولى (البروتوبلازما) المتجانسة نسبيا وما سينشأ عنهـــا من مختلف اعضاء الغذاء والتناسل والافراز والادراك . واللغة الواحدة البسيطةالتي تملأ قارات باسرها باللهجات الكثيرة المتزايدة . والعلم الواحد الذي يتفرع عنه مئة علم . والاساطير الشعبية لشعب من الشعوب كيفتنمو وتزدهر الى الوف الانواع من الفن الادبي .

تنمو الشخصية ، وتتطور كل امة وشعب بنبوغها الخاص بهـا ، تجمـع وتباين ، وتجمع الاجزاء في كل اكبر فاكبر ، وتنـــوع الاجزاء الى اشـكال مختلفة اكثر . هذه هي امثلة دورة التطور ، كل شيء يمر من الانتشـــار الى الى التجمع والوحدة ، ومن بساطة التجانس الى تعقيد التباين ، يسير في مجرى التطور . وكل شيء يعود من التجمع الى الانتشار ، ومن التعقيد الى البساطة ، فهو يسير في تيار الانحلال .

ولكن سبنسر لايقنع بهذا القانون التركيبي ويحاول ان يظهر كيف يتبـع هذا ضرورة لا مفر منها ناجمة عن عملية القوى الآلية الطبيعية . حيث يوجد ، اولا عدم استقرار معين في المتجانس ، اذ ان الاشيـاء المتجانسـة او المتشابهة لا يمكنها ان تبقى متجـــانسة ، لانها خاضعة الى قوى خارجيـــة ، وسرعان ما تتعرض الاجزاء الخارجية في المتجانس الى الهجـــوم كما تتعرض المدن الساحلية الى الهجوم في ايام الحرب . وكما تفرق الاعمال المختلفة الرجال

المتشابهين الى مئات الحرف والاعمال . هذا بالاضافة الى « تعدد النتائج » اذ قد ينتج عن السبب الواحد او الباعث الواحد نتائج مختلفة تساعد على ايجادخلاف في العالم . وهناك قانون التفرقة او ان شئت قانون « التمييز العنصري» حيث تطرد اجزاء الكل المتجانس النسبي الى مناطق منفصلة مختلفة ، تؤثر عليهـــا البيئات المختلفة وتشكل منها انتاجا مختلفا ، كما اصبح الانجليز اميريكيين او كنديين او استراليين وفقا للمكان . هذه هي الطرق التي تبني فيهاقوة الطبيعة اشكال هذا العالم المتطور .

هذه هي الحياة تجمع وتفرق ، تـآلف وتنـــافر ، تأتلف الاجزاء وتتجمع في وحدة لاتزال تطرد في النمو ، حتى يدركها تنافر الاجزاء ثم يشتد هذا التنافر ، ويشتد حتى تتلاشى وتنحل .

واخيرا يأتي التوازن الذي لا بد عنه ولا مفر منه ، فكل حركة تعاني من المقاومة مايؤدي بها الى الانتهاء ان عاجلا او آجلا . ويضيق فلك الكواكب السيارة شيئا فشيئا ، وتقل حرارة الشمس وضوؤها كلما تقادم عليها الزمان ، ومرت بها السنين ، وتبطيء الدماء في عروقنا ويصيبها البرود ، ويتحـــول التوازن بسرعة الى انحلال ، وهو خاتمـة التطور التعس . فتنحـل المجتمعـــات وتتفرق الشعوب ، وتتلاشي المدن ، وتتحول الى بقاع مظلمة لحياة الفلاحـــة والزراعة ، وتعجز الحكومات عن جمع هذه الاجـزاء المبعـثرة من الشعب . وينسى الناس النظام الاجتماعي ، كما ان الوحدة في الفرد ايضا ستتحول الى تمزق وتفسخ ، وينتهي ذلك التناسق وهو الحياة الى تفشي الفســـاد وهو الموت ، وستتحول الارض الى مسرح من الفوضى والدمار والفساد وتنتهي الى الســـديم والغبار الذي اتت منه . وبذلك تصبح دورة التطور والانحلال دورة تامـة ، ولكن ستبدأ هذه الدورة من جديد مرة ثانية ، وثالثة الى ما لانهاية له من هذه

الدورات التي تبدأ بالتطور وتنتهي بالانحلال ، وكل مولد جديد فاتحه الى الفناء والموت .

هذا هو كتاب « المبادىء الاولى » مأساة مروعة ، تروى لنافصة العالم في صعود وهبوط وتطور وانحلال الكواكب والحياة والانسان ، لاغرابة اذن ان يثور الرجال والنساء الذين يعيشون على الايمان والأمل على هذا الكتـــاب الذي اوجز لهم باختصار قصة الوجود انا نعرف بان مصـيرنا المـــوت وان الموت مكتوب على الجميع ، ولكننا نترك التفكير في الموت لشأنه ، ونفضل ان نفكر في الحياة . لقد اقترب سبنسر من « شوبنهور » كثيرا في اعتقاده بعبث الجهود الانسانية ، فقد ارتأى في اواخر ايام انتصاره بان الحياة تافهة حقيرة ، لاتستحق الحياة فيها ، فاصابه بذلك ما اصاب الفلاسفة من مرض النظرالبعيد ، حيث مرت جميع مسرات الحياة والوانها واشكالها الممتعة من تحت انفه من غير ان يرها .

٤ ـ علم الاحياء ، تطور الحياة

يبدأ سبنسر كتابه عن تطور الحياة بتعريف الحياة نفسها بانها التوفيق المستمر بين الكائن الحي وبيئته ، ويتوقف كمالها على كمال هـــذا التوفيق ، وتكون الحياة كاملة عندما يكون التوفيق كاملا . ان ما يميز الحياة هو توفيق العلاقات الداخلية ، لدى توقع تغيير في العلاقات الخارجية ، كما يحدث عندما يجثم الحيوان محاولا ان يتجنب ضربة ستنزل به ، او يشعل الانسان النار ليسخن طعامه . ان عيب تعريف سبنسر للحياة يكمن لا في تجاهله فعالية اعـــادة التكوين في الكائن الحي على البيئة فحسب ولكن في فشل هذا التعريف تفسير القوة التي تمكن الكائن الحي من القيام بهذا التوفيق .

وكما يرى سبنسر في حياة الفرد بانها توفيق العلاقات الداخلية للعلاقات الخارجية ، فهو يرى في حياة النوع توفيقا عجيباً بين خصوبة التناسل وحالات الموطن او البيئة . اذ يرتفع التناسل في الاصل لاعادة التوفيق بين مكان الغذاء والكتلة المتغذية . فان نمو الحييوين ذو الخلية الواحدة مثلا ، يشمـــل زيادة في الكتلة اكثر سرعة من الزيادة في المكان الذي تغتذي منه هذه الكتلة الزائدة . ويشترك في هذا الانقسام الذاتي في الحييوين ذي الخلية الواحدة الذي يتـــوالد

بالانقسام الذاتي ، التفريخ والتناسل الجنسي . وهو تقليل نسبة الزيادة في الكتلة بالنسبة الى مكان التغذية . لأن نمو الكائن الحي وراء نقطة معينة يشكل خطرا ، وبذلك يتجه النمو الى التناسل .

ولذا فان النمو يختلف عكسيا مع نسبة انفاق النشاط والحيوية . كما ان نسبة التناسل تختلف عكسياً مع درجة النمو . من المعروف لمولدي الحيوانات ومربيها انه لو ترك للمهرة الصغيرة ان تحمل مهرا « تحبل » فان هذا الحمل سيحول دون بلوغها حجمها الطبيعي . كما ان الحيوانات المخصية كالديوك والخراف المخصية وخصوصا القطط يزيد حجمها اكثر من امثالها غير المخصية . كما ان نسبة التناسل تهبط بتقدم مقدرة الفرد . وعندما تكون مقدرة الحيوان على مقابلة الاخطار قليلة ، تكثر عنده خصوبة التناسل لتعويض الموت في هذا الحيوان ، وإلاّ تعرض هذا النوع من الحيوان الى الفناء والانقراض . وعلى العكس عندما يكون الحيوان قادراً مقدرة كبيرة على صيانة نفسه ، تكون الحاجة الى التناسل اقل ، خوفا من ان تزيد نسبة التكاثر في هذا الحيوان عن كمية الطعام . وعلى العموم هنالك تعارض بين الفردية والتناسل ، او بين تطور الفرد والخصب ، وهذه القاعدة تسري على الجماعات والنوع بانتظام اكثر من الافراد ، اذ كلما زاد تطور ورقي النوع او الجماعة ، كلما قلت نسبة التوالد بينها ولكنها تسرى على الافراد ايضا . اذ انه كلما ارتقى الفرد في عقله وذكائه كلما قل نسله ، فاننا نجد خصبا في التناسل نجد بلادة في العقل . وحيثما يزيد نشاط العقل اثناء التعليم يتبع ذلك ضعف تام ، او جزئي في الخصب التناسلي ، (المعروف عن الفلاسفة تهربهم من الزواج) كما ان اقتراب النساء من الامومة يخفف من نشاطهن العقلي .

على الرغم من هذا التوفيق التقريبي بين نسبة التوالد وحاجة بقاء النوع، فان هذا التوفيق لم يكن تاما ابدا ، وكان « ملثوس» على صواب عندما دعا الى ضبط النسل بسبب زيادة السكان على مواد الغذاء . لقد كان ضغط السكان الناجم عن زيادتهم منذ البدايه السبب المباشر للتقدم ، فقد ادى الى انتشار الجنس وارغم الناس على التخلي عن حياة السلب والنهب والغزو والاتجاه الى حياة الزراعة . كما ادى الى تنمية سطح الارض وارغم الناس على حياة الاجتماع ... وتطور الحياة الاجتماعية والمشاعر الاجتماعية وتحسين الانتاج ، وزيادة المهارة والذكاء ، وهو العامل الفعال وراء التنازع على البقاء الذي يحمل الحياة للاصلح ويرفع مستوى الجنس .

٥ ـ علم النفس : تطور العقل

ان الكتابين اللذين اصدرهما سبنسر عام ١٨٧٣ عن « مبادىء علم النفس » هما اضعف الحلقات في سلسلة مؤلفاته . لقد كتب كتابا سابقا في نفس الموضوع عام ١٨٥٥ ، دافع فيه دفاعا عنيفا عن المادية والجبرية ، وهنا في هذين الكتابين يفرط « سبنسر » في النظريات ولكنه لايسوق من البراهين التي تؤيد هذه النظريات الا قليلا ، فهو غني في النظريات فقير في الادلة . ومن النظريات التي اوردها في هذين الكتابين ، نظرية عن اصل الاعصاب ونشأتها من نسيج تصل الخلايا اجزاءه ، ونظرية في ان اصل الغرائز انعكاسات متراكمة وتحويل السلوك المكتسب من الاسلاف للاخلاف . ورأى بانه على الرغم من امكان تغير صور الاشياء في الادراك الحسي بحيث تكون شيئا يخالف حقيقتها ، الا ان لها وجودا خاصا مستقلا عن ادراكنا اياها ، ومئات غير هذه من النظريات الغامضة التي تقترب من الميتافيزيقا منها الى البحث عن الامر الواقع ، وفي هذين المجلدين فاننا نترك انجلترا المعروفة بنزعتها الواقعية ونعود الى طريقة « كانت » في البحث .

ولكن الذي يسترعي انتباهنا ويستلفت انظارنا فوراً ، هو ان نجد لاول مرة في تاريخ علم النفس ، باحثا يقدم لنا وجهة نظر تطورية ، ومحاولة

لتفسير التناسل ، ومجهودا فائقا في تعقب تعقيدات الفكر المحيرة وارجاعها الى عمليات عصبية بسيطة ، ثم الى حركة بين اجزاء المادة . حقا بان مجهوده هذا قد انتهى بالفشل ولكن من ذا الذي كتب له النجاح في مثل هذه المحاولة ؟ لقد بدأ في وضع برنامج عظيم للكشف عن عملية تطور الادراك ، واجبر في النهاية على وضع الادراك في كل مكان ، ليبحث في تطوره . وهو يصر على ان عملية تطورية واحدة مستمرة تناولت الكون من السديم الى العقل ، واخيرا يعترف ان المادة لاتعرف الا عن طريق العقل فقط . ومع ذلك فان العقل قد تطور ، فتطورت طرائق استجابته للبواعث الخارجية من صور بسيطة الى اخرى معقدة ، من الانعكاس الى الميل الى الغريزة ، ثم الى الذاكرة والخيال الى الذكاء والعقل . اذا استطاع القارىء ان يطلع على هذا الكتاب الذي يتألف من الف واربعمائة صفحة من التحليلات السيكولوجية والفسيولوجية فانه سيسوده شعور قوي بتسلسل الحياة والعقل . وسيرى تكوين الاعصاب، وتطور الانعكاسات والغرائز ، وانتاج الادراك والفكر عن طريق اصطدام البواعث المتصارعة . ويقول « سبنسر » ان ليس هنالك فارق بين الغريزة والعقل ، فكلاهما يعمل على الملائمة بين حالة الكائن الباطنية ، وبين الظروف الخارجية . وكل الفرق بينهما هو فرق في الدرجة ، فالغرائز تنظم العلاقات البسيطة نوعا ما، اما العقل فيستجيب للمواقف المعقدة . فليس العمل العقلي الا اجابة غريزية كتب لها البقاء بعد صراع نشب بينها وبين اجابات غريزية اخرى ، وذلك لصلاحها ، هي بالنسبة الى الاجابات الاخرى التي اثارها الموقف . فالعقل والغريزة في صميمها شيء واحد ، والعقل والحياة شيء واحد .

اما الارادة ، فهي اصطلاح مجرد نطلقه على مجموع الدوافع التي تدفعنا الى العمل . وهي في حقيقة الامر فكرة تحولت الى عمل ولم تجد ما يعوقها دون

ذلك ، فالفكرة هي المرحلة الاولى للعمل والعمل هو المرحلة الثانية للفكرة . كما ان الحركة هي المرحلة الاولى للعمل الغريزي ، وتعبير الحركة هو البداية المفيدة للاجابة التامة .

اما صور الفكر مثل ادراك الزمان والمكان وفكرتي الكمية والسبب التي افترض « كانت » انها فطرية ، فما هي الا طرائق غريزية للتفكير ، ولما كانت الغرائز عادات اكتسبها الجنس، ولكنها ذاتية وخلقية بالنسبة الى الفرد، لذلك فان هذه الصور الفكرية عادات عقلية اكتسبها الانسان ببطء على مدى تطور الزمان . واصبحت الان جزءا من تراثنا العقلي .

ان هذه الافتراضات الشاملة التي اثارها سبنسر هي التي اثارت التساؤل في ما جاء في هذين الكتابين ، وجعلت منهما عبثا .

٦ ـ علم الاجتماع : تطور المجتمع

يختلف حكمنا هنا في علم الاجتماع عن حكمنا على «سبنسر» في علم النفس فان هذه المجلدات الفنية التي وضعها في علم الاجتماع تعتبر اروع انتاجه . لقد استغرق في كتابتها ما يزيد عن العشرين سنة ، وبحث فيها موضوعه المفضل . وهي تظهر عظمته في الفلسفة السياسية . لقد اظهر اهتماما بالغا في مشاكل الاقتصاد والحكومة . وهو يبدأها مثل افلاطون في التحدث عن الاخلاق والعدالة السياسية . لم يقدم احد لعلم الاجتماع ما قدمه «سبنسر» وحتى « كومت» مؤسس هذا العلم لايباريه في ذلك .

وهو يدعو في مقدمة بحثه الذي اطلق عليه اسم «دراسة علم الاجتماع » الى الاعتراف والتطور بهذا العلم الجديد . فاذا كانت الجبرية صحيحة في علم النفس ، ينبغي ان يكون هنالك نظام من العلة والمعلول في الظواهر الاجتماعية . ان من يدرس الانسان والمجتمع سوف لايقنع بمجرد ترتيب الوقائع التاريخية ، او تاريخ حياة الانسان ، ولكنه سيبحث في تاريخ الانسانية عن خطوط التطور العام ، والسياق السببي والروابط التي تحول الحقائق المحيرة الى علم . لا شك ان هناك الوف العقبات التي ينبغي على دراسة الاجتماع التغلب عليها قبل

ان يصل الاجتماع الى مرتبة العلم . ان دراسة الاجتماع اليافعة لا زالت تعاني الكثير من التحيز والمحاباة الشخصية والثقافية، والدينية والاقتصادية والسياسيه والقومية ، واللاهوتية . هناك قصة تحدثنا عن رجل فرنسي رحل الى انكلترا ، وبعد اقامة ثلاثة اسابيع فكر في ان يضع كتاباً عن انكلترا ، واعتقد ان هذه المدة لا تمكنه من الكتابة عنها . ولكنه بعد ثلاثة شهور شعر بانه ليس على استعداد بعد لوضع الكتاب ، وآثر التريث لمواصلة دراسة البلاد . وبعد انقضاء ثلاث سنوات شعر بعجزه وأيقن انه لا يعرف عن البلاد شيئاً . ان الناس ينفقون الشطر الاعظم من حياتهم قبل ان يصبحوا حجة في الكيمياء اوالفيزياء او علم الاحياء ، اما في العلوم الاجتماعية والسياسية فان كل صبي حلاق او بقال يعتبر نفسه حجة ومرجعاً يعرف كل حل لكل مطلب وحاجة في هذا العالم .

لقد اعد سبنسر نفسه لهذه المهمة الشاقه العسيرة اعداداً مثالياً ، يتناسب مع ضمير العالم المثقف . واستخدم ثلاثة مساعدين لجمع المعلومات له ، وتنظيمها وتبويبها في اعمدة تتناول النظم الداخلية والدينية والمهنية والسياسية والصناعية للامم . ونشر على نفقته الخاصة هذه المجموعة من المعلومات في ثمانية مجلدات كبيرة، ليتمكن الطلاب الآخرون من مراجعة النتائج التي وصل اليها وتحويرها . ولكن الموت اختطفه قبل ان يتم نشرها جميعها ، وترك القليل من المال الذي وفره لاتمام المشروع . وظهر المجلد الاول لعلم الاجتماع في عام ١٨٧٦ ، ولم يتم اعداد الاخير من هذه المجلدات حتى عام ١٨٩٦ .

يعتقد « سبنسر » ان المجتمع كائن عضوي ، له اعضاء للتغذية ، وله دورة دموية ، وفيه تعاون بين الاعضاء كما له تناسل وافراز تماماً مثل الافراد .

حقاً ان الادراك في الفرد محلي ، بينما كل جزء في المجتمع يحتفظ بادراكه الخاص وارادته الخاصة . ولكن تركيز الحكومة والسلطة يميل الى الخفض من مدى هذا الفرق . والمجتمع كالفرد في هذه الميزات الضرورية ، فهو ينمو وكلما

ازداد نمواً اشتد تعقداً ، وكلما تعقد ازدادت اجزاؤه استقلالا ، وحياة المجتمع طويلة جداً بالنسبة الى حياة اجزائه التي يتألف منها . والمجتمع كالفرد يعتريه زيادة في التجمع مقرونة بزيادة من التباين . وهكذا فان تطور المجتمع يسير على قانون التطور ، فنمو الوحدة السياسية من الاسرة الى الدولة الى عصبة الامم ، ونمو الوحدة الاقتصادية من الصناعة المحلية الصغيرة الى الاحتكار ونقابات الانتاج ، ونمو وحدة السكان من القرى الى البلدان الصغيرة الى المدن ، كل هذا بالتأكيد يظهر لنا عملية التجمع والتكتل . بينما نرى من جهة اخرى ان تقسيم العمل وتعدد المهن والصناعات ، والتجارة وزيادة اعتماد الاقتصاد على التبادل بين المدن والارياف وبين امة واخرى يوضح لنا التطور بشطريه من تجمع الى تباين .

ان مبدأ تجمع المتنافر ينطبق على كل جانب من جوانب المظـــاهر الاجتماعية ، من الدين والحكومة الى العلم والفن . فقد كان الدين اول الامر عبادة طائفه من الآلهة والارواح ، المتشابهة قليلا او كثيراً في كل امة .

وتطور الدين الى فكرة اله مركزي قوي قادر على كل شيء ، اتبع بقية الآلهة له ونسق اعمالها ، وصلاحياتها . لقد اوحت الاحلام والاشباح على ما يحتمل الى تصور اول الآلهة . ولا زالت كلمة روح تستخدم في التعبير عن الاشباح والآلهة . ويعتقد العقل البسيط البدائي ، ان – الشبح او الروح تغادر الجسم في حالة الموت او النوم او الغيبوبة . وحتى اذا عطس الانسان فان قوى الموت ، تطرد الروح ، ومن هنا نشأ التعبير بقولنا « الله يرحمك ويباركك » ، او ما يقابل هذه العبارة كان يقترن دائماً في مثل هذه الحالة من العطس . وكان الصدى او الانعكاس في رأي هذه الشعوب البدائية اصواتاً ومشاهد لشبح او اكثر . وكان الواحد منهم يرفض عبور النهر لئلا يختطف التمساح شبحه فيأكله . لقد كان الله في اول الامر في اعتقادهم شبحاً دائم الوجود ، وان

اقوياء الرجال في هذة الدنيا تنتقل قواهم ، وسلطانهم الى اشباحهم التي تظهر بعد موتهم . وكان لا بد من استرضاء هذه الاشباح واستعطافها . وتطورت طقوس الجنائز الى عبادة ، واخذت جميع مظاهر الاستعطاف التي تقدم للزعيم او القائد على هذه الارض تستخدم في الاحتفالات والصلوات والتزلف والتقرب الى الآلهة . وبدأ تقديم الهدايا الى الآلهة ، وتطورت هذه الهدايا فأصبحت الدخل الذي تعتمد عليه الكنائس ومعابد الدين . كما تطورت الهدايا التي كانت تقدم الى زعيم القبيلة او العشيرة الى الدخل الذي تجمعه الحكومات من شعوبها . وتحول الركوع امام الملك الى ركوع وسجود امام محراب الله . لقد نبعت جميع الديانات من هذه العبادات القديمة . ومن الممكن تصور هذه العادة الدينية من قصة رئيس القبيلة الوثني الذي رفض التنصير لانه لم يقتنع في الاجابة على سؤاله فيما اذا كان سيقابل في الجنة اجداده الذين لم يتنصروا وبقوا على وثنيتهم (ان شيئاً من هذا الاعتقاد قد تسرب الى الشجاعة الفائقة التي ابداها اليابانيون في حرب عام ١٩٠٥ ، فقد استهانوا بالموت لاعتقادهم بان اباءهم واجدادهم ينظرون اليهم من السماء .) ان الدين هو الركن الاساسي في حياة الشعوب البدائية البسيطة . فالحياة بينهم وضيعة ومزعزعة ، وهم يعيشون على امل ما سيأتي من الاشياء لا في الحقائق المرئية لها . كما ان الخرافات الدينية تلازم المجتمعات العسكرية والحربية . وعندما حلت الصناعة محل الحروب تحول الفكر من الموت الى الحياة ، وخرجت الحياة من قيود السلطة المقدسة الى طريق الحرية والمبادرة المفتوح . والواقع ان اعظم تغير طرأ على المجتمع في تاريخ المجتمع الغربي باسره هو الانتقال التدريجي من النظام الحربي الى النظام الصناعي . لقد جرت العادة على تقسيم المجتمعات حسب حكوماتها الى ملكية وارستقراطية او ديموقراطية ، ولكن هذه فروق تافهة لا تمس الصميم ، اما الحد الفاصل فهو الذي يفصل المجتمعات العسكرية عن المجتمعات الصناعية . الامم التي تعيش على الحروب عن الامم التي تعيش على العمل ..

وللدولة العسكرية صفات تميزها عن غيرها ، فالحكومة فيها دائما حكومة مركزية ، وفي الغالب ما تكون حكومة ملكية . ومبدأ التعاون فيها يقوم على الارغام والتنظيم العسكري . وهي تشجع تسلط الدين ، وتعبد اله الحرب ، وتنمي الفوارق بين الطبقات ، وتشجع القوانين الطبقية ، وتعظم مكانة الرجل، وتمنحه سلطة مطلقة على المرأة . ولان نسبة الموت في هذه المجتمعات الحربية عالية بسبب ما تشنه من حروب ، فانها تميل الى اباحة تعددالزوجات ،وتخفض مقام النساء . لقد كانت معظم الدول دولا حربية ، لان الحرب تعزز سلطة الحكومة المركزية وتجعل جميع المصالح تابعة لمصلحة الدولة . والتاريخ حافل باعمال السلب والنهب والغدر والخيانة والقتل والانتحار القومي . إن أكل لحوم البشر يعتبر وصمة عار في جبين المجتمعات البدائية المتأخرة ، ولكن بعض الشعوب الحديثة لا تقل افتراسا واكلا للحوم البشر عن هذه المجتمعات القديمة المتوحشة . ان بعض الامم الحديثة تستعبد وتبتلع شعوباً باسرها . وما لم تحظر الحروب وتحرم بين الامم ،فستبقى المدنية تتأرجح من كارثة لاخرى .

والامل في الغاء الحروب وبلوغ مجتمع تتحقق فيه العدالة الاجتماعية يكمن في تطور الصناعة في الشعوب الصناعية . اذ ان الصناعة تؤدي الى الديمقراطية والسلام . وعندما تتوقف سيادة الحرب لحياة الامم ، ينهض التطور الاقتصادي ، وتنشأ الوف المشاريع الاقتصادية وتتوزع السلطة على جزء كبير من افراد المجتمع . وبما ان الانتاج الصناعي لايترعرع ويزدهر الا في ظل الحرية فان المجتمع الصناعي سيعمل على تحطيم السلطات التقليدية الكهنوتية والطائفية القبلية التي تزدهر في ظلها الدول الحربية . ولا يعود للجندي او العسكري هذه القيمة البالغة والشهرة العالية ، والصيت العظيم . وتصبح الوطنية حب الانسان لوطنه لا كراهية البلاد الاخرى . ويعود السلام في البلادضرورة رئيسية من اجل

الرخاء والازدهار . وبما ان رأس المال سيصبح دوليا وعالميا ، حيث يقوم استثمار المال في جميع انحاء العالم ، فان هذا سيؤدي الى ضرورة استتباب الامن والسلام العالمي ايضا . وعندما تقل الحروب الخارجية ، تخف القسوة في الداخل ، ويحل نظام الزوجة الواحدة محل نظام تعدد الزوجات بسبب قلة الحروب التي تستهلك الرجال . ويرتفع وضع المرأة ، ويصبح تحرير النساء قاب قوسين او ادنى . وتفسح الخرافات الدينية الطريق امام المذاهب الحرة التي تركز جهودها في اصلاح الحياة الانسانية ، والسمو بالاخلاق على ظهر هذه الارض ، وتعلم ميكانيكية الصناعة الناس ميكانيكية الكون . وتحل الابحاث الدقيقة عن الاسباب الطبيعية محل المعجزات والقوى الخارقة . ويبدأ التاريخ في دراسة الناس وهم في العمل بدلا من دراسة حياة الملوك وهم في الحرب . ويتحول التاريخ عن تسجيل حياة الشخصيات الى تسجيل احدث الاراء والافكار واعظم الاختراعات ، وتقل سلطة الحكومة وتزيد سلطة الجماعات المنتجة في داخل الدولة ، ويتغير الوضع من مساواة في التبعية للحكومة الى حرية المبادرة ، ومن فرض التعاون قسرا الى حرية التعاون طوعا . يعتقد المجتمع الحربي بان وجود الافراد من اجل منفعة الدولة . اما المجتمع الصناعي فيعتقد بوجود الدولة من اجل منفعة الافراد .

لقد اعتبر « سبنسر » موطنه انجلترا مثالا للبلد الذي يقترب من المجتمع الصناعي ، على الرغم من انه استنكر بشدة نمو الروح العسكرية الحربية الاستعمارية فيها ، واعتبر كلا من فرنسا والمانيا مثالا للدولة العسكرية الحربية .

ويعتقد سبنسر بان الاشتراكية نتيجة طبيعية للنظم الاقطاعية

والعسكرية ، او بعبارة اوضح فان النظم الاقطاعية والعسكرية تنتهي الى نظم اشتراكية .

والنظام الاشتراكي كالنظام العسكري يقوم على النظام المركزي ، وتوسيع سلطة الحكومة ، والقضاء على المبادرة الفردية وتبعية الفرد واخضاعه. والنظام القائم وراء كل منظمة هو انها تميل الى الصلابة والشدة عندما تكتمل قوتها . والاشتراكية ستؤدي الى جماعة بشرية من النحل والنمل ، وستؤدي الى نظام من الاستعباد اشد قنوطا ويأساً من الوضع الحالي .

ان العلاقات الاقتصادية اشد صعوبة من العلاقات السياسية واكثر تعقيدا ، ولا تستطيع حكومة تنظيم كل هذه العلاقات من غير اللجوء الى الشدة والاستبداد من جانبها . ان تدخل الحكومة يتجاهل دائما بعض عوامل الموقف الصناعي المعقد . وقد فشلت جميع المحاولات التي قامت بها ، ويتضح لنا هذا من ملاحظة فشل قوانين تثبيت الاجور في انجلترا في العصور الوسطى ، وقوانين تثبيت الاسعار في فرنسا الثائرة ، وينبغي ترك العلاقات الاقتصادية الى التوفيق الذاتي الآلي للعرض والطلب (على الرغم من نقصه وعدم كماله) اما ما تريده الشعوب اكثر فستدفع ثمنا له اكثر واذا كان بعض الناس يتلقون اجوراً اكثر من غيرهم ، فهذا لانهم كابدوا وخاطروا مقابل ما حصلوا عليه . والناس بطبيعتهم لن يتسامحوا او يغفروا مساواة فرضت عليهم فرضا بالقوة .

لقد كان سبنسر يشعر بالغثيان والمرض لمجرد التفكير في عالم يحكمه العمال ، ولم تفتنه اوتستهوي قلبه دعاية زعماء النقابات والاتحادات التجارية في جريدة لندن تايمز . لقد اشار الى عدم جدوى اضراب العمال ، لانه عندما يفوز العمال عن طريق الاضراب برفع اجورهم ، سترتفع اسعار الحاجيات نتيجة لرفع الاجور ، وسيعود الموقف على ما كان عليه من قبل ، هذا بالاضافة الى « ان المظالم التي

تنزل باصحاب الاعمال موازية للمظالم التي تنزل بالعمال . »

ومع ذلك فان ما توصل اليه سبنسر من نتائج ليست محافظة رجعية عمياء، فقد ادرك فوضى وقسوة النظام الذي يعيش فيه ، وبحث باهتمام بالغ عن نظام يحل في مكانه . وفي النهاية ابدى عطفه نحو الحركة التعاونية ، بحيث يصبح تنظيم العمل اقل الزاما وقسرا عندما يتقدم المجتمع . وكل عضو سيكون سيد نفسه بالنسبة الى عمله ، ولا يكون خاضعا الا للقوانين التي تسنها اكثرية الاعضاء والتي تستدعيها الحاجة الى النظام ، ويتم التحول من التعاون العسكري الالزامي الى التعاون الصناعي الطوعي . وهو يشك في امانة ومقدرة الناس في تنفيذ هذا النظام الديمقراطي الصناعي وجعله فعالا . ولكنه يؤيد محاولة ذلك ،ويتنبأ بالوقت الذي تزول فيه ادارة المصانع من يد اصحابها الذين يديرونها ادارة مطلقة . وكما تحول الاعتقاد في المجتمع العسكري وهو ان الفرد يحيا من اجل الدولة ، الى ان الدولة تحيا من اجل الفرد في المجتمع الصناعي ، فسيتحول الاعتقاد في المجتمع الصناعي من ان الحياة للعمل الى الاعتقاد بان العمل من اجل الحياة في المجتمع التعاوني الذي ينبثق عنه .

٧ ـ اخلاق : تطور الاخلاق

لقد ذهب سبنسر الى وجوب بناء الاخلاق على اساس بيولوجي اي على علم الحياة . باخضاعها الى قوانين التطور وانتخاب الطبيعة . ولكن العالم «هكسلي» في محاضراته في جامعة اكسفورد عام ١٨٩٣ ، رفض ان يكون علم الحياة دليلا اخلاقيا ، وان الطبيعة ملطخة بالدماء نابا ومخلبا كما قال « تنسيون » اذ كيف نترك للطبيعة وضع اخلاقنا وهي التي تمجد القسوة والوحشية والخداع والمكر ، بدلا من العدالة والحب . ولكن سبنسر شعر بأن القانون الاخلاقي الذي يفشل امام امتحان الانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء مصيره الفشل . والاخلاق كأي شيء آخر تكون خيرا او شرا بمقدار ملاءمتها او عدم ملائمتها لغايات الحياة . واعظم الاخلاق واسماها هي التي تساعد على اعظم واكمل حياة . او على حد قانون التطور ، فان السلوك يكون اخلاقيا بمقدار ما يساعد الفرد او الجماعة على الكمال والوحدة في وسط تنافر الغايات . ولكن هذا التعريف للاخلاق تعريف غامض ، لان الملاءمة بين الفرد والمجتمع تختلف من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان . وكذلك فكرة الخير تختلف عند الشعوب اوسع اختلاف . ويرى سبنسر ان الطبيعة قد زودتنا بمقياس دقيق نميز به الطيب من الخبيث وهو مقياس اللذة والالم . فاللذة تشير الى منفعة الشيء من الناحية البيولوجية ، والالم يشير الى خطورة الشيء من الناحية البيولوجية . ومع ذلك فاننا نجد اختلافاً كبيراً لمفهوم الخير ،

فان الكثير من اخلاق الشعوب الغربية تعتبر لا اخلاقية لدى شعوب اخرى . فان تعدد الزوجات والانتحار وقتل الانسان لمواطنيه وحتى قتله لابوية تعتبر اخلاقاً فاضلة بين بعض الشعوب .

ان زوجات رؤساء قبائل « الفيجان » يعتبرن تعذيبهن بعد وفاة ازواجهن واجباًمقدساً. لقد خلص « وليامز » احدى هؤلاء النساء من تعذيب قومها لها، ولكنها هربت في الليل وعبرت النهر سباحة وقدمت نفسها لقومها ، وأصرت على اتمام عملية التضحية ، وانها قد هربت في ساعة ضعف منها . ويحدثنـــا « ويلكيز » عن امرأة اخرى اتهمت من انقذها بانتهاك حرمة واجبها المقدس، وحملت له كراهية كبيرة بعد ذلك،ويذكر «ليفينجستون» ان نساء الماكولولو على شواطىء « الزامبيزي » ابدين دهشة كبيرة عندما قيل لهن ان الرجل في انجلترا يقتصر على زوجة واحدة ، اذ ان من يقتصر على زوجة واحدة لا يعد محترماً في نظرهن ، ويذكر لنا « ريد » ان الرجل اذا تزوج في افريقيـــا الاستوائية ، وكانت ظروفه تساعده على الزواج من زوجة اخرى، فانزوجته تلح عليه الزواج من اخرى ، وتتهمه بالبخل لو رفض الزواج من ثانية .

ان هذه الحقائق طبعاً تصطدم مع الاعتقاد بوجود احساس اخلاقي فطري يوحي الى الانسان بما هو صواب او خطأ . ولكن اقتران اللذة والألم بسلوك الخير والشر يشير الى وجود مقياس من الحقيقة في الفكرة . وقد تصبح بعض النظريات الاخلاقية التي اكتسبها الجنس اخلاقاً موروثة في الفرد .

ان الاخلاق الفطرية تواجه مصاعب اليوم . من القبيح ان يتناقض مبدأ الاخلاق الذي نطبقه على حياتنا الواقعية تناقضاً كبيراً مع المبادىء التي ندعو لها ونبشر بها في كنائسنا وكتبنا . ان الاخلاق المعترف بها في اوروبا وامريكا

هي الاخلاق المسيحية المسالمة ، ولكن الاخلاق الفعلية هي الاخلاق العسكرية الحربية التيتونية التي تعتمد على السلب والنهب التي استمدت منها الطبقـــات الحاكمة اخلاقها في معظم انحاء اوروبا . ان ممارسة المبارزة بالسيف في فرنسا الكاثوليكيــة والمـــانيا البروتستانتية اثر من اثـــار ومخلفات القوانين التيتونية .

سواء تطورت الامة بمواطنيها على مبادىء الاخلاق المسيحية او الاخلاق التيتونية فان هذا يعتمد على ما اذا كانت الحرب، او الصناعة هي النظام الذي يسود هذه الامة . ان المجتمع العسكري يمجد ويعظم فضائل معينة ، ويصفح ويتسامح عن ارتكاب اعمال تعتبرها الشعوب الاخرى جرائم . فان العدوان والسلب والنهب والغدر والخيانة امور مستباحة بين الشعوب المحاربة الـــتي عودتها الحرب على هذه الصفات ، بخلاف الشعوب التي علمتها الصناعة والسلام قيمة الامانة والمسالمة وعدم الاعتداء . اذ تزدهر الانسانية والكرم اكثر حيث تقل الحروب . كما ان فترات الانتاج الطويلة الهادئة تولد في الناس فائدة تبادل المساعدة. ان المواطن في المجتمع العسكري يعتبر الشجاعة والقوة اسمى الفضائل بالنسبة الى الانسان والطاعة اسمى فضيلة بالنسبة الى الافراد والخضوع والاستسلام اسمى فضيلة في المرأة . لقد اعتقد قيصر المانيا بان الله قائد الجيش الالماني . كما اعتبر هنود امريكا الشماليون استخدام القوس والنبـــل والرمح والهراوة الحربية ، اسمى وظائف الانسان ... واعتبروا الاعمال الزراعيـة والآلية اعمالا منحطة .

ولم ترتفع قيمة الاعمال المهنية والزراعية وتأخذ مكاناً محترماً لها بجـانب الاعمال العسكرية الا في الازمنة الحديثة عندما اصبحت مصلحة البلاد القومية تعتمد اكثر فأكثر على قوى الانتاج الكبيرة ، والتي بدورها تعتمد على القوى العقلية العظيمة .

والآن فان الحرب ليست الا اكلاً للحوم البشر بالجملة ، ماالذي يمنعنا من اعتبارها اكلاً للحوم البشر ، فنعلن تحريمها ومنعها واستنكارها كما نعلن تحريمنا لأكل لحوم البشر . لان العدالة لا يمكن ان تنمو وتزدهر الا اذا قـل الخصام والعداء بين الشعوب ، وزاد التعاون والانسجام بين افرادها . ولكن كيف السبيل الى تنمية هذا التعاون والانسجام ، كيف السبيل الى ترقية هذا التعاون المنسجم ؟ ان هذا الانسجام يأتينا عن طريق الحرية اكثر من التنظيم . وعلى هذا يكون تعريف العدالة هو « ان يكون الانسان حراً في ان يفعل ما يشاء شريطة الا يتعارض ذلك مع حرية الآخرين . » وهذا التعريف للعدالة يتعارض مع نزعة الحرب . لان الحرب تمجد السلطة والتنظيم والطاعة العمياء . ان هذا التعريف يتناسب مع مجتمع صناعي مسالم ، لانه يحفز النشاط الصناعي مع مساواة الفرص امام الجميع . وهو تعريف يتناسب مع الاخلاق المسيحية لانه يعتبر كل انسان مقدساً ، ويحرره من روح العدوان والخصام . وهو تعريف ينطوي على موافقة ذلك الحكم النهائي ، الا وهو الانتخاب الطبيعي . لانـه يفتح مصادر الثروة في الارض امام الجميع ، ويفسح المجال لكل فرد في الاثراء وفقاً لمقدرته وعمله .

يعتقد سبنسر ان سيطرة الحكومة على الفرد ستخف عندما تقل الحروب . كما ستقل صلاحيات الحكومة وسلطاتها كلماتوطد السلام وطالت مدته ، ولا يعود للحكومة عمل سوى المحافظة على اقامة العدل .

ان مبدأ العدالة يقتضي ان تكون ملكية الاراضي عامة ، اذا كنا نقدر على فصل الاراضي عن التحسينات والاصلاحات التي ادخلها عليها اصحابها . لقد ايد سبنسر تأميم الاراضي في كتابه الاول وذلك لمساواة الفرصة الاقتصادية امام الجميع ، ولكنه تراجع عن رأيه هذا بعد ذلك (لقد اثار تراجعه هذا اشمئزاز هنري جورج الذي اطلق عليه اسم الفيلسوف المحير .) والسبب في تراجعه هو ان افضل الاراضي انتاجاً واحسنها ادارة هي التي تملكها عائلات خاصة تثق

بتوريثها لابنائها ، وان جهودها واتعابها واعمالها في هذه الاراضي لن تضيع سدى . اما بالنسبة الى الملكية الخاصة فانها تستمد اصولها من قانون العدالة ، بان يتساوى الناس في الاحتفاظ بثمرة اقتصادهم وتوفيرهم . ان عدالة الموصى به ليست واضحة تماماً ، ولكن حق التوريث يشمله حق الملكية ، والا لا تكون الملكية تامة. هذا وينبغي ان تكون التجارة حرة بين الشعوب كما بين الافراد. والا يكون قانون العدالة مجرد قانون قبلي بل قانون علاقات عامة لا ينثلم .

هذه هي حقوق الانسان الحقيقيه باختصار ، حق الحياة والحرية والسعي من اجل السعادة التي يتساوى فيها الجميع . بجانب هذه الحقوق الاقتصادية لا يعود للحقوق السياسية اهمية كبرى في رأي سبنسر. ان تغيير شكل الحكومة لا يعني شيئاً عندما لا تكون الحياة الاقتصادية حرة. وبما ان الحقوق السياسية اوهام ، والحقوق الاقتصادية هي التي عليها الفائدة والمعول، فالنساء مخدوعات ويضيعن اوقاتهن في المطالبة بالحقوق السياسية . ويخشى سبنسر ان تدفع غريزة الامومة في المرأة وحبها لمساعدة الضعيف والمحتاج الى انشاء دولة ابوية تقوم على الاحسان والصدقة . وهنا نلمس اضطراباً في تفكير سبنسر في هذه الناحية ، فهو يعتقد بان الحقوق السياسية لا اهمية لها ، ويعتقد باهميه عدم حصول النساء على هذه الحقوق السياسية ، وهو يستنكر الحرب وينبذها ، وبعدئذ يطالب بعدم اشتراك النساء في التصويت في الانتخابات لانهن لا يشتركن في الحرب ولا يعرضن حياتهن لخطر الموت في القتال . من العار ان نسمع مثل هذه الآراء من اي رجل عانت امه العذاب في ولادته وقاست من الآلام في تربيته . انه يخشى النساء بسبب الافراط في حبهن لمساعدة الغير، وميلهن لمساعدة المحتاجين على الرغم من ان ذروة تفكيره في كتابه هو ان تؤدي الصناعة والسلام الى تنمية محبة الغير في قلوب الناس تنمية تتعادل وتتوازن مع الاثرة ومحبة الذات .

ان الصراع بين محبة الغير وبين محبة الذات ناجم عن الصراع بين الفرد والاسرة والجماعة والجنس . والمفروض ان السيادة والتغلب سيبقى للاثرة او محبة الذات ، وقد يكون هذا هو المطلوب والمرغوب فيه . اذ لو فكر كل انسان في مصالح الناس اكثر من التفكير في مصالحه فان هذا سيؤدي بنا الى الفوضى . « ان السعي وراء سعادة الفرد ضمن الحدود التي تفرضها الاحوال الاجتماعية هو اول ما نحتاج اليه لبلوغ اعظم السعادة العامة . » ان ما نتوقعه على اي حال هو توسيع كبير لعاطفة الشفقة وتطور كبير في دوافع محبة الغير. وحتى الآن فاننا نجد الآباء يضحون عن طيب خاطر لابنائهم . كما ان رغبة من لا اولاد لهم في الحصول على اولاد ، وتبني الأولاد ممن لا اولاد لهم يظهر لنا مدى الحاجة الى هذه المحبة الغيرية لاشباع الذات في نفوسنا ، كما ان شدة التحمس للوطنية مثل آخر على تفضيل المصالح العامة على المصالح الخاصة . كل جيل في الحياة الاجتماعية يقوى من دوافع تبادل المساعدة . وسيعجن النظام الاجتماعي المتواصل الطبيعة البشرية الى ان تتحول لذة العطف والشفقة لمصلحة الجميع .

٨ ـــ نقد

لا شك ان القارىء قد ادرك وجود بعض المصاعب في هذا التحليل الذي قدمه لنا سبنسر ، ان النقد السلبي ليس مرضياً دائماً وخصوصاً امام هذا الانتاج العظيم الذي قدمه لنا سبنسر ولكن جزءاً من مهمتنا يقتضي ان نرى ما احدثه الزمن في افكار هذا الفيلسوف .

١ ـ المبادىء الاولى

ان الحقيقة الاولى التي تواجهنا في كتاب « المبادىء الاولى » هي قوله بان هنالك حقيقة مغلقة لا سبيل الى ادراكها . ونحن وان كنا نسلم معه بان المعرفة الانسانية عاجزة عن ان تسبر اغوار محيط الوجود العظيم الذي لسنا سوى موجة سريعة عابرة على سطحه ، الا اننا ينبغي ان لا نبت في الموضوع نهائياً ، لاننا نخطىء منطقياً اذا ذهبنا الى ان شيئاً ما قد اغلق دون المعرفة اغلاقاً تاماً، واستحال العلم به استحالة تامة ، لأن القول بعدم امكان معرفة الشيء اعتراف ضمني باننا قد عرفنا عنه شيئاً . والواقع ان سبنسر نفسه في مجلداته العشرة اظهر معرفة كبيرة لتلك الحقيقة المغلقة او المجهولة . وكما قال « هجل » ان تقييد العقل بالعقل كمن يحاول السباحة من غير ان يدخل الماء .

ثم ماذا نقول في هذا التعريف الواسع الذي وضعه سبنسر عن التطور ؟ فهو يعرف التطور بانه سير من البسيط الى المركب ، هل يفسر هذا التعريف من الكون شيئاً ، كلا ان هذا التعريف لا يفسر الطبيعة ، وهو كما قال عنه « برجسون » يحلل الطبيعة ولكنه لا يفسرها . ان اضعف نقطة في التعريف هي قوله بعدم استقرار المادة المتجانسة ، وانتقالها الى حالة التنافر . فهل يعتقد سبنسر بان الكل المتشابه الاجزاء اقل استقراراً واكثر تغيراً وتحولاً من الكل المتنافر الاجزاء؟ اليس المفروض ان يكون المتنافر الاكثر تعقيداً بحكم تنافره اقل استقراراً واكثر تحولاً وتغيراً من المتجانس البسيط . ان علم اجناس الامم واصولها ومميزاتها وتفرقها والعلوم السياسية تعترف وتسلم بان التنافر والاختلاف في الاجناس يؤدي الى عدم الاستقرار ، وان صهر المهاجرين الجدد في الولايات المتحدة مثلاً ، في وحدة قومية يؤدي الى تقوية المجتمع وتعزيزه . ويعتقد « تاردي » بان المدنية تنجم عن زيادة في التشابه والانسجام بين افراد الشعب نشأت خلال اجيال من التقليد . وهذا يظهر لنا ان التطور عبارة عن تقدم يسير نحو التجانس والتشابه . واخطاء سبنسر في اعتقاده بان التطور يسير بالشيء من البسيط الى المعقد ، فان فن المعمار القوطي كان اشد تعقيداً من المعمار اليوناني ، ولكن هذا لا يعني انه كان ارفع شأناً واسمى مرحلة من حيث التطور الفني . لقد تسرع سبنسر في افتراضه بان الاسبق في الزمن يكون ابسط في التركيب والبناء ، انه بافتراضه هذا قلل من تعقيد البروتوبلازما « المادة الزلالية الحيوية التي تتكون منها خلية الاجسام الحيوية » وذكاء الانسان البدائي واخيراً فان تعريفه اخفق في ذكر ما يرتبط اليوم ارتباطاً وثيقاً بفكرة التطور . الا وهو الانتخاب الطبيعي . قد يكون في وصف التاريخ بانه تنازع من اجل البقاء وبقاء الاصلح — اصلح الكائنات الحيه ، واصلح المجتمعات ،

واصلح الاخلاق واصلح اللغات ، واصلح الافكار ، واصلح الفلسفات اكثر وضوحاً وتنويراً على الرغم مما به من نقص) من قول سبنسر بانه تطور من التفكك الى التماسك ، من المتجانس الى المتنافر ، من التبدد الى التجمع .

لقد قال سبنسر عن نفسه « انني سيء الملاحظة في الانسانية المجسدة ، لانني اسرفت في التفكير فيما هو مجرد » ، ان اعترافه هذا امانة لها خطورتها، لقد اسرف في استخدام الطريقة الاستنتاجية فاختلف كثيراً عن المثل الاعلى « لبيكون » وعن الطريقة الحقيقية للتفكير العلمي . لقد بدأ سبنسر كما يبدأ رجل العلم بالملاحظة ، ثم تقدم كما يتقدم رجل العلم في تكوين الفروض ، ولكنه لم يسلك بعد ذلك طريقة رجل العلم ، فهو لم يلجأ الى التجربة او الملاحظة العادلة بل لجأ الى اختيار المعلومات المفضلة التي تؤيد وجهة نظره ، وكان لا يحتمل الامثلة السلبية المعارضة لرأيه على نقيض « دارون » الذي وقع على معلومات تعارض نظريته فأسرع الى تسجيلها خوفاً من نسيانها ، لعلمه بان الانسان ينسى ما يتعارض مع افكاره ، أما المعلومات المؤيدة لنظريته وافكاره فتبقى في ذاكرته مدة اطول .

٢ ـ علم الاحياء وعلم النفس

لقد اعترف سبنسر بصراحة في حاشية مقاله عن التقدم ، ان فكرته عن التطور تقوم على نظرية « لامارك » حول انتقال الاخلاق المكتسبة . وهي ليست تقدما عن «دارون» الذي تقوم فكرته على نظرية الانتخاب الطبيعي . فهو اذن فيلسوف « اللاماركية » اكثر من كونه فيلسوف « الداروينية » لقد كان في

الاربعين من عمره عندما ظهر كتاب « اصل الانواع » وفي الاربعين تكون افكار الانسان قد بلغت حد الثبات .

قال سبنسر ان النسل يقل كلما تقدم النوع في طريق التطور ، ولكن قوله هذا لايتفق مع الحقيقة الواقعة ، وهي زيادة النسل في اوروبا المتمدنة عنه في الشعوب المتوحشة . ان اكبر العيوب والنقائص في نظريته البيولوجية تكمن في اعتماده على « لامارك » وفشله في وضع فكرة قوية عن الحياة . وهو عندما يعترف « ان الحياة لايمكن فهمها وادراكها بالوسائل الفسيلوجية الفيزيائية » فانه باعترافه هذا يقضي على فكرته حول التطور ، وعلى تعريفه للحياة ، وعلى تماسك الفلسفة التركيبية ، فهو يقول ان الحياة عبارة عن ملائمة الكائن الحي لحالاته الداخلية مع ظروف البيئة الخارجية ، وان هذه الملائمة تتم بطريقة طوعية وكان الافضل ان يقول ان سر الحياة يكمن في قوة العقل على توفيق الحالات الخارجية للحالات الداخلية او بعبارة اوضح ان هذه الملائمة تتم بما لدى الكائن الحي من عقل . لان مقدمة سبنسر وهي الملائمة الطوعية بين الكائن الحي وبيئته تعني ان الملائمة التامة هي الموت ، لان الحياة تعني شيئا من مقاومة الخضوع للطبيعة .

اما مجلداته عن علم النفس فهي تقديم لصيغ اكثر منها للافادة والاعلام . فقد اعاد تشكيل ما نعرفه في اصطلاحات موحشة معقدة ، تثير الغموض في الموضوع بدلا من توضيحه وتجهد القارىء وتستنزف قواه في الصيغ والتعاريف واختصار الحقائق السيكولوجية الى تركيبات عصبية تجعله يغفل عن ملاحظة ان اصل العقل والادراك قد ترك بلا تفسير . حقا ان سبنسر حاول ان يملأ هذه الفجوة في نظام تفكيره بقوله ان العقل هو الملازمة الذهنية لطرائق

الاعصاب التي تطورت آليا من السديم الاول . ولكن ما هو السبب في وجود هذه الملازمة الذهنية بالاضافة الى الآلية العصبية ، فهو لا يجيب . وهذا طبعا هو بيت القصيد وراء علم النفس .

٣ اجتماع واخلاق

ان كتابه المظيم عن الاجتماع ، الذي يتألف من الفي صفحة يجعله عرضة للنقد والهجوم الذي يفترض فيه بان التطور والتقدم امران مترادفان . ان هذا التطور قد يحقق للحشرات والجراثيم انتصارا ساحقا في حرب الابادة بينها وبين الانسان . هذا كما انه فرض ان الدولة الصناعية اكثر مسالمة وارفع اخلاقا من الدولة الاقطاعية الحربية السابقة لها . والتي سادت في العصور الوسطى ، ولكن افتراضه هذا ينقصه الوضوح ويعوزه الدليل . فقد جاءت اكثر الحروب دمارا وتخريبا في اثينا بعد مدة طويلة من زوال النظام الاقطاعي واستسلامه للنظام البورجوازي التجاري . وقامت دول اوروبا الصناعية بحروب طاحنة على الرغم من كونها دولا صناعية ، وقد تكون الدول الصناعية الاستعمارية ، حربية وعسكرية ، كالعائلات الاقطاعية الملكية . ان اعظم دولة عسكرية بين الدول الحديثة هي احدى اعظم دولتين صناعيتين في العالم . هذا بالاضافة الى ان تطور المانيا الصناعي السريع قام بفضل سيطرة الحكومة على بعض نواحي النقل والتجارة المعينة ، كما ان الاشتراكية لاتتطور عن العسكرية الحربية بل عن التصنيع . لقد كتب سبنسر اراءه في وقت ساد فيه هدوء نسبي على انجلترا واضطرها الى اتخاذ موقف سلمي من اوروبا ، كما ان سيادتها التجارية والصناعية

في ذالك الوقت دفعتها الى الايمان بحرية التجارة . ولو طال به العمر اكثر وعاش ليرى كيف اختفت نظرية حرية التجارة هذه باختفـــاء سيادتها التجــارية والصناعية ، وكيف اختفت روح انجلترا المسالمةوحبها للسلام عندما هددهجوم المانيا على البلجيك عزلتها وسلامتها . هذا كما ان سبنسر بالغ كثيرا في فضائل النظام الصناعي ، فقد تعامى واغلق بصره عن الاستغلال الوحشي الذي رافق الصناعة في انجلترا . ولا غرابة ان اثارت الصناعة اشمئزاز « نيتشه» فاندفعالى تعظيم العسكرية وتمجيد فضائل الحياة العسكرية الحربية .

ينبغي علينا ان نذكر ان سبنسر قد عاصر عهدين ، وانه كون اراءه السياسية في ايام عدم التدخل من جانب الدولة في شؤون البــلاد الاقتصادية والاجتماعية ، او بعبارة اوضح تحديد صلاحيات الدولة تحت تأثير « ادامسميث» بينما عاش في سنواته الاخيرة في فترة كانت انجلترا تـكافح فيهـــا لتصحيـح اخطاء وهفوات نظامها الصناعي ، وذلك بالاشرافعلى النواحي الاجتماعيـة لم يتعب سبنسر او يمل من مهاجمة تدخل الحكومة ، فعارض اشراف الحكومة على التعليم وتمويله ، وعارض حماية الدولة للمواطنين ،من الاحتيالات والتدليسات المالية . وقد ذهب مرة الى وجوب ان تكون ادارة الحرب ادارةخاصــة لا حكومية . لقد حمل كتابه الى الناشر بنفسه ، لفقدان ثقته بموظفي البريــد الحكوميين . لقد كان رجلا فرديا شديدا ، ويصبر على الحياة وحيــدا ، وكل قانون جديد في نظره هجوم على حريته الشخصية . انه لم يدرك ما قاله «بنيامين كيد » وهو انه باعتبار ان الانتخاب الطبيعي يعمل اكثر فاكثر في الجماعــات والطبقات والمنافسات الدولية ، واقل فاقل في الافراد ، فــان التوسيع في مساعدة الاقوياء للضعفاء امر ضروري لابد منه . لمــاذا تحمي الحكومـــة

المواطنين من القوى الطبيعية العنيفة ، وترفض حمايتهم من القـوى الاقتصادية العنيفة ، هذا ما تجاهله سبنسر ، لقد احتقر تشبيه الحكومة من المـــواطنين بالأب من اولاده واعتبره تشبيها صبيانيا . ان سياسته اكثر « داروينية » مز علم احيائه .

يكفينا هذا النقد ، ولنعد الى الرجل مرة ثانية لنرى عظمة اعماله وانتاجا بمنظار العدل .

ختام

لقد جعل كتاب « المبادىء الاولى » من سبنسر على الفور اعظم فيلسوف في عصره . وسرعان ما ترجم هذا الكتاب الى معظم اللغات الاوروبية ، بما في ذلك اللغة الروسية ، حيث كانت روسيا تعاني اضطهاد الحكومة للشعب . لقد نودي به موضحا لفلسفة العصر ، ولم يقتصر تأثيره على الحركة الفكرية في اوروبا فحسب بل تعداها الى الحركة الواقعية في الادب والفن . لقد اثار دهشته ان قامت جامعة اكسفورد في تقرير كتابه (المبادىء الاولى) في منهاجها في عام ١٨٦٩ . وراحت كتبه بعد عام ١٨٧٠ تدر عليه دخلا استطاع ان يؤمن به حاجاته المالية . وارسل له المعجبون به هدايا ثمينة من وقت لاخر ، ولكنه كان يردها على اصحابها دائما . وعندما زار القيصر اسكندر الثاني مدينة لندن ، ابدى الى اللورد (دربي) رغبته في مقابلة افذاذ العلماء البارزين في انجلترا . فوجه اللورد دربي دعوة الى سبنسر وهكسلي وتندال وغيرهم، فسارع الجميع في الحضور الا سبنسر فقد ابى ، وكان لا يجتمع الا بالقليل من اصدقائه ومعارفه . وكتب مرة بانه وضع اعظم افكاره في كتابه ، بعد ان صفاها وغربلها عن بقية الافكار التافهة التي تمتزج بها في حديثه اليومي . وعندما كان يلح الناس على زيارته ورؤيته كان يجلس صامتا هادئا مستمعا الى احاديثهم .

والغريب ان شهرته هبطت بسرعة كما صعدت بسرعة ، فقد طال عمره ،

وشاهد ذروة شهرته وهبوط مجده ، وشاهد في أيامه الاخيرة عجز طمناته وهجماته امام تيار التشريعات الحكومية وتدخلها لحماية الضعفاء من بطش الاقوياء ، وتحولها الى حكومة ابوية تحنو على ابنائها من افراد الشعب . واصبح مكروها تقريبا من كل فئة ومن كل طبقة . وتجاهل العلماء الذين غزا ميادينهم اراءه ، وترصدوا هفواته ، وتناولوا اخطائه بالنقد والتجريح ، واتحد القسس من كل مذهب على انزال القصاص الابدي به ، وتحول العمال الذين احبوا فيه استنكاره للحرب عنه في غضب بعد ان اعلن عن ارائه في الاشتراكية وسياسة اتحادات عمال التجارة . واعرض عنه المحافظون الذين احبوا ارائه في الاشتراكية بسبب اتجاهه الى اللا ادارية : لقد كان سبنسر مخلصا فاثار سخط كل جماعة بارائه الصريحة ، في كل موضوع . وبعد ان اظهر عطفه على العمال واعتبرهم ضحايا اصحاب العمل اضاف الى قوله بانهم لن يكونوا افضل من اصحاب العمل لو انتقلت السلطة الى ايديهم . لقد زادت وحدته في كهولته .

وعندما تقدمت به السن زاد رقة في معارضته واعتدالا في ارائه . لقد اعتاد ان يظهر سخريته من ملك الانجليز ويعتبره ملكا للزخرفة ، لكنه اعلن بعد ذلك ان حرمان الشعب من مليكه بمثابة حرمان الطفل من لعبته . واعتدل في موقفه من الدين ، وبدأ يتحقق بان العقائد الدينية والحركات السياسية تقوم على حاجات وبواعث حصينة من هجوم العقل عليها . وراح يعود نفسه على رؤية العالم يتدحرج في طريقه بغير التفات الى اكوام الكتب التي قذفها في اتجاهه . وعندما التفت الى ايام كفاحه لام نفسه على سخافة سعيه للشهرة الادبية وتفويت سعادة الحياة . وتوفي في عام ١٩٠٣ ، وفي اواخر حياته خيل اليه ضياع جهوده وعبث انتاجه .

ولكننا الان نعرف ان جهوده لم تذهب سدى . لقد كان افول نجمه وهبوط شهرته جزءا من رد فعل الانجليز على الحركة الايجابية . ان انتعاش مذهب الاحرار سيرفعه مرة ثانيه الى مكانه ، كاعظم فيلسوف انجليزي في عصره . لقد قدم سبنسر للفلسفة اتصالا جديدا مع الاشياء ، واضاف عليها واقعية جعلت الفلسفة الالمانية تبدو بجانبها ضعيفة شاحبة ومجردة . لقد اجمل سبنسر عصره كما لم يجمله رجل آخر منذ (دانتي) وقام بتنسيق حديقة واسعة من المعرفة الغزيرة ببراعة فائقة يقف امامها كل نقد صامتا ، خجلا من ضآلة انتاجه امام هذا الانتاج الشامخ . اننا نقف الان على ذروة وصلنا لها بفضل كفاحه ، وفزنا بها بفضل اعماله ، فان كنا نبدو جالسين فوقه ، فذلك لانه رفعنا على اكتافه . سيأتي يوم يزيد فيه انصافنا له ، بعد نسيان لذعات معارضته وطعنات افكاره .

الفصل التاسع

فردريك نيتشه

١ ـ نشأته

كان نيتشه طفل « داروين » واخا « لبسمارك » او بعبارة اوضح فقد تأثر الى مدى واسع بنظرية داروين ، وسياسة بسمارك . ولا يهمنا كثيراً سخريته من اتباع التطور في انجلترا وانصار القومية في المانيا ، فقد اعتاد ان يهاجم الذين اثروا عليه اقوى الاثر . لقد كانت هذه طريقته اللاشعورية في تسديد ديونه لمن استمد منهم معظم افكاره وفلسفته .

فاذا كانت الحياة هى تنازع البقاء ، وبقاء الاصلح ، عندئذ تكون القوة هي الفضيلة الاساسية ، والضعف هو النقيصة الوحيدة . الخير هو الذي يحيا ويظفر، والشر هو الذي يستسلم ويفشل . لقد اظهر اتباع داروين في انجلترا ، ودعاة الفلسفة الايجابية في فرنسا ، والاشتراكيون في المانيا ، شجاعة كافية في رفض اللاهوت المسيحي ، ولكنهم لم يجرأوا على رفض الاخلاق المتفرعة عن المسيحية، وهي الضعف والرقة ومحبة الغير وغيرها من صفات الليونة والضعف المتفرعة

عن هذه الديانة . لقد اظهروا جرأة في الاقلاع عن المذهب الكاثوليكي واللوثري والانجليكاني ، ولكنهم لم يجرأوا على الاقلاع عن الديانة المسيحية نفسها . هذا هو ما قاله فردريك نيتشه .

« لم يتخلف المفكرون الاحرار الفرنسيون من فولتير الى اوجست كومت عن المثل الاعلى للديانة المسيحية بل اضافوا عليها . فقد ذهب كومت الى الدعوة الى محبة الآخرين ، وتكريس الحياة من اجل مساعدتهم . كما ذهب شوبنهور في المانيا وجون ستيوارت مل في انجلترا الى الدعوة الى نظرية الشفقة ومساعدة الآخرين ، واعتبروها المبدأ الاساسي في العمل . كما وضع الاشتراكيون جميعهم افكارهم على اساس هذه المبادىء التي تحض على الشفقة والرحمة ومساعدة لغير . »

لقد اتم داروين بحركة لا شعورية منه ما بدأه الموسوعيون (الانسيكلوبيديون الذين وضعوا الموسوعة او دائرة المعارف) من ازالة الاساس اللاهوتي الذي تقوم عليه الاخلاق الحديثة . ولكنهم تركوا مبادىء الاخلاق نفسها من غير ان يمسوها او يخترقوها . فقد تركوها معلقة في الهواء . ان ما نحتاج اليه في هذه المعركة التي نسميها بالحياة هو القوة لا الطيبة والكبرياء لا الخضوع ، والذكاء الحازم لا حب الغير ومساعدة الناس . ان المساواة والديمقراطية مناقضة لنظرية الانتخاب الطبيعي وبقاء الاصلح . كما ان هدف التطور هو العباقرة لا جماهير الشعب . والحكم الفصل في جميع الخلافات ومصائر الامور هو القوة لا العدالة . هذا هو ما اعتقده فردريك نيتشه .

والآن ، ان كان هذا حقاً ، فليس اعظم من بسمارك ولا اكثر منه اهمية . اذ ينطبق عليه هذا الوصف الذي ذهب اليه نيتشه . فقد عرف بسمارك

حقائق الحياة فاعلن في خشونة « ان لا محبة للغير بين الامم وان القضـــايا الحديثة في الدول لا ينبغي ان تقررها اصوات الناخبين ، ولا بلاغة الخطب ، ولكن الذي يقررها هو الدم والحديد » . اي ريح عاتية كان بسمارك بالنسبة الى اوروبا التي افسدتها الاوهام والديمقراطية والمثل العليا السائدة . فقد تمكن في شهور قليلة من فرض سيادته وزعامته عـــلى النمسا المتدهورة ، وفي شهور قليلة اخضع فرنسا التي كانت لا تزال تترنح نشوى باسطورة نابليون ، كما اجبر في هذه الشهور القليلة الدويلات الالمانية الصغيرة على دمج نفسها في امبراطورية قوية . لقد كان بسمارك رمزاً لهذه الاخلاق الجديدة التي دعاها نيتشه، الاوهي اخلاق القوة . لقد احتاجت قوة المانيا العسكرية والصناعية المتزايدة الى صوت يعبر عنها ، كما احتاجت مشيئة الحرب ، وارادة القتال المتحفزة الى فلسفة لتبريرها ، لأن الديانة المسيحية المسالمة لن تصلح لتبرير هذه الروح العسكرية الحربية المتفاقمة في المانيا الحديثة . ووجدت في الفلسفة الدارونيةمبرراً وسنداً في تأييد اتجاهها ، لو اوتيت شيئاً من الجرأة وقدوجدت هذه الجرأة من ينادي بها ، وغداً نيتشه صوت المانيا المعبر عن روحها العسكرية وايمانها بالقوة .

٢ ـ فترة الشباب

كان والد نيتشه قسيساً ، وكان معظم اجداده من امه وابيه من رجـــال الدين ، وبقي هو نفسه مبشراً ونذيراً الى النهاية . لقد هاجم المسيحية لان فيه كثيراً من روحها الاخلاقية .وكانت فلسفته محاولة لموازنة المسيحية واصلاحها. كانت امه تقيه ورعة متمسكة باهداب الدين ، من نوع والدة «عمانويل كانت» مع فرق واحد وهو ان نيتشه بقي تقياً وورعاً وطاهراً وعفيفاً الى النهـــاية ، وهذا هو السبب في هجومه على التقوى والورع والطهارة ، فقد تاقت نفس هذا القديس الورع الى ارتكاب خطيئة .

ولد في روكن في بروسيا في اليوم الخامس عشر من شهر اكتوبر عـــام ١٨٤٤ ، وهو يوم ميلاد فردريك وليام الرابع ملك بروسيا . لقد كان والده مربياً لكثيرين من ابناء الاسرة المالكة ، وقد ابتهج لهذه المصادفة الوطنية السعيدة ، واطلق على ابنه اسم فردريك تيمناً باسم الملك . ويقول نيتشه عن يوم مولده هذا « ان لمولدي في هذا اليوم فائدة واحدة ، فقد عمت مظاهر البشر والفرح الناس اجمعين طوال ايام طفولتي » .

لقد توفي ابوه وتركه صغيراً فأشرف على تربيته جماعة من النساء التقيات الصالحات من افراد اسرته . واسرفن في تدليله وملاطفته . الى درجة ارهفت

شعوره واحساسه . فراح يمقت ابناء السوء من جيرانه اذا مـــا سرقوا اوكار الطيور وحرموها من فراخها وبيضها ، او اغاروا على البساتين والحـــدائق وجردوها من ثمارها ، او قاموا بألعاب عسكرية خشنة يقلدون فيها الجنود ، او تحدثوا كذباً مما جعل اترابه في المدرسة يطلقون عليه اسم القسيس الصغير . ووصفه احدهم بانه كالمسيح في المعبد . وكان يستمتع في العزلة او يأخذ في قراءة الانجيل لنفسه ، او يقرأه على الآخرين بطريقة مؤثرة . تهز نفوسهم ، وترسل الدموع في مآقيهم . ومع ذلك فقد كان في نفسه كبرياء وفخر ، ومقدرة على كبح عواطفه ، وتملك اعصابه ، وامضى حياته كلها في البحث عن الوسائل الجسدية والعقلية التي تقوي من نفسه وتعزز مثاليته . وكان يسعى الى الفضيلة اينما كانت ليستزيد منها ويقوي نفسه بها .

وعندما بلغ الثامنة عشرة فقد ايمانه في اله آبائه وامضى بقيـة حيـاته في البحث عن اله جديد . واعتقد انه وجده في السوبرمان (الانسان الاعـلى) وقال بعد ذلك انه لم يجد صعوبه في استبدال ذلـــك الاله القديم بهـذا الاله الجديد . ولكنه كان يمتاز بسهولة خداع نفسه ، واصبح كمن قامر بكل شيء يملكه في حياته على جواد فاشل ، او ورقة يانصيب خـاسرة ، وخسر الرهان . فقد كان الدين قلب حياته ولبها ، واصبحت حياته بعد ذلك فراغاً يبابا لا معنى لها . لقد عافت نفســـه النساء والخمر والتدخين ، واعتقـــد بعجز المدخنين او المقبلين عـــلى شرب الجعة ، عن صفـــاء الادراك ووضوح الفكر .

وفي عام ١٨٦٥ وقع في يده كتاب شوبنهور « العـالم كـإرادة وفكرة » ووجد فيه على حد قوله « مرآة رأيت فيها العالم والحياة وطبيعة نفسي مصورة

في عظمة مخيفة » وذهب بهذا الكتاب الى منزله وراح يقرأ كل كلمة فيه في جوع ونهم . ويقول « لقد بدا لي ان شوبنهور كان يخاطبني شخصياً ويوجه كلامه لي ، فقد شعرتُ بحماسته وخيل لي انه ماثلا امامي . فقـد كان كل سطر في هـذا الكتاب ينادي بصوت عال للاستسلام والانكار والتسليم . » لقد اثر لون فلسفة شوبنهور الاسود القاتم على افكاره تأثيراً دائماً . ولم يقتصر تأثير هذه الفلسفة على نفسه ايام تحمسه لشوبنهور واعتباره مربياً ومثقفاً (كما اشار بذلك في عنوان احدى مقالاته) بل لازمة حتى في الايام التي رفض فيهاالتشاؤم كعامل من عوامل الانحطاط والانحلال . فقـــد بقي تعيساً في قرارة نفسه ، ويبدو ان جهازه العصبي كان مرهفاً الى درجة كبيرة جعلته قابلا للتأثر والالم ولم يكن لينقذه من شوبنهور سوى مطالعته لسبينوزا وجوته ، فقد كان ينقصه صفاء ذهن الحكيم وهدوء التوازن العقلي .

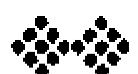
وفي سن الثالثة والعشرين انخرط في سلك الخدمة العسكرية ، وكان يسعده ان تعفيه الحكومة من الجندية بسبب ضعف في بصره ، ولانه الابن الوحيد لأمه الأرملة . ولكن الجيش الذي لا يتورع عن تجنيد حتى الفلاسفـــة اصر على بقائه . ولكن حدث ان هوى مرة من على ظهر جواده ، واصيب باصابة بالغة في عضلات صدره ، اضطرت قائد فرقته الى تسريحه والاستغناء عنه . وقـــد لازمته هذه الاصابة البالغة طيلة حياته ، ولم تقو الايام على شفائها . لقد كانت خبرته بالجندية قصيرة جداً ، وترك الجيش حاملا في رأسه نفس الاوهـام التي حملها عن الجنود والحياة العسكرية عندما التحق في الجيش . لقد استهوته حياة الجندية واثرت على خياله الحياة العسكرية الاسبرطية ، التي كانت تطبـع الجندية الالمانية وما امتازت به من نظام وطاعة وتحمل وجلد . والآن بعد ان غادر الجيش واصبح من المتعذر عليه ان يحكم على حياة الجندية حكماً صائباً لقصر الفترة

التي امضاها في الجيش ، راح يعبد الحياة العسكرية ويقدسها لان صحته حالت بينه وبينها .

انتقل من حياة الجندية الى نقيضها وهي الحياة العلمية واعد رسالة نال بهـــا اجازة الدكتوراة في الفلسفة . ولما بلغ الخامسة والعشرين عين استاذا في فقـه اللغة القديمة في جامعة بال . وراح من ذلك المكان الامين البعيد عـــن اهوال المعارك يعلن أكباره ، وتقديره لاعمال بسمارك ، التي اتسمت بالعنف والشـدة واسالة الدماء . واخذ يظهر اسفه لاشتغاله بهذا العمل الذي اقعده عن حيـــاة القتال ، وحال بينه وبين البطولة .وكان يتمنى لو انصرف الى مهنة عملية تتصف بالنشاط كالطب ، وفي الوقت ذاته بدأت الموسيقى تجتذبه . فقد اغرم بالموسيقى الى درجة دفعته الى تعلم العزف على البيان ، وكتب بعض الالحان .ومن اقوالهان الحياة خطأ بغير موسيقى ، ولم يكن (ريتشارد فجنر) الفنان الموسيقي الملهم بعيدا عن مدينة بال التي كان يعيش فيها نيتشه .اذ كان يسكن في مدينة «تريبشين» مع زوجة رجل آخر . ودعاه ليقضي معه عيد الميلاد عام ١٨٦٩ . واظهر نيتشه حماسا حارا بالفنان العبقري وموسيقى المستقبل . ووجد فيه فجنر داعيـــة لموسيقاه في الاوساط العلمية في الجامعات . لقد تأثر بسحر الملحن العظيم ، وبدأ يكتب اول كتاب له بدأه بالدراما اليونانية ، ومجد فيه فجنر تمجيدا كبيرا . واتجه الى جبل الالب ليكتب هذا الكتاب في هدوء بعيدا عن جلبة الحياة وصخبها ، وهناك في عام ١٨٧٠ ، وصلته اخبار اشتعال الحرب بين المانيا وفرنسا .

لقد تردد قليلا ، هل يلبي نداء الوطن والواجب ويتطوع في القتـــال ، ام يبقى في عزلته وانصرافه الى الكتابة . ها هي روح اليـــونان وعرائس الشعر والادب ، وآلهات الروايات والقصص والفلسفة والموسيقى قد مدت له يدهـــا المقدسة ، ولكنه لم يستطع مقاومة نداء وطنه ، الذي لايقل تأثيرا على نفسه من

نداء الشعر . لقد شاهد في فرانكفورت وهو في طريقه الى الحدود فيلقـــا من الجنود الفرسان يسيرون عبر المدينة في موكب عسكري جليل وسط قعقعـــة السلاح . وهناك ، قفزت الى رأسه فكرة كانت اساسا فيما بعد لفلسفته كلها . « لقد شعرت للمرة الاولى ان اقوى واسمى ارادة للحياة لا تجـد تعبيرا لها في الصراع البائس من اجل البقاء ، ولكن في ارادة الحرب ، ارادة القوة ، ارادة السيادة ! » ولكن ضعف بصره اقعده عن الاشتراك في القتال ، فاكتفى بالقيام باعمال التمريض في الجيش . وعلى الرغم من انه شهد في مهمة التمريض هـــذه الكثير من الوان الرعب والخوف ، الا انه مع ذلك لم يعرف اهوال المعارك الوحشية في ميادينها ، والتي جعلها مثلا اعلى له لقلة خبرته فيها . لقد كان حساسا رقيقا حتى في مهمة التمريض . فقد اثر منظر دماء الجرحى على صحته فوقـع مريضا ، وارسل الى بلده محطما مهدما ، ومنذ ذلك الوقت كانت له روح الفتاة مرتدية درع الجندي المحارب .



٣ ـ نيتشه وفجنر

وفي اوائل عام ١٨٧٢ نشر نيتشه اول كتاب له وهو « مولد المأساة من روح الموسيقى » لقد وضع هذا الكتاب في اسلوب شعري وجداني غنائي بهي لاينتظر اطلاقا من عالم لغوي . وقد تحدث في هذا الكتاب عن الالهين اللذين كانا موضع تقديس وعبادة الفن اليوناني : واولهما « ديونيسوس » او « باكوس » وهو اله الخمر والمرح ، والحياة الصاعدة والبهجة والسرور في العمل ، والفتنة والعواطف والالهام ، والغريزة والمخاطرة الذي يصبر على الالام ويتحمل المشاق بجرأة وبسالة اله الغناء والرقص والموسيقى والمسرحية ، ثم تحدث عن (ابولو) وهو اله السلام والراحة والسكون ، وفتنة العواطف والتأمل العقلي ، والنظام المنطقي والهدوء الفلسفي ، اله التصوير والنحت والشعر الغنائي . لقد اتحد هذان المثلان الاعليان فابدعا انبل واسمى آيات الفن اليوناني ، اذ امتزج ما في ديونيسوس من قوة الرجولة الفياضة المتبرمة بما في ابولو من جمال الانوثة الوديع الهادىء . وكان ديونيسوس يوحي الى الدراما بالموسيقى وكان ابولو يوحي بالحوار .

لقد كان اعمق ما في معالم الدراما اليونانية هو روح التشاؤم الذي غزا به ديونيسوس اليونان عن طريق الفن ، اذ لم يكن اليونان شعبا متفائلا فرحا كما

يحدثنا عنهم الشعراء الطوافون في ايامنا . فقد قاسوا من الام الحياة ومرارتها واكتووا بنارها ، وادركوا قصر امدها . وعندما سأل ميداس (سيلينوس) عن احسن مصير يواجه الانسان اجابه بقوله : (انتم ياشعوب هذه الايام ، يا من تستثيرون الشفقة ، يا ابناء الاحداث والاسى ، لماذا تضطرونني الى القول عن احسن مصير لم يسمع به بعد ؟ ان افضل مصير شيء عسير النوال ، وهو الا يولد الانسان وان يكون عدما ، ويتبع هذا في الافضلية ان يموت الانسان فتى مبكرا) من الواضح ان هؤلاء اليونان لم يكونوا في حاجة ليتعلموا شيئا عن التشاؤم من شوبنهور او الهنود . ولكنهم تغلبوا على ظلام احزانهم وخيبة آمالهم ببريق فنهم . واستمدوا من آلامهم مشاهد مسرحياتهم ، ووجدوا في الفن ملاذا ومبررا لهذا العالم ، وهذه الحياة الحافلة بالمآسي والاحزان . (لان الصفاء والسناء هو التغلب الفني على الخوف والالم .) فالتشاؤم علامة الضعف والانحطاط ، والتفاؤل علامة السطحية في التفكير وقصر النظر . اما التفاؤل الحزين او التفاؤل في المأساة ، فهو صفة الرجل القوي الذي ينشد شدة التجربة واتساع مداها ، ولو كان ذلك على حساب ما يواجه من ويل وهم . ويسعده ان يجد في الكفاح قانون الحياة ، (فالمأساة نفسها دليل على ان اليونانيين لم يكونوا متشائمين) لقد كان العصر الذي انتج الرواية الاسخيلوسية والفلسفة السابقة لسقراط من اعظم عصور اليونان .

الى ان جاء سقراط نموذج الرجل النظري ، فكان علامة لتراخي قوة الخلق اليوناني ، وحلت الثقافة العقلية المخدرة محل قوة الجسد والروح الرياضية القديمة . قد ادت هذه الثقافة العقلية الى اضعاف القوى الجسدية والعقليـــة ، وحلت الفلسفة النقدية محل الشعر الفلسفي الذي اتصف به العصر السابق لسقراط ، وحل العلم محل الفن ، والعقل محل الغريزة ، والحوار والنقاش محل اللعب والرياضة .

وتحول افلاطون الرياضي تحت تأثير تعاليم سقراط الى افـــلاطون الفنان الذي يتذوق الفن والجمال ، وانقلب افلاطون الكاتب القصصي والمسرحي الى افلاطون المنطقي عدو العاطفة ومطارد الشعراء ، فكان مسيحيا قبل المسيحية وراح يسعى وراء المعرفة والمنطق ، لقد نقش على معبد (دلفي) هاتان العبارتان اللتان تطفحان بالحكمة المجردة عن العاطفة (اعرف نفسك) و (تجنب الافراط في الامور) فتوهم سقراط وافلاطون ان المعرفة والعقل هما الفضيلة الوحيدة // وجاء ارسطو فاثبط الهمم بنظرية الوسط الذهبي ، ان الشعوب تنتج الاساطير والشعر في شبابها وفتوتها والفلسفة والمنطق في انحلالها وكهولتها . فقد انجبت اليونان في صباها (هوميروس) و (اسخيلوس) وقدمت لنا في انحطاطهـــا (يوربيدز) الذي راح يكتب القصة بالمنطق ، ويهدم الاسطورة بالعقـــل ، ويهدم تفاؤل عصر الرجولة بالعاطفة . وهو صـــديق سقراط الذي استبدل بموسيقى ديونيسوس حوار ابولو وخطابته .

فلا غرابة اذن ان اطلقت راعية معبد (دلفي) على سقراط احكم اليونان واعتبرت يوربيدز احكم اليونان من بعده . ولا غرابة ان جمع (ارستوفان) بغريزته السديدة شعور المقت والكراهية نحو هذين الرجلين ورأى فيهما علامة لانحطاط الثقافة . لقد تراجع هذان الرجلان عن موقفهما ، وحاولا اصـــلاح خطأهما ، فوضع يوربيدز اخر قصة له وهي (باخي) التي استسلم فيهـــا الى ديونيسوس وكانت فاتحة لانتحاره . وراح سقراط وهو في سجنه يتغنى بموسيقى ديونيسوس ليخفف من وخز ضميره ، ويسائل نفسه بقوله (ان ما لاافهمه لايعني انه غير معقول لاني لم افهمه افلا يجوز ان يكون هنالك عالم الحكمة يتلاشى فيه المنطق ؟ اليس من المحتمل ان يكون الفن ضرورة لازمة ومتممة للعلم ؟) ولكن هذا الاعتراف بالفن جاء متاخرا بعد ان ترك رجال العقل والمنطق هؤلاء

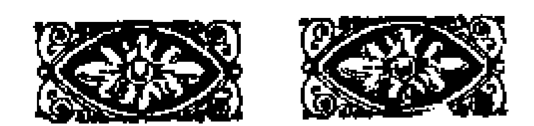
اثراً عميقاً في النفوس . وفسدت الرواية والقصة والاخلاق عند اليونان . لقد كان الشاعر يوربيدز والفيلسوف سقراط خـــاتمة لعصر الابطال ونهـــاية لفن ديونيسوس .

ولكن عصر ديونيسوس قد يعود ، الم يحطم « كانت » بضربة واحدة العقل النظري ؟ والانسان النظري ؟ الم يعلمنا شوبنهور عمق الغريزة ومأساة الفكر ؟ اليس ريتشارد فجنر « اسخيلوس » آخر جاء لاسترجاع الاساطير وتوحيـــد الموسيقى والمأساة مرة ثانية في نشوة روحية وطرب ديونيسي . لقد تفرع من جذور ديونيسوس المتأصلة في الروح الالمانيـــة ، قوة لا تشترك مع الثقافـــة السقراطية في شيء...الا وهي الموسيقى الالمانية ... في فلكها الواسع الفسيح من باخ الى بيتهوفن ، ومن بيتهوفن الى فجنر . لقد تأثرت الروح الالمانية كثيراً بفن ابولو الذي ساد ايطاليا وفرنسا .

وينبغي على الشعب الالماني ان يدرك ان غرائزه اصدق من هـذه الثقافات المتحلة المنحطة . وان يصلح الموسيقى كما اصلح الدين ، وان يصب في الفـــن والحياة قوة الاصلاح العنيفة الشديدة التي صبها لوثر في الـــدين . فمن يدري ، عسى ان تتمخض الروح الحربية الالمانية عن عصر آخر مــن عصور البطولة ، وعسى ان يبزغ من روح الموسيقى فجر مأساة جديد .

وفي عام ١٨٧٢ عاد نيتشه الى بال ، وعلى الرغم من انه كان لا يزال يعاني ضعفاً في قواه الجسدية ، فقد كانت روحه مشتعلة بالطموح . لقد عافت نفسه القاء المحاضرات المرهقة ، وخاب امله بنتائج الحرب ، واعتقد ان الامبراطورية الالمانية قد استأصلت الروح الالمانية . وبعد ذلك انتقل الى مهاجمة الجامعات

الالمانية ذات النعرة القومية فهو يقول ، « لقد علمتنا التجارب ان لا شيء يقف في طريق تطور اعاظم الفلاسفة اكثر من عادة تـأييد اسوأ الفلاسفة في الجامعات ... ولا نجد دولة تقدم على مناصرة فلاسفة مثل افلاطون وشوبنهور ... لان الدولة تخشى فلسفة هذين الفيلسوفين . » ودعا الى اعادة بناء الاخلاق والدين على اساس نظرية التطور ، وان عمل الحياة لا يتجه الى تحسين حال الاكثرية من الشعب ولكن الى خلق عباقرة ، ورفع اعظم واسمى الرجال. لقد اظهر تحمساً شديداً في احدى مقالاته بالموسيقي الموهوب «ريتشارد اجنر » الذي وصفه بانه لا يعرف للخوف معنى ، واطلق عليه اسم باعث الفن الحقيقي ، لانه اول من صهر الفنون في اسلوب فني جميل ، ولكنه لم يلبث ان خاب رجاؤه في فن فجنر . لقد شارك نيتشه افلاطون مخاوفه في ان الفن لا يعلم الرجال الخشونة .



٤ ـ اغنية زرادشت

اننا الآن نجد نيتشه يلوذ بالعلم ويتحول عن الفن بعد ان خيب الفن امله . ويلجأ ايضاً الى الفلسفة التي وجد فيها مأوى لا يقوى على دخوله احد من الطغاة . وراح يحاول تهدئة عواطفه المضطربة ، فلجأ الى تحليلها وفحصها كما فعل سبينوزا ، وكان يقول « اننا نحتاج الى كيمياء من العواطف » وهكذا تحول الى عالم نفساني ، ووضع كتاباً حلل فيه ارق المشاعر واغلى المعتقدات واخذ في تشريحها بقسوة لا تقل عن قسوة الطبيب الجراح . واهدى كتابه هذا الى فولتير وارسل نسخة منه الى فجنر وكان هذا آخر اتصال بينهما .

وفي عام ١٨٧٩ اصيب وهو في زهرة عمره بمرض جسدي وأوشك على الموت . واخذ يعد نفسه للنهاية بطريقة تنطوي على التحدي فقال لاخته « عديني اذا مت ان لا يقف حول جثماني الا الاصدقاء، وان لا يدخل الفضوليون من الناس . ولا تدعي قسيساً ينطق بالاباطيل والاكاذيب على قبري في وقت لا استطيع فيه الدفاع عن نفسي ، اريد ان ادفن في قبري وثنياً شريفاً . » ولكنه استعاد صحته وشفي من مرضه ، وتأجل طبعاً خروج هذه الجنازة البطولية . ونهض من فراش المرض محباً للصحة والشمس والحياة والضحك

والرقص وموسيقى الجنوب . كما خرج من المرض بارادة اقوى بعد ان كافح الموت وانتصر عليه .وشعر بحلاوة الحياة وبهجتها حتى في اشد احزانهـــا ومرارتها . وراح يؤمن بالجبر والقدر مثل سبينوزا ، « ليست العظمة عندي ان تتحمل احكام الضرورة وتصبر عليها بل تحبها » ولكن يا اسفاه ما اسهل القول واصعب العمل .

ثم اصدر كتابين وهما فجر اليوم » في عام ١٨٨١ و « الحكمة الفرحة » في عام ١٨٨٢ . وامتاز اسلوبه في هذين الكتابين برقة ووداعة عن الكتب التي اصدرها بعد ذلك . امامه الان سنة يتمتع فيها ببهجة الحياة في هدوء ،ويعيش على معاش تقدمه له الجامعة . وهنا وجد نفسه يقع في الحب فجأة . ولكن من احبها لم تبادله الحب ، لقد كانت عيناه حادتين عميقتين جداً ولا تبعث الراحة . وهنا انطلق نيتشه هائماً على وجهه من مكان الى مكان ، في حالة من اليـأس الشديد ، يرسل الحكمة تلوالحكمةضدالنساءاينماساروايناحل.والحقيقة انه كان ساذجاً بسيطاً ، ومتحمساً خيالياً ، لطيفاً ورقيقاً الى حد البساطة . وكـانت حربه على الرقة محاولة لتعويذ الفضيلة ادت به الى وهم مرير وجرح لم يندمـل ابـــداً .

انه الآن لايجد الوحدة والعزلة التي يريدها . اذ من الصعب عليه ان يعيش مع الناس ، لان الصمت امر عسير ، فانتقل من ايطاليا الى قمم جبال الالب ، لايحمل في قلبه حبا لاحد من الرجال او النساء ، وراح يصلي من اجل تفـوق الانسان وبعث الانسان الـكامل الاعلى .

وهناك على قمم جبال الالب هبط عليه الالهـــام الذي اوحى له باعظم كتاب له :

جلست هناك انتظر – ولا انتظر شيئا
وانعم بما هو فوق الخير والشر
فانعم بالضوء تارة وبالظل طورا
ولم اجد الا نهارا وبحيرة وظهيرة وزمانا ابديا
وفجأة يا صديقي اصبح الواحد اثنين
ومر بي زرادشت .

وهنا ارتفعت روحه ، وطفح كأسها وفاض ماؤها ، فقد وجد فيزرادشت معلما جديداًوالها جديداً وهو السوبرمان والانسان الاعلى كما وجد دينا جديدا وهو التكرار الابدي . واخذ يغني . لقد امتطت الفلسفة صهوة الشعر بفضل حرارة الهامه وقوة حماسه . « استطيع ان اغني اغنية وساغنيها على الرغم من وحدتي وانعزالي ، وسأغنيها وارددها على مسامعي ، ايها النجم العظيم الساطع ، ما عسى ان تكون سعادتك لو لم ينعم العالم بضيائك ... ها ، لقد اعيتني حكمتي ، واصبحت كالنحلة التي جمعت من العسل كثيرا ، اني بحاجة الى ايد لجمعه . وهكذا كتب كتابه « هكذا تكلم زرادشت» في عام ١٨٨٣ .

لقد كان هذا الكتاب آية في الابداع ، وقد عرف نيتشه ذلك فقال ،ان هذا الكتاب درة وحيدة يعجز عن الاتيان بمثله الشعراء ، ولا شيء يساويه في سحر الفاظه وعمق افكاره . ولو جمعنا كل ما شاهده العالم من خير وروح في اعاظم الرجال ، لما استطاعوا جميعهم ان يأتوا بحديث واحد من احاديث زرادشت . يا لها من مبالغة بسيطة ! ولكنه بلا ريب من اعظم الكتب التي انتجها القرن التاسع عشر . ومع ذلك فقد وجد نيتشه صعوبة في طبعه . فقد ارجيء نشر الجزء الاول منه بسبب انشغال مطابع الناشر في طبع نصف مليون نسخة

من كتاب تسابيح دينية ، تبعها سيل من النشرات ضدالسامية . هذا كما رفض الناشر طبع الجزء الاخير من الكتاب رفضا باتا ، لعدم صلاحيته من الناحية التجارية ، وقد اضطر هذا نيتشه ان يطبع كتابه على نفقته الخاصة . وباع من الكتاب اربعين نسخة فقط ، واهدى منه سبعا ، واعترف به واحد فقط ، ولم يمدحه او يطري عليه احد ، لانجد انسانا عانى من الوحدة مثل نيتشه .

واليك موجزا عن هذا الكتاب :

ينزل زرادشت وهو في الثلاثين من عمره من جبله الذي آوي اليه واعتكف فيه ، سابحا في تأملاته وفكره ، ليعظ الجماهير ويرشدها سواء السبيل ، اسوة بشبيهه الفارسي « زرادشت » ولكن الجماهير تحولت عنه لانشغالهابمشاهدة رجل يرقص على الحبل . ولا يلبث هذا الراقص على الحبل ان يسقط من على الحبل ويموت ، فيحمله زرادشت على كتفيه ويذهب به بعيدا ، ويناجيه بقوله ايها الراقص على الحبل ، سادفنك بيدي ، لان حياتك كانت حافلة بالاخطار . وانا ادعو الى حياة المخاطرة واقدر البطولة واقول « عش في خطر ، وشيد مدنك قرب بركان فيزوف ، وارسل سفنك لاكتشاف البحار المجهولة وعش في حرب دائمة . »

ولكن تذكر ان تكفر بالديانات جميعها . ويقابل زرادشت وهو هابط من الجبل ناسكا هرما اخذ يحدثه عن الله ، وانزوى زرادشت وراح يخاطب نفسه بقوله : « هل يمكن ان يكون ما قاله الناسك حقا؟ يبدو ان هذا الناسك المسن لم يسمع بعد وهو في غابته ان الله قد مات ! » ولكن الله قد مات حتما وماتت جميع الآلهة .

لقد انتهت حياة الالهة منذ عهد بعيد ، حقا لقد نت نهاية طيبة ومرحة كا لهؤلاء الالهة !

لم يتريثوا في موتهم في السحر ، كما تخبرنا تلك الاكذوبة ، وعلى النقيض فقد اضحكوا انفسهم حتى الموت !

وقام اله فالقى كلمة ابعد ما تكون عن صفات الالوهية اذ قال : « لااله الا الله ولا الهة من قبلي »

وضحك الالهة جميعا حتى اهتزوا على عروشهم وصاحوا « اليس من الدين ان يكون هنالك الهة عــــدة ؟ » فليسمـــع كل من له آذان . هكذا تكلم زرادشت .

اي الحاد طافح بالبشر والفرح هذا ؟ اليس من التقوى ان لايكون هنالك آ لهة ؟ وماذا عسى ان يخلق لو كان هنالك الهة ؟ اذ لو كان هنالك الهة كيف اطيق الا اكون الها ؟ لذلــــك لا وجود للآلهة . اي انسان اشد كفرا والحادا مني لـكي امتـع النفس بتعاليمه ؟

« اناشدكم يا اخواني واستحلفـكم ان تبقوا على اخلاصكم وولائكم لهذه الارض ، والا تصدقوا اولئك الذين يحدثونكم عن الامال السماوية ، انهم ينفثون فيكم السموم ، سواء علموا بذلك ام لم يعلموا . »

هل هذه وقاحة ؟ ولكن زرادشت يشكو من انه لم يعد بين الناس من يعرف التوقير والتبجيل . ويعتبر نفسه اتقى من لايعتقدون في الله . وبعدئذ يعلن عن اسم الاله الجديد .

« لقد ماتت جميـع الالهة ، ونريد الان ان يعيش السوبرمان « الانسان الاعلى »

انني اعلمكم عن الانسان الاعلى سينحدر من الانسان من يفوقه ويسمو عليه فماذا فعلتم لتفوقوا على الانسان وتسموا عليه ؟ان اعظم ما في الانسان انه جسر لا هدف ، وما يحب في الانسان انه انتقال وتدمير . انني احب اولئك الذين لايعرفون الحياة الا بالموت ، فهؤلاء هم الذين يتسامون .

احب المستهينين بالحياة ، والمستخفين بالموت ، لانهم اعظم المتدينين والصالحين . فهم سهام تتوق الى بلوغ حياة افضل . احب الذين يضحون بحياتهم من اجل هذه الارض التي نعيش عليها ، لا من اجل ما وراء النجوم . لكي تصبح الارض يوما مسكن الانسان الاعلى .

لقد حان للانسان ان يعرف هدفه ، لقد آن للانسان ان يبذر بذور اسمى آماله وغايته . اخبروني يا اخواني اليست الانسانية ناقصة اذا كان ينقصها الهدف ؟ ...

يبدو ان نيتشه قد تنبأ بأن كل قارىء سيظن نفسه بأنه الانسان الاعلى ، فأعلن بأن الانسان الأعلى لم يولد بعد ، واننا لسنا الا جذوره وتربته .«لاترغب في شيء فوق طاقتك ... ولا تكن فاضلا فوق قدرتك ، ولا تطلب من نفسك شيئا فوق احتمالك .» ليست لنا السعادة التي لايعرفها سوى الانسان الاعلى . ان اسمى هدف لنا هو العمل . لقد توقفت منذ مدة طويلة عن الكفاح من اجل سعادتي ، وانا الان اكافح من اجل عملي .

ولم يقنع نيتشه في خلق اله في صورة نفسه بل اراد ان يكتب الخلود لنفسه فقال . سيعود كل شيء في هذه الحياة بالتفصيل الدقيق مرة بعد مرة ، ومرات لانهاية لها ، حتى نيتشه سيعود وستعود المانيا ذات الدم والحديد والحروب ، والنار والرماد . كما ستعود كل جهود العقل البشري منذ بدأ في

ازمنة الجهل الى « زرادشت » انه لمبـــدأ مخيف ولكن كيف يمكن الا يكون كذلك ؟ ان اشكال الحقيقة محدودة ، ولكن الزمان لا نهائي غير محدود ، ولا بد ان تجتمع الحياة والمــادة يوما على صورة سبق لها ان اجتمعا بهـــا ، وهكذا سيعيد التاريخ نفسه مرة ثانيـــة ، وسيبدأ كما بـــدأ ، وينتهي كم إنتهى . ولا عجب ان يشعر « زرادشت » بالخوف ويتوقف عن الحديث عندما وصل في حديثه الى درسه الاخير هذا ، الى ان سمع صوتا ينــاديه « ما بك يازرادشت ؟ قل كلمتك وحطم نفسك إلى شظايا.

٥ - اخلاق البطل

لقد اتخذ نيتشه من كتابه زرادشت انجيلا له في حياته ، ولم تكن كتبه التالية الا تعليقا عليه . واذا كانت اوروبا لم تقدر شعره حق قدره فانها قـد تقدر نثره .

انه الان وحيد اكثر من اي وقت مضى . فقد بدا كتابه هذا شاذاومريبا في نظر اصدقائه ، وناح عليه زملاؤه العلماء في جامعة بال الذين اظهروا تقديرهم واعجابهم بكتابه السابق ، « مولد المأساة » وبكوا فيه عالما لغويا لامعـا ، وشاعرا فاشلا . وتركته اخته فجأة وتزوجت من رجل لايحبه نيتشه ،وسافرت الى باراغواي لإقامة مستعمرة اشتراكية . وطلبت من اخيها العليل الشاحب ان يرافقها رحمة بصحته ، ولكنه آثر حياة العقل على صحة البدن . ورغب في البقاء وسط المعركة الفكرية ، فقد كانت اوروبا بالنسبة له « متحفا ثقافيا » وراح يطوف في انحاء اوروبا متنقلا من سويسرا الى البندقية وجنوا ونيس وتورين . وكان يحلو له الكتابة بين اسراب الحمام التي كانت تتجمع قرب تماثيل الاسود في قيصرية سانت مارك . واعتاد ان يقول « ان هذا المكان هو غرفة عمـلي المفضلة .»ولكن تعرضه لوهج الشمس اضر بعينيه المريضتين . فأغلق على نفسه

باب غرفة باردة في طابق علوي واحكم ستائرها : واقعده ضعف بصره عن تأليف الكتب واكتفى بكتابة الحكم الاخلاقية .

وجمع هذه الحكم والمبادىء في كتابين اولهما تحت عنوان « ما فوق الخير والشر » عام (١٨٨٦) وثانيهما « تاريخ تسلسل الاخلاق » عام (١٨٨٧) وكان يرجو في هذين الكتابين تدمير الاخلاق القديمة ، وتمهيد الطريق لاخلاق الانسان الاعلى . ولفترة من الوقت عاد في بحثه عالما لغويا . واراد ان يدعم مبادئه الاخلاقية بمشتقات لغوية . فيقول ان في اللغة الالمانية كلمتين بمعنى سيء . احداهما تستعملها الطبقة العليا في حديثها عن الطبقة السفلى ومعناها عادي او عامي ، وتحولت هذه الكلمة بعد ذلك فاصبحت تستخدم بمعنى كلمة ، سوقي ، تافه سيء . اما الكلمة الاخرى فقد كانت تطلقها الطبقة السفلى على الطبقة العليا ومعناها ، غير مألوف غير عادي او خطير ، او مضر ، فقد كان نابليون سيئا على هذا المعنى ، كما ان كلمة حسن لها معنيان ايضا يقابلان كلمتي سيء . تستخدم الطبقة الارستقراطية هذه الكلمة بمعنى قوي ، وشجاع جبار محارب او الهي . اما بقية الشعب فيستعمل هذه الكلمة بمعنى مسالم ، غير مضر او لطيف .

اذن هناك تقديران متناقضان للسلوك الانساني ، أو وجهتان للنظر في الاخلاق : اخلاق السادة ، واخلاق الطبقات العامة . لقد كانت الفضيلة بالنسبة الى الروماني العادي ، تعني الرجولة والشجاعة والاقدام والجرأة . اما الاخلاق الثانية فقد جاءت من آسيا وخاصة من اليهود ايام خضوعهم السياسي . لأن الخضوع يولد الذل والضعة ، والعجز ينتج طلب المساعدة من الغير . وهكذا اجتاحت اخلاق الضعف والسلام والأمن وهي اخلاق الطبقات الضعيفة المحكومة

والمستعبدة والمغلوبة على امرها ، اخلاق الاسياد وهي حب المخاطرة والقوة . وحل المكر محل القوة ، وحل الغدر محل الثأر ، والشفقة محل العنف، والتقليد محل الابتكار ، وصوت الضمير محل الكبرياء والشرف. ان الشرف وثني روماني واقطاعي ارستقراطي . اما الضمير فيهودي مسيحي بورجوازي ديمقراطي . ان فصاحة الانبياء هي التي جعلت من اخلاق الطبقات المحكومة الضعيفة مقياسا للاخلاق العامة ، واصبحت الدنيا والجسد عنوانا للشر ، واضحى الفقر برهانا على الفضيلة .

لقد بلغ هذا التقدير او المقياس الاخلاقي ذروته في تعاليم المسيح الذي نادى بالمساواة بين الناس في الاقدار والحقوق . وتفرعت عن تعاليمه ومبادئه المبادىء الديمقراطية والاشتراكية . واصبحت هذه الفلسفات العامية الشعبية مقياسا وتعريفا لكل تقدم ، ورمزاً لكل مساواة . والواقع ان الحياة التي تقوم على مثل هذه المبادىء الشعبية هي حياة في طريق الانحلال والانحدار . ان آخر مرحلة لهذا الانحلال والانحدار هي تمجيد الشفقة ، وتعظيم التضحية بالنفس ، والشعور بالعطف على المجرمين . ان العطف امر مشروع اذا كان فعالا ، اما الشفقة فهي ضرب من الشلل العقلي ، ومضيعة للشعور في اصلاح من لا يرجى اصلاحهم من العجزة والمشوهين والاشرار والمرضى والمجرمين هذا بالاضافة الى ما تنطوي عليه الشفقة من السماجة وقلة الادب . ان زيارتنا للمرضى هي نزعة استعلاء منا نحو هؤلاء المرضى العاجزين .

ان الاخلاق هي ارادة القوة . والحب ذاته رغبة في التملك . ومطارحة الغرام معركة ، والزواج سيادة . لقد قتل « دون جو » حبيبته « كارمن » ليحول بينها وبين رجل آخر يريد امتلاكها . يظن الناس تجردهم عن الانانية في

الحب عندما يساعدون شخصا ، وقد تتنافى هذه المساعدة مع منـــافعهم ، ولكنهم بمساعدتهم له يريدون امتلاكه . وحتى حب الحقيقة ليس الا رغبة في امتلاكها . على امل ان يكون الباحث عنها اول مالك لها ، بأن يجدها عذراء لم يسبقه احد في الاستمتاع بها .

ان العقل والاخلاق عاجزان امام ارادة القوة هذه . وهما سلاحان في يدها . « والنظم الفلسفية ليست الا سرابا خادعا . » وما نراه ليس الحقيقـــة المنشودة التي طال بحثنا ولكنه انعكاس لرغباتنـــا ليس الا . هذه الرغبات الداخلية ، هذه النبضات لارادة القوة ، هي التي تقرر افكارنا « يستمر الشطر الاعظم من نشاطنا العقلي بطريقة لا شعورية لانشعر بها . . كما ان التفكـــير الشعوري هو اضعف التفكير . » وذلك لان الغريزة وهي العملية المبـــاشرة لارادة القوة ، لايزعجها الادراك الشعوري ، والغريزة هي اعظم انواع الذكاء الذي عرفه الانسان حتى الان . » لقد بالغ الانسان في تقدير الادراك العقلي ، وليس الادراك سوى عملية ثانوية لا اهمية لها ولا لزوم .

قلما يحاول اقوياء الرجال اخفاء رغباتهم وراء ستار من العقل . ونقاشهم بسيط وهو « انا اريد . » والرغبة تبرر نفسها في النفوس القوية السليمـة ذات السيادة والسيطرة التي لا تجد فيها الضمير والشفقة والندم منفذا ليدخلها . ولكن بعد ان سادت الاخلاق اليهودية المسيحية الديمقراطية في الازمنـــة الحديثة ، اصبح الاقوياء يخجلون من قوتهم وصحتهم ، وراحوا يتلمسون الاسباب لما يبتغون . ان الفضائل والقيم الارستقراطية آخذة في الانطفاء والاختفـــاء ، واوروبا يهددها غزو بوذي جديد . ولم ينج « شوبنهور » « وفجنر » من هذه المسيحية البوذية واصبحا بوذيين شفوقين . واضحت اخلاق اوروبا كلها وقيمها

قائمة على اساس منفعة الطبقة العامة في الشعب . ولم يسمح للاقوياء باستخـــدام قوتهم ، للنزول بهم الى مستوى الضعفاء . واصبـح الخير « الا" نفعل شيئـــا لانقوى على فعله . »

الم يدع « كانت » ذلك الصيني العظيم من كونسبرج ، الى عدم استخـــدام لناس كغايات ؟ ويترتب على ذلك ان الغرائز في الاقوياء كغريزة الصيد والقتال والغزو والفتح والحكم والسيطرة تتحول الى صراع داخلي لعدم وجود مخرج لها . ويؤدي هذا الى التقشف اللعين او الضمير السيء . اذ ان جميـع الغرائز التي لاتجد منفذا لها الى الخارج تتحول الى الداخل .

ان فضائل الطبقات السفـلى من الشعب (عــامـة الشعب) لو انتقلت عدواها الى الزعماء والقادة الاقوياء ، وحولتهم الى طينة عامة الشعب لـكان ذلك بدء الانحلال والفساد . لذلك ينبغي قبـل كل شيء ان نلزم مبـــادىء الاخلاق على الانحناء امام تدرج المراتب واختلاف الطبقات . ويجب على عامة الشعب ان تفهم تماما انه مما ينافي الاخلاق ان نقول ، ان مـــا يحق للفرد يحق للفرد الاخر ، لان اختلاف الاعمال يقتضي اختلافا في الصفـــات . والفضائل الشريرة الـتي يتميز بها الاقوياء ضرورية للمجتمع كالفضائل الخيرة التي يتصف بها الضعفاء . فالقسوة والعنف والخطر والحرب لها قيمتها كاللطف والشفقـــة والسلام . واعظم الرجال لايظهرون الا في اوقات الخطر والعنف والشـــدة والقسوة التي تستدعيها ضرورة الموقف . واعظم ما في الانسان هـو قوة الارادة وثبات العاطفة ، اذ بدون العاطفة يكون الانسان مائعا وحليبا لايصلح للعمل . كما ان الشره والحسد وحتى الكراهية امور لا بد منهـــا في

الكفاح واختيار الافضل وبقاء الاصلح : والشر من الخير بمثابة الابتكار من العرف . من المستحيل ان يتقدم الشعب ويتطور الا اذا حطم العرف واخترق التقاليد القديمة والنظم الجامدة . ولو لم يكن في الشر خير لاختفى وزال من الوجود . فحذار من الاسراف في الخير . وعلى الانسان ان يزيد في خيره وشره .

يعتقد نيتشه بأن الحياة طافحة بالشرور والقسوة ، وان الانسان القديم كان يشعر بنشوة كبرى وفرحة عظمى بارتكاب اشد اعمال البطش والقسوة . ويعتقد بأن الانسان اشد الحيوانات قسوة ، ويشعر بسعادة كبرى لا يضاهيها شيء من السعادة عندما يشاهد مناظر صراع الثيران واعمال الصلب وغيرها من المآسي والمناظر المؤلمة . وعندما اخترع الانسان فكرة عذاب جهنم . اراد ان يعزي نفسه بفكرة تعذيب اعدائه ومضطهديه وظالميه في الحياة الاخرى .

يجب ان نحكم على الاشياء بقدر قيمتها للحياة ، ونحتاج الى تفسير نفساني لجميع القيم . والمقياس الحقيقي لاختبار الفرد او الجماعة او الجنس هو الحيوية والمقدرة والقوة . والاطعمة المختلفة اثار عقلية مختلفة . فالديانة البوذية وليدة الارز والميتافيزيقا الالمانية نتيجة لشرب الجعة . والفلسفة تكون صحيحة او باطلة تبعا لتعبيرها عن حياة صاعدة او حياة هابطة .

يقول الضعيف فاتر الهمة ، « ان الحياة لا تساوي شيئا » وخير له ان يقول ، « انني لا اساوي شيئا . » لقد فقدت الحياة قيمتها عندما

تخلينا عن اخلاق البطولة ، واخذنا بمبادىء المساواة الديمقراطية التي تكفر بعظماء الرجال .

ان الاوروبي العامي في ايامنا هذه يمجد ويعظم صفاته الضعيفة ، كالرقة والمساواة والاعتدال والشفقة ، وانه لطيف وصبور ونافع للمجتمع . ويعتقد ان هذه الصفات من مميزات الانسانية .

* * *

٦ – السوبرمان « الانسان الاعلى »

وبما ان القوة وحدها وليست الشفقة هي الاساس للاخلاق ، لذلك ينبغي على الانسانية الا تتجه بجهودها الى رفع طبقـــة العوام والاكثرية من الشعب ، ولكن الى النهوض بأقوى وافضل الافراد في الشعب . « وان يكون هـــدف الانسانية هو الانسان الاعلى وليس الجنس البشري بأسره . » وآخر ما ينبغي للعقلاء المفكرين ان يتصدوا له هو تحسين الانسانية واصلاحهـــا . اذ لا صلاح للانسانية ، بل ليس للانسانية وجود على الاطـلاق ، وهي لفظ مجـرد فقط ، وكلما هو موجود هو مجموعة افراد اشبه شيء بمصنع كبير تجري فيه التجارب الكثيرة التي لاينجح منها الا القليل . وليس المقصود من التجارب سعـــادة الجماهير بل تحســـين النوع . والافضل على المجتمع ان يفنى اذا لم يعمل على بعث انسان اسمى . المجتمع اداة لرفع قوة الفرد وشخصيته ، والجماعة ليست غاية في حد ذاتها .

يبدو من حديث نيتشه اولا بأنه كان يرجو بعث نوع جديد من الانسان ، ولكنه اخذ يفكر بعد ذلك في ان الانسان الاعلى فرد متفوق يرتفع بشجاعته من وسط الشعب بفضل تربيته القوية لا بفضل الانتخاب الطبيعي . لذلك يجب

علينا اذا اردنا ان نخلق الانسان الاعلى ان نشرف على التربية ولا ندع الامر فوضى في يد الانتخاب الطبيعي ، لان طبيعة الحياة تعارض افذاذ الرجال . والطبيعة اقسى ما تكون على افضل افرادها . انها تميــــل الى الفرد المتوسط العادي وتعمل على حمايته ، وفي الطبيعة ميل دائم الى الهبوط بافذاذ الرجــال الى مستوى عامة الشعب واخضاعهم لهم . فهي تنتصر دائما للكثرة على الصفوة الممتازة ، اذن لا أمل في ان تختار لنا هذه الطبيعة الانسان الاعلى ، وعلينا اختيار الانسان الاعلى عن طريق وسائل تحسين النسل والتعليم الذي يرفع من قيم الرجال واقدارهم .

من السخافة ان نسمح لافذاذ الرجال الزواج عن طريق الحب ، بأن يتزوج الابطال من الخادمات ، والعباقرة من الخياطات.ونساء الازياء . لقد كان شوبنهور على خطأ ، حين ظن ان الحب عامل من عوامل تحسين النسل .وعندما يقع الانسان في الحب ينبغي ان لا نسمح له باتخــــاذ قرارات تؤثر على مجرى حياته كلها . فالحب يعمي البصيرة ويفقد الحكمة . وان لانسمح بزواج يقوم على الحب . وان يتزوج خير الرجال من خير النساء . اما الحب فلنتركه لحثالة الرجال. اذ ليس الغرض من الزواج مجرد النسل ، بل يجب ان يكون ايضا وسيلة للتطور والرقي .

ان النبل مستحيل بغير حسن المولد ، والعقل وحده لايؤدي الى النبل ، بل العكس هو الاصح ، فالعقل يحتاج الى ما يشرفه ويرفع قدره ، ماذا نريد اذن ؟ نريد الدم .. (سلامة العنصر) وبعد توفير حسن المولد وتحسين النسل ، تكون الخطوة الثانية لصياغة الانسان الاعلى ، مدرسة عنيفة قاسية تستهدف

الأخذ بيد التلاميذ نحو الكمال ، حيث يتدربون على تحمل المسؤوليات الجسيمة ، دون ان ينعموا بكثير من اسباب الراحة . بتدريب الاجسام على تحمل الالآم في صمت ، وتدريب الارادة على اطاعة الاوامر ومهام القيادة . وان تبتعد هذه المدرسة في نظامها عن التساهل والحرية التي تضعف القوة الجسدية والخلقية . ولكن ينبغي ان تفسح هذه المدرسة المجال امام التلاميذ ليتعلموا ويضحكوا من صميم قلوبهم ، ويجب ان يقوم تخريج الفلاسفة من هذه المدرسة على اساس مقدرتهم على الضحك . فمن يبلغ ذروة القوة يضحك من مآسي الحياة . كما يجب ان يخلو تعليم الانسان الكامل في هذه المدرسة من التطرف في الاخلاق كالتقشف والزهد واحتقار الجسد .

بمثل هذا المولد وهذه التربية يرتفع الانسان فوق الخير والشر . ولا يتردد في اللجوء الى العنف والقسوة في سبيل الوصول الى غايته . بحيث يكون شجاعا لا صالحا او خيرا . « ما هو الخير ؟ ... الخير هو الشجاعة . » « ما هو الخير ؟ هو كل ما يزيد الشعور بالقوة ، هو ارادة القوة ، هو القوة نفسها في الانسان . وما هو الشر ، الشر هو كل ما ينشأ عن الضعف . » قد يكون اميز ما يميز الانسان الاعلى هو حبه للمخاطرة والكفاح ، شريطة ان يكون لها هدف . ولا يجوز له ان يسعى الى السلام اولا ، وسيترك السعادة الى عامة الناس . لقد احب (زرادشت) الرحلات البعيدة التي تمتاز بالمخاطرة والمغامرة ، وكان يكره ان يعيش بعيدا عن الاخطار . لذلك كل الحروب خير على الرغم من حقارة اسبابها في الازمنة الحديثة . وحتى الثورة خير ، ولكنها ليست خيرا في حد ذاتها ، لانها تؤدي الى سيادة الجماهير وعامة الشعب وهو اسوأ انواع الحكم . ولكن الثورة كفاح ، والكفاح يبرز العظمة الكامنة في الرجال ، التي لم تصادف

من قبل فرصة او حافزا للظهور . ومن بين الفوضى يبزغ اعاظم الرجـــال كالنجوم اللامعة الراقصة ، كما بزغ نابليون من بين انقـــاض وفوضى الثورة الفرنسية . وكما خرج من فوضى عهد النهضة والعنف الذي رافقها شخصيـات عظيمة قوية لم تشاهدها اوروبا ابدا . الحيوية والعقل وعزة النفس هي الـــتي تصنع الانسان الاعلى ، ولكن ينبغي ايجاد الانسجام بينهـــا . وان تصبح العواطف قوة دافعة الا اذا وحد بينها هدف عظيم يصوغ شتات الرغبـــات في شخصية قوية . ويل المفكر الذي يكون ارضا لافكاره لا بستانيا منظما ومشذبا لها .

ان من ينساق لعواطفه وغرائزه هو الضعيف الذي تنقصه قـــوة الكبت والكبح ، والذي ليس لديه من القوة ليقول (لا) اذا استـــدعى الامر الى قولها . لانه انسان متنافر منحط . ان اعظم الامور هو تنظيم الانســـان نفسه ، (والانسان الذي لا يريد ان يكون فردا عاديا من عامة الشعب ينبغي الا يكون متساهلا مع نفسه .) وان يتخذ لنفسه هدفا كبيرا شاقـا على الآخرين ، وان يسلك في سبيل الوصول الى هدفه هذا كل طريق خـــلا خيانة الاصدقاء . هذا هو الهدف الاسمى لبلوغ النبل والوصول الى مرتبة الانسان الاعلى .

لن نحب الحياة ونسمو بها الا اذا جعلنا من هذا الانســان هدفاً لنـــا ومكافأة لاتعابنا . وان نبحث عن هدف يوحد بيننا ، ويؤلف بين قلوبنا ، ويربطها بالمحبة . ولنكن عظماء او خداما وادوات للعظماء . يا له من منظر رائع عندما قدم الملايين من الاوروبيين انفسهم لنابليون بونابرت ، من اجل تحقيق اهدافه وغاياته ، لقد ضحوا بحياتهم عن طيب خاطر له وراحوا يتغنون

لامه وهم يسقطون في ميدان المعركة . قد يتحول العقلاء منـــا الى الدعوة والتبشير لهذا الانسان الاعلى وتمهيد الطريق لمجيئه . وان نتعاون جميعـا عـلى اختلاف اوطاننا وازماننا لبلوغ هذه الغاية . ولن يسع (زرادشت) الا ان ينشد ويغني على الرغم من آلامه لو سمع اصوات هؤلاء المحبين للانسان الاعلى منشدا لهم . (انتم يا من تعيشون وحدكم اليوم وتقفون جانبا ستصبحون شعبا في يوم من الايام ، ومنكم يا من اخترتم انفسكم سينهض شعب مختار يخرج منه الانسان الاعلى .)

٧ ـــ الانحطاط

بناء على ما تقدم تكون الطريق الى الانسان الاعلى هي الارستقراطية ، اما الديمقراطية وهي سخافة حكم الاكثرية والعدد فيجب استئصالهـــا والقضاء عليها قبل فوات الفرصة وتأخر الوقت .واول خطوة لتحقيق ذلك هي تحطيم المسيحية . فقد كان انتصار المسيـح بدءالديمقراطية « لقد كان المسيحي الاول في اعماق نفســـه ثائرا على كل ضروب الامتياز . فقد عاش وكافح في سبيل المساواة بين الناس في الحقوق .» ولو عاش هـذا المسيحي الاول في يومنا هذا لقضي عليه بالنفى والابعاد الى سيبريا ، اليس هو القائل « سيد القوم خادمهم». ان هذا قلب للحكمة السياسيـــة والعقل السليم . والواقع ان من يقرأ هذا الانجيل يشعر بأنه يقرأ كتابا روسيا ، وان ما جاء فيه من آراء لا يمكن ان تتأصل وترسل جذورها الا في الطبقات السفلى وفي عصر انحط فيه الحكام وعجزوا عن الحكم . وعندما يتربـع العبد على عرش الحكم ينشـــأ التناقض ويصبح احقر الناس افضلهم .

وكما ادى غزو المسيحية لاوروبا الى القضاء على الأرستقراطية القديمة ، فقد ادى كذلك غزو النبلاء التيتون المحاربين الى احياء الفضائل والرجولة القديمة .

وغرسوا في ارضها جذور الطبقات الارستقراطية الحديثة . لم يكن هؤلاء النبلاء مثقلين« بالاخلاق » بل كانوا احراراً من جميع القيود الاجتماعية . هؤلاء هم الرجال الذين كونوا الطبقات الحاكمة في المانيا واسكندناوا وفرنسا وانجلترا وايطاليا وروسيا .

لا صحة لما يقال، من ان الدول نشأت بتعاقد الافراد فيما بينهم ، ولكن الذي انشأ الدول جبابرة من الغزاة العتاة والسادة الاقوياء ، من ذوي المقدرة الحربية والتنظيم العسكري . الذين انشبوا مخالبهم المخيفة في سكان بلاد تفوقهم عددا . اذ ما قيمة العقود مع من خلق بطبعه ليكون قائداً وسيدا وعنيفا قويا ؟

ولكن هذه الفئة الحاكمة افسدتها الفضائل الكاثوليكية المخنثة الضعيفة اولا ، والمبادىء الشعبية العامية الناجمة عن الاصلاح الديني ثانيا ، والتزواج مع الطبقات السفلى ثالثا .

لقد افسدت البروتستانتية وشرب الجعة الذكاء الالماني ، هذا بالاضافة الى الاوبرا الفجنرية التي ساهمت ايضا في افساد ذكاء الالمان . ونتيجة لذلك اصبحت بروسيا الالمانية اليوم الد اعداء الثقافة . لاشك ان هذه الحالة الحاضرة في المانيا تقف عقبة امام تفهم الشعب لفلسفتي . فاذا كان الزمن الطويل وحدههو القادر على فناء العالم كما يقول « جون » فان الزمن الطويل وحده سيقضي على الفكرة الباطلة التي تسود المانيا . لقد كانت هزيمة المانيا لنابليون نكبة على الثقافة كهزيمة لوثر للكنيسة . فقد اخذت المانيا منذ ذلك الوقت تنصرف عن نوابغ رجالها امثال (جوته) (وشوبنهور) وبيتهوفن) وراحت تعبد رجال

الوطنية ، واخشى ان يكون هذا خاتمة للفلسفة الالمانية . ومع ذلك فـــان الشعب الالماني يمتاز بطبيعة رزينة وعمق يبعث الامل في ان تنهض المانيـــا يوما لتخليص العالم وانقاذه . اذ ان في الشعب الالماني من فضائل الرجولة اكثر مما في الشعب الفرنسي او الانجليزي . هذا بالاضافة الى اتصاف الالمان بالمثابرة والصبر والجد — مما ادى الى تبحرهم في العلم والى نظـــامهم العسكري . ومن الممتع ان نشاهد اوروبا كلها قلقة من قوة الجيش الالماني . ولو امكن ايجـــاد تعاون بين قوة المانيا التنظيمية ومصادر الثروة والرجال في روسيا لـبزغ فجر عصر سياسي عظيم . اننا في حاجة الى الدمج بين الجنسين الالماني والسلافي ، كما اننا بحاجة الى براعة اليهودي المالية ، وبذلك قد نتمكن من سيادة العالم . اننا بحاجه الى اتحاد غير مقرون بشروط مع روسيا وبغير ذلك سينتهي بنـا الامر الى التطويق والاختناق . ان مشكلة المانيا ناجمة عن بلادة في التفكير . وتنقصها الثقافة العميقة التي جعلت من الفرنسيين اكثر الشعوب الاوروبيـــة صفاء في الفكر والذكاء . انا لا أومن الا بالثقافة الفرنسية ، واعتبر كل ثقافـــة اوروبية اخرى بجانب الثقافة الفرنسية كلاما فارغا . وعندما يقرأ الانسان كتب فرنسيين من امثال (مونتيني) و (لارشفوكو) و (شامفورت) يشعر الروح القديمة اكثر من قراءة اية جماعة اخرى من كتـــاب الشعوب لاخرى . واعتبر (فولتير) سيد العقل العظيم و (تين) اول المؤرخـــين لمعاصرين . كما ان الكتاب الحديثين منهم من امثال (فلوبير) و (بورجيه) (اناتول فرانس) يفوقون غيرهم من الكتاب الاوروبيين في وضوح الفكرة واللغة .

« اي وضوح وصفاء ودقة تميز هؤلاء الكتاب الفرنسيين ! ان ما نجده في

اوروبا من سمو في الذوق ونبل في الشعور والاخلاق هو من صنع فرنسا ، اعني فرنسا القديمة التي ازدهرت في القرنين السادس والسابع عشر . وعندما حطمت الثورة الفرنسية الطبقة الارستقراطية حطمت معها دعائم الثقافـة ، وغدت الروح الفرنسية الان هزيلة شاحبة بالمقارنة مع ما كانت عليه سابقا . ومع ذلك فلا تزال في فرنسا بعض الصفات الحميدة ، فلها دقة في الابحـاث الفنية والنفسانية لاتضاهيها فيها المانيا ... وفي الوقت الذي نهضت فيه المانيا كدولة عظمى في عالم السياسة فـازت فرنسا اهمية جديدة في عالم الثقافة .

اما روسيا فهي وحش اوروبا الاشقر ... ويمتاز شعبها بعناد وايمـان بالقضاء والقدر تميزه عن الشعوب الغربية . وتحكم روسيا حكومـة قوية لاتعرف هذه « الغباوة البرلمانية » وقد اجتمعت وتركزت فيها قوة الارادة منذ مدة طويلة ، وهي الان تهدد لايجاد منفذ لها . ولن يكون عجيبا اذا وجدنا روسيا تبسط سلطانها وتصبح سيدة لاوروبا . ولا يسع المفكر الذي يهتم بمستقبل اوروبا ان يسقط من حسابه اليهود والروس كعناصر فعالة في صراع القوى ، كما ان الايطاليين هم اجمل الشعوب الاوروبية المعاصرة واشدها عنفا ، اذ ان الانسان ينمو قويا شديدا في ايطاليا كما يقول « الفييري » في افتخار وزهو . وفي الايطاليين جلد الرجولة ، وكبرياء الارستقراطية التي تجدها حتى في اقل الطبقات الايطالية .

ان اسوأ الشعوب هم الانجليز ، وهم الذين افسدوا العقل الفرنسي باوهام الديمقراطية « ان اصحاب الدكاكين والبقر والنساء والانجليز وغيرهم من الديمقراطيين ينتمون الى بعضهم بعضا وبعضهم من بعض قريبا . » والنفعية الانجليزية

هي آفة الثقافة الاوروبية . اذ لا يمكن لانسان ان يتصور بان الحياة نزاع
على مجرد البقاء الا في بلاد بلغ فيها التنافس الى حد التناحر وقطع الرقاب .
ولا يمكن للديمقراطية ان تنشأ وتتغلب على الارستقراطية الا في بلاد تعج
اصحاب الدكاكين واصحاب السفن . هذه هي الهدية التي قدمتها انجلترا
الى العالم ، الا من يخلص اوروبا من انجلترا ، ومن يخلص انجلترا من
بالديمقراطية ؟

٨ ـــ الارستقراطية

ان الديمقراطية معناها انحراف ، معناها ان يسمح لكل جزء في الانسان بالانطلاق في المسرات والرغبات . معنا انحلال التماسك وتبادل التعاون ، وتتويج الفوضى والحرية . ومعناها عبادة اوساط الناس ومقت التفوق والنبوغ . ومعناها استحالة ظهور الرجال العظماء . اذ كيف يمكن لاعاظم الرجال الاذعان الى غش واكاذيب الانتخابات ؟

اية فرصة تقدمها الانتخابات لاعاظم الرجال ؟ ان الشعب يكره صاحب الروح الحرة عدو القيود ، الذي لاينتمي الى حزب من الاحزاب ، كما تكره الكلاب الذئاب . كيف يمكن ان يترعرع الانسان الاعلى في مثل هــــذه التربة ؟ وكيف يمكن لامة بلوغ العظمة اذا لم تنتفع وتستخدم اعظم رجالها باثباط همتهم وتركهم لايسمع بهم احد ؟ ان مثل هذه الامة سرعان ما تفقد اخلاقها بتمجيدها صاحب اكثرية الاصوات في الانتخابات بدلا من الموهوب المتفوق النابغ . في مثل هذا المجتمع تتشابه الاشيــاء وتتحول النساء الى رجال والرجال الى نساء .

ان مساواة المرأة بالرجل في الحقوق هي النتيجة الطبيعية للمبــادىء

الديمقراطية والديانة المسيحية . لقد استخفت النساء في هـذا المجتمع بضعف الرجال فطالبن بالمساواة والتشبه بالرجال . لقد فقدت المرأة قوتها ونفوذها بعد ان تم لها تحريرها ، والا فاين للنساء اليوم تلك المكانة العظيمة التي كانت لهن في ظل حكم البوربون ؟ والمساواة بين الرجال والنساء مستحيلة لان بينهما حربا سجالا ابدية ، ولن يتحقق السلام بينهما الا بانتصار احدهما وفرض سيادته على الاخر . ومن الخطر مساواة الرجل بالمرأة لانها لن تسعد بذلك وتؤثر الخضوع الى الرجل ، هذا اذا كان الرجل رجلا ، لان سعادتها وكمالها تكمنان في الامومة . ان الرجل بالنسبة الى المرأة وسيلة ، والغاية هي الطفل دائما ولكن ما هي المرأة بالنسبة الى الرجل ؟ ... انها لعبة خطيرة . يجب اعداد الرجال للحرب ، والنساء للترفيه عن المحاربين . وكل ما عدا ذلك فسخافة ، ومع ذلك فان المرأة الكاملة اسمي انسانية من الرجل الكامل ، ولكن هذه المرأة السامية في الانسانية امر نادر الوقوع ... ولا يستطيع الرجل ان يكون لطيفا تماما مع النساء .

ان من اسباب شقاء الزواج يكمن في تحقيق رغبات المرأة وملء حياتها ، والتضييق على خناق الرجل وافراغ حياتة . عندما يتودد الرجل للمرأة يعدها بان يقدم لهـا العالم . وعندما تتزوجه يفعل ذلك ، وينبغي عليه ان ينسى العالم بمجرد ان يرزقه الله طفلا ، ويتحول الحب الى اثره عائليـة . ان الامانة والابداع من نعم العزوبية . وجميع الازواج مشبوهين من ناحية التفكير الفلسفي ، ومن الحمق ان يشغل انسان مفكر نفسه باعباء الاهتمام بالاسرة وكسب العيش وتوفير الامن والراحة لزوجته واطفاله . لقد مات الكثير من الفلاسفة بعد ولادة اول طفل لهم .

وينبثق عن المساواة ، الاشتراكية والفوضوية وكلها متفرعة من الديمقراطية. فاذا كانت المساواة السياسية عدلا لماذا لايساوي بين الناس في القوة الاقتصادية ولماذا يكون بين الناس زعماء وقادة ؟ هناك بين الاشتراكيين من يقدر كتاب « زرادشت » ويعجب به ولكن لاحاجة بنا الى تقديرهم واعجابهم . وهناك نفر من الناس يدعون الى مذهبي في الحياة . ولكنهم في الوقت ذاته يدعون الى المساواة .. اريد ان اكون واضحا ، وان لااحدث بلبلة حول موقفي من هؤلاء الذين ينادون بالمساواة ، فاقول ان لامساواة بين الناس « ان العدالة لتصرخ في دخيلتي ان لامساواة بين الناس «ان طبيعة الانسان تأبى عليه المساواة »واولئك الذين يدعون الى المساواة يدعون لها لعجزهم عن ان يكونوا جبابرة طغاة ان الطبيعة تحب اختلاف الافراد والطبقات والانواع. كما ان الاشتراكية تتنافى مع الاسس البيولوجية : ان عملية التطور تقتضي انتفاع الاقوياء بالضعفاء. ان الحياة استغلال ، وتقوم كل حياة على افتراس حياة اخرى ، فالسمك الكبير يبتلع الصغير وهذه هي الحياة بتمامها . ان الاشتراكية تعني الحسد ، «والاشتراكيون يريدون انتزاع بعض ما في ايدينا . تثور الطبقات السفلى مطالبة بالاشتراكية ظنا منها ان هذه الثورة ستحررها من تبعيتها التي هي نتيجة طبيعية لضعفها وعدم كفايتها . ومع ذلك فان العبد لايكون نبيلا الا اذا ثار .»

ومهما يكن من امر هؤلاء العبيد فانهم خير من البورجوازيين سادة العصر الحديث . انه لمن علامة انحطاط ثقافة القرن التاسع عشر ان يكون رجل المال موضع هذا التقديس والتعظيم والحسد . كما ان افراد هذه الطبقة من رجال الاعمال عبيد ايضا ، فهم عبيد العمل الآلي الرتيب ، وضحايا العمل ، وليس لديهم الوقت للاطلاع على الاراء الجديدة ، والتفكير عندهم حرام ، كما ان

متعة العقل ولذة التفكير فوق متناولهم ووراء بلوغهم . وهذا هو السبب في ضجرهم وبحثهم المتواصل عن السعادة . ان منازلهم الكبيرة ليست بيـــوتا ، وبذخهم بلا ذوق ، وترفهم بلا طعم ومتعهم الشهوانية تهبط بالعقل ولاتنعشه. بالتفاهتهم ، انهم يجنون المال ولا يزيدهم هذا المال الا فقرا ، انظر اليهم وهم يقلدون الطبقة الارستقراطية فيكبلون انفسهم بقيودها من غير ان ينعموا بما تنعم به هذه الطبقة من لذة التفكير ، ومتعة التأمل وملكة العقل . انظراليهم كيف يصعدون بسرعة كالقردة بعضهم فوق بعض الى ان يجذبوا انفسهم الى الهاوية والوحل . لا خير في هؤلاء الاثرياء الذين يجمعون المال لانهم لايستطيعون ان يخلعوا عليه جلالا باستخدامه استخداما نبيلا في رعـــاية الآداب ونصرة الفنون.لاينبغي ان يحرز المال سوى ذوي العقول ، لأن الآخرين يفكرون بالمال غاية في نفسه ، ويسعون وراءه ويفنون حياتهم في جمعه . انظر الى جنون الامم المعاصرة وهي تسعى لانتاج اقصى ما في وسعها لتبلغ من الثراء اقصى حد مستطاع . انظر الى افراد هذه الطبقة البورجوازية وهم يتربصون لبعضهم بعضا ، ويبحثون عن اتفه الارباح حتى من بيـع اللامة والنفاية . ان اخلاق طبقة التجار هذه لاتختلف شيئا عن اخلاق قراصنة البحار . يشترون من ارخص الاسواق ويبيعون في اغلاها . ومع ذلك يصرخون ويطالبون بعدم تدخل الحكومة في شئونهم ، ليبقوا وحدهم ، مع ان هذا الصنف من الرجال . يجب مراقبتهم والاشراف عليهم اكثر بكثير من غيرهم . ان موقفهم هذا يسوغ اتخاذ اجراءات اشتراكية على الرغم من خطورتها . يجب ان ننتزع جميع فروع التجارة والنقل التي تسعى الى تكديس المال والثروة ، وخصوصا الاسواق المالية من ايدي الافراد او الشركات الخاصة ، وان نعتبر الافراط

في الثروة والافراط في الفقر مصدرين من مصادر الخطر التي تهدد كيان الامة .

يعتقد نيتشه بان الجندي اعلى قدراً من البورجوازي ، واقل مرتبــة من الارستقراطي فالقائد الذي يوجه جنوده في ميدان المعركة حيث يسعدون بالموت في نشوة المجد اكثر نبلا من صاحب العمل الذي يستخدم عماله في آلاته التي تدر عليه ربحا . انظر كيف ينطلق الناس في فرحة الى ميادين القتال ويؤثرون الموت على البقاء في المصانع والمبارك . لم يكن نابليون جزارا ، بل كان محسناً نافعاً . فقد قدم للناس موتا عسكريا شريفا بدل ان يموتوا في ميادين الجوع او مخاوف الفاقة . وقد التف الرجال حوله لانهم آثروا مخاطر المعارك على حياة المصانع . سيجيء يوم يمجد فيه الناس نابليون ويخلدون ذكراه . لانــه رفع من قدر المحارب على التاجر والنفعي . ان الحرب افضل علاج للشعوب التي دب فيها الضعف والترف والراحة والهوان والخسة . لانها تثير الغرائز التي افسدها السلام . والحرب والتجنيد العام ترياق لسموم تخنث النظم الديموقراطية . وعندما تتحول الامة عن الحرب والغزو ، فان هذا من علامات انحطاط الامة ، وانها اصبحت ثمرة ناضجة للوقوع في يد الديموقراطية وحكم التجار . ومع هذا فان اسباب الحروب الحديثة ابعد ما تكون عن النبل ، والحروب التي اثارتها الخلافات الدينية والعائلات المالكة افضل قليلا من لجوء التجار الى المدافع والبنادق لحل الخلاف بينهم . ستخوض هذه الحكومات الديموقراطية الاوروبية غمار حرب طاحنة في صراع على الاسواق العالمية وستقع هذه الحرب خلال الخمسين سنة القادمة ولكن قد تنتهي هذه الحرب الطاحنة المجنونة بتوحيد اوروبا . وهي وحــدة يرخص في سبيلها كل ثمن حتى ولو كان حربا تجارية . اذ لن يسفر توحيد اوروبا الا عن ارستقراطية عليا حاكمة قد تؤدي الى انقاذ اوروبا وخلاصها .

ينبغي على السياسة ان تعمل على ابعاد رجال الاعمال عن الحكم ، لان رجل

لاعمال ينقصه بعد النظر واتساع المدى المتوفر في الارستقراطي . لان ارفـــع الرجال لهم حق مقدس في الحكم ، وهو حق المقدرة الساميه ، وللرجل العامي مكانه ، وليس مكانه العرش طبعاً ، والرجل العامي سعيد في مكانه وفضائله ضرورية للمجتمع كفضائل الزعيم . ان المدينة السامية كالهرم لا تستقر الا على قاعدة فسيحة ضرورية من الطبقة الوسطى القوية السليمة المتماسكة . والناس اينما وجدوا ، بعضهم خلقوا قادة وبعضهم اتباعا ، وسترضـــح الاكثرية وتشعر بالسعادة في العمل تحت اشراف هؤلاء الزعماء الاقوياء وتوجيههم العقلي .

والمجتمع المثالي هو الذي ينقسم الى ثلاث طبقات .

١ – طبقة المنتجين وتشمل المزارعين والعمال ورجال الاعمال .

٢ – طبقة الموظفين وتشمل الجنود . ٣ – وطبقة الحكام . وللحكام ان يديروا سياسة الدولة بان يكونوا ساسة وفلاسفة لا موظفين . لان عمل الموظفين عمل حقير لا يتناسب مع الحكام . ان سلطـــة الحكام تكمن في السيطرة على الجيش والمال ولكنهم يعيشون كالجند لا كرجال المال . بان يكونوا حكاماً وحماة كالذين وصفهم افلاطون . لقد اصاب افلاطون عندما قال ان الفلاسفة هم اسمى الرجال واعلاهم مكانة . وان يكونوا رجال شجاعة وقوة وبأس وثقافة وان يمزجوا بين العلم والقيادة . وان تربطهم الاخلاق الفاضلة والصداقة المتينة .

هل ينبغي ان تكون هذه الفئة الحاكمة طائفية وسلطتها وراثية ؟ والجواب على هذا السؤال نعم الى مدى كبير . والا تمزج دماً جديداً الى دمها الا نادراً ، اذ لا شيء يضعف الارستقراطية ويفسدها ويلوث دمها اكثر من الزواج من الاغنياء العوام السوقة . كما هو متبع في الارستقراطية الانجليزية . لقد دمر هذا التزاوج اعظم هيئة حاكمة شاهدها التاريخ الا وهي مجلس الشيوخ الارستقراطي الروماني . اذ لا مصادفة في المولد ، والانسان الكامل ثمرة اجيال من الاعداد وحسن الانتخاب . لقد دفع آباء واجداد الانسان الكامل ثمن كماله .

هل تؤذي هذه الفلسفة آذاننا التي استمعت طويلا الى مبادىء الديموقراطية؟ ان الشعوب التي لا تحتمل سماع هذه الفلسفة مصيرها الفناء . واما الشعوب التي تباركها وترى فيها نعمة كبرى فستصبح سيدة العالم. لن نجد الشجاعة والبصيرة الا في هذه الطبقة الارستقراطية التي ستوحداوروبا وتقضي على النزعات القومية السائدة . ولنكن اوروبيين صالحين كما كان نابليون ، وجوته ، وبيتهوفن ، وشوبنهور ، وشتاندهال وهيني . لقد طال انقسامنا وتشتتنا الى اجزاء يمكن جمعها في واحد لا يتجزأ . اذ كيف يمكن لثقافة عظيمة ان تنمو وتزدهر في هذا الجو الاقليمي والقومي الضيق . لقد مضى زمن السياسة الاقليمية الجزئية ، وجاء عصر فرض السياسة العظيمة . متى سيظهر هذا الجنس الجديد ، والزعماء الجدد ، متى ستولد اوروبا .

٩ ـــ نقد

ان هذه الفلسفة لقصيدة شعرية وقد تكون شعراً اكثر منها فلسفة . اننا نرى في فلسفته اموراً يستحيل تحقيقها ، فقد ذهب بعيداً في محاولة تقويم نفسه، ولكننا نرى مقدار ما تكبـــده من الم ومجهود في كل سطر من سطوره . ولا يسعنا الا ان نحبه على الرغم من نقدنا له . يمر بنا وقت نمل فية الحنو والرقه والوهم ، ونستطيب لذعة الشك والانكار ، وهنا يكون نيتشة بالنسبة لنـــا كدواء مقو وهواء طلق وريح منعشة بعد صلاة دينية طويلة في كنيسة مكتظة. « ان من يعرف كيف ينعم بانفاس كتابتي يشعر بانها انسام السمو ، ونفحات القوة . » اما عن اسلوبه فلنقرأ ما كتبه هو عن نفسه « ان في اسلوبي رقصاً ورماحاً وطعناً ولغتي سخية كريمة وعصبية عنيفة . انه اسلوب لاعب السيف بسرعته ولمعانه . » ولكننا باعادة قراءته نشعر بان شيئاً من بريق اسلوبه يكمن في مبالغته ، والى سهولة بالغة في قلب كل قيمـــة مقبولة ، وفكرة مألوفة ، والسخرية من كل فضيلة ، ومدح كل رذيلة . واخيراً فان هذا البريق في اسلوبه يلهب اعصابنا كسوط ينهال على اجسادنا . وهناك مسحة تيتونية من المباهاة في أسلوبه العنيف ، ويعوزه الكبـــح وهو اساس الفن . كما ينقصه الانسجام

والتوازن ودماثة النقاش ومع ذلك فهو اسلوب قوي يملكنا بعاطفته وتكراره.

ان نيتشه لا يحاول اقامة الدليل ، بل يعلن افكاره ويكشفها ، ويقدم لنا خيالا لا منطقاً ، ويظفر بنا بخياله اكثر من منطقه . وهو لا يقدم لنا فلسفة وشعراً فحسب بل ايماناً جديداً واملا جديدا وديناً جديدا .

ان افكاره واساليبه تكشف عن انه ابن الحركة الرومانتيكية . وفي اعتقاده ان ما ينبغي ان يطلبه الفيلسوف من نفسه اولا واخيراً هو ان يسود عصره بنفسه . لقد اعتاد نيتشه ان يهاجم من يدين لهم بفلسفته . فقد هاجم افلاطون الذي استمد الكثير من افكاره . والواقع ان فلسفة نيتشه الاخلاقية والسياسية هي فلسفة افلاطون . وقد فشل تماماً في ان ينفذ بعمق الى الروح اليونانية .

لقد غالى نيتشه كثيراً في نظامه الاخلاقي . فنحن نوافق على الحاجة الى حث الرجال على ان يكونوا اكثر شجاعة واصلب عوداً واقوى مراساً ، فقد طالبت كل فلسفة اخلاقية بهذا . ولكن لا داعي الى حث الناس لان يكونوا اشد قسوة واكثر شراً . هذا وليس من الانصاف ان نشكو من ان الاخلاق سلاح في يد الضعيف يستخدمه للحد من قوة القوي . والواقع ان الاقوياء لم يتأثروا بالاخلاق كثيراً ، بل استخدموها استخداماً يتناسب مع منفعتهم . هذا بالاضافة الى ان معظم مبادىء الاخلاق قد فرضت من الاعلى على الاسفل .

قد تكون بصيرته السياسية اصدق من بصيرته الاخلاقية ، فقد ذهب الى ان الارستقراطية هي الحكومة المثالية ، ولا احد ينكر هذا . « في كل شعب من الشعوب فئة من افضل الرجال وأحكمهم وأذكاهم وأشجعهم ، وفي وسعنا ان نجدهم ونتوجهم ملوكاً علينا » ولكن من هي هذه الفئة العظيمة من

الرجال ؟ وهل ينبغي ان تكون قاصرة على فئة معينة من العائلات ؟ وهل يعني هذا ان نقيم علينا حكومة ارستقراطية وراثية ؟ ولكننا جربنا مثل هذه الحكومة الارستقراطية الوراثية التي كانت تؤدي الى ايثار مصلحة طبقتها وركودها . كما ان تزاوج هذه الطبقة الارستقراطية من الطبقة المتوسطة قد أدى الى انقاذها في بعض الحالات كما أدى الى القضاء عليها في حالات اخرى . وقد استطاعت الطبقة الارستقراطية الانجليزية الاحتفاظ بمركزها بتزواجها من ابناء الطبقة المتوسطة . هذا بالاضافة الى ان الارستقراطية لا تميل الى توحيد العالم كما اعتقد نيتشه ، ولكنها تميل الى سياسة قومية ضيقة . اذ لو تخلت هذه الحكومات الارستقراطية عن المبادىء القومية لفقدت المنبع الاساسي لسلطتها الا وهو ادارة السياسة الخارجيه . هذا وقد لا تكون الدولة العالمية التي نادى بها نيتشه صالحة ونافعة للثقافة كما اعتقد . لأن الشعوب الكبيرة بطيئة الحركة . وقد تكون المانيا قد خدمت الثقافة قبل وحدتها اكثر مما خدمتها بعد وحدتها وامبراطوريتها وتوسعها .

ومن الاوهام الشائعة ان فترات الثقافة العظمى كانت عصور ارستقراطية وراثية . والعكس هو الصحيح . فقد كانت عصور بركلس ومديتشي واليزابيت عصوراً مزدهرة تغذت بثروات الطبقة البورجوازية الناشئة . كما ان روائع الادب والفن لم ينتجها ابناء الطبقة الارستقراطية بل ابناء الطبقة البورجوازية المتوسطة ، من امثال سقراط ابن القابلة وفولتير ابن المحامي ، وشكسبير ابن الجزار . والواقع ان الثقافة ازدهرت دائماً في العصور التي رافقها التغير والحركة — عصور تصعد فيها طبقة جديدة عنيفة الى مركز السلطة والفخر . ومن السخافة ان نستثني في السياسة ايضاً عباقرة لم ينحدروا من الطبقة الأرستقراطية والافضل ان يكون المجال مفتوحا امام العبقرية اينما وجدت وولدت . وقد جرت العادة ان يولد العباقرة في اكثر الاماكن غرابة واستهجاناً . والافضل ان يحكمنا

افضل الرجـــال وأحكمهم بغض النظر عن مولدهم وطبقاتهم . ليست الارستقراطية مولداً ونسباً بل كفاءة ومقدرة . ارستقراطية تغذيها ديمقراطية تفتح ابواب فرصها على قدم المساواة امام الجميع .

ولكن على الرغم من النقد والاستنكار الذي وجه الى نيتشه لا يسعنا الا ان نقول انه لا يزال يقف طوداً راسخاً في الفكر الحديث ، وجبلاً شامخاً في النثر الالماني ، على الرغم من مبالغته قليلاً في اطراء نفسه عندما قال ، ان المستقبل سيقسم الماضي الى ما قبل نيتشه وما بعده . ولكنه افلح في تقديم قيمة لم تكن معروفة عملياً في الاخلاق ، الا وهي الارستقراطية . وانه كتب اجمل النثر وأعظمه في ادب القرن الذي عاش فيه . هذا بالاضافة الى دعوته الى الانسان الاعلى المتفوق على الانسان الحالي . لقد كانت المرارة تطبع اسلوبه ولكنها مرارة مقرونة باخلاص كبير . لقد نفذت افكاره عبر سحب العقل الحديث وانسجته بسرعة البرق وشده الريح . فقد صفا سناء الفلسفة الاوروبية ، وراق جوها . وزاد انتعاشنا بنسيمها بعد ان كتب فيها نيتشه .

١٠ ـ خاتمة

قال « زرادشت » احب من يسعى الى خلق شيء اسمى منه ثم يموت . »

لا شك ان تفكير نيتشة الشديد قد استهلك حياته قبل اوانها . كما ادت المعركة التي خاضها ضد عصره الى اختلال توازن عقله . لقد اعلن حرباً شعواء في اواخر ايام انتاجه على الاشخاص والآراء والانبياء من فجنر الى المسيح وغيرهم . وبعد انهيار عقله بدت العصبية جلية حتى في ضحكه . ولا شيء يصور لنا مدى ما وصلت اليه حالته اكثر من قوله . « ربما اعلم اكثر من غيري السبب في ان الانسان هو الحيوان الوحيد الذي يضحك ، لانه وحـــده الذي يتألم اشد الالم الذي اجبرة على اختراع الضحك . »لقد اثر مرضه وضعف بصره الذي اوشك ان يقترب به من العمى على انهيار عقله . واخذت تطارده اوهام العظمة والاضطهاد . فقد ارسل احد كتبه الى « تيني » مرفقاً بكلمة يصف فيها الكتاب بكونه اعظم كتاب ظهر في العالم . وملأ كتابه الاخير بالاطراء والثناء على نفسه .

اخذ بعض الناس في تقديره ، ولكن تقديرهم جاء متأخراً ، فقد ارسل له « تيني » كلمة اطرى فيها عليه في الوقت الذي تجاهله فيه الجميع . وكتب له براندز يخبره بانه يلقي محاضرات في جامعة كوبنهاجن عن ارستقراطية نيتشة

الراديكالية . وارسل له احد المعجبين مبلغ اربعمئة دولار . ولكن هذه التقديرات المضيئة وصلت عندما كان نيتشه يعيش في ظلام العمى والعقل ، وفقدان الرجاء والامل .

لقد نزلت به الضربة الاخيرة في تورين في شهر يناير من عام ١٨٨٩ . لقد كانت ضربة الجنون . وراح يتعثر في عماه في غرفته ، واخذ يكتب رسائل بدا فيها الجنون واضحاً . فارسلوه الى المارستان ولكن سرعان ما جاءت امه العجوز لتأخذه معها ليعيش تحت عنايتها . وبقي معها الى ان توفيت واخذته اخته ليعيش معها في فيمار . لقد صنع له « كرامر » تمثالاً رقيقاً ظهر فيه ذلك العقل الجبار الذي امتاز به سابقاً ضعيفاً محطما . ومع ذلك فان المرحلة الاخيرة من حياته لم تكن كلها شقاء . فقد طبع السلام والهدوء الذي حرم منه دائما حياته الآن . لقد رحمته الطبيعة بعد ان ألقته مجنونا . وفي مرة لمح اخته تبكي وهي تنظر اليه ولم يستطع ان يفهم السبب في دموعها وسألها « لماذا تبكين يا ليزبيت ؟ هل انت حزينة ؟ » وفي مرة سمعها تتحدث عن الكتب فأضاء وجهه الشاحب وقال ، في تألق وبهجة ، « آه ! لقد كتبت انا ايضا كتبـاً حسنة » ومرت لحظة التألق .

توفي في عام ١٩٠٠ . لا نجد عبقريا دفع ثمنا غالياً لعبقريته ما دفعه نيتشه .

الفصل العاشر

الفلاسفة المعاصرون في اوروبا

برجسون، كروتشي، وبرتراند رسل

١ ـ هنري برجسون

الثورة المادية

من الممكن ان يكتب تاريخ الفلسفة الحديثة على اساس كونه صراعا بين علم النفس والعلوم الطبيعية . قد يبدأ الفكر الانساني بدراسة نفسه ، ويحاول اذ يدخل العقل في دائرة المظاهر المادية والقوانين الميكانيكية . او يبدأ بنفسه مسوقاً بضرورة المنطق الى تصور ان جميع الاشياء من خلق العقل وانشائه . ان فضل العلوم الرياضية والميكانيكية في تطور العلم الحديث وانتعاش الصناعة والعلوم الطبيعية تحت ضغط الحاجة الى التوسع ، قدم للتفكير والتأمل قوة مادية دافعة . واصبحت اكثر العلوم نجاحاً نماذج للفلسفة على الرغم من اصرار « ديكارت » والحاحه في ان تبدأ الفلسفة سيرها من النفس ومن ثم تتابع طريقها الى العالم

الخارجي . لقد دفع تصنيع اوربا الغربية الفكر بعيداً عن الفكر ، واتجه بـه الى الاشياء المادية .

لقد كانت فلسفة سبنسر ذروة التعبير عن وجهة النظر الميكانيكية هذه . على الرغم من المناداة به بانه فيلسوف الدارونية . والواقع ان سبنسر كان صدى لحركة التصنيع وانعكاساً لها . فقد اضفى على الصناعة مجداً وفضيلة ، وهو يبدو لنا ميكانيكيا او مهندسا شغلته النواحي المادية اكثر من كونه بيولوجيا يشعر بالحياة . لقد احتلت البيولوجيا المكان الذي كانت تحتله العلوم الطبيعية في الافكار الحديثة ، واخذ الاتجاه يميل الى النظر الى جوهر العالم وخفاياه في حركة الحياة لا في الاشياء . والواقع ان المادة نفسها كادت تدب فيها الحياة في يومنا هذا ، لقد قدمت دراسة الكهرباء والمغنطيسية والاليكترون صبغة حيوية للعلوم الطبيعية . وهكذا تقدم علم النفس .

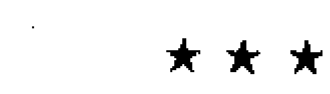
لقد كان شوبنهور اول من أكد اهمية الحياة على القوة . وجاء برجسون في عصرنا الحاضر وتناول هذه الفكرة بالبحث واستطاع ان يجذب اليها انظار هذا العالم الذي طغت عليه روح الشك بفضل قوة ايمانه واخلاصه .

ولد برجسون في باريس عام ١٨٥٩ من ابوين فرنسيين يهوديين . وكان طالباً نجيباً نال جميع الجوائز التي وضعتها المدرسة للمتفوقين من تلاميذها . لقد تخصص في بادىء الامر في الرياضيات والعلوم الطبيعية . ولكن مقدرته على التحليل سرعان ما وضعته وجها لوجه امام المشاكل الميتافيزيقية الكامنه وراء كل علم . فاتجه في الوقت ذاته الى دراسة الفلسفة . وفي عـام ١٨٩٨ التحق في مدرسة المعلمين العليا، وعين بعد ان تخرج منها استاذاً للفلسفة في احدى المدارس.

وهناك في عام ١٨٨٨ كتب اول مؤلف له « الزمن والارادة الحرة » واعقبه بكتاب آخر بعد ثمانية اعوام وهو «المادة — والذاكرة »وهو اشد كتبه صعوبة . وفي عام ١٨٩٨ عين استاذاً في دار المعلمين العليا. وفي عام ١٩٠٠ استاذاً بالكوليج دي فرانس التي بقي فيها حتى وفاته في عام ١٩٤١ . وذاع صيته في العالم عام ١٩٠٧ بعد ان اخرج الى العالم اروع كتبه « التطور المبدع » واصبح في يوم وليلة اكثر الشخصيات شعبية في عالم الفلسفة . وفي عام ١٩١٤ انتخب عضواً في الاكاديمية الفرنسية . ومما يبعث على الدهشة ان برجسون الذي كتب له ان يسدد ضربة قوية للمذهب المادي كما سدد داود ضربته القاتلة الى جوليت الجبار كان في شبابه من المتحمسين الى « سبنسر » ولكن المعرفة العميقة تؤدي دائما الى الشك ، واصحاب الشك في شبابهم ينتهي شكهم الى ايمان . لقد قلل « باستور » من اهمية الاعتقاد بتوليد الحياة من المادة غير الحية . وبعد نظرية استمرت مئة سنة ومئات التجارب فشل الماديون في حل مشكلة اصل الحياة . ومرة ثانية على الرغم من وصل الفكر والعقل فان هذا الوصل بقي غامضا كما كان . فاذا كان العقل مادة وكانت كل عملية عقلية عبارة عن نتيجة آلية لحالات محايدة ليس الا ، فما فائدة الشعور اذن ؟

يقول المذهب المادي ليس ثمة حياة ارادية اي ليس في الوجود تلك القوة الحيوية التي تريد هذا فتعمله ولا تريد ذلك فتنبذه . وكل ما هنالك حالات مادية متتابعة ، كل حالة نتيجة لما قبلها ومقدمة لما بعدها . وهنا يتساءل برجسون : اذا كان الوجود بكل ما يحوي في لحظة معينة نتيجة آلية للحظة التي سبقتها ، دون ان تكون هنالك قوة مدركة تنشيء وتخلق وتختار ، واذا كانت تلك

اللحظة السابقة اثرا آلياً للتي سبقتها ، وهكذا دواليك ، فنحن سنرجـــع في هذا التسلسل الى ان نصل الى السديم الاول ، ونتخذ منــه سبباً لكل ما طرأ على الكون من احداث ، وان نعتقـــد بان السديم هو السبب في كل سطر كتبه شكسبير وانه العلة في فصاحة « هملت » و « عطيـــل » و « مكبث » و « ولير » في كل جملة وعبارة قالوها .



٢ ـ العقل والمخ

يقول برجسون اننا بطبيعتنا نميل الى النزعة المادية لاننا نميل الى التفكير في صيغة المكان . ولكن الزمان امر جوهري كالمكان . ولا شك ان الزمان هو جوهر الحياة ، وقد يكون جوهر الحياة كلها . وما ينبغي علينا فهمه هو ان الزمان تراكم ونمو ودوام . والدوام هو استمرار تقدم الماضي الذي تتزايد احداثه قليلاً الى ان يتضخم ويكون المستقبل . وهذا يعني ان الماضي يمتد للحاضر ويبقى هناك حقيقة وعملاً . والبقـــاء يعني ان الماضي يبقى ولا يضيع منه شيئاً . وبما ان الزمـــان عبارة عن تراكم الصور التي مرت على الوجود ، فيستحيل ان يكون المستقبل مشابهاً للماضي ، لان في كل خطوة زيادة تضاف الى ذلك التراكم . وفي كل دقيقة ينشأ شيء جديد غير منتظر . والتغير اكثر تطرفاً مما نعتقد .

والذاكرة عندنا هي وعاء البقاء ، وخادمة الزمان التي تحفظ لنا الكثير من صور الماضي المتراكمة لكي تكون لنا عوناً في حياتنـــا . وكلما اتسع مدى الحياة اتسع معها نطاق الاختيـــار . اي انه يعرض للانسان مؤثرات عدة تستدعي منه سرعة اختيار للتلبية المناسبة لكل من هذه المؤثرات . وهـــذه

المؤثرات وتلبياتها تكون في الانسان ادراكاً يستعين به في كل ما يفرض له من مشكلات .

ويبدو ان الادراك يتناسب مع قوة الكائن الحي على الاختيار . وهو يضيء منطقة القوى التي تحيط بالعمل . ويملأ المسافة بين ما عمل وما ينبغي ان يعمل . فهو مسرح للتصور ، تصور فيه التلبيات وتفحص قبل الاختيار . اذن فالكائن الحي مركز للعمل في الحقيقة ، وهو كتلة فعالة مؤثرة ، لانه يضيف الى العالم قوة ونشاطاً . وليس الانسان آلة ميكانيكية كما صوره الماديون لا حول لها ولا قوة ، بل مركز قوة منبهة ، وقوة خالقة متطورة ، وينتج عن الادراك حرية الارادة ، وكوننا احراراً يعني اننا نعرف ما نفعل .

قلنا ان وظيفة الذاكرة هي استدعاء الصور الذهنية الماضية المشابهة للصور الذهنية الحاضرة مقرونة بما سبقها وما تلاها لتساعدنا في اختيار قرار نافع لنا . ولكن ليس هذا كل شيء ، فان للذاكرة عملاً آخر فوق هـــذا ، اذ نستطيع عن طريقها ان نستوعب البقاء في لحظة واحـــدة وفي ذلك تحرير لنا من قيود الضرورة الطبيعية التي تخضع لها الاشياء الجامدة . يخطيء اذن من يحسب الانسان آلة صماء في يد القوانين المادية . انما هو كائن مدرك ، حر الارادة قادر على اختيار سلوك معين ، والاختيـار خلق وانشاء ، فليس الانسان رتيباً في حياته كالحيوان المحدود بغرائزه .

اذن ليس العقل والمخ شيئاً واحداً . صحيح ان الادراك العقلي يعتمد على المخ وينحط معه ، ولكن كما تعتمد الملابس على علاقة الملابس تهوي معها اذا ما سقطت من مكانها . وبديهي ان ذلك لا يدل على ان الملابس والعلاقة شيء

واحد . فالمخ مجموعة من التصورات وردود الافعال . اما الادراك فهو تلك القوة التي تختار من بين تلك المجموعه ما تريد . المخ هو المجرى الذي يسير فيه تيار الادراك ، ولكن ليس الماء ومجراه شيئا واحداً ، وان يكن ذلك محدوداً بهذا ، ولا بد له ان يخضع لتعريجه والتوائه .

واذا كان كذلك ، فما الذي دفعنا الى الاعتقاد بان العقل والمخ شيء واحد؟ والسبب في هذا ان جزءاً من عقولنا وهو ما نسميه بالذكاء ، قد نشأ وتطور لكي يتناول الاجسام المادية ويتفهمها ، فاكتسب من هذا الميدان المادي كل تصوراته وقوانينه . وهكذا اخذ الارتباط الذهني بين العقل والمادة ينمو شيئا فشيئا حتى انتهى بنا الامر الى الظن بانهما شيء واحد . ولكن هذا الذكاء الذي يفكر في الصور المادية لايستطيع ان يدرك ما في الكون من حياة ، لانه يلتقط صورا متلاصقة بعضها يجيء في اثر بعض ، اي انه يلتقط صورة الكون في هذه اللحظة ، ثم صورته في اللحظة التي تليها ، ثم صورة ثالثة في التي تليها وهكذا . ومعنى ذلك ان العالم الخارجي في نظر العقل عبارة عن جملة صور لحظية تملأ كل صورة منها الكون باسره ، وهذه الصور تتلو الواحدة منها الاخرى لحظة بعد لحظة . وكل صور لحظية من هذه الصور تمثل الحقيقة الخارجية في لحظة من اللحظات . ثم من تتابعها يتألف مجموع الحقائق الخارجية من اول الماضي الى اخر المستقبل ، الا ان الصور تظل مستقلة في الذهن ، لا يتناولها الاستمرار او الحركة التي تربطها جميعها ، مع ان الحياة ليست الا في وصل هذه الصور المجزأة ، ومثل العقل في ذلك كمثل الشريط السينمائي الذي يلتقط عددا من الصور المتلاصقة ، لاحياة في كل منها على حدة ، فاذا ما دبت فيها الحركة والاستمرار ، واتصل بعضها ببعض ، كونت حياة او شيئا يشبه الحياة ،

ولن يكون شيء من الحياة في هذه الصور التي تصلنا عن طريق الحواس ، حتى يتناولها تيار الحركة الدائم الذي يربط اشتاتها ، ويكون منها حقيقة واحدة يطرأ عليها التغير والتبدل كلما مر عليها شطر من الزمان .

صحيح ان كل صورة حسية هي جزء من الحياة ، ولكن مجموعها لا يكون مجموعة الحياة الى ان يتحقق في اجزائها شرط الاتصال والربط ، فكما ان كل جزء من الخط المنحني يمكن ان يكون جزءاً من خط مستقيم بدليل ان المنحني والمستقيم يتكونان من نقط ، غير انك لا تستطيع ان تقول بما ان اجزاء هذا بعينها اجزاء ذلك ، اذن فالخط المنحني هو الخط المستقيم ، كذلك قل في الحياة والمظاهر الطبيعية ، فليست الحيـاة مجموعة المظاهر الطبيعية ، على الرغم من ان تلك الظواهر هي الجزئيات التي تتكون منها الحياة .

يستنتج من هذا ان العقل ليس هو الاداة الصالحة لادراك الحياة لان هذا مطلب فوق مقدوره ، واكثر مما يستطيع . اذ ان العقل كما بينا يميل الى استعمال الوجود لصالحه ، وهذا يتطلب منه وقف تيار الحياة الذي يدب في الكون وتجزئة الوجود ليتمكن من دراسته جزءاً جزءاً ، فالعقـــل والحواس آلات للتجزئة ، والغاية منهما تيسير الحياة لا تصوير الوجود ، اي انها تتناول الوجود في ظاهره ، ولكنها لا تنفذ الى باطنه . ولما كانت المعرفة الحقيقية هي التي تتمشى مع الوجود في تحوله ، وتتغلغل في بواطن الاشياء ، وتحسها احساساً مباشراً كما يحس الحمل الوديع وجوب الفرار من غائلة الذئاب ، فالبصيرة وحدها هي الاداة الصالحة لذلك النوع من المعرفة المباشرة لانها حاسة الحياة التي تنقل الينا الوحدة الحيوية التي تربط اجزاء الوجود .

٣ ـ التطور الخلاق

وبهذا فان تطور الحياة يبدو لنا مغايراً عن تلك الصورة الآلية العميــاء المظلمة عن الصراع والفناء التي وصفها لنا داروت وسبنسر . نحن نفهم بالتطور الخلق المستمر وتراكم القوى الحيوية واختراع الحياة والعقل ، والتحسين المستمر في الجديد . اننا على استعداد لان نفهم لماذا رفض احدث الخبراء الباحثين من امثال « جيننج » « وماوباس » النظرية الآلية لسلوك وحيد الخلية « برتوزوني» ولماذا انهى الاستاذ ويلسون عميد علماء الخليـات (اي الوحدات التي يتكون منها الحيوان والنبات) كتابه عن الخلية بقوله « يبــدو ان دراسة الخلية قد وسعت بدل ان تضيق الفجوة الكبيرة التي تفصل ابسط اشكال الحياة عن العالم اللاعضوي والانسان يسمع في كل مكان في عالم الاحياء ثورة ضد داروت .

ان مذهب داروت يعني ان الانتخاب الطبيعي هو الاساس الذي تقوم عليه نشأة الاعضاء والوظائف والانواع . ولكن هذه النظرية لم يمض عليهــا نصف قرن من الزمان حتى بدأت تواجه مشاكل ومتاعب كثيرة .

كيف يستطيع الانتخاب الطبيعي ان يفسر نشأة العين مثلاً ، والصعوبة في تفسير هذا مخيبة للأمل ، لا بد ان نعلم انه من المستحيل ان تكون العين قد

نشأت على هذه الصورة المعقدة من بادىء الامر ، فاذا فرضنا انها تكونت بعد سلسلة من الاطوار ، فهل من اليسير ان تقنع عقلاً سليما ان تلك الادوار التي التي مرت بها عين الانسان تطابق تمام المطابقة الادوار التي مرت بها الحواس الابصارية لانواع الحيوان جميعاً ؟ هع ان الانتخـــابالطبيعي اساسه المصادفة المحضة . وهـــل من الجائز ان تكون سلسلة المصادفات التي تعاقبت على عين الانسان وسائر اعضائه الاخرى هي هي التي تعاقبتعلى اعضاء الحيوانات كلها؟ فاذا سلمنا جدلا فقط بان هذه المصادفة العجيبة جائزة في انواع الحيوانات لتشابه المؤثرات التي تحيط بها جميعاً ، فما قولك في الحيوان والنبـــات ، وهما نوعان يسيران في طريقين مختلفين تماما في التطـــور . كيف يتفق الاثنان على طريقة واحدة للتناسل ؟ كيف يوفق الحيوان عن طريق المصادفة الى اختراع الذكورة والانوثة اداة للتكاثر ثم يوفق النبات الى الطريقة عينها وبالمصادفة ايضا . او خذ حاسة البصر في نوعين مختلفين تماما وهما الحيوان الهلامي والحيوان الفقري، كيف يمكن لهذه التغيرات الصغيرة التي لا يمكن حصر عددهـــا ان تكون قد حدثت في نفس النظامين على خطين مستقلين من التطور ؟

يتضح لنا مما تقدم ان في التطـور شيئاً اكثر من النظرية الالية المادية . يستحيل ان يكون هذا الاساس الواهي قاعدة التطور ، ولا بد ان يكون في اجزاء الوجود مهما تنوعت اشكالها قوة كامنة متشابهة في الجميع هي الحياة . وهذه الحياة الحالة في كل شيء تخلق فيما تحل فيه ميلاً خاصاً وتوجيهاً معينا يؤثران في كل جزئي من جزئياته. وهكذا يظل الجسم المبتدىء يتشكل ويتغير حسب ذلك التوجيه الذي تمليه تلك الحياة الدافعة الكامنة فيه . وليس ثمة قوة خارجية تعمل على التطور كما ذهب دارون واتباعه .

ان الحياة اكثر من الاجسام المادية . انها قوة نامية وتستطيع ان تسترد

نفسها . وهذا لا يعني وجود تصميم خارجي يعمل على التطور . لقد فكرنا اولا ان هناك ارادة شبيهة بالانسانية تحرك الاشياء وتستخدمها في لعبة الكون، وفكرنا ان الكون مادي لاننا قد تأثرنا بعصرنا الالي الذي طغى على اخلاقنا وفلسفتنا . هناك تصميم وقصد للاشياء ، ولكنه في داخلها وليس خارجها .

ان الحياة هي الحافز المولد للعالم . وهي ضد الجمود والمصادفة ، وتسير في اتجاه في نموها . فهي تسعى جهدها للتغلب على الجمود المادي . وهي تتغلب على الموت بالتناسل وان ضحت في ذلك بالافراد . وهي تبذل كل ما تملك من قوة لتحرير نفسها من قوانين المادة وقيودهـــا ، فالوقوف والحركة والسعي وكل ضروب الحركة والنشاط مظاهر من تحدي الحياة لقوانين المادة وقيودهـــا وانتصار عليها .

لقد كانت الحياة في مبدأ ظهورها اشبه مـــا تكون بالمادة في جمودهـــا واستقرارها . فقد اتخذت شكلا ساكنا لها . وكأن الباعث الحيـوي فيها كان ضعيفا لا يقوى على المخاطرة بالحركة . وكان هذا السكون وعدم الحركة هدف الحياة في مرحلة عظيمة من التطور . لقد كانت الحياة في مبدأ ظهورها تتمثل في النبات وحده . ولكنها لم تقنع في البقاء سجينة في النبات . واتجهت في تقدمها دائما من مخابىء الامن الى الحرية .من غطاءالسلحفاة وحراشف السمك الى حرية وسهولة انطلاق الطير . وهكذا حلت سرايا جنود الفرسان محل جنود المشاة القديمة ، والمدفعية الخفيفة السريعة محل الفرسان بدروعهـــم القديمة الثقيلة . وعلى العموم فقد كان اعظم النجاح في تطور الحياة كما في تطور المجتمعات لاولئك الذين قبلوا اعظم المخاطرات . وتوقف الانسان ايضـــا عن التطور باعضاء جديدة له في جسمه واستعاض عنها بالاسلحة والالآت التي كان يتركهـــا جانبا عندمالا يكون في حاجة لها .

والغرائز ادوات العقل . فقد اصبحت هذه الغرائز كبقية الاعضاء الثابتة المتصلة عبثا على الانسان عندما اختفى الزمن او البيئة التي استدعت وجـــود هذه الغرائز . لقد كانت هذه الغرائز وسائل ناجحة حاسمة بالنسبة الى المواقف التي كان يتعرض لها اسلافنا ، ولكنها اليوم لا تمكن الانسان من ان يقابل تعقيدات الحياة الحديثة بمرونة وسهولة . ان الغرائز وسائل الامن بينما العقل والذكاء عضو الحرية المخاطرة .

ان الحياة تنشد الحرية والتحرر من قيود المادة . ونحن نضحك عادة عندما نشاهد كائنا حياً يتصرف كما تتصرف المادة الجامدة ، كالآلة ، او عندما يسقط شخص عزيز علينا يسير على ارض مغطاة بالثلوج الجامدة . ان الحياة الهندسية التي ذهب اليها سبينوزا وخلط بينها وبين الله تدعو الى الضحك والبكاء .

ومن هنا يتضح لنا ان الحياة سارت اثناء تطورها في مراحل ثلاث .

الاولى مرحلة النبات حيث كانت اقرب مـا تكون الى سكون المـــادة وجمودها ، حيث وجدت هنـــاك مكانا آمناً آلاف السنين والمرحلة الثانية مرحلة الحيوان الغريزي كالنحل والنمل الذي يسير ويتحرك بالغريزة . والمرحلة الثالثة ، هي مرحلة الحيوان الفقري حيث اتخذت الحياة خطوة جريئة نحو الحرية ، واتجهت بشجاعه الى مخاطرات الفكر التي لا نهاية لهـا . ان الغريزة لا تزال الوسيلة الاعمق في رؤية الحقيقة والوصول الى جوهر العالم ، ولكن الذكاء ينمو ويتطور بقوة وشجاعة اكثر ومدى اوسع . وقد وضعت الحياة اخـــيراً املها ومصالحها في هذا الذكاء في تحقيق حرية اوسع لها .

هذه الحياة الملحة الخالقة التي تجعل من كل فرد ونوع مسرحا لتجاربها هي الله . ان الله والحياة شيء واحد . ولكن الله هذا محدود ، وليس قادراً على كل

شيء ، وتقيده المادة ، ويحاول التغلب على قيودها بجهد وعناء خطوة خطوة .
كما انه ليس عالما بكل شيء ولكنه يتلمس طريقة للمعرفة والادراك والضوء تدريجيا . وهكذا فان الله على هذا التعريف هو الحياة المستمرة ، وهو العمل والحرية . والخلق ليس غامضا ، فنحن نجربه في انفسنا عندما نعمل بحرية ، وعندما نختار اعمالنا ونسير على حياتنا بوعي منا . ان كفاحنا وآلامنا وطموحنا وهزيمتنا ، وسعينا لتحسين وتقوية انفسنا ، كلها صوت للحياة فينا ، للحافز الحيوي الذي يدفعنا الى النمو والتطور ويحول هذا العالم الى مسرح من الخلق الذي لا نهاية له .

ومن يدري بان الحياة قد تنتصر في النهاية اعظم انتصار لها على عدوها القديم الا وهو المادة فتتغلب على الموت ويتحقق لها الخلود ؟ فلنفتح عقولنا حتى بالنسبة الى آمالنا ، فان كل شيء ممكن بالنسبة الى الحياة اذا طال الزمن. ولنفكر بما صنعته الحياة والعقل في فترة الف سنة بغابات اوربا وامريكا . ان من السخافة وضع العراقيل امام اعمال الحياة العظيمة . ان الحيوان يقف فوق النبات ، والانسان يتجاوز مرحلة الحيوانية ، والانسانية كلها في المكان والزمان جيش ضخم كبير يعدو ويجري امام ووراء وبجانب كل واحد منا في مهمة ساحقة لتحطيم كل مقاومة وتمهيد الطريق من كل عقبة جسيمة والانتصار حتى على الموت .

٤ ـ نقد

يبدو ان برجسون اراد ان يقطع طريق النقد على ناقديه فقال « اني اعتقد ان الوقت الذي ينفق في دحض الفلسفة ونقدها يذهب سدى . » فماذا بقي لنا من الهجمات الكثيرة التي وجهها المفكرون بعضهم لبعض . لم يبق شيء ؛ او لم يبق سوى القليل جداً من هذا النقد . وما بقي هو النزر المهم الا وهو الحقيقة الايجابية التي جاء بها كل من هؤلاء المفكرين ، ان القول الحق قادر بنفسه على ان يحتل مكان الفكرة الباطلة . وهو خير وسيلة للدحض والتفنيد من غير ان نكلف انفسنا عناء دحض هذا المفكر او ذاك . ان هذا صوت الحكمة نفسها. اذ اننا عندما نبرهن على صحة فلسفة او خطئها فاننا بذلك نقدم فلسفة اخرى هي كالاولى عرضة للخطأ لانها مثلها مزيج من التجربة والامل . وعندما تتسع التجربة ويتغير الامل فاننا قد نجد حقيقة اكثر فيما اعتبرناه باطلا واستنكرناه . او قد نجد باطلا اكثر فيما اعتبرناه من قبل حقيقة خالدة . اننا اذا ارتفعنا على اجنحة الثورة فاننا نميل الى مذهب الجبرية والى النزعة المادية الالية التي تنطوي على السخرية والشيطنة . ولكن عندما يقترب منا الموت ويلوح لنا فجأة نحاول ان نجد وراءه املاً آخر . ان الفلسفة عمل وتعبير عن حالة العصر السائدة .

ان ما يسترعي انتباهنا ويثير اعجابنا عندمـــا نقرأ برجسون هو اسلوبه المشرق الذي امتاز به الاسلوب الفرنسي الواضح السهل . فان وجدنا برجسون غامضا احياناً فان هذا يعود الى الثروة الوفيرة في خياله وامثلته وتشبيهاته .

لقد هاجم برجسون العقل وارادنا ان نأخذ بحكم البصيرة ، وكان الافضل منه ان يعقد امله على عقل ارقى واوسع من البصيرة . لان البصيرة الباطنية التي اعتمد عليها قد تخطيء كما تخطيء الحواس الخارجية . وكل واحدة منهـــا يجب اختبارها وتقويمها بالتجربة العملية . هذا كما ان برجسون قد بالغ حين زعم ان العقل لا يدرك الا حالات متقطعة من الحقيقة والحياة ، وانه عاجز عن ان يدرك ما في هذين من تدفق وحركة واستمرار . اذ الفكر على نقيض ما ذهب اليه ، عبارة عن سيل متصل من الافكار كما قال « جيمس » قبله ، والافكار مجرد نقط تختارها الذاكرة في سيل الفكر . والتيــار العقلي يعكس استمرار الادراك وحركة الحياة .

كان من الانسب ان يذهب برجسون في بلاغتـــه الى الحد من تطرف المذهب العقـلي الذي اسرف في الاعتـداد بالعقل اسرافاً كبيراً . ولكنه لم يصب في وضع البصيرة مكان العقل لانه بفعله هذا كمن يصحح اوهام الشباب بخرافات الطفولة . والافضل ان نقوم افكارنا ونتقدم بها الى الامام لا ان نعود بها الى الخلف . ان الاحتجاج والهجوم الذي صوب الى العقل وسدد الى التفكير من « روسو » و « شاتوبريان » الى « برجسون » و « نيتشه » و « جيمس » قد أدى فعله وكان له تأثيره . اننـا نوافق « برجسون » على تجريد العقل من

عرشه شريطة ان لا نشمل الشموع امام البصيرة وحدها . ان الانسان يعيش بغريزته وبصيرته ولكنه يتقدم بعقله وذكائه .

ان اعظم ما في برجسون هو هجومه على النزعة المادية الآلية . فقد اسرف علماؤنا في مختبراتهم في الثقة في انفسهم ، واعتقـــدوا انهم قادرون على عصر الكون كله وصبه في انبوبة من انابيب اختباراتهم . ان المادية كالقواعد اللغوية لا تعترف الا بالاسماء ولكن الحقيقة كاللغة ؛ تشمل الاعمال والافعـــال والاشياء والمفاعيل والاسماء والصفات والحياة والحركة والمادة ايضاً .

لو واجه برجسون هذه العقائد الجديدة بشك نظيف لكان اقل انشاء وبناء في فلسفته ، ولكنه سيكون اقل عرضة للنقد والاجابة عليه . لقد ذاب شكه عندما بدأ تشكيل فلسفته . انه لم يتساءل ابداً ما هي المادة ، وهل يمكن ان تكون اقل جموداً وسكوناً اكثر مما نفكر ، وهل من الممكن ان لا تكون المادة عدوة الحياة ولكنها خادمتها وطوع امرها لو عرفت الحيـــاة عقلها . انه يفكر بان العالم والروح والجسم والنفس والمادة والحياة امور يعادي ويخاصم بعضها بعضاً . ولكن المادة والجسم والعالم ليست سوى امور تنتظر من العقل والذكاء والارادة ان تعمل على تشكيلها . ومن يدري فقـــد لا تكون هذه الاشياء اشكالا الحياة بل من تكهنات العقل .

ان نقد برجسون للدارونية ينبع من حيويته . فقد واصل التقليد الفرنسي الذي اقامه « لامارك » ورأى ان الدافع والرغبة عاملان فعالان في التطور . فقد رفض مزاجه الروحاني ما ذهب اليه سبنسر من ان التطور ناجم عن توحيد المادة الآلي وتبديد الحركة . ان الحياة قوة ايجابية ، ومجهود يبني اعضاءه عن طريق الحاح رغباته . ولكننا لايسعنا الا ان نقدر المام برجسون الواسع

في النواحي البيولوجية ، واطلاعه الادبي العميق . وقراءته للنشرات والمجلات الدورية التي توارت العلوم الحالية فيها عشرات السنين . لقـــد قدم لنا علمه ولوذعيته واطلاعه العميق باسلوب متواضـــع يختلف عن اسلوب سبنسر الذي يسوده الاعتزاز بالنفس والتعاظم الذي يملأ كل صفحة من صفحات كتبه .

كان موقف برجســون في نواح كثيرة بالنسبة الى عصر « دارون » مثل موقف « كانت » من « فولتير » فقد كافح « كانت » لصد موجـــة الالحاد الكامنة في المذهب العقلي الذي بدأه « بيكون » و « ديكارت » وانتهى في شك « ديدرو » و « هيوم » واسفر مجهود « كانت » بان اعلن قصـــور العقل في ميادين المشاكل والبحوث السامية . ولكن « دارون » بغير قصد و « سبنسر » بقصد ووعي عادا وجددا هجمات « فولتير » راتباعه على الدين والايمان القديم ، وعادت النزعة المادية الآليه التي تقهقرت امام « كانت » وشوبنهور فاكتسبت كل قوتها القديمة في مستهل هذا القرن . فتصـــدى لها « برجسون » ولكن لا بنقد العقل كما فعل « كانت » ولا بالجدل المثالي الذي يقول ان المادة لا تعرف الا عن طريق العقل ، ولكن بالقول بوجود عنصر حيوي مبدع نشيط فعال يفسر كل ألغاز الحياة .

لقد نال برجسون شعبية كبيرة سريعة وارتفع الى ذروة الشهرة لانه دافع عن الآمال التي كانت تخفق في قلوب الانسانية . عندما وجد الناس من وطد في قلوبهم الايمان بالله والخلود ، من غير ان يفقدوا ثقتهم بالفلسفة ، فشعروا بالسعادة والغبطة . وغدت الغرفة التي كان يلقي فيها محاضراته صالونا للنساء الجليلات اللواتي وجدن في بلاغته ما يحقق لهن رغبات قلوبهن ويؤيد ايمانهن . ومن الغريب ان يشترك في سماع محاضراته بعض الاشتراكيين المتحمسين الذين وجدوا في نقده للمذهب العقلي تبريراً لانجيلهم الذي ينـــادي « بالاقلال من

الفكر وزيادة العمل » ولكن هذه الشهرة المباغتة التي احاطت به دفعت ثمنها ، اذ ان تأييد فئات مختلفة المشارب والميول له أدى الى هبوط اتباعه .وبهذا فانه واجه مصير « سبنسر » الذي عاش وشاهد دفن شهرته .

ومع ذلك فان برجسون اعظم الفلاسفة المعاصرين . لقد كنا نفكر قبـــل برجسون بان العالم رواية تم صنعها ومصيرها ، لا نملك من امرهـــا زماماً ولا مبادرة ، وان جهودنا تذهب عبثاً ، ولكننابعده اخذنا نرى العالم كمسرح ومادة انشأناهما بقوانا .لقد كنا قبله اسنان عجلات لآلة واسعة لا حياة فيها .ولكننا الآن نستطيع ان اردنا ان نساهم في كتابة رواية الخلق .

٢ ـ بندتو كروتشي

١ ـ الرجل

من المستحيل ان نجد شبهاً بين فلسفتي « برجسون » و « كروتشي » فان برجسون صوفي يعبر عن افكاره في وضوح خداع . اما كروتشي فمرتاب يعبر عن افكاره بطريقة المانية غامضة . ان لبرجسون نزعة دينية لكنه يتحدث لنا باسلوب التطور اما كروتشي فعدو للنظام الكهنوتي ويكتب لنا بطريقة امريكية هجلية . ان برجسون يهودي فرنسي ورث تقاليد سبينوزا ولامارك . امـــا كروتشي فكاثوليكي ايطالي فقـــد دينه باستثناء فلسفته اللاهوتية وتعبد الجمال .

ربما كان اجداب ايطاليا في الفلسفة في القرن الاخـير يعود الى احتفاظهـا بالاساليب والآراء المدرسية حتى من جانب المفكرين الذين تخلوا عن اللاهوت القديم . من الممكن وصف ايطاليا بانها بلاد ازدهرت فيها نهضة ، ولكنها لم تعرف الاصلاح . انها على استعداد لان تضحي بنفسها من اجل الجمال ،ولكنها

تشك في وجود الحقيقة عندما تفكر بها . قـد يكون الايطاليـون اعقل منا جميعاً ، ووجدوا ان الحقيقة سراب خادع . وان الجمال هو الحقيقة . فقد كان اعلام الفن في ايطاليا ايام النهضة باستثناء (ميخائيل انجـلو البروتستانتي) لا يهتمون ابداً بالاخلاق والدين . ما دامت الكنيسة قد اعترفت بعبقريتهم وفنهم ودفعت لهم ثمن رسومهم . وغدا العرف في ايطاليا ألا يتعرض رجـال الثقافة الى الكنيسة بسوء ، اذ كيف يقسو ايطالي على كنيسة سادت العالم ، وجمعت الجزية والخراج من كل بلد لتجعل من ايطاليا معرضاً للفن في العالم ؟

من اجل هذا بقيت ايطاليا موالية للايمان الديني القديم . وقنعت بفلسفة « توماس اكويناس » لقد جاء « جيام باتستافيكو » وحرك العقـــل الايطالي مرة ثانية ، ولكنه مات وماتت الفلسفة معه . وفكر « روزميني » بالثورة في وقت من الاوقات ولكنه عاد فاستسلم .

ولكن كروتشي شذ عن هـــذه القاعدة . ولد « بندتو كروتشي » عام ١٨٦٦ في مدينة صغيرة في مقاطعة « اكويلا » وكان الابن الاوحد لاسرة كاثوليكية محافظة ثرية . وتلقى دراسة تامة في الديانة الكاثوليكية احدثت اخيراً في نفسه رد فعل ودفعت به الى الالحاد . اذ لا يوجد طريق وسط بين الجمود الديني من ناحية ، والكفر المتطرف من ناحية اخرى ، في بلاد لم تعرف الاصلاح الديني . لقد كان كروتشي في اول حياته تقياً ومتديناً جداً الى درجة دفعته الى الاصرار على دراسة كل موضوع ديني ، الى ان بلغ اخيراً فلسفة هذا لدين ، وبطريقه لا شعورية احتلت دراسته هذه مكان ايمانه .

وفي عام ١٨٨٣ نزلت به ضربة قاسية ، كانت كفيلة ان ترده الى ايمانه .

فقد وقع زلزال ودمر البلدة الصغيرة التي كان يعيش فيها وقضى على والديه واخته الوحيدة . ولبث هو نفسه تحت الانقاض عدة ساعات ، وتكسر بعض عظامه . وبعد عدة سنوات استرد صحته . ولم تظهر اعماله وحياته في ايامه الاخيرة أي ضعف في روحه ، او فتور في همته . لقد قوى دور النقاهة والابلال من مرضه من ميله للمطالعة وتذوقه للمعرفة .واستخدم الثروة المعتدلة التي خلفها له ابوه في جمع مكتبة تعتبر من افخم المكاتب في ايطاليا . وغدا فيلسوفا من غير ان يدفع ثمنا لفلسفته من الفقر والحاجة . وحقق الحكمة القائلة بان الحكمة خير اذا رافقها المال الموروث .

ظل كروتشي طيلة حياته طالبا ، محباً للآداب والراحة . وقد دفع الى دخول ميدان السياسة دفعاً على غير رغبة منه عندما عين وزيراً للمعارف . وقد يكون قبوله لهذا المنصب هو اضفاء جو من كرامة الفلسفة في وزارة يتولاها وزراء من رجال السياسة المحترفين .وانتخب عضواً في مجلس الشيوخ ، وعضوية الشيوخ في ايطاليا دائمة مدى الحياة . وبذلك اصبح كروتشي مثلا فريداً في عصره بان جمع بين السياسة والفلسفة ، وهو امر غير مألوف في روما القديمة وفريد في ايامنا هذه . ولكنه لم يوجه اهتماما كبيراً للسياسة بل كرس معظم وقته لتحرير مجلته العالمية المشهورة « لاكريتيكا ».

وعندما نشبت الحرب العالمية الاولى ، اشتعل كروتشي غضبا ورأى فيها نزاعا اقتصاديا يوقف تطور العقل الاوروبي ونموه . وان الواجب كان يقضي بمنعها . وانها جنون وانتحار . على الرغم من ان الضرورة دفعت بايطاليا الى الدخول في هذه الحرب بجانب الحلفاء . وبقي بمعزل عن قومه واصبح مكروها

منهم فكان حظه بذلك مثل حظ « برتراند رسل » في انجلترا و « رومان رولان» في فرنسا . لكن ايطاليا صفحت عنه وغفرت له موقفه . وعقد الشباب عليه آمالهم ورأوا فيه مرشداً مستقيما وفيلسوفا وصديقا . واصبح منهم بمثابة المعهد العلمي الذي لا يقل اهمية في توجيهه عن الجامعات . وقد قيل عنه ان تفكيره سيبقى اعظم غزو فكري للفكر المعاصر .فلنبحث عن سر هذا النفوذ الذي تمتع به كروتشي .

٢ ـ فلسفة الروح

كان اول كتـــاب اصدره كروتشي سلسلة من المقاولات (١٨٩٥ — ١٩٠٠) موضوعها « مادية التاريخ ومباديء كارل ماركس الاقتصادية » لقد تأثر كروتشي باستاذه في الجامعة « انتونيو لابريولا » واقبل على مطالعة كتاب ماركس عن رأس المال . وهو يقول في هذا الصدد « لقد تأثرت كثيراً بمطالعاتي للمباديء الماركسية ومتابعتي للصحف الاشتراكية الالمانية والايطالية التي حركت كياني كله ، وايقظت في نفسي لاول مرة الشعور بالحماسة للسياسة ، واصبحت كرجل وقع في الحب لاول مرة في حياته في سن متأخرة ، ينبغي عليه ان يرقب في نفسه هذه العاطفة الجديدة » ولكن خمر الاشتراكية والاصلاحات الاجتماعية لم تسكره طويلاً ، وسرعان ما عاد الى محراب الفلسفة .

لقد كانت احدى نتائج هذه المطالعات الاشتراكية ان عاد كروتشي الى تعظيم فكرة « فائدة المساواة عن طريق الخير والجمال والحقيقة . « ان هذا لا يعني تسليمه بوضع اعظم الاهمية على العوامل الاقتصـــادية كما ذهب الى ذلك « ماركس » و « انجيلز » لقد اطرى على هذين الرجلين وضع نظرية على الرغم

من نقصها فانها لفتت الانظار الى معلومات تجاهلها العالم من قبل وقلل من اهميتها . ولكن كروتشي رفض التسليم بمبدأ تفسير التاريخ على اساس اقتصادي صرف، واعتبره استسلاماً الى ايحاء البيئة الصناعية . ورفض قبول المذهب المادي كفلسفة للبالغين او حتى وسيلة للعلم ، فقد كان العقل لا المادة بالنسبة له هو الحقيقة الاولى والاخيرة حتى انه اطلق على فلسفته عندما كتبها « فلسفة الروح » .

وذلك لان كروتشي مثالي ولا يعترف بفلسفة بعد فلسفه « هجل » وعنده ان الحقيقة كلها عبارة عن فكر . فنحن لا نعلم شيئاً الا كما تصوره لنا حواسنا وافكارنا . فقد كان يحاول ان يبرهن على ان جوهر الكون افكار خالصة مجردة . فلا يعنيه ان يعرف فكرة او يوضحها بتخفيضها الى ما ينشأ عنها من نتائج عملية ، بل كان يفضل ان يخفض النواحي العملية الى افكار وعلاقات بين افكار .

والفكرة المجردة معناها عنده الفكرة الكلية ، مثال ذلك الكم والكيف والتطور ، او اي فكرة يمكن تطبيقها على الحقيقة كلها . ويتقدم في الحديث عن هذه الافكار الكلية بطريقة غامضة وكأن روح « هجل » قد تجسدت فيه . وكأنه اراد ان ينافس استاذ الغموض « هجل » في شهرته . وقد اطلق كروتشي على بحثه اسم المنطق ليقنع نفسه بانه يزدري الابحاث الميتافيزيقية وانه قد احتفظ بطهارته ونأى بنفسه عنها . فلا يعتقد بان الميتافيزيقا صدى لعلم اللاهوت ، وان استاذ الفلسفة في الجامعات الحديثة هو صورة اخيرة طبق الاصل من رجل الدين والكهنوت في القرون الوسطى .
وهو يمزج بين مثاليته وبين قسوة ارائه عن الديانات ، فهو ينكر الدين ، ويعتقد

بحرية الارادة ، ولكنه لا يؤمن بخلود الروح . ويستبدل الدين بعبـــادة الجمال والثقافة . « ان دينهم تراث فكري ورثوه عن الشعوب المتأخرة البدائيـــة . اما ديننا فهو تراثنا الفكري الذي ورثناه عن انفسنا . »

« ... لا ندري ما هي الفائدة التي يجنيها هؤلاء الذين يريدون المحافظة على الدين جنبا الى جنب مع نشاط الانسان النظري وفنه ، ونقده ، وفلسفته .

فالفلسفة تنزع من الدين كل اسباب البقاء .

... وباعتبار ان الفلسفة علم للروح فهي تنظر الى الدين نظرتها الى ظاهرة عرضية ، وحقيقة انتقالية مؤقتة .

اننا نواجه هنا في فلسفة كروتشي مزيجاً من الفلسفة الطبيعيـة والروحية ، واللاادرية واللاحتمية ، والعملية والمثالية ، والاقتصـــادية ، وتقديس الذوق والجمال . حقاً انه ابدى اهتماما بنواحي الحياة النظرية اكثر من اهتمامه بنواحيها العملية ، ولكن جوهر المواضيع التي تناولها في مقالاته تشهد على انه بذل جهوداً امينة للتغلب على نزعته المدرسية العلمية . وكتب مجلداً ضخمـــاً سماه « فلسفة الجانب العملي » احتوى على جزء كبير من المنطق مع اختلاف الاسم ، وجزء آخر عن ابحاث ميتافيزيقية عن مشكلة حرية الارادة القديمة . ووضع كتاباً آخر عنوانه « في التاريخ » ذهب فيه الى ان التاريخ فلسفة متحركة ، وان المؤرخ هو الذي لا يظهر الطبيعة في صورة نظرية مجردة بل في صورة من الحقيقة العملية التي تؤثر فيها الاسباب والمسببات . ويطالب كما طالب فيكو من قبله بوجوب ان يكتب الفلاسفة التاريخ . ويعتقـد ان التاريخ العلمي قـد بلغ من الدقة العلمية حداً بعيداً اضاعت من المؤرخ الحقيقة المرجوة لسعة اطلاعه .

يعترف كروتشي بتعذر كشف الماضي على حقيقتـــه ويستشهد بتعريف

« روسو » للتاريخ بانه « فن اختيار اكذوبة تشبه الحقيقة من بين جملة اكاذيب » وهو لا يحب البحث النظري في التاريخ ويعتقد بان النظريين من امثال « هجل » و « ماركس » يشوهون الماضي بتحويله الى منطق ينتهي الى تحاملهم . وعلى الفيلسوف الذي يكتب التاريخ ان يكرس نفسه للكشف عن الاسباب والنتائج والارتباط في حوادث التاريخ . وان يتذكر ان هذا الشطر وحده من الماضي يمتاز بقيمة حالية معاصرة في اهميتها وتنويرهـا . قد يكون التاريخ مـا سماه نابليون « الفلسفة الحقيقيـة الوحيدة وعلم النفس الحقيقي الوحيـــد » لو قام المؤرخون في كتابته كسفر يكشف القناع عن الطبيعة ويكون مرآة للانسان .

٣ ـ ما هو الجمال ؟

بدأ كروتشي دراسته بالتاريخ والآداب وانتهت به هـــذه الدراسة الى الاقبال على الفلسفة . كان طبيعياً ان تأخذ فلسفته لوناً يتجــه فيــه الى النقد وتذوق الفن والجمال . واعظمة مؤلفاته هو كتابه عن « الجمال » الذي نشره في عام (١٩٠٢) وفيه يفضل الفن على الميتافيزيقا والعـــلم . ان العلوم تقدم لنا فائدة ولكن الفنون تقدم لنا الجمال . ان العلوم تباعد بيننا وبين الفرد والحقيقة وتنقلنا الى عالم حافل بالمجردات الرياضية . حتى تصل « كما في اينشتين » الى نتائج خطيرة ليست لها اهمية عملية . اما الفن فيتجه بنـا مباشرة الى الشخص المعين والحقيقة الفريدة ، الى الكلي الفلسفي المعروف بالبداهة في صورة الفرد المعين . » للمعرفة صورتان : فهي اما وجدانية او منطقية ، معرفة نحصل عليها عن طريق الخيال او معرفة نحصل عليها عن طريق العقل ، معرفة الفردي او معرفة الكلي ، معرفة الاشياء الفردية او معرفة ما بينها من صلات . فهي اما ان تكون نتيجة الصور الفردية او الافكار الكلية . « لذلك فان اصـل الفن يكمن في القدرة على تكوين الصور الذهنية . » والفن يحكمه الخيال وثروته الصور الذهنية فقط . والفن لا يبوب الاشياء ولا يحكم عليها بانها حقيقية او خيالية . ولا يصفها او يعرفها ، بل يحس بها ويصورهـــا ليس الا » . وبما ان

الخيال يسبق الفكر وهو شرط ضروري له ، كانت فاعلية العقل الفنية ، اي قدرته على تكوين الصور الذهنية ، اسبق من فاعليته المنطقيـــة ، أي التي تكون الافكار الكلية . فلا يكاد الانسان يقوى على التخيل حتى يصبح فناناً قبل ان يبلغ المقدرة المنطقية بزمن طويل .

واعلام الفن يفهمون ما ذكرنا ، فقد قال « ميخائيل انجلو » « ان الانسان لا يرسم بيدة بل برأسه » وقال « ليوناردو » ،« ان عقول العباقرة اكثر نشاطاً وابداعاً في اقل الاعمال خارجية » وكلنا نعرف القصة التي تروى عن « دافنشي » عندما كان يصور « العشاء الاخير » فقد جلس عدة ايام امام لوحته ساكناً بلا حركة قبل ان يمس اللوحة مما ضايق رجل الدين الذي كلفه بالعمـــل وانتقم الفنان لنفسه من رجل الدين الذي كان يلح عليه بشدة لبدأ العمل بان اتخذ من وجه رجل الدين نموذجاً لصورة يهوذا .

ان جوهر الفاعلية الفنية ، يكمن في هـــذا المجهود الساكن الذي يبذله الفنان وهو صامت ليتصور الصور الكامنة المتقنة التي تعبر عن الموضوع الذي في ذهنه . فليست معجزة الفن في اظهار الصورة واخراجهـــا بل في تصور الفكرة ، لان اخراج الصورة ليس الا صياغة آلية وبراعة يدوية .

« بعد ان نسيطر على الكلمة الباطنية ، وبعد ان ندرك الشكل او التمثال ادراكاً واضحا جليا وبعد ان نجد موضوعاً موسيقيا فان التعبير سيلد كاملا ولا حاجة بنا لاكثر من ذلك ..فان فتحنا بعدئذ افواهنا للكلام او الغناء ... فما علينا عندئذ الا ان نرفع صوتنا بما قلناه من قبل في سرنا وباطننا ، وان نرفع صوتنا بالغناء بما غنيناه من قبل في السر في دخيلة نفوسنا . فاذا عزفت ايدينا على دساتين البيان ، او تناولنا قلماً او إزميلا فلسنا نعمل الا عملا ارادياً

(يتعلق بالجانب العملي من الانسان لا بالفاعلية الفنية) وما نقوم به عندئذ في حركات كبيرة هو تنفيذ ما نفذناه في باطننا بسرعة وايجاز » .

هل هذا يساعدنا في الاجابة على السؤال المحير ، ما هو الجمال ؟ ان في الجمال آراء بقدر ما في العالم من رؤوس ، وكل محب للجمال يعتبر نفسه حجة في هذا الموضوع لا مرد لرأيه . ويعتقد كروتشي بان الجمال هو التكوين العقلي للصورة الذهنية ، او (لسلسلة من الصور) يبدو فيهـــا جوهر الشيء المدرك . فالجمال يمت الى الصورة الباطنية اكثر منه بالصورة الخارجية التي هي تجسيد للباطنية . اننا نميل الى التفكير بان الفرق بيننـــا وبين « شكسبير » هو فرق في طريقة التعبير الخارجي فقط ، وان لدينا نفس الافكار التي طافت بذهن شكسبير ولكننا لا نجد الكلمات التي تعبر عنها . ولكن هذا وهم باطل ، فليس الفرق في قوة اخراج الصورة بل في المقدرة على تكوين الصــورة الباطنيسة التي تعبر عن الشيء .

وحتى الاحساس بالجمال تعبير باطني ، فدرجة فهمنا او تقديرنا للعمل الفني تعتمد على قدرتنا في ان نرى الحقيقة المصورة ببصائرنا مباشرة ، اي قدرتنا على ان نكون لانفسنا صورة ذهنية معبرة . اننا نعبر عن بصائرنا دائما عندما نستمتع بالعمل الفني الجميل ... فبصيرتي انا هي التي تكون الصورة الذهنية « لهملت » او « عطيل » حين اقرأ شكسبير . اذن فسر الجمال هو الصورة الذهنية المعبرة سواء في الفنان الخالق او المتفرج المتامل لتلك الصور . الجمال تعبير سديد وبما انه لا وجود لتـــعبير حقيقي الا اذا كان سديداً يمكننا الاجابة على السؤال القديم ببساطة بقولنا ان الجمال تعبير .

٤ ـ نقد

ان افكار كروتشي مظلمة كليل بلا نجوم ، ان « فلسفة الروح » هذه تنقصها الروح ، « وفلسفة الجانب العملي » ليست عملية وتنقصها انفاس الشواهد والمراجع الحية . ومقاله « عن التاريخ » يقف على ساق واحدة من الحقيقة باقتراحه التوحيد بين التاريخ والفلسفة ، ولكنه يفقد الساق الاخرى لعجزه عن ان يرى بان التاريخ يصبح فلسفة عندما يكون تركيبياً لا تحليلياً . وان لا يكون تاريخاً ممزقاً (يقدم في كتب منفصلة ، قصة منفصلة عن النشاط الاقتصادي والسياسي والفلسفي والديني والادبي والفني) ولكن ما يمكن ان نطلق عليه اسم التاريخ المتزاوج — تاريخ تقدم فيه جميع اوجه الحياة الانسانية في فترة معينة — بطريقة موجزة تقتضيها مقدرة الفرد المحدودة ، بحيث تدرس اوجه الارتباط فيها ، واستجاباتها المشتركة لحالات مشابهة ، وفي تأثيرها المتبادل المختلف . ان هذا سيكون صورة لعصر ، صورة لتعقيد وحيرة الانسان . وسيوافق الفيلسوف على كتابة مثل هذا التاريخ .

اما بالنسبة الى الجمال ، فلنترك الحكم للآخرين . هل صحيح ان الانسان يكون فناناً بمجرد تكوينه للصورة الذهنية ؟ وهل يكمن جوهر الفن في التصور الباطني فقط لا في الاخراج ؟ ألم يحدث لنا ابداً ان كانت لدينا افكار ومشاعر

اجمل من كلامنا ؟ كيف نعرف ما هي الصورة الباطنيــــة التي كانت في ذهن الفنان ، وفيا اذا كان العمل الذي حـــاز على تقديرنا يحقق فكرة الفنان او يبتعد عنها .

من الممتع والمربك ايضا بلا شك ان نعرف رأي الفنانين في هؤلاء الفلاسفة الذين يحدثونهم عن الجمال ، وعما هو الجمال . ان اعظم فنان معاصر لنا ابتعد عن الاجابة على هذا السؤال وقال « اعتقد اننا لن نعرف ابداً السبب في جمال الشيء . »

٣ ـ برتراند رسل

١ ـ المنطقي

عندما كان « برتراند رسل » يحاضر في عام ١٩١٤ في جامعة كولومبيا في موضوع فلسفة المعرفة والمنطق ، كان يبدو نحيلاً شاحباً كموضوعه الذي يحاضر فيه . فقد كان ضعيفاً يتوقع الانسان موته في كل لحظة . وعندما اشتعلت الحرب العالمية الاولى تألم هذا الفيلسوف المحب للسلام والرقيق المزاج أشد الالم ، لدى رؤية اعظم القارات مدنية تهبط الى حالة من البربرية الهمجية . وعندما يراه الانسان ثانية بعد عشر سنوات ، لا يسعه الا ان يشعر بالسعادة عندما يجده على الرغم من انه كان في الثانيـــة والخمسين من عمره ، قد انقلب قويا طروباً يفيض بحيوية ثائرة ، على الرغم من ان السنوات الاخيرة قد حطمت آماله ، وابعدت عنه اصدقاءه ، وقطعت جميع خيوط حياته الارستقراطية التي كان يجد فيها مأوى يحميه من نوائب الزمن .

لانه سليل اسرة « رسل » وهي من اقدم الاسر في انجلترا ، واعرقهـــا حسبا وابعدها صيتاً ، بل من اشهر الاسر في العـــالم . اسرة انجبت للدولة البريطانية قادة سياسيين شغلوا ارفع المناصب السياسية اجيالاً عدة . فقد كان

جده « اللورد جون رسل » رئيساً للوزارة البريطانية على مذهب الاحرار . واثار حربا لا هوادة فيها ليظفر بحرية التجارة ، وتعميم التعليم المجاني ، وتحرير الطائفة اليهودية ، والعمل من اجل الحرية في كل ميدان . وكان ابوه «الفيكونت امبرلي » مفكراً حراً لم يثقل ابنه بتعاليم اللاهوت الغربية الموروثة . وكان « لبرتراند رسل » الحق في ارث الايرل رسل الثاني ولكنه أبى الا ان يكسب معيشته بنفسه لانه لا يؤمن بنظام الوراثة . وعندما فصلته جامعة كامبردج من عمله فيها بسبب ميوله السلمية التي تتنافى مع سياسة بريطانيا ، جعل من العالم جامعة له فراح يطوف ويلقي المحاضرات في كل بلد داعيا الى ما يؤمن بة ، وقد استقبله العالم بالبشر والسرور .

لقد اتجه رسل في الفترة الاولى من حياته الى المنطق والرياضيات ولكنه خرج من الحرب العالمية الاولى تتملكه نزعة شيوعية . لقد كانت به نزعة رقيقة غامضة دائماً تمثلت اولا في اكداس من الصيغ الجبرية التي كان يحشو بها كتبه وبعدئذ وجدت تعبيراً لها في الاشتراكية . ومن اول مؤلفاته كتابه « التصوف والمنطق » الذي يجد فيه الطريقة العلمية وهاجم التصوف .

وهو يخبرنا بانه لم يحضر السينما ابداً الى ان قرأ ما كتبه برجسون من ان هنالك حاسة تدرك الزمن والحركة ، وقرأ تشبيهه للحيـــاة بشريط السينما ، ولكنه لم يتأثر بآراء برجسون التي بدت في عينيه شعراً جميلا ليس الا ، فقد كان رسل لا يتخذ معبوداً آخر مع الرياضيات. ولم تكن به رغبـــة فيدراسة الآداب القديمة ، وراح يجادل بشدة وكأنه « سبنسر » آخر داعيا الى المزيد من تدريس العلوم في نظام التعليم . وشعر ان مصائب العالم وآلامه ناجمة الى مدى كبير عن غموض في التفكير . وعنده ان قانون الاخلاق الاول هـو ان يفكر

الانسان تفكيراً قوياً . « خير للعالم ان يفنى من ان اصدق ، او يصدق أي انسان آخر اكذوبة ... هذه هي ديانة الفكر الذي يحرق بلهيبه المشتعل اوهام العالم » .

لقد طالب رسل بجلاء الفكر ووضوحه . وقد دفعت به هذه النزعة الى دراسة الرياضيات ، لما رأى من دقة في هذا العلم الارستقراطي الهادىء . « اننا اذا استعرضنا الرياضيات استعراضاً صحيحاً لما وجدنا فيها الحقيقة فحسب ، بل وجدنا فيها جمالا ساميا ، جمال البرود والقسوة والصرامة ، كالجمال الموجود في صناعة نحت التماثيل ، الذي لا يتجه الى جوانب الضعف في طبيعتنا ، ولا ينصب لنا من الحبائل ما تنصبه لنا الموسيقى او التصوير . ومع ذلك فهو جمال فيه الصفاء والسناء والمقدرة على بلوغ الكمال الذي لا يتاح الا لاعظم الفنون . « يعتقد رسل ان تقدم الرياضيات في القرن التاسع عشر كان اعظم معالم هذا القرن ، وخاصة حل المصاعب التي كانت تحيط سابقاً فكرة اللانهاية في الرياضيات ، وهو اعظم ما يفاخر به عصرنا . فقد تم في قرن واحد من الزمن دك قلعة الهندسة القديمة التي سادت عالم الرياضيات مدى الفي عام . ووضع من الكتب في هذا العلم ما حل محل كتاب « اقليدس » اقدم كتاب مدرسي في العالم « من العار على انجلترا مواصلة تدريس هذا الكتاب للاولاد . »

ولعل مصدر الابداع في الرياضيات الحديثة هو نبذها للبديهيات ، ولكم ابتهج « رسل » حين وجد رجالا نهضوا فتحدوا هذه البديهيات ، وألحوا باصرار على اقامة الدليل عليها . فقد اغتبط حين سمع من قال بان الخطين المتوازيين قد يلتقيان في مكان ما ، وان الكل قد لا يكون اكبر من احد اجزائه . يحب « رسل » ان يفزع القارىء البريء ، بألغاز محيرة مربكة بقوله

مثلا ، الاعداد الزوجية نصف الاعداد كلها ، ومع ذلك فهنالك من الاعداد الزوجية ما يساوي في عددة كل ما يوجد من اعداد ، لأن لكل عدد زوجياً كان ام فردياً ، ضعفا زوجيا ، ثم يقول ، هذا هو كل شيء بالنسبة الى اللانهاية الرياضية ، فهي كل يحتوي على اجزاء في كل جزء منهـا من الاجزاء ما في الكل .

ان ما يستهوي « رسل » في الرياضيات ويجذبه نحوها هو ما تتصف به من موضوعية صارمة لا دخل للشخصية فيها . هنا وهنا فقط تكمن الحقيقة الخالدة والمعرفة المطلقة . ان نظريات الرياضيات الثابتة المسلم بها هي مُثُـل افلاطون ونظام سبينوزا الخالد ،وجوهر العالم . ينبغي ان يكون هدف الفلسفة بلوغ ما في الرياضيات من كمال ، بان تقيد نفسها باقوال لها من الصحـة والضبط ما للرياضيات ، ولها من الحق الثابت قبل كل انواع التجربة . اذ ينبغي ان تكون فروض الفلسفة قضايا مسلماً بها ، هذا هو ما يريده « رسل » الايجابي العجيب ، بان لا تشير هذه الفروض الفلسفية الى الاشياء بل الى صلات ، وصلات كلية . بأن تكون مستقلة عن الحقائق الخاصة والحوادث ، حتى ولو تبدل كل جزئي في العالم ، تبقى هذه الفروض الفلسفية صحيحة ، مثال ذلك اذا فرضنـــا ان كل الالفات باءات ثم فرضنا ان (س)تساوي (ا) لكانت (س) تساوي (ب) فهذا حق مهما كانت (ا) . وسترد بالقياس المنطقي القديم حول فناء سقراط الى كلي ثابت مسلم به ، وتكون حقيقة حتى في حاله عدم وجود سقراط او أي شخص آخر اطلاقاً . لقد كان افلاطون وسبينوزا على صواب ، اذ يمكن وصف عالم الكليات بأنه عالم الوجود . ان عالم الوجود ثابت صحيح ، جاف وسار بالنسبة الى الرياضي والمنطقي ومنشيء النظم الميتافيزيقية ، والى جميع

من يحبون الكمال اكثر من الحياة . فلو استطعنا ان نحصر كل الفلسفة في مثل هذه الصورة الرياضية ؛ وان نخرج منها كل ما فيها من الحقائق الجزئية وان نقرب الشبه بينها وبين الرياضيات لبلغنا ما نريد . هذا ما كان يطمح اليه « رسل » فيثاغورس العصر الحديث .

من المثير للدهشة ان يهبط « رسل » الى سطح هذه الارض بعد ان حلق بعيداً في سماء الرياضيات والمنطق وكتب عدة مجلدات فيها . وأخذ يبحث بعاطفة قوية مواضيع الحرب والحكومة والاشتراكية والثورة ، من غير ان يلجأ الى استخدام منطقه الرياضي .

لقد أدت بداية رسل في الرياضيات الى مصير محتوم من اللاادرية والشك فقد وجد في المسيحية كثيراً من الاشياء التي لا تتفق مع ما في الرياضيات من قواعد ونظريات ثابتة فتخلى عنها باستثناء قانونها الاخلاقي . وأخذ يتحدث في ازدراء واحتقار عن مدنية تضطهد أناساً ينكرون المسيحية . ولم يستطع ان يجد الهاً في مثل هذا العالم المتناقض الذي لا يمكن ان يكون الا من صنع شيطان ساخر هازل . وهو يتابع « سبنسر » في رأيه عن نهاية العالم بالفناء ، ولكنه يشك فيما قيل في مذهب التطور من ان العالم سائر الى الامام ويقول « لقد قيل لنا ان الحياة العضوية قد تطورت تدريجياً من الخلية الاولى الى الفيلسوف ، وان هذا التطور تقدم لا سبيل الى الشك فيه ، ولكن لسوء الحظ ان من يؤكد لنا هذا هو الفيلسوف لا الخلية » ان الرجل الحر لا يستطيع ان يعزي نفسه بمثل هذه الآمال الصبيانية والالهة الوهمية . بل عليه ان يحافظ على شجاعته ورباطة جأشه على الرغم من معرفته بان مصيره ومصير الاشياء كلها الفناء . وان لا يستسلم ، فان كان لا يستطيع الظفر ، يكفيه ان يستمتع

بلذة الكفاح . وانه بمعرفته التي تمكنه من ان يتنبأ بهزيمته يقف في منزلة اعلى من القوى العمياء التي ستعمل على تدميره وفنائه . ان الرجل الحر لن يتجه الى عبادة قوى العالم الخارجي القاسية التي تقهره بهجومها المستمر المجرد عن الهدف فتقوض كل ما يبني من منازل ومدنيات ، بل يتجه في عبادته الى ما في نفسه من قوى خلاقة لا تني تجاهد وتكافح اسباب الفشل .

هكذا كانت فلسفة برتراند رسل قبل الحرب .

٢ ـ المصلح

واشتعلت الحرب،وانفجر برتراند رسل الذي بقي مدفوناً مدة طويلة تحت اثقال المنطق والرياضيات وفلسفة المعرفة ، واضطرم كاللهب المشتعل ،وادهش العالم بشجاعته الفائقة ومحبته ، وعطفه على الانسانية . وقفز العالم من وراء اكوام المنطق ، وراح يصب على اعظم رجال السياسة في بلاده سيلاً من النقاش والتعليق استمر بعد طرده من كرسيه في الجامعة وعزله وكأنه « جاليلو »آخر في حي ضيق في لندن ، فلئن شك الناس في حكمته فقد سلموا باخلاصه ، لقد أحدث هذا التحول العجيب في شخصية رسل بلبلة وارتباكا دفعتهم الى مقاومته فترة من الزمن بتعصب ممقوت لا يتفق مع ما عرف عن الانجليز ، من تسامح ، ووجد رسل نفسه على الرغم من عراقة محتده ، وكريم اصله ونبل عائلته ، طريداً منبوذاً من المجتمع ، وانكره الناس واعتبروه خائنا لوطنه الذي تغذى من لبنه وترعرع فوق ارضه .

وراء هذه الثورة المضطرمة كان يكمن في نفسه رعب من المذابح والحروب، فقد كان برتراند رسل مجموعة حساسة من المشاعر على الرغم من محاولته ان يكون عقلاً مجرداً ، وبدت له مصالح الامبراطورية البريطانية لا تستحق حياة الشباب الذين شهدهم يسيرون في زهو الى ميدان القتال ليقتلوا ويموتوا ، وراح

يعمل للوصول الى أسباب هـذه المجازر البشرية ، واعتقد بانه وجـد في الاشتراكية من التحليلات الاقتصادية والسياسية ما يكشف عن اسباب المرض والعلاج ، واعتقد ان الداء هو الملكية الخاصة والدواء هو الشيوعية .

لقد اشار الى ان الملكية الخاصة نشأت في الأصل عن اعمال العنف والنهب ، ان السرقة تتحول الى ملكية تحت سمع العالم وبصره في مناجـم الماس ، في كمبرلي ومناجم الذهب في راند . لا خير للجماعة من أي نوع من وراء هـذه الملكية الخاصة للارض ، ولو أصغى الناس لصوت العقـل لأصدروا قانوناً بتحريمها غداً ، من غير تعويض لمالكيها سوى دخل معتدل يجري عليهم في حياتهم .

وبما ان الملكية الخاصة تحميها الدولة ، والسرقات التي تنشأ عنها الملكية يقرها التشريع وتفرضها الاسلحة والحروب فالدولة اذن شر عظيم ، ومن الافضل تجريد الدولة من معظم اعمالها واعطائها الى نقابات المنتجين التعاونية ، لقد سحقت المجتمعات شخصية الفرد والحرية هي الخير الاسمى لانهـا السبيل الوحيد الى احتفاظ الفرد بشخصيته . لقد تعقدت الحياة والمعرفة في هـذه الأيام حتى أصبحنا لا نستطيـع ان نسلك طريقنا الى الحقيقة وسط ما يحيط بنا من أخطاء وتحامل وتحيز الا بالنقاش الحر ، ولنترك الناس حتى والمعلمين يختلفون في الرأي ويناقشون فيه اذ سينبثق عن هذا الخلاف في الآراء رأي نسبي ينجو بنا من اللجوء الى القتال والاستجابة لدعوة الحرب . لان الكراهية والحروب ترجع الى مدى كبير الى الآراء الثابتة والعقائد الجامدة . ان حرية الفكر والقول بمثابة الجرعة المطهرة التي تطهر العقـل الحديث من الخرافات والاوهام والامراض العصبية .

لاننا لم نبلغ من التعليم درجة كبيرة كما نظن . ونحن لم نبـــدأ تجربة تعميم التعليم الا منذ وقت قريب ، ولم يتسع امامها الوقت بعد لتؤثر اثرها العميق على طرق تفكيرنا وعلى حياتنا العامة ، اننا نبني ونمد المعدات ولكننا لا نزال بدائيين في الوسائل والفن ، اننا نظن في التعليم وسيلة لتحويل مقدار معين من معرفة مسلم بصحتها الى اذهان التلاميذ ، في حين انها يجب ان تكون تطوراً وتقدما لمادة العقل العلمية ، فان اهم ما يميز الرجل الجاهل هو سرعة تكوينه لآرائه واعتبارها اموراً مطلقة ، اما العالم فيمتاز ببطء الاعتقاد والايمان والميل في كلامه الى التعديل والتحوير . ان التوسع في استخدام العلم والطريقة العلمية في التعليم في المدارس سيقدم لنا مقياساً لذلك الضمير العقلي الذي لا يؤمن الا بما في يديه من شواهد وأدلة ، ويكون دائما على استعداد لان يقبل امكانية الخطأ في الرأي . قد يثبت التعليم بمثل هذه الوسائل انه انجح علاج لامراضنا وقد يجعل من احفادنا طلائع المجتمع الجديد ، ان الجزء الفطري في اخلاقنـــا قابل للتغير ، وقد تغيره الآراء والظروف الاجتماعية والمعاهد العلمية ، التعليم قادر على تشكيل الآراء والميـــل بها الى تقدير الفن اكثر من تقدير المال والثروة كما كانت الحال في ايام النهضة الاوروبية ، وترقيـــة ملكات الابداع والخلق في الناشئة ،وتقليل دوافع رغبة الامتلاك والثروة في النفوس ، هذا هو مبـــدأ النمو الذي يؤدي الى قاعدتين عظيمتين من الاخلاق الجديدة الاولى ، مبدأ الاحترام « وهو ترقية نشاط الافراد والجماعات كلما امكن الى ذلك ، سبيلا » والثانية مبدأ التسامح وهو « ألا يكون نمو الفرد او الجماعة على حساب فرد آخر او جماعة اخرى ما أمكن الى ذلك سبيلا . »

لن يقف امام الانسان شيء لا يستطيع فعله او القيام به لو تطورت برامج التعليم في مدارسنا وجامعاتنا ، وادبرت ادارة حسنة امينة ، ووجهت توجيهاً

عاقلا حكيما الى اعادة بناء الاخلاق الانسانية ، هذا هو السبيل للتخلص مما ينتاب العالم من جشع اقتصادي ووحشية دولية ، هـــذا هو السبيل القويم لا الثورة العنيفة او التشريع المكتوب على الورق ، لقد استطاع الانسان السيطرة على جميع انواع الحياة الاخرى،لان تكوينه ونموه استغرق وقتا اكثر منها ، وعندما يتوفر له وقت اطول وينفق هذا الوقت بحكمة اكثر ، فقد يتعلم حتى السيطرة على نفسه واعادة بنائها من جديد بطريقة افضل ، ان مدارسنا مفتاح المدينة الفاضلة .

٣ ـ ختام

لقد اسرف برتراند رسل في التفاؤل ؛ مع اننا نؤثر الخطأ في جانب الامل على الخطأ في تفضيل اليأس ، لقد صب رسل في فلسفته الاجتماعيـــة تصوفاً ، وغموضاً وعاطفة تجنبها في آرائه الدينية والميتافيزيقية ، فهو لم يطبق على نظرياته الاقتصادية والسياسية نفس التدقيق وامعان النظر في الفروض ونفس الشك في البديهيات التي جعلته يرضى عن الرياضيات والمنطق ، فقد ساقه حبه للكمال « اكثر من الحياة » الى صور رائعة فاخرة تصلح لان تكون قصائد شعرية للتخفيف من اعباء العالم اكثر من كونها محاولات عملية للاقتراب من مشاكل الحياة . من الممتع ان تفكر في مجتمع يحترم فيه الناس الفن اكثر من الثروة كما يرجو « رسل » ولكن ما دامت الشعوب تنشأ وتسقط في مجرى الانتخاب الطبيعي للجماعات وفقا لقوتها الاقتصادية لا لقوتها الفنية التي يكون لها القيمة الاعظم في البقاء ستجد لهـــا اتباعا اكثر بين النـــاس ، والفن ليس الا زهرة تنمو وتترعرع في تربـــة الثروة والمال . ويستحيل ان يحل الفن محل الثروة او يكون بديلا لها ، فقـــد سبقت اسرة « مديتشي » الثرية فن « ميخائيل انجلو » .

ولكن لا ضرورة للبحث عن عيوب هـــذا الحلم البراق الذي صوره لنا « برتراند » رسل اذ ان في تجربته الشخصية اقوى ناقد له ، فقد وجـد نفسه عندما سافر الى روسيا وجهاً لوجه امام محاولة خلق مجتمـــع اشتراكي . واوشكت المصاعب التي تواجه هـــذه المحاولة في انشاء مجتمع اشتراكي على زعزعة ايمانه وتحطيم انجيله الاشتراكي ، وخيب امله خوف الحكومة الروسية من اتخاذ الاجراءات الديمقراطية التي اعتبرها اساسا بديهيا للفلسفة الحرة واثار سخطه كبت حرية الكلام والصحـافة ، واحتكار الحكومـة لكل وسائل الاعلام والدعاية وجهل الشعب الروسي وامينه لان مقدرة القراءة في مثل هذا العصر الذي ألجمت فيه الصحافه وخضعت لاشراف الحكومة وتوجيهها تؤخر الوصول الى الحقيقة ، وراعه فشل تأميم الاراضي واستسلامه الى الملكيـــة الخاصة ، وان الناس لن يفلحوا الارض ويزرعوها الا اذا علموا بانتقال ملكيتها وما ادخلوه في تحسينها الى ابنائهم من بعدهم ، يبدو ان روسيا في طريقها لأن تكون شعبا عظيما يتألف من اصحاب الاراضي الفلاحين ، لقد بدأ يفهم بان هذا الانقلاب بكل ما فيه من تضحيات واعمال بطولية ليس الا روسيا كما كانت عام ١٧٨٩ .

ولعله شعر براحة اكثر عندما ذهب الى الصين ، وبقي عاما يحاضر فيها ، فقد وجدها أقل آلية وأضيق خطى في سيرها ، اذ يستطيع الانسان ان يجلس ويفكر وان تقف له الحياة حيناً فيستطيع تشريحها وتحليلها . فقـد انفسحت امام فيلسوفنا آفاق ومناظر جديدة في ذلك البحر الصيني الزاخر بالناس . وادرك ان اوروبا ليست سوى تجربة كاذبة امـام قارة اعظم منها

وأقدم وربما أعمق منها ثقافة ، وذابت فلسفته وانحلت كما نلمس ذلك في قوله :

« لقد ادركت انه ليس للجنس الابيض تلك الاهمية التي كنت اعتقد ، فلو أبادت اوروبا وامريكا نفسها في الحرب فان هذا لا يعني فناء النوع البشري او انتهاء المدنية اذ سيبقى بعد ذلك عدد كبير من الصينيين . والصين اعظم امة رأيتها اطلاقا من عدة وجوه ، فهي ليست أعظمها من الوجهة العددية والثقافية فحسب ، بل يبدو لي انها اعظمها من الوجهة العقلية ، ولا اعرف مدنية اخرى ما للصين من سعة العقل والواقعية والرغبة في مواجهة الحقائق كما هي ، دون محاولة تشويهها في قالب معين .

من العسير احياناً ان تبقى فلسفة « برتراند رسل » الاجتماعية كما هي فلا يطرأ عليها تغيير او تبديل بعد تنقله هـذا من انجلترا الى امريكا وروسيا والهند والصين ، فقد اقنعه العالم الفسيح الارجاء استحالة وضعه في صيغ من المنطق والرياضيات وان اتساع العالم وثقله لا يسمح له بالسير في السرعة التي يرغب بها فيلسوفنـا « برتراند رسل » اننا نجـده الآن اكبر سناً واكثر حكمة . انضجه الزمن وحنكته الحياة ، انـه لا يزال يقظاً كما كان دائماً مدركا لامراض المجتمع ، ولكن النضوج علمه الاعتدال وصعوبة الاصلاح الاجتماعي .

يا له من انسان محبوب قادر على البحث في أعمق الميتافيريقا وأدق الرياضيات في بساطة الحديث ووضوح الاسلوب ، فقد عكف على دراسة مواضيع ينضب فيها منبع الشعور ، ومع ذلك فقد كان يطفح بحرارة العطف والشفقة والرأفة

نحو الانسانية ، انه ليس مجاملا او متزلفا بل عالما ولطيفا ، وافضل مسيحية من كثير ممن يتشدقون بهذه الكلمة ، ويسعدنا انه لا يزال قويا وصادقا مخلصا ، ولاتزال شعلة الحياة تضيء فيه نوراً . ومن يدري فلعل السنين القادمة تزيد من حكمته بعد ان استفاق فتكتب اسمه بين اعاظم الفلاسفة الخالدين .

الفصل الحادي عشر

الفلاسفة المعاصرون في امريكا

سنتيانا . جيمس . ديوي

مقدمة

تنقسم امريكا فكريا الى امريكتين ، احداهما اوروبية والاخرى امريكية. ان امريكا الاوروبية تشمل الولايات الشرقية . حيث ينظر الرعيل القديم باحترام الى الفئات الارستقراطية الخارجية . ويلتفت المهاجرون الجدد بحنين واشتياق الى ثقافة اوطانهم التي جاؤوا منها . يشتد الصراع في امريكا الاوروبية هذه بين الروح الانجلوسكسونية الرصينة الدمثة ، وروح المهاجرين الجدد المبدعة المتوثبة المتبرمة . لا بد ان ترضخ طرائق الفكر والعادات الانجليزية في المستقبل لثقافة القارة التي تحيط بها وتغرقها في هذه المنطقة . ان المزاج البريطاني لا زالت له السيادة في الوقت الحاضر على الادب ، لكنه فقد سيادته على الاخلاق في امريكا الشرقية . ان مستوى الفن والذوق في المدن الاطلسية انجليزي ، والتراث الادبي تراث انجليزي ، والفلسفة تسير على النهج الانجليزي . ان انجلترا الجديدة هي التي انجبت « وشنطن » و« ارفينج»

و « امرسون » وحتى (بو) وهي التي سطرت كتب الفيلسوف الامريكي الأول، « جوناثان ادواردز » وانجلترا الجديدة هذه هي التي استهوت وهيأت وأعدت المفكر الامريكي الغريب الاخير « جورج سنتيانا » لان سنتيانا فيلسوف امريكي بحكم الجغرافيا فقط . فهو اوروبي ولد في اسبانيا وانتقل الى امريكا في ايام طفولته المجهولة . وعاد الى اوروبا بعد نضجه كمن يعود الى فردوس بعد طول غيابه .

اما امريكا الاخرى ذات الطابع الامريكي فتشمل الشعب الذي تأصلت جذوره في التربة الامريكية لا الاوروبية . فهو اميركي قلبا وقالبا وحسا ، وفكراً ، اخلاقاً ومثلا . وهو الشعب الذي لا تتأثر روحه برقة العائلات التي تزين « بوسطن » و « نيويورك » و« فيلادلفيا » ولا بعاطفة الاوروبيين الجنوبيين او الشرقيين المتقلبة . انهم رجال ونساء طبعوا على الخشونة الجسدية والاستقامة العقلية ، وبساطة الحياة بحكم البيئة البسيطة التي عاشوا فيها ، والمهمات التي قاموا بها . هذه هي امريكا التي انجبت « لنكلن » « و ثورو » و« ويتمان » و« توين » . انها امريكا الحصان ورجال العمل .

وهي امريكا التي اثرت على « وليم جيمس » الذي غدا مبينا وناطقا لفلسفتها . وهي امريكا التي انجبت الفيلسوف الامريكي « جون ديوي » .

سندرس « سنتيانا » اولاً على الرغم من التسلسل والترتيب الزمني ، فهو على الرغم من كونه اصغر فيلسوف بين كبار فلاسفتنا ، فانه يمثل مدرسة اجنبية اقدم . كما ان عمق افكاره واريج اسلوبه لا يزال باقيا كعطر يفوح من غرفة نقلنا الازهار منها . لن نخطئ في امريكا بمثل سنتيانا ، لان امريكا بعده ستسطر فلسفة امريكا وليس اوروبا .

١ ـ جورج سنتيانا

١ ـ حياته

ولد سنتيانا في مدريد عام ١٨٦٣ . وتوفي في روما عام ١٩٥٣ . لقد جاء الى امريكا عام ١٨٧٢ ، وبقي فيها حتى عام ١٩١٢ . وقد تخرج في جامعة هارفارد ، وعين فيها استاذاً ، ولبث فيها من سن السابعة والعشرين حتى بلغ الخمسين ولكنه لم يكن راضيا تماما بهذه البلاد التي اختارها لنفسه . فقد لطف العلم روحه ، وأرهف الشعر احساسه ، وكان شاعراً اولاً وفيلسوفاً اخيراً . عانى الكثير من صخب حياة المدينة الامريكية وسرعتها واتجه بالغريزة الى « بوسطن » وكأنه اراد ان يكون قريبا من اوروبا مهما استطاع الى ذلــــك سبيلا . ومن « بوسطن » انتقل الى كامبردج وهارفارد . عاش في خلوة آثر فيها افلاطون وارسطو ، على جيمس ورويس . وراح يبتسم في شيء من الاسى على شهرة زملائه . وبقي بعيدا عن الجماهير والصحافة . ولكنــــه كان يعرف حسن حظه لوجوده في اعظم مدرسة للفلسفة لم تشاهدها اية جامعةامريكية اخرى . فقد كانت صباحا منعشا ومشرقا في حياة الفكر والعقل على الرغم من تلبده بالغيوم احيانا .

لقد كان اول مقال له في الفلسفة « حاسة الجمال » عام ١٨٩٦ . الذي يعتبر اعظم هبة امريكية في عالم الذوق والجمال . وبعد خمس سنوات اخرج مؤلفا رائعا في « تفسير الشعر والدين » وجد اقبالاً اوسع من مقاله السابق . ولبث بعد ذلك سبع سنوات لا ينشر شيئا سوى مقطوعات شعرية ينشرها من وقت لاخر . حيث كان يعد اهم مؤلفاته الا وهو « حياة العقل » ولم يكد يخرج الى الناس هذا الكتاب بمجلداته الخمسه « العقل في الادراك السليم ، العقل في المجتمع ، العقل في الدين ، العقل في الفن ، العقل في العلم » حتى ارتفع سنتيانا فوراً الى اوج الشهرة بين الاوساط الفلسفية . لقد كان سنتيانا مزيجا صافيا من ارستقراطية شعوب البحر المتوسط ، والفردية الامريكية . كان روحا متحررة منيعة على روح عصره . يتحدث بلهجة العالم الوثني الذي جاء من مدينة الاسكندرية القديمه ليستعرض نظمنا الضئيلة بعين السمو وشعور الرفعة ، ويلطم احلامنا القديمة والجديدة باهدأ الفكر واروع النثر . لم تلبس الفلسفة ثوبا جميلا منذ افلاطون ما لبسته من جمال اللفظ ، وروعة الشعر في اسلوب سنتيانا . كلمات مطعمة بالحكمة ، وعبارات ناعمة النسيج ، يعطرها الذكاء ، ويحصنها النقد والعقل . يتحدث فيها الشاعر في ترف البيان ، والفنان في ريشة الاسلوب وسحر السياق في المقاطع . من الخير ان نجد انساناً يشعر باغراء الجمال ودعوة الحقيقة معاً .

بعد ذلك جلس سنتيانا ناعماً على عرش شهرته ، قائماً بنظم الشعر وتأليف بعض الكتب الثانوية . ثم غادر هارفارد الى انجلترا ليعيش فيها وظن العالم انه قد اتم واجبه ، وادى رسالته ، ولكنه اثار دهشة العالم مرة ثانية بنشره كتابه القيم « الشك وايمان الحيوان » في عام ١٩٢٣ . واعلن ان هذا الكتاب مقدمة لنظام فلسفي جديد . لقد كان من الممتع ان نرى رجلا في الستين من عمره ، يبحر في رحلات بعيدة جديدة ، ويخرج كتاباً عنيفاً في فكره ، جميلا في اسلوبه ، كغيره من كتبه السابقة . لا بد ان نبدأ في هذا الكتاب الاخير ، لأنه سيفتح لنا الباب لفهم افكار سنتيانا كلها .

٢ — الشك وايمان الحيوان

يقول في مقدمة هذا الكتاب اننا « سنجد نظاماً آخر للفلسفة . فان وجد القارىء في نفسه رغبة في الابتسام فسأبتسم معه ... فأنا لا احاول ان اقدم للقارىء الا المبادىء التي يتجه اليها عندما يبتسم . » يبدي سنتيانا اعتدالا كبيراً في اعتقاده بامكانية النظم الفلسفية الاخرى. وهذا غريب من فيلسوف. فهو يقول ، انا لا اطلب من احـــد ان يفكر بما افكر اذا كان يفضل تفكير الاخرين ، والأفضل اذا استطاع ان ينظف نوافذ روحه ، لينشر جمال المنظر وتنوع صوره اشراق ضوئه امامه .

يريد سنتيانا في هذا الكتاب الاخير ان يمحو اولا نسيج العناكب الذي نسجته نظرية المعرفه ، فعرقلت نمو الفلسفة الحديثة واخرت تقدمها . وقبل ان يعرف حياة العقل ، راح يتحدث عن اصل العقل البشري . لانه يعلم ان اسوأ ما يقع فيه الفكر هو قبوله الاراء التقليدية قبولا اعمى ، ولهـذا فهو يبدأ بالشك ، وهو على استعداد لان يشك في كل شيء . فيقول يصل الينا العالم الخارجي خـــلال الحواس فيمتزج بصفاتها وخصائصها ، وتأتي لنا الحوادث الماضية عن طريق الذاكرة التي تؤثر فيها الرغبه وتلونها كما تشاء . اذن فالعالم كما يظهر لنا والماضي كمـــا نذكره قابلان للشك . اما ما يثق « سنتيانا » في صحته ثقة اليقين فهو تجربة اللحظة فهذا اللون وهذه الصورة ، وهـــذا الطعم وهذه الرائحة ، وهـــذه الصفة ، كل هذه وما شاكلها هي العالم « الحقيقي » وادراكهـا يُكوِّنُ « الكشف عن الجوهر »

ويقول « سنتيانا » ان المذهب المثالي صحيـح ولكنه لا ينتهي الى نتيجة كبيرة . حقاً اننا نعرف العالم عن طريق افكارنا فقط ، ولكن ما دام العالم قد سار خلال الاف السنين قائمـا على اساس الايمان بصدق احساساتنا ،

يمكننا اذن ان نقبل هذا القرار العملي من غير ان نخشى على المستقبل . قـــد تكون عقيدة الانسان خرافية ، ولكن هذه الخرافة نفسها خير ما دامت الحياة تصلح بها ، وصلاح الحياة خير من استقامة المنطق الصحيــح اذا كانت الحياة تصلحها الخرافة اكثر مما يقومها القياس المنطقي . ان كثرة الشك في صحة مـا تأتي به التجربة الحسية قد دفعت الألمان الى المرض ، فقد بالغوا في الشك مبالغة شديدة كالمجنون الذي يمضي حياته في غسل يديه لتنظيفها من اوساخ وهمية لا وجود لها .

٣ ـــ العقل في العلم

ليس العقل عدواً للغرائز ، ولكنه يساعدها في توفيق ونجاح . والعقل فينا عبارة عن الطبيعة بلغت مرتبة الادراك ، فهي اذ تستهدي به انما تسترشد بضوء نفسها في تبين طريقها ومعرفة الغـــاية التي تسعى اليها . والعقل ازدواج سعيد من عنصرين ـــ وهما الحافز الذي يحفز ويدفع والفكر الذي يفهم . ولو انفرط ما بين هذين العنصرين من رباط لا نقلب الانسان وحشا ضاريا او مجنونا لا يعي . والعقل هو تقليد الانسان لله .

يقوم كتاب سنتيانا وهو « حيــاة العقل » على العلم : لأن العلم يشمل جميــع انواع المعرفة التي يوثق بها ويركن اليها . ان سنتيانا يعرف مدى ما في العقل من تقلب وعدم ثبات ، ومــــا في العلم من قابليه الزلل والخطأ ، ولكنه على الرغم من ذلك يرى وجوب اعتمادنا على العلم وحده . وهكذا صمم سنتيانا على ان يفهم الحياة شاعراً بما شعر به سقراط بأن الحياة بغير بحث ليست جديرة بالانسان . وان نخضع للعقل كل نواحي التقدم الانساني ، وكل ما يتصل بالانسان من مصالح وتاريخ .

ومع ذلك فاننا نجد سنتيانا معتدلا ومتواضعا ، فهو لا يقدم لنا فلسفة

جديدة ، بل يريد تطبيق الفلسفات القديمة على حياتنـــا الحاضرة فقط . وهو يعتقد بأن افضل الفلاسفة هم اولهم واقدمهم ، ويضع على رأسهم « ديمقريطس » و « ارسطو » وهو يحب في الاول نزعته المادية الواضحة ، وفي الثاني رجاحة عقله وسلامة حكمته . ويرى صحة مـــا ذهب اليه ارسطو في الطبيعة البشرية والاخلاق . وهكذا واجه سنتيانا مشكلات الحيـــاة الحاضرة متسلحا بمذهب « ديمقريطس » الذري ، ونظرية ارسطو في الاخلاق وهي الوسط الذهبي ويقول سنتيانا في نزعته المادية .

« انني في الفلسفة الطبيعية مادي صميم .. ولكني لا ازعم انني اعرف ما هي المادة في ذاتها .. وانا انتظر من رجال العلم ان يخبروني بهذا .

... ولكن مهما تكن المادة فأنا اسميها مادة بكل جرأة ، كما اسمي معارفي واصدقـائي « سميث » و « جونز » من غير ان اعرف اسرارهم »

ولا يسمح سنتيانا لنفسه باعتناق المذهب الحلولي وهو المذهب الذي يقول بوحـدة الكون وتأليهه ، اي ان الله هو الكائنات التي هي الله . وهـو يعتقد بانهذا المـذهب الحلولي ليس الا مهربا من الالحاد . ويقول اننا لا نضيف الى الطبيعة شيئا عندما نسميها الله . ولكنه كشاعر بطبيعته·ادرك ان العالم اذا تجرد عن الله يكون بارداً ولا يبعث على راحة القلب والنفس . وهـو يتساءل « لماذا ثار الضمير الانساني اخيراً على مذهب الطبيعيين وعاد الى الايمان بالغيب الخفي ؟ » قد يكون السبب في هذا هو « ان النفس الانسانية قريبة ومشابهة لما هو خالد ومثالي » فهي لا تقنع بما هو موجود امامها وتتوق الى حياة افضل وتحزنها فكرة الموت ، وتعلق املها على قوة تمكنها من الدوام والخلود وسط ما يحيط بها من تغير ومرور . ولكن سنتيانا ينتهي من تساؤله هذا بقوله في فتور وبرود : « انا لا اعتقد بوجود شيء خالد ... لا شك ان روح العـــالم وطاقته هـــا اللذان يعملان فينا ، كما ان البحر هو الذي يرتفع في كل موجة صغيرة . ولكن هذه الروح والطاقة او الحياة تمر في طريقها عبرنا ، غير آبهة او

حافلة بصياحنا وتواصل سيرها ، وكل ما نمتاز به هو اننا ندركها وهي ماضية في طريقها . »

يذهب سنتيانا الى احتمال ان يكون اساس العالم كله آليا . ويرى ان افضل طريقة للبحث في علم النفس هي افتراض سيادة هـذا المبدأ الآلي في كل العمليات النفسية ما خفي منها وما ظهر . ولن ينتقل علم النفس من الادب الى العلم الا اذا اخذ يبحث عن الاساس الالي والمادي لكل حادث عقلي يحدث في العقل . وحتى ما ارتآه سبينوزا في العواطف او الانفعالات ـ النفسانية ليس الا « ادبا نفسانيا » لانه لم يبحث عن الاساس الوظائفي (الفسلجي) والالي لكل حافز وعاطفة او احساس . لقد وجد السلوكيون اليوم الطريق الصحيح الذي ينبغي عليهم السير فيه بغير خوف او وجل .

الحياة كلها آلية ومادية ، والادراك العقلي ليس شيئا بل حالة وعملية لا فاعلية لهـا على الجسم . والفاعلية تقع في الحرارة التي تستخدمها الرغبـات والدوافـع في تحريك المخ والجسد . والفكر ليس اداة العمل ، ولكنه مسرح تنطبع فيه صور التجارب ، ويتلقى ما يسرنا ويبهجنا من الاخلاق والجمال . ولو بحث « لالاند » الذي قيل انه يبحث في السماء بمرصده عن الله فلم يجده ، لو بحث بمجهره عن العقل في مادة المخ لما وجده ... والاعتقاد بوجود مثل هذه القوة فينـا كالاعتقاد بوجود السحر . والحقائق التي يراها العالم النفساني ليست الا حقائق مادية جسدية .. والنفس ليست سوى تنظيم دقيق سريع داخل مادة الحيوان ، وهي شبكة هائلة عظيمة من الاعصاب والانسجة تنمو من بذرة في كل جيل .

هل ينبغي علينا ان نقبل هذه النزعة المادية التي ذهب اليها سنتيانا ؟ من العجيب ان يتجه شاعر روحي ومفكر عميق مثـل سنتيانا الى ربط عنقه في طاحون فلسفة مادية عجزت بعـد جهود قرون عدة عن تفسير نمو شجرة او

ازدهار زهرة او ابتسامة طفل . ولكن اذا لم يكن للادراك تأثير على الجسم في حركته ، لماذا تطور ونما، ولماذا بقي في عالم لا بقاء فيه لاشياء عديمة التأثير والنفع.

ان الادراك اداة للحكم والبهجة ، ووظيفته الحيوية هي الاستجابة المؤثرات . ولسنا بشراً الا بهذا الادراك . وقد يكون في الزهرة وبزرتها والطفل وابتسامته من سر الكون اكثر بكثير من أية آلة ارضية او بحرية . ومن الحكمة اكثر ان نفسر الطبيعة بالحياة من ان نحاول فهمها بطريقة مادية ميتة.

ويعلق سنتيانا على فلسفة برجسون بقوله .

ان برجسون يتحدث كثيراً عن الحياة ، ويشعر بأنه نفذ بعمق الى طبيعتها، ولكن ما هي هذه الغاية الخالقة المبدعة التي يقول برجسون بوجودها ؟ ما هي هذه الغاية الخالقة التي لا بد لها ان تنتظر الشمس والمطر لتبدأ حركتها وعملها ؟ ما هذه الحياة التي تخمد في الانسان على الفور اذا ما اصابته رصاصة ؟ ما هو هذا الدافع الحيوي الذي يختفي من الوجود ويزول لدى اقل هبوط في درجة الحرارة ؟

٤ ـ العقل في الدين

بقي سنتيانا محبا للمذهب الكاثوليكي على الرغم من طرحه للعقيدة الدينية ، ، كرجل لا يزال يشعر بالحب والحنين للمرأة التي خدعته ـ « اصدقها على الرغم من انني اعرف كذبها . » ويبكي ضياع ايمانه ، ويعتقد ان الايمان غلطة جميلة » تلائم نوازع النفس اكثر من الحياة نفسها .

كان هذا الحب للمذهب الكاثوليكي ، وهذا الكفر المؤمن دافعا سنتيانا على كتابة مؤلفه المعظم « العقل في الدين » الذي تطفح صفحاته بالشك الالحاد والحزن الرقيق . فقد كان سنتيانا يرى في جمال الكاثوليكية اسبابا كثيرة تدفعه على حبها . وهو يضحك من المذهب التقليدي الارثوذكسي والاعتقاد

بأن وجود العالم لخير الانسان . ولكنه في الوقت ذاته يزدري العلمــاء الذين يتوهمون انهم قــد اثبتوا بطلان الدين بالعلم ، من غير ان يبحثوا عن اصل الافكار والعادات التي نبعت عنها تلك العقائد الدينية ، ومن غير ان يعرفوا معنى هذه العقائد الدينية الاصلي وعملهــا الحقيقي . امامنا ظاهرة تستدعي الالتفات وتستحق الاهتمام وهي ان الناس في كل مكان على ظهر هذه الارض يدينون بدين من الاديان ، فكيف نستطيــع ان نفهم الانسان اذا كنا لا نفهم الدين ؟ ان مثل هذا الفهم والدراسة للديانات ستضع المرتاب الملحد وجها لوجه امام غموض فناء الكون . وتمكنه من تفهم العمق في هــذه الديانات . ويعتقد سنتيانا كما اعتقد « ليوكريتس » ان الخوف هو منشأ اعتقاد الانسان بالالهة ، اضف الى هــذا الخوف الخيال . فالانسان روحاني بطبعه ويميل الى العبادة ، ولا يمكن تحويــله عن هــذا الميل للعبادة وهو يميل الى تفسير جميــع الاشياء تفسيراً دينيا . والى تجسيم الطبيعة وملئها بالالهة . فقد كان يعتقد ان قوس قزح اثر لمرور الاهة جميلة في السماء . وان هــذا لا يعني ان الناس كانوا يؤمنون ايمانا حرفيا بهذه الاساطير الجميلة الفاخرة . ولكن الاسلوب الشعري الذي وضعت فيه هذه الاساطير ساعدهم على تحمل اعباء الحياة . لقد ضعفت النزعة الاسطورية في ايامنا هذه لما احدثه الاتجاه العلمي من رد فعل عنيف ضد الخيال . ولكن هــذا الخيال لم يكبح وبقي منطلقا بين الشعوب البدائية البسيطة وخاصة في الشرق الاوسط . وكتاب العهد القديم (التوراة) . يزخر بالوان الشعر والبيان من تشبيه واستعارة . واليهود الذين كتبوه لم يأخذوا بحرفية ما جاء في هــذا الكتاب من مجــاز واستعارة . ولكن عندما اخطأ الاوروبيون وهم اكثر حرفية واقل خيالا في فهم هــذا الشعر فهما علميا . انتهى بهم تمسكهم الحرفي وتفسيرهم العلمي الى مولد اللاهوت الغربي . لقد كانت المسيحية في اول الامر مزيجا من اللاهوت اليوناني والاخلاق اليهودية . ولكن هذا المزيــج لم يكن راسخا ومستقراً استقرارا قويا . وكان لا بد ان ينفصل هذان العنصران احدهما عن الاخر . فانتصر العنصر اليوناني الوثني واستقل في المذهب الكاثوليكي .

وسادت صرامة الاخلاق العبرية في المذهب البروتستانتي . وكان للاول نهضة والثاني اصلاح .

لم يقبل الشعب الالماني الذي يطلق عليه سنتيانا اسم برابرة الشمال الديانة المسيحية الرومانية . وبقيت بين شعوب القرون الوسطى اخلاق غير مسيحية ، كتعظيم الشجاعة وتمجيد الشرف . كما بقيت بينهم ثروة طائلة من الاساطير والخرافات والمشاعر اللامسيحية . فقد كانت الكاتدرائيات القوطية كاتدرئيات بربرية لا مسيحية رومانية . ورفعت النزعة الحربية العسكرية التيتونية رأسها فوق السلام الشرقي الذي يميز الديانة المسيحية الشرقية ، فغيرت هذه الشعوب التيتونية الحربية الديانة المسيحية من ديانة الحب الاخوي الى صفات كالحة ذات فائدة عملية ، ومن ديانة الفقر الى ديانة الثراء والرخاء والقوة .

يعتقد سنتيانا ان لا شيء يضاهي المسيحية في جمالها شريطة ان لا تفهم فهما حرفيا . ولكن الالمان اصروا على اخذها بحرفيتها . وادى هذا الى انهيار المذهب الارثوذكسي المسيحي في المانيا . لان الاخذ بحرفية العقائد الدينية القديمة يؤدي الى بطلانها . كتعذيب الابرياء في جهنم ، ووجود الشيطان في هذا العالم الذي خلقه اله وسعت رحمته وقدرته كل شيء . كما ان مبدأ التفسير الفردي ادى بالطبيعة الى نشأة مذاهب متطرفة كثيرة بين الناس . والى المذهب الحلولي بين القلة التي دعت الى هذا المذهب. اذ ان هذا المذهب ليس الا مذهب الطبيعيين وضع في قالب شعري جميل . وكان « ليسنج » و «جوته » و « كارليل » و « امرسون » دعاة لهذا التغيير .

ان سنتيانا لا يشعر بعطف على المذهب البروتستانتي بحكم تكوينه الوراثي . وهو يفضل بخور الكاثوليكية التي شب عليها في شبابه . ويزدري البروتستانت لتخليهم عن الاساطير الجميلة ، واغفالهم مريم العذراء التي يعتبرها اجمل زهرة في باقة الشعر . وهو يزين جدران غرفته بصور العذراء والقديسين .

ويحب جمال المذهب الكاثوليكي اكثر من حقيقة اي مذهب آخر . ويفضل الفن على الصناعة من اجل هذا السبب نفسه .

٥ — العقل في المجتمع

ان المشكلة الكبرى التي ينبغي على الفلسفة ايجاد حل لها ، هي وسيلة تحمل الناس على التمسك بالفضيلة بغير اثارة آمال الغيب ومخاوفه في نفوسهم . لقد وجدت هذه المشكلة حلا نظريا لهـــا في النظرية الاخلاقية التي قدمها « سقراط » و « سبينوزا » . فقد قدم هذان الفيلسوفان للعـــالم نظاما اخلاقيا كاملا . ولو استطعنا حمل الناس على اتباع احد هذين النظامين الاخلاقيين لادى هذا الى تحسين حياتهم واصلاح امورهم . ولكن من العسير أن نتجه الى مثل هذه النظم الاخلاقية الغاية في المثالية بسبب صعوبة تحقيقها . ويبدو انها ستبقى احلاما في اذهان الفلاسفة . اما بالنسبة الى الناس فان سبيل التطور الاخلاقي يقع في تنمية العواطف الاجتماعية التي تزدهر في جو الحب والوطن .

والواقع ان الحب كما قال شوبنهور هو خداع الجنس للفرد ، وان تسعة اعشار اسباب الحب تكمن في المحب والحب يصهر النفس في سبيل لا شخصي اعمى . ومع ذلك فان كان في الحب اعظم تضحية يقوم بها الفرد فانه يجد فيه عظم سعادته فيعوض بذلك ما قام من تضحية ويروى عن « لابلاس» انه قال وهو على فراش الموت ، ان العلم امر تافه ، وان لا شيء حقيقي سوى الحب . والحب على الرغم مما فيه من خداع واوهام شعرية فانه عادة ينتهي بصلة بين الوالد والولد اكثر ارضاء للغرائز البشرية ممـــا في حياة العزوبة من امن وهدوء . فالابناء هم خلودنا ونحن على استعداد للتضحية بالقاء كتاب حياتنا في اللهب عندما نجد ابدع ما في هذا الكتاب قد تم نسخه في نسخة اجمل الا وهي اولادنا .

والاسرة هي السبيل الى دوام الانسانية ، فهي لا تزال النظام الاساسي بين الناس وهي وحدها قادرة على دوام الجنس حتى ولو فشلت جميع النظم

الاخرى . ولكن الاسرة وحدها لا تستطيع السير والرقي بالمدنية الا الى درجة بسيطة معينة . اذ تحتاج المدنية لاطراد تطورها ومواصلة سيرها وتقدمها الى نظام اوسع واكثر تعقيداً ، تحل فيه الدولة محل الاسرة . وقد تكون الدولة وحشاً طاغياً كما قال عنها « نيتشه » ولكن هذا الطغيان الذي يرتكز على سلطة واحدة ، يقضي على جميع ضروب الطغيان الاخرى التي كانت تكدر صفو الحياة وامنها قبل انشاء الدولة . فان كانت الدولة قرصانا يفرض علينا تقديم الخراج والضريبة ، فان تقديمنا لهذه الضريبة الى قرصان واحد يتقبلها بهدوء افضل من ان يستولي عليها مئات القراصنة بلا انذار او حدود . ومن هنا نشأت الروح الوطنية بين الناس . فهم يعرفون ان ما يدفعونه للحكومة من ثمن اقل من تكاليف الفوضى والاضطراب التي يتعرضون لها اذا لم تقم حكومة قوية بالاشراف على المجتمع والسهر على مصالحهم . ولكن سنتيانا يتساءل فيما اذا كانت مثل هذه الوطنية تؤدي الى خير الناس او الى ضررهم ؟ لان هذه الوطنية تميل الى اتهام دعاة الاصلاح والتغيير بعدم الاخلاص والخيانة . ان حب الانسان لبلاده يدفعه الى المطالبة بالتغيير وبذل الجهود للوصول بالبلاد الى الكمال . والوطنية القومية ضرورة لا مفر منها . وبعض الشعوب متفوقة على غيرها . والزواج بين الشعوب والاجناس المتفاوتة في التفوق امر خطير . وعظمة الشعوب المتفوقة تضعف باتصالها واندماجها مع الشعوب الاقل منها تفوقاً واستقراراً وتقدماً . واسوأ ما في الحكومة هو ميلها الى الحرب ، وتهديدها للشعوب المتأخرة الضعيفة . وهو يرى ان التطور بالالعاب الرياضية الدولية الاولمبية قد يحقق مخرجاً لروح المنافسة بين الجماعات . وسنتيانا لا يشارك سبنسر افتتانه وحبه للصناعة ، وهو يعرف جانبي الصناعة الحربي والسلمي . ويميل الى نظام الحكومة الارستقراطية القديم . ويعتقد ان ما عرفه العالم من ثقافة كان ثمرة لذلك النظام الارستقراطي . وليست المدنية في اعتقاده الا انتشار عادات نشأت في الطبقات الممتازة ، ولم تنبع من عامة الشعب ، ثم

فرضت نفسها على الشعب فرضاً.والدولة التي تتألف خاصة من العمال والفلاحين كما تتألف معظم الامم الحـــديثة لهي دولة متأخرة متوحشة ، تقضي على كل تقاليد الحرية ، ويضيــع فيها جوهر الوطنية العقلي والتاريخي . وسنتيانا يكره المساواة ويوافق افلاطون بأن المساواة بين غير المتساوين لا مساواة . ومع ذلك فهو لم يبــع نفسه تماماً للنظام الارستقراطي . وهو يعرف ان التاريخ قد جرب حكومات ارستقراطية ووجد فيها من العيوب ما يوازي فضائلها . فالحكومة الارستقراطية لا تفسح مجــــال التقدم والنمو الا امام القلة من ابناء العائلات العريقة . والحكومة الارستقراطية تؤدي الى الثقافة ولكنها تؤدي ايضا الى الطغيان واستعباد الملايين الذين يدفعون الثمن لحريـــة القلة من ابنـاء الطبقة الارستقراطية . ينبغي ان يكون مبدأ السياسة الاول ، ان تعمل الحكومـة على رفـــع حياة افراد الشعب والنهوض بهم ، وتقوية امكانياتهم ومواهبهم . والديمقراطية من هذه الناحية افضل من الارستقراطية ولـــكن للديمقراطية مساوئها وشرورها ايضا . فهي بالاضافة الى فسادها وعجزها تمتاز بنوع من الطغيان خاص بها . وهو عبادة المساواة والتشابه التام بين افراد الشعب . ولن نجد طغيانا ممقوتا ومكروها اكثر من هذا الطغيان العامي الذي يقضي على كل تجديد ويسد الطريق امام كل موهبة وعبقرية .

ان اشد ما يكرهه سنتيانا هو الفوضى والسرعة الفاحشة التي ترافق الحياة الحديثة.ويتساءل هل كان الناس اسعد حالا في ظل النظام الارستقراطي القديم ، عندما كانت الحكمة هي الخير لا الحرية .

وبما ان الديمقراطية قد فتحت باب الحرية امام الجميع ،فان هذا سيؤدي الى فتح باب الشره والنهم وعدم القناعة امام الجميع . ويبدأ الصراع بين طبقات المجتمع . وكل طبقة تنتصر في هذا الصراع الذي فتحت الحرية فيه الباب على مصراعيه ستقضي على هذه الحرية . هذا هو انتقام الثورة ايضا . حيث تلجأ الطبقة المنتصرة لكي تحافظ على بقائها الى اقامة حكومة الطغيان التي دمرتها.

ان الثورات يكتنفها الابهـــام والغموض ونجاحها يتوقف على نسبة مقدرتهـــا على تكييف نفسها واستيعاب ما ثارت عليه . لقـد تركت الاف الاصلاحات العالم فاسداً كما كان . لأن كل اصلاح ناجح قد اوجد نظاما جديداً وهذا النظام الجديد يحمل في جنباته بذور طرحه ونبذه وانتهاكه .

اذن ما هو شكل المجتمع او الحكومة التي يجب ان نسعى لها ونكافح من اجلها ؟ قد يكون الجواب ان لا نكافح من اجل حكومة معينة . اذ الفرق ضيق بينها . ولكن سنتيانا يميل الى تفضيل حكومـــة تقوم على حكم اصحاب المواهب والشرف من الرجال وهي ما تسمى بالحكومة « التيمقراطية » وهي حكومة ارستقراطية ولكنها ليست وراثية . والمجال مفتوح فيها امام الجميـع وفقا لمواهبهم وامكانياتهم ومقدرتهم . بأن يكون الطريق للوصول الى اعـــلى مناصب الدولة مفتوحا امام كل رجل وامرأة وفقا لمقدرتهم ومغلقا امام العجز وعـــدم المقدرة والكفاءة مهما بلغت مقدرة المرشحين على جمع الاصوات في الانتخابات والاستفتاء . والمساواة الوحيدة الباقية هي مساواة الفرصة امـــام الجميـع . في هذه الحكومة ينحصر الفساد في اقل حيز ممكن . ويزدهر العلم والفن بما يجدان من تشجيـع . وستكون هذه الحكومة جمعا وتركيبا من الارستقراطية والديمقراطية،وهي ما ينشده العالم منذ زمن طويل لينجو بنفسه من الفوضى السياسية التي يتعرض لها اليوم . وهي حكومة لن يحكم فيها الا افضل الناس ، ولكنها تقدم فرصة متساوية لكل انسان بان يكون بين افضل الناس هؤلاء اذا اثبت جدارتـه واهليته . وهكذا فاننا نجد افلاطون يتحدث من جديد على لسان سنتيانا وتلوح فلسفة التي دعا فيهـــا الى حكم الفلاسفة في كتابه الجمهورية في افق كل فلسفة سياسية بعيدة النظر . ومن هذا يتبين لنا اننا كلما امعنا النظر واطلنا الفكر في افضل حكومة ، عدنا الى افلاطون . وبهذا يتضح لنا اننا لسنا في حاجة الى فلسفة جديدة ، وكل ما نحتاج اليه هو الشجاعة وحدها لتطبيق اقدم فلسفة وافضلها .

٦ ــ تعليق

اننا نشعر في هذه الصفحات التي استعرضنا فيها سنتيانا كآبة انسان ابتعد عن كل مـــا يحب. سنتيانا الاسباني الارستقراطي يعيش في امريكا ذات الطبقة المتوسطة ، وهو يتحدث في المجلد الاول من كتابه حياة العقل ، عن ان موضوع الفلسفة يتناول معنى الحياة الانسانية ، والتاريـخ ، ولكنه في المجلد الاخير يتساءل مبديا دهشته بقوله ، هــــل هناك معنى او خطة للحياة ؟ وهو يصف بغير وعي منه مأساته الخاصة ، ان في الكمال مأساة ، لان الكون الذي ينشأ عنه الكمال ناقص في حد ذاته . وهو لم يشعر اطلاقاً مثل « شيلي » براحة على ظهر هذه الارض المعتدلة المتوسطة ، ويبدو ان حاسته الدقيقة في تذوق الجمــــال والفن قد سببت له الاما من بشاعة الاشياء وقبحها اكثر من بهجة الاستمتاع في جمال الدنيا وحلاوتها . وكان يبدو احيانا ساخراً وحاداً ويقف منزويا ، سامياً ووحيدا ، ويتساءل ما هي الحكمة فيجيب ان تحلم بعين واحدة مفتوحة وان تعتزل العالم من غير ان تعاديه وان ترحب بالجمال العابر الزائل وترحم الالم العابر الزائل من غير ان تنسى زوالها وعبورها .

ولعيش الانسان عليه ان يتذكر الحياة اكثر من الموت ، وان يقبل الاشياء الواقعية القريبة كما يقبل الامــــال المثالية البعيدة . والفلسفة التي تبتعد بالانسان لا تقل اعوجاجا عن اوهام الخرافات والاساطير السماوية التي تشرد فيها عين الانسان بحثاً عن العالم الاخر ، فتفقد سحر هذا العالم الذي نعيش فيه وخمره . ويقول سنتيانا بان الحكمة تنشأ عن زوال الوهم والامــــل الكاذب ولكن هذا بداية الحكمة فقط ، كما ان الشك بداية الفلسفة ، ولكنه ليس النهاية ، اذ ان النهاية هي السعادة . والفلسفة ليست سوى وسيلة ولو اتخذنا منها غـاية نكون كالهندوسي الصوفي الذي لا غاية له في حياتـه الا تركيز بصره على سرة بطنه .

قد تكون نظرية « سنتيانا » حول آلية الكون وماديته قد اثرت على حياته ودفعت به الى الانطواء على نفسه . فبعد ان جرد العالم من الحياة راح يبحث عنها في اعماق نفسه . وعلى الرغم من انه لا يوافقنا على ذلك ، ومع اننا لا نصدقه لا يسعنا الا ان نلقي سلاحنا ونستسلم لجمال احتجاجه واستنكاره.

يقول سنتيانا ان من تعود على الايمان بالله واليوم الاخر ، يجد في المذهب المادي تحطيما لاماله ، ولكن المادي الاصيل الذي يؤمن ايماناً عميقاً بالمذهب المادي — يصبح فيلسوفاً ضاحكاً مثل ديمقريطس العظيم فيسعد بالمادية وتتحول بهجته بهـا الى اشكال جميلة مدهشة ، وتولد في نفسه عواطف مثيرة كثيرة ، ويشعر بنفس الحالة العقلية التي يشعر بها من يزور متحف التاريخ الطبيعي ، عندما يستعرض امام ناظريه الاف الفراشات في اقفاصها والاسماك — الصدفية والفيلة البائدة والغوريلا ، لقد كانت هذه جميعها تغمرها الحيـاة ولكنها فنت وانتهى امرها .

ولكن لو كانت هذه الفراشات تقدر على النطق لقالت لنا ان هـذا المتحف الطبيعي كالفلسفة المادية ليس الا معرضاً لاشياء ميتة .

٢ — وليم جيمس

لا حاجة بنا الى تذكير القارىء ان فلسفة سنتيانا التي اوجزناها فلسفة اوروبية في كل شيء باستثناء المكان الذي وضعت فيه . وان سنتيانا من اصل اسباني جاء الى امريكا وهو صغير ، وبقي في تفكيره اوروبياً روحاً وقلباً ، وهي فلسفة يطبعها طابع الاستكانة والاستسلام الذي يميز الثقافة القديمة ، ويستطيع الانسان ان يلمس هـذا في كل صفحة من صفحات كتابه « حياة العقل » ان هذا ليس صوتاً صادرا عن مواطن امريكي .

امـا في وليم جيمس فاننا نجد الصوت والحديث والعبارة التي تتسم

جميعها بالطابــع الامريكي ، وهو يستخدم في كتابته تعبيرات امريكية بسيطة مألوفة لتوضيـح افكاره وتبسيطها حتى الى رجل الشارع .

ولد وليم جيمس في نيويورك عام ١٨٤٢ ، وبعد ان امضى بضع سنوات في المدارس الامريكية الخاصة ارسل مع اخيه هنري الذي يكبره بسنة واحدة الى المدارس الخاصة في فرنسا ، وهنالك وقع على بعض الكتب في علم النفس ، واخـذ في مطالعتها . لقد امضى اخوه هنري معظم حياته في الخارج وتجنس اخيراً بالجنسية البريطانية ، وبفضل اتصاله المتواصل بالثقافة الاوروبية اكتسب نضوجاً لم يحصل عليه وليم الذي عاد الى امريكا ، التي شعر بشباب شعبهـــا وثروة امالها وفرصها المفتوحه امام الجميـع. ولم يلبث ان صعد الى ذروة الشهرة ولمع نجمه وذاع اسمه ذيوعاً كبيراً لم يشاهده فيلسوف امريكي اخر . وفي عام ١٨٧٠ نال اجازة الدكتوراه من جامعة هارفارد ، واشتغل بالتدريس فيها من عام ١٨٧٢ الى ان وافتـــه المنية عام ١٩١٠ . بدأ محاضراته الجامعية اولا في التشريح وعلم وظائف الاعضاء ثم في علم النفس واخيراً في الفلسفة . ولعـــل اعظم مؤلفاته هو اولها صدوراً «اصول علم النفس» الذي نشره في عام (١٨٩٠) وهو مزيج رائع اخاذ من التشريح ، والفلسفة والتحليل . لقد كان علم النفس عند جيمس يستقي من امه ما وراء الطبيعة ، ومع ذلك فان الكتاب سيبقى اعظم الكتب في هذا الموضوع واعظمها استيعاباً واحاطة وايجازاً .

لقد امتاز جيمس بروعة تحليله الذي انتهى به الى الاقبال على الفلسفة والعودة اخيراً الى الميتافيزيقا نفسها . وهو يقول ان الميتا فيزيقا ليست سوى مجرد محاولة للتفكير في الاشياء في وضوح ، ويعرف الفلسفة بطريقته البسيطة بقوله « انها التفكير الوحيد بالاشياء في افضل طريقة شاملة مدركة » وهكذا كانت كل مؤلفاته التي نشرها بعد عام ١٩٠٠ في ميدان الفلسفة . فبدأ في كتابه « ارادة الايمان » عام ١٨٩٧ ، واعقبه بكتاب « انواع من التجربة الدينية »

عام ١٩٠٢ . ثم انتقل الى كتبه الشهيرة في « البراجماتزم » عام ١٦٠٧ و « الكون المتعدد » عام ١٩٠٩ ، ومعنى الحقيقة » عام ١٩٠٩ . وبعد وفاته بعام واحد نشر له كتاب « بعض مسائل الفلسفة » عام ١٩١١ . واخيراً نشر له مجلد هام تحت عنوان « مقالات في المذهب التجريبي المتطرف » في عام ١٩١٢ ، وسنبدأ في دراستنا له بهذا الكتاب الاخير ، لانه صور في هذة المقالات اسس فلسفته تصويراً دقيقاً واضحاً .

٢ ــ البراجماتزم

يتجه جيمس في افكاره دائماً الى الاشياء ، واذا كان قد بدأ بعلم النفس فانـــه لم يتجه في بحثه كميتافيزيقي يحب ان يطلق نفسه في البحث عن امور سماوية روحيـة غامضة ، ولكن كواقعي ينظر الى الفكر كمرآة ضرورية للحقيقة الخارجية والطبيعية ، مهما كان الفكر مختلفاً عن المادة . والفكر مرآة افضل بكثير مما يعتقد البعض ، فهو لا يدرك او يعكس مجرد اشياء منفصلة كما ذكر هيوم ، بل يدرك ويعكس العلاقات او الصلات بين الاشياء فهو يرى كل شيء بالعلاقة او القرينة . كيف نضع معنى ونظاماً لاحساساتنا ؟ ان المعنى والنظام موجودان من قبل . وينكر جيمس على مذهب الترابط او التداعي تأليف الفكر من ظواهر منفصلة ويبين ان الظواهر الفكرية تجري في تيار متصل ، وان الفكر شيء يمتنع رده الى الظواهر الفيزيقية او الفسيولوجية . وان حالاته نوعان ، حالات يدل عليها باسماء كقولنا تعقل وتخيل واحساس وارادة ، وحالات متعدية كالعطف والاستدراك تؤلف التيار الفكري نفسه . وعلى ذلـك يجب اعتبار الدماغ آلة نقل تصل بالجسم قوى فكرية مبـاينة للقوى الجسمية .

لقد دفعت الرغبة في الوصول الى الحقيقة السريعة جيمس الى البراجماتزم او المذهب العملي . فقد كان يميل الى الوضوح بحكم دراسته في فرنسا ، ويمقت

الغموض والحذلقة التي تتسم بها اصطلاحات الميتا فيزيقا الالمانية التي اعتقد بعدم صحة ابحاثها ، وراح يبحث عن معنى يثبت فيه بطلان هذه الافكار المجردة .

ووجد ما يبتغي في عام ١٨٧٨ في مقال مشهور للفيلسوف الامريكي تشارلز بيرس بعنوان « كيف نوضح افكارنا » قال فيه ، لكي نجد معنى للفكرة ينبغي ان نفحص النتائج العملية الناجمة عن هذه الفكرة . اذ بدون هذا فان النزاع حول معنى الفكرة لا ينتهي ولا يؤدي الى فائدة . لقد وجد جيمس في قول بيرس بداية حسنة ، واحب ان يسير في طريقه ، وراح يفحص الميتافيزيقا القديمة على هذا الاساس وتوصل الى تعريف جديد للحقيقة . فالحقيقة هي القيمة الفورية للفكر ، فعوضاً عن ان نتساءل عن مصدر الفكرة ومن اين جاءت أو استمدت او ما هي مقدماتها ، فان البراجماتزم تفحص نتائجها . وهي تبتعد عن كنــه الشيء ومصدره ، وتتجـه الى نتيجة الشيء وثمرته وعقباه . فعوضاً عن ان نتساءل عن ما هو الشيء ونضيع انفسنا ونضل في البحث عن كنهه وماهيته أو حقيقته او نتساءل عن اصله ، فــان البراجماتزم تتساءل عن نتائج الشيء وبذلك تحول وجه الفكر الى العمل والمستقبل .

٣ ــ التعدد

دعنا نطبق هذه الطريقة على اقدم مشكلة في الفلسفة ، وهي وجود الله وطبيعته ، فقد وصفت الفلسفة المدرسية الله بالكمال واللانهاية والذكاء الخ وهي صفات عظيمة جليلة . ولكن ما معنى هـذا ؟ ومـا هي النتائج بالنسبة الى الناس ؟ فاذا كان الله محيطاً بكل شيء وقادراً على كل شيء ، فان هـذا يعني اننا لا نملك من امرنا شيئاً ولا نستطيع ان نغير من مجرى القضاء والمصير الذي فرضته ارادة الله وحددته وخططته منــذ البداية . وبهذا يكون المذهب « الكلفينوسي » القائل بان الخلاص بنعمه الله وليس بالاعمال ، ومذهب القدرية « الاعتقاد بالقضاء والقدر » نتائج منطقية لمثل هـذا التعريف لله . ولو طبقنا

هذه الطريقة ذاتها على الآلية الجبرية فاننا نخرج بنفس النتائج . فاذا كنا نعتقد حقاً بمذهب الجبرية فاننا سنتحول الى التصوف الهندوسي ونتخلى عن انفسنا فوراً ونستسلم للاقدار الجبارة التي تعصف بنا كريشة في مهب الرياح لا حول لنا ولا قوة . ولكننا طبعا لا نقبل مثل هذه الفلسفات الكئيبة القاتمة . لقد ارتأى العقل الانساني هذه الفلسفات لبساطتها المنطقية وتناسقها ، ولكن الحياة تتجاهلها وتغمرها وتتجاوزها .

يعتقد جيمس ان لا عيب في الفلسفة في وجوه اخرى ، ولكن هناك عيبين قاتلين لتطبيقها تطبيقا شاملا ، اولهما الا يكون مبدأ الفلسفة النهائي مخيباً لرغباتنا العزيزة وآمالنا الحبيبة . وثانيهما وهو العيب الاسوأ في الفلسفة ان تتناقض مع نزعاتنا بان لا تقدم لها هدفاً معينا تتمسك به ، وهي فلسفة لا يتناسب مبدأها مع قوانا وتنكر عليها كل مطابقة في الشؤون الشاملة ، وتفني بواعثها في ضربة واحدة ، فان مثل هذه الفلسفة ستكون ممقوتة اكثر من التشاؤم . وهذا هو السبب في فشل تبني المذهب المادي تبنياً شاملا .

فالناس يقبلون الفلسفات او ينبذونها وفقاً لحاجاتهم وطباعهم لا وفقا للحقيقة الموضوعية . وهم لا يتساءلون هل هذا منطقي ؟ بل يتساءلون عن مدى ما تتناسب الفلسفة مع حياتهم ومصالحهم .

ان تاريخ الفلسفة الى مدى كبير تعارض للطباع الانسانيه . وهذه الطباع هي التي تختار الفلسفات وتمليها . ويمكن تقسيمها الى طباع رقيقة وطباع عنيفة .. ان الطباع الرقيقة هي الطباع الدينية ، وهي تميل الى التمسك بالعقائد المحدودة الثابتة والحقائق المسلم بها . وهي تؤدي بطبعها الى حرية الارادة والمثالية والوحدانية والتفاؤل . والطباع العنيفة لا دينية ومادية وتجريبية (تسير على الحقائق فقط) وتعود بالمعرفة للاحساسات . وهي قدرية وتعددية ومتشائمة ومرتابة . وفي كل فئة فجوات من التناقض . وهناك طباع تختار جزءاً

من نظرياتها من هذه الفئة ذات الطباع الرقيقة او تلك الفئة ذات الطباع السنيفة ، فهذه الفئة ذات طباع وعقول عنيفة في تمسكها بالحقائق واعتمادها على الحواس ، ومع ذلك فهي ذات عقول رطباع رقيقة ايضاً في خوفها من مذهب الجبرية وحاجتها الى ايمان ديني ، هل من الممكن ايجاد فلسفة تستطيع التوفيق بين هذه المطالب المتناقضة وبعث الانسجام فيها ؟

يعتقد جيمس ان الايمان بتعدد الكون والالهة يقدم لنا مثل هذا الانسجام ، ليس الكون نظاماً منسجماً ومغلقاً ، بل هو معركة لتيارات مختلفة واتجاهات متعارضة واهداف متضاربة . ومن العبث ان نقول ان هذه الفوضى التي نعيش فيها ونتحرك هي من صنع ارادة واحدة متماسكة . والكون يقدم لنا كل دليل وعلامة على التناقض والتعارض في نفسه .قد يكون الاقدمون اعقل منا واحكم . وقد يكون تعدد الالهة اصدق واحق من وجود اله واحد بالنسبة الى هذا الخلاف والتعارض في الكون . لقد كان الاعتقاد بتعدد الالهة الدين الحقيقي بالنسبة الى عامة الناس دائماً ولا يزال كذلك ، والناس على صواب والفلاسفة على خطأ ، ان الاعتقاد بوحدانية الكون هو المرض الذي يصاب به الفلاسفة الذين يستبد بهم الجوع والعطش لا للوصول الى الحقيقة بل الى الوحدة، وحدة العالم ! يعتقد جيمس بتعدد الكون وعدم اكتمال صنعه وعدم امكانية ادراكه مرة واحدة على خلاف المثاليين والماديين والاخرين الذين يقدمون صورة عن الكون تسودها معالم معينة تقرر مصيره في جميع الاوقات . اما العالم المتعدد فهو عالم ذو معالم كثيرة مختلفة لا يمكن ادراكها وفحصها مرة واحدة، وينبغي دراستها بطريقة تجريبية . والقيمة في تعدد الكون تكمن في اننا نعتمد على قوانا وارادتنا لمساعدتنا على تقرير ما يواجهنا من قضايا . فهو عالم تتصارع فيه القوى وتتعارض التيارات والاتجاهات ولا استقرار فيه وتؤثر فيه الاعمال بينما فكرة العالم الواحد فكرة ميتة ، لاننا في مثل هذا العالم نقوم

كرهاً او طوعاً بتنفيذ الاعمال التي رسمها لنا الله القادر على كل شيء ، او السديم الاول . ولن تمحو دموعنا كلمة واحدة من الكتاب الابدي . هـــذا كما ان الفردية وهم وخداع في عالم كامل تام الصنع . والواقع ان انصار وحدانية الكون يؤكدون لنا باننا جميعنا اجزاء من جوهر واحد . ولكننا نستطيع ان نكتب بعض السطور في اعمالنا في العالم الذي لم يتم صنعه بعد . ويشكل اختيارنا الى مدى محدود المستقبل الذي سنعيش فيه . وفي مثل هذا العالم الذي لم يتم صنعه بعد نكون احراراً ، وهو عالم مصادفة وفرصة لا عالم قسمة وقدر . كل شيء فيه ليس نهائياً وتاماً . وقــد نغير بافعالنا كل شيء فيه . تنقصنا الادلة النظرية على حرية الارادة هذه وعلى هذا الكون المتعدد والاله المحدود ، كما تنقصنا الادلة على الفلسفات الاخرى المعارضة لهـــا ، وقد تختلف الادلة العملية من شخص لاخر ، ومن الممكن ان يجد بعض الناس نتائج افضل في حيـــاتهم من فلسفة جبرية اكثر من فلسفة حرية الارادة . ولكن عندما لا يكون الدليل حاسماً ينبغي ان تقرر مصالحنا الحيوية والاخلاقية الاختيار .

لو وجدنا حياة افضل نسير عليهـــا ، ولو كان هنالك فكرة يساعدنا الايمان بها للسير في تلك الحياة . عندئذ يكون من الافضل لنا ان نؤمن بتلك الفكرة ، ما لم يتضارب الايمان ويصطدم — مع فوائد اكثر نفعاً لنا .

والان فان الاصرار على الايمـــان بالله والتشبث بهذا الايمان يعتبر خير دليل على قيمة هذا الايمان الاخلاقية واهميته الشاملة . لقد اثار تعدد التجارب والمذاهب الدينية الكثيرة دهشة « جيمس » واسترعت اهتمامــه . وهو يصفها بعين العطف مع انه في معظم الاحيان لا يتفق معهــا ، ويرى شيئاً من الحقيقة في كل واحد منها ، ويطالب ان نفتح عقولنا لكل امل جديد واقتنع اخيراً في حقيقة عالم روحاني آخر .

ومع ذلك فهو لا يعتقد بفلسفة تقوم على التفكير والتأمل في الموت ، ولا قيمة للامور في نظره الا اذا ارشدتنا ودفعتنا الى تحسين اوضاع حياتنـــا واعمالنا على هذه الارض . وقد شغل حياته وكرس نفسه لمثل هـــذه الامور ، وكان عاملا نشيطاً في مئات الجهود التي تستهدف تحسين الحياة الانسانية ، وكان دائماً يمد يد المساعدة للناس ، ويعتقد ان في كل فرد طاقات وامكانيات كامنة تولدها الظروف المناسبة ، وكان يدعو الى استخدام هـــذه الطاقات الكامنة ، ويبدي جزعاً كبيراً من تبديد طاقات الناس في الحرب، ويدعو الى ايجاد مخرج افضل لدوافع القتال والحرب والسيادة بتوجيه الحرب على الطبيعة . لماذا لا يقدم كل انسان فقيراً كان او غنياً سنتين من حياته للدولة لا من اجل الحرب والقتـــال ضد الشعوب الاخرى بل للحرب ضد الامراض والوباء ، وتجفيف المستنقعات وري الصحارى ، وحفر الاقنيـــة وبناء مـــا تدمره الحروب .

لقد ابدى جيمس عطفه على الاشتراكية ولكنه اظهر مقته على ما فيها من حط لقيمة الفرد والعبقري ، اذ لا قيمة الا للفرد ، وكل ما عدا ذلك فهو وسيلة ويستوي في ذلـك الفلسفة . وهكذا فنحن في حاجة الى دولة تفهم ان واجبها هو خدمة الافراد رجالا ونساء ، والسهر على مصالحهم ، وفلسفة تقدم لنا هذا العالم كمخاطرة ومغامرة لا كخطة مرسومة . وتحفز النشاط برفـــع العـــالم الى مكان – نفوز فيه بانتصارات في المستقبل على الرغم ممـــا فيه من هزائم .

٤ ـ تعليق

لا حاجة بنا الى ارشاد القارىء الى العناصر الجديدة والقديمة في هـــذه الفلسفة التي استعرضناها ، بايجـــاز . فهي جزء من الحرب الحديثة بين العلم والدين ، وهي محـــاولة اخرى شبيهة بجهود « كانت » و « برجسون » لانقاذ الدين والايمان من آلية المذهب المادي . ان البراجماتزم لها جذورها في « كانت » « العقل العملي » وفي تمجيد « شوبنهور » للارادة ، وفي نظرية « دارون » بان البقاء للاصلح و وفي المذهب النفعي الذي يقيس قيمة الاشياء بمنافعها واستخدامها . وفي تقليد الفلسفة الانجليزيـــة التجريبية الاستقرائية ، واخـــيراً في اراء الحياة الامريكية .

هـــذا كما ان طريقة جيمس في التفكير طريقة امريكية . فان شهوة الامتلاك والحركة الامريكية تبدو واضحة تماماً في اسلوبه وتفكيره . وقـــد اطلق « هونيكر » على فلسفة جيمس اسم الفلسفة المادية النفعية . والواقع ان فيها شيئاً من هذا الاتجاه المادي . وكانت هذه الفلسفة رد فعل دفاعي صغير موجه ضد الميتا فيزيقا الاوروبية والعلم الاوروبي .

ان فحص الحقيقة الذي جاء به جيمس ليس جديداً طبعاً ،وقد اعترف جيمس بهذا بامانة وصراحة بقوله ، ان فلسفة البراجماتزم اسم جديد لوسائل فكرية قديمة . فان كان هذا الاختبار الجديد للحقيقة يعني بان الحقيقه هي ما قامت التجربة والاختبار على صدقها فهو مقبول ، امـــا اذا كانت تعني بان المصلحة والمنفعة الشخصية هي المقياس والاختبار لصدق الحقيقـــة فهو امر مردود ، لان المنفعة الشخصية ليست سوى منفعة شخصية .

والواقع ان ما اراد جيمس ان يفعله هو ازالة الغشاء الذي احاط بالفلسفة فقد اراد ان يعيد بطريقة جديدة وجهة النظر الانجليزية القديمة نحو النظرية والعقيدة . فقد واصل عمل بيكون في تحويل وجه الفلسفة مرة ثانية في اتجاه عالم الاشياء الذي لا مهرب منه . وستذكره الاجيال بفضل تأكيده على الناحية التجريبية وهذه الواقعية الجديدة اكثر من نظريته عن الحقيقة . وقد تعظمه الاجيال كعالم نفساني اكثر منه كفيلسوف ، وهو يعرف بانه لم يجد حلاً او جواباً للاسئلة القديمة . واعترف بهذا بصراحة بقوله انه لم يأت بجديد .

٣ — جون ديوي

١ — تعليم

لم تكن فلسفة البراجماتزم على اية حال فاسفة امريكية بكل مـا في الكلمة من معنى . فهي لم تصور الروح الامريكية العظمى الـكامنة في جنوب وغرب ولايات « نيوانجلاند » . لقد دعت الى الاخذ بالنتائج العملية والامور الواقعية ، ولكنها قفزت بعد ذلك بسرعة من الارض الى السماء . لقـد بدأت برد فعل سليم ضد الميتافيزيقا وفلسفة المعرفة وتوقع الانسان منها تقديم فلسفة عن الطبيعة والمجتمع ، ولكنها انتهت بالدعوة الى احترام كل عقيدة دينية وتبجيل كل ايمان . متى تتعلم الفلسفة ان تترك للدين تلك المسائل المحيرة حول الحياة الاخرى ، وتترك لعلم النفس مشاكل عملية المعرفـة ومصاعبها ، وتوجه نفسها بكل قواهـا الى تصوير الاهداف الانسانية وتنسيق الحيـاة الانسانية والنهوض بها .

لقد اعدت الظروف جون ديوي للقيام بهذه المهمة واشباع هذه الحاجة ،

وايجاز فلسفة تعبر عن روح امريكا الواعية المدركة المثقفة . ولد ديوي في (برلينجتون فيرمونت في عام ١٨٥٩ وتلقى دراسته هناك . وكأن الظروف قد اعدته لاستيعاب الثقافة القديمة هناك قبل الاتجاه الى الثقافة الجديدة.ولكنه سرعان ما اخذ بنصيحة « جربلي » واتجه غرباً وراح يعلم الفلسفة في جامعة « مينيسوتا » بين عامي (١٨٨٨ — ٩) انتقل بعدها الى « ميشغان بين (١٨٨٩ — ٩٤) ثم الى (شيكاجو) من (١٨٩٤ — ١٩٠٤) وعاد بعد ذلك شرقاً فاشترك في قسم الفلسفة في جامعة كولومبيا وترأس هذا القسم بعد ذلك . لقد اكسبته العشرون سنة الاولى التي عاشها في « فيرمونت » بساطة الحياة التي تميز هذه المنطقة وبقيت هذه البساطة ملازمة له ، حتى في ايام مجده وذيوع شهرته ، وتمجيد العالم له . ومكنته العشرون سنة التي قضاها في الغرب الاوسط من رؤية امريكا الفسيحة الواسعة التي يجهلها العقل الشرقي جهلا تاماً . فدرس امكانياتها وقواها وحدودها . وعندما اخذ يكتب فلسفته قدم لتلاميذه وقرائه تفسيراً وشرحاً وافياً عن تلك المنطقة . لقد كتب ديوي فلسفة القارة الامريكية كلها لا فلسفة ولاية « نيوانجلاد » وحدها ، فقد كتب ديوي فلسفة القارة كما كتب « ويتمان » شعرها .

استلفت ديوي انظار العالم لاول مرة اثناء تدريسه في جامعة شيكاجو ، حيث كشف عن افكاره في السنوات التي قضاها هناك . ولعل اعظم كتاب له هو « الديمقراطية والتعليم » حيث جمع فيه خطوط فلسفته وركزها حول مهمة النهوض بجيل افضل . لقد اعترف بزعامته جميع الاساتذة والمعلمين ، وتأثرت بنفوذه معظم المدارس والجامعات الامريكية . كما ابدى نشاطاً فائقاً وجهوداً كبيرة في تجديد المدارس في انحاء مختلفة في العالم . وامضى سنتين في الصين حاضر فيها امام المعلمين حول اصلاح التعليم . وقدم تقريراً الى الحكومة التركية

حول تجديد تنظيم المدارس الوطنية في تركيا .

لقد طالب « سبنسر » بزيادة تدريس العلوم واقلال دراسة الاداب في برامج التعليم . فجاء ديوي واضاف على ذلك وجوب تدريس العلوم بطريقة عملية تأتي عن طريق الممارسة الحقيقية النافعة للحرف والمهن ، لا طريق تعليم الكتب . اذ ينبغي ان تكون المدارس في مجتمع صناعي اشبه شيء بالمصنع الصغير ، وتقوم بتعليم طلابها بطريقة عملية ، يتدرب فيها التلاميذ باقامـــة التجارب العلمية والاستفادة من اخطاء هذه التجارب . او بعبارة اوضح تطبيق نظرية التجربة والخطأ ، وتدريس الفنون والنظم اللازمة بالنسبة الى النظام الاقتصادي والاجتماعي وان ينظر الى التعليم لا على اساس كونه مجرد اعداد للنضوج بل نمو ونهوض مستمر للعقل ، وتنوير مستمر للحياة ، اذ المدارس لا تقـــدم لنا سوى وسائل النمو العقلي ، والبقية تعتمد على مدى استيعابنا وتفسيرنا لتجاربنا ، والتعليم الحقيقي يأتي بعد تخرجنا من المدارس ويجب ان يستمر معنا طيلة حياتنا .

٢ ـــ الفلسفة الاداتية

ان ما يميز ديوي هو قبوله لنظرية التطور قبولا تاماً سافراً لا غموض فيه ولا تستر . والعقل والجسم في رأيه عضوان تطورا في التنازع على البقاء الى شكلها الحالي من اشكال احط مرتبة . لقد كانت بدايته لكل موضوع بداية تطورية دارونية .

عندما قال ديكارت ، ان طبيعة الاشياء يمكن ادراكها وتصورها ، اذا اعتقدنا بتطورها ومجيئها تدريجياً الى الوجود بسهولة اكثر من تصور انتاجها دفعة واحدة في حالة تامة كاملة ، شعر العالم تماماً بالمنطق الذي سيسوده ويوجه

حياته ، هذا المنطق الذي عبر عن نفسه تعبيراً علمياً في كتاب دارون عن «اصل الانواع» ... وعندما قال دارون عن الانواع ما قاله «جاليلو» عن الارض فقد حرر بقوله هذا الافكار التكوينية والخلقية تحريراً نهائياً ، وخرج بها عن كونها اسئلة تبحث عن اجوبة لها .

لذلك ينبغي تفسير الاشياء لا على اساس العلة والمعلول وما فوق الطبيعة بل على اساس مكانها ، وعملها في البيئة . لقد كان ديوي صريحـاً في اتجاهه الطبيعي ، واستنكر طريقة التفكير في هذا العالم باسره بشكل واسع ، واعتبر هذا الطراز من التفكير اعترافاً منا بعجزنا على السيطرة على مجرى الاشياء التي تهمنا بشكل خاص ، واظهر شكه وعدم ثقته بارادة شوبنهور والدافع الحيوي الذي تحدث عنه برجسون ، وقال انها قد تكون موجودة ولكن لا حاجة بنا الى عبادتها وتقديسها . والا له موجود في نفوسنا وليس في هذه القوى الكونية المحايدة . ويجب ان نخلص لهذه الارض التي نعيش عليها .

لقد رفض ديوي الميتافيزيقا واعتبرها صدى لعلم اللاهوت المختفي وراءها وهو في هذا يحذو حذو بيكون وهوبز وسبنسر ومل . ويعتقد ان مشكلة الفلسفة دائماً اختلاط ابحاثها بالابحاث الدينية . وهو يقول «عندما كنت اقرأ افلاطون بدأت الفلسفة تسير سيراً ضرورياً على اساس سياسي يستهدف تنظيم مجتمع عادل . ولكنها سرعان ما ضلت في احلام العالم الاخر كما ادى اهتمام الفلسفة الالمانية بالمسائل الدينية الى انحراف مجرى تطور الفلسفة . وفي الفلسفة الانجليزية رجحت المصالح الاجتماعية على ابحاث ما فوق الطبيعية . لقد دارت رحى الحرب طيلة قرنين بين المذهب المثالي الذي يمثل الدين والارستقراطية الاقطاعية وبين المذهب الحسي الذي يعبر عن الايمان بالحرية في الديمقراطية التقدمية .

ولا زالت هذه الحرب دائرة ولم تنته بعد ، وهذا يعني اننا لم نخرج تماماً من العصور الوسطى ، ولن يبدأ العصر الحديث الا اذا تبنى وجهة النظر الطبيعية في كل ميدان ، ان هذا لا يعني الهبوط بالعقل الى المادة ، ولكنه يعني ان لا نفهم الحياة والعقل بالطريقة اللاهوتية الدينية ، ولكن بالطريقة البيولوجية ، كعضو او كائن حي في بيئة تؤثر عليه ويقاومها ، يجب الا ندرس حـــالات الادراك بل ندرس طرائق التلبية . والعقـــل عضو ذو تصرف معين لا لمعرفة العالم ، والفكر اداة لتجديد التوفيق وهو عضو تماماً كالاطراف والاسنان ، والافكار اتصالات تصورية ، وتجـــارب في التوفيق ، ولكنه ليس توفيقاً طوعياً ، وليس مجرد توفيق على طريقـــة سبنسر لان التوفيق التام للبيئة يعني الموت ، والنقطة الجوهرية في جميع التلبيات هي الرغبة في السيطرة على البيئة ، وعلى الفلسفة الا تتجه الى محاولة كيفية معرفة العالم الخارجي ولكن الى محاولة معرفة كيفية السيطرة عليه والاهداف من ذلك. ليست الفلسفة تحليلا للاحساس والمعرفة (هـــذا من اختصاص علم النفس) ولكنها تنسيق بين المعرفـــة والرغبة .

ولنفهم الفكر ينبغي ان نلاحظه وهو ينشأ في مواقف خاصة ، وهو يبدأ من مواجهة الكائن الحي للمشاكل والمصاعب التي تصادفـــه فيأخـذ في تكوين افتراضات يسترشد بها ، وبعدئـــذ يخضع هـذه الافتراضات الى الملاحظة والتجربة .

والتفكير ايضاً اجتماعي ، وهو لا يحدث في المواقف المعينة فقط . لان الفرد من انتاج المجتمع تماما كما ان المجتمع من انتاج الفرد ، وفي المجتمع شبكة واسعة من العادات والعرف والتقاليد المرعية والافـكار التقليدية على استعداد لتكوين كل طفل مولود على صورة المجتمع الذي ولد فيه .

ان عمل المجتمع الوراثي هذا سريع جداً وتام الى درجة اخطأ فيها الناس فحسبوها وراثة جسدية او بيولوجية ، وحتى سبنسر اخطأ في اعتقاده ان عادات او صور الفكر خلقية وذاتية في الفرد ، بينما هي في الواقع ليست الا من انتاج وصنع الانتقال الاجتماعي للعادات العقلية من البالغين للاطفال . لقد بولغ كثيراً في دور الغريزة ولم يوجه اهتمام كبير للتربية الاولى . لقد تم تعديل غرائز كالغريزة الجنسية وغريزة حب الخصام والسيطرة عليها عن طريق التدريب والتمرين والتعليم . ومن هنا يتضح لنا ان من الممكن تعديل الغرائز الاخرى كغريزة حب الامتلاك والسيادة عن طريق التأثير الاجتماعي والتعليم . يجب ان نغير افكارنا حول ثبات الطبيعة البشرية وعدم تغييرها ، وقوة البيئة القادرة على كل شيء اذ لا حدود للنمو والتغيير . وقد لا يكون هنالك شيء مستحيل .

٣ ـ العلم والسياسة

ان النمو او التطور في نظر ديوي اعظم الاشياء وافضلها واجدرها بالاحترام والتبجيل . وقد جعل من النمو والتطور مقياسه الاخلاقي . فالنمو في نظرة هو المقياس الاخلاقي وليس الخير المطلق .

والكمال ليس هدفاً نهائياً ، والهدف في الحياة هو عملية مستمرة نحو الكمال والنضوح والتصفية والتنقية .. والانسان السيء مهما كان طيباً وخيراً في الماضي هو الانسان الذي بدأ في الانحطاط والفساد وقل نمو فضله ، والانسان الفاضل او الطيب مهما كانت اخلاقه ضعيفة من قبل يتجه في طريقه لتحسين نفسه . ان مثل هذه النظرية تجعل الانسان شديداً في الحكم على نفسه وانسانياً في الحكم على الاخرين .

ولكي تكون فاضلا لا يعني ان تكون طيعاً وانيساً ، اذ الفضل بغير مقدرة فضل اعرج، ولن تنفعنا فضائل العالم كلها اذا كان ينقصنا الذكاء والعقل. وليس الجهل نعمة وسعادة بل فقداناً للشعور واستعباداً ورقاً . والعقل وحده هو الذي يمكننا من الاشتراك في تكوين مصيرنا . وحرية الارادة هي استضاءة السلوك بالمعرفة . والطبيب او المهندس يكون حراً في افكاره او اعماله بمقدار معرفته بعلمه وعمله . قد نجد هنا المفتاح لكل حرية . ينبغي ان نضع ثقتنا في الفكر لا في الغريزة اذ كيف يمكن للغريزة التوفيق بيننا وبين البيئة المصطنعة التي اوجدتها الصناعة حولنا ، والمشاكل المعقدة التي تربكنا وتحيرنا

والطريقة الوحيدة التي تمكننا من رؤية الموقف بطريقة ثابتة شاملة هو ان نضع في اذهاننا ان المشكلة كلها تكمن في تطور العلم وتطبيقه على الحياة ، وان تعود الاخلاق والفلسفة الى حبها الاول ، حب الحكمة مرضعة الخير ، بان تعود الى مبدأ سقراط مزودة بالكثير من وسائل البحث والاختبار والتمحص .

لقد قبل ديوي الديمقراطية مخالفاً بذلك معظم الفلاسفة على الرغم من معرفته لاخطائها . اذ ان هدف النظام السياسي ان يساعد الفرد على التطور والنهوض بنفسه تطوراً تاماً . ولن نصل الى هذا الا اذا اشترك كل فرد على قدر وسعه في تقرير سياسة جماعته ومصيرها والارستقراطية والملكية اكثر مقدرة وكفاءة من الديمقراطية ، ولكنها في الوقت ذاته اكثر خطورة منها . ان ديوي لا يثق بالدولة ويفضل نظاماً متعدداً ، يقوم فيه بعمل المجتمع بقدر المستطاع جمعيات طوعية اختيارية . ويرى ان في تعدد المنظمات والاحزاب والشركات والنقابات وغيرها توفيقاً بين الفردية والعمل العام المشترك .

ولكن تجديد البناء السياسي لن يتحقق الا اذا طبقنا على مشاكلنا الاجتماعية الوسائل التجريبية والاراء التي اثبتت نجاحها في العلوم الطبيعيه .

اننا لا نزال في المرحلة الميتافيريقية في الفلسفة السياسية . ولا زلنا نقذف رؤوس بعضنا بالاراء المجردة . ولا نظفر بشيء من هذه المعركة . اذ لا نستطيع ان نعالج امراضنا الاجتماعية بهذه الاراء العامة ، ويجب ان نقابل كل مشكلة من مشاكلنا عن طريق الافتراضات الخاصة لا النظريات العامة الشاملة . وتقدم الحياة المثمر ينبغي ان يعتمد على التجربة والخطأ . لان الوسائل التجريبية تعتمد على الابحاث والتحليلات المفصلة بدلا من النظريات العامة ، وتعتمد على التحقيقات الخاصة لا على الاعتقادات العاطفية ، على الحقائق الجزئية لا على الاراء التي يتناسب حجمها مع غموضها . لا زال التفكير يسير في تعارض كبير في داخل العلوم الاجتماعية ، في الاخلاق والسياسة والتعليم . ولا زال يسير وسط تعارض نظري من النظام والحرية . والفردية والاشتراكية والثقافية والنفعية والنظام والطوعية والواقعية والتقليد . لقد انشغلت العلوم الطبيعية في الماضي بمثل هذه الاراء العامة التي كان تأثيرها العاطفي يتناقض مع وضوحها العقلي . ولكن بفضل تقدم الوسائل التجريبية اصبحت الطريقة اجراء التجربة على الموضوع وبحثه قطعة فقطعة للوصول الى حل غموضه . انا لا اعرف قضية كتب فيها النصر نهائياً لفكرة من الافكار السابقة للوسائل التجريبية . لقد اختفت هذه الافكار كلها بسبب زيادة عدم ملائمتها للحالة التي تم كشفها . وبزيادة كشف عدم ملائمتها اصبحت بلا معنى وقل الاهتمام بها . في هذا الميدان ، وفي تطبيق المعرفة الانسانية على خلافاتنا الاجتماعية ينبغي ان تعمل الفلسفة . ان الفلسفة تتشبث كغزالة اليفة في المشاكل والآراء القديمة ، حيث ترك الاهتمام والعمل المباشر للمشاكل والمصاعب الحالية للادب

والسياسة . والفلسفة اليوم تفر امام العلم ، لقد فرت العلوم الواحد تلو الاخر منها الى عالم الانتاج . وبقيت الفلسفة وحدها كأم مهجورة نضبت حيويتها وتركها اولادها . لقد انسحبت الفلسفة وابتعدت عن الاهتمام بشؤون الناس في هذا العالم ، وقبعت في زاوية متداعية تسمى فلسفة المعرفة . وهي تواجه خطر طردها كل لحظة من هذه المساكن الواهية المتداعية التي قبعت فيها . لان هذه المشاكل القديمة التي تتناولها قد فقدت معناها بالنسبة لنا . اذ اننا لا نقدم حلاً لها بل نحوم فوقها ؛ ويجب على الفلسفة كأي شيء اخر ان تتناول في بحثها الامور الدنيوية وتبقى على هذه الارض وتفوز ببقائها باضاءة الحياة وانارتها . ان ما يريد ان يعرفه اصحاب العقول الراجحة الجدية الذين لا يعملون في الحقل الفلسفي هو ماهية التعديلات التي يمكن ادخالها على التراث الفكري والتي تحتاجها الحركات الصناعية والسياسية والعلمية . ومهمة فلسفة المستقبل هي توضيح اراء الناس بالنسبة الى الكفاح الاجتماعي والاخلاقي في الوقت الذي يعيشون فيه . وان تكون مهمتها انسانية ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، واداة لتناول هذه المنازعات والمشاكل ، فالفلسفة هي التوفيق بين العوامل المتصارعة في الحياة . ان مثل هذه الفلسفة قد تنجب للعالم اخيراً فلاسفة جديرين بالحكم.

(انتهى)

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة